

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

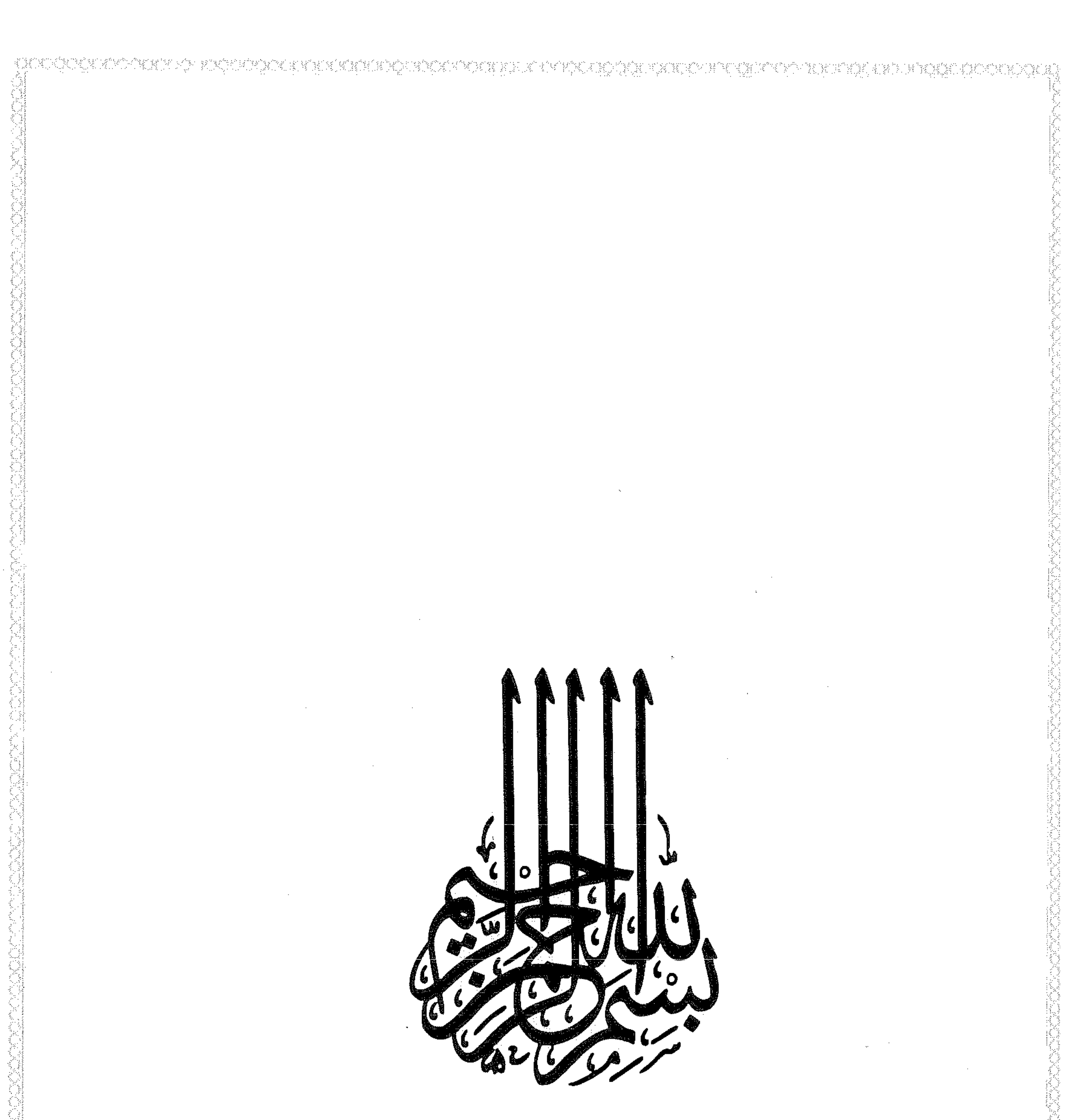
راجعه واعتنى به

د. درويش الجويدي

الجزء الثاني




وحي القلم


بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلعُ ٱلشمسُ بأنوارِها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوءِ المسمّى النهار، يولَدُ النبيُّ فيُوجِدُ في الإنسانيةِ ينبوعَ النورِ المسمّى بالدين. وليسَ النهارُ إلا يقظةَ الحياةِ تُحقّقُ أعمالَها، وليسَ الدينُ إلا يقظةَ النفسِ تُحققُ فضائلَها.

والشمسُ خلقَها اللّهُ حاملةً طابَعَهُ الإلهيَّ، في عملِهِ لِلمادةِ تُحوّلُ بِهِ وتُغيِّر، والنبيُّ يُرسلُهُ اللّهُ حاملاً مثلَ ذلك الطابعِ في عملِهِ تترقَّى فيهِ وتسمو.

وَرَعشاتُ الضوءِ منَ الشمسِ هي قصةُ الهدايةِ لِلكونِ في نورٍ مِنَ الكلام.

والعاملُ الإلهيُّ العظيمُ يعملُ في نظامِ النفسِ والأرضِ بأداتيْنِ متشابهتينِ: أجرامِ النورِ مِنَ الشموسِ والكواكبِ، وأجرامِ العقلِ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياء.

فليسَ ٱلنبيُّ إنساناً مِنَ العظماءِ يُقرأُ تاريخُهُ بالفكرِ معَهُ ٱلمنطقُ، ومعَ ٱلمنطقِ الشكّ، ثم يُدْرَسُ بكلِّ ذلك على أصولِ الطبيعةِ البشرية العامة، ولكنَّهُ إنسانٌ نجميٌّ يُقرأُ بمثلِ «التلسكوب» في الدقة، معَهُ العِلْم، ومعَ ٱلعِلْمِ الإيمان، ثم يُدْرسُ بكلِّ ذلك على أصولِ طبيعتِهِ النورانيةِ وحدَها.

والحياةُ تُنشِىءُ عِلمَ التاريخ، ولكنَّ هذه الطريقةَ في درسِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهم ـ تجعلُ التاريخَ هو يُنشىءُ عِلْمَ الحياة، فإنَّما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقوِّمُها في فلَكِها الأخلاقيّ، ويجذبُها إلى الكمالِ في نظامٍ هو بعينِهِ صورةٌ لِقانونِ الجاذبيةِ في الكواكب.

ويجيءُ النبيُّ فتجيءُ الحقيقةُ الإلهيةُ معَهُ في مثلِ بلاغةِ الفنِّ البيانيّ، لِتَكُونَ أقوى أثراً، وأيسرَ فَهْماً، وأبدعَ تمثيلاً، وليسَ عليها خِلافٌ مِنَ الحِسّ. وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ بأكملِها، هوَ الشخصُ المفسِّرُ إذا تعسَّفَ[1] الناسُ الحياةَ لا يدرونَ أينَ يؤُمُّونَ

(١) تعسّف: اشتط، جاوز الحدّ المعقول.

منها، ولا كيف يتَهدَّون فيها، فتضطربُ الملايينُ من البشريةِ ٱضطرابَها فيما تنقبضُ عنه وتتهالكُ فيهِ من أطماعِ الدنيا، ثم يُخْلَقُ رجلٌ واحد لِيكونَ هو التفسيرَ لِمَا مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةِ في قالَبٍ مِنَ الإنسانِ العاملِ المرئيِّ، أبلغَ مِمّا تظهرُ في قصةٍ متكلِّمةٍ مروية.

وما الشهادةُ لِلنبوّةِ إلّا أنْ تكونَ نفسُ النبيّ أبلغَ نفوسِ قومِه، حتى لَهُوَ في طباعِهِ وشمائِلِهِ طبيعةٌ قائمةٌ وحدَها، كأنَّها الوضعُ النفسانيُّ الدقيقُ الذي يُنْصَبُ لِتصحيحِ الوضعِ المغلوطِ لِلبشريةِ في عالمِ المادةِ وتنازعِ البقاء[١]. وكأنّ الحقيقةَ الساميَةَ في هذا النبيّ تُنادي الناس: أنْ قَابِلَوا على هذا الأصلِ وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غلَطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانية.

* * *

ومن ثَمَّ فنبيُّ البشريةِ كلِّها مَنْ بُعِثَ بالدينِ أعمالاً مفصَّلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلَها العمليَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ النفسِ على مَيْزةٍ وبَصيرة، ويَدَعُ لِلحياةِ عقلَها العِلْميَّ المتجدد المتغيرَ تنظِّمُ بِهِ أحوالَ الطبيعةِ على قصْدٍ وهُدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أخصِّ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدِّي تأديتَهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنَّما هُوَ نَبعٌ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النورِ في السماء.

وكلُّ ذلك تراهُ في نفس محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعِها أبلغُ الأنفسِ قاطبة، لايُمكنُ أنْ تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولوِ اجتمعَتْ فضائلُ الحكماءِ والفلاسفةِ والمتألِّهينَ وجُعِلَتْ في نِصَابٍ واحد ـ ما بلغَتْ أنْ يجيءَ منها مثلُ نفسهِ ﷺ. ولَكأنَّما خرَجتْ هذه النفسُ من صيغةٍ كصيغةِ الدُّرَّةِ في عِرْقِه. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبَّرْتَها رأيْتَها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتَضْحَى.

وتلك هي الشهادةُ لهُ ﷺ بأنَّهُ خاتمُ الأنبياء، وأنَّ دينَه هو دينُ ٱلإنسانيةِ ٱلأخير، فهذا ٱلدينُ في مجموعِهِ إنْ هو إلّا صورةُ تلك النفسِ العظيمةِ في مجموعِها: صلابتُهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابتِ، لا بمقدارِ ٱلإنسانِ المتغيِّرِ الذي

---

(١) تنازع البقاء: صراع البقاء.

يكونُ عندَ سَببٍ جَبَلاً صَلْداً[1] يَشْمَخ[2]، وعندَ سببٍ آخرَ ماءً عذْباً يجري.

وهو دينٌ يعلو بِالقوةِ ويدعو إليها، ويُريدُ إخضَاعَ الدنيا وحُكْمَ العالم، ويستفرغُ همَّهُ في ذلك، لا لإعزازِ ٱلأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكنْ لِلارتفاع بالأضعفِ إلى ٱلأقوى، وفرقٌ ما بينَ شريعتِهِ وشرائعِ ٱلقوة، أنَّ هذهِ إنَّما هي قوةُ سيادةِ الطبيعةِ وتحكُّمِها، أمَّا هو فقوةُ سيادةِ الفضيلةِ وتغلُّبِها، وتلك تعملُ لِلتفريق، وهو يعملُ لِلمساواة، وسيادةُ الطبيعةِ وعملُها لِلتفريقِ هما أساسُ العبودية، وغلبةُ الفضيلةِ وعملُها لِلمساواةِ هما أعظمُ وسائِلِ ٱلحريَّة.

ومن هنا كانَ طبيعيًّا في ٱلإسلامِ ما جاءَ بهِ مِن أنهُ لا فضيلةَ إلَّا وهو يطبعُ عليها صورةَ ٱلجنةِ بنعيمِها ٱلخالد، ولا رذيلةَ إلّا وهو يضعُ عليها صورةَ ٱلنارِ الأبديَّةِ وَقُودُها الناسُ والحجارة، فلا تنظُر العينُ المسلمةُ إلى أسبابِ الحياةِ نظرةَ الفكرِ المنازع: يحرَصُ على ما يكونُ لَهُ ويَشْرَهُ[3] إلى ما ليسَ لَه، ويمكُرُ الحيلةَ، ويُبدِعُ وسائلَ الخِداع، ويَزيدُ بِكلِّ ذلك في تعقيد الدنيا ـ بلْ نظرةُ القلبِ المُسالم: يَخلعُ الدنيا ويَسخو بكلِّ مضنونٍ فيها، فيعفُّ عن كثير، ويعرفُ الإنسانيةَ ويطمعُ في غاياتِها العُلْيا، فيعفو عن كثير، ويُدرِكُ أنَّ الحلالَ وإنْ حلَّ فوراءَهُ حسابُه، وأنَّ الحرامَ وإنْ غرَّ ليسَ إلَّا تَعلُّلَ[4] ساعةٍ ذاهبةٍ ثم من ورائِهِ عِقابُ الأبد.

ويخرجُ من ذلك أنْ يكونَ أكبرُ أغراضِ ٱلإسلامِ هو أنْ يجعلَ من خشيةِ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ قانونَ وجودِ ٱلإنسانِ على ٱلأرض، فمن أيِّ عِطْفيهِ[5] التفتَ هذا الإنسانُ وجدَ على يَمْنتِهِ ويَسْرتِهِ مَلَكَينِ مِنْ ملائكةِ ٱللهِ يكتبانِ أعمالَهُ بخيرِها وشرِّها، فهو كالمتَّهَمِ المسترابِ[6] بهِ في سياسةِ النفس: لا يمشي خُطوةً إلَّا بينَ جاسوسَيْنِ يُحصيانِ[7] عليهِ حتى أسبابَ ٱلنِّية، ويَجمعانِ منهُ حتى نَزَواتِ الكبِد، ويُترجمانِ عنه حتى معانِيَ النظر.

وإذا قامَتْ هذه المحكمةُ الملائكيَّةُ وتقَرَرَتْ في اعتبارِ النفس، قامَ منها على النفسِ شرعٌ نافذٌ هو قانونُ الإرادةِ المميِّزة، وتُريدُ ٱلحسناتِ وتعملُ لها، وتخشَى

---

(١) صلداً: قاسياً.
(٢) يشمخ: يتسامى.
(٣) يشره: يسعى للحصول على ما ليس له بطمع.
(٤) تعلّل: تمني النفس.
(٥) عطفيه: جنبيه.
(٦) المستراب: الشَّاك.
(٧) يحصيان: يعدّان.

السيئاتِ وتَنفرُ منها، فإذا معاني الجسدِ يحكمُ بعضُها بعضاً، لا لتحقيقِ الحكومةِ والسلطة، ولكنْ لِتحقيقِ الخيرِ والمصلحة، وإذا نواميسُ الطبيعةِ المجنونةِ في هذا الحيوان، قد نهضَتْ إلى جانبِها نواميسُ الإرادةِ الحكيمةِ في الإنسان، وإذا كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في النفسِ هي من صاحبِها مادةُ تُهمةٍ عندَ قاضيها في محكمتِها، وإذا كلُّ ما في الإنسانِ وما حولَ الإنسان، لا يُرادُ منه إلّا سلامُ النفسِ في عاقبتِها؛ وإذا معنى السلامِ هو المعنى الغالبُ المتصرِّفُ بالإنسانيةِ في دنياها.

وكلُّ أعمالِ الإسلامِ وأخلاقِهِ وآدابِه، فتلك هي غايتُها، وهذه هي فلسفتُها؛ لا يُقررُها لِلإنسانيةِ حَسْبُ، بل يَغْرِسُها في الوراثةِ غَرْساً بالاعتيادِ والمِرانِ الدائم، لِتكونَ عِلْماً وعملاً، فتُمكِّنَ لِسلامِ النفسِ بينَ الأسلحةِ المسدَّدةِ إليها من ضروراتِ الحياة، في أيدي الأعداءِ المتألِّبةِ[1] عليها من شَهَواتِ الغريزة.

فليسَ يعمُّ السلامُ إلّا إذا عمَّ هذا الدينُ بأخلاقِهِ فشَملَ الأرضَ أو أكثرَها؛ فإنَّ قانونَ العالمِ حينئذٍ يُصبحُ منتزَعاً من طبيعةِ التراحُم، فإمّا انتسخَ بهِ قانونُ التنازعِ الطبيعيّ، وإما كَسَرَ من شِرّتهِ؛ ويُولدُ المولودُ يومئذٍ وتُولَدُ معَهُ الأخلاقُ الإنسانية.

* * *

تقريرُ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفسِ حتى مثقالِ الذَّرةِ مِنَ الخيرِ والشرّ، وضبطُ ذلك برياضةٍ عمليةٍ دائمةٍ مفروضةٍ على الناسِ جميعاً هذا هو أساسُ العقيدةِ الإسلامية؛ ولا صلاحَ لِلإنسانيةِ بغيرِهِ يردُّها إلى سبيلِ قَصْدِها[2]، فإنَّ من ذلك تكونُ الصفةُ العقليةُ التي تَغْلِبُ على المجتمع، وتُجانِسُ بينَ أفرادِه، فتوجِّهُ الإنسانيةَ كلَّها نحوَ الممكنِ من كمالِها، ولا تزالُ تُوجِّهُها نحوَ ما هو أعلى، وتحكمُ فاسدَها بصالِحها، وتأخُذُ عاصيَها بمطِيعِها، وتجعلُ الشرفَ الإنسانيَّ غرضَها الأول، لأنَّ اللَّهَ الحقَّ غرضُها الأخير؛ فيُصبحُ المرء ـ وهذا دينُه ـ كلّما تقدَّمَ بهِ العمرُ كَمُلَ فيهِ اثنان: الإنسان، والشريعة. ولا يعودُ طالبُ السعادةِ النفسيةِ في الدنيا كالمجنونِ يجري وراءَ ظلِّهِ لِيُمسِكَه؛ فلا يُدركُ في الآخرِ شيئاً غيرَ معرفتِهِ أنَّهُ كانَ في عملٍ باطلٍ وسعيٍ ضائع.

والإسلامُ يحرصُ أشدَّ الحِرْصِ وأبلغَهُ على تقريرِ ذلك المعنى الإلهيّ

---

(١) الأعداء المتألبة: المجتمعين المنقضين على من يتخذونه عدواً.

(٢) قصدها: غايتها.

العظيم، لا بالمنطق، ولكنْ بالعملِ؛ ثمَّ في النفسِ وعواطفِها، لا في العقلِ وآرائهِ؛ ثم على وجهِ التعميم، دونَ ٱلاستثناءِ وٱلخصوص؛ وذلك هو سِرُّ مشقَّتِهِ على النفسِ بما يفرضُهُ عليها؛ فإنَّ فلسفتَهُ أنَّ هذه النفسَ هي أساسُ العالم، وأنَّ النظامَ الخُلقيَّ هو أساسُ النفس، وأنَّ العملَ الدَّائمَ هو أساسُ النظام، وأنَّ روحَ العملِ الدائمِ تكونُ فيما يشُقُّ بعضَ المشَقةِ ولا يبلغُ العُسْرَ والحَرَج[1]، كما تكونُ فيما يَسْهُلُ بعضَ السهولةِ ولا يبلغُ الكَسَلَ والإهمال.

ولِلنفسِ وجهان: ما تُعلِن، وما تسِرّ؛ ولا صدقَ لإعلانِها حتى يصدقَ ضميرُها، ولا صلاحَ لِجَهْرِها[2] حتى يصلُحَ ٱلسرُّ فيها، ولا يكونُ الإنسانُ ٱلاجتماعيُّ فاضلاً بمَشْهَدِهِ[3] حتى يكونَ كذلك بغَيْبِه.

ولِلعالَم كذلك وجهان: حاضرُهُ الذي يمرُّ فيه، وآتيهِ الذي يمتدُّ لَهُ؛ ولا يُفلِحُ حاضرٌ منقطعٌ لا يُوَرِّثُ ما بعَدهُ كما وَرِثَ قبلَه، وما حاضرُ ٱلإنسانيةِ إلَّا جزءٌ من عملِ الناسِ في ٱستمرارِ فضائلِهم باقيةً نامية.

ولِلنظام أيضاً وجهان: نظامُ الرغبةِ على الطاعةِ وٱلاطمئنانِ لها، ونظامُ الرغبةِ على الخشيةِ[4] والنَّفْرةِ منها. ولا يستقيمُ شأنٌ ليسَ أساسُهُ ٱلطاعةَ في ٱلنفس، ولا يستمرُ نظامٌ عليهِ خِلافٌ من فِكْرِ العاملِ به.

ولِلعملِ الدائم طريقتان: إحداهما طريقةُ ٱلجادِّ يعملُ للعاقبةِ يستَيْقِنُها، فلا يجدُ مِمَّا يشقُّ عليهِ إلَّا لذةَ المغالَبةِ لِلنصر: كلُّ مرارةٍ من قِبلِهِ هي حلاوةٌ فيهِ من بَعد، ولا يعرفُ لِلمِحْنةِ[5] يُبتلى بها إلّا معناها الحقيقيَّ وهو إيقاظُ نفسِه، فيُصبحُ الصبرُ عندَهُ كصبرِ المُحبِّ على أشياءَ مِمَنْ تُحبُّه؛ صبرٌ فيهِ مِنَ السحرِ ما يكسو ٱلحِرْمانُ في بعضِ الأحيانِ خيالَ ٱلاستمتاع، ويُذيقُ النفسَ في العجزِ عن بعضِ أغراضِها ـ لذةً كلذةِ إدراكِه.

* * *

تلك هي فلسفةُ ٱلإسلام؛ لا قِوامَ لِلأمرِ فيها ولا مِساكَ لَهُ إلَّا بتقريرِ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفس، ووضعِ طابَعِ الجنَّةِ على أعمالِ الجنَّة، وطابعِ النارِ على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدّة.
(٢) لجهرها: لإعلانها.
(٣) بمشهده: بحضوره.
(٤) الخشية: الخوف.
(٥) المحنة: المصيبة.

أعمالِ النارِ ـ وحياطةِ كلِّ فردٍ مِنَ الناسِ حياطةً رياضيةً عمليَّةً بين الساعةِ والساعة، بل بين الدقيقةِ والدقيقة، بما يكلَّفُ من أعمالِ جسمِهِ وحواسِّه، ثم أعمالِ قلبِهِ ونيتِهِ ـ وتعظيمِ الشخصيةِ الروحيَّةِ دونَ الشخصيةِ المادية، فلا يحاولُ كلُّ إنسانٍ أنْ يجعلَ بطنَهُ في حجْمِ مملكةٍ أو مدينةٍ أو قرية، بما ينتقِصُ[1] من حقوقِ غيرِه؛ بل تتَّسعُ ذاتيةُ كلِّ فَردٍ بِما يجبُ لَهُ على المجتمعِ مِنَ الواجباتِ الإنسانيَّة؛ وبهذا لا بغيرِهِ تتعيَّنُ مقاييسُ الأخلاقِ في ٱلأرض: بٱلمصلحةِ لا بٱللذة؛ فلا يقعُ ٱلخطأُ ولا ٱلتزوير، وتنحلُّ المشكلةُ الاجتماعيةُ ما دامَتِ ٱلحياةُ لا تجدُ من أهلِها كلَّ ساعةٍ عُقَداً فيها.

وٱلاستيلاء بذلك المعنى على العقلِ والعاطفةِ هو وحدَهُ ٱلطريقةُ لإنشاءِ طبيعةِ ٱلخيرِ في ٱلناسِ على نَسَقِها ٱلطبيعيّ، كما أنَّهُ هو وحدَهُ ٱلطريقةُ لِتطهيرِ التاريخِ الإنسانيِّ من أوبائِهِ ٱلاقتصادية[2]، التي جعلَتْهُ كأنَّما هو تاريخُ الأسنانِ والأضراس، وتركَتِ ٱلناسَ يهدمُ بعضُهُم بعضاً، كما يهدُمُ الجارُ حائطَ جارِهِ لِيوسِّعَ بيتَه.

وأساسُ ٱلعملِ في ٱلإسلام إخضاعُ ٱلحياةِ لِلعقيدة، فتجعلُها العقيدةُ أقوى مِنَ ٱلحاجة، فيكونُ الفقيرُ مُعْدَماً[3] ويتعفَّف، ويكونُ الغنيُّ موسَراً ويتصدَّق، ويكونُ ٱلشَّرِهُ طامعاً ويُمْسِك، ويكون ٱلقويُّ قادراً ويُحْجِم[4]، وكما قالَ العربُ في تحقيقِ ناموسِ الأنَفةِ والحميَّةِ وغلبتِهِ على الناموسِ ٱلاقتصاديّ: «تجوعُ ٱلحرةُ ولا تأكلُ بِثَدْيَيْهَا».

***

تُريدُ ٱلإنسانيةُ ٱمتداداً غيرَ ٱمتدادِها ٱلتجاريِّ في ٱلأرض، وتحتاجُ إلى معنًى يقودُ إنسانَها غيرَ ٱلحيوانِ ٱلذي فيه؛ وإذا قادَ ٱلغرابُ قوماً فإنَّما هو ـ كما قال شاعرُنا ـ يمرُّ بهم على جِيَفِ الكلاب... والإنسانيةُ ٱليومَ في مثلِ ليلٍ حَوْشيٍّ[5] مظلم ٱختلطَ بعضُهُ في بعض، وليسَتْ معاني ٱلإسلام إلَّا الإشراقَ الإلهيَّ على هذه الكَثَافةِ ٱلماديةِ ٱلمتراكِمة، وإذا رُفِعَ ٱلمِصباحُ لم تجدِ ٱلظلامَ إلَّا وراءَ الحدودِ التي تنتهي إليها أشعتُه.

---

(١) ينتقص: يأخذ.

(٢) أوبائه الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعوز والجوع...

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالاً.

(٤) يحجم: يمسك.

(٥) حوشي: متوحش.

وقد علمْنا من طبيعةِ النفس أنَّ إنسانيةَ ٱلفردِ لا تعظُمُ وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحَها ٱلصادقَ وتحزنُ حزنَها ٱلسَّامي ـ إلَّا أنْ تعيشَ في محبوب؛ فإنسانيةُ العالَمِ لا تكونُ مثلَ ذلك إلَّا إذا عاشَتْ في نبيِّها ٱلطَّبيعيّ، نبيٍّ أخلاقِها الصحيحةِ وآدابِها العاليةِ ونظامِها ٱلدقيق؛ وأين تجدُ هذا المحبوبَ الأعظمَ إلَّا في محمدٍ ودينِ محمد؟

وعجيبٌ أنْ يجهلَ المسلمونَ حِكْمةَ ذكرِ النبيّ العظيم خمسَ مراتٍ في ٱلأذانِ كلَّ يوم، يُنادَى بٱسمِهِ ٱلشريفِ ملْءَ ٱلجوِّ؛ ثم حكمةَ ذكرِهِ في كلِّ صلاةٍ من الفريضة والسُّنَّةِ والنافلةِ[1]، يُهْمَسُ بٱسمِهِ الكريم ملْءَ النفس! وهلِ ٱلحكمةُ من ذلك إلَّا الفرضُ عليهم ألَّا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يوماً واحداً مِنَ التاريخ، ولا جزءاً واحداً مِنَ اليوم؛ فيمتدُّ الزمنُ مهما ٱمتدَّ وٱلإسلامُ كأنَّه على أوَّله، وكأنَّهَ في يومِهِ لا في دهرٍ بعيد؛ وٱلمسلمُ كأنَّهُ مع نبيِّهِ بينَ يديهِ تبعثُهُ روحُ ٱلرسالة، ويسطعُ في نفسِهِ إشراقُ ٱلنبوَّة، فيكونُ دائماً في أمرِهِ كالمسلمِ الأولِ الذي غيَّر وجهَ الأرض؛ ويظهرُ هذا المسلمُ الأولُ بأخلاقِهِ وفضائلِهِ وحَمِيَّتِهِ في كلِّ بقعةٍ مِنَ الدنيا مكانَ إنسانِ هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإنَّ كلَّ أرضٍ إسلاميَّةٍ يكادُ لا يظهرُ فيها إلَّا إنسانُها التاريخيُّ بجهلِهِ وخُرافاتِهِ وما وَرِثَ مِنَ القِدَم؛ فهنا المسلمُ الفرعونيّ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثنيّ، وفي بلدٍ المسلمُ المجوسيّ[2]، وفي جهةٍ ٱلمسلمُ المعطِّل. . . وما يُريدُ الإسلامُ إلَّا نفسَ المسلمِ الإنسانيّ.

أيُّها ٱلمسلم!

لا تنقطعْ من نبيِّكَ ٱلعظيم، وعِشْ فيهِ أبداً، وٱجعلْهُ مثلَكَ الأعلى؛ وحينَ تذكُرُهُ في كلِّ وقتٍ فكُنْ كأنَّكَ بينَ يديه؛ كُنْ دائماً كٱلمسلمِ ٱلأول؛ كُنْ دائماً ٱبنَ المُعْجِزة.

---

(١) النافل من كل شيء: الزائد.

(٢) المجوسي: عابد النار.

حقيقةُ المسلم

لا يعرفُ التاريخُ غيرَ محمدٍ ﷺ رجلاً أفرغَ ٱللَّهُ وجودَهُ في ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ كلِّه؛ كما تنصبُّ ٱلمادَّةُ في ٱلمادة، لِتمتزجَ بها فتُحوِّلَها، فتُحدِثُ منها ٱلجديد، فإذا ٱلإنسانيةُ تتحوَّلُ بهِ وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها فما تبرحُ هذه الإنسانيةُ تنمو بِهِ وتتحوَّل.

كانَ ٱلمعنى الآدميُّ في هذه الإنسانيَّةِ كأنَّما وَهَنَ[1] من طولِ ٱلدهرِ عليه، يَتحيَّفُهُ[2] ويمحُوهُ ويتَعَاوَرُهُ[3] بالشرِّ والمنكرِ؛ فٱبْتَعثَ ٱللَّهُ تاريخَ العقلِ بآدمَ جديدٍ بدأتْ بهِ ٱلدنيا في تَطَوُّرِها الأعلى من حيثُ يرتفعُ ٱلإنسانُ على ذاتِه، كما بدأتْ من حيثُ يُوجَدُ الإنسانُ في ذاتِه؛ فكانَتِ ٱلإنسانيَّةُ دهرَها بينَ ٱثنين: أحدُهما فَتحَ لها طريقَ المجيءِ مِنَ الجنة، والثاني فَتحَ لها طريقَ العوْدةِ إليها: كانَ في آدمَ سرُّ وجودِ ٱلإنسانيَّة، وكان في محمدٍ سرُّ كمالِها.

***

ولهذا سُمِّي الدينُ (بالإسلام)؛ لأنَّهُ إسلامُ النفسِ إلى واجبِها، أي إلى الحقيقةِ مِنَ الحياةِ الاجتماعيَّة؛ كأنَّ المسلمَ يُنكِرُ ذاتَهُ فيُسْلِمُها إلى الإنسانيةِ تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها في كمالِها ومعاليها؛ فلا حظَّ لَهُ هو من نفسِهِ يُمسِكُها على شهواتِه ومنافعِه، ولكنْ لِلإنسانيةِ بها ٱلحظّ.

وما ٱلإسلامُ في جملتِهِ إلّا هذا ٱلمبدأ: مبدأُ إنكارِ ٱلذاتِ و(إسلامُها) طائعةً على ٱلمَنْشَطِ[4] والمَكْرهِ لِفُروضِها وواجباتِها؛ وكلَّما نَكَصَتْ[5] إلى منْزَعِها ٱلحيوانيّ، أسلمَها صاحبُها إلى وازِعِها[6] الإلهيّ؛ وهو أبداً يَرُوضُها[7] على هذه

---

(١) وهَن: ضعُف.
(٢) يتحيَّفه: يظلمه.
(٣) يتعاوره: يتجاذبه، يتناوشه.
(٤) المنشط: الجدّ والحيوية والحماس.
(٥) نكصت: تراجعت.
(٦) وازعها: رادعها.
(٧) يروضها: يدربها.

الحركةِ ما دامَ حيًّا؛ فينتزعُها كلَّ يومٍ من أوهامِ دنياها، لِيضعَها ما بينَ يَدَيْ حقيقتِها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كلَّ يومٍ وليلةٍ خَمسَ مرّاتٍ مُسماةٍ في اللغةِ خَمْسَ صلوات، لا يكونُ الإسلامُ إسلاماً بغَيرِها؛ فلا غروَ[1] وَكانَتِ ٱلصلاةُ بهذا المعنى كما وصفَها ٱلنبيُّ ﷺ هي عِمادَ الدين.

* * *

بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلع شمسٍ من حياةِ ٱلمسلم صلاة، أيْ إسلامُ النفسِ إلى ٱلإرادةِ ٱلاجتماعيَّةِ الشاملةِ[2] القائمةِ على ٱلطاعةِ لِلفرْضِ ٱلإلهيّ، وإنكارُ لِمعانيها ٱلذاتيَّةِ ٱلفانيةِ التي هي مادةُ الشرِّ في ٱلأرض، وإقرارُها لحظاتٍ في حَيِّزِ الخيرِ ٱلمحضِ ٱلبعيدِ عنِ ٱلدنيا وشهواتِها وآثامِها ومنكَراتِها. ومعنى ذلك كلِّهِ تحقيقُ ٱلمسلمِ لِوجودِ روحِهِ؛ إذْ كانَت أعمالُ الدنيا في جملتِهَا طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواحُ وتَتبعثرُ، حتى تَضِلَّ روحُ الأخِ عن روحِ أخيهِ فتُنكرُها ولا تعرفُها!

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ ٱلحالةِ ٱلعقليَّةِ ٱلتي جاءَ ٱلإسلامُ لِيَهْديَ ٱلإنسانيَّةَ إليها: حالةِ السلامِ الروحانيِّ الذي يجعلُ حربَ الدنيا المهلكةَ حرباً في خارجِ النفس لا في داخلِها، ويجعلُ ثروةَ الإنسانِ مُقَدَّرةً بما يعاملُ ٱللَّهُ والإنسانيةُ عليه؛ فلا يكونُ ذهبُه وفِضّتُه ما كَتبَتْ عليهِ ٱلدول: «ضُربَ في مملكةِ كذا»، ولكنْ ما يراهُ هو قد كُتِبَ عليه: «صُنِعَ في مملكةِ نفسي»؛ ومن ثَمّ لا يكونُ وجودُهُ ٱلاجتماعيُّ لِلأخذِ حَسْبُ، بلْ لِلعطاءِ أيضاً، فإنَّ قانونَ ٱلمالِ هو ٱلجمع، أمّا قانونُ العملِ فهو ٱلبذل.

بٱلانصرافِ إلى ٱلصلاةِ وجَمْعِ ٱلنيَّةِ عليها، يستشعرُ المسلمُ أنَّهُ قد حطَّمَ ٱلحدودَ الأرضيةَ المحيطةَ بنفسِهِ مِنَ الزمانِ والمكان، وخَرَجَ منها إلى رُوحانيَّةٍ لا يُحدُّ فيها إلَّا باللَّهِ وحدَه.

وبٱلقيامِ في ٱلصلاة، يُحقِّقُ ٱلمسلمُ لِذاتِهِ معنى إفراغِ ٱلفكرِ ٱلسامِي على ٱلجسمِ كلِّه، لِيمتَزِجَ بجلالِ ٱلكونِ ووقارِه، كأنَّهُ كائنٌ منتَصبٌ معَ ٱلكائناتِ يسبِّحُ بحمدِهِ.

وبالتولِّي شَطْرَ القِبلةِ[3] في سَمْتِها[4] ٱلذي لا يتغيَّرُ على ٱختلافِ أوضاعِ

---

(١) لا غرو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها ولثوابها.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظهرها.

ٱلأرض، يَعرفُ ٱلمسلمُ حقيقةَ ٱلرمزِ لِلمركزِ الثابتِ في روحانيَّةِ ٱلحياة؛ فيَحملُ قلبُهُ معنى ٱلاطمئنانِ وٱلاستقرارِ على جاذبيَّةِ الدنيا وقَلَقها.

وبٱلركوعِ وٱلسجودِ بينَ يَدَي ٱللَّه، يُشْعِرُ ٱلمسلمُ نفسَهُ معنى ٱلسموِّ والرِّفعةِ على كلِّ ما عدا الخالقَ من وجودِ الكون.

وبالجلسةِ في الصلاةِ وقراءةِ التحيَّاتِ الطيِّبات، يكونُ ٱلمسلمُ جالساً فوقَ الدنيا يحمَدُ اللَّهَ ويُسلِّمُ على نبيِّهِ وملائكتِهِ ويشهَدُ ويدعو.

وبالتسليمِ ٱلذي يَخرجُ بِهِ مِنَ الصلاة، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً: من جهتي السلامِ والرحمة.

هي لَحظَاتٌ مِنَ الحياةِ كلَّ يوم في غيرِ أشياءِ هذه الدنيا؛ لِجمعِ ٱلشهواتِ وتقييدِها بينَ وقتٍ وآخرَ بسلاسلِها وأغلالِها من حركاتِ الصلاة، ولِتمزيقِ الفناءِ خمسَ مراتٍ كلَّ يومٍ عنِ النفس؛ فيرَى المسلمُ من ورائِهِ حقيقةَ ٱلخلود، فتشعرُ ٱلروحُ أنَّها تنمو وتَتَّسعُ.

هي خمسُ صَلوات، وهي كذلك خمسُ مرَّاتٍ يَفْرَغُ فيها ٱلقلبُ مِمَّا ٱمتلأ بِهِ مِنَ الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة».

* * *

لم يكن ٱلإسلامُ في حقيقتِهِ إلَّا إبداعاً لِلصِّيغةِ ٱلعمليَّةِ التي تنتظمُ ٱلإنسانيةُ فيها؛ ولهذا كانتْ آدابُهُ كلُّها حُرَّاساً على ٱلقلبِ المؤمن، كأنَّها ملائكةٌ مِنَ ٱلمعاني؛ وكانَ ٱلإسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقَعَ بِهِ التطوُّرُ في عالَم الغريزةِ، فنَقَلَهُ إلى عالمِ ٱلخُلُق، ثُمَّ ٱرتقى بالخُلُقِ إلى الحقِّ، ثم سمَا بالحقِّ إلى الخَيرِ العامّ؛ فهو سموٌّ فوقَ الحياةِ بثلاثةِ طبقَات، وتدرُّجٌ إلى الكمالِ في ثلاثِ منازل، وٱبتعادٌ عنِ الأوهامِ بمسافةِ ثلاثِ حقائق.

وبتلك الأعمالِ والآدابِ كانتِ ٱلدنيا المُسْلمةُ التي أسَّسها النبيُّ ﷺ دنيا أسلمَتْ طبيعتُها، فأصبحَتْ على ما أرادَ المسلمونَ لا ما أرادَتْ هي؛ وكأنَّها قائمةٌ بنواميسَ من أهليها، لا على أهليها؛ وكانَ ٱلظاهرُ أنَّ الإسلامَ يغزو الأممَ بالعربِ ويفتَتِحُها، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً مِنَ الدنيا كانَ يُحاربُ سائرَ أقاليمِ الأرضِ بالطبيعةِ الأخلاقيةِ ٱلجديدةِ لِهذا الدين.

وكأنَّ اللَّهَ ـ تعالى ـ ألقى في رمالِ الجزيرةِ روحَ البحر، وبعثَها بَعْثَهُ الإلهيَّ

لِأمرِهِ، فكانَ النبيُّ ﷺ هو نقطةَ المدِّ التي يفورُ البحرُ منها، وكانَ المسلمونَ أمواجَهُ التي غُسِلَتْ بها الدنيا...

لهذا سمعَ ٱلمسلمونَ الأوّلونَ كلامَ ٱللَّهِ - تعالى - في كتابه، وكلامَ رسولِهِ ﷺ، لا كما يسمعونَ ٱلقولَ، ولكنْ كما يتلقَّوْنَ ٱلحكمَ النافذَ المقْضيَّ[1]؛ ولم يجدوا فيهِ البلاغةَ وحدَها، بل رَوْعةَ أمرِ السماءِ في بلاغة؛ واتّصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتَّصلُ إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصلُ الأمواجُ بقوةِ المدّ، ثم كما يُمِدُّ بعضُها بعضاً في قوةٍ واحدة.

وحقَّقوا في كمالِه ﷺ وجودَهُم ٱلنفسيّ؛ فكانوا من زَخارِفِ الحياةِ وباطلِها في موضعِ الحقيقةِ ٱلذي يُرى فيهِ ٱلشيءُ لا شيء.

ورأَوْا في إرادتِهِ ﷺ ٱلنقطةَ الثابتةَ فيما يَتضارَبُ منْ خيالاتِ ٱلنفس؛ فكانوا أكبرَ علماءِ ٱلأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا عِلْمٍ ولا فلسفة، بل من قلبِ نبيِّهم وحدَه.

وعرفوا بِهِ ﷺ تمامَ ٱلرجولة؛ ومتى تمَّتْ هذه ٱلرجولةُ تمامَها في إنسان، رجعَتْ لَهُ ٱلطفولةُ في رُوحِه، وٱمتلكَ تلكَ ٱلطبيعةَ ٱلتي لا يملِكُها إلَّا أعظَمُ الفلاسفةِ والحكماءِ فأصبحَ كأنَّما يمشي في الحياةِ إلى الجنةِ بخُطُواتٍ مُسدَّدةٍ لا تَزيغُ[2] ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة؛ ودنياهُ هي الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرِها، يملكُها وإنْ لم يملكْ منها شيئاً، ما دامَتْ في قلبِهِ طبيعةُ ٱلسرور، فلا فقرَ ولا غِنى ممَّا يَشعُرُ ٱلناسُ بمعانيه، بلْ كلُّ ما أمكنَ فهو غِنًى كامل، إذْ لم تَعُدِ ٱلقوةُ في ٱلمادةِ تزيدُ بزيادتِها وتنقصُ بنقصِها، بل ٱلقوةُ في ٱلروحِ التي تَتَصرفُ بطبيعةِ الوجود، وتَدفعُ قُوَى الجسمِ بمثلِ دوافعِ الطفولةِ النامية المتغلِّبة، حتى لَتجعلُ مِنَ النورِ والهواءِ ما يُؤتَدَمُ[3] بِهِ مَعَ الخبزِ القَفَار، كما يؤتَدَمُ بٱللحمِ وأطايبِ ٱلأطعمة.

وبذلك لا تتسلَّطُ ضرورةٌ على ٱلجِسْم - كٱلجوعِ وٱلفقْرِ والألم ونحوِها - إلَّا كانَ تَسلُّطُها كأنَّهُ أمرٌ من قوّةٍ في ٱلوجودِ إلى قوّةٍ في هذا الجسم: أَنْ تَظْهَرَ لِتعملَ عملَها ٱلمُعْجزَ في إبطالِ هذه الضرورة. وهذا الجِنْسُ مِنَ الناسِ كالأزهارِ على

---

(١) المقضي: المقدّر.

(٢) لا تزيغ: لا تتحوّل ولا تنحرف.

(٣) يؤتدم: يؤكل من الطعام.

أغصانِها الخُضْر؛ لو قالَتْ شيئاً لَقالَتْ: إنَّ ثروتي في ٱلحياةِ هي ٱلحياةُ نفسُها، فليسَ لي فقرٌ ولا غِنًى، بلْ طبيعةٌ أوْلا طبيعة.

* * *

ولقدْ كانَ ٱلمسلمُ يُضْربُ بالسيفِ في سبيلِ ٱلله، فتقَعُ ضَرباتُ ٱلسيوفِ على جسمِهِ فتُمَزِّقُه؛ فما يُحِسُّها إلَّا كأنَّها قُبَلُ أصدقاءَ مِنَ ٱلملائكةِ يَلْقَوْنَهُ ويعانقونَه!

وكان يُبْتَلى في نفسِه ومالِه، فلا يشعرُ في ذلك أنَّهُ المُرَزَّأُ[1] المُبْتَلى يُعْرَفُ فيهِ الحُزنُ وٱلانكسار، بلْ تَظهرُ فيهِ الإنسانيةُ ٱلمنتصرةُ كَمَا يَظهرُ ٱلتاريخُ ٱلظافِرُ في بطلِهِ العظيم أُصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمِهِ بجراح، فهي جِراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادةُ ٱلنصر!

ولم تكنْ أثقالُ المسلم من دنياهُ أثقالاً على نفسِه، بل كانَتْ لَهُ أسبابَ قوةٍ وسموّ؛ كالنَّسْرِ ٱلمخلوقِ لِطبقَاتِ ٱلجوِّ ٱلعُليا، ويحملُ دائماً من أجلِ هذه الطبقَاتِ ثِقَلَ جناحيهِ العظيمين.

وكانَتِ ٱلحقيقةُ التي جعلَها النبيُّ ﷺ مَثَلَهمُ الأعلى، وأقرَّها في أنفسِهم بجميعِ أخلاقِهِ وأعمالِه ـ أنَّ الفضائلَ كلَّها واجبةٌ على كلِّ مسلم لِنفسِه، إذْ إنَّها واجبةٌ بِكلِّ مسلم على غيره، فلا تكونُ في ٱلأمَّةِ إلَّا إرادةٌ واحدةٌ متعاونة، تجعلُ ٱلمسلمَ وما هو روحُ أمتِهِ تعملُ بِهِ أعمالَها هي لا أعمالَهُ وحدَها.

المسلمُ إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعِهِ في معناهُ ٱلاجتماعيِّ حولَ أمتِهِ كلِّها، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمِعٌ حولَ نفسِهِ بهذه المنافع؛ وهو من غيرِهِ في صدقِ ٱلمعاملةِ الاجتماعيةِ كٱلتاجرِ مِنَ التاجر؛ تقولُ ٱلأمانةُ لِكليهما: لا قيمةَ لِميزانِكَ إلَّا أنْ يُصَدِّقَهُ ميزانُ أخيك.

ولنْ يكونَ ٱلإسلامُ صحيحاً تامًّا حتى يجعلَ حاملَهُ مثَلاً من نبيِّهِ في أخلاقِ ٱلله؛ فما هو بشخصٍ يضبِطُ طبيعتَه: يَقْهرُها مرةً وتقهرُهُ مِراراً؛ ولكنْ طبيعةٌ تضبِطُ شخصَها فهي قانونُ وجودِه.

لا يضطربُ من شيء، وكيف يضطربُ ومعَهُ ٱلاستقرار؟

لا يخافُ من شيء، وكيفَ يخافُ ومعَهُ ٱلطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيفَ يخشى ومعَهُ ٱلله؟

أيُّها ٱلأسد، هل أنت بجملتِكَ إلَّا في طبيعةِ مَخالِبك وأنيابِك...؟

---

(١) المرزأ: المصاب بالابتلاءات المختلفة.

وحيُ ٱلهجرة

إنَّ التاريخَ لَيتكلَّمُ بلغةٍ أوسعَ من ألفاظِهِ إذا قرأَهُ مَنْ يقرؤُهُ على أنَّهُ بعضُ نواميسِ ٱلوجود، صُوِّرَتْ فيها النفسُ الإنسانيةُ كيفَ ٱعْتَوَرَتْ أغراضَها، وكيف مدَّت في نَسَقِها[1]، وكيفَ تغلغَلَتْ في مسالكِها، وما تأتّى لها فَجَرَتْ بِهِ مَجراها، وما دفَعَها فٱنحدرتْ منه إلى مَقَارِّها[2]؛ فهو ليسَ بكلامٍ تستقبلُه تقرأُ فيه، ولكنَّهُ أحوالٌ مِنَ الوجودِ تعترضُها فتُغيِّرُ عليكَ حِسَّكَ بإلهامِها وأحلامِها، وتتناولُها من ناحيةٍ فتتناولُك مِنَ الأخرى؛ فإذا ٱلكلمةُ من ورائِها معنًى، من ورائِهِ طبيعةٌ، من ورائِها سببٌ وحِكْمة؛ وإذا كلُّ حادثةٍ فيها إنسانيتُها وإلهيَّتُها معاً، وإذا ٱلوجودُ فِي ذهنِك كٱلساعةِ ترسمُ لك حدَّ الثانيةِ بخَطْرتين، وحدَّ الدقيقةِ من عددٍ محدودٍ مِنَ الثواني، وحدَّ ٱلساعة إلى حدِّ ٱليوم؛ وإذا ٱلبيانُ في نفسِك من كلِّ هذه الحواشي، وإذا ٱلتاريخُ فيما تقرؤُهُ مُفَنَّنٌ في ظاهرِهِ وباطِنِهِ يَفِيءُ عليكَ من ألفاظِهِ ومعانيهِ بِظلالٍ هي صِلتُكَ أنتَ أيُّها الحيُّ ٱلموجودُ بأسرارِ ما كانَ موجوداً من قبل.

كذلك قرأْتُ بالأمسِ تاريخَ الهجرةِ النبويةِ في كتابِ أبي جعفرٍ ٱلطَّبريِّ لِأكتبَ عنهُ هذه الكلمة، فلم أكُن ـ علِمَ الله ـ في كتابٍ ولا في حِكاية، بلْ في عالمٍ ٱنبثقَ في نفسي مخلوقاً تامًّا بأهلِه، وحوادثِ أهلِه، وأسرارِ أهلِهِ جميعاً؛ كما يرى ٱلمُحبُّ حبيبَه: لا يكونُ ٱلجميلُ في محلٍّ إلَّا ٱمتلأَ مكانَهُ بعَاشِقِهِ، فهو مكانٌ مِنَ ٱلنفس، لا مِنَ ٱلدنيا وحدَها، وفيهِ ٱلحياةُ كما هي في ٱلوجودِ بمظهرِ ٱلمادة، وكما هي في ٱلحُبِّ بمظهرِ ٱلروح.

وتلك حالةٌ مِنَ القراءةِ بٱلروحِ وٱلكتابةِ بٱلروح، متى أنت سَمَوْتَ إليها رأيْتَ فيها غيرَ ٱلمعنى يَخرجُ معنًى، ومِن لا شيءَ تُخلَقُ أشياء، لأنَّك منها ٱتصلْتَ بأسرارِ نفسِك، ومن نفسِك ٱتصلْتَ بأسرارِ فوقَها؛ فيُصبحُ ٱلتاريخُ معَك فنَّ ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ على ٱلوجهِ ٱلذي أفضَتْ بِهِ ٱلحِكْمةُ إلى الحياةِ لِتستمرَّ بالنفسِ ٱلإنسانية،

---

(١) نسقها: طرازها وعلى شكلها. (٢) مقارّها: أماكنها.

لا فنَّ عِلْمِ الناسِ على الوجهِ الذي أفضَتْ[1] بهِ الحوادثُ مِمَّا بينَ ٱلحياةِ وٱلموت.

* * *

نشأ النبيُّ ﷺ في مكة، وٱستُنْبِىءَ على رأسِ ٱلأربعينَ من سِنِّه، وغَبَرَ[2] ثلاثَ عشْرَةَ سنةً يدعو إلى اللَّهِ قبلَ أنْ يُهاجرَ إلى المدينة؛ فلم يكنْ في ٱلإسلام أولَ بَدْأتِهِ إلَّا رجلٌ وٱمرأةٌ وغلام: أما الرجلُ فهو هو ﷺ، وأما المرأةُ فزوجُهُ خديجة، وأما الغلامُ فعليّ ٱبْنُ عمِّهِ أبي طالب.

ثم كانَ أولُ النموِّ في ٱلإسلام بحُرٍّ وعبد: أمَّا ٱلحرُّ فأبو بكر، وأمَّا العبدُ فبِلال، ثم ٱتَّسقَ ٱلنموُّ قليلاً قليلاً بِبُطءِ ٱلهمومِ في سيرِها، وصبرِ الحُرِّ في تجلّدِه؛ وكأنَّ ٱلتاريخَ واقفٌ لا يتزحزح، ضيّقٌ لا يتَّسِعُ، جامدٌ لا ينمو؛ وكأنَّ النبيَّ ﷺ أخو الشمس: يطلُعُ كلاهما وحدَهُ كلَّ يوم. حتى إذا كانتِ ٱلهجرةُ من بَعدُ، فٱنتقلَ ٱلرسولُ إلى المدينة، بدأتِ ٱلدنيا تَتَقَلْقَل[3]، كأنَّما مرَّ بقدمِهِ على مركزِها فحرَّكَها؛ وكانَتْ خطواتُهُ في هجرتِهِ تَخطُّ في ٱلأرض، ومعانيها تخطُّ في ٱلتاريخ؛ وكانَتِ ٱلمسافةُ بينَ مكةَ والمدينة، ومعناها بينَ ٱلمشرقِ والمغرب.

لقد كانَ في مكةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العربِ كما يُعْرَضُ ٱلذهبُ على ٱلمتوحشين: يَرَوْنَهُ بَريقاً وشُعاعاً ثُمَّ لا قيمةَ له، وما بهم حاجةٌ إليه، وهو حاجةُ بني آدمَ إلَّا المتوحشين، وكانوا في ٱلمحادَّةِ[4] والمخالفةِ ٱلحمقاء، وٱلبلوغِ بدعوتِهِ مبلغَ ٱلأوهامِ والأساطير ـ كما يكونُ ٱلمريضُ بذاتِ صدرِهِ معَ الذي يدعوهُ في ليلةٍ قارَّةٍ إلى مداواةِ جسمِهِ بأشعةِ الكواكب؛ وكانَتْ مكةُ هذه صخراً جغرافيًّا يتحطّمُ ولا يلين، وكأنَّ الشيطانَ نفسَهُ وضعَ هذا الصخرَ في مجرى ٱلزمنِ لِيصدَّ بِهِ التاريخَ الإسلاميَّ عنِ الدنيا وأهلِها.

وأوذِيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ، وكُذِّبَ وأُهين، ورَجَفَ بِهِ ٱلوادِي يخطو فيهِ على زَلازلَ تتقلَّب، ونابذَهُ[5] قومُهُ وتَذَامَروا[6] فيه، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه، وٱنْصَفَقَ[7] عنهُ عامةُ ٱلناسِ وتركُوه إلَّا مَنْ حفِظَ ٱللَّهُ منهم؛ فأُصِيبَ كبيراً باليُتْمِ من قومِه، كما أُصيبَ صغيراً باليُتْمِ من أبويه.

---

(١) أردت: أوصلت.
(٢) غبر: مضى.
(٣) تتقلقل: تتململ.
(٤) المحادّة: المعاندة والمخالفة والعداء.
(٥) نابذ: رفض وأخرج وأفرد.
(٦) تذامروا: اتحدوا واحتشدوا جماعات جماعات.
(٧) انصفق: تخلّى واجتنب.

وكانَ لا يسمعُ بقادمٍ يقدُمُ مِنَ العربِ لَهُ ٱسمٌ وشرفٌ، إلَّا تصدَّى[1] لَهُ فدعاهُ إلى اللَّهِ وعرضَ نفسَهُ عليهِ؛ ومع ذلك بقيَتِ ٱلدعوةُ تلوحُ وتختفي كما يَشُقُّ ٱلبرقُ من سحابةٍ على ٱلسماء: ليسَ إلَّا أنْ يُرَى ثم لا شيءَ بعدَ أنْ يُرى!

* * *

فهذا تاريخُ ما قبلَ ٱلهجرةِ في جملةِ معناه، غيرَ أنِّي لم أقرأْهُ تاريخاً، بلْ قرأْتُ فيهِ فصلاً رائعاً من حِكْمةٍ إلهية، وضَعَهُ ٱللَّهُ كالمقدِّمةِ لِتاريخِ ٱلإسلامِ في ٱلأرض؛ مقدِّمةٌ مِنَ الحوادثِ والأيامِ تحيا وتمرُّ في نَسَقِ[2] الروايةِ الإلهيةِ ٱلمنطويةِ على رموزِها وأسرارِها، وتظهرُ فيها رحمةُ ٱللَّهِ تعملُ بقسوة، وحِكمةُ ٱللَّهِ تتجلَّى في غُموض؛ فلو أنت حققْتَ ٱلنظرَ لَرأيْتَ تاريخَ ٱلإسلام يتألَّهُ[3] في هذه ٱلحِقْبة، بحيثُ لا تقرؤُهُ ٱلنفسُ المؤمنةُ إلَّا خاشعةً كأنَّها تُصلِّي، ولا تتدبَّرُهُ إلَّا خاضعةً كأنَّها تتعبَّد.

بدأَ ٱلإسلامُ في رجلٍ وٱمرأةٍ وغلام، ثم زاد حرًّا وعبداً؛ أليسَتْ هذه ٱلخمسُ هي كلَّ أطوارِ البشريةِ في وجودِها، مخلوقةً في ٱلإنسانيةِ وٱلطبيعة، ومصنوعةً في ٱلسياسةِ وٱلاجتماع؛ فهٰهنا مطلعُ ٱلقصيدة، وأولُ الرمزِ في شعرِ ٱلتاريخ.

ولَبثَ النبيُّ ﷺ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً لا يَبْغيهِ[4] قومُهُ إلَّا شرًّا، على أنَّهُ دائبٌ[5] يطلبُ ثُمَّ لا يجد، ويَعْرِضُ ثُمَّ لا يُقبَلُ منه، ويُخْفِقُ ثُمَّ لا يَعتريهِ ٱليأس، ويَجْهَدُ ثُمَّ لا يتخوَّنُهُ ٱلملَل[6]، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرَّف[7]، ومعتزماً لا يتحوَّل؛ أليسَتْ هذه هي أسمى معاني التربيةِ الإنسانيَّةِ أظهرَها ٱللَّهُ كلَّها في نبيِّه، فَعمِلَ بها وثَبَت عليها، وكانَتْ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في هذا المعنى كعمرِ طفلٍ وُلِدَ ونشأَ وأُحكِمَ تهذيبُهُ بٱلحوادث، حتى تسلَّمَتْهُ ٱلرجولةُ ٱلكاملةُ بمعانيها مِنَ الطفولةِ الكاملةِ بوسائلِها؟

أفليسَ هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقاً يعلِّمُ ٱلمسلمينَ كيف يجبُ أنْ ينشأَ ٱلمسلم: غِنَاهُ في قلبِهِ، وقوَّتُهُ في إيمانِهِ، وموضعُهُ في الحياةِ موضعُ ٱلنافعِ قبلَ ٱلمنتفِع، وٱلمصلِحِ قبلَ ٱلمقلِّد؛ وفي نفسِهِ من قوةِ ٱلحياةِ ما يموتُ بهِ في هذه النفسِ أكثرُ ما في الأرضِ والناسِ من شهواتٍ ومطامع؟

---

(١) تصدّى: خرج لمواجهته.
(٢) نسق: نمط منسجم.
(٣) يتأله: يسمو ويعلو كالإله.
(٤) لا يبغيه: لا يريد له.
(٥) دائب: مستمر.
(٦) لا يتخوّنه الملل: لا يداخله.
(٧) لا يتحرّف: لا يميل ولا يتحوّل.

ثم أليسَتْ تلكَ ٱلعواملُ الأخلاقيَّةُ هي هي ٱلتي ٱلقِيَتْ في منبعِ ٱلتاريخِ الإسلاميِّ ليعُبَّ منها تيَّارُه؛ فتدفعُهُ في مجراهُ بينَ ٱلأممِ، وتجعلُ من أخصِّ ٱلخصائصِ الإسلاميةِ في هذه الدنيا ـ ٱلثباتَ على ٱلخُطوةِ ٱلمتقدمةِ وإنْ لم تتقدَّم، وعلى ٱلحقِّ وإنْ لم يتحقَّق؛ والتبرُّؤَ مِنَ الأثرةِ وإنْ شَحَّتْ[1] عليها ٱلنفس، وٱحتقارَ الضعفِ وإنْ حَكَمَ وتسلَّط، ومقاومةَ الباطلِ وإنْ سادَ وغلَب، وحمْلَ الناسِ على مَحْضِ ٱلخيرِ وإنْ رَدُّوا بٱلشرِّ، وٱلعملَ لِلعملِ وإنْ لم يأتِ بشيء، والواجبَ لِلواجبِ وإنْ لم يكُنْ فيهِ كبيرُ فائدة، وبقاءَ الرجلِ رجلاً وإنْ حطَّمَهُ كلُّ ما حولَه؟

ثمَّ هي هي ٱلبُرهاناتُ القائمةُ لِلدهرِ قيامَ ٱلمنارةِ في الساحلِ ـ على نبوَّةِ محمدٍ ﷺ تثبُتُ ببرهانِ الفلسفةِ وعلومِ النفسِ أنَّهُ رُوحٌ وغاياتُها المحتومَةُ بِالقدَر، لا جسمٌ ووسائلُهُ المتغلِّبةُ بٱلطبيعة؛ ولو كانَ رجلاً ٱبتعثتْهُ[2] نفسُه، لتمحَّلَ[3] الحِيَلَ لِسياستِه، ولأخذَتْ طَمعاً من كلِّ مَطْمع، ولَركَدَ مَعَ ٱلحوادِثِ وهَبَّ، ولَما ٱستمرَّ طوالَ هذه المدةِ لا يتَّجِهُ وهو فردٌ إلا ٱتجاهَ ٱلإنسانيةِ كلِّها كأنَّما هو هي.

ولو هو كانَ رجلَ ٱلمُلكِ أو رجلَ ٱلسياسة، لٱستقامَ وٱلتَوَى، ولأَدركَ ما يبتغي في سَنواتٍ قليلةٍ، ولأَوْجَدَ ٱلحوادثَ يتعلَّقُ عليها، ولَمَا أفلتَ ما كانَ موجوداً منهُ يتعلَّقُ به، ولَمَا ٱنتزعَ نفسَهُ من محلِهِ في قومِهِ وكانَ واسطةً فيهم، ولا تركَ عواملَ الزمنِ تُبعدُهُ وهي كانَتْ تُدنيه.

قالوا: إنَّ عَمَّهُ أبا طالبٍ بعثَ إليهِ حينَ كلَّمتْه قُريش فقالَ له: يا ٱبنَ أخي، إنَّ قومَكَ قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك. ولا تُحمِّلْني مِنَ الأمرِ ما لا أُطيق. فظنَّ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ أنَّهُ قد بدا لِعمِّهِ فيهِ بَداء[4]، وأنَّهُ خاذِلُهُ[5] ومُسْلِمُه، وأنَّهُ قد ضَعُفَ عنْ نُصرتِهِ وٱلقيامِ معه، فقال: يا عمَّاه، ـ واللَّهِ ـ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَهُ اللَّهُ أو أهلِكَ فيهِ ما تركْتُه. ثم ٱستعبرَ ﷺ فبكى!

يا دموعَ النبوَّة! لقدْ أثبَتِّ أنَّ النفسَ ٱلعظيمةَ لَنْ تتَعزَّى عن شيءٍ منها بشيءٍ

---

(١) شحَت: بخلت وقلّت.

(٢) ابتعثته: اختارته.

(٣) تمحَّل: أوجد الأعذار الواهية.

(٤) بداء: رأي جديد.

(٥) خاذله: متخلٍ عنه.

من غيرِها كائناً ما كان، لا من ذهبِ ٱلأرضِ وفِضّتِها، ولا من ذهبِ ٱلسماءِ وفِضتِها إذا وُضِعَتِ ٱلشمسُ في يدٍ وٱلقمرُ في ٱلأخرى.

وكلُّ حوادثِ ٱلمدةِ قبلَ ٱلهجرةِ على طولِها ليسَتْ إلّا دليلَ ذلك ٱلزمنِ على أنّهُ زمنُ نبيّ، لا زمنُ مَلِكٍ أو سياسيٍّ أو زعيم؛ ودليلُ الحقيقةِ على أنَّ هذا اليقينَ الثابتَ ليسَ يقينَ الإنسانِ الاجتماعيِّ من جهةِ قوّتِه، بل يقينُ الإنسانِ الإلهيِّ من جهةِ قلبِه؛ ودليلُ ٱلحِكْمةِ على أنَّ هذا الدينَ ليسَ مِنَ ٱلعقائدِ الموضوعةِ التي تنشُرُها عَدْوى النفسِ لِلنفس؛ فها هو ذا لا يبلغُ أهلَهُ في ثلاثَ عشرة سنةً أكثرَ مِمّا تبلغُ أسرةٌ تتوالدُ في هذه الحِقْبة؛ ودليلُ الإنسانيةِ على أنّهُ وحْيُ ٱللّهِ بإيجادِ ٱلإخاءِ العالميِّ وٱلوحدةِ ٱلإنسانيّة. أفلَمْ يكُنْ خروجُهُ عن موطنِهِ هو تحقُّقَهُ في ٱلعالم؟

ثلاثَ عشْرَةَ سنة، كانَتْ ثلاثةَ عَشَرَ دليلاً تُثبِتُ أنَّ النبيَّ ﷺ ليسَ رجلَ مُلْك، ولا سياسة، ولا زَعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاءِ لأدركَ في قليل؛ وليسَ مبتدِعَ شريعةٍ من نفسِه، وإلّا لَمَا غَبَر في قومِهِ وكأنَهُ لم يجذِهم وهم حولَه؛ وليسَ صاحبَ فِكرةٍ تعملُ أساليبُ النفسِ في ٱنتشارِها؛ ولو كانَهُ لَحملَهم على مَخْضِها وممزوجِها؛ وليسَ رجلاً متعلّقاً بٱلمصادفاتِ ٱلاجتماعيّة، ولو هو كان لَجعلَ إيمانَ يوم كُفْرَ يوم؛ وليسَ مُصْلِحَ عشيرةٍ يهذّبُ منها على قَدْرِ ما تقبلُ منهُ سياسةً ومُخادعة، ولا رجلَ وطنِهِ تكونُ غايتُهُ أنْ يشمخَ في أرضِهِ شُموخَ جبلٍ فيها، دونَ أنْ يُحاولَ ما بلغَ إليهِ من إطلالِهِ على الدنيا إطلالَ السماءِ على ٱلأرض، ولا رجلَ حاضِرِه إذْ كانَ واثقاً دائماً أنَّ معَهُ ٱلغدَ وآتيَه، وإنْ أدبرَ[1] عنهُ ٱليومُ وذاهبُه؛ ولا رجلَ طبيعتِهِ ٱلبشريّةِ يلتمسُ لها ما يلتمسُ ٱلجائعُ لِبطنِه، ولا رجلَ شخصيتِهِ يستهوِي بها ويسحر، ولا رجلَ بطشِهِ يغلبُ بهِ ويتسلَّط، ولا رجلَ ٱلأرضِ في ٱلأرض، ولكنْ رجلَ ٱلسماءِ في ٱلأرض.

هذه هي حِكمةُ ٱللهِ في تدبيرِهِ لنبيِّهِ قبلَ ٱلهجرة: قبضَ عنه أطرافَ ٱلزمن، وحصَرَهُ من ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في مثلِ سنةٍ واحدة، لا تَصدُرُ بِهِ الأمورُ مَصادرَها كي تُثبِتَ أنها لا تَصدُرُ بِهِ: ولا تستحقُّ بهِ الحقيقةَ لِتدلَّ على أنّها ليسَتْ من قوتِهِ وعملِه.

---

(١) أدبر: رحل راجعاً.

وكانَ ﷺ على ذلك ـ وهو في حدودِ نفسِهِ وضِيقِ مكانِهِ ـ يتَّسعُ في ٱلزمنِ من حيثُ لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمُهُ، وكأنَّما كانَتْ شمسُ اليوم الذي سينتصرُ فيه ـ قبلَ أنْ تُشرِقَ على الدنيا بثلاثَ عشْرَةَ سنةً ـ مشرقةً في قلبِهِ ﷺ

والفصلُ مِنَ ٱلسنةِ لا يقدّمُهُ الناسُ ولا يؤخرونه، لأنَّهُ من سَيْرِ ٱلكوْنِ كلِّه؛ وٱلسحابةُ لا يُشْعِلونَ برقَها بٱلمصابيح، ومعَ ٱلنبيِّ من مثلِ ذلك برهانُ ٱللَّهِ على رسالتِه، إلى أنْ نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فحلَّ الفصلُ، وٱنطلقتِ ٱلصاعقة، وكانَتِ ٱلهجرة.

تلك هي المقدمةُ الإلهيَّةُ لِلتاريخ، وكانَ طبيعيًّا أنْ يطَّرِدَ ٱلتاريخُ بعدَها، حتى قال الرشيدُ لِلسحابةِ وقدْ مرَّتْ بِه: أمطري حيثُ شِئْتِ فسيأتيني خَراجُك!

فلسفةُ قصة

ماتَتْ خديجةُ زوجُ النّبيِّ ﷺ وماتَ عمُّهُ أبو طالبٍ في عامٍ واحد، في السنةِ العاشرةِ مِنَ النبوَّة، فعظُمَتِ ٱلمصيبةُ فيهما عليه، إذْ كانَ عمُّهُ هذا يمنعُهُ من أذى قريش، ويقومُ دونَهُ فلا يخلُصونَ إليهِ بمكروه؛ وكان أبو طالبٍ من قُريشٍ كٱلعقيدةِ السياسية: هي بطبيعتِها قوةٌ نافذةٌ على قوةِ القبيلة؛ فمِنْ ثَمَّ كانَ هو وحدَه المشكلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التي تعملُ قريشٌ جاهدةً في حلّها، وقامَتِ ٱلمعركةُ الإسلاميةُ الأولى بينَ إرادتِهم وإرادتِه، وهم أمَّةٌ تحكمُهُمُ ٱلكلمةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي تَسِيرُ عنهم في ٱلقبائل؛ وتاريخُهم ما يُقالُ في ٱلألسنةِ من معاني ٱلمدحِ وٱلذمّ، فيخشَوْنَ ٱلمقالةَ أكثرَ مِمَّا يخشَوْنَ ٱلغارة، وقد لا يُبالونَ بالقَتْلَى وٱلجرحى منهم، ولكنَّهم يبالونَ بالكلماتِ ٱلمجروحة.

فكانَ مِنْ لَطيفِ صنعِ ٱللهِ للإسلام، وعجيبِ تدبيرِهِ في حِمايةِ نبيِّهِ ﷺ - وضْعُ هذه القوةِ النفسيةِ في أولِ تاريخ النبوَّة، تشتغلُ بها سخافاتُ قريش، وتكونُ عملاً لِفراغِهِمُ ٱلرُّوحيّ، وتُثِيرُ فيهمُ ٱلإشكالَ السياسيَّ ٱلذي يُعطِّلُ قانونَهُمُ ٱلوحشيَّ إلى أنْ يتمَّ عملُ الأسبابِ الخفيَّةِ التي تكْسِرُ هذا القانون، فإنَّ ٱلمصنعَ الإلهيَّ لا يُخْرِجُ أعمالَهُ التامَّةَ العظيمةَ إلَّا من أجزاء دقيقةٍ.

أمَّا خديجةُ زوجُ النبيّ ﷺ فكانَتْ في هذه المِحْنةِ قلباً معَ قلبِهِ العظيم، وكانَتْ لِنفسِهِ كقولِ (نَعم) لِلكلمةِ الصادقةِ التي يقولُ لها كلُّ الناسِ (لا)؛ وما زَالتِ ٱلمرأةُ ٱلكاملةُ ٱلمحبوبةُ هيَ ٱلتي تُعطِي ٱلرجلَ ما نقصَ من معاني ٱلحياة، وتَلِدُ لَهُ ٱلمسراتِ من عواطفِها كما تَلِدُ من أحشائِها، فالوجودُ يعملُ بها عملينِ عظيمين: أحدهُما زيادةُ الحياةِ في الأجسام، وٱلآخرُ إتمامُ نقْصِها في المعاني.

وبموتِ أبي طالبٍ وخديجةَ، أُفْرِدَ النبيُّ ﷺ بجسمِهِ وقلبِه، لِيتجرَّدَ[1] مِنَ الحالةِ ٱلتي يَغْلِبُ فيها ٱلحِسُّ، إلى الحالةِ التي تَغلبُ فيها ٱلإرادة، ثُمَّ ليخرجَ من

(١) ليتجرّد: ليتفرّغ، ليتخلّص.

أيامِ ٱلاستقرارِ في أرضِهِ، إلى الأيامِ المتحركةِ بِهِ في هِجرتهِ، ثُمَّ لِينتهِيَ بذلك إلى غَايةِ قوميَّتِه ٱلصغيرةِ المحدودة، فيتصلَ من ذلك بأولِ عالميَّتِهِ ٱلكُبرى.

وأرادَ ٱللَّهُ ـ تعالى ـ أنْ يبدأَ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلالِ ٱلجلالِ والعظَمة، لِيكونَ أولُ أمرِه شهادةً بكمالِهِ، فكانَتِ ٱلحسنةُ فيهِ بشهادةِ السيِّئةِ من قومِهِ، فحِلْمُهُ بشهادةِ رُعُونتِهِم[١]، وأناتُهُ[٢] بدليلِ طَيْشِهم، وحِكمتُهُ ببرهانِ سفَاهتِهِم[٣]؛ وبذلك ظهرَ الروحانيُّ روحانيًا في لمادة.

قالوا: فنالَتْ منه قريش، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصِلُونَ إليهِ في حياةِ عمِّه، حتى نثَرَ بعضُهُمُ ٱلترابَ على رأسِه، كأنَّما يُعلِمونَهُ أنَّهُ أهونُ عليهم من أنْ يكونَ حُرًّا، فضلاً عنْ أنْ يكونَ عزيزاً، فضلاً عنْ أنْ يكونَ نبيًا؛ قالوا: فدخلَ رَسولُ ٱللهِ ﷺ بيتَهُ وٱلترابُ على رأسِه، فقامَتْ إليهِ إحدى بناتِه تغسلُ عنهُ الترابَ وهي تبكي!

كانَتْ تبكي إذْ لا تعلمُ أنّ هذا الترابَ على رأسِ النبيّ العظيم هو شُذوذُ ٱلحياةِ ٱلأرضيَّةِ ٱلدنيئة، في مقابَلةِ إنسانِها ٱلشاذِّ ٱلمنفرد. هذه القَبْضَةُ مِنَ الترابِ الأرضيّ قبضةٌ سفيهةٌ، تُحاولُ ردَّ ٱلممالكِ الإسلاميةِ العظيمةِ أنْ تَنشأَ نشأتَها وتعملَ عمَلَها في ٱلتاريخ، فهي في مقدارِها وسخافتِها ومحاولتِها، كعقلِ قُريشٍ حينئذٍ في مقدارِهِ وسخافتِهِ ومحاولتِه.

أمَّا النبيُّ ﷺ فقالَ لِبنتِه: «يا بنيّةُ لا تبكي، فإنَّ اللّهَ مانعٌ أباك». حسِبَتْ ذلك هَواناً وضَيْعةً، فأعلمَها أنَّ قبضةً مِنَ الترابِ لا تَطْمُرُ النَّجم، وأنَّ هذه الحَثْوَةَ الترابيةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها ٱلخيلُ فجاءتْ بنتيجة، وأنَّ ساعةً مِنَ الحزنِ في يوم، لا يُحكَمُ بها على الزمنِ كلِّه، وأنَّ هذه النَّزوةَ التي تحركَتِ الآنَ هي حمقُ الغباوة: قوّتُها نهايتُها.

«يا بنيَّةُ لا تبكي فإنَّ الله مانعٌ أباك». أي ليسَ لِلنبيِّ كبرياءُ ينالُها الناسُ أو يَغُضُّونَ[٤] عنها فيأتي ٱلدمعُ مترجِماً عنِ ٱلمعنى الإنسانيِّ الناقصِ مُثبتاً أنَّهُ ناقص، إنَّما هي النبوَّةُ: قانونُها غيرُ ما ٱعتادَتِ النفسُ من أفراحٍ وأحزان، وهي النبوَّة: تجعلُ ٱلمختارَ لها غيرَ محدودٍ بجسدِهِ ٱلضعيفِ، بلْ حدودُهُ ٱلحقائقُ التي فيها

---

(١) رعونتهم: حماقتهم.
(٢) أناته: تروّيه.
(٣) سفاهتهم: طيشهم ودناءتهم.
(٤) غضّ الطرف: أغمض عينيه.

قوّتُها، فهو في مَنَعَةِ ٱلواقع ٱلذي لا بدَّ أنْ يقَع، فلو أمكنَ أنْ يُحذَفَ يومٌ منَ ٱلزمنِ أوْ يؤخَّرَ عن وقتِه، أمكنَ أنْ يؤخَّرَ ٱلنبيُّ أو يُحذَف.

«يا بنيةُ لا تبكي إنَّ ٱللَّهَ مانعُ أباك». لا ـ واللهِ ـ ما يقولُ هذه الكلمَةَ إلّا نبيٌّ وَسعَ التاريخَ في نفسِهِ الكبيرةِ قبلَ أنْ يُوجَدَ هذا التاريخُ في الدنيا، فكلمتُهُ هي ٱلإيمانُ والثقةُ إذْ يتكلمُ عن موجود.

ترابٌ ينثُرهُ سفيهٌ على رأسِ النبيّ! ويحكِ يا حقَارَةَ المادة؛ إنَّ ارتفاعَكِ لعنة، إنَّ ٱرتفاعَكِ لعنة.

* * *

قالوا: وخرجَ رسولُ ٱللهِ ﷺ وحدَهُ إلى الطائف، يلتمسُ من ثَقيفٍ النصرَ والمنعَةَ لَهُ من قومِه، فلمَّا ٱنتهى إلى ٱلطائفِ عَمدَ[1] إلى نفَرٍ من ثقيفٍ هم يومئذٍ سادتُهم وأشرافُهم، فجلسَ إليهم فدعاهم إلى ٱللهِ وكلَّمُهم بما جاءَهم لَهُ من نُصرتِهِ والقيامِ معَهُ في ٱلإسلامِ على مَنْ خالفَهُ من قومِهِ، فلم يفعلوا وأغرَوْا[2] بِهِ سُفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونَهُ ويصيحونَ بِه، حتى ٱجتمعَ عليهِ ٱلناسُ وألجأُوهُ إلى حائطٍ[3] لِعُتْبَةَ ابنِ ربيعَة وشَيبةَ بْنِ ربيعةَ وهما فيه. ورجَع عنه مِنْ سفهاءِ ثَقيفٍ من كانَ يتبعُه، فعمدَ ﷺ إلى ظلِّ حُبْلَةٍ[4] من عِنَبٍ فجلسَ فيه، وٱبنا ربيعةَ ينظرانِ إليهِ ويريانِ ما لقِي مِنَ السفهاء.

فلمَّا ٱطمأنَّ ﷺ في مجلسِهِ قال: «اللهمَّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس؛ يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستَضْعَفِينَ وأنت ربّي، إلى مَنْ تكِلُني، إلى بعيدٍ يتجهَّمُني[5]، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمري، إنْ لم يكُنْ بك عليّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكنّ عافيَتَك هي أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهِكَ ٱلذي أشرقَتْ لَهُ ٱلظُّلُماتُ، وصَلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرة، من أنْ ينزلَ بي غضبُك، أو يحلَّ عَلَيَّ سخَطُك، لكَ العُتْبَى حتى ترضى، لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بك!».

* * *

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيةَ التي تُثبِتُ أنَّ قوةَ الخُلُقِ هي درجةٌ أرفعُ مِنَ الخُلُق

---

(١) عمد: لجأ.

(٢) أغروا: حثّوا وشجّعوا.

(٣) الحائط: البستان، ويجمع على حوائط.

(٤) الحُبْلة بالضم: الكَرْم.

(٥) يتجهمني: يستقبلني بوجه كريه.

نفسِه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الْحِلْم لا الحِلمُ وحدَه.

قوةُ الخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخهِ لا متقلْقِلاً في تواريخِ الناس، محدوداً بعظائم شخصيتِهِ الخالدةِ لا بمصالحِ شخصهِ الفاني، ناظراً في الحياةِ إلى الوضع الثابتِ لِلحقيقةِ لا إلى الوضعِ المتغيِّر لِلمنفعة.

وما كانَ أولئك ٱلأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلّا معانيَ ٱلظلم، والشرّ، والضعْف، تقولُ لِلنبي العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدِيلُ منها: إننا أشياءُ ثابتةٌ في البشريَّة.

لم يكنْ منهمُ ٱلأشرافُ وٱلسفهاءُ وٱلعبيدُ، بلْ كانَ منهمُ ٱلعَسْفُ[1]، والرِّق، والطَّيش، تَسْخَرُ ثلاثتُها من نبيِّ ٱلعدْل، والحريَّة، والعقل، فما تَسْخَرُ إلّا من نفسِها.

صغائرُ الحياةِ قد أحاطَتْ بمجدِ ٱلحياة، لِتُثبِتَ ٱلصغائرُ أنَّها ٱلصغائر، ولِيُثْبِتَ ٱلمجدُ أنَّهُ ٱلمجد.

كانَ ٱلفريقانِ هما الفكرتينِ ٱلمتعاديَتينِ أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لِتأكلَ وتستمتِعَ وإنْ أهلكْت، والأخرى عشْ لِتعملَ وتنفعَ الناسَ وإنْ هلكْت.

كانَتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحِ الضيق، لِينطلقَ الواسعُ من مكانِهِ ويستقبِلَ الدنيا التي عليهِ أنْ يُنشِئها. فأولئك ٱلاشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إن هم إلّا الضيقُ، والركودُ، وذلُّ ٱلعيش، حول السَّعةِ الروحيةِ، والسموّ، وطَهارةِ الحياة.

وقفَ ٱلمعنى السماويُّ بينَ معاني الأرض، ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعفِّرُهُ ٱلتراب[2]، وما هو بنورٍ يُضيءُ اكثرَ مِمَّا هو قوةٌ تعملُ بالْعناصرِ ٱلتي من طبيعتِها انْ تحوّلَ، في العناصرِ التي من شأنِهَا أنْ تتحوَّل.

وكانَ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أولئكَ المستهزئينَ قوةٌ أخرى، هي ٱلقدرةُ ٱلتي تعملُ بهذا النبيِّ لِلعالم كلِّه، وبهذه القدرةِ لم ينظرِ ٱلنبيُّ إلى قريشٍ وصَوْلتِهم[3] عليهِ إلَّا كما ينظرُ إلى شيءٍ ٱنقضى، فكانَ ٱلوجودُ الذي يُحيطُ بهِ غيرَ موجود، وكانَتْ حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

---

(١) العسف: الجوْر والظلم.

(٢) يعفّره التراب: يلوّثه ويغطّيه.

(٣) صولتهم: جولتهم، تغلبهم.

وإلى هذه القدرةِ توجَّهَ النبيُّ ﷺ بذلك الدعاءِ البليغ الخالد، يشكو أنَّهُ إنسانٌ فيهِ الضعفُ وقِلَّةُ الحِيلة، فينطِقُ الإنسانيُّ فيهِ بالشَّطرِ[1] الأولِ مِنَ الدعاءِ يذكرُ ٱنفرادَهُ وَآثارَ ٱنفرادِه، ويتوجَّعُ لِمَا بينَهُ وبينَ إنسانيةِ قومِهِ، ثم ينطقُ الروحانيُّ فيهِ بعدَ ذلك إلى آخِرِ ٱلدعاءِ متوجِّهاً إلى مصدَرِهِ ٱلإلهيِّ قائلاً اولَ ما يقول: إنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي.

ولَعمري لو نطَقتِ ٱلشمسُ تدعو ٱللّهَ لَمَا خرجَتْ عن هذا المعنى ولا زادتْ على قولِهِ: «أعوذُ بنورِ وجهِك»، تلتمسُ[2] من مصدرِ النورِ الأزليِّ حِياطةَ وجودِها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبلُ بِالمسيحِ (عليه السلام) فقالَ لِلساخرينَ منه: ليسَ نبيٌّ بلا كرامةٍ إلَّا في وطنِهِ وفي بيتِه. وبهذا ردَّ عليهم ردَّ مَنِ ٱنسلخَ منهم، وقال لهم قولَ مَنْ ليسَ لَهُ حكمٌ فيهم، وأخذَهم بالشريعةِ الأدبيَّةِ لا العمليَّة؛ إذْ كانَ (عليه السلام) كالحكمةِ الطائفةِ ليسَتْ لِكلِّ قلْبٍ ولا لِكلِّ عقْل، ولكنَّها لِمَنْ أُعدَّ لها؛ وشريعتُهُ أكثرُها في التعبيرِ وأقلُّها في العمل، ولم تجيء بالقوةِ العاملةِ فلم يكُنْ بدٌّ من أنْ تَضَعَ ٱلموعِظةَ في مكانِ ٱلسيف، وأنْ تكونَ قائمةً على النهي أكثرَ مِمَّا هي قائمةٌ على الأمر، وأنْ تكونَ كشمسِ ٱلشتاءِ الجميلة: لا تَغْلِي بها ٱلأرض، وإنَّما عملُها أنْ تمهِّدَ[3] هذه الأرضَ لِفصلٍ آخر.

أمَّا نبيُّنا ﷺ فلم يُجِبِ ٱلمستهزئين، إذْ كانَتِ ٱلقوةُ ٱلكامنةُ في بلادِ ٱلعربِ كلِّها كامنةً فيه، وكانَ صدرُه ٱلعظيمُ يحملُ لِلدنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ ٱلدنيا أنْ تُعاملَهُ عليها إلَّا بطريقتِها ٱلحربيَّة؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعرِ ٱلذي يُريدُ مِنَ الكلمةِ معناها البليغَ، ولكنَّهُ سكَتَ سكوتَ المشتَرِعِ الذي لا يُريدُ مِنَ الكلمةِ إلَّا عملَها حين يتكلَّم؛ وكانَ في سكوتِهِ كلامٌ كثيرٌ في فلسفةِ ٱلإرادة وٱلحريَّةِ وٱلتطوّر، وأنْ لا بدَّ أنْ يتحوَّلَ القومُ، وأنْ لا بدَّ أنْ يتفطَّرَ[4] هذا الشجرُ الأجْرَدُ عن وَرَقٍ جديدٍ أخضرَ ينمو بِٱلحياة.

لم يتسخَّطْ[5] ولم يقلْ شيئاً، وكانَ كالصانعِ الذي لا يردُّ على خطأ الآلةِ بسخْطٍ ولا يأس، بل بإرسالِ يدِهِ في إصلاحِها.

---

(١) الشطر: الجانب والقسم.
(٢) تلتمس: تستمدّ، تأخذ.
(٣) تمهّد: تفسح المجال وتهيئه.
(٤) يتفطّر: يتفتح ويستنبت.
(٥) يتسخط: يغضب.

قالوا: ورأى ٱبنا ربيعةَ، عُتْبةُ وشيبةُ ما لقي النبيُّ ﷺ مِنَ السفهاء، فتحركَتْ لَهُ رَحِمُهُما[1]، فدَعَوا غلاماً لهما نَصرانيًا يُقالُ له عَدَّاس، فقالا له: خذْ قِطْفاً من هذا العنبِ وضعْهُ في ذلك الطبق، ثمّ ٱذهبْ بِهِ إلى ذلك الرجلِ فقلْ لَهُ يأكلُ منه.
ففعلَ عدّاسٌ ثم أقبلَ بِهِ حتى وضَعَهُ بينَ يدي رسولِ ٱللَّهِ ﷺ فلمَّا وضَعَ يدَه قال: «بسمِ ٱللَّهِ» ثمَّ أكل؛ فنظرَ عدَّاسٌ إلى وجهِهِ ثم قال: ـ واللهِ ـ إنَّ هذا لَكلامٌ ما يقولُهُ أهلُ هذه البلدة.

فقالَ لَهُ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ ومِن أهلِ أيِّ ٱلبلادِ أنت يا عدَّاسُ وما دينُك؟

قال: أنا نَصرانيٌّ وأنا رجلٌ من أهلِ نينَوَى. فقالَ لَهُ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ من قريةِ الرجلِ الصالح يُونسَ بنِ متَّى؟ قال: وما يُدريكَ[2] ما يونسُ بْنُ متى؟ قال ﷺ ذاكَ أخي: كان نبيًّا وأنا نبيّ.

فأكبَّ عدَّاسٌ على رسولِ ٱللَّهِ ﷺ يقبلُ رأسَهُ ويديهِ ورجليه.

* * *

يا عجباً لِرموزِ القدَرِ في هذه القصة!

لقدْ أسرعَ ٱلخيرُ وٱلكرامةُ وٱلإجلالُ فأقبَلتْ تعتذرُ عنِ ٱلشرِّ والسفاهةِ وٱلطيْش، وجاءتِ ٱلقُبُلاتُ بعدَ كلماتِ العداوة.

وكانَ ٱبنا ربيعةَ من ألدِّ أعداءِ الإسلام، وممَّنْ مَشَوْا إلى أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ من أشرافِ قريشٍ يسألونَهُ أنْ يكفَّهُ عنهم أو يُخلِّيَ بينَهم وبينَه، أو يُنازِلُوهُ وإيَّاهُ حتى يهلكَ أحدُ ٱلفريقين، فٱنقلبَتِ ٱلغريزةُ ٱلوحشيةُ إلى معناها الإنسانيِّ الذي جاءَ بِهِ الدين، لأنَّ ٱلمستقبلَ الدينيَّ لِلفكرِ لا لِلغريزةِ.

وجاءَتِ ٱلنصرانيّةُ تُعانقُ الإسلامَ وتُعزُّه، إذِ ٱلدينُ الصحيحُ مِنَ الدينِ الصحيح كالأخِ من أخيه، غيرَ أنَّ نَسَبَ الإخْوةِ الدمُ ونسبَ الأديانِ العقل.

ثُمَّ أتمَّ ٱلقدرُ رمزَهُ في هذه القصة، بقِطْفِ العنبِ سائغاً عَذْباً مملوءاً حَلاوة؛ فباسمِ ٱللَّهِ كانَ قِطْفُ ٱلعنبِ رمزاً لِهذا العنقودِ الإسلاميِّ العظيمِ الذي ٱمتلأَ حبًّا كلُّ حبةٍ فيه مملكة.

---

(١) رحمهما: إحساسهما بالقرابة.

(٢) يدريك: يعلمك.

فوقَ الآدمية الإسراءُ والمعراج

من أعجبِ ما اتّفقَ لي أنّي فرغْتُ[1] من تسويدِ هذا المقالِ ثمَّ أردْتُ نقلَه، فتعَسَّرَ عليَّ وصُرِفْتُ عنه بألم شديدٍ اعتراني[2]، ونالني منه ثَقْلةٌ في الدماغ؛ ثم كشفَهُ اللّهُ بعدَ يومٍ فراجعْتُ الكتابةَ، فإذا قلمي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوْطِىءُ المسلمونَ العجزَ، وفي أولِ دينِهم تسخيرُ الطبيعة؟

كيف يَسْتَمْهِدُونَ الراحة[3]، وفي صَدْرِ تاريخِهم عملُ المعجزةِ الكبرى؟

كيف يَرْكَنُونَ إلى الجهل، وأولُ أمرِهم آخِرُ غاياتِ العِلْم؟

كيف لا يحملونَ النورَ لِلعالمِ ونبيُّهُم هو الكائنُ النورانيُّ الأعظم؟

* * *

قصةُ الإسراءِ والمِعراجِ هيَ من خصائصِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ هذا النجمُ الإنسانيُّ العظيم؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لِهدايةِ العالمِ في حَيْرةِ ظُلماتِهِ النفسيّة؛ فإنَّ سماءَ الإنسانِ تُظلِمُ وتُضيءُ من داخلِهِ بأغراضِهِ ومعانيه. واللّهُ ـ تعالى ـ قد خلَقَ لِلعالمِ الأرضيِّ شمساً واحدةً تُنيرُهُ وتُحييهِ وتتقلَّبُ عليهِ بليلِهِ ونهارِهِ، بيدَ أنَّهُ تركَ لِكلِّ إنسانٍ أنْ يصنعَ لِنفسِهِ شمسَ قلبِهِ وغَمَامَها وسحائبَها وما تُسفِرُ بِهِ وما تُظلِمُ فيه. ولِهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لِعملِ آدابِهِ في النفس، ووُصِفَ المؤمنونَ بأنَّهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وكانَ أثرُ الإيمانِ والتقوى في تعبيرِ القرآنِ الكريمِ أنْ يجعلَ اللّهُ لِلمؤمنينَ نوراً يمشُون بِهِ.

وقد حارَ المفسِّرونَ في حكمةِ ذكرِ «الليل» في آية «الإسراء» من قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. فإنَّ السُّرَى في لغةِ العربِ لا يكونُ إلّا ليلاً.

---

(١) فرغت: انتهيت.

(٢) اعتراني: داخلني وسيطر علي.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهداً لهم.

والحِكمةُ هي ٱلإشارةُ إلى أنَّ القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانيِّ العظيم الذي تحوَّلَ من إنسانيتِهِ إلى نورِهِ السماويِّ في هذه المعجزة، ويُتَمِّمُ هذه العجيبةَ أنَّ آيات «ٱلمِعراجِ» لم تجىءْ إلّا في سورةِ: «والنَّجم».

وعلى تأويلِ أنّ ذكرَ (الليلِ) إشارةٌ إلى قصةِ النجم، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها، وتكونُ في نَسَقِها[1] قد جاءَتْ معجزةً مِنَ المعجزاتِ البيانيَّة؛ فإذا قيلَ إنَّ نجماً دارَ في السماءِ، أو قطَعَ ما تقطعُهُ النجومُ منَ المسافاتِ التي تُعْجِزُ الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهلْ فيه شكٌّ أو نظرٌ أو تردُّد؟ وهل هو إلّا من بعض ما يُسَبِّحُ اللّهُ بذكرِهِ؟ وهل يكونُ إلّا آيةَ ٱتصلَتْ بالآياتِ التي نَرَاها ٱتصالَ الوجودِ بعضِهِ ببعض؟

وأنا ما يكادُ ينقضي عجَبي من قولِه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾. معَ أنَّ الألفاظَ كما ترى مكشوفةٌ واضحة، يُخيَّلُ إليك أنْ ليسَ وراءَها شيء، ووراءَها السرُّ الأكبر؛ فإنَّها بهذهِ العِبارةِ نصٌّ على إشرافِ النبيِّ ﷺ فوقَ الزمانَ والمكان يرى بغيرِ حِجابِ الحواسِّ مِمَّا مَرْجِعُهُ إلى قُدرةِ ٱللّهِ لا قدرةِ نفسِه؛ بخِلافِ ما لو كانتِ ٱلعبارةُ: «**ليرى من آياتنا**» فإن هذا يجعلُهُ لِنفسِهِ في حُدود قوتِها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها، فيضطربُ ٱلكلام، ويتطرَّقُ إليهِ ٱلاعتراضُ ولا تكونُ ثَمَّ معجزة.

وتحويلُ فعلِ (الرؤيةِ) من صِيغةٍ إلى صِيغةٍ كما رأيتَ، هو بعينِهِ إشارةٌ إلى تحويلِ ٱلرائِي من شكلٍ إلى شكلٍ كما ستعرفُه، وهذه معجزةٌ أخرى يسجدُ لها العقلُ؛ فتبارَكَ اللّهُ مُنْزِلُ هذا الكلام!

وإذا كانَ ﷺ نَجماً إنسانيًا في نوره، فلنْ يأتيَ هذا إلّا من غَلَبةِ روحانيتِهِ على مادتِه؛ وإذا غلبَتْ روحانيتُهُ كانَتْ قواهُ ٱلنفسيةُ مهيَّأةً في الدنيا لِمثلِ حالتِها في ٱلأخرى؛ فهو في هذه المعجزةِ أشبهُ بٱلهواءِ ٱلمتحرِّك. فقُلِ ٱلآن: أيُعترَضُ على الهواءِ إذا ٱرتفعَ بأنَّهُ لم يرتفعْ في طيَّارة...؟

ومن ثَمَّ كانَ ٱلإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً في ثباتِ قواهُ ٱلروحيَّة، سما بها دَرجاتٍ فوقَ الدنيا وما فيها، وسُخِّرَتْ لَهُ ٱلمعاني التي تُسَخِّرُ غيرَهُ مِنَ ٱلناس، ونشأتْ لَهُ نواميسُ أخلاقيَّةٌ غيرُ ٱلنواميسِ التي تتسلَّطُ بها ٱلأهواء. ومتى وُجدَ الشيءُ مِنَ الأشياءِ كانَتْ طبائعُ وجودِهِ هي نواميسَه؛ فالنارُ مثلاً إذا هي تضرَّمتْ أوجدَتِ ٱلإحراق فيما

---

(١) نسقها: نمطها، نموذجها.

يحترق، فإنْ وُضعَ فيها ما لا يحترقُ أبطلَ نواميسَها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تَحدُثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ ٱلنواميسِ ٱلخاصةِ بِها وإبطالِ النواميسِ ٱلمألوفة، وبهذا يُقال: إنَّها خَرَقَتِ ٱلعادة. ومنَ ٱلنور نورٌ لا يَشِفُّ[1] له غيرُ ٱلهواء، ومنه أشعةُ (رونتجن) التي تشفُّ لها الجدرانُ والحُجُب؛ فهذه معجزةٌ في ذاك.

* * *

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنواميسَ تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكةِ في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ مِنَ ٱلإنسانِ ٱلباطنِ فيهِ إلَّا منزلةَ مَنْ يتلقَّى مِمَنْ يُعطِي؛ فذاك ٱلباطنُ هو لِلحقائقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لِمَا يُمكنُ أنْ يبلغَ إليهِ ٱلكمالُ في المَثل الإنسانيِّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما ٱستطاعَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ أنْ يحمِلَ همومَ أمَّةٍ كاملةٍ لا تُضْنيهِ ولا تُغيِّرُهُ ولا تُعجِزُه.

فحقيقةُ النبوَّةِ أنَّها قوةٌ مِنَ الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءَتْ تُصْلِحُ ٱلوجودَ ٱلإنسانيَّ بهِ لتُقِرَّ في هذهِ الحيوانيَّةِ المهذَّبةِ مَثَلَها الأعلى، بدلالتِها على طريقِها النفسيِّ مَعَ طريقِها الطبيعيِّ؛ فيكونُ معَ ٱلانحِطاطِ الرقيُّ، ومعَ ٱلنقصِ ٱلكمالُ، ومع حُكْمِ الغريزةِ التحكّمُ في الغريزة، ومعَ ٱلظلمةِ الماديَّةِ الإشراقُ الروحانيُّ.

وما ٱلمعجزاتُ إلَّا شأنُ تلكِ القوةِ ٱلباطنةِ لا شأنُ إنسانِها الظاهر، ومَنِ ٱلذي يُنكرُ أنَّ قُوى الوجودِ هي في نفسِها إعجازٌ لِلعقلِ البشريّ؟ وهلْ يُنكرُ اليومَ أحدٌ شأنَ هذه القوةِ في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلَتِ الكلمةَ التي تُرسَلُ بينَ الشرقِ والغرب، كالكلمةِ بينَ ٱثنينِ يتحدثانِ في مجلسٍ واحد؟

ونحن نرى معجزاتِ ٱلتنويمِ ٱلمغناطيسي وما يُبصرُهُ ٱلنائمُ وما يسمعُهُ، وما ينكشفُ لَهُ مِمَّا وراءَ الزمانِ والمكانِ؛ وليسَ ٱلتنويمُ شيئاً إلَّا تسليطَ الذاتِ الباطنةِ بقواها الروحيَّةِ ٱلعجيبة، على ٱلذاتِ الظاهرةِ المقيَّدةِ بحواسِّها ٱلمحدودة، فتَطْغَى عليها، فتُصْبحُ ٱلحواسُّ مطلقةً شائعةً في ٱلوجودِ بمِقدارِ ما فيها من قواهُ لا بمقدارِ ما فيها من قوة شخصِها.

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانيُّ بذاتِهِ ٱلباطنة، فيوقعُ شخصَه الظاهرَ في ٱلاستهواء[2]، فينكشفُ لَهُ ٱلوجودُ، ويُبصرُ ما يقعُ على ٱلبعد، ويرى ما

---

(١) يشفّ: يرق.

(٢) الاستهواء: الاستحالة القلبية.

هو آتٍ قبلَ أنْ يأتي؛ وما ٱلكونُ في هذهِ الحالةِ إلّا كالمعشوقِ يقولُ لِعاشقِهِ ٱلذي وقعَ في قلبِهِ ٱلحُبّ: قدْ آتيتُكَ نوراً تنظرُ بهِ جمالي.

* * *

وفي علماءِ عصرِنا من يفكّرُ في ٱلصعود إلى القمر، وفيهم مَنْ يعملُ لِلمخاطبةِ معَ الأفلاك، وفيهم مَنْ تقعُ لَهُ ٱلعجائبُ في ٱستحضارِ ٱلأرواحِ وتسخيرِها؛ وكلُّ ذلك أولُ ٱلبرهانِ الكونيِّ الذي سَيُلْزِمُ العِلْمَ فيُضطرُّهُ في يومٍ ما إلى الإقرارِ بصحةِ ٱلإسراءِ وٱلمِعراج.

ونحن قبل أن نُبديَ رأيَنا في ٱلقصةِ نُلمُّ بها إلمامةً موجزَة؛ فقدِ ٱختلفَتْ فيها ٱلأحاديثُ ووقعَ فيها تخليطٌ كثير، فجاءَتْ فُنوناً وأنواعاً من طُرُقٍ شتَّى، حتى جمعَها بعضُهم في جزءَيْن، وما تحتملُ كلَّ ذلك ولا بعضَه، ولكنَّ روحَ الروايةِ في ذلك الزمنِ كانَتْ كروحِ الصّحافةِ في هذا العصر: متى فارتْ فَوْرَها ٱستحدثَتْ من كلِّ عبارةٍ عبارةً أخرى، وعلى هذه الطريقةِ تخرجُ مِنَ العبارتينِ عبارةٌ ثالثة، فيكونُ الأصلُ معنًى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينِهِ ويسارِه.

ولا يَرَونَ بذلك بأساً؛ فإنَّهم يَشُدُّون بِهِ الرأيَ، ويُضاعِفُونَ منهُ ٱليقين، ويزيدون ضوءاً في نورِ ٱلمعنى، وما داموا قد أثبتوا ٱلأصلَ وٱستيقنوه، فلا حَرَجَ أنْ يؤيِّدَ ٱلقولُ بعضُه بعضاً، بٱجتهادٍ في عبارة، وٱستنباطٍ من أخرى، وزيادةٍ في الثالثةِ مِمَّا هو بسبيلٍ منها، على نحو ما نرى من فنِّ ٱلروايةِ ٱلقصصيَّة؛ إذْ تتعددُ ٱلأساليبُ وٱلعِباراتُ مختلفةً متنوِّعة، وليسَ تحتها إلَّا حقيقةٌ واحدةٌ لا تختلف. وٱلقَصصُ الدينيُّ في هذه ٱللغةِ ٱلعربيةِ فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسِه، لا يُبدعُ ٱلعقلُ وٱلخيالُ وٱلعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب.

هذا في مَتْنِ ٱلقصة، أمَّا في واقعتِها فقدِ ٱختلفوا ٱختلافاً آخر: هل كانَ الإسراءُ وٱلمِعراجُ يقظةً أو مناماً؟ وبالروحِ وحدَها، أو بالروحِ والجسمِ معاً: وإنَّما ذكرْنا هذا الخِلافَ لأنَّهُ الدليلُ القاطعُ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخْبِرْ بشيءٍ من ذلك، فلم يعيِّنْ لهم وجهاً من هذه ٱلأوجُه. والحكمةُ في ذلك أنَّ عقولَهم لم تكنْ تحتملُ ٱلإدراكَ العِلْميَّ الذي أساسُهُ ما عُرِفَ اليومَ من أمرِ ٱلكهرباءِ وٱلأثير...

وٱلخلاصةُ التي تتأدَّى[1] مِنَ القصة: أنَّهُ ﷺ كانَ مضطَجِعاً، فأتاهُ جبريلُ،

---

(١) تتأدى: تُستنتج.

فأخرجَه مِنَ المسجد، فأركبَهُ ٱلبُراقَ، فأتى بيتَ المقدس، ثُمَّ دخلَ المسجدَ فصلّى فيه، ثم عُرِجَ بِهِ إلى السموات، فٱستفتحَها جبريلُ واحدةً واحدة، فرأى فيها من آياتِ ربِّهِ، وٱجتمعَ بالأنبياء ـ صلواتُ الله عليهم ـ، وصعَد في سماءٍ بعدَ سماءٍ إلى سِدْرةِ المنتَهى، فغَشِيَها من أمرِ ٱللَّهِ ما غشيَها، فرأى ﷺ مظهرَ ٱلجمالِ الأزليّ، ثم زُجَّ[1] بِهِ في ٱلنورِ فأوحَى ٱللَّهُ إليهِ ما أوحى.

أمَّا وَشْيُ ٱلقصةِ وطِرازُها فبابٌ عجيبٌ مِنَ الرموزِ ٱلفلسفيةِ ٱلإنسانيَّةِ التي يُرمَزُ بها إلى تجسيدِ الأعمالِ في هذه الحياة: تكونُ تَعَباً وتقعُ فائدة، أو تُلْتَمَسُ منفعةً وشهوةً وتقعُ مُضَرَّةً وحماقة، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّوَرُ الزمنيَّةُ التي توهَّمَها أصحابُها، وتخلُدُ ٱلصورُ ٱلأبديَّةُ التي جاءَتْ بها حقائقُها.

ومن هذه ٱلرموزِ ٱلبديعةِ قولُه: فجاءَني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبن، فأخذْتُ ٱللبن، فقالَ جبريل: أخَذْتَ ٱلفِطرة. وأنَّهُ مرَّ على قومٍ يزرعون ويحصُدونَ في كلِّ يوم، كلَّمَا حصدوا عادَ كما كان؛ فسألَ ما هذا؟ قالَ جبريلُ هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيلِ ٱلله، تُضاعَفُ لهمُ ٱلحسنةُ سبعمائةِ ضِعْف. ثم أتى على قومٍ تُرْضَخُ[2] رؤوسُهم بِٱلصخر، كلَّما رُضِخَتْ عادَتْ كما كانَتْ ولا يُفتَّرُ عنهم من ذلك شيء؛ فقال ما هذا؟ قالَ جبريل: هؤلاءِ الذين تتثاقلُ رؤوسُهم عنِ ٱلصلاة. ثم أتى على قومٍ بينَ أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قِدْر، ولحمٌ آخرُ نيءٌ في قِدْرٍ خبيث، فجعلوا يأكلونَ مِنَ ٱلنيءِ ٱلخبيثِ ويَدَعُونَ النضيج؛ فقالَ ما هؤلاء؟ قالَ جبريل: هذا الرجلُ تكونُ عندَهُ ٱلمرأةُ ٱلحلالُ ٱلطيِّبُ فيأتي ٱمرأةً خبيثة، وٱلمرأةُ تقومُ من عندِ زوجِها حلالاً طيِّباً فتأتي رجلاً خبيثاً. ثم أتى على رجلٍ قد جمعَ حزمةً عظيمةً لا يستطيعُ حملَها وهو يزيدُ عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجلُ تكونُ عليهِ أماناتُ الناسِ لا يقدرُ على أدائِها وهو يُريدُ أنْ يَحمِلَ عليها. ثم رأى نساءً معلَّقاتٍ بثديهِنّ؛ فسأل، فقال جبريل: هؤلاءِ اللاتي أدخلْنَ على الرجالِ من ليسَ من أولادِهم.

* * *

ونحن على ٱلرأي ٱلذي عليه جمهورُ ٱلعلماء: من أنَّ الإسراءَ والمِعراجَ كانا بٱلجسم وٱلروح معاً على التأويلِ الذي سنُبيِّنُه؛ ويُثبِتُ ذلك قولُهُ ـ تعالى ـ في

---

(١) زجّ به: أُدخِل.

(٢) ترضخ: تضرب وتشدخ.

سورةِ (والنَّجم): ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. فلا يكونُ البصرُ يزيغُ[1] ويطغى إلَّا في ٱلجسم، ولا ينتفي عنهُ ذلك إلَّا وهو في ٱلجسم. ولم يتنبهْ أحدٌ مِنَ ٱلمفسرينَ إلى المعنى ٱلمعجزِ ٱلعجيبِ في قولِهِ: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: فذلك نصٌّ على أنَّهُ كانَ يرى بجسمٍ قد تحوَّلَ عنِ ٱلطبيعةِ الآدميَّةِ ٱلمحدودةِ فليسَ فيهِ منها شيءٌ؛ إذْ لا يكونُ طغيانُ ٱلبصرِ إلَّا من تَسلّطِ ٱلخيالِ عليهِ بأهواءِ ٱلجسم ٱلتي لا يستقيمُ بها حكمٌ على حقيقتِه، فما زاغَ ٱلبصرُ بكونِهِ مقيَّدَ ٱلحاسة، ولَا طغَى بكونِهِ مُطْلَقَ ٱلخيال، بلْ كانَ كما يُريهِ ٱللَّهُ من آياتِه، أيْ كانَ حقيقةً كونيَّةً في غيرِ حالتِها ٱلأرضيَّةِ ٱلناقصة.

وٱلذين قالوا إنَّ ٱلإسراءَ وٱلمِعراجَ كانا رؤيا رآها النبيُّ ﷺ ٱحتجّوا لِذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. وقد خلطَ المفسرونَ في هذا أيضاً، وإنَّما كانَ ٱلتعبيرُ بلفظِ «الرؤيا» ـ وهي التي تكونُ مناماً ـ لنفي تأثيرِ ٱلحواسِّ على ٱلرائي، وإثباتِ أنَّ الطبيعةَ الآدمية بجملتِها كانَتْ فيهِ كالنائمةِ عنْ حياتِها ٱلأرضيَّةِ بحقائِقها وأخْيلتِها معاً، فليسَ نائماً كٱلنائم، ولا مستيقظاً كٱلمستيقظ.

وفي أساسِ القصةِ جبريلُ وٱلبُراق، وهما ٱلقوَّةُ ٱلملائكية وٱلقوَّةُ ٱلطبيعيَّة، أوِ ٱلروحُ ٱلملائكيُّ وٱلروحُ ٱلطبيعيُّ؛ ولم يُوصفِ ٱلبراقُ بأنَّه دابةٌ إلَّا رمزاً، إذْ لا يأتي لِلعربِ أنْ يفهموا ما يُرادُ منه؛ وعندنا أنَّهُ سُمِّيَ ٱلبُراقَ مِنَ ٱلبَرْق، وما ٱلبَرقُ إلَّا الكهربائيَّة، وهذا هو المُرادُ منه؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعَتْ أولَ العالمِ بآخرِه؛ وهذه هي ٱلحِكْمةُ في أنَّ آيةَ ٱلإسراءِ لم تذكُرْ أنَّهُ كان محمولاً على شيء، إذا لم يكنْ محمولاً إلَّا على روحِ ٱلأثير.

وما دامَتِ ٱلقوَّةُ الملائكيَّةُ والقوَّةُ الطبيعيَّةُ قد سُخِّرتا لَهُ ﷺ فلا معنى لِأنْ يكونَ ذلك لِلروح دونَ ٱلجسم، بَلِ ٱجتماعُهما معاً في ٱلقصةِ دليلٌ على أنَّ سِرَّ ٱلمعجزةِ إنَّما كانَ في تيسيرِ ملاءمةِ جسمِهِ ٱلشريفِ لِهاتينِ ٱلحالتين؛ فيتحولُ في صورةٍ كونيةٍ ملائكيةٍ بينَ سرِّ الملكِ وسرِّ ٱلطبيعة، وحينئذٍ لا تجري عليهِ أحكامُ ٱلحواسِّ ولا أحكامُ ٱلمادة.

ومنَ ٱلممكنِ أنْ تتحوَّلَ ٱلأجسامُ إلى حالتِها الأثيريَّةِ[2] في بعضِ ٱلأحوالِ ٱلخارِقة، وبهذا يُعلَّلُ طَيُّ الأرضِ لِبعضِ ٱلروحانيِّين، وتُعللُ خوارقُ كثيرةٌ مِمَّا

---

(1) يزيغ: يحيد ويتحوّل. (2) الأثيرية: الهوائية.

يَحدُثُ في ٱستحضارِ الأرواحِ لِهذا العهْد، ومِمَّا يأتيهِ فقراءُ ٱلهند، ومِمَّا كانَ يصنعُهُ «هوديني» الأمريكيّ: إذْ كانوا يغلّلونَهُ بالسلاسلِ والقيودِ ثِمَّ يرونَهُ طليقاً؛ ويحبسونَهُ في ٱلسجونِ المحصَّنةِ يقومُ عليها ٱلحراسُ وتُمسِكُهُ فيها الأبوابُ والجُدرانُ ثُمَّ يجدونَهُ في بعضِ الفنادقِ.

وليسَ لِلعقلِ أنْ يُنكِرَ شيئاً من هذه ونحوِه، فإنَّ تركيبَ ٱلطبيعةِ ردٌّ عليه، ونقضُهُ هو ردٌّ على نفسِه، وٱلمستحيلُ على ٱلأعمى هو أيسرُ ٱلممكناتِ على ٱلمبصِر.

فأنت ترى أنّ ذكرَ ٱلبُراقِ وٱلملكِ في أساسِ قصةِ ٱلإسراءِ وٱلمِعراجِ هو صلةُ ٱلقصةِ بٱلمعجزة، وهو عينُهُ صِلتُها بِٱلبرهان؛ ولو لم يكونا فيها لَمَا كانَ لها تفسير.

* * *

والقصةُ بعدَ ذلك تُثبِتُ أنَّ هذا الوجودَ يرقُّ وينكشفُ ويستضيءُ كلَّما سما الإنسانُ بروحِه، ويغلُظُ ويتكاثَفُ ويتحجَّبُ كلَّما نزلَ بها، وهي من ناحيةِ ٱلنبيِّ ﷺ قصةٌ تَصِفُهُ بمظهرِهِ ٱلكونيِّ في عظَمتِهِ الخالدةِ كما رأى ذاتَهُ الكاملةَ في ملكوتِ ٱلله، ومن ناحيةِ كلِّ مسلم من أتباعِهِ هيَ كالدرسِ في أنْ يكونَ لِقلبِ ٱلمؤمنِ مِعراجٌ سماويّ فوقَ هذه الدنيا، لِيشْهَدَ ببصيرتِهِ أنوارَ الحقّ، وجمالَ ٱلخير، وتجسُّدَ الأعمالِ ٱلإنسانيةِ في صورِها ٱلخالدة؛ فيكونُ بتدبُّرِهِ القصةَ كأنَّما يصعَدُ إلى ٱلسماءِ وينزل؛ فيستريحُ إلى ٱلحقائقِ ٱلأساسيَّةِ لِهذه ٱلحياة، فيدفعُ عن نفسِهِ بذلك تعقُّدَ ٱلأخيلةِ الذي هو أساسُ ٱلبلاءِ على الروح.

ومتى ٱستنارَ ٱلقلبُ كانَ حيًّا في صاحبه، وكانَ حيًّا في ٱلوجودِ كلّه. ومتى سَلِمَتِ ٱلحياةُ من تعقيدِ ٱلخيالِ ٱلفاسدِ لم يكنْ بينَ ٱلإنسانِ وبينَ اللّهِ إلَّا حياةٌ هيَ ٱلحقُّ وٱلخير، ولم يكنْ بينَهُ وبينَ الناسِ إلَّا حياةٌ هي ٱلرحمةُ والحُبّ.

الإنسانية العليا

من أوصاف ٱلنبيّ ﷺ أنَّهُ كانَ متواصِلَ ٱلأحزانِ، دائمَ ٱلفكرة، ليسَتْ لَهُ راحةٌ، طويلَ السَّكْت، لا يتكلمُ في غيرِ حاجة، ليسَ بٱلجافِي[1] ولا المَهِين، يُعظِّمُ ٱلنعمةَ وإنْ دقَّتْ لا يذمُّ منها شيئاً، ولا تُغضبُهُ ٱلدنيا ولا ما كانَ لها، فإذا تُعُدِّيَ ٱلحقُّ لم يقمْ لِغضبِه شيءٌ حتى ينتصرَ لَه، ولا يغضبُ لِنفسِهِ ولا ينتصرُ لها؛ وكان خافِضَ الطَّرْف[2]، نظرُهُ إلى الأرض أطولُ من نظرِهِ إلى ٱلسماء، مَنْ رآهُ بديهةً هابَه، ومَنْ خالَطَهُ مَعْرفةً أحبَّه، لا يَحسِبُ جليسُهُ أنّ أحداً أكرمُ عليهِ منه، ولا يَطْوي عن أحدٍ مِنَ ٱلناسِ بِشْرَهُ[3]، قد وسِعَ ٱلناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصارَ لهم أباً، وصاروا عندَهُ في ٱلحقّ سواء؛ يُحسِّنُ ٱلحسَنَ ويقوّيه، ويُقبِّحُ ٱلقبيحَ ويُوهِيه[4]، معتدلُ ٱلأمرِ غيرُ مختلِف؛ وكانَ أشدَّ ٱلناسِ حياء، لا يثبِّتُ بصَرَهُ في وجهِ أحد، لَهُ نورٌ يَعلوهُ كأنَّ ٱلشمسَ تجري في وجهِه، لا يُؤيِسُ[5] راجيَه، ولا يُخيِّبُ عافيَه[6]، ومَنْ سألَهُ حاجةً لم يردَّهُ إلّا بها أو بمَيْسُورٍ مِنَ ٱلقول؛ أجودُ ٱلناسِ بالخير.

* * *

صلى ٱللَّهُ وسلَّمَ على صاحبِ هذه ٱلصفاتِ ٱلتي لا يجدُ ٱلكَمالُ ٱلإنسانيُّ مذهباً عنها ولا عن شيءٍ منها، ولا يجدُ ٱلنقصُ البشريُّ مَساغاً[7] إليها ولا إلى شيءٍ منها؛ ففيها ٱلمعنى ٱلتامُّ لِلإنسانيَّة، كما أنَّ فيها المعنى التامَّ لِلحقّ، ومنِ ٱجتماعِ هذينِ يكونُ فيها ٱلمعنى ٱلتامُّ لِلإيمان.

هي صفاتُ إنسانِها العظيم، وقدِ ٱجتمعَتْ لَهُ لِتأخذَ عنهُ ٱلحياةُ إنسانيتَها ٱلعالية؛ فهي بذلك من بُرهاناتِ نبوّتِهِ ورسالتِهِ.

---

(١) الجافي: القاسي الغليظ.
(٢) الطرْف بسكون الراء: النظر.
(٣) بشره: سروره وابتسامه وبسطه.
(٤) يوهيه: يضعفه.
(٥) يؤيس: يقنط ويفقد الأمل من رجائه.
(٦) العافي: المحتاج.
(٧) مساغاً: سبيلاً.

ولو جمعْتَ كلَّ أوصافِهِ ﷺ ونظمْتَها بعضَها إلى بعض، وٱعتبرْتَها بأسرارِها ٱلعِلميَّة ـ لَرأيْتَ منها كَوْناً معنويًا دقيقاً قائماً بهذا الإنسانِ الأعظم، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُنَنِهِ وأصولِ ٱلحِكمةِ فيه، ولأيقنْتَ أنَّ هذا النبيَّ ٱلكريمَ إنْ هو إلّا مُعْجَمٌ نفسيٌّ حيٌّ أَلَّفتْهُ ٱلحِكمةُ الإلهيةُ بعلْم من عِلْمِها، وقوةٍ من قوّتِها، لِتتخرَّجَ بهِ الأمةُ التي تُبدعُ ٱلعالَمَ إبداعاً جديداً، وتُنشِئَهُ ٱلنشأةَ ٱلمحفوظةَ لَهُ في أطوارِ كمالِه.

ولَنْ ترى في ٱلإنسانيَّةِ أسمى مِنِ ٱجتماعِ هذه الصفاتِ بعضِها إلى بعضٍ وإنِّي لأكادُ كلّما تأملْتُها أحسبُ هذا السموَّ قضاءً وقَدراً بإنسانٍ على الإنسانيَّةِ كلِّها. وهي دليلٌ على أنَّهُ ٱلإنسانُ ٱلذي خُلِقَ لِلدنيا لا لِنفسِه؛ فهو لا ينمو بما يكونُ على الناسِ مِنَ ٱلحق، ولكنْ بما يكونُ لِلناسِ عليهِ مِنَ ٱلواجبات، كأنَّما هو حقيقةٌ كونيَّةٌ تعيشُ عيشَها، فما تكونُ في ٱلوجودِ إلّا لِتقرِّرَ وجودَها هي، ولا تنتهي حينَ تنتهي بذاتِها إلّا لِتبدأَ معانيَها في غيرِها، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ في التاريخِ غرْساً ليكونَ حدًّا لِزمنٍ وأوّلاً لِزمنٍ بعدَهُ، وما كانَتْ حياتُهُ تلك إلّا طريقةَ غَرْسِهِ، وهو أبداً أصبحَ في الدنيا كأنَّهُ جهةٌ مِنَ ٱلجهاتِ لا إنسانٌ مِنَ ٱلناس، فلَنْ يتغيرَ أو يُمْحَى إلّا إذا تغيَّرَ أو مُحيَ ٱلمشرقُ وٱلمغرب.

ونحن حينَ نقرأُ تلك ٱلصفاتِ وما فاضَتْ بِهِ كُتبُ ٱلشمائلِ من أمثالِها، لا نقرؤُها أوصافاً ولا حِلْية، بل نراها صفحةً إلهيَّةً مصنَّفَةً أبدعَ تصنيفٍ وأدقَّه، ومِن وراءِ تأليفِها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدّى[1] ٱلفكرُ ٱلبشريُّ لِأحسنَ منه ولا أصحَّ ولا أكمل؛ فقدِ ٱجتمعَتْ تلك ٱلصفاتُ في إنسانِها ٱجتماعَ الأجزاءِ في ٱلمسألةِ ٱلرياضيَّة: لا ينبغي أنْ تزيدَ أو تنقُص، إذْ كانَ في مجموعِها ما وُجِدَ لَهُ مجموعُها.

ويكادُ ٱلارتباطُ بينَ أجزاءِ ٱلمسألةِ يكونُ هو بعينِهِ صورةً لِلارتباطِ بينَ أجزاءِ تلكَ ٱلصفاتِ ٱلشريفة؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها موضوعٌ وضْعاً لا يتمُّ الكلُّ إلّا بِهِ، حتى لا موضِعَ فيها لِقلَّةٍ أو كثرة؛ وهذا معنى قولِه ﷺ «أدّبني ربّي فأحسنَ تأديبي»، وأنتَ إذا دقَّقتَ في هذا ٱلحديثِ أدركْتَ من مَغْنَاتِهِ أنَّ هناك طبيعةً أخلاقيَّةً مفردةً[2] تَجري على قانونِها ٱلذي وضعَهُ ٱللَّهُ لها وأحكمَها بِه.

وأعجبُ ما يُدهِشُنا من مجموعِ صِفاتِهِ ﷺ أنَّ فيها دليلاً بيّناً على أنَّهُ مخلوقٌ خِلْقةً متميزةً بنفسِهَا، كخلقةِ ٱلقلْبِ ٱلإنسانيّ: نظامُهُ حياتُهُ وحياتُه نظامُه، وكأنَّما

---

(١) لا يتهدّى: لا يعثر.

(٢) مفردة: مميَّزة.

ٱعترَتْهُ حالةٌ نفسيَّةٌ كالّتي تعتري ٱلقلْبَ في ٱستشعارِ ٱلخطرِ فتُخرجُهُ من طبيعتِهِ إلى أقوى منها، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاءَ ٱلجسم بمَدَدٍ لا ينفَدُ مِنَ ٱلقوَّةِ وٱلصبر، يجعلُ ٱلحياةَ فيها على أضعافِها كأنَّها حياةٌ كانَتْ مخبوءةً وظهرَتْ بغتة؛ وفي هذه ٱلحالةِ تتَّجِهُ غرائزُ النفسِ كلُّها إلى جهةٍ واحدةٍ كأنَّها مقدَّرةٌ بميزان، مضبوطةٌ بقياس؛ فترجِعُ على تناقُضِها وٱختلافِها مُتعاونةً يُؤَازِرُ[1] بعضُها بعضاً، وكانَ قانونُها ٱلطبيعيُّ أنْ تَتَجاذَبَ وتتساقَطَ وتُفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى، فيجيءُ بها الشيءُ وضدُّه معاً: كٱلصدقِ وٱلكذب، وٱلطمعِ وٱلقناعة، وٱلشهواتِ الثائرةِ وٱلخمودِ ٱلساكن، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز؛ ولكنَّها في ٱستشعارِ ٱلخطرِ تكونُ كالأشباهِ لا كالأضداد، فيشدُّ بعضُها بعضاً، ويُتممُ ٱلنَّقِيضُ منها نقيضَه، وتجري كلُّها في قانونٍ واحد: هو الدفاعُ بأجزائِها عن مجموعِها؛ فترى ٱلنازعَ منها وإنَّهُ لَمستقرٌّ في أشدَّ مِنَ ٱلقيد، وكأنَّ فيهِ غيرَ طبيعتِه.

وهل يُنْبئُكَ مجموعُ صفاته ﷺ إلّا أنَّهُ يعيشُ معيشةَ ٱلقلْبِ إذا ٱختلفَ ما حولَهُ وفجأتْهُ بغتَاتُ[2] ٱلوجودِ فتَجَاوَزَ أنْ يكونَ منبعاً لِلحياةِ إلى أنْ يكونَ حافظاً لِلحياةِ في منبعِها؟

وتلك الحالةُ ـ كما مرَّ بك ـ تجعلُ وجودَ ٱلإنسانِ هو وجودَ إرادتِهِ وعقلِه، لا وجودَ شهواتِهِ وغرائزِه؛ وكذلك عاشَ نبيُّنا ﷺ فهو مدةَ حياتِهِ في وجودِ إرادتِهِ لا غيرِها، حتى ليسَ عليهِ سبيلٌ لِغَميزةٍ أو لائمة، كأنَّهُ خُلُقٌ تَشُدُّهُ نيَّةٌ مستيقِظةٌ قد نبَّهَها ما يُنبِّهُ النفسَ مِنَ الغَرَرِ والخطَر. ولعلَّ هذا الشعورَ في نفسِهِ ﷺ هوَ التفسيرُ لِقولِهِ: «نِيَّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملِه». إلى أحاديثَ كثيرةٍ مِمَّا يجرِي في معنى هذه الكلمةِ الجامعة؛ يُريدُ بها: أنَّ نِيَّةَ ٱلمؤمنِ لا تنطوي إلَّا على ٱلخيرِ ٱلكامل، فهو ـ ما دامَتْ نِيَّتُهُ على صَلاحِها وسِرُّهُ على إخلاصِه ـ لا يَعُدُّ ٱليسيرَ مِنَ الشرِّ يسيراً، ولا يرى الكثيرَ مِنَ الخيرِ كثيراً؛ فٱلأصلُ ٱلقائمُ في تلك النيَّةِ المؤمنةِ ألّا يبدأَ الشرُّ كي لا يوجدَ، وألّا ينتهيَ ٱلخيرُ كي لا يفْنَى؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخيرِ وٱلكمالِ أبداً، في حينِ أنَّ عملَهُ بطبيعتِهِ ٱلإنسانيَّةِ يتناولُ ٱلخيرَ وٱلشرَّ جميعاً، ثم لا يكونُ إلَّا عملاً إنسانيًّا على نقصٍ وٱضطرابٍ وٱلتواء.

وقد لا يستطيعُ ٱلمؤمنُ أنْ يأتيَ الخيرَ في بعضِ أحوالِه، ولكنَّهُ يستطيعُ دائماً

---

(١) يؤازر: يعضّد ويقوّي.

(٢) بغتات: مفاجآات.

أنْ يَنْويَهُ ويرغَبَ فيهِ ويَعْزَمَ عليه، لِيُحقِّقَ ضميرَهُ في كلِّ ما يَهُمُّ بِه؛ ويَحصِرَ أفكارَهُ في قانونِ نِيَّتِهِ ٱلمؤمنة. وهذا هوَ الأساسُ في عِلْمِ الأخلاق، لا أساسَ من دونِه.

وٱلنِّيَّةُ من بعدُ هي حارسُ ٱلعمل؛ فكلُّ إنسانٍ يستطيعُ أنْ يُذْعِنَ[1] وأنْ يأبَى، ومن ثَمَّ تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافعَةً من ناحية، وٱستجابةً ومُطاوَعةً مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى؛ فهي على ٱلحقيقةِ متى صلُحَتْ كانَتِ ٱستقلالاً تامًّا لِلإرادة، وكانَتْ مع ذلك ضبطاً لِهذه الإرادةِ على حالٍ واحدةٍ هي التي ينتظمُ بها قانونُ ٱلمبدأ السامي.

ثُمَّ إنَّهُ لا ضابطَ لِصحةِ ٱلعملِ وٱستقامتِهِ إلَّا النيّةُ ٱلصحيحةُ ٱلمستقيمة؛ فٱلتزويرُ وٱلتلبيسُ كِلاهما سهلٌ ميسورٌ في ٱلأعمال، ولكنَّهما مستحيلانِ في ٱلنيَّةِ إذا خَلُصَتْ.

وهي كذلك ضابطٌ لِلفضائلِ تُوجِّهُ ٱلقلوبَ على ٱختلافِها وتَفاوُتِها ٱتجاهاً واحداً لا يختلف؛ فيكونُ طريقُ ما بينَ ٱلإنسانِ وٱلإنسان، من ناحيةِ ٱلطريقِ ما بينَ ٱلإنسانِ وبينَ ٱلله.

وأشواقُ ٱلروحِ بطبيعتِها لا تنتهي، فيُعارِضُها ٱلجسمُ بجعلِ حاجاتِهِ غيرَ منتهية؛ يُحاولُ أنْ يَطْمِسَ[2] بهذه على تلك، وأنْ يُغلِّبَ ٱلحيوانيَّةَ على ٱلروحانيَّة، فإذا كانَتِ ٱلنيةُ مستيقظةً كفَّتْهُ وأماتَتْ أكثرَ نزعاتِه، ووضعَتْ لِكُلِّ حاجةٍ حدًّا ونِهاية؛ وبذلك ترجعُ ٱلنيَّةُ إلى أنْ تكونَ قوَّةً في ٱلنفسِ يخرجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مِمّا يَحُدُّهُ من جِسمِه، لِيخرجَ بذلك عن كثيرٍ مِمَّا يحدُّهُ من معاني ٱلأرض...

وهي بعدَ هذا كلِّهِ تحملُ الإنسانَ أنْ ينظرَ إلى واجبِهِ كأَنَّهُ رقيبٌ حيٌّ في قلبِه، لا يُرائيهِ ولا يُجامِلُه، ولا يُخدَعُ من تأويل، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيينٍ، ولا يُسكِتُهُ ما تُسَوِّلُ ٱلنفس[3]، ولا يزالُ دائماً يقولُ لِلإنسانِ في قلبِه: إنَّ ٱلخطأ أكبرَ الخطأ أنْ تنظِّمَ ٱلحياةَ من حولِك وتتركَ الفَوْضَى في قلبِك.

وجملةُ ٱلقولِ في معاني ٱلنيَّةِ أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ ٱلجسم مُتَساوِقاً مع ظاهرِه، فتتعاونُ ٱلغرائزُ ٱلمختلفةُ في ٱلنفسِ تعاوُناً سهْلاً طبيعيًّا مطَّرِداً، كما تتعاونُ أعضاءُ ٱلجِسمِ على ٱختلافِها في ٱطِّرادٍ وسهولةٍ وطبيعة.

* * *

---

(١) يُذعن: يخضع.
(٢) يطمس: يغطي.
(٣) تسوّل النفس: توسوس.

وكلُّ صفاتِ النبيِّ ﷺ ـ مِمَّا ذكرْناهُ وما لم نذكُرْهُ ـ متى ٱعتُبِرتْ بذلك الأصلِ ٱلذي بيَّناهُ ٱنتظَمها جميعاً، فجاءَ بعضُها تماماً على بعضٍ في نَسَقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهَرَتْ حِكمةُ كلٍّ منها واضحةً مكشوفة، ورأيْتَها في مجموعِها تَصِفُ لك عُمراً هندسيًّا دقيقاً قد بلغَ ٱلغايةَ مِنَ الكمال وٱلروعةِ وٱلدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بلْ كلُّهُ أجزاؤه، وأجزاؤُهُ كلُّه؛ كالوضعِ ٱلهندسيّ: إمَّا أنْ يكونَ بِكُلِّه، وإمَّا أَلَّا تكونَ فيهِ ٱلهندسةُ كلُّها.

وليسَ مجموعُ تلك ٱلصفاتِ في معناهُ إلَّا صنعةَ ٱلإنسانِ صنعةً جديدةً تُخرجُه موجوداً من ذاتِ نفسِه، وتكْسِرُ ٱلقالَبَ الأرضِيَّ الذي صُبَّ فيهِ وتُفْرِغُهُ في مثلِ قالَبِ ٱلكَوْن، فإذا هو غيرُ هذا الإنسانِ الضيّقِ ٱلمنحصِرِ في جسمِهِ ودَواعِي جسمِهِ، فلا تُخضعُهُ ٱلمادة، ولا يُؤتى من سُوءِ نظرِهِ لِنفسِه، ولا تَغرُّهُ[1] الدنيا، ولا يُمسكُهُ ٱلزمان؛ إذْ كانَتْ هذه هي صفاتِ ٱلمستعبدِ بأهوائِهِ لا الحُرِّ فيها، وٱلخاضعِ بنفسِهِ لا المستقلِّ بها، وٱلمقبورِ في إنسانيتِهِ لا ٱلحيِّ فوقَ إنسانيتِه؛ ومثلُ هذا المستعبدِ الخاضعِ ٱلمقبورِ لا وجودَ لَهُ إلَّا في حُكْمِ حواسِّه، فعملُهُ ما يعيشُ بهِ لا ما يعيشُ من أجلِه؛ ويتَّصلُ بكلِّ شيءٍ ٱتِّصالاً مبتوراً[2] ينتهي في هوًى من أهواء ٱلحيوانِ ٱلذي فيه.

ومنَ ٱلمقابلةِ ٱلعجيبةِ أنْ يكونَ في ٱلإنسانِ ٱلاجتماعيِّ حيوانٌ، تُقابلُهُ ٱلحكمةُ في ٱلحيوانِ ٱلأليفِ بإنسان، وحُكمُها واحدٌ ومنطقُهما لا يختلف. فلو أنَّكَ سألْتَ حيوانَ ٱلأعصابِ عن صاحبِهِ الإنسانِ لَقالَ لك: هو غلَّتي ومَزْرعتي. ولو سألْتَ كلباً عن حُبّهِ صاحبَهُ ومبلغِ هذا الحُبِّ في نفسِهِ لَمَا زادَ في جوابِهِ على أنه يُحبُّهُ حُبَّ ٱللقمةِ والعظْمة..

ومتى كانَ ٱلإنسانُ في حكم حواسّهِ لم تَعُدِ الأشياءُ عندَهُ كما هي في نفسِها بمعانيها الطبيعيةِ ٱلمحدودة، وٱنقلَبَتْ كما هي في وهْمِهِ بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة، فلا يشعرُ المرءُ بٱئتلافِ الوجودِ وتعاونِه، ولكنْ بٱختلافِهِ وتناقُضِه، فمِنْ ثَمَّ لا تكونُ أسبابُ ٱللذةِ إلَّا من أسبابِ ٱلألم، ويدخلُ في كلِّ حُبٍّ بغضٌ، وفي كلِّ رغبةٍ طمعٌ، وفي كلِّ خيرٍ شرٌّ، وفي كلِّ صريحٍ خَبيءٌ، وهلمَّ جرًّا؛ إذْ لا بدَّ من هذا كلِّه متى غَلَبَ ٱلفاني على ٱلباقي، ولا بدَّ من كلِّ هذا في تمثيلِ روايةِ ٱلحواسِّ ٱلخادعةِ

---

(١) تغرّه: تخدعه.

(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

التي أساسُها ٱلتغيّرُ وٱلتقلّب، حتى لَكَأنَّ ٱلنفسَ إنَّما تعيشُ بها في ظاهرِ مِنَ ٱلحياةِ لا في ٱلحياةِ نفسِها.

وهذا الخِداعُ جاعِلٌ كلَّ شَيءٍ من أشياءِ النفسِ لا يبدأُ إلَّا لِينتهيَ، ثُمَّ لا ينتهي إلَّا لِيبدأَ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تنالُه، ولا يزالُ من ذلك مصدرٌ لِآلامِها ٱلحِسيَّة؛ ثم إذا هي نالَتْ منَالتَها سَئِمَتْ، فلا يزالُ من ذلك مصدرٌ آخرُ لِآلامِها ٱلمعنويَّة. ولن يجيءَ ٱلصحيحُ من غيرِ ٱلصحيح؛ فالكونُ كلُّهُ ليسَ إلَّا كَذِباً في النفسِ ٱلكاذبةِ بحواسِّها.

ولذا كانَ أخصُّ أوصافِهِ ﷺ راجعاً إلى خروجِهِ من سلطانِ نفسِه، فلا يغضبُ لَها، ولا يُطْلِقُها مِنَ الدنيا فيما تذمُّهُ أو تمدحُهُ، ولا يُحبُّ فيها، ولا يُبغِضُ من أجلِها، ولا يُهاوِنُها، ولا يَستلينُ لها في مأكلٍ ولا ملبس، ولا يأخذُها إلَّا من ناحيةِ ٱلإيمانِ بِٱللَّهِ وٱلإيمانِ بالإنسانيَّة؛ فأفراحُها أحزانُها، وآمالُها أشواقُها، وأملاكُها أعمالُها، وحِسابُها في طبيعتِها، وحوادثُها مِنَ ٱلعقلِ لا مِنَ ٱلحواسّ، وعظَمتُها إثباتُ ذاتِها في غيرِها، لا إثباتُ غيرِها في ذاتِها؛ وغايتُها في ٱلباقي لا ٱلزائل، وفي ٱلخالدِ لا ٱلفاني، وما دامَ ٱلحاضرُ متحرِّكاً فهو طارىءٌ عابرٌ أَوْشَكُ أمورِ الدنيا زوالاً، وٱلعملُ لَهُ على مقدارِهِ في قِلَّةِ لُبْثِهِ[1] وهَوانِ أمرِه، وٱلاهتمامُ أبداً بِمَا وراءَهُ لا بِه.

فأولُ ٱلنفسِ ٱلنيَّةُ العاملةُ لِآخرتِها، وآخرُ النفسِ ما تُؤدّي إليهِ أعمالُ هذه النِّيَّة؛ فليسَ في إنسانِ الدنيا إلا إنسانُ ٱلعالمِ ٱلآخر؛ وبهذا يُقدَّرُ صمتُهُ وكلامُه، وحركتُهُ وسكونُه، وما يأتي وما يَدَع، وما يُحَبُّ وما يكرَه، إذْ كلُّ شيءٍ منه على ذلك ٱلاعتبارِ إنَّما هو صورةُ ٱلحقيقةِ العاملةِ فيه.

وجماعُ الأمرِ[2] ألَّا يكونَ مستقبلُ ٱلإنسانِ علامةَ ٱستهزاءٍ بجانبِ ماضيه، ولا علامةَ ٱستفهام، ولا علامةَ إنكار.

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبيِّ ﷺ بٱجتماعِها وتَساوُقِها[3] على حقيقةٍ عظمى لم يتنبهْ إليها أحد؛ وهي أنَّ جميعَ خصائصِهِ ٱلنفسيَّة مُرْهَقَةٌ[4] متيقِّظة، وهذا ممَّا يَنْدُرُ

(١) لُبثه: مكثه، بقائه.

(٢) جماع الأمر: الخلاصة.

(٣) تساوقها: تجانسها.

(٤) مرهقة: متعبة.

وقوعُهُ وإمكانُه؛ فإنَّ الرجلَ منَ الناسِ ليَكونُ حيًّا بِٱلحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسِهِ قد طاحَ بها ٱلموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ ٱلموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبْهُ ٱلموت؛ أمَّا الحيُّ ٱلعظيمُ فهو الذي يحيا بأكثرِ خصائصِ نفسِه، وأمَّا ٱلحيُّ ٱلأعظمُ فهوَ ٱلذي يحيا بجميعِ خصائصِها، تملؤُهُ ٱلحياةُ فيملأُ ٱلحياة، ويتمدّدُ السرُّ فيهِ لِيُرِيَهُ حقائقَ ٱلأشياءِ ويَهْدِيَهُ ويدلَّه، فيكونُ بنفسِهِ رؤيةً لِلناسِ وهِدايةً ودلالة؛ ومثلُ هذا يعظُمُ ثُمَّ يعظمُ حتى لَيُرَى ٱلفرقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ كٱلفرقِ بينَ نورٍ لَبِسَ ٱللحمَ وٱلدم، وبينَ تُرابٍ لَبِسَ ٱلدمَ وٱللحم.

وذلك لا يَكادُ يتَّفقُ إلَّا في مراتبَ أعلاها ٱلامتيازُ في ٱلنبوَّة، ثُمَّ تدنو إلى النبوَّة؛ ثُمَّ تنزِلُ إلى ٱلامتيازِ في ٱلحِكْمة؛ ثم تهبطُ إلى عبقريةِ ٱلشعر. فأكبرُ ٱلشعراءِ قاطبةً كالنبيّ في معناه إلَّا أنَّهُ نبيٌّ صغير، وإلَّا أنَّهُ في حُدودِ قلبِه.

وهذه ٱلقوى ٱلثلاثُ هي ٱلتي أبدعَتْها ٱلحِكمةُ ٱلإلهيةُ لِتحويلِ ٱلحياةِ وٱلسموِّ بها؛ فٱلشاعرُ يستوحي ٱلجمالَ إذا تألَّهَ ٱلجمالُ في قلبِهِ، وٱلحكيمُ يستوحي الحقيقة إذا تألَّهَتْ في نفسِه، والنَّبيُّ يستوحي ٱلألوهيَّة نفسَها.

«كان ﷺ متواصلَ ٱلأحزان» ولكنَّها أحزانُ ٱلنبوَّةِ تكسو ٱلحياةَ فرحَ ٱلنفسِ ٱلكبيرة؛ وهو فرحٌ كلُّهُ حزنٌ وتأمُّل، وفكرةٌ وخشوع، وطهْرٌ وفضيلة؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشعراءِ بِطَرَبِ ٱلوجودِ وجمالِ الموجوداتِ إلَّا شيءٌ قليلٌ من حزنِ النَّبيّ.

«وكان دائمَ ٱلفكرةِ ليسَتْ لَهُ راحة» إذْ هو مكلَّفٌ أنْ يصنعَ ٱلإنسانَ ٱلجديدَ ويُنقِّحَ[1] ٱلآدميَّةَ فيه. وفكرةُ النبيِّ هي معيشتُهُ بنفسِهِ مَعَ ٱلحقائِق ٱلعليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في ٱلناس، وهي ٱلفرديةُ وٱستقلالُها وسموُّها؛ لأنَّها إطاقةُ النفسِ ٱلكبيرةِ لِوحدتِها، بخِلافِ الأنفسِ الضعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبُها أبداً أنْ تبحَثَ عمّا تَسْتعبِدُ لَه، أو تنسَى ذَاتَها فيه، أو تستريحُ إليهِ من ذاتِها. ومتى كانَتِ ٱلنفسُ فارغةً كانَ تفكيرُها مضاعفةً لِفراغِها، فهي تفرُّ منهُ إلى ما يُلهيها عنه؛ ولكنَّ ٱلعظيمَ يعيشُ في ٱمتلاءِ نفسِه؛ وعالَمُهُ ٱلداخلِيُّ تُسمِّيهِ ٱللغةُ أحياناً: الفكرة؛ وتُسميهِ أحياناً: الصمت.

«وكانَ ﷺ طويلَ السَّكْتِ لا يتكلَّمُ في غيرِ حاجة»، ومنَ ٱلصمتِ أنواع:

---

(١) ينقح: يميّز بين الجيّد والرديء.

فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرقِ ٱلفهْم بينَ ٱلمرءِ وبينَ أسرارِ ما يُحيطُ بِه؛ ونوعٌ يغشى ٱلإنسانَ العظيمَ لِيكونَ علامةً على رهبةِ ٱلسرِّ ٱلذي في نفسِهِ ٱلعظيمة؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ في صاحبِهِ طريقةً من طُرُقِ ٱلحُكْمِ على صَمْتِ ٱلناسِ وكلامِهِم؛ ونوعٌ رابعٌ هو كالفصل بينَ أعمالِ الجسدِ وبينَ ٱلروحِ في ساعةِ أعمالِها؛ ونوعٌ خامسٌ يكونُ صمتاً على دوِيٍّ تحتهُ يُشبِهُ نوماً ساكناً على أحلامٍ جميلةٍ تتحرك.

* * *

على هذا ٱلنَمَط يجب أنْ تُفسَّرَ كلُّ أوصافِهِ ﷺ؛ فهي بمجموعِها طابَعٌ إلهيٌّ على حياتِهِ الشريفة، يُثبتُ لِلدنيا بكلِّ برهاناتِ ٱلعِلْمِ وٱلفلسفةِ أنَّهُ ٱلإنسانُ ٱلأفضل، وأنَّهُ ٱلأقدر، وأنَّهُ ٱلأقوى.

سموُّ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

١

كانَ ٱلنبيُّ ﷺ على ما يصفُ ٱلتاريخُ مِنَ ٱلفقرِ وٱلقِلَّة، ولكنَّهُ كانَ بطبيعتِهِ فوقَ ٱلاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالفقر، ولا تنالُهُ ٱلمعاني ٱلنفسيَّةُ التي تعلو بعَرَضٍ مِنَ ٱلدنيا وتنزلُ بعَرَض، فما كانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْماً في ٱلحياةِ فيُرَمِّمُها ٱلمال[1]، ولا كانَ يتحرَّكُ في سَعْيٍ يُنْفِقُ فيهِ من نفسِهِ ٱلكبيرةِ لِيجمعَ مِنَ الدنيا، ولا كانَ يتقلَّبُ بينَ ٱلبعيدِ وٱلقريبِ من طمَعٍ أدركَ أو طمعٍ أخفق، ولا نظرَ لنفسِه في ٱلحِسْبَةِ وٱلتدبيرِ ليتدبَّرَ معيشتَهُ فيَحْتلبَها[2] ذهباً أو فِضةً، ولا ٱستقرَّ في قلبِهِ ٱلعظيم ما يجعلُ لِلدينارِ معنى ٱلدينار ولا لِلدِّرهم معنى ٱلدرهم؛ فإنَّ ٱلمعنى ٱلحيَّ لِهذا المالِ هو إظهارُ ٱلنفسِ رابيةً متجسِّمةً في صورةٍ تكْبَرُ في قدرٍ مِنَ ٱلسَّعَةِ والغِنى؛ وٱلمعنى ٱلحيُّ لِلفقرِ مِنَ ٱلمالِ هو إبرازُ ٱلنفسِ ضئيلةً منْزَويةً في صورةٍ تصغُرُ على قدرٍ مِنَ ٱلضِّيقِ وٱلعُسْرَة.

إنَّ فقرَهُ ﷺ كانَ من أنَّهُ يتَّسعُ في ٱلكونِ لا في ٱلمال، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاتِهِ ٱلكبرى ٱلتي لم يتنبَّهْ إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاصٌّ بِهِ ومن أينَ تدبَّرْتَهُ رأيتَهُ في حقيقتِهِ معجزةً تواضَعَتْ وغيَّرَتْ ٱسمَها؛ معجزةً فيها ٱلحقائقُ ٱلنفسيَّةُ وٱلاجتماعيةُ ٱلكبرى، وقد سبقَتْ زمنَها بأربعةَ عَشرَ قرناً، وهي ٱليومَ تُثبتُ بالبرهانِ معنى قولِهِ ﷺ في صفةِ نفسِه: «إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة».

نحن في عصرٍ تَكادُ ٱلفضيلةُ ٱلإنسانيَّةُ فيهِ تَلْحَقُ بٱلألفاظِ ٱلتاريخيةِ ٱلتي تدلُّ على ما كانَ قديماً. . . بل عادَتْ كلمةً من كلماتِ ٱلشعرِ تُرادُ لِتحريكِ ٱلنَّسيمِ

---

(١) يرمّمها المال: يصلحها.

(٢) يحتلبها: يستخرج منها.

اَللّغويِّ الراكِدِ في الخيال، كما تقول: السحابُ الأزرق، والفجرُ الأبيض، والشفَقُ الأحمر، والتَّطارِيفُ[1] الورديةُ على ذَيْلِ الشمس. وأصبحَ الناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهِم بأعينٍ فيها معنًى وحشيٌّ لو لَمسَ لَضَرَبَ أو طَعَنَ أو ذَبَح.

وعَمِلَتِ المدنيّةُ أعمالَها فلمْ تزدْ على أنْ أخرجَتِ الشكلَ الشعريَّ لإنسانِها الفَنّيِّ مُتَهافِتاً[2] تَرَفاً، ونِعْمةً، وافتتاناً بينَ ذلك من أيسرِ الحلالِ إلى الفظيعِ المُتَفَاحِشِ في الإباحة؛ فكأنَّما وضَعتِ المدنيةُ عقلاً في وحش، فجاءَ وقد زاغتْ[3] فيهِ الطبيعةُ من ناحيتينِ؛ ثم قابلتْهُ بالشكلِ الوحشيِّ لإنسانِها الفقير، فكأنَّما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان، فجاءَ وقد ضَلَّتْ فيهِ الطبيعةُ من ناحيتين؛ وكانَ معَ الأولِ سَرَفُ الهوى بالطبيعة، وكانَ معَ الثاني بالطبيعةِ سَرَفُ الحماقة.

وقد أصبحَ من تهكُّم الحياةِ بأهلِها أنْ يكونَ الفقيرُ فقيراً وهو يعلمُ أنَّ صِناعتَهُ في المدنيّةِ عَمَلُ الغَنِيّ لِلأغنياء... وأنْ يكونَ الغنيُّ غنيّاً وهو يعلمُ أنَّ عملَهُ في المدنيةِ هو صنعةُ الفقرِ لِضميره!

وخرجَتْ من هذا وذاك مسائلُ جديدةٌ في فلسفةِ المُعَايَشَةِ الإنسانيَّةِ التي يسمونَها «الاجتماع»؛ إلى أسئلةٍ كثيرةٍ لوذهبْنا نعدُّها ونصِفُها لَطَالَ بِنا القول، وكلّها عاملةٌ على نزعِ الشعورِ العقليِّ مِنَ الحياةِ لِتظهرَ أسخفَ مِمَّا هي، وأقبحَ مِمَّنْ كانت؛ حتى أصبحَتِ الشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عنِ المادةِ وتُلقِي ليلاً على النفس، في حينِ أنَّ الدينَ والإنسانيةَ لا يعملانِ غيرَ بثِّ هذا النورِ العقليِّ في الأشياءِ والمعاني لِتظهرَ الحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً، فتُصبحُ أوضحَ مِمَّا هي في نفسِهَا، وأجملَ مِمَّا هي في الطبيعة.

في مثلِ هذه النزَعاتِ المتقاتِلَةِ التي صَعِدَتْ بِالفلسفةِ ونزلَتْ، وجعلَتْ مِنَ العِلْمِ في صدرِ الإنسانيَّةِ ملْءَ سماءٍ مِنَ الغُيوم بِسوادِها ورعْدِها وصواعِقِها، وتركَتِ العالَمَ يضجُّ ضجيجهُ المزعجَ في قلْبِ كلِّ حيٍّ حتى لَتُذَاعُ الهمومُ إلى قلوبِ الناس إذاعةَ الأصواتِ إلى أسماعِهِم في «الراديو»... في مثلِ هذا البلاءِ الماحقِ تتلفَّتُ الإنسانيَّةُ إلى التاريخ تسألُهُ درساً منَ الكمالِ الإنسانيِّ القديم تَطِبُّ منه لهذه الحماقاتِ الجديدة، ولَو علمَتْ لَعَلِمَتْ أنَّ درسَ هذا العصرِ في عِلاجِ مشاكلِهِ

---

(١) التطاريف: الإشعاعات.

(٢) متهافتاً: متسارعاً متهالكاً.

(٣) زاغت: مالت انحرفت.

الإنسانيَّةِ هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في وصفِهِ ٱلاجتماعيِّ ما بلغَ هو في قولِه: «إنّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة».

* * *

هذا ٱلمُصْلِحُ ٱلاجتماعيُّ ٱلأعظمُ يُلقِي فقرُهُ ٱلْيومَ درساً على ٱلدنيا ٱلعلميَّةِ ٱلفلسفيَّة، لا من كتابٍ ولا فكر، ولكنْ بأخلاقِهِ وعملِهِ وسيرتهِ؛ إذْ ليسَ ٱلمصلحُ منْ فكَّرَ وكتب، ووعَظَ وخطب، ولكنَّهُ ٱلحيُّ ٱلْعظيمُ ٱلذي تلتمسُهُ ٱلفكرةُ ٱلْعظيمةُ لِتحيا فيهِ، وتجعلَ لَهُ عُمراً ذِهْنيًّا مُصرَّفاً على حكمِها، فيكونُ تاريخُهُ ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرةِ وتاريخَها.

وما كانَ محمدٌ ﷺ إلّا عمراً ذهنيًّا مَحْضاً، تمرُّ فيهِ ٱلمعاني ٱلإلهيةُ لِتظهرَ لِلناسِ إلهيَّةً مفسَّرة. وكلُّ حياتِهِ ﷺ دروسٌ مفنَّنَةٌ مختلفةُ ٱلمعاني، ولكنّها في جملتِها تُخاطبُ ٱلإنسانَ على ٱلدَّهرِ بهذِهِ ٱلجملة: أيُّها الحيُّ، إذا كانتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي إذا كانَتِ ٱلحياةُ في الحقيقةِ فلا تكُنْ أنت في ٱلكَذِب، وإذا كانَتِ ٱلحياةُ في الرجولةِ البصيرةِ فلا تكُنْ في ٱلطفولةِ النَّزِقة[1]، فإنَّ الرجلَ يَعرِفُ ويُدْرِك، فهو بذلك وراءَ ٱلحقيقيّ؛ ولكنَّ ٱلطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ ٱلدنيا إلّا بعينيه، فهو وراءَ ٱلوهم، ومن ثَمَّ طيشُهُ ونَزَقُهُ، وإيثارُهُ كلَّ عاجلٍ وإنْ قَلّ، وعملُهُ أنْ تكونَ حياتُهُ ٱلنفسيَّةُ ٱلضئيلةُ في مثلِ توثُّبِ أعضاءِ جسمِه، حتى كأنَّه أبداً يلعبُ بظاهرِهِ وباطنِهِ معاً. . .

أيُّها الحيّ، إذا كانَتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي ٱلحياةُ في ذاتِك الداخليَّةِ وقانونِ كمالِها، فإذا ٱستطعْتَ أنْ تُخْرجَ لِلأرضِ معنًى سماويًّا من ذاتِك فهذا هوَ ٱلجديدُ دائماً في ٱلإنسانية، وأنت بذلك عائشٌ في القريبِ ٱلقريبِ مِنَ الروح، وأنت بهِ شيءٌ إلهي؛ وإذا لم تستطعْ وعشْتَ في دَمِك وأعصابِكَ فهذا هو ٱلقديمُ دائماً في ٱلحيوانيَّة، وأنت بذلك عائشٌ في ٱلبعيدِ ٱلبعيدِ مِنَ النفس، وأنت به شيءٌ أرضيٌّ كالحجَرِ وٱلتراب.

هنا: أي في ٱلإرادةِ ٱلتي فيك وحدَك. ولا هناك: أي في ٱلخيالِ ٱلذي هو في كلِّ شيء. وهنا، في أخلاقِك وفضائِلك ٱلتي لا تَدفعُك إلى طريقٍ من طُرُقِ ٱلحياةِ إلَّا إذا كانَ هو بعينِه طريقاً من طُرُقِ ٱلهِدايةِ وٱلحِكْمة؛ وليسَ هناك، في أموالِكَ ومَعَايشِك

---

(١) النزقة: الطائشة المنحرفة.

ٱلتي تجعلُكَ كاللصِّ مندفِعاً إلى كلِّ طريقٍ متى كانَ هو بعينِهِ طريقاً إلى نَهْبَةٍ أو سرقة. هنا، في الروح، إذْ تشعرُ ٱلروحُ أنَّها موجودةٌ، ثم تعملُ لِتُثْبِتَ أنَّها شاعرةٌ بوجودِها، ماضيةٌ إلى مصيرِها، منتهيةٌ بجسدِها إلى الموتِ الإنسانيِّ على سُنَّةِ النفسِ الخالدةِ؛ وليسَ هناك في ٱلحِسّ، إذْ يتعلقُ ٱلحسُّ بما يتقلَّبُ على الجسم، فهو مهتاجٌ لِشعورِهِ بوَشْكِ فنائِهِ فلا يُحْدِثُ إلَّا الألَمَ إنْ نالَ أو لم ينلْ، وهو منتهٍ بجسمِهِ إلى ٱلموتِ ٱلحيوانيِّ بينَ آكلٍ ومأكولٍ على سُنَّةِ الطبيعةِ الفانية.

أيُها ٱلحيُّ، إذا كانَتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك.

* * *

إنَّ ٱلحكيمَ ٱلذي ينظرُ إلى ما وراء ٱلأشياءِ فيتعرَّفُ أسرارَها، لا تكونُ لَهُ حياةُ ٱلذي يتعلّقُ بظاهرِها ولا أخلاقُهُ ولا نظرتُه؛ هذا ٱلأخيرُ هو في نفسِهِ شيءٌ مِنَ ٱلأشياءِ له مظهرُ ٱلمادةِ وخِداعُها عنِ ٱلحقيقة؛ وذلك الأولُ هو نفسُهُ سرٌّ مِنَ ٱلأسرارِ له رَوْعَةُ السرِّ وكشفُهُ عنِ ٱلحقيقة. ولِهذا كانَ في حياةِ ٱلأنبياءِ وٱلحكماءِ ما لا يُطيقُهُ ٱلناسُ ولا يَضْبطونَهُ إذا تكلَّفوه، بلْ يَنْخَرِقُ عليهم فيكونُ منهُ ٱلعجزُ والغَلَط، ويحدثُ منَ ٱلغلطِ الزَّلَل.

ونظرةُ نبيِّنا ﷺ إلى هذا الوجودِ نظرةٌ شاملةٌ مدرِكةٌ لِحقيقةِ ٱللانهاية، فيرى بِدايةَ كلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نِهايَتَهُ في ٱلتوِّ وٱللحظة، فلا وجودَ لَهُ إلا عارِضاً مارًّا، فهو في ٱعتبارِهِ موجودٌ غيرُ موجود، مبتدىءٌ مُنْتَهٍ معاً؛ وبذلك تَبطُلُ عندَهُ ٱلأشياءُ ٱلماديةُ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسِهِ ٱلعاليةِ إلَّا من أضعفِ جِهاتِها، ويجدُ لها الناسُ في حياتِهِمُ ٱلشجرةَ والفرْعَ وٱلثمرة، وما لَهَا عندَهُ هو جِذْرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يَفْتِنْهُ شيءٌ ولم يتعلقْ بِهِ شيء.

وكانَتِ ٱلدنيا تطولُ ٱلناسَ وتتقاصرُ عنه، وكانَتْ منقطعةَ النَّماءِ وهو ذاهبٌ في نموِّهِ ٱلروحيّ، وكأَنَّما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسِهِ ٱلحياةَ جديدةً خاليةً مِمَّا جمعَ فيها الزمنُ وأهلُهُ من طمعٍ وشَرَه، وجاءَ آدمُ لِيُعطِيَ ٱلأرضَ ناسَها من صُلْبِه، وجاءَ محمدٌ لِيُعطِيَ ٱلناسَ قوانِينَهُم من فضائِله؛ فآدمُ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَتْ لِتتسع، ومحمدٌ بشخصِهِ هو دنيا بُعثتْ لِتنتظِم.

وماذا يُفهَمُ مِنَ ٱلفلسفةِ ٱلأخلاقيَّةِ ٱلنبويّةِ ٱلعظيمة؟ يُفهمُ منها أنَّ ٱلشهواتِ خُلِقَتْ مع ٱلإنسانِ تتحكمُ فيه، لِينقلبَ بها إنساناً يتحكَّمُ فيها؛ وأنَّ الإنسانَ

ٱلصحيحَ ٱلذي لم تُزَوِّرْهُ ٱلدنيا يجبُ أنْ يكونَ ذا روح يمتدُّ فيَفيضُ عن غاياتِ جسمِهِ إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبحَ في حكمِ ٱلنورِ وٱنطلاقِهِ وحريتِه، ولا ينكمشُ فيحصرُهُ جسمُهُ في غاياتِهِ وضروراتِهِ فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ في حكمِ ٱلترابِ وأسرِهِ وعبوديتِه. فالفقرُ وما إليه، والزهدُ وما هو بسبيلٍ منه، وٱلانصرافُ عَنِ ٱلشهواتِ وٱلرذائل ـ كلُّ ذلك إنْ هو إلَّا تَراجُعُ ٱلنفسِ ٱلعاليةِ إلى ذاتها النورانيةِ حالاً بعدَ حال، وشيئاً بعدَ شيء، لِتُضيءَ على ٱلمادةِ فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تُقيمُ لها وزناً. فبينما الناسُ يَروْنَ ٱلأموالَ وٱلشهواتِ مادةَ حياةٍ وعملٍ وشعور، تراها هي مادةَ بحْثٍ ومعرفةٍ وٱعتبارٍ ليسَ غير؛ وبهذا تكونُ النفسُ ٱلعظيمةُ في الدنيا كأستاذِ ٱلمعمل: تدخلُ المادةُ إلى معملِهِ وهي مادةٌ وفكرة، وتخرجُ منه وهي حقيقةٌ ومعرفة، وعلى أيِّ أحوالِها فهي إنَّما تُحَسُّ في ذلك ٱلمعملِ بأصابعَ علميَّةٍ دقيقةٍ ليسَ فيها ٱلجمعُ ولا ٱلحِرْص، ولكنْ فيها ٱلذهنُ وٱلفكر؛ وليسَ لها طبيعةُ ٱلرغبةِ وٱلغفلة، ولكنْ طبيعةُ ٱلانتباهِ وٱلتحَرُّز، وليسَتْ في أسْرِ ٱلمادة، ولكنَّ ٱلمادةَ في أسرِها ما شاءَت.

ولا يسمَّى فقرُهُ ﷺ زُهداً كما يظنُّ الضعفاءُ مِمَنْ يتعلَّقونَ على ظاهرِ التاريخ ولا يُحققونَ أصولَهُ ٱلنفسيَّة؛ وأكثرُهم يقرأُ ٱلتاريخَ ٱلنبويَّ بأرواحٍ مظلمةٍ تُريهم ما ترى العينُ إذا ما ٱختلطَ الظلامُ ولَبِسَ ٱلأشياءَ فتراءَتْ مُجْمَلَةً لا تفصيلَ لها، مُفْرَغةً لا تَبْيينَ فيها؛ وما بها من ذلك شيءٌ، غيرَ أنَّها تتراءى في بقيةٍ مِنَ ٱلبصرِ لا تَغْمرُها.

وهلِ ٱلزهدُ إلَّا أنْ تطردَ ٱلجسمَ عنكَ وهو معَك، وتنصرفَ عنهُ وهو بكَ متعلق؟ فتلك سُخْريةٌ ومُثْلَة، وفي رأيي تشويهٌ لِلجسمِ بروحِه، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويهِ ٱلروحِ بجسمِها؛ فليسَ يعلمُ إلَّا اللّٰهُ وحدَه: أذاك تفسيرٌ لإنسانيةِ ٱلزاهدِ بٱلنور، أم هو تفسيرٌ بٱلتراب...

ولقدْ كانَ ﷺ يملكُ ٱلمالَ ويَجدُهُ، وكانَ أجوَدَ بِهِ مِنَ ٱلريحِ ٱلمرسَلَة، ولكنَّه لا يدعُهُ يتناسلُ[1] عندَهُ، ولا يتركُهُ يَنْبُتُ في عملِه، وإنَّما كانَ عملُهُ ترجمةً لإحساسِهِ ٱلروحيّ؛ فهو رسولٌ تعليميّ، قلبُهُ ٱلعظيمُ في القوانينِ ٱلكثيرةِ من واجباتِه، وهو يُريدُ إثباتَ وحدةِ ٱلإنسانيَّة، وأنَّ هذا ٱلإنسانَ مَعَ ٱلمادةِ ٱلصامتةِ

---

(١) يتناسل: يتكاثر.

ٱلعمياءِ مادةٌ مفكّرةٌ مميِّزة، وأنَّ الدينَ قوةٌ روحيَّةٌ يلقى بها المؤمنُ أحوالَ ٱلحياةِ فلا يثبتُ بإزائِها شيءٌ على شيئيَّتِه، إذِ الروحُ خلودٌ وبقاء، وٱلمادةُ فناءٌ وتحوُّل، ومن ثَمَّ تخضعُ ٱلحوادثُ لِلروحِ ٱلمؤمنةِ وتتغيرُ معها، فإنْ لم تخضَعْ لم تُخْضِعْها، وإن لم تتغيرِ ٱلروحُ بها؛ وأساسُ ٱلإيمانِ أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أنْ يتصرَّفَ بما لا ينتهي.

ما قيمةُ ٱلعقيدةِ إلّا بصدقِها في ٱلحياة، وأكثرُ ما يصنعُ هذا المالُ: إما ٱلكذبَ ٱلصُّرَاحَ في ٱلحياة، وإما شُبهةَ ٱلكذِب؛ ولهذا تنزَّهَ ٱلنبيُّ ﷺ عنِ ٱلتعلقِ بهِ، وزادَهُ بُعْداً منه أنَّهُ نبيُّ ٱلإنسانيَّةِ ومثَلُها الأعلى، فحياتُهُ ٱلشريفةُ ليسَتْ كما نَرى في ٱلناس: إيجاداً لِحلِّ مسائلِ الفردِ وتعقيداً لِمسائلِ غيرِه، ولا توسُّعاً من ناحيةٍ وتضييقاً مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بلْ كانَتْ حياتُهُ بعدَ ٱلرسالةِ منصرفةً إلى إقرارِ التوازنِ في ٱلإنسانيةِ، وتعليمِ ٱلجميعِ على تفاوتِهِم وٱختلافِ مراتبِهم كيف يكونُ لهم عقلٌ واحدٌ مِنَ ٱلكون؛ وبهذا العقلِ الكونيِّ ٱلسليمِ ترى ٱلمؤمنَ إذا عَرَضَ لَهُ الشيءُ مِنَ الدنيا يفْتِنُهُ أو يَصْرِفُهُ عن واجبِهِ ٱلإنسانيِّ ـ أبتْ نفسُهُ ٱلعظيمةُ إلّا أنْ ترتفعَ بطبيعتِها، فإذا هو في قانونِ ٱلسموّ، وإذا ٱلمادةُ في قانونِ ٱلثقل؛ فيرتفعُ وتَتَهَاوَى[1] ويُصبحُ الذهبُ ـ وإنَّهُ ذهبٌ ـ وليسَ فيهِ عندَ ٱلمؤمنِ إلّا روحُ ٱلتراب.

---

(١) تتهاوى: تسقط وترسب.

سموُ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

٢

قالَتْ عائشةُ (رضيَ ٱللَّهُ عنها): لم يمتلئْ جوفُ النبيِّ ﷺ شِبَعاً قطّ، وإنَّهُ كانَ في أهلِهِ لا يسألُهم طعاماً ولا يتشهَّاه؛ إنْ أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوْهُ شَرِب.

وقالت: ما شبعَ آلُ محمدٍ من خبزِ الشعيرِ يومينِ متتابعينِ حتى قُبضَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ.

وعنها: كنَّا آلَ محمدٍ نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار، إنْ هو إلَّا ٱلتمرُ وٱلماء.

وقالَتْ: ما رَفعَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ قَطُّ غداءً لِعَشَاء، ولا عَشاءً لِغداءٍ ولا ٱتَّخذَ من شيءٍ زَوجين؛ لا قميصين، ولا رِداءين، ولا إزارين، ولا زوجينِ مِنَ ٱلنعال.

ويُروى عنها، قالَت: تُوفيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ وليس عندي شيءٌ يأكلُهُ ذو كَبِد، إلَّا شطرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي.

وقالَتْ: توفيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عندَ يهوديّ في ثلاثينَ صاعاً من شعير.

وعنِ ٱبنِ عباس: كانَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ يَبيتُ ٱلليالِيَ ٱلمتتابعةَ وأهلَهُ طاوياً[1] لا يجدونَ عشاءً، وإنَّما كانَ خبزُهُم ٱلشعير.

وعنِ ٱلحسن، قال: خطَبَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ فقال: «واللَّهِ ما أمسَى في آلِ محمدٍ صاعٌ من طعام، وإنَّها لتِسعةُ أبيات!» واللَّهِ ما قالَها ٱستقلالاً، ولكنْ أرادَ أنْ تتأسَّى بِهِ أمتُه.

---

(١) طاوياً: جائعاً لم يأكل شيئاً.

وعنِ ٱبنِ مجير قال: أصابَ ٱلنبيَّ ﷺ جُوعٌ يوماً، فعمدَ[1] إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِه، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يومَ القِيامة؛ ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَهُ وهو مُهينٌ لها؛ ألا ربَّ مُهينٍ نفسَهُ وهو مكْرِمٌ لها».

وخُيِّرَ ﷺ أنْ يكونَ لَهُ مثلُ «أحُدٍ» ذهباً فقال: «لا يا ربِّ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبعُ يوماً فأحمدُك»!.

وكانَ يقولُ في دعائِهِ ويُكْثِرُ منه: «اللهمَّ أحْيِني مِسْكيناً، وأمِتْني مِسكيناً، وٱحشُرْنِي في زُمرةِ[2] المساكين».

* * *

هذا هو سيّدُ ٱلأمة، يُمسِكُهُ في ٱلحياةِ نبيًا عظيماً ما يُخْرِجُ غيرَه منها ذليلاً محتقَراً، وكأنَّما أشرقَ صفاءُ نفسِهِ على ترابِ ٱلأرضِ فردّهُ أشعةَ نور، على حينِ يُلقي الناسُ على هذا الترابِ من ظلامِ أنفسِهم فلا يَبْقى تراباً بل يرجعُ ظلاماً، فكأنَّهم إذْ يمشونَ عليهِ يَطَؤونَ المجهولَ بخَوْفِهِ ورَوْعتِه؛ ثم لا يستقرُّ ظلاماً بل يرجعُ آلاماً، فكأنَّهم يَنْبُتونَ على ٱلمرضِ لا على ٱلحياة؛ ثم لا يثبتُ آلاماً بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُباً تكونُ منه نَزَواتُ[3] ٱلحمقِ وٱلجنونِ في النفس.

هؤلاء الذين تعيشُ أنفسُهم في ٱلتراب، ويتمرَّغون بأخلاقِهم فيه، ينقلبون على ٱلحياةِ من صنعِ ٱلترابِ ناساً دُوداً كطبعِ الدُّودِ لا يقعُ في شيءٍ إلَّا أفسدَهُ أو قذَّره؛ أو قوماً سُوساً كطبعِ السُّوسِ لا ينالُ شيئاً إلَّا نَخَرَهُ أو عابَه، فهم يُوقِعُونَ الخَلَلَ في نِظامِ أنفسِهم، فإذا هي طائشةٌ تُخيِّلُ لهم كأنما ٱختلَّتْ نواميسُ الدنيا، وكأنَّ اللَّهَ قَبضَهم وبسطَ غيرَهم، وشَغَلَهم وفَرَّغَ مَنْ عداهم، وٱبتلاهم على مُسْكةِ الرزقِ[4] بٱلشهوةِ ٱلمسعورةِ[5] ٱلتي لا تتحققُ، فضرَبَهم بالمجاهَدةِ التي لا تنقطع؛ وأنعَمَ على غيرِهم في بَسْطَةِ ٱلرزق بالشجرةِ المسحورةِ ٱلتي لا تُقطَعُ منها ثمرةٌ إلَّا نبتَ غيرُها في مكانِها.

إنَّ ما وصفناهُ من فقرِ النبيّ ﷺ، وأنَّهُ لم يكنْ لَهُ عتيدٌ حاضرٌ، وأنَّهُ لم يجعلْ نفسَهُ في همِّ ٱلمال، ولا جعلَتْهُ نفسُهُ في همِّ ٱلفقر، وأنَّهُ لَقِيَ ٱلحياةَ حاملاً لا

---

(١) عمد إلى حجر: أتى بحجر.
(٢) زمرة: جماعة.
(٣) نزوات: رغبات.
(٤) مُسكة الرزق: ضيق العيش.
(٥) الشهوة المسعورة: الجامحة.

محمولاً، وٱستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً ـ كلُّ ذلك إنما يُثبتُ لِلدنيا أنَّهُ خُلِقَ وبُعِثَ وعاشَ لِيكونَ درساً عمليًا في حلِّ ٱلمشكلاتِ ٱلاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أنَّها لا تتعقَّدُ بطبيعتِها، ولكنْ بطبائِعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوَّتِها، ولكنْ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتِها[1]، ولكنْ بجزعِهم[2] منها؛ ولا تُعْضِلُ[3] من ذاتِ نفسِها، ولكنْ من سوءِ أثرِهم عليها وسوءِ نظرِهم لِأنفسِهم ولها.

فإذا قرأْتَ ٱلأحاديثَ ٱلتي أسلفْناها فلا تقرأْها زُهْداً وتقلّلاً، ولا فقراً وجُوعاً، ولا ٱختلالاً وحاجة، كما تُترجِمُها نفسُك أو تُحِسُّها ضرُورتُك؛ بلِ ٱنظرْ فيها وٱعتَبِرْها بنفسِه هو ﷺ، ثم ٱقرأْها شريعةً ٱجتماعيَّةً مُفصَّلةً على طبيعةِ ٱلنفس، قائمةً على أنْ تأخذَ نفسُ ٱلإنسانِ من قُوَى الدنيا عناصرَها ٱلحيَّة، لِتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرِها.

وٱلحياةُ ٱلعاملةُ غيرُ ٱلحياةِ ٱلوادعة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأمَّا الأولى فهي ما وصَفْنا وحكيْنا، وأمَّا الثانيةُ فهي تغَلّلُ ٱلنعمة، وإطلاقُ قانونِ ٱلتناسلِ في ٱلمالِ يُنمّي بعضُهُ بعضاً، ويَنْبُتُ بعضُهُ على بعض، ثُمَّ إقامةُ ٱلحياةِ على الزينةِ ومُقَوِّماتِها، وقيامُ ٱلزينةِ على ٱلخِداعِ وطِباعِه، فيُقْبِلُ ٱلمرءُ من دنياهُ على ما هو جديرٌ أنْ يصرِفَهُ عنها، ويُحِبُّ منها ما كانَ ينبغي أنْ يباغِضَهُ فيها. وكلُّ ما رأيْتَ وعلمْتَ في رجلٍ، قُوَّتُه ٱلقوةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمْتَ ورأيْتَ في أنثى، قوتُها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراهُ في فقرِهِ ﷺ هو ٱلسوادُ ٱلحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النَّجْميّة ٱلساطعة؛ وذلك الترابُ هوَ ٱلترابُ الحيّ؛ ترابُ ٱلزرعِ تحتَ ٱلنضرَةِ وٱلخُضرَة؛ وتلك ٱلحاجةُ ٱلجسميَّةُ هي ٱلحاجةُ ٱلحيّةُ الدافعةُ إلى حريَّةِ النفس؛ وذلك ٱلإقلالُ من فَهْمِ ٱللذةِ هوَ ٱلإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوةَ فهْمِ ٱلجمالِ في ٱلسماءِ وٱلأرضِ وما بينهما، وذلك ٱلضيقُ في حَيِّزِ[4] المَتاعِ لِلحاسَّةِ هو ٱلضيقُ ٱلحيُّ الذي يُوَسِّعُ حَيِّزَ المتاعِ لِلروح. وبالجملةِ فذلك النقصُ مِنَ المادةِ لم يكنْ إلّا لِنفيِ النقصِ عنِ ٱلفضيلة، وذلك ٱلاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو ٱلمعنى الآخرُ لِتقديسِ ٱلخالدِ الباقي.

---

(١) الصولة: الغلبة.
(٢) بجزعهم: بخوفهم.
(٣) تعضل: تشتدّ وتقوى.
(٤) حيّز: ملك.

فليسَ هناك خُبزُ الشعير، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرعِ عندَ ٱليهوديّ. كلا، كلا، بل هناك حقيقةٌ نفسيةٌ عقليّة، ثابتةٌ متّزنة، قائمةٌ بعناصرِها السامية: مِنَ اليقينِ وٱلعقلِ وٱلحِكْمة، إلى ٱلرفقِ وٱلحِلْم وٱلتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلميَّةَ الفلسفيَّةَ المفكِّرةَ أنَّ ذلك النبيَّ العظيمَ هو الرجلُ ٱلاجتماعيُّ ٱلتامُّ بأخلاقِهِ وفضائلِهِ، وهو الذي بُعِثَ لِتنقيحِ غريزةِ تنازعِ ٱلبقاء، وكَسْرِ هذه ٱلحيوانيَّة، وقَمْعِ[1] نزواتِها، وإماتةِ دَواعِيها، والسموِّ بخواطرِها؛ فهو بنفسِهِ صورةُ ٱلكمالِ الذي بُعِثَ لِتحقيقِهِ وإثباتِ أنَّهُ الممكنُ لا الممتنِع، والحقيقيُّ لا الخياليّ.

ليسَ هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثينَ صاعاً، ولا الفقرُ ولا خبزُ الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقريرُ أنّ ٱلنصرَ في معركةِ ٱلحياةِ لا يأتي مِنَ ٱلمالِ والثَّراءِ وٱلمتاع، ولكنْ مِنَ ٱلمعاناةِ وٱلشدّةِ وٱلصبر؛ وأنَّ التقدمَ الإنسانيَّ لا يُباعُ بيعاً، ولا يُؤخَذُ هَوْناً[2]؛ بل هو ٱنتزاعٌ مِنَ ٱلحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلَّبُ على الأزَمَاتِ ولا تتغلبُ الأزمَاتُ عليها، وأنَّ هذا المالَ وهذه الشهوات - في حقائقِ ٱلحياةِ ومَصَائِرِها - ككُنوزِ الأحلام: لا تكونُ كُنوزاً إلَّا في مواضعِها من أرضِ الغَفْلةِ وٱلنوم، فلا لذةَ منها إلَّا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلة. وليسَ إلَّا الأحمقُ أوِ ٱلمخذولُ أوِ الضائعُ هو الذي يقطعُ العمرَ نائماً أبداً لِيظلَّ مالكاً أبداً لِهَذِهِ الكنوز. وهو يعلمُ أنَّهُ لا بدَّ مستيقظ، وأنَّهُ متى ٱنتبه في آخرتِهِ لم يجدْ منها شيئاً «ووجدَ اللَّهَ عندَهُ فوفَّاهُ حِسابَه».

كلا، كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة: ينبغي أنْ تجدَ نفسَك، وموضِعَ نفسِك، وإيمانَ نفسِك، وعِزَّةَ نفسِك. فإذا أدركْتَ ذلك ورفعْتَ نفسَك إلى موضعِها الحقّ، وأقررْتَها فيه، وحبسْتَها عليه، وَحَدَدْتَها بالإنسانيَّةِ من ناحيةٍ وباللَّهِ منَ الناحيةِ المُقابِلة - رأيْتَ إذنْ أنَّ قيمتَك ٱلصحيحةَ في أنْ تكونَ وسيلةً تُعطِي وتعملُ لِتُعطي، لا غايةً تأخذُ وتعملُ لِتأخذ، ومهما ضُيِّقَ عليك فإنَّما أنت كالشجرةِ الطيِّبةِ تأخذُ تراباً وتصنعُ حَلاوة.

وما قطُّ نبتَتْ شجرةٌ في مكانِها لِتأكلَ وتشربَ وتختَزِنَ ٱلسّمادَ والترابَ وتحصِّنَهما وتمنَعَهما عن غيرِها، ولو قد فعلَتْ ذلك شجرةٌ لَكانَ هلاكُها فيما تفعل، إذْ تُحاولُ أنْ تُضاعِفَ فائدتَها من قانونِ العالم، فيكونُ طعمُها سريعاً في

(1) قمع: ضرب وقهر وأذلّ.

(2) هوناً: سهلاً.

إفسادِ الصلةِ بينَهما، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه، ومن ثَمَّ لا تجدُ في القانونِ نظامَها، فيُهلِكُها الذي كانَ يُحييها، وتستعبدُ لِحظّ نفسِها، فيُفْقِدُها ذلك حريّةَ الحياةِ التي كانَتْ لها في نفسِها.

* * *

يقولُ نبيُّنا ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ نفسَهُ تُنزَعُ من بينِ جنبيهِ وهو يَحمدُ ٱللَّهَ عزَّ وجلَّ». فهذا هو أسمى قانونٍ ٱجتماعيٍّ يُمكنُ أنْ تظفرَ بهِ ٱلإنسانيَّةُ، وما يأتِي لها ذلك إلَّا إذا أصبَحتْ تلك ٱلمعاني ٱلتي أومأنا[1] إليها شعوراً ٱجتماعيًّا عامًّا مقرَّراً في ٱلنفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأنَّ ٱلفردَ هو صورةُ ٱلمجتمعِ لا صورةُ نفسِه وحدَها، وأنَّ ٱلناسَ كحبِّ القمحِ في ٱلسُّنبلة، ليسَ لِجميعِهِ إلَّا قانونٌ واحد، فموضِعُ كلِّ حبةٍ مِنَ السنبلةِ هو ثروتُها، عَلَتْ أو سَفُلَتْ، وكَثُرَ ما تأخذُهُ أو قلَّ؛ وإذا كان أساسُ الحياةِ في ٱلحبَّةِ منها أنْ تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادةِ ٱلأرض، فتمامُ الحياةِ فيها أنْ يَغْمُرَهَا ٱلنورُ مِن حولِها، وأنْ يستمرَّ ٱلنورُ من حولِها يغمرُها.

فٱلحبَّةُ مِنَ السُّنبلةِ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، وإنَّها لَتُنزَعُ وما بها أنَّها نُزِعتْ، ولكنَّها أدَّتْ ما تؤدِّي، وٱنقطعَتْ من قانونٍ لِتَتَّصِلَ بقانونٍ غيرِه، وما ٱغتنَتْ ولا ٱفتقَرتْ، ولا أكثرَتْ ولا أخَفَّتْ بل حقَّقتْ موضِعَها، فإنَّها ما نبتَتْ لِتبقى، وما نَمَتْ إلَّا لِينقطعَ نماؤُها. وكذلكَ ٱلمؤمنُ ٱلصحيحُ ٱلإيمانِ، ٱلصادقُ النظرِ في ٱلحياة: هو أبداً في قانونِ آخرتِه، فهو أبداً في عملِ ضميرِه.

والناسُ في هذه الحياةِ كحَشْدٍ عظيم يتدفَّقُ من مَضِيقٍ بينَ جبلينِ ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنَّهم مُفْضُونَ[2] إلى هذه النهايةِ مرُّوا آمنينَ وكانَ في يقينهمُ ٱلسلامة، وفي صبرهمُ ٱلوقاية، وفي نِظامِهِمُ ٱلتوفيق، وفي تَعاونهمُ ٱلحياة؛ فهم بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، ما دامَ هذا قانونَ جميعهِم؛ فأيُّما رجلٍ شَذَّ منهم فٱضطربَ فطاشَ[3]، هَلَكَ وأهلَكَ مَنْ حولَه، ومَنْ عكَسَ منهم موضِعَهُ ونكَصَ على عَقِبيه، أهلَكَ مَنْ حولَهُ وهَلَكَ، وٱلموتُ أشقى ٱلموتِ هنا في هذا المضيقِ بينَ الجبلين ـ ٱعتبارُ الحاضِرِ حاضراً فقط، والضجرُ منه، وجعلُ كلِّ إنسانٍ نفسَهُ

---

(١) أومأنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، منتهون إلى.

(٣) طاش: انحرف.

غاية. والحياةُ أهنأُ الحياة ـ أعتبارُ الحاضرِ بما وراءَه، والصبرُ على شِدَّتِه، وجعلُ الإنسانِ نفسَه وسيلة.

* * *

فذلك معنى خبزِ ٱلشعير، والقِلّةِ وٱلضيق، ورهنِ ٱلدرعِ عندَ يهوديٍّ من سيِّدِ ٱلخَلْقِ وأكملِهم، ومَنْ لو شاءَ لَمشى على أرضٍ مِنَ الذهب. فهو ﷺ يُعلِّمُ ٱلإنسانيّةَ أنَّ الرجلَ العظيمَ النفسِ لا يكونُ في ٱلحياةِ إلّا ضيفاً نازلاً على نفسِه.

ومن معاني ذلك الفقْرِ العظيمِ أنَّ خبزَ ٱلشعيرِ هو رَمزٌ من رموزِ ٱلحياةِ على التحلّلِ من خُلُقِ الأثرَةِ، والبراءةِ من هوى التَّرَف؛ ورهنُ الدرعِ رمزٌ آخرُ على التخلُّصِ مِنَ ٱلكِبرياءِ وٱلطمع؛ والعُسرةُ رمزٌ ثالثٌ على مجاهدةِ الملَلِ ٱلحيِّ ٱلذي يُفْسِدُ ٱلحياةَ كما يُفْسدُ بعضُ ٱلنباتِ ٱلنبات. ومجموعُ هذه الرموزِ رمزٌ بحالِهِ على وجوبِ ٱلإيقاظِ ٱلنفسيِّ للأمةِ ٱلعزيزةِ التي تقودُ أنفسَها بمقاساةِ الشدائدِ ومُجاهدةِ ٱلطباع، لِتكونَ في كلِّ فردٍ مادةُ الجيش، ولِيصلُحَ هذا الجيشُ قائداً لِلإنسانيّة.

على أنَّهُ ﷺ حثَّ على طلبِ ٱليَسار[1]، وٱلتغلُّلِ مِنَ الأعمالِ ٱلشريفةِ بالغَلَّةِ وٱلمال، فقال: «إنك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء، خيرٌ من أنْ تَدَعَهم عَالَةً يتكفَّفون[2] ٱلناس». ورأى عابداً قدِ ٱنقطعَ لِلعبادةِ حتى أكلَتْ نفسُهُ جسمَه، ووصفوا لَهُ مِنْ زُهدِهِ وعِبادتِه، فقال ﷺ: «مَنْ يعولُه؟» قالوا: كلّنا نعولُه. فقال: «كلّكم خيرٌ منه! . . .» إلى أحاديثَ كثيرةٍ مرويّة، هي تمامُ ٱلقانونِ ٱلأدبيِّ ٱلاجتماعيِّ في الدنيا، تُثبِتُ أنَّ الحيَّ إنْ هو إلّا عملُ ٱلحيّ.

ولكنْ حينَ يكونُ سيدُ ٱلأمَّةِ وصاحبُ شريعتِها رجلاً فقيراً، عاملاً مُجاهداً، يكْدَحُ[3] لِعيشِه، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يوماً، فلم يقلِّبْ يدَهُ في تِلَادٍ[4] مِنَ ٱلمال يرثُه، ولم يجمعْهما على طَريفٍ[5] منه يُوَرِّثُه ـ فذلك هو ما بيَّناهُ وشرحْناه، وذلك كالأمرِ نافذاً لا رُخْصَةَ فيه، على ألَّا يتَّخذَ الغنيُّ مِنَ ٱلفقيرِ عبداً ٱجتماعيًّا لِفقرِ هذا ولِمالِ ذاك؛ بل هيَ ٱلمساواةُ ٱلنفسيَّةُ لا غيرُها وإنِ

---

(١) اليسار: الغنى.
(٢) يتكفّفون: يعيشون على الكفاف وشظف العيش.
(٣) يكدح: يتعب ويجدّ في عمله.
(٤) تلاد المال: المال الموروث.
(٥) طريف المال: حديثه وجديده.

ٱختلفَتْ طبقاتُ ٱلاجتماع. وٱلأكرمُ هو ٱلأتقى لِلّهِ بمعنى ٱلتقوى، وٱلأقومُ بالواجبِ على معنى الواجب، والأكفأُ لِلإنسانيَّةِ في معاني الإنسانيَّة.

فقرُ ذلك السيّدِ الأعظمِ ليسَ فقراً، بل هو كما رأيْت: ضبطُ السلطةِ الكائنةِ في طبيعةِ التملّك، لِقيامِ التعاوُنِ ٱلإنسانيِّ على أساسِهِ ٱلعمليّ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بينَ ٱلمصالحِ ٱلاقتصاديَّةِ ٱلطاغية: يمنعُ أنْ تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتَهلِكَ بها، ويُوجِبُ أنْ تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لِتحيَا بها.

والنبيُّ ٱلفقيرُ ٱلعظيمُ هو في ٱلتاريخِ من وراءِ كلِّ هذه ٱلمعاني، كالقاضي ٱلجالسِ وراءَ موادِّ ٱلقانون. ﷺ.

درسٌ منَ النبوة

قالوا: إنهُ لمَّا نَصر اللَّهُ (تعالى) رسولَهُ وردَّ عنهُ ٱلأحزابَ وفتَح عليهِ قُرَيْظَةَ وٱلنَّضِير[1]، ظنَّ أزواجُهُ ﷺ أنّه ٱختصَّ بنفائسِ ٱليهودِ وذخائرِهم؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة: عائشة، وحَفْصة، وأمَّ حبيبة، وسَوْدة، وأمَّ سَلَمة، وصفيّة، وميمونة، وزينب، وجُوَيْرية؛ فقعدْنَ حولَهُ وقلْن: يا رسولَ الله، بناتُ كِسرى وقَيْصَرَ في ٱلحَلْي وٱلحُلَلِ، وٱلإماءِ وٱلخَوَل[2]، ونحن ما تراهُ منَ ٱلفاقةِ وٱلضيق. . . وٱلَمْنَ قلبَهُ بمطالبتِهِنَّ لَهُ بتَوْسِعَةِ ٱلحال، وأنْ يعاملَهُنَّ بما تُعامِلُ بِهِ ٱلملوكُ وأبناءُ ٱلدنيا أزواجَهم؛ فأمرهُ اللَّهُ (تعالى) أنْ يتلوَ عليهنَّ ما نزلَ في أمرهِنَّ من تخييرهِنَّ في فِراقِه، وذلك قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[3] وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قالوا: وبدأَ ﷺ بعائشةَ ـ وهي أحبُهن إليه ـ فقال لها: «إنِّي ذاكرٌ لَكِ أمراً ما أُحبُّ أنْ تعجَلِي فيهِ حتى تَسْتأمري أبوَيك». قالَت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أستأمِرُ أبويَّ؟ بلْ أختارُ اللَّهَ ـ تعالى ـ ورسولَه.

ثم تَتَابَعْنَ كلُّهن على ذلك، فسمَّاهُنَّ ٱللَّهُ «أمَّهات المؤمنين»، تعظيماً لِحقهِنّ، وتأكيداً لِحرمتِهِنّ، وتفضيلاً لَهُنَّ على سائرِ ٱلنساء.

* * *

هذه هي ٱلقصةُ كما تُقرأُ في التاريخ وكما ظهرَتْ في ٱلزمانِ وٱلمكان، فلْنقرأها نحن كما هي في معاني ٱلحكمة، وكما ظهرَتْ في ٱلإنسانيَّةِ ٱلعالية؛ فسنجدُ لها غَوْراً[4] بعيداً، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفيًّا دقيقاً لِلأوهامِ وٱلحقائق.

---

(١) قريظة والنضير: هما قبيلتان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.
(٢) الخول: الخدم والحشم.
(٣) السراح: الطلاق، أما متعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.
(٤) غوْراً: عمقاً.

وهي قبلَ كلِّ هذا ومعَ كلِّ هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبَّهْ لهاأ حد، ومن أجلِها ذُكرتْ في ٱلقرآن الكريم، لِتكونَ نصًّا تاريخيًّا قاطعاً يُدَافِعُ بهِ التاريخُ عن هذا ٱلنبيِّ العظيمِ في أمرٍ من أمورِ ٱلعقلِ وٱلغريزة، فإنَّ جَهَلَةَ ٱلمبشرينَ في زمننا هذا، وكثيراً من أهل الزَّيغ[1] وٱلإلحاد، وطائفةً من قِصَارِ ٱلنظرِ في ٱلتحقيقِ ـ يزعمونَ أنَّ محمداً ﷺ إنَّما ٱستكثرَ مِنَ النساءِ لِأهواءِ نفسيةٍ محضةٍ وشهواتٍ كٱلشهوات؛ ويَتَطرَّقونَ من هذا الزعمِ إلى الشُّبْهة، ومنَ الشُّبْهةِ إلى سوءِ الظنّ، ومن سوءِ ٱلظنِّ إلى قبحِ ٱلرأي؛ وكلّهم غبيٌّ جاهل؛ فلو كانَ ٱلأمرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبِه، لَمَا كانَتْ هذه ٱلقصةُ ٱلتي أساسُها نفيُ الزينةِ وتجريدُ نسائِهِ جميعاً منها، وتصحيحُ ٱلنيَّةِ بينَهُ وبينهُنَّ على حياةٍ لا تحيا فيها معاني ٱلمرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوَّ ٱلزَّهر. . . . وأمرُهُ من قِبَلِ ربِّهِ أنْ يُخيِّرَهُنَّ جميعاً بينَ سراحِهِنَّ فيكُنَّ كالنساءِ ويجدْنَ ما شِئْنَ من دنيا ٱلمرأة، وبينَ إمساكِهِنَّ فلا يكُنَّ معَهُ إلَّا في طبيعةٍ أخرى تبدأُ من حيث تنتهي ٱلدنيا وزينتُها.

فٱلقصةُ نفسُها ردٌّ على زعمِ ٱلشهوات، إذ ليسَتْ هذه لغةَ ٱلشهوة، ولا سياسةَ معانيها، ولا أسلوبَ غضبِها أو رِضاها. وما هٰهنا تمليقٌ، ولا إطراءٌ، ولا نُعومةٌ، ولا حِرْصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بِلغةِ ٱلحاسة؛ وٱلقصةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليسَ فيها معنًى ولا شِبْهُ معنًى من حرارةِ ٱلقلب، ولا أثرٌ ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميلِ ٱلنفس، ولا حرفٌ أو صوتُ حرفٍ من لغةِ ٱلدم. وهي على منطقٍ آخرَ غيرِ ٱلمنطقِ ٱلذي تُستمالُ بهِ ٱلمرأة، فلم تقتصرْ على نفي ٱلدنيا وزينةِ الدنيا عنهُنّ، بل نَفَتِ ٱلأمَلَ في ذلك أيضاً إلى آخرِ الدهر، وأماتَتْ معناهُ في نفوسِهِنّ، بقَصْرِ ٱلإرادةِ منهُنّ على هذه الثلاثة: اللَّهُ في أمرِهِ ونهيه، والرسولُ في شدائدِهِ ومُكابَدَتِهِ[2]، والدارُ الآخرةُ في تكاليفِها ومَكَارِهِها. فليسَ هنا ظرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياسةٌ لِطبيعةِ ٱلمرأة، ولا ٱعتبارٌ لِمزاجِها، ولا زُلْفَى[3] لِأنوثتِها، ثم هو تخييرٌ صريحٌ بينَ ضِدينِ لا تتلوَّنُ بينَهما حالةٌ تكونُ منهما معاً، ثم هو عامٌّ لِجميعِ زوجاتِهِ لا يستثني منهُنَّ واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على ٱلمرأةِ وٱلاستمتاعِ بها لا يأتي بشيءٍ من هذا، بل يُخاطبُ في

---

(١) الزيغ: الانحراف عن الدين والكفر.

(٢) مكابدته: عاش فيه بجهد ومشقّة.

(٣) زُلفى: تقرّب.

ٱلمرأة خيالَها أولَ ما يُخاطب، ويُشبِعُهُ مُبالغةً وتأكيداً، ويُوسِعُهُ رَجاءً وأملاً، ويقرِّبُ لَهُ ٱلزمنَ ٱلبعيدَ، حتى لو كانَ في أولِ ٱلليلِ وكانَ الخِلافُ على الوقت، لَحقَّقَ لَهُ أنَّ ٱلظهرَ بعدَ ساعة...

* * *

وبرهانٌ آخرُ؛ وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتزوَّجْ نساءَهُ لِمتاعٍ مِمَّا يُمتِّعُ الخيالُ بهِ، فلو كانَ وَضْعُ الأمرِ على ذلك لَمَا ٱستقامَ ذلك إلَّا بالزينةِ وبالفنِّ ٱلناعمِ في الثوبِ والحِلْيةِ والتشكُّلِ كما نرى في ٱلطبيعةِ ٱلفنيَّة، فإنَّ ٱلمُمثِّلةَ لا تمثلُ ٱلروايةَ إلَّا في ٱلمسرحِ ٱلمهيأ بمناظرِهِ وجَوِّه... وقد كانَتْ نساؤُهُ ﷺ أعرفَ بِه؛ وها هو ذا ينفي ٱلزينةَ عنهُنَّ ويُخيرُهُنَّ ٱلطلاقَ إذا أصرَرْنَ عليها. فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكارِ الشهوة؟ وهل ترى إلَّا الكمالَ المحض؟ وهل كانَتْ متابعَةُ ٱلزوجاتِ ٱلتسعِ إلّا تسعةَ برُهاناتٍ على هذا الكمال؟

وكأنَّ النبيَّ ﷺ يُلقِي بهذه القصةِ درساً مستفيضاً في فلسفةِ ٱلخيالِ وسُوءِ أثره، على ٱلمرأةِ في أنوثتِها، وعلى ٱلرجل في رجولتِه؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهواتِ يُقابلُهُ تعقيدٌ في ٱلطبع، وكَذِبٌ في ٱلحقيقةِ ينشأُ عنهُ كذبٌ في ٱلخلُق، وأنَّه صَرْفٌ لِلمرأةِ إلى حياةِ ٱلأحلام والأمانيِّ والطيْشِ وٱلبطَرِ وٱلفراغ، وتعويدُها عاداتٍ تُفسِدُ عاطفتَها، وتُضيفُ إليها ٱلتصنّعَ فتُضعِفُ قوتَها ٱلنفسيَّةَ ٱلقائمةَ على إبداعِ ٱلجمالِ من حقيقتِها لا من مظهرِها، وتحقيقُ ٱلفائدةِ من عملِها لا من شكلِها.

وكلُّ محاسنِ المرأةِ هي خيالٌ متخيِّلٌ ولا حقيقةَ لِشيءٍ منها في ٱلطبيعة، وإنَّما حقيقتُها في ٱلعينِ ٱلناظرةِ إليها فلا تكونُ ٱمرأةٌ فاتنةً إلَّا لِلمفتونِ بها ليسَ غير. ولو ردَّتِ ٱلطبيعةُ على مَنْ يُشَبِّبُ[1] بٱمرأةٍ جميلةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُك وهذه فتنتُكِ وهذا سِحرُكِ وهذا وهذا؛ لقَالَتْ لَهُ الطبيعة: بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت...

وبهذا يختلفُ ٱلجمالُ عندَ فقدِ ٱلنظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورةِ ولا سِحرُ الشكلِ ولا فَراهةُ المنظر، وإنَّما يفتنُهُ صوتُ ٱلمرأةِ ومَجَسَّتُها[2] ورائحتُها.

فلا حقيقةَ في ٱلمرأةِ إلَّا المرأةُ نفسُها؛ ولو أُخِذَتْ كلُّ أنثى على حقيقتِها هذه لَمَا فسدَ رجلٌ ولا شقيَتِ ٱمرأة، ولا ٱنتظمَتْ حياةُ كلِّ زوجينِ بأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

---

(١) يتشبَّب: يتغزّل.

(٢) مجسّتها: لمسها.

يُريدُ النبيُّ ﷺ لِيُعلِّمَ أمَّتَهُ أنَّ حَيفَ[1] الغريزةِ على العقلِ إفسادٌ لِهذا العقل، وأنَّه متى أُخْضِعَتِ ٱلمرأةُ لِحظِّ ٱلغريزةِ وٱختيارها، كانَتْ حياتُها ٱستجابةً لِجنونِ ٱلرجلِ، وملأَتْها معاني ٱلتزيُّدِ وٱلتصنُّع؛ فيُوشِكُ أنْ ينقلَها هذا عن طبيعتِها ٱلساميةِ التي أكثرُها في ٱلحِرمان وٱلإيثارِ وٱلصبرِ وٱلاحتمال، ويردَّها إلى أضدادِ هذه الصفات، فيقومُ أمرُها بعدُ على ٱلأثرةِ وٱلمصلحةِ وٱلتفادي وٱلضجَرِ وٱلتبرُّم[2] وٱلإلحاحِ وٱلإزعاج، ويُضعفُ معنى ٱلسلْبِ ٱلراسخِ في نفسِها من أصلِ ٱلفِطْرَة؛ فيتبدَّلُ حياؤُها، وفي ٱلحياءِ ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفي الإخلاصِ ردٌّ لها عن أشياءَ أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفي قناعتِها مُحاجَزَةٌ بينَها وبينَ الشرِّ.

وبهذا ونحوِهِ يفسدُ ما بين ٱلرجلِ وٱلمرأةِ ٱلمتصنِّعة؛ فإذا أكثرُ ٱلمتصنِّعاتِ لا يكونُ منَ ٱلنساءِ مَشَاكلُ فقط، بل تكونُ من حُلولِ ٱلمشاكلِ معهُنَّ مشاكلُ أخرى...

* * *

ولُبابُ هذه القصةِ أنَّ النبيَّ ﷺ يجعلُ نفسَهُ في الزواجِ المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ كما هو دأبُهُ[3] في كلِّ صفاتِهِ الشريفة، فهو يُريدُ أنْ تكونَ زوجاتُهُ جميعاً كنساءِ فقراءِ المسلمين، لِيكونَ منهُنَّ المثَلُ ٱلأعلى لِلمرأةِ ٱلمؤمنةِ العاملةِ الشريفةِ التي تَبرَعُ البراعةَ كلَّها في ٱلصبرِ وٱلمجاهدةِ وٱلإخلاصِ وٱلعِفَّةِ وٱلصراحةِ وٱلقناعة، فلا تكونُ ٱلمرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لِتتمَّ بها في ٱلخيال، ولكنْ إنسانيةً تطلبُ كمالَها الإنسانيَّ لِتتمَّ بهِ في ٱلواقع.

وهذه الزينةُ ٱلتي تتصنعُ بها ٱلمرأةُ تكادُ تكونُ صورةَ المكرِ والخِداعِ والتعقُّد، وكلّما أسرفَتْ في هذِهِ أسرفَتْ في تلك، بَلْهَ ٱلزينةُ لِوجهِ ٱلمرأةِ وجِسمِها سلاحٌ من أسلحةِ ٱلمعاني: كالأظافرِ وٱلمخالبِ وٱلأنياب، غيرَ أنَّ هذه لوحْشِيةِ ٱلطبيعةِ ٱلحيَّةِ ٱلمفترسة، وتلك لوحشيةِ الغريزةِ الحيَّةِ ٱلتي تُريدُ أنْ تفترس. ولا تُنْكِرُ ٱلمرأةُ نفسُها أنّ الزينةَ على جسمِها ثرثرةٌ طويلةٌ تقولُ وتقولُ وتقول...

* * *

وإنَّما يكونُ أساسُ ٱلكمالِ ٱلإنسانيّ، في ٱلإنسانِ ٱلعاملِ ٱلمُجاهد: لا يحصُرُ نفسَهُ في شيءٍ يُسمَّى متاعاً أو زينة، ولا يقدِّر نفسَهُ بما يجمعُ لها أو بما يجمعُ حولَها، ولا يعتدُّ ما يكونُ من ذلك إلّا كالتعبيرِ من عملِ ٱلشهواتِ عنِ الشهوات.

---

(١) حيف: ظلم، جوْر.

(٢) التبرّم: إظهار السأم والضجر.

(٣) دأبه: عادته.

ونبيُّنا ﷺ هو الغايةُ في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بْنُ ٱلخطاب، فإذا هو على حَصيرٍ وعليهِ إزارُهُ وليسَ عليهِ غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جنبِه. قال عمر: وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعيرٍ نحو ٱلصاع، وإذا إهابٌ معلَّق[1]، فٱبتَدَرَتْ عيناي[2]، فقال: ما يُبكيك يا ٱبنَ ٱلخطَاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ ٱلله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبِك، وهذه خزائنُكَ لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصرُ في ٱلثمارِ وٱلأنهارِ وأنت نبيُّ ٱللَّهِ وصفوتُهُ وهذه خزائنُك؟

وجاءَ مرة من سفَرٍ فدخل على ٱبنتِهِ فاطمةَ (رضيَ اللَّهُ عنها) فرأى على بابِها سِتْراً وفي يديها قُلبَيْنِ[3] من فِضَّة، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهي تبكي، فأخبرَتْهُ برجوعِ أبيها، فسألَهُ في ذلك فقالَ ﷺ: من أجلِ ٱلسترِ وٱلسِّوارين.

فلمَّا أخبَرها أبو رافع هتكَتِ[4] ٱلسترَ ونزَعَتِ ٱلسوارينِ فأرسلَتْ بهما بِلالاً إلى النبيّ ﷺ وقالت) قد تَصدَّقْتُ به، فضعْهُ حيثُ ترَى. فقال لِبلال) اذهبْ فبِعْهُ وٱدفعْهُ إلى أهلِ ٱلصُّفَّة[5]. فباعَ ٱلقُلبينِ بدرهمينِ ونصفٍ (نحو ثلاثةَ عشرَ قرشاً) وتصدَّقَ بِهِ عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنتِ أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ حِليةً بدرهمينِ ونصفٍ وإنَّ في ٱلمسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلَها.

أيُّ رجلٍ شَعْبيٌّ على ٱلأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيهِ لِلأمةِ كلِّها غريزةُ الأب، وفيه على كلِّ أحوالِهِ اليقينُ ٱلذي لا يتحوَّل، وفيهِ ٱلطبيعةُ ٱلتامّةُ التي يكونُ بها ٱلحقيقيُّ هو ٱلحقيقي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةً بدرهمينِ ونصف، لا تكونُ زينةً في رأيِ ٱلحقِّ إذا أمكنَ أنْ تكونَ صَدَقةً بدرهمينِ ونصف؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنًى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ ٱلجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريّ قد جارَ على ما هو ٱلضروري؛ وفيها خطأٌ منَ ٱلكمالِ إنْ صحَّ في حِسابِ الحلالِ والحرام لم يصحَّ في حسابِ ٱلثوابِ وٱلرحمة.

تعالَوْا أيُّها ٱلاشتراكيُّونَ فٱعرِفوا نبيَّكمُ ٱلأعظم؛ إنَّ مذهبَكم ما لم تُحْيِهِ

---

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.
(٢) ابتدرت عيناي: دمعت.
(٣) القُلب، بالضم هو سوار من فضة.
(٤) هتكت الستر: مزقته.
(٥) الصُّفة: بالضم، هي الغرفة.

فضائلُ الإسلام وشرائعُه ـ إنَّ مذهبَكم لَكالشجرةِ ٱلذابلةِ تُعلِّقونَ عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيطِ . . . كلَّ يومٍ تَحِلُّون، وكلَّ يومٍ تَربطُون، ولا ثمرةَ في الطبيعة.

ليسَتْ قصةُ ٱلتخيير هذه مسألةً من مسائلِ الغَني والفقيرِ في معاني المادة، ولكنَّها مسألةٌ من مسائلِ ٱلكمالِ وٱلنقصِ في معاني ٱلروح؛ فهي صريحةٌ في أنَّ النبيَّ ﷺ أستاذُ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ واجبُهُ أنْ يكونَ فضيلةً حيَّةً في كلِّ حياة، وأنْ يكونَ عَزاءً في كلِّ فقْر، وأنْ يكونَ تهذيباً في كلِّ غِنى، ومن ثَمَّ فهو في شخصِهِ وسيرتِهِ ٱلقانونُ ٱلأدبيُّ لِلجميع.

وكأنَّهُ ﷺ يُريدُ لِيُعلِّمَ الأُمَّةَ بهذهِ القصةِ أنَّ ٱلجماعاتِ لا تَصلُحُ بٱلقوانينِ وٱلشرائعِ وٱلأمرِ وٱلنهي، ولكنْ بعملِ عظمائِها في ٱلأمرِ وٱلنهي؛ وأنَّ ٱلحاكمَ على الناسِ لا ينبغي أنْ يحكمَ إلَّا إذا كانَ في نفسِهِ وطبيعتِهِ يُحسُّ فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّطِ[1] لا الخاضِع، لِيكونَ أولُ استقلالِهِ استقلالَ داخِلِه.

فليسَ ذلك فقْراً ولا زُهداً كما ترى في ظاهرِ ٱلقصة، ولكنَّها جُرْأَةُ ٱلنفسِ العُظمَى في تقريرِ حقائقِها ٱلعمليَّة.

* * *

وتنتهي ٱلقصةُ في عبارةِ ٱلقرآنِ ٱلكريم بتسميةِ زوجاتِهِ ﷺ: «أمَّهات المؤمنين» بعدَ أنِ ٱخترْنَ ٱللَّهَ ورسولَهُ وٱلدارَ الآخرة؛ وعلماءُ التفسيرِ يقولون: إنّ ٱللَّهَ (تعالى) كافأهُنَّ بهذه التسمية؛ وليسَ ذلك بشيءٍ ولا فيهِ كبيرُ معنًى، وإنّما تُشعِرُ هذه التسميةُ بمعنًى دقيقٍ هو آيةٌ من آياتِ ٱلإعجاز؛ فإنَّ الزوجةَ الكاملةَ لا تكملُ في ٱلحياةِ ولا تكملُ ٱلحياةُ بها إلَّا إذا كانَ وصْفُها مع رجُلِها كوصفِ الأمّ: ترى ابنَها بالقلْبِ ومعانيه، لا بالغريزةِ وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذٍ مُمكنةُ ٱلسعادةِ لِهذه الزوجة، وكلُّ شقاءٍ محتمَلٌ بصبر، وكلُّ جِهادٍ فيهِ لذتُهُ ٱلطبيعيَّة، إذْ يقومُ ٱلبيتُ على الحُبِّ الذي هو الحُبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينةُ الحياةِ وجودَ الحيِّ نفسِهِ لا وجودَ ٱلمادة، وتُبْنَى النفسُ على ٱلوفاءِ ٱلطبيعيِّ كوفاءِ ٱلأمّ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليهِ في سبيلِ حقيقتِهِ أنْ يتغلَّبَ على الدنيا وزينتِها.

وآخِرُ ما نستخرجُ مِنَ القصةِ في درسِ ٱلنبوَّةِ هذه الحكمة:

بِحَسْبِ المؤمنِ إذا دخَلَ دارَهُ أنْ يجدَ حقيقةَ نفسِهِ الطيِّبة، وإنْ لم يجدْ حقيقةَ كِسْرى ولا قَيصر.

---

(١) المتسلّط: المسيطر.

شهرٌ لِلثورة
فلسفة الصيام

لم أقرأ لِأحدٍ قولاً شافياً في فلسفةِ الصومِ وحِكمتِه؛ أمَّا منفعتُهُ لِلجسم، وأنَّهُ نوعٌ مِنَ ٱلطبِّ لَهُ، وبابٌ مِنَ السياسةِ في تَدبيرِه؛ فقد فرغَ ٱلأطباءُ من تحقيقِ ٱلقولِ في ذلك؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشهرِ ٱلمباركِ إنْ هي إلَّا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ في كلِّ سنةٍ مرةً لِتقويةِ المَعِدةِ وتصفيةِ الدمِ وحِياطةِ أنسجةِ الجسم؛ ولكنَّا ٱلآنَ لَسْنَا بصَدَدٍ من هذا، وإنَّما نستوحي تلك الحقيقةَ الإسلاميَّةَ الكبرى التي شَرَعَتْ هذا الشرعَ لِسياسةِ الحقائقِ الأرضيَّةِ الصغيرة، عاملةً على ٱستمرارِ الفكرةِ ٱلإنسانيَّةِ فيها، كي لا تتبدَّلَ النفسُ على تغيّرِ ٱلحوادثِ وتَبَدُّلِها، ولِكيلا تجهلَ الدنيا معانيَ الترقيعِ إذا أتَتْ على هذه الدنيا معاني ٱلتمزيق.

من معجزاتِ ٱلقرآنِ الكريم أنَّه يدَّخرُ[١] في ٱلألفاظِ المعروفةِ في كلِّ زمنٍ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لِكلِّ زمن، فَيُجلِّيها[٢] لِوقتِها حينَ يَضِجُّ الزمانُ العلميُّ في مَتاهَتِهِ وحَيْرَتِهِ، فيَشْغَبُ[٣] على التاريخ وأهلِهِ مُسْتَخِفًّا بالأديان، ويذهبُ يتتبَّعُ ٱلحقائق، ويستقصي في فنونِ ٱلمعرفة، لِيستخلصَ من بينِ كُفْرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعيّاً سائغاً، يتناولُ الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضبِطُها بأسرارِ ٱلعِلْم، ويُوجِّهُها بالعِلْمِ إلى غايتِها ٱلصحيحة، ويُضاعِفُ قُواها بأساليبِهِ ٱلطبيعيَّة، لِيُحقِّقَ في إنسانيةِ العالَمِ هذه الشَّيئيَّةَ ٱلمجهولةَ التي تتوهَّمُها ٱلمذاهبُ الاجتماعيَّةُ العلميَّةِ بينَ يدي عُلمائها: لم يحقّقوها ولم يَيْأسوا منها، وبقيَتْ تلك ٱلمذاهبُ كعقاربِ الساعةِ في دَوْرَتِها: تبدأُ من حيثُ تبدأُ ثم لا تنتهي إلَّا إلى حيثُ تبدأ. . .

* * *

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يُحاولُ تغييرَ ٱلإنسانِ

---

(١) يدّخر: يوفّر ويختزن.

(٢) يجليها: يكشفها.

(٣) يشغب: يشوّش.

بزيادةٍ ونقصٍ في أعصابِه؛ ولا يزالُ مذهبُهُم في الدنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائل؛ ولو أنَّهم تدَبَّروا حِكمةَ ٱلصوم في ٱلإسلام، لَرأَوْا هذا الشهرَ نِظاماً عمليًّا من أقوى وأبدعِ ٱلأنظمةِ ٱلاشتراكيّةِ ٱلصحيحة: فهذا ٱلصومُ فَقْرٌ إجباريّ تَفرضُهُ ٱلشريعةُ على الناسِ فَرضاً لِيتساوَى الجميعُ في بواطِنِهم، سواءٌ منهم مَن مَلَكَ ٱلمليونَ مِنَ ٱلدنانير، ومَن ملكَ القِرشَ الواحد، ومَنْ لم يملكْ شيئاً؛ كما يتساوَى الناسُ جميعاً في ذهابِ كِبريائِهِمُ ٱلإنسانيَّةِ بالصلاةِ ٱلتي يفرضُها ٱلإسلامُ على كلِّ مسلم؛ وفي ذهابِ تَفَاوُتِهِمُ ٱلاجتماعِيِّ بِٱلحجّ الذي يفرضُهُ على مَنِ ٱستطاع.

فقرٌ إجباريٌّ يُرادُ بِهِ إشعارُ النفسِ ٱلإنسانيَّةِ بطريقةٍ عمليَّةٍ واضحةٍ كلَّ ٱلوضوح، أنَّ الحياةَ ٱلصحيحةَ وراءَ ٱلحياةِ لا فيها، وأنَّها إنَّما تكونُ على أتمِّها حين يتساوَى الناسُ في ٱلشعورِ لا حينَ يختلفون، وحينَ يتعاطَفُونَ بإحساسِ ٱلألمِ ٱلواحدِ لا حينَ يتنازَعونَ بإحساسِ ٱلأهواءِ ٱلمتعدِّدة.

ولو حقَّقْتَ لَرأيْتَ الناسَ لا يختلفونَ في الإنسانيَّةِ بعقولِهم، ولا بأنسابِهم، ولا بمراتبِهم، ولا بما ملكوا؛ وإنَّما يختلفون ببطونِهم وأحكامِ هذه البطونِ على ٱلعقلِ وٱلعاطفة؛ فمِنَ ٱلبطنِ نكبةُ ٱلإنسانيَّة، وهو ٱلعقلُ العمليُّ على الأرض؛ وإذا ٱختلفَ ٱلبطنُ وٱلدماغُ في ضرورةٍ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قِوَى الهضمِ فلم يُبقِ ولم يَذَرْ.

ومن هٰهنا يتناولُهُ الصومُ بٱلتهذيبِ وٱلتأديبِ وٱلتدريب، ويجعلُ الناسَ فيهِ سواءً: ليسَ لِجميعِهم إلَّا شعورٌ واحدٌ وحِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ ويُحْكِمُ ٱلأمرَ فيحولُ بينَ هذا البطنِ وبينَ ٱلمادة، ويُبالغُ في إحكامِهِ فيُمسِكُ حَواشيَهُ العصبيَّةَ في الجسمِ كلِّه يمنعُها تغذيتَها ولَذتَها حتى نَفْثَةَ من دخينة[1].

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها في حالةٍ نفسيَّةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بها النفسُ في مشارقِ الأرضِ ومغارِبها، ويُطْلِقُ في هذه الإنسانيَّةِ كلِّها صوتَ الروح يُعلِّمُ الرحمةَ ويدعو إليها، فيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيَّنةً هي كلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيَّةِ مِنَ ٱلحقّ، وهي تلك الفكرةُ التي يَكونُ عنها مساواةُ الغنيّ لِلفقيرِ من طبيعتِهِ، وٱطمئنانُ الفقيرِ إلى الغنيّ بطبيعتِهِ؛ ومن هذينِ: (الاطمئنانِ والمساواةِ)، يكونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسينِ اللتينِ هما السَّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ ٱلإنسانيِّ؛ وإذا أنت

---

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نزعَتَ هذه الفكرةَ مِنَ الاشتراكيَّةِ بقي هذا المذهبُ كلُّهُ عَبَثاً مِنَ العبَثِ في محاولةِ جعْلِ التاريخِ الإنسانيِّ تاريخاً لا طبيعةَ له.

* * *

من قواعدِ النفسِ أنَّ الرحمةَ تنشأُ عنِ ٱلألم، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعيِّ ٱلعظيمِ في ٱلصوم، إذْ يُبالِغُ أشدَّ المبالغة، ويدقِّقُ كلَّ التدقيق، في منعِ الغِذاء وشبهِ الغِذاءِ عنِ ٱلبطنِ وحواشيهِ مدةً آخرُها آخرُ ٱلطاعة؛ فهذه طريقةٌ عمليَّةٌ لِتربيةِ الرحمةِ في النفس، ولا طريقةَ غيرُها إلَّا ٱلنكباتُ وٱلكوارث؛ فهما طريقتانِ كما ترى: مُبصِرةٌ وعمياء، وخاصةٌ وعامَّة، وعلى نِظامٍ وعلى فَجْأَة.

ومتى تحقَّقتْ رحمةُ الجائعِ الغنيِّ لِلجائعِ ٱلفقير، أصبحَ لِلكلمةِ ٱلإنسانيَّةِ الداخليَّة سلطانُها النافذ، وحَكمَ ٱلوازعُ[1] النفسِيُّ على ٱلمادة؛ فيسمعُ الغنيُّ في ضميرِهِ صوتَ الفقيرِ يقول: «أعطني». ثُمَّ لا يسمعُ منهُ طلباً مِنَ الرجاء، بل طلباً مِنَ الأمرِ لا مفرَّ من تلبيتِهِ والاستجابةِ لِمعانيه، كما يُواسي ٱلمبتَلَى مَنْ كانَ في مثلِ بلائهِ.

أيةُ معجزةٍ إصلاحيَّةٍ أعجبُ من هذه المعجزةِ الإسلاميَّةِ التي تقضي أنْ يُحذَفَ مِنَ الإنسانيَّةِ كلِّها تاريخُ البطنِ ثلاثينَ يوماً في كلِّ سنة، لِيحِلَّ في محلِّهِ تاريخُ النفس؟ وأنا مُستيقِنٌ أنَّ هناك نسبةً رياضيَّةً هيَ ٱلحِكمةُ في جعلِ هذا الصومِ شهراً كاملاً من كلِّ ٱثني عشرَ شهراً، وأنَّ هذه النسبةَ متحقِّقةٌ في أعمالِ ٱلنفسِ لِلجسم، وأعمالِ ٱلجسمِ لِلنفس؛ كأنَّهُ ٱلشهرُ الصِّحيُّ ٱلذي يفرضُهُ الطِّبُّ في كلِّ سنةٍ لِلراحةِ وٱلاستجمام[2] وتغييرِ ٱلمعيشة، لإِحداثِ ٱلترميمِ العصبيِّ في ٱلجسم، ولَعلَّ ذلك آتٍ مِنَ العلاقةِ بينَ دَوْرةِ الدمِ في ٱلجسمِ ٱلإنسانيِّ وبينَ ٱلقمرِ منذُ يكونُ هِلالاً إلى أنْ يدخلَ في ٱلمُحَاق؛ إذ تنتفخُ العروقُ وتَربو في النصفِ الأولِ مِنَ ٱلشهر، كأنَّها في (مَدّ) من نورِ القمرِ ما دام هذا النورُ إلى زيادة، ثم يُراجعُها (الجَزْر) في النصفِ الثاني حتى كأنَّ لِلدمِ إضاءةً وظلاماً. وإذا ثبَتَ أنَّ لِلقمرِ أثراً في الأمراضِ ٱلعصبيَّة، وفي مدِّ الدمِ وجَزرِهِ[3]، فهذا من أعجبِ ٱلحِكمةِ في أنْ يكونَ الصيامُ شهراً قمريًّا دونَ غيره.

---

(١) الوازع: الرّادع.

(٢) الاستجمام: الراحة.

(٣) الجزر: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المدّ.

وفي ترائي الهلالِ ووجوبِ الصومِ لِرؤيتِهِ معنًى دقيقٌ آخر، وهو ـ مع إثباتِ رؤيةِ ٱلهلالِ وإعلانِها ـ إثباتُ الإرادةِ وإعلانُها، كأنَّما ٱنبعثَ أولُ الشعاعِ السماويِّ في التنبيهِ الإنسانيِّ العامِّ لِفروضِ ٱلرحمةِ وٱلإنسانيَّةِ وٱلبرّ.

وهنا حِكمةٌ كبيرةٌ من حِكَمِ ٱلصوم، وهي عملُهُ في تربيةِ ٱلإرادةِ وتقويتِها بهذا الأسلوبِ ٱلعمليّ، ٱلذي يُدَرِّبُ الصائمَ على أن يمنعَ باختيارهِ من شهواتِهِ ولذَّةِ حيوانيتِه، مُصِرًّا على ٱلامتناع، مُتهيِّئاً لَهُ بعزيمتِه، صابراً عليهِ بأخلاقِ ٱلصبر، مُزاوِلاً في كلِّ ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيَّةٍ لاِكتسابِ ٱلفكرةِ الثابتةِ ترسَخُ لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّل، ولا تعدو عليها عوادي ٱلغريزة.

وإدراكُ هذه القوَّةِ مِنَ ٱلإرادةِ ٱلعمليَّةِ منزلةٌ ٱجتماعيةٌ سامية، هي في ٱلإنسانيَّةِ فوقَ منزلةِ ٱلذكاءِ والعِلْم، ففي هذين تعرضُ ٱلفكرةُ مارّةً مُرورَها، ولكنَّها في ٱلإرادةِ تعرِضُ لِتستقرّ وتتحقَّق. فانظرْ في أي قانونٍ مِن ٱلقوانين، وفي أيَّةِ أمَّةٍ مِنَ الأمم، تجدُ ثلاثينَ يوماً من كلِّ سنةٍ قد فُرِضَتْ فرضاً لِتربيةِ إرادةِ الشعبِ ومزاولتِهِ فكرةً نفسيّةً واحدةً بخصائصِها ومُلابساتِها حتى تستقرَّ وترسخَ وتعودَ جزءاً من عملِ ٱلإنسان، لا خيالاً يمرُّ برأسِهِ مَرًّا.

أليَستْ هذه هي إتاحةَ[1] الفرصةِ العمليَّةِ التي جعلوها أساساً في تكوينِ الإرادة؟ وهل تبلغُ الإرادةُ فيما تبلغ، أعلى من منزلتِها حينَ تجعلُ شهواتِ المرءِ مُذْعِنةً لِفكرِهِ، مُنقادةً لِلوازعِ النفسيّ فيه، مُصَرَّفَةً بِالحسِّ الدينيِّ المسيطِرِ على النفسِ ومشاعِرِها.

أمَا ـ واللهِ ـ لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ ٱلأرضِ جميعاً، لآلَ معناهُ أَنْ يكونَ إجماعاً مِنَ ٱلإنسانيَّةِ كلِّها على إعلانِ الثورةِ شهراً كاملاً في السنة، لِتطهيرِ العالمِ من رذائلِهِ وفسادِه، ومَحْقِ[2] الأثَرَةِ والبخلِ فيه، وطَرْحِ المسألةِ النفسيَّةِ لِيتدَارَسَها أهلُ الأرضِ دِراسةً عمليَّةً مدةَ هذا الشهرِ بطولِه، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ ٱمرأةٍ إلى أعماقِ نفسِهِ ومَكامِنِها، لِيختبرَ في مصنعِ فكرِهِ معنى ٱلحاجةِ ومعنى الفقر، ولِيفهمَ في طبيعةِ جسمِه ـ لا في الكتب ـ معانيَ الصبرِ والثباتِ والإرادة، ولِيبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانيَّةِ والمواساةِ والإحسان؛ فيُحقِّقُ بهذه وتلك معانيَ ٱلإخاءِ والحريَّةِ وٱلمساواة.

---

(١) إتاحة: إفساح المجال.

(٢) محق: محو.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ في الزمن؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قالَ الزمنُ لِأهلِه: هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامي، ومن طبيعتِكم لا من طبيعتي؛ فيُقْبِلُ ٱلعالَمُ كلُّهُ على حالةٍ نفسيَّةٍ بالغةِ السموّ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتِها على معالي الأمورِ ومكارمِ الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرَ غير وجهِها الكالح، ويراها كأنَّما أُجِيعَتْ من طعامِها ٱليوميِّ كما جاعَ هو، وكأنَّما أُفْرِغَتْ من خَسائِسِها وشهواتِها كما فَرَغَ هو، وكأنَّما أُلْزِمَتْ معانيَ ٱلتقوى كما أُلْزِمَها هو. وما أجملَ وأبدعَ أنْ تَظهرَ ٱلحياةُ في العالمِ كلِّهِ ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملةً في يدِها السُّبْحة. . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كلِّ سنة؟

إنَّها ـ واللَّهِ ـ طريقةٌ عمليةٌ لِرسوخِ فكرةِ الخيرِ والحقِّ في النفس؛ وتطهيرِ ٱلاجتماعِ من خسائسِ ٱلعقلِ ٱلماديّ؛ وردٌ هذه الطبيعةِ الحيوانيَّةِ المحكومةِ في ظاهرِها بالقوانين، والمحرَّرةِ مِنَ القوانين في باطنِها ـ إلى قانونٍ من باطنِها نفسِهِ يُطهِّرُ مَشَاعِرَها، ويسمو بإحساسِها، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيَّتِها، ويُهذّبُ من زياداتِها، ويحذفُ كثيراً من فُضُولِها، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءةِ ٱلطفولة، فيجعلَها صافيةً مُشْرِقةً بِما يجتذبُ إليها من معاني الخيرِ والصفاءِ وٱلإشراقِ؛ إذْ كانَ من عملِ الفكرةِ الثابتةِ في ٱلنفسِ أنْ تدعوَ إليها ما يُلائمُها ويتَّصِلَ بطبيعتِها منَ الفِكَرِ الأخرى. والنفسُ في هذا الشهرِ مُحْتَبَسَةٌ في فكرةِ الخيرِ وحدَها، فهي تبني بناءَها من ذلك ما ٱستطاعَتْ.

هذا على الحقيقةِ ليسَ شهراً مِنَ الأشهر، بل هو فصلٌ نَفسانِيٌّ كفصولِ الطبيعةِ في دَوَرَانها؛ ولَهُوَ ـ واللَّهِ ـ أشبهُ بفصلِ الشتاءِ في حلولهِ على الدنيا بالجوِّ الذي من طبيعتِهِ ٱلسحُبُ وٱلغَيث، ومن عملِهِ إمدادُ ٱلحياةِ بوسائلَ لَها ما بعدَها إلى آخرِ السنة، ومن رياضتِهِ أنْ يُكْسِبَها ٱلصلابةَ وٱلانكماشَ وٱلخِفَّة، ومن غايتِهِ إعدادُ الطبيعةِ لِلتفتُّحِ عن جمالِ باطنِها في ٱلربيعِ الذي يتلوه.

وعجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الذي يَدَّخِرُ فيهِ الجسمُ من قُواهُ المعنويَّةِ فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانيَّتِه، لِيجدَ منها عندَ الشدائدِ مَدَدَ ٱلصبرِ وٱلثباتِ والعزمِ والجَلدِ والخشونةِ ـ عجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنةِ كفائدة $\frac{1}{3}$ ٨ في المائة. . . فكأنَّهُ يُسجِّلُ في أعصابِ المؤمنِ حسابَ قوَّتِهِ وربحِهِ فلَهُ في كلِّ سنةٍ زيادة $\frac{1}{3}$ ٨ من قوّتِهِ المعنويَّةِ الرُّوحانيَّة.

وسحْرُ العظائمِ في هذه الدنيا إنَّما يكونُ في الأمَّةِ التي تعرفُ كيفَ تَدَّخرُ هذه

القوّةَ وتُوفِّرُها لِتستمدّها عندَ الحاجة، وذلك هو سِرُّ أسلافِنا الأولينَ الذينَ كانوا يجدون على الفقرِ في دِمائِهم وأعصابِهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى ٱليومَ في مخازنِ العَتادِ والأسلحةِ والذخيرة.

* * *

كلُّ ما ذكرْتُهُ في هذا المقالِ من فلسفةِ الصوم؛ فإنَّما ٱستخرجْتُهُ من هذه الآيةِ الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقد فهمها العلماءُ جميعاً على أنَّها معنى «التقوى»، أمَّا أنا فأوَّلْتُها من «الاتِّقاء»؛ فبالصوم يتَّقِي ٱلمرءُ على نفسِهِ أنْ يكونَ كالحيوانِ الذي شريعتُهُ مَعِدَتُه، وألّا يُعامِلَ الدنيا إلَّا بموادِّ هذه الشريعة؛ ويتَّقِي ٱلمجتمعُ على إنسانيَّتِهِ وطبيعتِهِ مثلَ ذلك، فلا يكونُ إنسانٌ مَعَ إنسانٍ كحمارٍ معَ إنسانٍ: يبيعُهُ القوَّةَ كلَّها بالقليلِ مِنَ ٱلعَلَف.

وبالصومِ يتَّقي هذا وهذا ما بينَ يديه وما خلفَه، فإنَّ ما بينَ يديهِ هو الحاضرُ من طباعِهِ وأخلاقِهِ، وما خَلْفَهُ هوَ الجِيلُ الذي سَيرِثُ من هذه الطبّاعِ والأخلاق، فيعملُ بنفسِهِ في الحاضر، ويعملُ بِالحاضرِ في الآتي.

وكلُّ ما شرحْناهُ فهو ٱتقاءُ ضررٍ لِجلْبِ منفعة، وٱتقاءُ رذيلةٍ لِجلبِ فضيلة؛ وبهذا التأويلِ تتوجَّهُ ٱلآيةُ ٱلكريمةُ جهةً فلسفيَّةً عاليَّةً، لا يأتي البيانُ ولا العِلْمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ[1] ولا أكملَ من لفظِها؛ ويتوجَّهُ الصيامُ على أنَّهُ شريعةٌ ٱجتماعيَّةٌ إنسانيَّةٌ عامَّة؛ يتَّقي بها ٱلاجتماعُ شرورَ نفسِه؛ ولنْ يتهذَّبَ العالَمُ إلَّا إذا كانَ لَهُ مَعَ القوانينِ النافذةِ هذا القانونُ العامُّ الذي ٱسمُهُ الصومُ، ومعناه «قانونُ البطن»....

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان! لو عَرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِكَ لَسَمَّاكَ: «مدرسة الثلاثين يوماً».

---

(١) أوجز: أخصر، أبلغ.

ثباتُ الأخلاق

لو أنَّني سُئِلْتُ أنْ أُجمِلَ فلسفةَ الدينِ الإسلاميِّ كلَّها في لفظين، لقلْتُ: إنَّها ثباتُ الأخلاقِ «ولو سُئِل أكبرُ فلاسفةِ الدنيا أنْ يُوجِزَ علاجَ الإنسانيَّةِ كلَّهُ في حرفين، لَمَا زاد على القول: إنَّهُ ثباتُ الأخلاق. ولوِ ٱجتمعَ كلُّ علماءِ أوربا لِيدرسوا المدنيةَ الأوربيَّةَ ويَحصُرُوا ما يُعْوِزُها في كلمتينِ لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليسَ ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مُصلحينَ ولا علماءَ يُبدعونَ لَهُ بِدْعاً جديداً؛ وإنَّما هو يترقَّبُ[1] مَنْ يستطيعُ أنْ يفسرَ لَهُ الإسلامَ هذا التفسير، ويُثبِتَ لِلدنيا أنَّ كلَّ ٱلعِباداتِ الإسلاميَّةِ هي وسائلُ عمليَّةٌ تمنعُ ٱلأخلاقَ ٱلإنسانيَّةَ أنْ تتبدَّلَ في الحيّ فيخلعَ منها ويَلبَسَ، إذا تبدلَتْ أحوالُ الحياةِ فصعِدَتْ بإنسانِها أو نزلت؛ وأنَّ الإسلامَ يأبَى على كلِّ مسلم أنْ يكونَ إنسانَ حالتِهِ التي هو فيها مِنَ الثروةِ أو ٱلعُلُوم، ومنَ الارتفاعِ أوِ الضَّعَةِ[2]، ومن خمولِ المنزلةِ أو نبَاهتِها[3]؛ ويُوجبُ على كلِّ مسلمٍ أنْ يَكون إنسانَ الدرجةِ التي ٱنتهى إليها ٱلكونُ في سموِّهِ وكمالِه، وفي تقلُّبِهِ على مَنازِلِهِ بعدَ أنْ صُفِّيَ في شريعةٍ بعدَ شريعة، وتجربةٍ بعدَ تجربة، وعِلْمٍ بعدَ عِلْم.

انتَهتِ ٱلمدنيَّةُ إلى تبدُّلِ ٱلأخلاقِ بتبدُّلِ أحْوالِ ٱلحياة، فمَنْ كانَ تقيًّا على ٱلفقرِ وٱلإملاقِ[4] وحَرَمَهُ ٱلإعسارُ[5] فُنونَ اللذة، ثُمَّ أيسرَ من بعدُ؛ جازَ لَهُ أنْ يكونَ فاجراً على الغِنى وأنْ يتسمَّحَ لِفُجورِهِ على مَدِّ ما يتطوَّحُ بِهِ ٱلمال، وإنْ أصبَحَ في كلِّ دينارٍ من مالِهِ شقاءُ نفسٍ إنسانيَّةٍ أو فسادُها.

ومَنْ وُلِدَ في بطنِ كُوخ، أو على ظَهرِ الطريق، وجبَ أنْ يبقى أرضاً إنسانيَّة؛ كأنَّ ٱللَّهَ (سبحانَهُ) لم يَبْنِ من عظامِهِ ولحمِه وأعصابِهِ إلَّا خَرِبةً آدميةً من غيرِ هندسةٍ

---

(١) يترقّب: ينتظر.

(٢) الضّعة: المذلة.

(٣) نباهتها: علو منزلتها.

(٤) الإملاق: الفقر الشديد المدقع.

(٥) الإعسار: الفقر.

ولا نظام ولا فنّ. . . ثُمَّ يُقابلُهُ مَن وُلِدَ في القصرِ أو شبهِ ٱلقصرِ فلهُ حكمٌ آخر، كأنَّ الله (سبحانَه) قد ركَّبَ من عظمِهِ ودمِهِ وتكوينِه آيةً هندسيةً وأعجوبةَ فنٍّ، وطُرْفَةَ تدبيرٍ، وشيئاً معَ شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكنَّ الإسلامَ يُقرِّرُ ثَباتَ ٱلخُلُقِ ويُوجبُهُ ويُنشِئُ النفسَ عليه، ويجعلُهُ في حِياطةِ المجتمعِ وحِراستِه، لأنَّ هناك حدوداً في الإنسانيَّةِ تتميزُ بحدودٍ في ٱلحياة، ولا بدَّ مِنَ ٱلضبطِ في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلَّا وراءَهُ تقدير، ولا تقديرٌ إلَّا معَهُ حِكمة، ولا حِكمةٌ إلَّا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلوَ ٱلحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثلِ ما ترى من كِفَّتَيْ ميزانٍ شُدَّتا في عَلَاقةٍ تجمعُهما وتحرِّكُهما معاً، فهي بذاتِها هي التي تنزلُ بالنازلِ لتَدُلَّ عليه، وتَشِيلُ بالعالي لِتبينَ عنه؛ فالإسلامُ مِنَ المدنيَّةِ هو مدنيَّةُ هذه المدنيَّة.

* * *

إنَّها لنْ تتغيرَ مادةُ ٱلعظمِ وٱللحمِ وٱلدمِ في ٱلإنسانِ فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولنْ تتبدلَ ٱلسُّنَنُ الإلهيةُ التي تُوجدُها وَتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها، وبينَ عملِ هذه المادةِ وعملِ قانونِها، فيها تكونُ أسرارُ التكوين: وفي هذه الأسرارِ تجدُ تاريخَ الإنسانيَّةِ كلَّه سابحاً في الدم.

هي الغرائزُ تعملُ في الإنسانيَّةِ عمَلَها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمَةٌ على ما يكونُ من تَعاديها وٱختلافِ بينِها، وكأنها خُلِقَتْ بمجموعِها لِمجموعِها؛ ومن ثَمَّ يكونُ ٱلخُلُق الصحيحُ في معناهُ قانوناً إلهيًّا على قوةٍ كقوةِ الكوْنِ وضبطٍ كضبطِه.

وبهذِه القوةِ وهذا الضبطِ يستطيعُ ٱلخُلُق أنْ يحوِّلَ ٱلمادةَ التي تُعارضُهُ إذا هوَ ٱشتدَّ وصَلُب، ولكنَّهُ يتحوَّلُ معها إذا هو لَانَ أو ضعُف. فهو قَدَرٌ إلَّا أنَّهُ في طاعتِك، إذْ هو قوةُ الفصْل بين إنسانيتكِ وحيوانيتِك، كما أنَّهُ قوةُ المَزْج بينَهما، كما أنَّهُ قوةُ التعديلِ فيهما، وقد سَوّغَ[١] القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعاً، ولولا أنَّهُ بهذه المثَابةِ لَعاشَ الإنسانُ طولَ التاريخِ قبلَ التاريخ، إذْ لن يكونَ لَهُ حينئذٍ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلُهُ أو رذائلُهُ بمدحٍ أو ذَمّ.

فلا عِبرةَ[٢] بمظْهرِ ٱلحياةِ في ٱلفرد، إذِ ٱلفردُ مقيدٌ في ذاتِ نفسِه بمجموعٍ هو

---

(١) سوّغ: علَّل وسمح.

(٢) عِبرة، بكسر العين: الدرس والأمثولة.

لِلمجموعِ وليسَ لَهُ وحدَه: فإنَّك ترى ٱلغرائزَ دائبةً[1] في إيجادِ هذا الفردِ لِنوعِهِ بسُننٍ من أعمالِها، ودائبةً كذلك في إهلاكِهِ في ٱلنوعِ نفسِهِ بسُننٍ أخرى؛ فليسَ قانونُ ٱلفردِ إلَّا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يُمكنُ أَنْ يتحوَّلَ الفردُ على أسبابٍ مختلفة، ثم تبقى ٱلأخلاقُ التي بينَهُ وبينَ ٱلمجموعِ ثابتةً على صورتِها.

فالأخلاقُ على أنَّها ٱلأفراد، هي في حقيقتِها حُكْمُ ٱلمجتمعِ على أفرادِه؛ فقِوامُها بٱلاعتبارِ ٱلاجتماعيِّ لا غير.

* * *

وحينَ يقعُ الفسادُ في ٱلمُجْمَعِ عليهِ من آدابِ ٱلناسِ، ويلْتوي ما كانَ مستقيماً، وتَشْتَبِهُ ٱلعاليةُ والسافِلَة[2]، وتُطَّرَحُ[3] ٱلمبالاةُ بِٱلضمير ٱلاجتماعيِّ، ويقومُ وزنُ ٱلحكم في ٱجتماعِهم على ٱلقبيحِ والمنكَر، وتجري ٱلعِبْرَةُ فيما يعتبرونَهُ بٱلرذائلِ والمحرَّمات، ولا يُعجِبُ الناسَ إلَّا ما يُفسِدُهُم، ويقعُ ذلك منهم بموقعِ ٱلقانونِ ويَحِلُّ في محلِّ ٱلعادة؛ فهناك لا مِساكَ لِلخُلُقِ ٱلسليم على فرد، ولا بدَّ من تحوُّلِ الفردِ في حقيقتِه؛ إذْ كانَ لا يجيءُ أبداً إلَّا مُتَصَدِّعاً[4] في كلِّ مظاهرِهِ ٱلاجتماعيَّة، فأينما وقعَ من أعمالِ ٱلناسِ جاءَ مكسوراً أو مثلوماً، وكأنَّهُ منتقِلٌ من عالَمٍ إلى عالمٍ ثانٍ بغيرِ نواميسِ الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدةِ إلَّا الأنبياءُ وأفرادٌ مِنَ ٱلحكماء؛ فأمَّا أولئك فهم قوةُ ٱلتحويلِ في تاريخِ ٱلإنسانيَّة: لا يُبعَثُ أحدُهم إلا لِيهَيجَ بهِ الهَيْجُ في التاريخ، ويتطرَّقَ بهِ الناسُ إلى سُبُلٍ جديدةٍ كأنَّما تطردُهُم إليها ٱلعواصفُ وٱلزلازلُ وٱلبراكينُ، لا شريعتُهُ ومبادئُهُ وآدابُه؛ وأمَّا ٱلحُكماءُ ٱلناضجونَ فيهم دائماً في هذه الإنسانيَّةِ أمكنةٌ بشريَّةٌ مُحَصَّنةٌ لِحفظِ كنوزِها وإحرازِها في أنفسِهِم، فلهم في ذاتِ أنفسِهِم عِصْمةٌ ومَنَعَةٌ كالجبالِ في ذاتِ ٱلأرض.

* * *

الأخلاقُ في رأيي هي ٱلطريقةُ لِتنظيمِ ٱلشخصيَّةِ ٱلفرديَّةِ على مقتضى ٱلواجباتِ ٱلعامّة، فالإصلاحُ فيها إنّما يكونُ من عملِ هذه الواجبات، أي من ناحيةِ ٱلمجتمعِ والقائمينَ على حُكمِه. وعندي أنَّ للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطِنُهُ هو الدينُ

---

(١) دائبة: مستمرة بطلبها.
(٢) السافلة: الرعاع.
(٣) تُطّرح: تُرمى وتُتجاهل.
(٤) متصدعاً: متهدماً.

الذي يَحكم ٱلفردَ، وظاهِرُهُ هو القانونُ الذي يحكمُ الجميع، ولن يصلُحَ لِلباطنِ ٱلمتصلِ بٱلغيبِ إلَّا ذلك ٱلحكمُ ٱلدينيُّ ٱلمتصِلُ بِالغيبِ مثلَه؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ ٱلاخْتلَالِ في المَدنيَّةِ الأوربيَّةِ الجديدة؛ فهي في ظاهرِ ٱلشعبِ دونَ باطنِه، والفردُ فاسِدٌ بها في ذاتِ نفسِهِ إذا هو تحلَّلَ مِنَ الدين، ولكنَّهُ معَ ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهرِهِ ٱلاجتماعيِّ بالقوانينِ وبالآدابِ العامةِ التي تفرضُها ٱلقوانين، فلا يبرحُ هازئاً مِنَ ٱلأخلاقِ ساخراً بها؛ لأنَّها غيرُ ثابتةٍ فيه، ثُمَّ لا تكونُ عندَهُ أخلاقاً يَعتَدُّ بها إلَّا إذا درَّتْ بها منافعُه، وإلَّا فهي ضارَّةٌ إذا كانَتْ منها مَضَرَّة، وهي مُؤلمةٌ إذا حالَتْ دونَ ٱللذات. ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحولُ لأنَّهُ مطلَقٌ في باطنِهِ غيرُ مقيَّدٍ إلَّا بأهوائِهِ ونزعاتِه، وكلمَتَا الفضيلةِ والرذيلةِ معدومتانِ في لغةِ ٱلأهواءِ والنزَعات؛ إذِ ٱلغايةُ ٱلمتاعُ واللذةُ والنجاحُ، ولْيكُنِ ٱلسببُ ما هو كائن...

وبهذا فلَنْ تقومَ ٱلقوانينُ في أوربا إذا فَنِيَ المؤمنونَ بالأديانِ فيها أو كاثَرهمُ[1] ٱلملحدون، وهُمُ اليومَ يُبْصرونَ بأعينِهم ما فعلَتْ عقيلةُ ٱلحربِ العظمى في طوائفَ منهم قد خَرِبَتْ أنفُسهم من إيمانِهم فتحولوا ذلك التحوُّلَ الذي أومأْنا إليه، فإذا أعصابُهم بعدَ الحربِ ما تزالُ محاربةً مقاتلةً ترمي في كلِّ شيءٍ برُوحِ ٱلدم وٱلأشلاءِ والقبورِ والتعفُّنِ والبِلَى... وٱنتَهتِ ٱلحربُ بينَ أممٍ وأمم، ولكنها بدأَتْ بين أخلاقٍ وأخلاقٍ.

وقديماً حاربَ المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم؛ فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هَدْيَ دينِهِم وقوةَ أخلاقِهِمُ ٱلثابتة، وكانَ من وراءِ أنفسِهم في ٱلحربِ ما هو من ورائِها في السِّلم، وذلك بثباتِ باطنِهِمُ الذي لا يتحوّل، ولا تستخِفُّهُ ٱلحياةُ بنزَقِها، ولا تتسفَّهُهُ[2] ٱلمدنيَّاتُ فتحملُهُ على الطيش.

ولو كانوا هَمْ أهلَ هذه الحربِ الأخيرةِ بكلِّ ما قَذَفَتْ بهِ الدنيا. لَبقيَتْ لهمُ ٱلعقليةُ ٱلمؤمنةُ ٱلقويَّة، لأنَّ كلَّ مسلمٍ فإنَّما هوو عقيلتُهُ في سلطانِ باطنِهِ ٱلثابتِ القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ مُحصَّلةٍ مقسومةٍ، تحوطُها وتُمسكُها أعمالُ الإيمانِ ٱلتي أحكمَها ٱلإسلامُ أشدَّ إحكام بفَرْضِها على النفوسِ منوَّعةً مكررةً: كالصلاةِ وٱلصوم وٱلزكاة، لِيمنعَ بها تغيُّراً ويُحدِثَ بها تغيُّراً آخر، ويجعلَها كالحارسةِ لِلإرادةِ ما تزالُ تمرُّ بها وتتعهدُها بينَ ٱلساعةِ والساعة.

إنَّما ٱلظاهرُ وٱلباطنُ كٱلموجِ وٱلساحل؛ فإذا جُنَّ ٱلموجُ فلنْ يَضِيرَهُ ما بقيَ

---

(١) كاثرهم: فاخرهم بكثرته. (٢) تتسفهه: تنزل به إلى الحضيض.

ٱلساحلُ ركيناً هادئاً مشدُوداً بأعْضَادِهِ في طبقاتِ ٱلأرض. أمَّا إذا ماجَ الساحل . . . فذلك أسلوبٌ آخرُ غيرُ أسلوبِ ٱلبحارِ وٱلأعاصير؛ ولا جَرَمَ[1] ألَّا يكونَ إلَّا خَسْفاً بالأرضِ وٱلماءِ وما يتَّصلُ بهما.

* * *

في ٱلكونِ أصلٌ لا يتغيرُ ولا يتبدَّل، هو قانونُ ضبطِ ٱلقوَّةِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى ٱلحِكْمة. ويُقابلُهُ في ٱلإنسانِ قانونٌ مثلُهُ لا بدَّ منه لِضبطِ معاني ٱلإنسانِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى ٱلكمال. وكلُّ فروضِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ وواجباتُهُ وآدابُه، إنْ هي إلَّا حركةُ هذا القانونِ في عملِه؛ فما تلك إلَّا طُرُقٌ ثابتةٌ لِخَلْقِ الحِسِّ الأدبيّ، وتثبيتِه بِٱلتكرار، وإدخالِهِ في ناموسٍ طبيعيٍّ بإجرائِهِ في الأنفُسِ مَجرى العادة، وجعلِهِ بكلِّ ذلك قوةً في باطنِها، فتُسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضاً دينيَّةً؛ وما هي في الواقعِ إلَّا عناصرُ تكوينِ ٱلنفسِ العالية، وتكونُ أوامرَ وهي حقائق.

ومن ذلك أرانا ـ نحنُ الشرقيينَ ـ نمتازُ على الأوربيينَ بأنَّنا أقربُ منهم إلى قوانينِ الكون؛ ففي أنفسِنا ضوابطُ قويَّةٌ متينةٌ إذا نحنُ أقرَرْنا مدينتَهم فيها ـ وهي بطبيعتِها لا تقبلُ إلَّا محاسنَ هذه المدنية ـ سبقناهم وتركْنا غبارَ أقدامنا في وجوهِهم، وكنَّا ٱلطبقةَ المُصَفَّاةَ التي يَنْشُدونَها[2] في إنسانيتِهِمُ ٱلراهنةِ[3] ولا يجدونَها، ونمتازُ عنهم من جِهةٍ أخرى بأنَّنا لم نُنْشِىءْ هذه المدنيَّةَ ولم تُنشِئْنا، فليسَ حقًّا علينا أنْ نأخذَ سيئاتِها من حسناتِها، وحماقتَها في حِكمتِها، وتزويرَها في حقيقتِها؛ وأنْ نُسيغَ[4] منها ٱلحُلوةَ وٱلمُرَّة، وٱلناضجةَ والفجَّة؛ وإنَّما نحن نُحَصِّلُها ونقتبسُها ونَرتَجِعُ منها ٱلرَّجْعَةَ ٱلحسنةَ؛ فلا نأخذُ إلَّا الشيءَ ٱلصالحَ مكانَ الشيءِ قدْ كانَ دونَهُ عندَنا ونَدَعُ ما سوى ذلك؛ ثُمَّ لا نأخذُ ولا نَدَعُ إلَّا على الأصولِ الضابطةِ المحكمةِ في أديانِنا وآدابِنا؛ ولَسْنا مثلَهُم متصلينَ من حاضرِ مدنيتِهِم بمثلِ ماضيهم، بيْدَ أنَّ العجَبَ الذي ما يفرغُ عَجبي منه، أنَّ الموسومِيْنَ[5] مِنَّا بالتجديدِ لا يُحاولونَ أولَ وَهْلةٍ وآخرَها إلَّا هدمَ تلك الضوابطِ التي هي كلُّ ما نمتازُ بِه، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاجُ إليهِ أوربا لِضبطِ مدنيتِها؛ ويسمون ذلك تجديداً، ولَهُوَ بأنْ يسمَّى حماقةً وجَهْلاً أولى وأحقّ.

---

(١) لا جرمَ: لا شكَّ.
(٢) ينشدونها: يطلبونها.
(٣) الراهنة: الحالية.
(٤) نُسيغ: نجد طعم.
(٥) الموسومِيْنَ: المعروفين بطابع التجديد.

أقولُ ولا أُبالي: إنَّنا ٱبتُلِينا في نهضتِنا هذه بقومٍ منَ ٱلمترجمينَ قدِ ٱحترفوا[1] النقلَ من لغاتِ أوربا، ولا عقلَ إلَّا عقلُ ما ينقلونَه: فصَنَعْتُهمُ ٱلترجمةُ من حيثُ يدرونَ أو لا يدرونَ صنعةُ تقليدٍ مَحْضٍ ومُتَابَعةٍ مُسْتعبَدة، وأصبحَ عقلُهم ـ بحكمِ ٱلعادةِ وٱلطبيعة ـ إذا فكَّر ٱنجذَبَ إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليهِ ولا يتحوَّلُ عنه. وإذا صحَّ أنَّ أعمالَنا هي التي تَعملُنا ـ كما يقولُ بعضُ ٱلحُكماءِ ـ فهم بذلك خطَرٌ أيُّ خطرٍ على الشعبِ وقوميتِهِ وذاتيتِهِ وخصائصِه، ويُوشِكُ إذا هو أطاعَهم إلى كلِّ ما يدعُون إليهِ أنْ. . . أنْ يترجمُوه إلى شعبٍ آخر. . .

* * *

إنَّ أوربا ومدنيَّتَها لا تُساوِي عندَنا شيئاً إلَّا بمِقدارِ ما تُحقِّقَ فينا منِ ٱتساعِ ٱلذاتيَّة بعلومِها وفنونِها، فإنَّما الذاتيَّةُ وحدَها هي أساسُ قوّتِنا في ٱلنزاعِ العالميِّ بكلِّ مظاهرِهِ أيِّها كان؛ ولها وحدَها، وبٱعتبارٍ منها دونَ سواها، نأخذُ ما نَأخذُهُ من مدنيَّةِ أوربا ونُهملُ ما نُهمل؛ ولا يجوزُ أنْ نتركَ ٱلثبتَ في هذا ولا أنْ نتسامَحَ في دقةِ المحاسبَةِ عليه.

فٱلمحافظةُ على ٱلضوابطِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلقويَّةِ ٱلتي هي مظاهرُ ٱلأديانِ فينا، ثُمَّ إدخالُ ٱلواجباتِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلحديثة في هذه الضوابطِ لِربطِها بالعصرِ وحضارتِه، ثُمَّ تنسيقُ مظهرِ الأمَّةِ على مُقتضى هذه الواجباتِ والضوابط، ثُمَّ العملُ على ٱتحادِ المشاعرِ وتمازُجِها لِتقويمِ هذا ٱلمظهرِ الشعبيِّ في جملتِهِ بتقويمِ أجزائِه ـ هذه هي الأركانُ الأربعةُ التي لا يقومُ على غيرِها بناءُ الشرق.

والإلحادُ والنزَعاتُ السافلةُ وتخانيثُ المدنيَّةِ الأوربيَّةِ التي لا عملَ لَها إلَّا أنْ تُظْهِرَ الخَطَرَ في أجملِ أشكالِه. . . ثُمَّ ٱلجهلُ بعلوم القوَّةِ الحديثةِ وبأصولِ التدبيرِ وحِياطةِ الاجتماعِ وما جرى هذا المجرى، ثُمَّ ٱلتدليسُ[2] على ٱلأمَّةِ بآراءِ المُقلِّدينَ والزائفينَ والمستعمرينَ لِمحْقِ ٱلأخلاقِ ٱلشعبيَّةِ ٱلقويَّةِ وما ٱتَّصلَ بذلك، ثُمَّ التخاذلُ والشِّقاقُ وتدابُرُ الطوائفِ وما كانَ بسبيلِها ـ تلك هي المَعاوِلُ الأربعةُ التي لا يَهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

فلْيكُنْ دائماً شعارُنا ـ نحن الشرقيينَ ـ هذه الكلمة: أخلاقُنا قبلَ مدنيَّتِهم.

---

(١) احترفوا: اتّخذوا حرفة.

(٢) التدليس: الكذب.

قُلْتُ لِنفسي
وقالَتْ لي...

قُلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! مالي أتحامَلُ عليكِ؛ فإذا وفَيْت بما في وُسْعِكِ أردْتُ منكِ ما فوقَهُ وكلَّفتُكِ أنْ تَسَعِي؛ فلا أزالُ أُعْنِتُك[١] من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُّ أُجْهِدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط، وأُضنيكِ كلَّما ثابَتِ ٱلقوّة؛ فإن تكُنْ لك همومٌ فأنا أكبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ ٱلأحزانُ فأكثرُها مِمَّا أجلِبُ عليك.

أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النَّهج، وأنا أعتَسِفُ[٢] بكِ أُريدُ ٱلطيرَانَ لا السَّير، وأبتغي عملَ ٱلأعمارِ في عُمْر، وأسْتَحِثُّكِ من كلِّ هَجْعَةِ[٣] راحةٍ بفجرِ تعبٍ جديد، وكأنّي لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُهُ بعضاً، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلام؛ لِيُهَيِّيءَ لكِ ٱلقوَّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخِ من بَعدُ، فتذهبينَ حينَ تذهبينَ ويعيشُ قلبُكِ في العالَمِ سارياً بكلماتِ أفراحِهِ وأحزانِه.

وقالتْ لِيَ ٱلنفس: أمَّا أنا فإنِّي معَكَ دَأْباً كالحبيبةِ الوفيَّةِ لِمَن تُحبُّهُ: ترى خضوعَها أحياناً هو أحسنَ ٱلمقاومَة؛ وأمَّا أنتَ فإذا لم تكنْ تتعبُ ولا تزالُ تتعبُ فكيفَ تُريني أنَّكَ تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليسَتْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُهُ من غيرِك، بل ما تُوجِدُهُ بنفسِك؛ فإنْ لم تَزِدْ شيئاً على الدنيا كنْتَ أنتَ زائداً على الدنيا؛ وإنْ لم تَدَعْها أحسنَ مِمَّا وجدْتَها فقد وجدتْهَا وما وَجَدْتَكَ؛ وفي نفسِكَ أولُ حدودِ دُنياكَ وآخِرُ حدودِها. وقد تكونُ دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْيةِ المُلَمْلَمَة[٤]، ودنيا بعضِهِم كالمدينةِ الكبيرة؛ أمَّا دنيا العظيمِ فقارَّةٌ بأكملِها، وإذا ٱنفردَ ٱمتدَّ في الدنيا فكانَ هوَ الدنيا.

---

(١) أعنت: أتعب.

(٢) اعتسف: عنف.

(٣) هجعة: رقدة.

(٤) الململمة: يقصد بذلك القرية الصغيرة.

والقوّةُ يا صاحبي تغتذي بالتَعبِ والمُعاناة؛ فما عانيتَهُ اليومَ حركةً من جسمِك، ألفَيْتَهُ[1] غداً في جسمِكَ قوّةً من قُوَى اللحمِ والدم. وساعةُ الراحةِ بعدَ أيام مِنَ التعب، هي في لذّتِها كأيام مِنَ الراحةِ بعدَ تعبِ ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذِهِ الدنيا ووَشْكِ انقطاعِهِ منها، بِمَنْ خُلِقَ لِيعيشَ ثلاثةَ أيام معدودةً عليهِ ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفتُراه يَغْفُلُ فيُقَدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُرُوباً من لَهْوِهِ ولَعبِهِ ومُجونِه، إلّا إذا كانَ أحمقَ أحمقَ إلى نهايةِ الحُمْق؟

اِتعَبْ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناسِ تَعَبٌ مخلوقٌ من عملِه، فهو ليِّنٌ هيِّنٌ مُسَوَّى تسويةً؛ وفيهم تَعَبٌ خالقٌ عملَه، فهو جبَّارٌ متمرِّدٌ لَهُ القهرُ والغَلَبة. وأنتَ إنَّما تكدُّ لِتسموَ بروحِكَ إلى هموم الحقيقةِ العالية، وتسموَ بجسمِكَ إلى مشقاتِ الرُّوحِ العظيمة؛ فذلك يا صاحبي لَيس تعباً في حَفْرِ الأرض، ولكنَّهُ تعبٌ في حَفرِ الكنز.

اِتعبْ يا صاحبي تعبَكَ؛ فإنَّ عَناءَ الروحِ هو عُمْرُها؛ فأعمالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ، كعُمرِ الجسمِ لِلجسم؛ وأحدُ هذينِ عُمْرُ ما يعيش، والآخرُ عُمْرُ ما سيعيش.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء. وإنَّ عَمَلَ التغييرِ في الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلَّما بُنِيَتْ، ثم بِناؤُها كلَّما هُدِمَتْ؛ فما من شيءٍ إلّا هو قائمٌ في الساعةِ الواحدةِ بصورتينِ معاً؛ وكم من صديقٍ خلطْتُهُ بالنفسِ يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيْتُ في مكانِهِ إنساناً خياليًّا كمسألةٍ من مسائلِ النُحاةِ فيها قَولان...! فهو يَحتملُ في وقتٍ واحدٍ تأويلَ ما أظنُّ بهِ من خير، وما أتوقَّعُ بهِ من شرّ! وكم مِنِ اسمِ جميلٍ إذا هَجَسَ[2] في خاطِرِي قلْتُ: آه، هذا الذي كان...!

أمَا ـ والله ـ إنَّ ثيابَ الناسِ لَتجعلُهُم أكثرَ تشابُهاً في رأي النفس، مِمَّا تجعلُهُم وجوهُهمُ التي لا تختلفُ في رأي العين: وإنِّي لأرى العالَم أحياناً كالقِطارِ السريعِ منطلِقاً برَكْبِهِ وليسَ فيهِ مَنْ يقودُه، وأرى الغفلةَ المُفْرِطةَ[3] قد بلغَتْ من هذا الناسَ مبلغَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ حيٌّ في الحياةِ كالموظَّفِ تحتَ التجربة، فإذا قَضَى المدةَ قِيلَ لَه: اِبدأ مِنَ الآن. كأنَّهُ إذا عاشَ يتعلَّمُ الخيرَ والشرّ، ويُدركُ ما يَصْلُحُ وما لا

(١) ألفيته: وجدته.

(٢) هجس: طرأ على بالي. (٣) المفرطة: الزائدة.

يصلُح، وٱنتهى من عمرِهِ إلى ٱلنهايةِ ٱلمحدودة ـ رَجَعَ من بعدِها يعيشُ منتظِماً على ٱستواءٍ وٱستقامة، وفي إدراكٍ وتمييز. مع أنَّ ٱلخرافةَ نفسَها لم تقبلْ قطّ أنْ يُعَدَّ منها في أوهامِ ٱلحياةِ أنَّ رجلاً بلغَ الثمانينَ أوِ ٱلتسعينَ وحانَ أجَلُهُ فأصبحوا لم يجدُوه ميتاً في فِراشِه؛ بلْ وجدُوه مولوداً في فراشه. . . !

وقالتْ لِيَ ٱلنفسُ: وأنتْ ما شأنُكَ بالناسِ وٱلعالَم؟ يا هذا ليسَ لِمصباحِ ٱلطريقِ أنْ يقولَ: «إنَّ ٱلطريقَ مظلِمٌ». إنَّما قولُهُ إذا أرادَ كلاماً أنْ يقولُ: «هأنذا مُضيء».

وٱلحكيمُ لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَلَ، كما أنَّهُ لا يَسْخُفُ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ[1] في كَذِبِ ٱلوهم؛ فإنَّ هذا كلّهُ أثرُ ٱلحياةِ ٱلبهيميَّةِ في هذه البهيمةِ الإنسانيَّة، لا أثرُ الروحِ القويَّة في إنسانِها. وٱلحيوانُ هو الذي يجوعُ ويشبعُ لا النفسُ. وبينَ كلِّ شَيئينِ ممَّا يَعْتَورُ ٱلحيوانيَّةَ ـ كالخلوِّ وٱلامتلاء، وٱللذةِ والألم ـ تعملُ قُوَى ٱلحيوانِ أشياءَها الكثيرةَ التي تتسلَّطُ بها على النفس، لِتَحُطَّها من مرتبةٍ إلى أنْ تجعلَها كنفوسِ ٱلحيوان؛ ولهذا كانَ أولُ ٱلحِكْمةِ ضَبطَ الأدواتِ ٱلحيوانيَّةِ في ٱلجسم، كما توضَعُ اليدُ العالِمةُ على مفاتيحِ القِطارِ المنطلِقِ يَتَسَعَّرُ مِرْجلُهُ ويغْلِي.

اِعملْ يا صاحبي عملَكَ؛ فإذا رأيْتَ في ٱلعاملينَ مَنْ يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثلَه، بل خُذِ ٱطمئنانَهُ إلى اطمئنانِك، ودَعْهُ يخلو وتَضَاعَفْ أنت.

إنّهُ لَيُوشِكُ أنْ يكونَ في الناسِ ناسٌ (كالبُنوك)؛ هذه مُسْتَوْدَعَاتٌ لِلمالِ تحفظُهُ وتُخرِجُ منهُ وتُثَمِّرُه، وتلك مستودَعاتٌ لِلفضائلِ تحفظُها وتخرجُ منها وتَزيدُها. وإفلاسُ رجلٍ من أهلِ ٱلمال، هو إطلاقُ ٱلنكبةِ مُسَدَّسَها على رجلٍ تقتلُه؛ ولكنَّ إفلاسَ (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدفَعَها الكبيرَ على مدينةٍ تُدَمرُها.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّ الألَمَ في تحويلِ هذا الجسدِ إلى شِبْهِ رُوحٍ معَ الروح! تلك هي المعجزةُ التي لا توجَدُ في غيرِ ٱلأنبياء، ولكنَّ ٱلعملَ لها يَجعلُها كأنَّها موجودةٌ. والأسدُ ٱلمحبوسُ محبوسةٌ فيهِ قُوَّتُهُ وطِباعُه؛ فإنْ زالَ ٱلوجودُ ٱلحديديُّ من حولِهِ أو وَهَنَتْ[2] ناحيةٌ منه، انطلقَ ٱلوحش. وٱلرجلُ ٱلفاضلُ فاضلٌ ما دامَ في

---

(1) استرسل: تمادى واستمرّ. (2) وهنت: ضعفت.

قَفَصِهِ الفكريّ، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليهِ أنْ يكونَ دائماً نَموذَجاً معروضاً لِلتنقيح[1] المُمْكنِ في النفسِ ٱلإنسانيَّة: تُصيبُهُ ٱلسيئةُ مِنَ ٱلناس لِتختبرَ فيهِ ٱلحسنة، وتبلُوَهُ الخِيانةُ لِتجدَ الوفاء، ويَكْرهُ البُغضَ لِيقابلَهُ بالحُبّ، وتأتيهِ ٱللعنةُ لِتجدَ المغفِرةَ؛ وله قلبٌ لا يتعبُ فيبلغُ منزلةً إلّا ٱبتدأ ٱلتعبَ لِيبلغَ منزلةً أعلى منها، وله فكرٌ كلَّما جَهدَ فأدركَ حقيقةً كانتِ ٱلحقيقةُ أنْ يَجهدَ فيُدركَ غيرَها.

وقالَتْ ليَ ٱلنفس: إنَّ مَنْ فاقَ ٱلناسَ بنفسِه ٱلكبيرةِ كانَتْ عَظَمتُهُ في أنْ يفوقَ نفسَهُ ٱلكبيرة؛ إنَّ الشيءَ ٱلنهائيَّ لا يُوجَدُ إلّا في ٱلصغائرِ وٱلشرّ، أمَّا ٱلخيرُ وٱلكمالُ وعظائمُ ٱلنفسِ وٱلجمالُ ٱلأسْنَى، فهذه حقائقُ أزليّةٌ وُجِدَتْ لِنفسِها: كالهواءِ يتنفَّسُهُ كلُّ ٱلأحياءِ على هذه الأرضِ ولا ينتهي، ولا يُعْرَفُ أنْ تكونَ تلكَ ٱلصفاتُ منبعثةً إلى النفوسِ من أنوارِ ٱلملائكة، وبهذا كانَ أكبرُ الناسِ حظًّا منها هُمُ ٱلأنبياءَ المتَّصلينَ بتلك الأنوار.

ومن رحمةِ ٱللَّهِ أنْ جعلَ في كلِّ النفوسِ الإنسانيَّةِ أصلاً صغيراً يجمعُ فِكرَةَ الخيرِ وٱلكمالِ وعظائِمِ ٱلنفسِ وٱلجمالِ ٱلأسْنَى، وقد تَعظُمُ فيهِ هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها، وقد تَصغُرُ فيهِ بعضُها أو كلُّها: ألَا وهو الحُبّ.

لا بدَّ أنْ تمرَّ كلُّ حياةٍ إنسانيَّةٍ في نوعٍ من أنواعِ ٱلحُبِّ؛ من رِقَّةِ ٱلنفسِ ورحمتِها، إلى هوى النفسِ وعِشقِها.

وإذا بلغَ ٱلحُبُّ أنْ يكونَ عِشقاً، وَضَعَ يَدهُ على المفاتيح العصبيَّةِ لِلنفس، وفتَحَ لِلعظائمِ والمعجزاتِ أبوابَها؛ حتى إنَّه لَيجعلُ الخُرافةَ الفارغةَ معجزةً دقيقة، ويملأُ الحياةَ بمعانٍ لم تكنْ فيها من قبل، ويصبحُ سرُّ هذا الحُبِّ لا ينتهي؛ إذْ هو سرٌّ لا يُدْرَكُ ولا يُعرف.

اِجْهدْ جُهدَكَ يا صاحبي، فما هو قفَصُك ٱلفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسُك، ولكنَّهُ صَقْلُ[2] النفسِ لِتتلقى ٱلأنوار، ولا بُدّ لِلمرآةِ من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحجَرِ لِتكونَ بهِ مرآة.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّهُ مَضَضاً[3] أُعانيهِ! إنَّ أمري لَيذهبُ فُرُطاً[4] أكلَّما

---

(١) التنقيح: التمييز بين الصالح والطالح.
(٢) صقل: تهذيب.
(٣) مضضاً: ألماً وعذاباً.
(٤) فرطاً: مجاوزاً الحدّ.

ٱبتغيْتُ مِنَ الحياةِ مَرحاً أطرَبُ لَهُ وأهتزّ، جاءتْني ٱلحياةُ بفكرةٍ أستكِدُّ[1] فيها وأدأَب؟ أهذا السرورُ الذي لا يزالُ يقعُ بينَ الناسِ هو الذي لا يكادُ يقعُ لي؟ وهلْ أنا شجرةٌ في مَغْرِسِها: تنمو صاعدةً بفروعِها، ونازلةً بجذورِها، غيرَ أنَّها لا تبرحُ مكانَها؟ أو أنا تِمثالٌ على قاعدتِه: لا يتزحزحُ عنها إلّا ساعةَ لا يكونُ تِمثالاً، ولا يَدعُها حتى تَدعَهُ معاني العظمَةِ التي نُصِبَ لها؟

قالَتْ لِيَ النفس: ويحك! لا تطلبْ في كونِكَ الصغيرِ ما ليسَ فيه؛ إنَّ ٱلناسَ لوِ ٱرتفعوا إلى السماءِ وتقلَّبوا فيها كما يَسيحُ[2] أهلُ قارَّةٍ مِنَ الأرضِ في قارّةٍ غيرِها، وٱبتغَوْا أنْ يحملوا معهم مِمَّا هناكَ تَذكاراً صغيراً إلى الأرض ـ لَوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ مِنَ الأرضِ كلِّها؛ فأنت سائحٌ في سماوات.

أنت كالنائم: لَهُ أنْ يَرى وليسَ لَهُ أنْ يأخذَ شيئاً مِمَّا يرى إلّا وَصْفَه، وحِكمتَه، والسرورَ بِمَا ٱلتذَّ منه، والألَمَ بِمَا توجَّعَ لَه.

لنْ تكونَ في الأرضِ شجرةٌ بِرجْلينِ تذهبُ هنا وهٰهنا، ولكنَّ ٱلشجرةَ تُرسلُ أثمارَها يتناقلُها ٱلناس، وهي تُبدِعُ الثمارَ إبداعَ ٱلمؤلفِ ٱلعبقريِّ ما يُؤلفُهُ بأشدِّ الكدِّ وأعظمِ ٱلجهْد، مُطْلِقَةً ضميرَها في ٱلفكرةِ ٱلصغيرة، تَعقِدُها شيئاً شيئاً، ثم تعودُ عليها بالزيادة، ولا تزالُ كلَّ وقتٍ تعودُ عليها حتى تستفرغَ[3] أقصى ٱلقوة؛ ثمَّ يكونُ سرورُها في أنْ تَهبَ فائدتَها، لأنَّها لذلك وُجِدَتْ.

إنَّ في الشجرةِ طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة؛ فالحياةُ فيها على حقيقتِها، وأكثرَ ما تكونُ الحياةُ في الإنسانِ على مَجازِها؛ وشرطُ المجازِ ٱلخيالُ والمبالغةُ وٱلتلوين؛ ولكنْ متى ٱختارَ اللَّهُ رجلاً فأقَرَّ فيهِ سِرًّا من أسرارِ ٱلطبيعةِ ٱلصادقة، ووهبَ لَهُ ٱلعاطفةَ القادرةَ التي تَصنعُ ثِمارَها ـ فقد غَرَسَهُ شجرةً في مَنْبِتِها لا مفرَّ ولا مَنْدوحَة[4]، وقد يُخَيَّلُ لَهْ ضعفُ طبيعتِهِ البشريَّةِ أحياناً أنَّ نُضرةَ ٱلمجدِ التي تعلوه وتتألَّقُ كشعاعِ ٱلكوكب، هي تَعبُهُ وضجَرُه، أو أثرُ ٱنخذالِهِ[5] وألمِهِ ومسكنَتِه؛ وهذا من شقَاءِ ٱلعقل؛ فإنَّهُ دائماً يُضيفُ شيئاً إلى شيء، ويخْلِطُ معنًى بمعنى، ولا يتركُ حقيقةً على ما هي؛ كأنَّ فيهِ ما في الطفلِ من غريزةِ التقليد؛

---

(١) أستكدّ: أتعب.
(٢) يسيح: ينتقل ويرتحل.
(٣) تستفرغ: تتخلّص.
(٤) لا مندوحة: لا ملجأ.
(٥) انخذاله: انهزامه.

والعقلُ لا يرى أمامَهُ إلَّا الإلهيَّة، فهو يُقلدُها في مُدَاخَلَةِ الأشياءِ بعضِها في بعض، لإيجادِ الأسرارِ بعضِها من بعض.

ومن ثَمَّ كانَتِ الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعَاةً لِلملَل العقليِّ في الإنسان، لا يكادُ يُقيمُ عليها أو يتقيَّدُ بها، فما نال شيئاً إلَّا لِيطمعَ في غيرِه، وما فازَ بلذَّةٍ إلَّا لِيزهَدَ فيها، وأجَلُّ ما أحبَّهُ الإنسانُ أنْ ينالَه، فإذا نالَهُ وقعَ فيه معنى موتِه، وبَدَأَ في النفس عُمراً آخرَ من حالةٍ أخرى، أو ماتَ ولم يَبْدَأْ؛ فلا بدَّ لِهذا الإنسانِ مَعَ كلِّ صوابٍ من جزءٍ مِنَ الخطأ، فإنْ هو لم يجدْ خطأً في شيءٍ ٱئْتَفَكَ لِنفسِهِ[1] الخطأَ المضحكَ في شِبهِ روايةٍ خياليَّة.

إنَّهُ لَشِعرٌ سخيفٌ بالغُ السخافةِ أنْ يُتَخَيَّلَ الغريقُ مفكراً في صَيْدِ سمكةٍ رآها... ولكنَّ هذا من أبلغ البلاغةِ عندَ العقلِ الذي يبحثُ عن وهم يُضيفُهُ إلى هذه الحقيقةِ لِيضحكَ منها، كما يبحثُ لِنفسِهِ أحياناً في أجملِ حقائقِ اللذةِ عن ألمٍ يتألمُ بِهِ لِيَعْبَسَ فيه!

* * *

قلْتُ لِنفسي: فهلْ ينبغي لِي أنْ أُحرِقَ دمي لِأنِّي أفكِّر، وهلْ أظلُّ دائماً بهذا التفكيرِ كالذي ينظرُ في وجهِ حسناءَ بمنظارٍ مكبر: لا يُريهِ ذلك الوجهَ المعشوقَ إلَّا ثُقوباً وتخريماً كأنَّهُ خشبةٌ نُزِعَتْ منها مساميرُ غليظة...! فلا يجدُ المسكينُ هذه الحقيقةَ إلَّا لِيفقدَ ذلك الجمال؟ وهلْ بُدٌّ مِنَ الشبهِ بينَ بعضِ الناسِ وبينَ ما ٱرْتَصَدَ لَهُ من عملٍ يحيا بِه؛ فلا يكونُ الحُوذيُّ[2] حُوذيًا إلَّا لِشَبَهٍ بينَ نفسِهِ وبينَ الخيلِ والبِغالِ والحمير...؟

وقالتْ لِيَ النفس: إنَّ فأسَ الحطَّابِ لا تكونُ من أداةِ الطبيب؛ فخذْ لِكلِّ شيءٍ أداتَه، وكُنْ جاهلاً أحياناً، ولكنْ مثلَ الجهلِ الذي يَصْنَعُ لِوجهِ الطفلِ بشاشتَهُ الدائمة؛ فهذا الجهلُ هو أكبرُ عِلْمِ الشعورِ الدقيقِ المرهَف، ولولاه لَهَلكَ الأنبياءُ والحكماءُ والشعراءُ غمًّا وكمَداً، ولَكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بينَ هذه الحقائق ـ كالذي قُيِّدَ وحُبِسَ في رَهَجٍ[3] تُثيرُهُ القَدَمُ والخُفُّ والحافر: لا يتنفَّسُ إلَّا الغبارَ يُثارُ من حولِهِ إلى أنْ يُقْضَى عليه.

---

(١) ائتفك لنفسه: كذب واخترع ليسوّغ ما هو عليه.

(٢) الحوذي: سائق العربة يجرّها حصان. (٣) رهج: شغب.

اِجهلْ جهلَك يا صاحبي في هذه الشهواتِ الخسيسة؛ فإنَّها ٱلعِلْمُ ٱلخبيثُ ٱلذي يُفسِدُ الروح، وٱعرفْ كيف تقولُ لِرُوحِكَ الطِّفْلةِ في ملائكيَّتِها حينَ تُساوِرُكَ الشهوات: هذا ليسَ لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروحَ الكبيرةَ هي في حقيقتِها الطفلُ الملائكيّ.

وعِلْمُ خسائسِ الحياةِ يجعلُ لِلإنسانِ في كلِّ خسيسةٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكونُ المسكينُ بينَ نفسينِ وثلاثٍ وأربع، إلى ثلاثينَ وأربعينَ كلهُنَّ يتنازَعْنَه، فيضيعُ بهذِه الكثرة، ويُصبحُ بعضُهُ بلاءً على بعض، وتَشْغَلُهُ الفُضُول، فيعودُ لها كالمزْبَلةِ لِمَا أُلقِيَ فيها، ويُمْحَقُ[1] في نفسِهِ الطبيعيَّةِ حِسُّ الفرحِ بجمالِ ٱلطبيعة، كما يُمْحَقُ في المزبلةِ معنى النظافةِ ومعنى الحِسِّ بها.

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الإنسانِ المنكود، هيَ ٱلأرواحُ التي يَنْفُخُها في مصائبِه، فتجعلُها مصائبَ حيَّةً تعيشُ في وجودِهِ وتعملُ فيهِ أعمالَها، ولولاها لَماتَتْ في نفسِهِ مطامعُ كثيرة، فماتَتْ لَهُ مصائبُ كثيرة.

ٱنظرْ بالروحِ الشاعرة، تَرَ الكونَ كلَّهُ في سمائِهِ وأرضِهِ ٱنسجاماً واحداً ليسَ فيهِ إلَّا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطَّرب، وٱنظرْ بالعقلِ العالمِ، فلَنْ تَرى في الكونِ كلِّهِ إلَّا موادَّ عِلْمِ الطبيعةِ وٱلكيمياء.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كلِّه؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر، أو عظْمةٌ من حيوان، أو نَسِيجةٌ من نبات، أو فِلْذَةٌ من معدن، وما أشبَهها.

اِجْهلْ جهلَك يا صاحبي؛ ففي كلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بشرطِ ألّا تكونَ ٱلعاشقَ ٱلطامع، وإلّا أصَبْتَ في كلِّ حسنٍ هَمًّا ومَشْغَلة....!

* * *

قلْتُ لِنفسي: إلى الآنَ لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمْتُهُ عنك.

وقالَتْ لِيَ النفس: وإلى الآنَ لم أقلْ لكَ إلّا جوابَ ذلك الذي كتمتَهُ عنّي..

---

(١) يمحق: يمحو.

الانتحار

١

حَدَّثَ ٱلمُسَيَّبُ بْنُ رافعٍ الكوفيُّ قال: بينا أنا يوماً في مسجدِ الكوفة، ومعي سعيدُ بن عثمان، ومجاهد، وداودُ الأزْديُّ وجماعةٌ ـ أقبلَ فتًى فجلسَ قريباً منَّا، وكانَ تلقاءَ وجهي؛ لا أمُدُّ نظري إلَّا ٱنطلقَ في سَمْتِهِ[١] ووقفَ عليه، وكنَّا نتحدّثُ فرأيْتهُ يتسمَّعُ إلى حديثِنا؛ فلمَّا تكلَّمَ سعيدٌ ـ وكانَ خافتَ الصوتِ من عِلَّةٍ به، وكنّا نُسميهِ ٱلنملةَ الصَّخّابة ـ رأيْتُ الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلاً حتى صارَ بحيثُ يقعُ في سَماعِهِ حَسِيسُ نَمْلتِنا.

وكانَ سعيدٌ يقول: اِجْتزْتُ[٢] أنا والشّعبيُّ أمسِ بعِمْرَانَ الخيَّاط، فمازَحَهُ ٱلشيخُ فقال له: عندَنا حِبٌّ[٣] مكسور، تَخيطُه؟ قال: نعم، إنْ كانَ عندَك خيطٌ من ريح! فقلْتُ أنا: فٱذهبْ فجِئْنَا بِٱلمِغْزَلِ ٱلذي يغزِلُ الهواءَ لِنضعَ لكَ ٱلخيط.

قال مجاهد: هذا ليسَ بشيءٍ في تنادُرِ شيخِنا وما يتَّفقُ له؛ أخبرَني أنَّ رجلاً جاءَهُ في مسألة، فدخلَ عليهِ ٱلبيتَ وهو جالسٌ معَ ٱمرأتِه؛ فقالَ الرجل أيُّكما الشعبيّ. . .؟ فأومأ الشيخُ إلى ٱمرأتِه وقال: هذه. . .!

قال المُسيَّب: وضحكْنَا جميعاً، وأخذَ نظري ٱلغلامَ فإذا هو ناكِسٌ حزناً وهمًّا، وكأنَّهُ لا يتسمَّعُ إلينا لِيسمع، بلْ لِيشغلَ نفسَهُ عن شيءٍ فيها، فتتوزَّعُ خواطرُه، فيتبدَّدُ ٱجتماعُها على همِّهِ بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا، كما يفعلُ ٱلمحزونُ في مغالبةِ ٱلحزنِ ومُدَافَعتِه: يَشْغَلُ عنهُ بصرَهُ وقلبَهُ وسمعَهُ جميعاً، فيكونُ الحزنُ فيهِ وكأنَّهُ بعيدٌ منه.

فقلْتُ في نفسي: أمرٌ أماتَ الضحِكَ في هذا الفتى وكسَرَ حِدّتَهُ[٤] وشبابَه.

---

(١) سمته: حسن هيئته ومنظره في الدين.
(٢) اجتزأت: التقيت.
(٣) الحِبّ، بكسر الحاء هو الزير.
(٤) حدّته: قوّته.

ثُمَّ تحوّلْتُ إليهِ وقلْتُ: رأيْتُكَ يا بُنيّ مقبلاً علينا كالمنصرِفِ عنَّا؛ فما بالُكَ لم تضحكْ وقد ضحكْنا جميعاً؟

قال: إليك عني يا هذا؛ فأين مني ٱلضَّحكُ وأنا على شفيرِ[1] القبر، ورُوحُ ٱلترابِ ماليءٌ عينيَّ في كلِّ ما أرى، وكأنّ حُفرتي ٱبتلَعتِ ٱلدنيا ٱلتي أنا فيها لِتأخذَني فيها، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ؛ رجُلٌ في الدنيا ورِجْلٌ في الآخرة!

قلْتُ: فأعلِمْني ما بك يا بنيّ، فلقدِ ٱحتسبْتُ ولداً لي كانَ في مثلِ سِنِّك وشبابِك ولم أُرزقْ غيرَه، قلبي بعدَهُ مريضٌ بِه، يتوسمُهُ مُفرَّقاً في لِدَاتِهِ، مُتوهّماً أنَّ وجوهَهُم تجمعُهُ بملامحِه؛ فأنا من ذلك أُحبّهم جميعاً وأُطيلُ ٱلنظرَ إليهم وٱلتأمُّلَ في وجوهِهم، ولسْتُ أرى أحداً منهم إلَّا كانَ لَهُ ولِقلبي حديث! فإنْ رأيْتُهُ حزيناً مثلك تقطَّعتُ لَهُ من إشفاقٍ ورحمة، وطالعَني فتايَ في مثلِ همِّهِ وحزنِهِ وٱنكسارِهِ؛ فيعودُ قلبي كالعينِ ٱلتي غشَّاها ٱلدمع، تحملُ أثرَ ٱلحزنِ ومعناهُ وسرَّه؛ فبُثْني ما تجدُ يا بنيَّ، فلعلَّ لي سبباً إلى كَشفِ ضُرِّكَ أو إسعافِك بحاجتِك؛ ولعلّك تكونُ قد حزنْتَ من أمرٍ قريبِ ٱلمتناوَلِ هيِّنِ ٱلمحاوَلَة، لم يجعلْه عندَكَ كبيراً أنَّهُ كبير، ولكنْ أنَّكَ أنت صغير.

قالَ الفتى: مهلاً يا عمّ، فإنَّ ما نزل بنا مِمَّا تنقطعُ عندَهُ ٱلحيلةُ ولا تَنقَادُ فيهِ ٱلوسائل، ولا علاجَ منه إلَّا بالموتِ يأخُذها ويأخُذه!

قلْتُ: يا بنيّ، هذه كلمةٌ ما أحسبُ أحداً يقولُها إلَّا من أُخِذَ لِلقتلِ بجنايتِهِ ولم يَعفُ أهلُ ٱلدم، فهل جَنيْتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إن ٱلأمرَ قريبٌ من قريب، فإنِّي تركْتُ أبي ٱلساعةَ مُجمِعاً على إزهاقِ نفسِه، وقدْ أغلقَ عليهِ ٱلدار وٱستوثَقَ[2] مِنَ ٱلباب!

قالَ ٱلمسيَّب: فكأنَّما لَدغتني حيةٌ بهذه ٱلكلمة، وأكبرْتُ أنْ يكونَ رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه: فتناهَضْتُ، ولكنَّ ٱلغلامَ أمسكَ بي وقال: إنَّهُ لا يزالُ حيًّا، وسيقتلُ نفسَهُ متى أظلمَ ٱلليلُ وهَدأتِ الرِّجل.

قلْتُ: ٱلحمدُ لِلّه، إنَّ في ٱلنور عقلاً، ولكنْ ما الذي صارَ بِه إلى ما قلْت، وكيف تركْتَهُ لِقَدَرِهِ وجِئت؟

---

(١) شفير: حافة.

(٢) استوثق، تأكّد.

قالَ الفتى: إنَّهُ قالَ لي: يا ولدي، ليسَ لك أبٌ بعدي؛ فإنْ أردْتَ ٱللحاقَ بي فٱرجِعْ معَ ٱلليل لِنُسْلِمَ أنفسَنا، وإنْ آثرْتَ ٱلحياةَ فٱرجِعْ معَ ٱلصبحِ لِتُسلِمَني إلى غاسلي!

قلْتُ: أفآمِنٌ أنت ألَّا يكونَ أبوك قد أخرجَكَ عنه لأنَّ عينَكَ تُمْسِكُ يدَهُ وتردُّهُ عمَّا يَهُمُّ بِه، حتى إذا خلا وجهُهُ منك أزهقَ نفسَه؟

قال: لم أدَعْه حتى أقسمَ أنْ يحيا إلى الليل، وحتى أقسمْتُ أنْ أرجِعَ لِأموتَ معَه؛ فإن لم تُمسكْهُ يمينُهُ أمسكَهُ ٱنتظاري، وقد فرغَتِ ٱلحياةُ منَّا فلم يبقَ إلَّا أنْ نفرغَ منها؛ ومن كانَ فيما كنَّا فيهِ ثم ٱنحدَر إلى ما ٱنحدرْنا إليه، لم يُرِ النَّاسَ من نفسِهِ ضَعةً ولا ٱستكانَةً: وإنَّما خرجْتُ لِأسألَ هذا الإمامَ (الشعبيّ) وجهاً من الرأي فيمَنْ يقتلُ نفسَهُ إذا ضاقَتْ عليهِ ٱلدنيا، ونزلَتْ بِهِ ٱلنازلاتُ، وتعذَّرَ ٱلقُوت، وٱشتدّ ٱلضُّرّ، وتَدَلَّتْ بهِ ٱلمسكنةُ إلى حَضِيضها، وأُلجِئ إلى أحوالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ الرَّحَى[1] لِمَّا تدورُ عليه، ولم يَعُدْ لَهُ إلَّا رأيٌ واحدٌ في معنى الدنيا: هو أنَّهُ مكذوبٌ مَزوَّرٌ على الدنيا.

قلْتُ: يا بنيّ، فإنِّي أراك أديباً؛ فمَنْ أبوك؟

قال: هو فلانٌ التاجر، ظهَرَ ظهورَ القمرِ ومُحِقَ[2] محاقَه، وهو ٱليومَ في أحْلكِ الليالي وأشدِّها ٱنطماساً؛ جَهَدَهُ[3] ٱلفقر، ويا ليتَهُ كانَ ٱلفقرَ وحدَه، بلِ ٱنتهكَتْهُ العِلَل، ولَيتَها لم تكنْ إلَّا العِللَ معَ الفقر، بل أخذَ ٱلموتُ ٱمرأتَهُ فماتَتْ همًّا بهِ وبي، ولم يكُنْ لَهُ غيري وغيرُها، وكانَ كلٌّ من ثلاثتِنا يحيا لِلاثنينِ ٱلآخرين، فهذا ما كانَ يجعلُ كلًّا مِنَّا لا يفرَغُ إلَّا ٱمتلأً، ولمَّا ذهبَتِ ٱلأمُّ ذهبَتِ ٱلحقيقةُ التي كنَّا نقاتلُ الأيامَ عنها، وكانَتْ هي وحدَها تُرينا ٱلحياةَ بمعناها إنْ جاءتْنا ٱلحياةُ فارغةً مِنَ ٱلمعنى، وكنَّا من أجلِها نفهمُ ٱلأيامَ على أنَّها مجاهَدَةُ ٱلبقاء؛ أمَّا الآن فٱلحياةُ عندَنا قَتْلُ ٱلحياة...!

قلْتُ: يا بنيَّ، فإنَّك ـ واللَّهِ ـ مع أدبِك لَحكيم، وإنِّي لَأنْفَسُ[4] بكَ على ٱلموت، فكيفَ ردَّتْكَ حياةُ أمِّكَ عن قتلِ نفسِكَ ولا تردُّكَ حياةُ أبيك؟

قال: لو بقي أبي حيًّا لَبقيْت، ولكنَّ ٱلدهرَ قدِ ٱنتزعَ منهُ آخرَ ما كانَ يملكُ من

---

(١) الرّحى: الطاحون.
(٢) محق: خفي.
(٣) جهده: أتعبه.
(٤) أنفس: أضنّ.

أسبابِ ٱلقوّة، حين أخَذَ القلبَ الشفيقَ الذي كانَ يجعلُهُ يرتعدُ إذا فكَّرَ في ٱلموت: فهو الآنَ كالذي يُحاربُ عن نفسِهِ تِلْقاءَ عدوٍّ لا يرحمُه؛ إنْ عجزَ عن عدوّهِ فالرأيُ قتلُ نفسِهِ لِيستريحَ من تنكيلِ العدوِّ بِهِ.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب بْنُ رافع: وأدركْتُ أنَّ الفتى يُريدُ من سؤال الشيخ تَحلَّةً يطمئنُّ إليها أنْ يموتَ مسلماً إذا قتلَ نفسَهُ كٱلمضطرّ أو المُكْرَه؛ فأشفَقْتُ[1] أنْ أكسِرَ نفسَهُ إذا أنا حدّثْتُه أو أفتيْتُه؛ وقلْتُ: هذا مريضٌ يحتاجُ ٱلعلاجَ لا الفُتْيا؛ وكانَ إمامُنا (الشعبيُّ) حكيماً لَحِناً فَطِناً، سَفَرَ بينَ أميرِ ٱلمؤمنينَ (عبد الملك) وعاهلِ ٱلروم[2]، فحسدَنا العاهلُ أنْ يكونَ فينا مثلُه. وقلْتُ: لَعلَّ الله يُحدثُ بِهِ أمراً. فأخذْتُ بيدِ الفتى إليه، ومشيْتُ أكلمُهُ وأُرفِّهُ عن نفسِه. وقلْتُ له: أمَا تدري أنّك حينَ فرغْتَ من سرورِ الحياةِ فرِغْتَ من غرورِها أيضاً، وأنَّ الزاهدَ ٱلمنقطعَ في عُرْعُرةِ[3] الجبلِ ينظرُ من صَوْمَعتِهِ إلى الدنيا، ليسَ بأحكمَ ولا أبصرَ مِمَّنْ ينظرُ من آلامِهِ إلى الدنيا؟

يا بنيّ: إنَّ الزاهدَ يحسبُ أنَّهُ قد فرَّ مِنَ الرذائلِ إلى فضائلِه، ولكنَّ فِرارَهُ من مجاهَدةِ الرذيلةِ هو في نفسِه رذيلةٌ لِكُلِّ فضائلِه. وماذا تكونُ العِفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاءُ والبرُّ والإحسانُ وغيرُها، إذا كانَتْ فيمَنِ ٱنقطعَ في صحراءَ أو على رأسِ جبل؟ أيزعَمُ أحدٌ أنَّ الصدقَ فضيلةٌ في إنسانٍ ليسَ حولَهُ إلَّا عشرةُ أحجار؟ وايمُ ٱللَّهِ إنَّ الخاليَ من مُجاهَدةِ الرذائلِ جميعاً، لَهُوَ الخالي مِنَ ٱلفضائلِ جميعاً!

يا بنيّ: إنّ منَ الناسِ مَنْ يختارَهُمُ ٱللَّهُ فيكونون قَمْحَ هذه الإنسانية: يَنْبُتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويُعجَنون ويُخبَزون، لِيكونوا غذاءَ الإنسانيةِ في بعضِ فضائلها. وما أراكَ أنت وأباك إلّا مِنَ ٱلمُختارين، كأنَّ في أعراقِكما دمَ نبيٍّ يُقْتَلُ أو يُصْلب!

قال ٱلمسيَّب: وٱنتهيْنا إلى دارِ الشعبيّ، فطرقْتُ ٱلباب، وجاءَ ٱلشيخُ ففتحَ لنا، وسلّمْنا وسلّم، ثم بَدَرْتُ فقلْتُ: يا أبا عمرو، إنَّ أبا هذا كانَ من حالِهِ كيْتِ وكيتِ، فترادَفَتْ[4] عليهِ ٱلمصائبُ، وتوالتِ ٱلنكباتُ، وتواترتِ ٱلأسقام[5]... ثُمَّ

(١) أشفقت: خفت.
(٢) عاهل الروم: قيصر الروم، ملكهم.
(٣) عُرعرة الجبل، بالضمّ: رأسه ومعظمه.
(٤) ترادفت: توالت.
(٥) الأسقام: الأمراض.

اقتصصتُ ما قالَ ابنُهُ حرفاً حرفاً، ثُمَّ قلتُ: وإنَّهُ الآنَ مُوشِكٌ أن يُزهِقَ نفسَهُ وسيتبعُهُ ابنُهُ هذا؛ وقد (هداهُ اللَّهُ إليك) فجاءَ يسألُك: أيموتُ مسلماً مَنْ ألجِئَ وأكْرِهَ واضطُرّ واستَضَاقَ واختلّ، فتَحسَّى[1] سُمَّاً فهلكَ أو تَوجَّأ[2] بحديدةٍ فَقَضَى، أو ذَبَحَ نفسَهُ بنَصْلٍ فَخَفَتَ، أو حزّ في يدِهِ بسكينٍ فما رقأَ دمُهُ[3] حتى مات، أوِ اختنقَ في حبلٍ ففاضَتْ نفسُه[4]، أو تَرَدَّى[5] من شاهقٍ فطاح . . . !

وأدركَ الشيخُ معنى قولي: (هداهُ اللَّهُ إليك)، ومعنى ما أكثرْتُ مِنَ الألفاظِ المترادفةِ على القتلِ وما استقصيْتُ من وجوهِهِ؛ فعلِمَ أنّي لم أسألْهُ الفُتْيا والنَّصّ، ولكنّي سألْتُهُ الحِكمةَ والسياسة؛ فقال: هذا ـ واللَّهِ ـ رجلٌ كريم، أخَذتْهُ الأنَفةُ وعِزّةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه، فنذهبُ نكلِّمُهُ واللَّهُ المستعان.

ومشَيْنا ثلاثتُنا، فلما شارَفْنا الدارَ قالَ الفتى: إنَّهُ لا يفتحُ لي إذا رآكما، وربَّما اسْتَفزَّ[6] بنفسِهِ فأزهَقَها، وسَأتَسَوَّرُ الحائطَ[7] وأتدلّيَ ثُمَّ أفتحُ لكما فتدخلانِ وأنا عندَه.

* * *

ودخلْنَا، فإذا رجلٌ كالمريضِ من غيرِ مرض، خوّارٌ[8] مسلوبُ القوّة، انْزعجَ قلبُهُ إلى الموتِ وما بِهِ جُرْأة، وإلى الحياةِ وما به قوّة؛ وصَغَّرَ إليهِ نفسَهُ أنَّها أصبحَتْ في معاملةِ الناسِ كالدرهم الزائفِ لا يقبلَهُ أحد، وثابَرَ عليهِ داءُ الحزنِ فأضناهُ وتركَهُ رُوحاً تتقعقعُ في جِلْدِها، فهي تهمُّ في لحظةٍ أنْ تَثِبَ وتندلِق.

وسلَّمَ الشيخُ وأقبلَ بوجهِهِ على الرجل، ثُمَّ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فقطعَ عليهِ الرجلُ وقال كالمحنق: أيُّها الشيخ، قد صبرْنَا حتى جاءَ ما لا صبرَ عليه؛ وقد خَلوْنا من معاني الكلامِ كلِّهِ، فما نقدِرُ عليها إلَّا لفظةً واحدةً نملكُ معناها، هي أنْ ننتهي!

ومدّ الشيخُ عينَهُ فرأي كُوّةً[9] مسدودةً في الجدار، فقالَ لي: افِتحْ هذه ودَعِ

---

(١) تحسّى: شرب.
(٢) توجّأ: ضرب نفسه بالسكين.
(٣) رقأ دمه: توقّف نزفه.
(٤) فاضت نفسه: مات.
(٥) تردّى: رمى نفسه من علٍ.
(٦) استفزّ: أثار.
(٧) تسوّر الحائط: صعد فوقه.
(٨) خوّار: ضعيف.
(٩) كوّة: فتحة صغيرة في جدار.

ٱلهواءَ يتكلمُ معَنا كلامَه. فقمْتُ إليها فعالجْتُها حتى فتحْتُها، ونفذَ منها رَوْحُ الدنيا، وقالَ الشيخُ لِلرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغْتُ مِنَ الكلامِ فشأنَكَ بنفسِك:

أعلمْتَ أنَّ رجلاً مِنَ المسلمينَ قد مَرِض، فأعْضلَ مَرضُه[1] فأثبتَهُ على سريرِهِ ثلاثينَ سنةً لا يتحرّك، وطَوَى فيهِ الرجُلَ الذي كانَ حيًّا ونشرَ منه الرجلَ الذي سيكونُ ميْتاً، فبقيَ لا حيًّا ولا ميتاً ثلاثينَ سنة....؟

قال ٱلرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنة؟

قال الشيخ: صَحِّحِ الكلامَ وٱسألْ. أيصبرُ على هذه الحالِ ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء ما لا صبرَ عليه) وأيُّ شيءٍ لا صبرَ عليهِ عندَ ٱلرجلِ ٱلمؤمنِ الذي يعلمُ أنَّ البلاءَ مالٌ غيرَ أنَّهُ لا يُوضَعُ في الكيس بل في ٱلجسم؟

أفتدري مَنْ كانَ الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعَينِ في عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها؟ إنَّهُ إمامُنا (عِمرانُ بنُ حُصَينٍ ٱلخُزاعيُّ) ٱلذي أرسلَهُ عمرُ بْنُ الخطابِ يُفقِّهُ أهلَ البصرة، وتولّى قضاءَها، وكانَ الحسنُ البَصريُّ يحلِفُ باللّهِ ما قدِمَها خيرٌ لهم من عِمرانَ بْنِ حُصين. ولقد دخلْتُ عليهِ أنا وأخوه (العلاء)، فرأيناهُ مُثْبَتاً على سريرِ ٱلجريدِ كأنّما شُدَّ بالحِبالِ وما شُدَّ إلّا بانتهاكِ عَصَبِهِ وذَوَبانِ لحمِه وَوَهَنِ[2] عِظامِه؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأنّي أراكَ على هذه ٱلحالِ العظيمة؟ قالَ: لا تَبكِ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى اللّهِ تعالى أحبُّهُ إليّ. ثم قال: إنَّ هذه الأرضَ تحملُ ٱلجبالَ فلا يشعرُ موضعٌ منها بالجبلِ القائم عليه، إذْ كانَ تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَلَ لِكُلِّ موضعٍ منها قوةَ ٱلجميع، ولولا هذا لَدَكَّ[3] الجبلُ موضعَهُ وغارَ به؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجِبالِ مِنَ ٱلبلاءِ على أعضائِه لا ينكسرُ لَها ولا يتهدَّم؛ إذْ كانَتْ قوةُ روحِهِ قوّةً في كلِّ موضع، فٱلبلاءُ محمولٌ على همَّةِ ٱلروحِ لا على ٱلجسم، وهذا معنى الخبر: «إنَّ ٱلمؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ رُوحَهُ لَتُنزعُ من بينِ جنبيهِ وهو يَحمدُ ٱللّهَ عزَّ وجلّ!».

ثُمَّ قال: ولكنْ ذاك هو ٱلمؤمن، فمن آمنَ باللّهِ فكأنَّما قالَ لَه: «ٱمتَحِنّي!» وكيف تراكَ إذا كنْتَ بطلاً مِنَ الأبطالِ مع قائدِ ٱلجيش، أمَا تفرضُ عليك شجاعتُك أنْ تقولَ لِلقائد: «ٱمتحنّي وٱرْمِ بي حيثُ شِئْتَ!» وإذا رَمَى بِكَ فرجعْتَ مُثخَناً

(١) أعضل مرضه: اشتدّ حتى صعب الشفاء منه.
(٢) وهن: ضعيف.
(٣) دكّ: حطّم.

بالجراح[١] ونالَكَ ٱلبتْرُ وٱلتشويه، أتُراها أوصافاً لِمصائِبك، أَمْ ثناءً على شجاعتِك؟

ثُمَّ قال: إذا لم يكنِ ٱلإيمانُ باللّهِ ٱطمئناناً في النفسِ على زَلازِلها وكوارثِها، لم يكنْ إيماناً، بل هو دعوى بالفكْرِ أو باللسانِ لا يعْدُوهما، كدعوى ٱلجبانِ أنَّهُ بطل، حتى إذا فَجَأَهُ ٱلرَّوْعُ[٢] أحدَثَ في ثِيابِهِ مِنَ ٱلخوف. . . ومِنَ ثَمَّ كانَ قتلُ المؤمنِ نفسَهُ لِبلاءٍ أو مرضٍ أو غيرِهما كفراً باللّهِ وتكذيباً لإيمانِه، وكانَ عملُهُ هذا صورةً أخرى من طيشِ ٱلجبانِ ٱلذي أحدَثَ في ثيابِه!

وٱلإيمانُ الصحيحُ هو بشَاشَةُ ٱلروح، وإعطاءُ ٱللّهِ ٱلرِّضى مِنَ ٱلقلب، ثقةً بوعدِهِ ورَجَاةً لِمَا عندَه، ومن هذينِ يكونُ ٱلاطمئنان. وبالبشاشةِ وٱلرضى وٱلثقةِ وٱلرجاء، يُصبحُ ٱلإيمانُ عقلاً ثانياً مَعَ العقل؛ فإذا ٱبْتُلِيَ ٱلمؤمنُ بِما يذهبُ معهُ ٱلصبرُ ويطيشُ لَهُ العقل، وصارَ من أمرِهِ في مثلِ ٱلجنون - برَزَ في هذه ٱلحالةِ عقلُهُ ٱلرُّوحانيُّ وتولّى سياسةَ جسمِهِ حتى يُفيقَ ٱلعقلُ الأول. ويجيءَ ٱلخوفُ من عذابِ ٱللّهِ ونقمتِهِ في ٱلآخرة، فيَغْمرُ بِهِ خوفَ النفسِ مِنَ ٱلفقرِ أوِ ٱلمرضِ أو غيرِهما فيقتلُ أقواهما ٱلأضعف، ويُخرجُ الأعزُّ منهما الأذلّ.

فالاطمئنانُ بالإيمانِ هو قتلُ الخوفِ الدُّنيويِّ بالتسليمِ وٱلرضى، أو تحويلُهُ عن معناهُ بجعلِ ٱلبلاءِ ثواباً وحسنات، أو تجريدُهُ من أوهامِهِ بٱعتبارِ ٱلحياةِ سائرةً بكلِّ ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ لَهُ شأنٌ عظيمٌ في تصريفِ الدنيا، يتركُ ٱلنفسَ راضيةً مَرْضِيَّة، تقولُ لِمصائِبها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لِشهواتِها وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّه؟ وما سخطُهُ ورِضاه؟ إنْ كلُّ ذلك إلَّا كما ترى قبضةً مِنَ ٱلترابِ تتكبَّرُ وقد نسيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها. . . . !

* * *

قال الشيخ: وٱنظر، أما تُبْتَلى ٱلشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتِها بمثلِ ما يُبْتَلى بهِ ٱلإنسان؟، غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانيًا مستقرًا في داخلِها يُمسكُ ٱلحياةَ عليها ويتربَّصُ[٣] حالاً غيرَ ٱلحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبَلائِهِ فٱلسعادةُ كلُّها في داخلِها، ولها دائماً ربيعٌ على قدْرِها حتى في قُرِّ[٤] الشتاء.

---

(١) مثخناً بالجراح: ممتلئاً جراحاً في سائر جسده.
(٢) الروْع: الخوف الشديد.
(٣) يتربّص: ينتظر.
(٤) القرّ: البرد الشديد

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي مِنَ ٱلإيمان، لا عملَ لَهُ إلّا أنْ يُنشىءَ لِلنفسِ غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزِها، تُكَمِّل شيئاً وتُنقصُ من شيء. وتُوَجِّهُ إلى ناحيةٍ وتصرفُ عن ناحية؛ وبهذه الغريزةِ تسمو ٱلروحُ فتكونُ أكبرَ من مصائِبها وأكبرَ من لذّاتِها جميعاً.

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى ٱلرضى بالقدرِ خيرِهِ وشرِّه، وهي تأتي بالتأويلِ لكلِّ هموم الدنيا، فتضعُ في النكبَاتِ معانيَ شريفةً تنزعُ منها شرَّها وأذاها لِلنفس؛ وليسَتِ ٱلمصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النفسِ بها. وإذا وقعَ ٱلتأويلُ في معاني ٱلنكباتِ أصبحَتْ تعملُ عملَ ٱلفضائل، وتغيَّرَتْ طبيعتُها فيعودُ الفقرُ باباً مِنَ ٱلزهد، وٱلمرضُ نوعاً مِنَ ٱلجِهاد، وٱلخيبةُ طريقاً مِنَ ٱلصبر، وٱلحزنُ وجهاً مِنَ ٱلرجاء، وهلمّ جرًّا.

والنفسُ وحدَها كنزٌ عظيم، وفيها وحدَها ٱلفرحُ وٱلابتهاجُ لا في غيرِها، وما لذّاتُ ٱلدنيا إلّا وسائلَ لإثارةِ هذا الفرحِ وهذا ٱلابتهاج، فإنْ وُجدا معَ الفقرِ بطلَتْ عِزَّةُ ٱلمالِ وأصبحَ حجراً مِنَ الأحجار؛ والبلبلُ يتغرَّدُ بحَنْجرتِهِ ٱلصغيرةِ ما لا تُغْنِي فيهِ آلاتُ التَّطْريبِ كلُّها. وفي ٱلنفسِ حياةُ ما حَوْلها، فإذا قَوِيَتْ هذه النفسُ أذلَّتِ ٱلدنيا، وإذا ضَعُفَتْ أذلَّتْها الدنيَا!

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: ثم سكَتَ ٱلشيخ قليلاً، وكنْتُ أرى الرجلَ كأنَّما يغتسلُ بكلامِه، وقد أشرقَ وجهُهُ وتَنضَّرَ وٱنقلبَ إلى روحِهِ التي كانَ منصرِفاً عنها، فعادَتْ مصائبُهُ تضغطُ روحاً لينةً كما تضغطُ اليدُ على ٱلماء، وأيقنَ أنَّ النكبةَ كلّها هي أنْ ينظرَ ٱلإنسانُ إلى الحياةِ بعينِ شهواتِه، فيُنكَبَ أولَ ما ينكبُ في صبرِهِ ويقينِه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيْتُ بعيني رأسي معجزةَ (العقل الروحانيِّ) وكيف يصنع: رأيْتُ عروةَ بْنَ ٱلزبير وهو شيخٌ كبير، عنَد ٱلوليدِ بْنِ عبدِ ٱلملك، وقد وقَعَتْ في رجْلِهِ الأُكلةُ[1]: فأشاروا عليهِ بقطعِها لا تُفسدَ جسدَهُ كلَّه، فدُعِيَ لَهُ مَنْ يقطعُها فلمَّا جاءَ قالَ لَه: نسقيكَ ٱلخمرَ حتى لا تجدَ لها ألماً. فقالَ عُروة: لا أستعينُ بحرامِ ٱللّهِ على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيكَ المُرْقِد[2]. فقال عروة: ما أحِبّ أنْ أُسلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجدُ ألمَ ذلك فأحتسبُه!

---

(١) الأُكلة، بضم الهمزة هي الحِكَّة بكسر الحاء.   (٢) المرْقد: ما يسمّى بالأجنبية البنج.

ثُمَّ دخلَ رجالٌ أنكَرهم عُروة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يُمسكونَك، فإنَّ الألمَ ربَّما عزَبَ[1] معهُ ٱلصبر. قالَ أرجو أنْ أكفيَكم ذلك من نفسي!

قال الشيخ: فانظرْ أيُّها الضعيفُ الذي يُريدُ قتلَ نفسِهِ كيفَ صنَع عُروة، وكيف ٱستقبلَ ٱلبلاء، وكيفَ صبرَ وكيف ٱحتمل. إنَّهُ ٱنصرفَ بحسِّهِ إلى النفسِ فٱنبسطَتْ روحُهُ عليه، وأخذ يكبِّرُ ويهلِّلُ ليبقى مع روحِهِ وحدَها، وخرجَ من دنيا ظاهرِهِ إلى دنيا باطنِهِ، وغُمِرَتْ حواسُّهُ وأَعصابُهُ بالنورِ الإلهيِّ من معنى ٱلتكبيرِ وٱلتهليل، فقطعَ القاطعُ كعبَهُ بالسكينِ وهو لا يلتفِت، حتى إذا بلغَ العظمَ وضعَ عليها المنشارَ ونشَرَها وعروةُ في ٱلتكبيرِ والتهليل؛ ثُمَّ جِيءَ بالزيتِ مغليًّا في مغارفِ[2] الحديدِ فَحُسِمَ[3] بِهِ مكانُ القطع، فَغُشيَ على عُروة ساعةً ثمَّ أفاقَ وهو يمسحُ العرَقَ عن وجهِه، ولم يُسمعْ منه في كلِّ هذه الآلامِ الماحقةِ أنَّةٌ ولا آهةٌ، ولم يقلْ قبلَها ولا بعدَها ولا بينَ ذلك: «جاءَ ما لا صبرَ عليه. . . . !».

* * *

قال المسيَّب: وأرْهِفَ[4] بأسُ الرجلِ الضعيفِ وقَوِيَ جأشُه[5]، وٱنبعَثَ فيه ٱلروحُ إلى عُمرٍ جديد، ونشأَ لَهُ اليقينُ من عقلِهِ ٱلروحانيّ، وعرفَ أنَّ ما لا يُمكنُ أنْ يُدرَك، يُمكنُ أنْ يُترَك.

وجاءَ هذا العقلُ الروحانيُّ فمرَّ بالمِنشارِ على ٱليأسِ الذي كانَ في نفسِه فقطعَه، فما راعنا إلَّا أنْ وثَبَ الرجلُ قائماً يقول: اللَّهُ أكبرُ مِنَ الدنيا، اللَّهُ أكبرُ مِنَ الدنيا!.

ثُمَّ أكبَّ[6] على يدِ الشيخِ وهو يقول: صدقْت؛ «إنْ كلُّ ذلك إلَّا كما ترى قبضةً مِنَ ٱلترابِ تتكبر، وقد نسِيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها!».

ماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَ في مسألةٍ من مسائلِ الدنيا إلَّا أنْ يتحرَّى[7] ٱلصواب، ويجتهدَ في الرجوع إليه، ويصبرَ على ما ينالُهُ في ذلك؟ وماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَتْ فيه مسألة. . . .؟

---

(١) عزب: نفد.
(٢) مغارف: ملاعق.
(٣) حسم: سكّر.
(٤) أرهف: رقّ.
(٥) الجأش: السيطرة على النفس.
(٦) أكبّ: انحنى.
(٧) يتحرّى: يتقصى.

الانتحار

٢

قال المسيَّب بْنُ رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرجلِ فاْعْتَنَقَهُ فَرِحاً بما آلَ أمرُهُ إليه، بعدَ إذ رأى النورَ يجري على لونِهِ ويترقرقُ في ديباجتِهِ(١)؛ كأنَّما وَقَعَ الصلحُ بينَ وجهِهِ وبينَ الحياة. ثُمَّ قالَ لَه: نِعْمَ أخو الإسلام أنت، فاْستعِذْ بِاللَّهِ من خِذْلانِه، فإنَّهُ ما خذَلَكَ إلَّا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ اللَّهِ تُعارِضُه أو تُجاريهِ في قدرتِه، فَيَكِلُكَ إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجزُ بك إلى السُّخْط؛ ومتى كنْتَ عاجزاً ساخطاً، محصوراً في نفسِك؛ مَوْكولاً إلى قدرتِك، كنْتَ كالأسدِ الجائعِ في القَفْر(٢)، إذا ظنَّ أنَّ قوّتَهُ تتناولُ خَلْقَ الفريسةِ؛ فيدعو ذلك إلى نفسِك اليأسَ والانزعاجَ والكآبةَ؛ وأمثالَها من هذه المُهلِكاتِ تقْدَحُ(٣) في قلبِك الشكَّ في الله، وتُثبِتُ في رُوعِكَ شرَّ الحياة، وتُهدي إلى خاطرِك حماقاتِ العقل، وتقرِّرُ عندَك عجزَ الإرادة؛ فتنتهي من كلِّ ذلك ميّتاً قد أزهقتْك نفسُك قبلَ أنْ تُزْهِقَها!

ولو كنْتَ بَدَلَ إيمانِك بنفسِك قد آمنْتَ باللَّهِ حقَّ الإيمان، لَسلَّطَكَ اللَّهُ على نفسِك ولم يسلطْها عليك؛ فإذا رَمتْكَ المطامعُ بالحاجةِ التي لا تقدرُ عليها، رميْتَها من نفسِك بالاستغناءِ الذي تقدرُ عليه؛ وإذا جاءتْكَ الشهواتُ من ناحيةِ الرغبةِ المقبلة، جِئْتَها من ناحيةِ الزُّهدِ المنصرف، وإذا سَاوَرَتْكَ كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياءِ الآخرة.

وبهذا تنقلبُ الأحزانُ والآلامُ ضُروباً من فرَحِ الفوزِ والانتصارِ على النفسِ وشهواتِها، وكانَتْ فنوناً مِنَ الخِذْلانِ والهمّ، وتعودُ موضعَ فخرٍ ومباهاة، وكانَتْ أسبابَ خِزْيٍ وانكسار. «وعزيمةُ الإيمانِ إذا هي قوِيَتْ حَصَرَتِ البلاء في مقدارِه، فإذا حصرَتْهُ لم تزلْ تَنقُصُ من معانيهِ شيئاً شيئاً، فإذا ضعُفَتْ هذه العزيمةُ جاءَ

---

(١) ديباجته: محيّاه. (٢) القفر: الصحراء. (٣) تقدح: تشعل.

ٱلبلاءُ غامراً مُتَفشِّياً يُجاوِزُ مقدارَهُ بما يَصْحَبُه مِنَ ٱلخوفِ والرَّوْعِ، فلا تزالُ معانيهِ تَزيدُ شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليسَ فيه.

ولِلإيمانِ ضوءٌ في النفس يُنيرُ ما حولَها فتراهُ على حقيقتِهِ ٱلفانيةِ وشِيْكاً أنْ يزول؛ فإذا ٱنطفأَ هذا الضوءُ ٱنْطَمَسَتِ ٱلأشياء، فتتوهَمُها ٱلنفسُ أوهاماً مُتباينةً[1] على أحوالِها ٱلمختلفة؛ كما يرى ٱلأعمى بِوَهْمِه: لا عيْنُهُ معَ الأشياءِ تكونُ في طبيعتِها، ولا أشياؤه عندَ عينِهِ تكونُ في حقيقتِها.

* * *

قال ٱلمسيَّب: وكانَتِ ٱلشمسُ قد طفَّلَتْ[2] لِلمغيب؛ فقالَ الإمامُ لِلرجل: قُمْ فتوضّأْ وأسْبغِ ٱلوضوء، وسأُعلِّمُك أمراً تنتفعُ بهِ في دينِكَ ودنياك: فإذا قُمْتَ إلى وُضوئِك فأيقِنْ في نفسِك وٱعزِمْ في خاطرِك على أنَّ في هذا الماءِ سرًّا روحانيًا من أسرارِ ٱلغيبِ وٱلحياة، وأنَّهُ رمزٌ لِلسماءِ عندَك، وأنَّك إنَّما تتطهَّرُ بهِ من ظُلماتِ نفسِك ٱلتي ٱمتدَّتْ على أطرافِك؛ ثُمَّ سَمِّ ٱللَّهَ (تعالى) مُفيضاً ٱسمَهُ ٱلقادِرَ الكريمَ على ٱلماءِ وعلى نفسِك معاً، ثم تَمثَّلْ أنَّك غسلْتَ يديك مِمَّا فيهما ومِمَّا تتعاطاهُ بهما من أعمالِ الدنيا، وأنَّك آخِذٌ فيهما مِنَ السماءِ لِوجهِكَ وأعضائِك؛ وقرِّرْ عندَ نفسِك أنَّ الوضوءَ ليسَ شيئاً إلَّا مَسحةً سماويةً تُسبِغُها على كلِّ أطرافِك، لِيشعرَ بها جسمُكَ وعقلُك؛ وأنَّكَ بهذِه ٱلمسحةِ السماويةِ تستقبلُ ٱللَّهَ في صلاتِك سماويًّا لا أرضيًّا.

فإذا أنت ٱستشعرْتَ هذا وعملْتَ عليهِ وصارَ عادةً لك، فإنَّ الوضوءَ حينئذٍ ينزلُ مِنَ النفسِ منزلةَ ٱلدواء، كلَّما أُغتَمَمْتَ أو تَسخطْتَ أو غشيَكَ حزنٌ أو عَرضَ لك وَسواس، فما تتوضأُ على تلك النيَّةِ إلَّا غسلْتَ ٱلحياةَ وغسلْتَ الساعةَ التي أنت فيها مِنَ الحياة. وترى ٱلماءَ تحسبُهُ هدوءاً ليِّناً لِينَ الرِّضى، وإذا هو ينسابُ في شعورِك وفي أحوالِك جميعاً.

قالَ ٱلمسيَّب: وقمْتُ أنا فجدَّدتُ وضوئي على هذِه ٱلصفةِ بتلكَ النية، فإذا أنا عندَ نفسي مستضيءٌ برُوحٍ نَجميَّةٍ لها إشراقٌ وسناء، وإذا الوضوءُ في أضعفِ معانيه هو ما عَلِمْنا من أنَّهُ ٱلطهارةُ والنظافة، أمَّا في أقوى معانيهِ فهو إفاضةٌ مِنَ السماءِ فيها التقديسُ وٱلتزكيةُ وغَسلُ ٱلوقتِ ٱلإنسانيِّ مِمَّا يُخالطُهُ كلَّما مرَّتْ

---

(١) متباينة: مختلفة.   (٢) طفَّلت: مالت.

ساعات، وٱبتداؤه لِلروحِ كالنباتِ ٱلأخضرِ ناضراً مطولاً مترَطباً بِالماء.

ثم صلّى بنا الشيخُ، وأمرني بالمبيتِ معَ الرجل، كأنما خَشي البَدَوَاتِ[1] أنْ تَبدُو له فَتنقُصَ عَزْمَه، أو هو زادني عليه لِأُغيِّرَ شخصَهُ وأبدِّلَ وحدتَهُ التي كانَ فيها، أو كأنَّ الشيخَ لم يأمنْ على الرجلِ أنْ يكون إنسانُهُ الروحيُّ قد تنبّهَ بأكملِهِ فوضعَني كٱلتنبيهِ لَه.

وجاءَنا ٱلعشاءُ من دارِ ٱلشيخ فطعِمْنَا، ثُمَّ قامَ الرجلُ فتوضَّأَ وصلَّيْنا العَتَمَةَ وجلسْنا نتحدث، فاستنبأْتُهُ نبأه[2]، فقال: مهلاً. ثُمَّ نهض فتوضَّأَ الثالثةَ وقال: تاللهِ ما أعرِفُ الوضوءَ بعدَ اليومِ إلّا ملامَسةً بينَ ٱلسماءِ والنفس، وما أعرِفُ وقتَهُ مِنَ الروحِ إلَّا كساعةِ الفجرِ على ٱلنباتِ الأخضر.

* * *

قالَ المسيَّب: وأصبحْنا فغدوْنا على الإمام، ثُمَّ لزمني ٱلرجلُ في بعضِ أموري، ثُمَّ وافينا المسجدَ صلاةَ العصرِ لِحضورِ درسِ الشيخ؛ وكانَ الناسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على العُنقود، لا أدري من ساقَهم وجَمَعهم؛ كأنّما علِمَتِ الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ باللّهِ كفْرةً صَلْعاءَ وأنَّهُ سيحضُرُ درسَ ٱلشيخ، وسيحضرُ الشيخُ من أجلِه، فهبَّتِ ٱلرياحُ الأربعُ تسوقُ أهلَها إلى المسجدِ من أقطارِها.

وجلسَ الشيخُ مجلسَ ٱلحديث فقال:

رُوِينا أنَّ رجلاً كانَتْ بهِ جِراحَةٌ، فأتى قَرَناً[3] لَهُ فأخَذَ مِشقصاً[4] فذَبحَ بهِ نفسَه، فلم يُصَلّ عليهِ النبيُّ ﷺ، وتركَ جنازتَهُ مطرودةً تقتحمُ مَتْلفةَ الآخرةِ كما ٱقتحمتْ متلفةَ الدنيا!

رُوِينا في الحديث عنِ ٱلنبيِّ ﷺ أنه قال: «الذي يخنقُ نفسَهُ يخنُقها في النّار، والذي يَطْعُنُ نفسَهُ يطعَنُ نفسَهُ في ٱلنار، والذي يقتحمُ يقتحمُ في النار!»

رُوِينا عنهُ ﷺ: «من قَتَلَ نفسَهُ بِشيءٍ عُذِّبَ بِهِ يومَ القِيامة!»

رُوِينا عنه ﷺ قال: «كانَ رجلٌ بهِ جِراحٌ فقتلَ نفسَه، فقالَ الله: بَدَرَني عبدي بنفسِهِ فحرَّمتُ عليهِ ٱلجنة!».

---

(١) البدوات: المفاجاءات.
(٢) استنبأته نبأه: سألته عنه.
(٣) القَرَن بالفتح: جعبة النشاب.
(٤) المشقص: سهم ذو نصل عريض.

قالَ الشعبيُّ: يقولُ ٱللهُ: «بَدَرَني عبدي بنفسِه. . .» أيْ بدرني[1] وتألَّه فَجَعَلَ نفسَهُ إلَهَ نفسِه، فَقبضَها وتَوفَّاها، فكانَ ظالما.

بَدَرني وتَألَّهَ في آخرِ أنفاسِهِ لحظَة ينقلبُ إليَّ، فكانَ معَ ظُلمِهِ مغروراً أحمق!

بدرني وتألَّهَ حينَ ضاق، فهَوَّرَ نفسَهُ[2] في الموتِ من عجزِهِ أنْ يُمسِكَها في ٱلحياة، فكانَ عاجزاً معَ ظُلمِهِ وغُرورِهِ وحُمْقِه!

بدرني وتألَّهَ على جهلِهِ بِسرِّ ٱلحياةِ وحكمتِها، فلم يَسْتَحِ هذا ٱلمخلوقُ ٱلظالمُ ٱلمغرور في حمقِهِ وعجزِهِ وجهلِه ـ لم يستحِ أنْ يجيئني في صورة إله!

بَدَرني وتألَّه، فَطَبَع نفسَهُ طابَعهَا الأبديَّ من غيٍّ وتمرّدٍ وسفاهة، وأرسلَها إليّ مقتولةً يرُدُّها عَلَيّ.

بدرني وتألَّهَ كأنما يقول: إنَّ لَهُ نصفَ الأمرِ وليَ ٱلنصف: أنا أحييْتُ وهو أماتَ. . . !

بَدَرَني عَبْدي بِنفسِهِ فحرَّمتُ عليهِ ٱلجنة! قال الشعبيّ: وإنَّما تُحرَّمُ الجنةُ على مَنْ يقتل نفسَهُ، إذْ ينقلبُ إلى اللَّهِ وعلى روحِهِ جِنايةُ يدِهِ ما تُفارقُها إلى الأبد: فهو هناك جِيفةٌ مِنَ الجيفِ مسمومةٌ أبداً، أو مخنوقةٌ أبداً، أو مذبوحةٌ أبداً، أو مهشَّمةٌ أبداً يقولُ ٱللَّهُ له: أنت بَدَرْتني بنفسِك، وجَريْتَ معي في القَدَرِ مجرًى واحداً، فستخلدُ نفسُك في الصورة التي هي من عملِك، وما قتلْتَ إلَّا حسَنَاتِك.

قال الشعبيّ: ولو عرفَ قاتلُ نفسِهِ أنَّهُ سيصنعُ من نفسِهِ جِيفةً أبديَّة، فمَنْ ذا الذي يعرِفُ أنه إذا فعلَ كذا وكذا تحوَّلَ حِماراً وبقيَ حِماراً، فيرضَى أنْ يتحوَّل ويُسرعَ لِيتحوَّل؟

مِن ذلك نظرَ النبيُّ ﷺ إلى جنازةِ ذلك الرجلِ الذي قتلَ نفسَه، كما ينظُر إلى ذبابةٍ توجَّهَتْ بالسبِّ إلى الشمسِ والكواكبِ والأفلاكِ كلِّها، ثم جَاءتْه تقولُ: اشهدْ لي.

* * *

قال الشيخ: ومِمَّ يقتلُ الإنسانُ نفسَه؟ أمَا إنَّ الموتَ آتٍ لا ريبَ فيهِ ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه، وهو ٱلخيبةُ ٱلكُبرى تُلْقَى على هذه الحياة؛ فما ضررُ الخيبةِ الصغيرةِ في أمرٍ من أمورِ الحياة؟

---

(١) بدرني: سبقني وأتى إليّ.

(٢) هوّر نفسه: أزهقها.

إنَّ المرءَ لا يقتلُ نفسَهُ من نجاحٍ بل من خيبة، فإنْ كانَتِ ٱلخيبةُ من مالٍ فهي الفقرُ أوِ ٱلحاجة، وإنْ كانَتْ من عافيَةٍ فهِيَ ٱلمرضُ أوِ ٱلاختلال، وإنْ كانَتْ من عِزَّةٍ فهي ٱلذلُّ أوِ ٱلبؤس، وإنْ كانَتْ مِمَّا سوى ذلك ـ كالنساءِ وغيرِهِنَّ ـ فهي العجزُ عنِ ٱلشهوةِ وفسادُ التخيُّل، كلُّ ذلك موجودٌ في ٱلناس، يحملُهُ أهلُهُ راضينَ بِهِ صابرينَ عليه، وهو ٱلغبارُ النفسيُّ لهذه الأرضِ على نفوسِ أهلِها. ويا عجباً! إنَّ العُميانَ هم بالطبيعةِ أكثرُ الناسِ ضحكاً وٱبتساماً وعبثاً وسخريةً، أفتريدون أنْ تُخاطبَكُمُ الحياةُ بأفصحَ من ذلك؟

ليسَتِ ٱلخيبةُ هي ٱلشرّ، بلِ ٱلشرُّ كلُّهُ في العقل إذا تبلَّدَ فجمدَ على حالةٍ واحدةٍ مِنَ الطمعِ ٱلخائب، أو في الإرادةِ إذا وَهَنَت فبقيَتْ متعلِّقةً بما لم يُوجَد. أفلا ترونَ أنَّهُ حينَ لا يُبالي ٱلعقلُ ولا الإرادةُ لا يبقى لِلخيبةِ معنًى ولا أثرٌ في النفس، ولا يخيبُ الإنسانُ حينئذٍ، بل تخيبُ الخيبةُ نفسُها؟

لهذا يأبى ٱلإسلامُ على أهلِهِ ٱلتَّرَفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسد، ويشتدُّ كلَّ الشِّدةِ في أمرِ ٱلإرادة، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنميها بأعمالٍ يوميَّةٍ تشدُّ منها لِتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً لَه، فإنَّ لِلعقل أمراضاً كثيرةً يقيسُ فيها درجاتٍ مِنَ الطيشِ حتى يبلغَ ٱلجنونَ أحياناً؛ فكانَتِ ٱلإرادةُ عقلاً لِلعقل؛ هي لِينُهُ إذا تصلَّبَ، وهي حركتُهُ إذا تبلَّد، وهي حِلْمُهُ إذا طاش، وهي رِضاهُ إذا سَخِط.

الإرادةُ شيءٌ بينَ ٱلروحِ وٱلعقل، فهي بينَ وجودَين؛ ولِهذا يكونُ بها الإنسانُ بين وجودَينِ أيضاً، فيستطيعُ أنْ يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصلِ عنها، إذْ يكونُ في وجودِهِ الأقوى وجودُ روحِه، وأكبرُ همِّهِ نجاحُهُ في هذا الوجود.

وهذا النجاحُ لا يأتي مِنَ المالِ، ولا تُحقِّقُهُ العافية، ولا تُيسِّرُهُ ٱلشهوات، ولا يُسَنِّيهِ[1] التَّخيلُ الفاسد؛ ولا يكونُ من مَتاعِ الغُرور، ولا مِمَّا عُمرُهُ خمسونَ سنةً أو مائةُ سنة؛ بل يأتي مِمَّا عُمْرُهُ الخلودُ ومِمَّا هو باقٍ أبداً في معانيهِ مِنَ ٱلخيرِ والحقِّ والصلاح؛ فهٰهنا يُعينُ المرضُ بالصبرِ عليهِ مِمَّا لا تُعينُ الصحة، ويُفيدُ الفقرُ بحقائقِهِ ما لا تُفيدُ الثروة؛ وهنا يكونُ العقلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ مِمَّا هو متخيِّل، وقانِعاً أكثرَ مِمَّا هو طامع؛ وههنا لا موضعَ لِغلبةِ ٱلشهوة، ولا كِبرياءِ النفس، ولا

(١) يسنيه: يجعله سنياً نبيلاً.

حُبِّ الذات؛ وهذه الثلاثُ هي جالِبةُ الشقاءَ على الإنسانِ حتى في أحوالِ ٱلسعادة، وبدونِها يكونُ الإنسانُ هانِئاً حتى في أحوالِ الشقاء.

بالإرادة المؤمنةِ القويَّةِ ينصرفُ ذكاءُ المؤمنِ إلى حقائقِ العالمِ وصلاحِ النفسِ بها، وبغيرِ هذهِ الإرادةِ ينصرفُ الذكاءُ إلى خيالِ الإنسانِ وفسادِ الإنسان. . .

وإذا ٱنصرفَ الذكاءُ إلى حقائقِ الدنيا كانَ العقلُ سهلاً مَرِناً مِطواعاً، وٱستحالَ عليهِ أنْ يفهمَ فكرةَ قتلِ النفسِ أو يُقرَّها، فإنَّ هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْتطْرِقُ إلى العقلِ إلّا إذا تحجَّرَ وٱنحصرَ في غرضٍ واحدٍ قد خابَ وخابَتْ فيهِ الإرادةُ ففرغَتِ الدنيا عندَهُ.

ولو أنَّ ٱمرأً تمَّ عزمُهُ على قتلِ نفسِهِ ثُمَّ صابرَ الدنيا أيَّاماً، لاٱنفسَحَ عزمُهُ أوْ رَكَ[1]؛ إذْ يلينُ العقلُ في هذه المدةِ نوعاً ما، ويجعلُ الصبرُ بينَه وبينَ المصيبةِ مسافةً ما، فتتغيرُ حالةُ النفسِ هَوْناً ما؛ فالصبرُ كالتروُّحِ بالهواءِ على العقلِ الذي يكادُ يختنقُ من ٱحتباسِهِ في معنًى واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبِهِ «ومَثَلُ العقلِ في هذه الحالِ مَثَلُ القائم في إعصارٍ لَفَّهُ بالترابِ لَفًّا وسدَّ عليهِ مَنافِذَ ٱلهواء، وحبسَهُ في هذا الترابِ الملتفِّ حَبْسَ ٱلحشرةِ في جوفِ القصَبة؛ فهو على ٱليقينِ أنَّها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ في ٱلزمنِ لا حالةُ الزمن؛ وأنَّ الهواءَ الذي جاءَ بهذا ٱلهمِّ هو الذي يذهبُ بهذا ٱلهمّ.

وكما أنَّ الأرضَ هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الثائرِ منها، فالحياةُ كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائِها.

❊ ❊ ❊

قالَ ٱلإمام: وفي كتابِ ٱللَّهِ آيتانِ تدلَّانِ على أنَّهُ كتابُ الدنيا كلِّها، إذْ وضعَ لهذه الدنيا مثالين: أحدُهما المثالُ الروحيُّ لِلفردِ ٱلكامل، والآخرُ المثالُ الروحيّ لِلجماعةِ الكاملة.

أما الآيةُ الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾.

وأما الثانيةُ فهي قولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾.

---

(١) ركَّ: ضعف.

ففي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يتسامى الإنسانُ فوقَ هذه الحياةِ الفانية، فتمرُّ همومُها حولَهُ ولا تصدمُه، إذْ هي في الحقيقةِ تجري من تحتِهِ فكأنْ لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُ في مثلِ هذه النفسِ قُوًى بالغةً تصرِّفها كيف شاءَت، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تسحقُ ضعفاً، بل قوةٌ تمتحِنُ قوةً أخرى أو تُثيرُها لِتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُهُ الناسُ وينتفعُونَ منه بالأسوةِ الحسنة، والأسوةُ وحدَها هي عِلْمُ الحياة.

وقد ترى الفقيرَ مِنَ الناسِ تحسُبُهُ مسكيناً، وهو في حقيقتِهِ أستاذٌ من أكبرِ الأساتيذِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسِهِ القويَّة.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليوم الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناس، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظَى منهُ بفتنةِ الدنيا نظراً لا يَبْعثُ إلّا ٱلحِقدَ وٱلسخط، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في الناسِ مِنَ الخيرِ والصلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتِها لا تبعثُ إلّا السرورَ والغِبطة. ومَنْ جعلَها في تفكيرِهِ أبطلَ أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بينَ الناسِ عاليهم ونازِلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ العالمِ إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالم؛ جَمعَ بينَهما الاتفاقُ العقليُّ وسقطَ ما عداه.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يعيشُ ٱلإنسانُ عُمْرَهُ الطويلَ أوِ ٱلقصيرَ كأنَّهُ في يوم يُصبحُ منه غادياً على ٱلحشرِ وٱلحِساب؛ فهو متَّصلٌ بالخلودِ غيرُ مَعْنِيٍّ إلّا بأسبابِه؛ وبهذا تكونُ أمراضُهُ وآلامُهُ ومصائبُهُ ليسَتْ مَكارِهَ منَ الدنيا، بل هي تلكَ المكارِهُ التي حُفَّتِ ٱلجنةُ بها؛ ولا يَضرُّهُ الحِرْمانُ لأنَّهُ قريبُ الزوال، ولا يغُرُّهُ المتاعُ لأنَّهُ قريبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يَسُودُ الإنسانُ على نفسِه؛ ومَنْ كانَ سيِّدَ نفسِهِ كانَ سيدَ ما حولَها يُصَرِّفُهُ بحكمِهِ، ومَنْ كانَ عَبْدَ نفسِهِ صَرَّفَهُ بحكمِهِ كلُّ ما حَوْلَه.

قالَ الشعبيّ: وأمَّا المثالُ الروحيُّ لِلجماعةِ الكاملة، فهو في وصفِ ٱلمؤمنينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بينهم»؛ فهذا هذا، ما أحسُبُه يحتاجُ إلى بَسْطٍ وبيان.

إنَّ أكثرَ ما يضيقُ بهِ الإنسانُ يكونُ من قِبَلِ مَنْ حولَهُ مِمَّن يُعايِشُهُم ويتَّصلُ بهم لا من قبل نفسِه، فإذا قامَ ٱجتماعُ أمَّةٍ على أنَّهم (رُحَمَاءُ بينهم) تَقَرَّرَتِ ٱلعظمَةُ النفسيَّةُ لِلجميعِ على السواء؛ ومَنْ كانوا كذلك لم يَحْقِروا الفقيرَ بفقرِهِ، ولم يُعظموا الغنيَّ لِغِنَاه، وإنَّما يُحَقِّرُون ويعظِّمونَ لِصفاتٍ ساميةٍ أو حقيرة. وبينَ هؤلاءِ يكونُ الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قَدْراً مِنَ الغنيِّ الشاكر، وإعظامُ الناسِ

لِفضيلةِ الفقيرِ هو الذي يجعلُ فقرَهُ عندَ نفسِهِ شيئاً ذا قيمةٍ في الإنسانية.

ومتى تَصحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلمةِ لِلناس بَطَلَ ألمُها وٱستحالَتْ معانيها، وصارَ لا يَبلَى معنًى من معاني ٱلحياة في إنسانٍ إلَّا وضعَ إيمانُهُ معنًى جديداً في مكانِه، وتُصبحُ ٱلفضيلةُ وحدَها غايةَ النفسِ في الجميع؛ وبذلك يَصبرُ ٱلفردُ على مصائبِه، لا بقُوّتِهِ وحدَه، ولكنْ بجميعِ القوَى التي حولَه. أفَلا تَرَوْنَ أنَّ إعجابَ الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمَهم صاحبَها يَضعُ في ألَمِ السلاحِ لذةً يُحِسُّها لحمُ الشجاعِ البطلِ؟

* * *

قالَ المسيَّب بْنُ رافع: فقامَ رجلٌ مِنَ المجلس، فقال. أيُّها الشيخ، وإذا فَسدَ الناسُ وغَلُظَتْ قلوبُهم، وتقطَّعتْ بينَهُمُ الأسباب، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بينهم)، وشَمِتوا بالفقير، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه في ألسنتِهم كما يَطرَحُ الشاعرُ في لِسانِهِ رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه ـ فما عسى أنْ يصنعَ المسكينُ حينئذٍ وكلُّ شيءٍ يدفعُهُ إلى قتلِ نفسِه؟

وقال الشعبيّ: هٰهنا الرجاء في اللَّهِ واليوم الآخر، وهو شعورٌ لا يُشترى بمال، ولا يُلتمسُ من أحد، ولا يَعْسُرُ على مَنْ أرادَهُ؛ والفقيرُ وٱلمُبتلَى وغيرُهما إنَّما يَصنعُ كلٌّ منهم مِثالَهُ السامي؛ فالصبرُ على هذا العَنَتِ هو صبرٌ على إتمامِ ٱلمِثال، وإذا وقَعَ ما يسوءُك أو يُحزِنُكَ فٱبحثْ فيهِ عن فكرتِهِ السامية، فقلَّما يخلو منها، بل قلَّما يجيءُ إلَّا بها.

قالَ المسيَّب: فقامَ آخرُ فقال: وكيف يصنعُ ٱمرؤٌ آلتْ[1] أحوالُ ٱلدنيا إلى ما يُخيفُه، أو بَلَغَ ٱلهمُّ مبلَغَهُ من قلبِهِ فهمَّ أنْ يقتلَ نفسَه؟

قال الشعبيّ: فلْيجعلِ ٱلخوفَ خَوْفَيْنِ: أحدُهما خوفُهُ عذابَ اللَّهِ خالداً مُخلَّداً فيهِ أبداً؛ فَيَذْهَبُ الأقوى بالأضعف. وإذا ٱبتُليَ فلْيضمَّ إلى نفسِهِ مَن هو أشدُّ بلاءً منه؛ لِيكونَ همُّهُ أحدَ همَّيْن، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ.

إنَّ الإنسانَ ونفسَهُ في هذه الحياةِ كالذي أُعطيَ طِفلاً نَزِقاً طَيَّاشاً عارِماً متمرِّداً لِيؤدِّبَهُ ويُحْكِمَ تربيتَهُ وتقويمَهُ فيُثبتَ بذلك أنَّهُ أُستاذٌ، فيُعطَى أجرَ صبرِهِ وعملِه، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفلِ ساعةً فيقتلُه. أكذلك التأديبُ والتربية؟

---

(١) آلت: تحوّلت.

الانتحار

٣

قال ٱلمسيَّبُ بْنُ رافع: وكان الإمامُ قد شغَلَ خاطرَهُ[١] بهذِه القصةِ فأخذَتْ تَمُدُّ مدَّها في نفسِه، ومكَّنَتْ لَهُ من معانيها بِمِقدارِ ما مكَّنَ لَها في هَمِّه، وتفتَّقَ بها ذِهنُهُ عَنْ أساليبَ عجيبةٍ يتهيَّأُ بعضُها من بعضٍ كما يَلِدُ المعنى المعنى. فلمَّا قالَ ٱلرجُلانِ مقالَهما آنفاً وأجابَهما بتلك الحِكمةِ والموعظةِ الحسنة، ٱنْقدَحَ لَهُ من كلامِهما وكلامِهِ رأيٌ فقال:

يا أهلَ الكوفة: أنشُدُكم ٱللَّهَ والإسلامَ أيُّما رجلٍ منكم ضاقَ بروحِهِ يوماً فأرادَ إزهاقَها إلَّا كشفَ لأهلِ المجلسِ نفسَهُ وصَدَقَنا عن أمرِه؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْباً[٢] ولا عاباً، فإنَّما ٱلنكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القَدَرِ في ٱلتعليم؛ وقد يكونُ ٱبتداءُ المصيبةِ في رجلٍ هو ٱبتداءَ الحكمةِ فيهِ لِنفسِه أو لِغيرِه؛ وما من حزينٍ إلَّا وهو يشعرُ في بعضِ ساعاتِ حزنِهِ أنَّهُ قد غُيِّبَتْ فيهِ أسرارٌ لم تكنْ فيه، وهذا من إبانةِ ٱلحقيقةِ عن نفسِها وموضعِها كما لألأ[٣] في سيفٍ بريقُه.

وعقلُ ٱلهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أُريدَ استخراجُ عِلْمٍ يَعلمُهُ الناسُ مِنَ ٱللذاتِ والنِّعم؛ لَكانَ من شرحِ هذا العِلْمِ مِنَ الحميرِ والبغالِ والدَّوابِّ ما لا يكونُ مثلُهُ ولا قُرابُهُ في ٱلعقلاء، ولا تبلغهُ القُوى الآدميَّةُ في أهلِها؛ بَيدَ أنَّهُ لو أُريدَ عِلْمٌ مِنَ البؤسِ والألمِ وٱلحاجةِ لَمَا وُجِدَ شرحُهُ إلَّا في الناس، ثُمَّ لا يكونُ الخاصُّ منه إلَّا في الخاصةِ منهم.

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمروا المساكينَ في تطَاوُلِهم بأعناقِهم إلَّا من أنَّهم يَعلُون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنيِّ الذي يجهلُ الحقَّ عليهِ في غِناهُ ويحسبُ نفسَهُ مُخَلًّى لِشهواتِهِ ونعيمِه؛ كما هو دابةُ العالمِ الذي يجهلُ الحقَّ عليهِ

---

(١) خاطره: باله. (٢) ثلباً: عاباً وعيباً. (٣) لألأ: التمع وبرق.

في عِلْمِه، ويزعمُ نفسَهُ مخلًّى لِعقلِهِ أو رأْيِه، وما طالَ الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ ٱلقصير، وهلْ يصحُّ في الرأي أن يُقالَ هذا أطولُ من هذا لأنَّ الأولَ فوقَ السُّلَّمِ والآخرَ فوقَ رجليه. . .؟

* * *

قال المسيَّب: فقامَ شيخٌ من أقصى المجلس وأقبلَ يتخطَّى ٱلرقابَ وٱلناسُ يَنْفرجون[1] لَهُ حتى وقفَ بإزاءِ الإمام؛ وتَفَرّسْتُهُ[2] وجعلَتْ عيني تعْجمُهُ[3]، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهِهِ شباباً على وجهِه، أبلجُ الغُرّةِ مُتهلّلٌ عليهِ بشاشةُ الإيمانِ وفي أساريرِهِ أثرٌ من تقطيبٍ قديم، ينطقُ هذا وذاك أنَّ الرجلَ فيما أتى عليهِ مِنَ الدهرِ قد كانَ أطفأَ ٱلمصباحَ الذي في قلبِهِ مرةً ثُمَّ أضاءه. وعجِبْتُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الشيخِ قد همَّ بقتلِ نفسِهِ يوماً، وأنا أرى بعينيَّ نفسَهُ هذه مُنْبثِقةً في الحياةِ ٱنبثاقَ النَّخلةِ السَّحوقِ.

وتكلمَ هذا الرجلُ فقال:

أمَّا إذ ناشدْتَنا[4] الله والإسلامَ وميثاقَ العِلْم ووحيَ الأقدارِ في حِكمتِها، فإنِّي محدِّثُك بخبري على وصفِهِ ورَصْفِه: أملقْتُ[5] مَنذُ ثلاثينَ سنةً ووقفَ بي منَ الدهرِ ما كانَ يجري، وأصبحْتُ في مُزاولةِ الدنيا كعاصرِ الحَجَرِ يُريدُ أنْ يشربَ منه، وعجَزتْ يدي حتى لَظُفْرُ دَجاجةٍ في نبشِها الترابَ عنِ ٱلحبَّةِ وٱلحشرَةِ أقدرُ مني؛ وطرَقَتْني ٱلنوائبُ[6] كأنَّما هي تُساكنُني في داري، وأكلني ٱلدهرُ لحماً ورماني عِظاماً، فما كانَ يقفُ عليَّ إلَّا كلابُ ٱلطريقِ؛ ولي يومئذٍ ٱمرأةٌ أعقبَتْ منها طفلاً، ويلزَمُني حقُّهما ولا أستطيعُه؛ وكانَ بينَنا حُبٌّ فوقَ المعاشرةِ والألفةِ قد تركني مِنِ ٱمرأتِي هذه كالشاعرِ الغَزِلِ من صاحبتِه، غيرَ أنَّ الشعرَ في دمي لا في لِساني.

فلمَّا نَهكَتْني[7] المصائبُ وتناولَتْني من قريبٍ ومن بعيد؛ قلْتُ لِلمرأةِ ذاتَ يوم وقد شَحِبَتْ وٱنكسَرَ وجهُها وتَقَبَّضَ[8] من هُزالِه: وٱيمُ اللَّهِ يا فلانةُ لو جازَ أنْ يُؤكَلَ لحمُ الآدميِّ لَذبحْتُ نفسي لِتأكلي وتَدرِّي على الصبيِّ؛ ولقد هممْتُ أنْ أركبَ رأسي وأذهبَ على وجهي لِتفقداني فتفقدا شُؤمي عليكما؛ ولكنْ ردَّني

(1) يتفرجون له: يُفسحون له الطريق.
(2) تفرسته: نظرت إليه بإمعان.
(3) تعجمه: تتفحصه.
(4) ناشدتنا الله: استحلفتنا.
(5) املقت: افتقرت.
(6) طرقتني النوائب: حلّت بي المصائب.
(7) نهكتني: أتعبتني وأضنتني.
(8) تقبّض: انكمش.

قلبي، وهو حَبَسني في هذه الدنيا الصغيرةِ التي بينَكما، فليسَ لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلّا أنتِ وهذا الصبيّ. ولسْتُ أدري - واللّهِ - ما نصنعُ بالحياةِ وقد كُنّا من نباتِها الأخضرِ فرجَعْنا من حَطبِها اليابس؛ وعادتِ الشمسُ لا تَغذوها بل تمتصُّ منها ما بقي، ولا تستضيءُ لها، ولكنْ تَسْتَوْقِدُ عليها!

إنَّ مَنْ فَقَدَ ٱلخيرَ ووقعَ في الشرّ، حَرِيٌّ[1] أنْ يكونَ قد أصابَ خيراً عظيماً إذا قتلَ نفسَهُ فخلص مِنَ ٱلشرِّ والخيرِ جميعاً، لا يُكْدِي[2] ولا يَنجَحُ، ولا يألمُ ولا يَلَذُّ؛ وكما أنكرَتْهُ الدنيا فلْينكرْها. أمَا إنّهُ إنْ كانَ القبرُ فالقبرُ ولكنْ في بطنِ الأرضِ لا على ظهرِها كحالِنا؛ وإنْ كانَ ٱلموتُ فٱلموتُ ولكنْ بمرَّةٍ واحدةٍ وفي شيءٍ واحدٍ لا كهذا الذي نحن فيهِ أنواعاً أنواعاً. قد ماتَتْ أيّامُنا، وترَكَتْنا نعيشُ كالموْتى لا أيامَ لهم، وزادَ علينا ٱلموتى في النعمةِ والراحةِ أنّهم لا يتطفّلون[3] على أيامِ غيرِهِم فيُطْرَدوا عن يوم هذا ويوم ذاك.

قال: فٱستعبرَتِ[4] ٱلمرأةُ باكيةً، ولَمّا فرغَتْ من كلام دموعِها قالَت: كأنَّكَ تُريدُ أنْ تَفْجَعَنَا فيك؟ قلْتُ: ما عَدَوْتِ ما في نفسي؛ ولكنْ هلْ بقيَ فيَّ مَنْ تُفْجَعينَ فيه؟ أمَا ذهبَ مني ذاكَ الذي كانَ لكِ زوجاً وكاسِباً، وجاءَ الذي هو همُّكِ وهمُّ هذا الصبيِّ من رجلٍ كالحفرةِ لا تنتقلُ من مكانِها وتأخذُ ولا تُعطِي؟

أمْ والله لَكأني خُلقْتُ إنساناً خطَأً، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريدَ إرجاعي إلى الحيوانِ فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيْتُ بينَهما؛ يمرُّ الناسُ بي فيقولون: إنسانٌ مِسكين. وأحسبُ لو نطَقتِ ٱلكلابُ لَقالَتْ عنّي: كلبٌ مسكين. يا عجباً! عجباً لا ينتهي! أصبحتِ الدنيا في يدِنا مِنَ العجزِ واليأسِ كأنّما هي بَعْرَةٌ نَجْهَدُ في تحويلِها ياقوتةً أو لؤلؤة. . .

فقالَتِ ٱلمرأة: واللّهِ لَئنْ حَيِيتَ على هذا إنَّ هذا لَكفرٌ قبيح، ولَئنْ مُتَّ عليه إنّهُ لَأقبحُ وأشدّ.

فقلْتُ لها: ويحكِ وماذا تنظرُ العينُ ٱلمُبصِرةُ في الظلامِ الحالكِ إلّا ما تنظرُ ٱلعمياء؟

قالَت: ولِمَ لا تنظرُ كما ينظرُ المؤمنُ بنورِ ٱللّهِ؟

---

(١) حريّ: جدير.
(٢) أكدى: قلّ خيره وعطاؤه.
(٣) يتطفلون: يعيشون على حساب غيرهم.
(٤) استعبرت: بكت.

قلْتُ: فٱنظرِي أنت وخبِّريني ماذا تَرَيْن. أتريْن رغيفاً؟ أتريْن إداماً؟ أترَيْنَ ديناراً؟

قالت: واللّهِ إني لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك. أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ[1] المُظلِمةَ إنْ لم يَطْلُعْ فكأنْ قَدْ.

قال: فغاظْتني ٱلمرأةُ ورأيْتُها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بقلَّةِ ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ يدي؛ ولولا حبِّي إيّاها ورحمتِي لها لأوقعْتُ بها[2]. وٱستحكم في ضميري أنْ أُزْهِقَ نفسي وأدَعَها لِمَا كُتِب لها.

وقلْت: إنَّ جُبنَ ٱلمرأةِ هو نصفُ إيمانِها حينَ لا يكونُ نصفَ عقلِها، وللقَدَرِ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تَصْفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعَهُنَّ، ولَهُ يدٌ أخرى على الرجالِ ثقيلةٌ تصفعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقِهِ فتعصِرُه.

* * *

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ قولَ الجاهليةِ في هذه الخليقة؛ أرحامٌ تَدْفَع، وأرضٌ تَبْلَع. فحضَرني هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشُبِّهَ لي، وٱعتقدْتُ أنَّ هذا الإنسانَ شيءٌ حقيرٌ في الغايةِ مِنَ ٱلهوانِ والضَّعة: حملَتْهُ أمُّهُ كُرْهاً، وأثْقَلَتْ بِهِ كُرهاً، ووضَعتْهُ كُرهاً؛ وهو من شُؤمِهِ عليها إذَا دَنَا لها أنْ تَضَعَ لم يخرجْ منها حتى يَضْرِبَها ٱلمخاضُ فتتقلَّبُ وتصيحُ وتتمزَّقُ وتَنْصَدِع[3]؛ وربمَّا نَشِبَ فيها فقتلَها، وربَّما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه. وإذا هي ولدتْهُ على أيِّ حالَيْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثلِ ٱلمَطَارِقِ ٱلمحطِّمة، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيسَّر ـ فإنَّما تلدُهُ في مَشيمَةٍ ودماءٍ وقذَرٍ مِنَ ٱلأخلاطِ كأنَّما هو خارجٌ من جُرْحٍ. ثم تتناولُهُ الدنيا فتضَعُهُ من معانيها في أقبحَ وأقذرَ من ذلك كلِّه. ثُمَّ يستوفي مُدَّتَهُ فيأخذُهُ القبرُ فيكونُ شرًّا عليه في تمزيقِهِ وتعفينِهِ وإحالتِه.

قال: وحضَرني مع كلمةِ الجاهليةِ قَولُ ذلك الجاهلِ الزِّنديقِ الذي يُعرفُ (بالبَقْلِيّ) ـ إذْ كانَ يزعمُ أنّ الإنسان كالبَقْلة، فإذا ماتَ لم يَرْجع. وقلْتُ لِنفسي: إنَّما أنت بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشةٍ[4]، فقتلَهَا مِلْحُ أرضِها أكثرَ مِمَّا أحياها.

---

(١) السُّدفة: الظلمة والعتمة.

(٢) أوقعت بها: نزلت بها ضرباً.

(٣) تنصدع: تتكسّر.

(٤) الأرض النشاسة: السبخة التي يوجد فيها الماء والملح.

قال: وثُرْتُ إلى المِدْيةِ[1] أُريدُ أنْ أتوَجأَ بها، فتُبادرني ٱلمرأةُ وتحولُ بيني وبينَها؛ وأكادُ أبطُشُ بها مِنَ ٱلغيظ، وكانَتْ روحُ ٱلجحيم تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعوا سمعوا لها شهيقاً وهي تفور؛ فما أدري أيُّ مَلَكٍ هبطَ بوحْي الجنةِ في لِسانِ ٱمرأتي.

قلْتُ لها: إنَّها عَزْمةٌ منِّي أنْ أقتلَ نفسي.

قالَت: وما أُريدُ أنْ أنقضَها ولسْتُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها.

قلْتُ: فخلِّي بينَ نفسي وبينَ المِدية.

قالَت: كلُّنا نفسٌ أنا وأنت والصبيُّ فلْنَقْضِ معاً؛ وما بنفسي عن نفسِك رغبةٌ ولا ندعُ الصبيَّ يتيماً يصفعُهُ مَنْ يُطْعِمُه، ويضرِبُه ٱبنُ هذا وٱبنُ ذاك إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ في أولادِ الناسِ أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا.

قلْتُ: هذا هو الرأي.

قالَت: فتعالَ ٱذبحِ ٱلطفل....

* * *

قالَ المسيَّب بْنُ رافع: وما بلغَ الرجلُ في قصتِهِ إلى ذبح صغيرِهِ حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرة؛ وتوهَّمَ كلُّ أبٍ منهم أنَّ طفلَهُ ٱلصغيرَ مُمدَّدٌ لِلذبحِ وهو يُنادي أباهُ ويشُقُّ حَلْقَهُ بالصُّراخ: يا أبي يا أبي؛ أدركْني يا أبي.

أمَّا الإمامُ فدَمَعَتْ عيناهُ وكنْتُ بينَ يديهِ فسمعْتُهُ يقول: إنَّا للَّهِ، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها؟

وأنا فما قَطُّ نسِيتُ هذه الكلمة، وما قطُّ رأيْتُ من بعدِها كافراً ولا فاسقاً فٱعتبرْتُ أعمالَهُ إلَّا كانَ كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقةُ صَنعتِهِ حَطباً... كأنَّ الشيطانَ لعنَهُ ٱللَّهُ يقولُ لأتِباعِه؛ جَفِّفوه...

وكانَتْ هُنَيْهاتٌ، ثُمَّ فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسِهم وصاحوا بالمتكلم: ثم ماذا؟

* * *

قالَ الرجل: ففتحْتُ عيني وقلبي معاً ورَمقْتُ[2] ٱلطفلَ المسكينَ الذي لا يملِكُ إلَّا يديهِ الضعيفتينِ؛ ونظرْتُ إلى مَجْرَى السكينِ من حلقِهِ وإلى مَحَزِّها[3] في

---

(١) المدية: السكين.

(٢) رمق: نظر بطرف نظره.

(٣) محزّها: موضع الذبح.

رقبتِهِ اللّينة؛ ورأيْتُهُ كأنّما تفرّقَ بصرُهُ مِنَ الفزَعِ على كلِّ جهة، ورأيْتُهُ يتضرَّعُ لي بعينيهِ الباكيتينِ ألّا أذبَحه، ورأيْتُهُ يتوسلُ بيديهِ الصغيرتينِ كأنّهُ عرفَ أنَّهُ منّي أمامَ قاتلِه، ثُمَّ خُيِّلَ إليَّ أنّه يتلوَّى وينتفضُ ويصرُخُ من ألمِ الذبحِ تحتَ يدِ أبيه؛ تحت يدِ أبيهِ التَّعِس.

يا ويلتاهُ! لقد أخذَني ما كانَ يأخُذني لو تهدَّمَتِ ٱلسماءُ على الأرض، وحسبْتُ الكونَ كلَّهُ قدِ ٱنفجرَ صُراخاً من أجلِ الطفلِ الضعيفِ الذي ليسَ لَهُ إلّا ربُّهُ أمامَ القاتل.

فهَرْوَلْتُ[1] مسرعاً وتركْتُ ٱلدارَ والْمرأةَ والصبيَّ وأنا أقولُ يا أرحمَ الراحمين. يا مَنْ خلقَ الطفلَ عالَمُهُ أمُّهُ وأبوه وحدَهما وباقي العالمِ هباءٌ عندَه. يا مَنْ دبَّرَ الرضيعَ فوهبَهُ مُلكاً ومملكةً وغِنًى وسروراً وفرحاً، كلُّ ذلك في ثَدْي أمِّهِ وصدرِها لا غيرَ يا إلهي: أنسِنِي مثلَ هذا النسيان، وٱرزقْني مثلَ هذا الرزق، وٱكفُلْنِي بمثلِ هذا التدبيرِ فإنِّي منقطعٌ إلّا من رحمتِك ٱنقطاعَ الرضيعِ إلّا من أمِّه.

* * *

قالَ الرجل: ولقد كنْتُ مغروراً كالجيفةِ الراكدةِ تحسبُ أنَّها هي تفورُ حينَ فارقَتْ حشَراتُها. ولقد كنْتُ أحقرَ مِنَ الذبابِ الذي لا يجدُ حقائقَه، ولا يلتمسُها إلّا في أقذرِ القذر.

وما كِدْتُ أمضي كما تسوقُني رجلاي حتى سمعْتُ صوتاً نَدِيًّا مطلولاً يُرَجِّعُ ترجيعَ الوَرْقاءِ[2] في تَحْنانِها وهو يُرتِّل هذه الآية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

قال: فوقفْتُ أسمعُ وماذا كنْتُ أسمع؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات، أحرقَتْ كلَّ ما كانَ حولي ولمسَتْ مِصباحَ رُوحِي ٱلمنطفىءَ فإذا هو يتوهَّجُ، وإذا الدنيا كلُّها تتوهجُ في نورِهِ، وٱرتفعَتْ نفسي عنِ ٱلجَدْبِ[4] الذي كنْتُ فيهِ وكأنّما لَفّتْني سحابةٌ مِنَ السُّحُب، ففي روحي نسيمُ الماءِ الباردِ ورائحةُ الماءِ العذْب.

لعنَ ٱللّهُ هذا الاضطرابَ الذي يُبتَلى الخائفُ به. إنَّنا نحسبُهُ ٱضطراباً وما هو

---

(١) هرولت: ركضت.
(٢) الورقاء: اليمامة.
(٣) فرطاً: تتقاسمه الأهواء.
(٤) الجدب: المحل.

إلَّا اختلاط ٱلحقائقِ على النفسِ وذَهابُ بعضِها في بعض، وتَضَرُّبُ الشرِّ في الخيرِ والخيرِ في الشرِّ حتى لا يَبِينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرَفَ حَدٌّ من حدّ، ولا تمتازَ حقيقةٌ من حقيقة. وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتَلى كالماءِ الذي جَمدَ لا يتحرَّكُ ولا يَتَسايَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنَّهُ دائماً لا يزالُ في أولِهِ يُنذِرُ بالأهوال، وقد يكونُ هَوْلَهُ ٱنتهى أو يُوشِك.

قالَ الرجل: وكنتُ أرى يأسي قدِ ٱعْتَرَى كلَّ شيء، فٱمتدَّ إلى آخرِ الكونِ وإلى آخِرِ الزمن؛ فلمَّا سكَن ما بي إذا هو قد كان يأسَ يوم أو أيام في مكانٍ مِنَ الأمكنة؛ أمَّا ما وراءَ هذه الأيَّام وما خلْفَ هذا المكان، فذلكَ حُكمُهُ حكمُ الشمسِ التي تطلُعُ وتغيبُ على الدنيا لإحيائها، وحكمُ الماءِ الذي تَهْمِي السماءُ بهِ لِيسقِيَ الأرضَ وما عليها، وحكمُ ٱستمرارِ هذه الأجرامِ السماويَّةِ في مَدَارِها لا تُمسِكُها ولا تَزِنُها إلَّا قوةُ خالقِها.

أين أثرُ الإنسانِ الدنىءِ الحقيرِ في كلِّ ذلك؟ وهلِ ٱلحياةُ إلَّا بكلِّ ذلك؟

وما الذي في يدِ الإنسانِ العاجزِ من هذا النظامِ كلِّهِ فيَسُوغَ[1] لَهُ أنْ يقولَ في حادثةٍ من حوادثِهِ إنَّ الخيرَ لا يبتدِىءُ وإنَّ الشرَّ لا ينتهي؟

تَعترِي المصائبُ هذا الإنسانَ لِتمحوَ من نفسِهِ الخِسَّةَ والدناءة، وتكسِرَ الشرَّ والكِبرياء، وتَفثأَ[2] ٱلحِدَّةَ والطيش؛ فلا يكونُ من حُمقِهِ إلَّا أنْ يزيدَ بها طيشاً وحِدَّة، وكِبرياءً وشرًّا، ودناءةً وخِسَّة، فهذه هي مصيبةُ الإنسانِ لا تلك.

المصيبةُ هي ما يَنْشأُ في الإنسانِ مِنَ ٱلمصيبة.

* * *

قال: وردَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أشبعُ منها، وجعلْتُ أُرتِّلُها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبَهُ وأشجاه؛ فكانتْ نفسي تهتزُّ وترتجُّ كأنَّما هي تبدأُ تنظيمَ ما فيها لإقرارِ كلِّ حقيقةٍ في موضعِها بعدَ ذلك ٱلاختلاطِ وٱلاضطراب.

صبرُ النفسِ معَ الذين يمثِّلونَ روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغَداةِ والعشيّ، وعلى نورِ الحياةِ وظلامِها، يُريدون وَجهَ ٱللَّهِ الذي سبيلُهُ ٱلحُبُّ لا غيرُهُ من مالٍ أو متاع. وتقييدُ العينينِ بهذا المثَلِ الأعلى كما يكونُ الأمرُ في ٱلجمالِ والحُبّ؛ والربطُ على

(١) يسوغ: يسمح. (٢) فثأ الغضب: سكّنه وكسره.

الإرادةِ كَيْلاً تَتَفلَّتَ فتُسِفَّ[1] إلى حقائرِ الدنيا المسماةِ هُزُءاً وتهكماً زينةَ الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائقَ الذبابِ العالية... فتكونُ قَذِرةً نجسةً، ولكنَّها مع ذلك زينةُ الحياةِ لِهذا الخَلْقِ الذُّبابي.

تلك ـ واللَّهِ ـ هي أسبابُ السعادةِ والقوّة. أمَّا المصائبُ كلُّها، فهي في إغفالِ ٱلقلبِ الإنسانيِّ عن ذكرِ الله.

* * *

قال: ولمَّا صَحَّتْ توبتي، وقَوِيَ اليقينُ في نفسي، كَبُرَتْ روحي وٱتسعَتْ، وٱنبعثَتْ لها بواعثُ من غيرِ حقائقِ الذباب، وأشرقَ فيها الجمالُ الإلهيُّ ساطعاً من كلِّ شيء، وكانَ ٱلصبحُ يطلعُ عليَّ كأنَّهُ وِلادةٌ جديدة، فأنا دائماً في عُمرِ طفل، وجاءَنِي الخيرُ من حيثُ أَحْتَسِبُ[2] ولا أحتسِب، وكأنَّما نِمْتُ فٱنتبهْتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمنِ الحيّ.

ولقد أفدْتُ مِنَ الآية طبيعةً لم تكُنْ فيَّ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خِصالي أنْ أرى الحاضرَ كلَّهُ متحرِّكاً يمرُّ بما فيهِ من خيرِهِ وشرِّهِ جميعاً، وأَسْتَشْعِرَ حركتَهُ مثلما ترى عيناي من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحتَ رِحالِهِ وهو يُغِذُّ السَّير[3].

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكِّلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ومُروءةٍ وجاهٍ، وكأنَّما كلَّمَهُ قَلبُهُ أو كلَّمَهُ وجهي في قلبِه فٱستَنْبأني، وبَثَثْتُه[4] حالي وٱقْتَصَصْتُ قِصتي. فقال: سيُحييك ٱللَّهُ بالطفلِ الذي كِدْتَ تقتُلُهُ فٱرجعْ إلى دارِك. ثُمَّ وجَّهَ إليَّ دنانيرَ وقال: اِتَّجِرْ بهذه على ٱسم اللَّهِ وبركتِهِ فسينمو فيها طفلٌ مِنَ ٱلمالِ حتى يبلغَ أشُدَّه. وقد صدقَ إيمانُهُ وإيماني، فباركَ لِيَ ٱللَّهُ ونما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوزَ إلى شبابِه.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وجلسَ الرجلُ وكانَ كالخطيبِ على المنبر، فقالَ الإمام: ما أشبَهَ النكبةَ بالبَيَضةِ تُحسَبُ سِجناً لِما فيها وهي تحوطُهُ وتربِّيهِ وتُعينُهُ على تَمامِه، وليسَ عليهِ إلّا الصبرُ إلى مدَّة، والرِّضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ ٱلبيضةُ فيخرجُ خَلقاً آخر.

وما ٱلمؤمنُ في دنياهُ إلّا كالفَرْخِ في بَيضتِه، عملُهُ أنْ يتكوَّنَ فيها، وتمامُهُ أنْ ينبثقَ شخصُهُ الكاملُ فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل.

---

(١) تسفّ: تنحطّ.
(٢) احتسب: اعتقد وظنّ وأمل.
(٣) يغذّ السير: يجدّ في سيره.
(٤) بثثته: أعلمته وأطلعته على أمري.

الانتحار

٤

قال المسيَّب بْنُ رافع: ومدّ الإمامُ عينَهُ وقد رُفِعَ له شخصٌ منَ ٱلمجلس؛ ثم جَلى بنظرِهِ كأنَّما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بَطَل، والصدقِ إذا كَذَب؛ ثم ردَّ بصرَهُ عَلَيَّ كأنهُ يُعَجِّبُني من عجبِهِ؛ ثم سَجَا[1] طرْفُهُ كأنَّما أنكرَ رأيَ عينيهِ فهو يلتمسُ رأيَ قلبِه. وتبيَّنتُ في وجهِهِ ٱنقباضاً خَيَّلَ إليَّ أنَّ الشيطانَ جاءَهُ بهذا الرجلِ يُفْحِمُهُ[2] بِهِ يُريهِ كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحينَ يتحمَّسُ في دينِهِ لِيرجعَ بعدَ ذلك أصلاً لا غِنى عنهُ في إنشاءِ قصةِ كُفْر!

هذا هو ضيفُنا (أبو محمدٍ البَصْريُّ) يَتَخَوَّضُ[3] الناسَ لِيجيءَ فيُحدِّثَنا حديثَهُ في قَتْلِ نفسِهِ والاثم بربّه؛ فلو قيلَ لي: إنَّ قَوْسَ السماءِ بأحمرِهِ وأصفرِهِ وأزرقِهِ وأخضرِهِ، قد وقعَ إلى الأرضِ وٱصطبغَ من ألوانِهِ أوحالاً وأقذاراً؛ لكَانَ هذا كهذا في تعاظُمِهِ وإنكارِهِ والعجَبِ منه؛ فأبو محمدٍ مِنَ الرجالِ الحُمْسِ[4] الذين لو كَفَرَ أحدُهم ثُمَّ قيل: «إنه كفر»، لقَصَّرَ اللفظُ أنْ يبلُغَ الحقيقةَ أو يصِفَ شُنْعتَها، كما يقَصِّرُ لفظُ ٱلجنونِ عن وصفِ حكيم تألَّى أنْ يعملَ عملاً يَخرجُ بهِ منَ الكون، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماءٍ ولا تنالُهُ يدُ الله! إنَّ في لفظِ الكفرِ معَ ذاك، وفي لفظِ الجنونِ معَ هذا ـ شيئاً من نِفاقِ العقلِ وتأدُّبِهِ في أداءِ المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبهُهُ جنونٌ ولا كفر.

ونعوذُ باللَّهِ من خِذلانهِ[5]؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِهِ وإيغالِهِ في الدين ـ كالذي يصنعُ حبلاً يَفْتِلُهُ فتلاً شديداً فيُمِرُّهُ على طاقٍ بعدَ طاق، لِيكونَ أشدَّ

---

(١) سجا: سكن ودام.
(٢) يفحمه: يقنعه ويتغلّب عليه.
(٣) يتخوّض: يتخطى.
(٤) الحُمس: أي المتحمسين في دينهم.
(٥) خذلانه: تخلّيه.

لَهُ وأقوى، ثُمَّ يُجاذبُهُ الشيطانُ حَبْلَه، فإذا هو كانَ في الوهَنِ مثلَ العنكبوتِ ٱتَّخذَتْ بيتاً في سَقْفِ حدّاد؛ فرأتْهُ يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعلُهُ سلسلةً حَلْقةً في حلْقة، فذهبَتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيطٍ تزعُمُه سلسلة. . . !

إنَّ معَ كلِّ مؤمنٍ شيطانَهُ يتربَّصُ[1] به، فلهذا ينبغي لِلمؤمنِ أنْ يكونَ في كلِّ ساعةٍ كالذي يشعرُ أنَّهُ لم يؤمنْ إلَّا منذُ ساعة، فهو أبداً محترسٌ متهيّيءٌ متجدِّدُ الحواسِّ مُرْهَفُها يستقبلُ بها الدنيا جديدةً على نفسِهِ بينَ الفترةِ والفترة: ومن هذا حِكمةُ أنْ يؤذنَ المؤذِّنُ، وأنْ تُقام الصلاةُ مِراراً في اليوم، فكلّما بدأ وقتٌ قالَ المؤمن: الآنَ أبدأ إيماني أطهرَ ما كانَ وأقوى.

* * *

وقالَ الإمام: هِيهِ يا أبا محمد! فقال البَصْرِيُّ وقد رأى الكراهةَ في وجهِ الإمام: لا يُفْزِعنك أيُّها الشيخ؛ فإنَّ اللَّهِ ـ تعالى ـ قد يجعلُ ما يُحبِّهُ هو فيما نكرهُ نحن؛ وليسَ لِلأقدارِ لغةٌ فتجريَ على ألفاظِنا؛ وقد نُسمي النازلةَ[2] تنزلُ بنا خساراً وهي ربح، أو نقولُ مصيبةٌ جاءَتْ لِتبديلِ الحياة، ولا تكونُ إلَّا طريقةً تَيسَّرتْ لِتبديلِ الفكر. إنَّما لغةُ القدَرِ في شيءٍ هي حقيقةُ هذا الشيءِ حين تظهرُ الحقيقة؛ وكأيِّنْ من حادثةٍ لا تُصيبُ أمرأً في نفسِهِ إلَّا لِتقعَ بها الحربُ بين هذه النفسِ وبينَ غرائزِها. فتكونَ أعمالُ الطبيعةِ المعاديةِ أسباباً في أعمالِ العقلِ المنتصر.

وكثيرٌ من هذا البلاءِ الذي يُقْضَى على الإنسان، لا يكونُ إلَّا وسائلَ منَ القدَرِ يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرِهِ ٱلخاصِّ به؛ فإنَّ هذه الدنيا عالَمٌ واحدٌ لِكلِّ مَنْ فيها، ولكنَّ دائرةَ الفكرِ والنَفسِ هي لِصاحبِها عالَمُهُ وحدَه. والسعيدُ من قرَّ في عالَمِهِ هذا وٱستطاعَ أنْ يحكمَ فيه كالملكِ في مملكتِه، نافذَ الأمرِ في صغيرتِها وكبيرتِها؛ والشّقيُّ مَنْ لا يزالُ ضائعاً في كلِّ هذا كالأجنبيِّ في غيرِ بلدِهِ وغيرِ قومِهِ وغيرِ أهلِه، إذْ كلُّ شيءٍ يُصبحُ أجنبيًّا عنِ ٱلإنسانِ ما دامَ هو أجنبيًّا عن نفسِه.

لقد كنْتُ ضالّاً عن نفسي وعالمِهَا، فكنْتُ في هذه الدنيا أستشعِرُ شعورَ اللِّصّ، أشياؤه هي أشياءُ الناسِ جميعاً؛ واللصُّ ينظُرُ إلى أموالِ الناسِ بعينَي شاعرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِفٍ[3]، وهي تنظرُ إليهِ بعينَيْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذرٍ.

---

(١) يتربص به: يتحيّن الفرص.

(٢) النازلة: المصيبة الطارئة.

(٣) كَلِف: عاشق.

وكنْتُ نَزِقاً[1] حديدَ ٱلطبعِ سريعَ ٱلبادرة[2]؛ ومَنْ فَقدَ عالمَ نفسِه وكانَ في مَثَلِ اللصِّ الذي ذكرْتُ؛ فإنَّ هذه الطباعَ تكونُ هي أسلحتَهُ يَدْفَعُ بها أو يعتدي. وما قطُّ تَمكّنَ إنسانٌ من نفسِهِ وأحاطَ بها ونفذَ فيها تصرُّفه؛ إلَّا كانَ راضياً عن كلِّ شيءٍ إذْ يتَّصلُ من كلِّ شيءٍ بجهتِهِ ٱلسامية لا غيرِها، حتى في ٱتصالِهِ بأعدائِهِ منَ الناسِ وأعدائِهِ منَ الأشياء؛ فما يرى هؤلاءِ ولا هؤلاءِ إلَّا ٱمتحاناً لِفضائِلِهِ وإثباتاً لَها. وقد يكونُ عدوُّك في بعضِ الأمورِ عيناً لك في رؤيةِ نفسِك؛ ففيهِ بَركةُ هذه الحاسَّةِ ونِعمتُها.

ولو نحن كنَّا مسلمينَ إسلامَ نبيِّنا ﷺ، وإسلامَ المقتدينَ بِهِ من أصحابِه ـ لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنسانيّ؛ وهو أنْ يَقرَّ الإنسانُ في عالمِ نفسِهِ ويجعلَ باطنَهُ كباطنِ كلِّ شيءٍ إلهيّ، ليسَ فيهِ إلا قانونُهُ الواحدُ المستمرُّ بِهِ إلى جهةِ الكمال، المرتفعُ بِهِ من أجلِ كمالِهِ عن دوافعِ غيرِه؛ فنَظَرُ الإنسانِ إلى نقصِ غيرِهِ هو أولُ نقْصِه. والمؤمنُ كالغصن؛ إنْ أثمرَ فتلك ثمارُ نفسِه، وإن عَطَلَ لم يَشْحَذْ ولم يحسُدْ وٱستمرَّ يعملُ بقانونِهِ.

ولقد نشأْتُ في مَغْرِسٍ[3] كريم، على صورةٍ مِنَ الحياةِ تُشبِهُ صورةَ الثمرةِ الحُلوة، اجتمعَ لها من طبيعةِ مغرسِها ومَرْتَبتِها ما تتعيَّنُ بِهِ من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومَذاق؛ فلمَّا عَقلْتُ[4] وعرفْتُ الناسَ بعدُ فجارَيْتُهم[5] وخالطْتُهم، رَأيْتُني منهم كالتفَّاحةِ ملقاةً في البصَل. وكانتِ ٱلتفاحةُ حمقاءَ فزادَتْ حُمقاً، وكانَتْ جديدةً فزادَتْ حِدّة، وظنَنْتُ أنَّ الحِكمةَ قد مَسَخَتْ في الدنيا وبدَّلَتْ إذْ خَلَقَتِ البَصَلةَ بعدَ أنْ خلقَتِ ٱلتفاحة؛ وما علمَتِ ٱلخرقاءُ أنَّ الكمالَ في هذه الحياةِ مجموعُ نقائص، وأنَّ لِلجمالِ وجهين: أحدُهما الذي ٱسمُهُ القبح؛ لا يُعرفُ هذا إلَّا من هذا؛ وأنَّ البصلةَ لو أدركَتْ ما يُريدُ الناسُ من معناها ومعنى التفاحةِ لَسَمَّتْ نفسَها هي التفاحَة، وقالَتْ عن هذه إنَّها هي ٱلبصلة!

ولمَّا رأَتْ تفاحتي أنَّها عاجزةٌ أنْ تجعلَ الشجرَ كلَّهُ في مثلِ مرتبتِها ومغرسِها ـ قالَت: إنَّ الأمرَ أكبرُ من طبيعتي، وما دامَ سرُّ الكونِ مُغْلَقاً فلا تعريفَ لَهُ إلا أنَّهُ

---

(١) نزقاً: سريع الغضب، طائشاً.
(٢) البادرة: الغضب.
(٣) مغرس: منبت في بيت وعائلة.
(٤) عقلت: أدركت.
(٥) جاريتهم: ماشيتهم ووافقتهم.

سِرٌّ مغلَق، ولْيَبْقَ كلُّ شيءٍ في طبيعةِ نفسِه، فعلى هذا يَصلُحُ كلُّ شيءٍ ولو في نفسِهِ وحدَها.

* * *

قال أبو محمد: ولكنْ بقيَتْ وَحْشةُ الدنيا وجَفوتُها، إذْ لم أكنِ ٱهتديْتُ إلى عالمي، ولا تأكَّدَتْ عقيدتي بنفسي؛ فكانَ كلُّ ما حولي مُنبجساً[١] في رُوحي بِشرِّه، وكانَتِ ٱلدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنًى واحد، وزادني أنّي كنْتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً؛ وما أشبَهَ فراغَ الرجولةِ مِنَ المرأةِ بفراغِ العقلِ مِنَ ٱلذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هي ٱلرجولةُ ٱلبليدة!

وٱلمرأةُ تُضاعِفُ معنى الحياةِ في ٱلنفس، فلا جَرَمَ كانَ ٱلخَلاءُ منها مضاعَفةً لِمعنى الموت؛ عَلِمَ هذا مَن عَلم وجَهلَهُ من جَهِل، فكنْتُ أعيشُ مِنَ الكونِ في فراغٍ ميّت، وكنْتُ أُحِسُّ في كلِّ ما حولي وحشةً عقليَّةً تُشعرُني أنَّ الدنيا غيرُ تامَّةٍ؛ وكيفَ تَتِمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدنيا التي في قلبي؟

وعرفْتُ أنَّ كلَّ يوم يمضي على الرجلِ العَزَبِ المتعفِّفِ لا يمضي حتى يُهيِّئَ فيهِ مَرضُ يومٍ آخرَ. ومن هذه الأيامِ المريضةِ المتهالِكة، تُعِدُّ ٱلحياةُ ٱنتقامَها من هذا الحيّ الذي نَقَضَ آيتَها وٱفْتاتَ عليها[٢]، وجَعلَ نفسَهُ كالإلهِ لا زوجةَ لَهُ ولا صاحبة!

وأيْمُ اللّهِ إنَّ الشيطانَ لا يفرحُ بالرجلِ الزاني وبالمرأةِ الزانيةِ ما يَفرحُ بالرجلِ العَزَبِ وبالمرأةِ ٱلعزباء؛ لأنَّهُ في ذينِكَ رذيلةٌ في أسلوبِها، أمَّا في هذينِ فالشيطانُ رذيلةٌ في أسلوبِ فضيلة... ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضي، وهنا يأتي الشيطانُ ويُقيم!

وقد عِشْتُ ما عِشْتُ بقلبٍ مُغلَقٍ وعقلٍ مفتوح؛ وليتني كنْتُ جاهلاً مُغلِقاً عقلَهُ، وكانَ قلبي مفتوحاً لأفراحِ هذا الكونِ العظيم!

ومضَتْ أيامي يَضْربُ بعضُها في بعض، ويُمرِضُ بعضُها بعضاً حتى ٱنتهَتْ مُنتهاها، وجاءَ اليومُ المُدْنَفُ[٣] الهالكُ الذي سيموت.

أصبحْتُ فقُلْتُ لِنفسي: كم تعيشينَ ويحكِ في أحكامِ جسدٍ مُختلٍّ لا تَصْدُقُ أحكامُه، وما أنتِ معَهُ في طبيعتِكِ ولا هو معكِ في طبيعتِه؛ ففيم ٱجتماعُكُما إلَّا على بلائي ونكَدي[٤]؟

---

(١) منبجساً: نابتاً.
(٢) افتات عليها: جار عليها في الحكم.
(٣) المدنف: المريض مرضاً ثقيلاً.
(٤) نكدي: سوء حظي.

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة، ولا حلالٍ ولا حرام؛ فأنتما عدوَّانِ لا همَّ لِكليهما إلَّا إفسادُ ٱلمسرَّةِ ٱلتي تَعْرِضُ لِلآخر. وما أدري بِمَنْ يسخَرُ ٱلشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنَّى ٱقترافَها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحكِ يا نفس! إنِّي رأيْتُ هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لي إلَّا رغيفاً وقالَت: إملأْ بهذا بطنَكَ وعقلَكَ وعينَيكَ وأُذنيكَ ومشاعرَك. آه، آه! مُمْكِنٌ واحدٌ معهُ أربعُ مستحيلات؛ إنَّ هذا لا يُلْبِثُني[1] أنْ يذهبَ مني بالأربعةِ التي تُمسِكني على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر.

لقدِ ٱستوى في هذه الكآبةِ صغيرُ همِّي وكبيرُه، وما أراني إلَّا قد أشرفْتُ على الهلَكةِ التي لا باقيةَ لها، فإنَّ وجهي المتَكلِّحَ[2] المتقبِّضَ يَدُلُّ منِّي على أعصابِ مُحتضرَةٍ نَهَكَتْها[3] أمراضُها ووساوسُها، وإنَّما وجهُ الإنسانِ في قُطوبِهِ[4] أو تَهلُّلِهِ هو وجهُهُ ووجهُ دُنياهُ تَعبسُ أو تبتسم.

وتاللّهِ لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنَّ حِبَالةَ الصَّيد ـ صَيدِ الوحش ـ لا تكونُ من خَيطِ الإبرة... ! وأراني أصبحْتُ كإنسان حجَريٍّ ليسَ في طبيعتِهِ ٱلالتواءُ إلى يمينِ الحياةِ ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إليَّ من صلابتي أنِّيَ ٱلأسد، ولكنِّي أسدٌ من حجَر، لا تفرِضُ قوّتُهُ ٱلفرارَ منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيتُ نفسي في هذا الحوارِ كٱلميِّتة، لا تُجيبُ ولا تعترضُ ولا تُنكِر، وكنتُ أظنُّها تُرَاوِدُني على الحياةِ أو تردُّني عن غَوايتي[5]؛ فَملأني سكونُها جزَعاً، وأيقنْتُ أنَّ الشيطانَ بيني وبينَها، وأنَّهُ أخذَ بمنَافِذِها، فأردْتُ الصلاةَ فَثقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أصلحُ لها، بل خُيِّلَ إليَّ أنِّي إذا قمْتُ إلى الصلاةِ فإنَّما قمْتُ لأتَهزّأَ بالصلاة!

وجعلَ الشيطانُ يأخذُني عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يأخذُني ويردُّني، حتى توهَّمْتُ أنِّي جُنِنْت، وكأنَّما كانَ يُريدُ اللعينُ بقيَّةَ إيماني يُجاذبُني فيها وأُجاذبُه، فلم ألبثْ أنْ مسَّتني خبالٌ وألقيْتُ هذه البقيَّةَ في يديه!

---

(١) لا يلبثني: لا يقيني.
(٢) المتكلّح: المتغيّر، المصفرّ.
(٣) نهكتها: أتعبتها.
(٤) قطوبه: عبوسه.
(٥) غوايتي: ضلالتي.

ثُمَّ أَفَقْتُ إفاقةً سريعة، فرأيْتُ (المصحفَ) يَرقُبُني قريب، فعُذْتُ بِهِ[1] وعطفْتُ عليهِ وقلْتُ لَه: اِمنع ٱلضربةَ عن قلبي. بَيْدَ أنّي أحسسْتُ أَنَّهُ خَصمي في موقفي لا ظَهيري؛ كأنّي جعلْتُهُ مصحفاً عندَ زِنديق، فكانَ كلُّ إيماني الذي بقيَ لي في تلك اللحظةِ أنّي ضُعفْتُ عن حَملِ المصحفِ كما ثقلْتُ عنِ ٱلصلاة، فبقي ٱلطاهرُ طاهراً وٱلنجسُ نَجساً.

ولم تكنْ نفسي فيَّ ولا كنْتُ فيها؛ فرأيْتُ الدنيا على وجهٍ لا أدري ما هو، غيرَ أَنَّهُ هو ما يُمكنُ أنْ يكونَ معقولاً من تَخاليطِ مجنونٍ تركَهُ عقلُهُ من ساعة: بقايا شعورٍ ضعيف، وبقايا فهْمٍ مريض، تَتَصاغَرُ فيهما الدنيا، ويتحاقَرُ بهما العقل.

فلمَّا ٱنتهيْتُ إلى هذا لم أعقلْ ما عملْت، وكانَتِ ٱلمُوسى قد أصابَتْ من يدي عِرْقاً ناشزاً[2] مُنْتَبِراً، ففارَ الدَّمُ وٱنفجرَ منه مثلُ ٱليَنبوعِ ضُرِبَ عنه الصخرُ فٱنشقَّ فٱنبثَق.

وتحقَّقْتُ حينئذٍ أَنَّهُ الموتُ فنظرْتُ فرأيت....

* * *

قال المسيَّب راوي القصة: وتجهَّمَ وجهُ الرجلِ فأطرقَ وسكَت، وكانَ على وجههِ شَفَقٌ مُحْمَرٌ فأظلَمَ بغتةً عندَ ما قال: «فنظرْتُ فرأيْت».

وٱرتجَّ ٱلمسجدُ بصَيحةٍ واحدة: فرأيْتَ ماذا؟ رأيْتَ ماذا؟

وبَعَثَتِ ٱلصيحةُ أبا محمد فقال: رأيْتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفَتْ مِنَ المصحفِ تنظرُ إليَّ كالعاتبة، وكانَ أوسطُها كالقمرِ الطالع، لو تمَثَّلَتْ آياتُ الجنةِ كلُّها وجهاً لَكانتْهُ في نَضرَتِهِ وبشاشتِه. وغَمْغَمَتِ[3] ٱلوجوهُ الثلاثةُ بكلماتٍ لم أسمعْ منها شيئاً، ولكنَّ نظرَها إليّ كان يؤدّي لي معانيَها، وكأنَّها تقول: «أكذلك المؤمن...؟».

ثُمَّ غابَتْ وتخلَّتْ عنّي وبرزَتْ ثلاثةُ وجوهٍ أخرى، كأنَّها نقائضُ تلك، وأعوذُ باللّهِ من أوسطِها، لو تمثَّلتْ آياتُ ٱلجحيم كلُّها وجهاً لَكانتْهُ في نُكْرِهِ وهَوْله، وخُيِّلَ إليَّ أنَّ الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَرِ المصحف، ففكَّرْتُ، فوَقَعَ لي مِمَّا قامَ في نفسي مِنَ اللَّعنةِ أنّها: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾...

---

(١) عذت به: لجأت إليه.

(٢) ناشزاً: نافراً.

(٣) غمغمت الوجوه بانت عن ذعر وخوف.

وطَمَسَ[1] الظلامُ هذه الرؤيا وتغَيَّمَتِ الدنيا، فأيقنْتُ أنَّ آثامي قد أقبلَتْ عليّ ظُلمةً بعدَ ظُلمَةٍ، والتمعَ شيءٌ أحمر، فنظرْتُ فإذا الدَّمُ يتخايَلُ في عينيَّ كأنَّهُ شُعَلٌ تتلَوَّى، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدَّةً لِرُوحي تذهبُ بها إلى الجحيم.

وماتَتْ كلُّ خواطري بعدَ ذلك إلّا فكرةً واحدةً بقيَتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أكلَ النار، وهي: «كيفَ تجرأْتُ فوضعْتُ بيني وبينَ اللّهِ حُمْقي؟».

* * *

ويقولون: إنَّ أختي قد رأتْني أتَشَحَّطُ[2] في دمي فصاحَت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكانَ فيهم طبيب، فبعدَ لأي ما، استطاعَ حبْسَ الدم، واحتالَ حيلتَهُ حتى أسَفَّ[3] الجُرحَ دواءً وضَمَدَه؛ فجعلْتُ أثوبُ نَفَساً بعدَ نَفَس، وراجعْتُ قليلاً قليلاً...

ثم طافَتِ الحياةُ على عينيَّ ففتحْتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائقُ ولا معانٍ، كأنّها تَتَخَلَّقُ[4] جديدةً تحتَ بصري، وكأنَّها خارجةٌ لِساعتِها من يدِ اللّهِ!

وتماثلْتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسسْتُ أنَّ نفسي قد رجعَتْ إليَّ ساخرةً منّي تقولُ: كيفَ رأيْتَ عَمَلَ العقلِ أيّها العاقل؟

وبدأَتِ الحياةُ تتجدّدِ، فأقسمْتُ بيني وبينَ نفسي أنْ أجدّدَ إيماني بِالله. ولم أكدْ أفعلُ حتى أحسسْتُ أنَّ قوّةَ الوجودِ كلِّها مستقرَّةٌ في روحي، وخُيِّلَ إليَّ أنّي أنا وحدي القويُّ على هذه الأرضِ قُوَّةَ جِبالِها وصخورِها، على حين كانَ جسمي ممدّداً كالميْتِ لا يتماسَكُ مِنَ الضعف!

فأيقنْتُ حينئذٍ ما أعرفُهُ قطُّ منَ الدنيا ولم أشعرْ به قطّ في الحياةِ ولم يأتِني بهِ عِلْمٌ ولا فكر: أيقنْتُ أنّها مُعجزةُ الإيمانِ الجديدِ الغضّ[5]، المتَّصِل باللّهِ لِتَوِّهِ كإيمانِ الأنبياءِ دونَ أنْ تلمسَهُ شهوة، أو تعترضَهُ خاطرة، أو تُكدِّرَهُ ذرَّةٌ واحدةٍ من فكرِ أرضيٍّ دَنِس.

* * *

قال المسيّب: ثُمَّ جلسَ المتحدّث، وكانَ الناسُ في آخرِ كلامِهِ كأنّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إليها على مثلِ حالتِهِ ومثلِ إيمانِه؛ فسكَتَ الإمامُ ولم يتكلم، لِيدعَ كلَّ نفسٍ تُكلمُ صاحبَها.

---

(١) طمس: غطى.
(٢) أتشحط: أتخبّط.
(٣) أسفّ: أسعف الجرح بوضع الدواء فيه لينقطع.
(٤) تتخلّق: تبدو على هيئة جديدة.
(٥) الغضّ: الطريء.

الانتحار

٥

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وأطرقَ الناسُ قليلاً بعدَ خَبَر (أبي محمدٍ ٱلبَصْريّ)؛ إذْ كانَ كلٌّ منهم قد جَمَع بالَهُ لِمَا سمع، وأخذ يَحْدِسُ[١]، في نفسِهِ ويُراجعُها ٱلرأيَ، وكانَ المجلسُ قدِ ٱمتدَّ بنا منذُ ٱلعصرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنا بإدبارِه، حتى ٱعترَضَتْ في شمسِهِ ٱلغُبرةُ التي تَعتريها إذا دَنتْ أنْ تَغرُب. وكانَ إلى يساري فتًى رَيَّانُ ٱلشباب، حسَنُ ٱلصورة، وَضيءٌ مُشرِقٌ، لَهُ هيئةٌ وسَمْت، أقبلَ على ٱلأيَّام، وأقبلتِ ٱلأيَّامُ عليه.

فسمعني أطِنُّ على أُذنِ (مجاهدٍ الأزْديّ)؛ وكنْتُ أعرفُه شاعراً في كلامِهِ وشاعراً في قلبِه؛ فقلْتُ لَه: إنَّهُ لم يبقَ منَ النهار يا مجاهدُ إلَّا مثلُ صبرِ ٱلمحبِّ دنا لَهُ ٱلمَوْعِد؛ ولم يبقَ مِنَ الشمسِ إلَّا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلَها، ولكنْ بعدَ أنْ تُسقِطَها من هنا ومن هنا، لِترى جمالَ جسمِها هنا وهنا!

فٱهتزَّ ٱلفتى لِهذه ٱلكلمات، وسالتِ ٱلرقَّةُ في أعطافِه، وقال: يا عمّ، أمَا ترى ما بقيَ مِنَ ٱلنهارِ كأنَّهُ وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَهُ وليسَ حولَهُ إلَّا كآبةُ ٱلزمن...؟

قلْتُ: كأَنَّ لك خبراً يا فتى، فإنْ كانَ شأنُك مِمَّا نحن فيهِ فَقُصَّهُ علينا وعَلِّلْنا بِهِ سائرَ ٱلوقتِ إلى أنْ تَجِبَ الشمس، ولعلّك طائرٌ بنا طَيرةً فوقَ الدنيا.

قال: فَمَهْ[٢]؟

قلت: تقومُ فتتكلم، فإنّي أرى لك لِساناً وبياناً.

قال: أو يَحْسُنُ أنْ أتكلَّمَ في ٱلمسجدِ عن صَرْعةِ ٱلحُبِّ وصريعِه، وعاشقةٍ وعاشق؟

---

(١) يحدس: يفكّر ويغلّب فكرة على فكرة. (٢) مَهْ: اسم فعل أمر بمعنى أسكت.

فبادرَ مجاهدٌ فقال: ويحكَ يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً؛ إنَّ ٱلمؤمنَ لَيُصلّي بين يدي ٱللَّهِ وكتابُ سيئاتِهِ في عنقِهِ منشورٌ مقروء. وهلْ أوقاتُ ٱلصلاةِ إلّا ساعاتٌ قلبيَّةٌ لِكلِّ يوم منَ الزمن، تأتي ٱلساعةُ مِمَّا قبْلها كما تأتي توبةُ القلْبِ مِمَّا عملَ ٱلجسم؟ إنَّما يَتلَّقى ٱلمسجدُ مَنْ يدخلُهُ لِساعتِهِ التي يدخلُهُ فيها، ولو أنَّهُ حاسَبهُ عن أمسِ وأوَّلَ منه وما خَلَا من قبل، لَطردَهُ مِنَ ٱلعتَبَة! إنَّ ٱلمسجدَ يا بُنيَّ إنّما يقولُ لِداخلِه: أُدخلْ في زمني ودَعْ زمنَك، وتعالَ إليَّ أيُّها ٱلإنسانُ ٱلأرضيّ، لِتتحقَّقَ أنَّ فيك حاسَّةً مِنَ ٱلسماء، وجِئْني بقلبِك وفكرِك، لِيَشْعُرا ساعةً أنَّهما فيَّ لا فيك. ولسْنا الآنَ يا بُنيَّ في مُتَحدَّثِ كنَدِيّ القومِ يتطارحون فيه أخبارَهم، بلْ نحنُ في مجلسِ عالمٍ تكلمَتْ فيهِ رَقَبةُ هذا ورقبةُ هذاَ بِمَا سمعْتَ؛ فقُمْ أنتَ فٱذكرْ عِلْمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيشِ ٱلحُبِّ وٱلشبابِ ٱلذي يُشبهُ الكلامُ فيهِ أنْ يكونَ كلاماً عنِ ٱلصعودِ إلى القمرِ والقبضِ من هناك على البرْق!

* * *

قال المسيَّب: فٱنتهضَ الفتى، ورأيْتُ مجاهداً يتنهَّدُ كأنَّما ٱنصدَعتْ[1] كَبِدُه: فقلْت: ما بالُك؟ قال: إنَّ شبابي قد مرّ عليَّ الساعةَ فَنَسَمْتُ منه في بُرْدَة[2] هذا الفتى، ثُمَّ فقدْتُهُ فقداً ثانياً فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً، وجاءَني ٱلحزنُ من إحساسي بأنّي شيخٌ، حُزْنُ مَن هَمّ أنْ يدخلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدّ. . . . !

وتحدّثَ ٱلفتى، فإذا هو يدُيرُ بينَ فَكَّيهِ لِسانَ شاعرٍ عظيم، يتكلمُ كلامَهُ بنفسَين: إحداهما بَشَريَّةٌ تصنعُ ٱلمعنى وٱللفظ، وٱلأخرى عُلْويةٌ تُلقي فيها ٱلنارَ وٱلنور.

قال: إنَّ لي قصةً أيُّها الشيخ، لم يبقَ منها إلَّا الكلامُ الذي دُفنَتْ فيه معانيها؛ وقد تأتي ٱلقصةُ من أخبارِ ٱلقلْبِ مُفْعَمَةً بالآلامِ والأحزان، لا يُرادُ بآلامِها وأحزانِها إلَّا إيجادُ أخلاقٍ لِلقلْبِ يعيشُ بها ويتبدّل. والذي قُدّرَ عليهِ الحُبُّ لا يكونُ قد أحبَّ غيرَهُ أكثرَ مِمَّا يكونُ قد تعلَّمَ كيف يَنسى نفسَهُ في غيرِه، وهذه كما هي أعلى درجاتِ الحُبّ؛ فهي أعلى مَراتبِ ٱلإحسان.

ومتى صَدقَ المرءُ في حبِّهِ كانَتْ فكرتُهُ فكرتَين: إحداهما فكرةٌ، والأخرى عقيدةٌ تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحُبّ فهي طبيعةُ ٱلدّين.

---

(١) انصدعت: تحطّمت، تكسرت. (٢) بُردة: ثوب.

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحُبِّ يستطيعُ أنْ يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنَةً صغيرةً، بقدْرِ ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها! وهذه حالةٌ فوقَ البشريَّة.

والفضائلُ عامَّتُها تعملُ في نقلِ ٱلإنسانِ من حيوانيَّتِه، وقد لا تَنقلُ إلَّا أقلَّهُ ويبقَى في الحيوانيَّةِ أكثرُهُ: ولكنَّ ٱلحُبَّ ٱلصادقَ يقتلعُ الإنسانَ من حيوانيَّتِهِ بمرَّةٍ واحدة، بَيْدَ أنَّهُ لا يكونُ كذلك إلَّا إذا قَتَلَهُ بآلامِه؛ فهو كأعلى النسْكِ والعِبادة.

كانَ خَبرِي أنّي دُعيتُ يوماً إلى ما يُدْعى لِمثلِهِ ٱلشبابُ في مجلسِ غِناءٍ وشراب. يا لَهُ من مجلس! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، والبعوضةُ في قصتي أنا كانَتِ ٱمرأةً نَصرانيَّة.. قَيْنَةُ[1] فلانٍ المغنيَّةُ الحاذقةُ المُحْسِنةُ المتأدّبة، تحفَظُ الخبرَ وتروي الشعر، وتتكلَّمُ بألفاظٍ فيها حَلاوةُ وجهِها، وتخلُقُ النكتةَ إذا شاءَتْ خَلْقَ الزهرةِ المتفتَّحةِ عليها، سَقِيطُ النَدَى؛ وتجِدُّ بٱلحديثِ ما شاءَتْ وتَهْزِل، فتجعلُ لِلكلامِ عقْلاً وشهوةً تُضاعِفُ بهما مَنْ تحدّثُهُ في شهواتِهِ وعقلِه!

وستجرِي في قصتِها ألفاظُ القصةِ نفسِها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم؛ فقد ذكرَ ٱللَّهُ الخمرَ بلفظِ الخمرِ ولم يَقُل: «الماءُ الذي فيه السُّكر»، ووَصفَ الشيطانَ ولم يقل: «الملَكُ الذي عمِلَ عملَ ٱلمرأةِ ٱلحسناءِ في تكبُّرها»، وذكرَ الأصنامَ بأنَّها الأصنام، ولم يُسمِّها: «حاملةُ السماءِ التي يصنعُها الإنسانُ بيديه» وحكايةُ ما بينَ ٱلرجلِ وٱلمرأةِ هي كلامٌ يُقبِّلُ بعضُهُ بعضاً ويلتزِمُ ويتعانَق!

قالَ ٱلمسيب: فتبسَمَ إمامُنا ونظرَتْ عيناهُ تسألانِ سؤالاً. أمَّا مجاهدٌ الأزديُّ فكانَ من هزِّةِ الطَّرَبِ كأنَّهُ على قَتَبِ بَعير، وقال: لِلَّهِ دَرُّه فتًى، إنَّ هذا لَبيانٌ كحيلُ ٱلعَين...

ثُمَّ قال الفتى: وذهبْتُ إلى المجلسِ وقد جعلتْهُ هذه المغنّيةُ من حواشيهِ وأطرافِهِ كأنَّهُ تفسيرٌ لَها هي. أمَّا هي فجعلَتْ نفسَها تفسيراً لِكلمةٍ واحدةٍ هي: «اللذّة...»

قالَ ٱلمسيَّب: وطرِبَ مجاهدٌ طَرَباً شديداً، وسمعْتُهُ يُخافِتُ بصوتِهِ يقول: «لِلَّهِ درُّها ٱمرأة؛ هذه، هذه عَدُوّةُ ٱلحُورِ العِين!».

ثُمَّ قالَ ٱلفتى: وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ ٱلمجلسِ إلى ٱلشرب، وما ذُقْتُ خمراً

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قطّ، ولن أتذوّقَها ولو شربَها ٱلناسُ جميعاً، ولن أذوقَها ولوِ ٱنقطَعَ ٱلغيثُ ولم تَمْطُرِ ٱلسماءُ إلّا خمراً؛ فإنّي مُذْ كنتُ يافعاً رأيْتُ أبي يشربُها، وكانَتْ أمي تلُومُهُ فيها وتشتدُّ في تعنيفِهِ وتحتَدِم[1]، وكانا يتشاحنانِ[2] فينالُها بالأذى ويَنْدَرِىءُ[3] عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول. وسَكِرَ مرةً وغلبَهُ السكرُ حتى ثارَتْ أحشاؤُه، فَذَرَعَهُ[4] القَيْءُ فتوهَّمني وعاءً، وجاءَ إليَّ وأنا جالسٌ فأمسكَ بي وقاءَ في حِجْري، حتى أفرغَ جوفَه؛ وثارَتْ أمّي لِتنتزِعَهُ وأنشأتْ تُعالجُهُ عنّي فَتصارَعَ جنونُهُ وعقلُها حتى كَفَأَتْهُ[5] على وجهِهِ كالإناء؛ فالتوى كالحيَّةِ بطْناً لِظَهْرٍ، وٱستجْمعَ كالقُنفذِ في شَوكِه، ثم لَكَزَها برجلِهِ أسفلَ بطنِها فٱنقلبَت، وأصابَ رأسُها إجّانَةَ[6] العجينِ فتثلَّمَ[7] تثليمَ ٱلإناءِ كأنَّما شُدِخَ[8] ضرْباً بحجَر، وٱنتثَرَ دماغُها على الأرض أمامَ عينيّ، ورأيْتُها لم تزِدْ على أنْ دَفَعَتْ بإحدى يديها في ٱلهواء، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها، تتوهَّمُ أنَّها تحميني وتدفعُهُ عنّي؛ ثُمَّ سَكَنَتْ، ولو لم تمتْ مِنَ الشَّجَّةِ في رأسِها لماتتْ مِنَ الضربةِ في بطنِها!

* * *

قال المسيَّب: وأطرقَ ٱلفتى هُنَيهةً وأطرقَ ٱلناسُ معَه؛ فرفَعَ مُجاهدٌ صوتَهُ وقال: رحِمَها ٱللهُ! فقالَ الناسُ جميعاً: رحِمَها ٱللهُ.

ثُمَّ قالَ الفتى: وكانَ عامَّةُ مَن في المجلسِ يعرفون ذلك منّي، ويعرفون أنَّهُ لو ساغَ لإنسانٍ أنْ يشربَ دمَ أمِّهِ ما شربْتُ أنا الخمر، فقالوا لِلمغنِّية: إنَّ هذا لا يدخلُ في ديوانِنا[9] فنظرَتْ إليّ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة؛ ثم قالَت: تَشربُ على وجهي؟ فقلْتُ لها: إنَّ وجهَكِ يقولُ لي: لا تشربْ... فتضاحكَتْ وقالَت: أهو يقولُ لك غيرَ ما يقولُ لِهؤلاء؟ فهربْتُ من كلامِها بإطراقةٍ أخرى، ووَصلَتِ ٱلإطراقتانِ ما بيني وبينَ قلبِي؛ وتنبَّهَ فيها مثلُ حُنوّ الأمِّ على طِفْلِها إذا آذتْهُ بلسانِها فأطرقَ ساكتاً يشكوها إلى قلبِها!

وٱلتفتَتْ لِمَنْ حضرَ وقالَتْ لهم: لسْتُ أطيبُ لكم ولا تنتفعون بي إلَّا أنْ

---

(1) تحتدم: تشتدّ.

(2) يتشاحنان: يتشاجران.

(3) يندرىء: يندفع ويعنف.

(4) ذرعه: فاجأه.

(5) كفأ الإناء: قلبه.

(6) إجانة: آنية يعجن فيها العجين.

(7) تثلّم: تشقّق.

(8) شدخ: ضرب رأسه.

(9) إنه تعبير قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

تشربوا لي ولهُ ولأنفسِكم، وأنحطّ عليهمُ الساقي، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهي بين ذلك تُغنِّيهم وقد أقبلَتْ عليهم وخلا وجهُها لهم من دُوني وإنَّما تُخالِسُني[١] النظرةَ بعدَ النظرة.

فوسوسَ لي شيطاني أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثلِ عَزْمتِكَ مَعَ الخمرِ فإنَّما هما شيءٌ واحد. ولكنِّي كنْتُ أُحِدُّ النظرَ[٢] إليها، فمرّةً أوامِقُها نظرةَ المُحبِّ لِلحبيب، ومرةً أُغضي عنها بنظرةٍ لا تنظرُ؛ وكأنِّي بذلك كنْتُ آخذُها وأدَعُها، وأصِلُها وأهجرُها. فقالَتْ لي كالمُنكِرَةِ عليّ: ما بالُك تنظرُ إليَّ هكذا؟ ولكنَّ هيئةَ وجهِها جعلَتِ المعنى: لا تنظرْ إليّ إلّا هكذا....!

وأسرعَ الشرابُ في القومِ وأفرطَ عليهمُ السُكْر؛ فبقيَتْ لي وحدي وبقيْتُ لها وحدَها؛ ثم تناولَتْ عودَهَا وضَمَّتْهُ إليها ضمًّا شديداً أكثرَ مِنَ الضمّ... وألمستْهُ صدرَها ونَهديها، ثُمَّ رَنتْ إليّ بمعنى، فما شككْتُ أنَّها ضمَّةٌ لي أنا والعود؛ ثم غنَّتْ هذا الصوت:

ألا قـاتـلَ الـلّـهُ الـحـمـامـةَ غُـدْوةً	على الغصنِ؛ ماذا هيَّجتْ حينَ غنَّتِ؟
فـمـا سـكـتَـتْ حتَّى أوَيْـتُ لِـصوتِـهـا	وقـلْـتُ: تُـرى هـذى الـحـمـامـةُ جُنَّـتِ؟

* * *

ومـا وَجْـدُ أعـرابـيـةٍ قَـذَفـتْ بـهـا	صُروفُ النوى[٣] من حيثُ لم تَكُ ظنَّتِ..
إذا ذكَـرتْ مـاءَ الـعِـضـاهِ[٤] وطـيـبَـهُ	وبَرْدَ الحِمى من بَطنِ خِبْتٍ[٥]، أرنَّتِ[٦]
بـأكـثـرَ مـنِّـي لَـوعـةً، غـيـرَ أنَّـنـي	أُجمْجِمُ أحشائي على ما أجنَّتِ![٧]

وغَنَّتْهُ غِناءً من قلبٍ يئنُّ، وصدرٍ ينتهَّد، وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ[٨]، وكانَتْ ترتفعُ بالصوتِ ثمَّ كأنَّما يهمى[٩] الدمعُ على صوتها، فيرتَعِشُ ويتنزّلُ قليلاً قليلاً حتى يئنَّ أنينَ الباكية، ثُمَّ يعتلجُ[١٠] في صدرِها مَعَ الحُبّ، فيترددُ عالياً ونازلاً، ثم يرفضُ الكلامُ في آخِرِه دموعاً تجري.

* * *

---

(١) تخالسني: تسارقني.
(٢) أحدّ النظر: أمعن النظر.
(٣) صروف: مصائب. النوى: البعد.
(٤) العضاه: ضرب من الشجر، ذو أشواك.
(٥) خبت: اسم مكان.
(٦) أرنّت، نشطت.
(٧) أجمجم: أخفي شيئاً في صدري.
(٨) أجنّت: من أجن الثوب إذا دقه.
(٩) يهمى: ينهمر.
(١٠) يعتلج: يختلج.

قالَ المسيَّب: فنظرَ إليّ مُجاهدٌ وقال: عدُوّةُ الجنَّةِ ـ واللَّهِ ـ هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنَّةُ مَنْ يكونُ معها. تقولُ له: كنْتَ مَعَ عدُوّتي!

ثُمَّ قالَ الفتى: وكان القومُ قدِ ٱنتَشَوْا، فاعتراهم نصفُ النومِ وبقيَ نصفُ اليقَظةِ في حواسِّهم، فكلُّ ما رأوْهُ منَّا رأوْهُ كأحلامٍ لا وجودَ لها إلَّا خلفَ أجفانِهِمُ ٱلمُثقَلةِ سُكْراً ونُعاساً. ووثَبتِ ٱلمغنيةُ فجاءَتْ إلى جانبي وٱلتصقَتْ بي، وأسرعَ ٱلشيطانُ فوسوسَ لي: أن ٱحذرْ فإنَّكَ رجلُ صِدْق، وإذا صدقْتَ في الخمرِ فلا تكذبَنَّ في هذه، ولئَنْ مَسسْتَها إنَّها لَضياعُكَ آخِرَ الدهر!

فعجِبْتُ أشدَّ العجبِ أنْ يكونَ شيطاني أسلمَ وأُعِنْتُ عليهِ كما أُعينَ الأنبياءُ على شياطينِهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يصُدُّني عنِ ٱلمرأةِ دونَ معانيها، وكانَ منّي كالذي يُدني الماءَ من عَيْنِي ٱلقتيلِ ٱلمتلهِّبِ جَوفُه ثُمَّ يجعلُهُ دائماً فَوْتَ فمِه، ولقد كنْتُ مِنَ الفُحولةِ بحيثُ يبدو لي من شدةِ الفَورةِ في دمِي وشبابي أنّي أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّة، ولكنْ ضَرَبني ٱلشيطانُ بالخجلِ فلم أستطعْ أنْ أكونَ رجلاً معَ هذه ٱلمرأة.

وعجِبَتْ هي لِذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشيطانُ على لِسانِها بالموعظةِ ٱلحسنة... ! فقالَتْ أحببْتُك ما لم أحِبَّ أحداً، وأحببْتُ خجَلَكَ أكثرَ منك، فما يسرُّني أنْ تأثمَ فيَّ فتدخلَ النارَ بِحُبّي، ولو أنَّك ٱبتعتَني من مولاي؟ فقلْت: بكم ٱشتراكِ؟ قالت: بألفِ دينار! قلْتُ: وأين هي منّي وأنا لو بعْتُ نفسي ما حصَلتْ لي؟

فتمَّمَ الشيطانُ موعظتَه، وقالَتْ وأشارَتْ إلى قلبِها: إنَّ قلبي هذا قَبِلَك غنيًّا كنْتَ أو فقيراً، وأحسَّ بك وحَدك حُبَّ العذراءِ أوّلَ ما تُحبّ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيشُ في السيئاتِ كالمُكْرَهةِ عليها، فسأعملُ على أنْ تكونَ أنت حَسَنَتي عندَ الله، أذهبُ إليهِ حاملةً في قلبي حُبِّي إيَّاكَ وعِفَّتي عنك، ولئِنْ كانت عِفةَ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعَدُّ فضيلةً كاملة، إنّ عِفةَ مَنْ يجدُ ويشتهي لَتُعدُّ ديناً بحالِه. ولا يزالُ حبِّي بِكْراً، ولا أزالَ في ذلك عذراءَ ٱلقلْب، وهؤلاءِ قد نزعوا ٱلحياءَ عنّي من أجْلِ أنفسِهم، فألْبِسْنيهِ أنتَ من أجلِكَ خاصَّة؛ وإنَّ قوةَ حُبِّي كالذي سيتألَّمُ بك ويتعذَّبُ منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك، ستكونُ هي بعينِها قوةً لِفضيلتي وطَهارتي.

ثُمَّ تناولتْ عودَها وسوَّته وغنَّتْ:

فلو أنَّا على حَجرٍ ذُبِحْنا جَرى ٱلدَّمَيانِ بالخبرِ ٱليقينِ[1]

وجعلَتْ تتأوَّهُ في غِنائِها كأنَّها تُذبَحُ ذبحاً، ثُمَّ وضعَتِ ٱلعودَ جانباً وقالَت: ما أشقاني! إذا ٱتفقَتْ لي ساعةُ زواجي في غيرِ وقتِها فجاءَتْ كالحُلُمِ يأتي بخيالِ الزمنِ فلا يكونُ فيهِ مِنَ الأشياءِ إلَّا خيالُ ٱلأشياء.

ثُمَّ سألَتني: ما بالُكَ لم تشربِ ٱلخمرَ ولم تدخلْ في ٱلديوان؟ فبدرَ شيطاني المؤمن... وساقَ في لِساني خبرَ أُمِّي وأبي، فٱنْتَضَحَت عيناها باكيةً وتمَّ لها رأيٌ فيَّ كرأيي أنا في ٱلمسكر؛ وكانَ شيطانُها بعدَ ذلك شيطاناً خبيثاً معَ أصحابِها، وبَطْرِيقاً زاهداً معي أنا وحدي!

ورأيْتُها لا تُجالسني إلَّا مُتَزايِلةً[2] كٱلعذراءِ الخفرةِ إذا ٱنقبضَتْ وغطَّتْ وجهَها، وصارَتْ تخافني لأنَّها تُحبني، وهَيَّبَني الشيطانُ إليها فعادَتْ لا ترى فيَّ الرجلَ الذي هو تحتَ عينيها ٱلثَّيِّبتين... ولكنَّ القِدّيسَ الذي تحتَ قلبِها البِكْر.

ولم يَعُدْ جمالي هو الذي يُعجبُها ويُصْبِيها، بل كانَ يُعجبُها منِّي أنِّي صنعةُ فضيلتِها التي لم تَصنعْ شيئاً غيري....

وٱنطلقَ ٱلشيطانُ بعدَ ذلك فيَّ وفيها بدهائِه وحُنْكَتِهِ وبكلِّ ما جَرَّبَ في ٱلنساءِ وٱلرجالِ من لَدُنِ آدمَ وحوّاءَ إلى يومي ويومِها!... فكانَ يجذبني إليها أشدَّ ٱلجذْبِ، ويدفعُها عنّي أقوى ٱلدفع، ثم يُغريني بكلِّ رذائلِها ولا يُغريها هي إلَّا بفضائِلي. وألقى منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة، وألقى مني في دمِها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقِرَّة. وكنْتُ ألقاها كلَّ يوم وأسمعُ غِناءَها؛ فما هو بالغِناءِ ولكنّهُ صوتُ كلِّ ما فيها لِكلّ ما فيّ، حتى لو ٱلتصَقَ جسمُها بجسمي وسارَّ ٱلبَدَنُ البدنَ، وهَمَسَ ٱلدمُ لِلدم، لَكانَ هو هذا الغناءَ ٱلذي تُغنّيه.

وأصبحَتْ كلَّما ٱستقمْتُ لِحبِّها تَلَوَّتْ عَلَيَّ؛ إذْ لسْتُ عندَها إلَّا الأملَ في المغفرةِ وٱلثواب، وكأنَّما مُسِخْتُ حَبْلاً طولُهُ من هنا إلى ٱلجنَّةِ لِتتعلَّقَ به. وعادَ ٱمتناعُها منِّي جنوناً دينيًّا ما يُفارقُها، فٱبتلاني هذا بمثلِ ٱلجنونِ في حُبِّها من كلَفٍ[3] وشغَف.

---

(١) من جميل أساطير العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دمياهما والتقيا أنهما متحابان، فإذا جرى دمياهما باتجاهين متعاكسين أنهما متشاحنان.

(٢) متزايلة: منحازة.

(٣) كلف: شغف: شديد الحبّ.

وٱنحصرَتْ نفسي فيها، فرجَعتُ معها أشدَّ غَباوةً مِنَ الجاهلِ ينظرُ إلى مَدِّ بصرِهِ مِنَ ٱلأفقِ فيحكمُ أنَّ هٰهنا نهايةَ ٱلعالَم، وما هٰهنا إلّا آخرُ بصرِهِ وأوّلُ جهلِهِ. وٱنفلَتَ منّي زِمامُ روحي، وٱنكسَر ميزانُ إرادتي، وٱختلَّ ٱستواءُ فكري، فأصبحْتُ إنساناً مِنَ النقائضِ ٱلمتعاديةِ أجمعُ ٱليقينَ وٱلشَّكَّ فيه، والحُبَّ والبُغضَ لَه، وٱلأملَ وٱلخيبةَ منه، وٱلرغبةَ وٱلعُزُوفَ عنها، وفي أقلّ من هذا يَخْطُفُ ٱلعقل، ويَتَدَلَّهُ مَنْ يتدلَّه.

ثُمَّ ٱبتُليْتُ معَ هذا اللَّمَم[1] بجنونِ ٱلغيظِ من ٱبتذالِها لأصحابِها وعِفَّتِها معي، فكنْتُ أتطايرُ قِطَعاً بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض، وأجِدُ عليها وأتنكَّرُ لَها، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني على حالةٍ واحدةٍ مِنَ ٱلرَّهبانيَّة؛ فكانَ يَطيرُ بِعقلي أنْ أرَى جسمَها ناراً مشتعلة، ثُمَّ إذا أنا رُمتُهُ ٱستحالَ ثلْجاً، وقَرَحَتِ ٱلغَيرةُ قلبي وفتَّتَتْ كبِدي من عابدةِ ٱلشيطانِ مَعَ الجميع، الراهبةِ معَ رجلٍ واحدٍ فقط! . . .

ورجعَتْ خواطري فيها مِمَّا يُعْقَلُ وما لا يُعقل؛ فكنْتُ أرى بعضَها كأنَّهُ راجعٌ من سفرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخرِ الدنيا، وبعضَها كأنَّهُ خارجٌ من دارِ حبيبٍ في جِواري، وبعضَها كأنَّهُ ذاهبٌ إلى المارستان. . . ![2]

ورأيْتُنا كأنَّنا في عالَمينِ لا صِلةَ بينهما، ونحن معاً قلْباً إلى قلب، فذهبَ هذا بالبقيَّةِ التي بقيَتْ من عقلي، ولم أرَ لِي مَنْجاةً إلَّا في قتْلِ نفسي لأزهقَ هذا الوحشَ الذي فيها.

وذهبْتُ فٱبتعْتُ شَعِيراتٍ مِنَ السمِّ الوَحِيِّ الذي يُعْجِلُ بالقتل، وأخذْتُها في كفي وهممْتُ أنْ أُقحمَها وأبتلعَها، فذكرْتُ أمي، فظَهَرَتْ لِخيالي مشدوخةَ الرأسِ في هيئةِ موتِها، وإلى جانبِها هذه المرأةُ في هيئةِ جمالِها، وثَبَتَتْ على عيني هذه الرؤيا، وأدْمَنْتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل، وإذا ٱلمرأةُ غيرُ تلك، وطَغَتْ عِبرةُ ٱلموت على شهوةِ ٱلحياةِ فمحَتْها، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أنْ لا علاجَ من هذا الحُبِّ إلّا أن تُقرَنَ في النفسِ صورةُ ٱمرأةٍ ميتةٍ إلى صورةِ ٱلمرأةِ ٱلحيَّة، وكلّما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك، فإذا ٱستمرَّ ذلك فإنَّ الميّتَةَ تُميتُها في النفسِ وتُميتُ ٱلشهوةَ إليها، ما من ذلك بُدّ، فلْيجرّبْهُ مَنْ شكَّ فيه.

وٱنفتحَ لي رأيٌ عجيب، فجعلْتُ أتأملُ كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على

---

(١) اللمم، محركة بالفتح: الجنون.

(٢) المارستان: مستشفى المجاذيب.

أنَّ شيطانَها هي كَفَرَ في الأولِ ثُمَّ آمنَ في الآخر؟ فوٱللّهِ ما كنْتُ إلّا غبيًّا خامدَ ٱلفِطْنة[1]، إذْ لم يَسْنَحْ لِيَ ٱلصوابُ حتى كِدْتُ أُزهقُ نفسي وأخسرُ الدنيا والآخرة؛ فإِنَّ ٱلشيطانَ ـ لعنَهُ الله ـ إنَّما ردّني عنِ ٱلفاحشةِ وهي ذنبٌ واحد، لِيرمَيني بعدَها في الذنوبِ كلِّها بالموتِ على الكفر!

وردَّ إليّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ[2] من عقلي. ومَنِ ٱبْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ يُزلزلُ يقينَهُ ثُمَّ أبصرَ اليقين، جاءَ منه شخصٌ كأنَّما خُلِقَ لِساعتِه؛ فلَعنْتُ شيطاني واستعذْتُ بِاللّهِ من مكْرِه، وألقيْتُ ٱلسمَّ في الترابِ وغيَّبتُهُ فيه، وقلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! إنَّ الحياةَ تعملُ عملاً بالحيّ، أفترَضَيْنَ أنْ تعملَ الحياةُ بأبطالِها ورجالِها ما عرفْتِ وما علمْتِ، ثُمَّ يكونُ عملُها بكِ أنْتِ ٱلقعودَ ناحيةً والبكاءَ على ٱمرأة؟

أيَّتُها ٱلنفس، ما الفرقُ بينَ سرقةِ لحمٍ من دكانِ قصَّاب، وبينَ سرقةِ لحمِ ٱمرأةٍ من دارِ أبيها، أو زوجِها، أو مولاها...؟

أيَّتُها ٱلنفس، إنَّ إيمانَ أسلافِنا معنا؛ إنَّ الإسلامَ في ٱلمسلم.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وهنا طَاشَ مُجاهدٌ وٱستخفَّهُ ٱلطرب، فصاحَ صيحةَ النصر: اللّهُ أكبر! وجاوبَهُ أهلُ ٱلمسجدِ في صيحةٍ واحدة: اللّهُ أكبر! ولم يكدْ يهتفُ بها الناسُ حتى ٱرتفعَتْ صيحةَ المؤذّنِ لِصلاةِ المغرب. الله أكبر...

---

(١) الفطنة: الذكاء.

(٢) عزب: ضاع وذهب.

الانتحار

٦

تتمة

قالَ المسيَّبُ بنُ رافع: وٱنفضَّ[١] مجلسُ الشيخ، ودَرَجَتْ[٢] بعدَهُ أعوامٌ في عدَّة الشهور من حَمْلِ ٱلمرأة، بلغَتْ فيها أمورُ الناسِ مبلَغها من خيرِ ٱلدنيا وشرِّها، مِمَّا أَعرفُ وما لا أعرف؛ ودخلْتُ ٱلبصرةَ أنا ومُجاهدٌ الأزديّ، نسمعُ الحَسَنَ ونأخذُ عنه؛ فإنَّا لَسائرانِ يوماً في سِكَّةِ[٣] بني سَمُرَة، إذْ وافقْنا الفتى صاحبَ ٱلنصرانيَّةِ مُقبلاً علينا، وكُنَّا فقدْناهُ تلك المدة، فأسرعَ إليهِ مُجاهدٌ فٱلتزمَهُ وقال: مرحباً بذي نَسَبٍ إلى القلْب. وسلَّمْتُ بعدَهُ وعانقْتُه، ثُمَّ أقبلْنا نسألُه، فقلْتُ له: ما كان آخِرُ أوّلِك؟ قالَ مُجاهد: بلْ ما كانَ آخرُ أولِها هي؟

فضحكَ الرجلُ وقال: النَّصرانيَّةَ تعني؟ قال: آخرُها من أولِها كهذا مني؛ وأومأَ إلى ظلِّهِ في ٱلأرضِ ممدوداً مشبوحاً مختلِطاً غيرَ متميز؛ كأنَّهُ ثوبٌ منشورٌ ليسَ فيه لابسُه، وكنَّا في الساعةِ ٱلتي يصيرُ فيها ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثليْهِ فهو مَزْجُ ٱلمَسْخِ بالمسْخ...

قالَ مُجاهد: ما أفظَّ جوابَك وأثقلَهُ يا رجل! كأنَّك - واللَّهِ - تاجرٌ لا صِلةَ لَهُ بالأشياءِ إلَّا من أثْمانِها؛ فنظرُهُ إلى فَراهةِ ٱلدابةِ مِنَ ٱلدّوابِّ وإلى فراهةِ الجاريةِ منَ ٱلرقيقِ سواء.

قال الرجل: فأنا - واللَّهِ - تاجر، وأنا الساعةَ على طريقِ الإيوانِ[٤] الذي يلتقي فيهِ تُجارُ العِراقِ والشام وخُراسان؛ وقد ضربْتُ في هذه التجاراتِ وحَسُنَتْ بها حالي وتأثَّلْتُ منها؛ غيرَ أنَّ قلبَ التاجرِ غيرُ التاجر، فليسَ يَزِنُ ولا يَقبِض، ولا

---

(١) انفضَّ: تفرّق.
(٢) درجت: مضت.
(٣) سكة: طريق.
(٤) هذه المفردة تناسب ما يسمونه اليوم (البورصة).

يبيعُ ولا يشتري. أمَّا «تلك» فأصبحَتْ نسياناً ذهبَ لِسبيلِهِ في ٱلزمن!

قالَ مُجاهد: فكيف كنْتَ تراها وكيف عدْتَ تنظرُ إليها؟

قال: كنْتُ أنظرُ إليها بعينيَّ وأفكاري وشهواتي؛ فكانَتْ بذلك أكثرَ من نفسِها ومنَ ٱلنساء، وكانَتْ ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلمَّا دخلَ بيني وبينَها ٱلزمنُ وٱلعقْل، أبعدَها هذا عنِ قلبي وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فنظَرْتُ إليها بعينيَّ وحدَهما، فرَجَعتِ ٱمرأةً ككلِ ٱمرأة؛ وبنزولِها من نفسي هذه المنزلةَ، رجعَتْ أقلَّ من نفسِها ومنَ ٱلنساء، وهذه القِلَّةُ فيما عرفْتُ لا تُصيبُ ٱمرأةً عندَ مُحبِّها إلَّا فعلَتْ بجمالِها مثلَ ما تفعلُهُ ٱلشيخوخةُ بجسمِها، فأدبَرَتْ بهِ ثُمَّ أدبرَتْ وٱستمرَّتْ تُدْبر!

وأنتَ فإذا أبصرْتَ ٱمرأةً شيخةً قد ذهبَتْ التي كانَتْ فيها... وأخطرْتَ في ذِهنِك نِيَّةً مِمَّا بينَ ٱلرجالِ وٱلنساء، فهل تُراكَ واجداً ٱلشهوةَ والميلَ إلَّا ٱلنُّفْرةَ وٱلمعْصِيَةَ؟ إنَّ هذا الذي كانَ الحُبَّ والهوى والعِشْقَ، هو بعينِهِ الذي صارَ الإثْمَ والذنبَ والضَّلالة!

قالَ مُجاهد: كأنَّكَ لمَّا ذهبْتَ تقتلُ نفسَك من حبِّها قتلْتَها هي في نفسِك؟

قال: يا رحمةً قد رَحمْتُ بها نفسي يومئذٍ! أمَا ـ واللَّهِ ـ إنَّ الذي يقتلُ نفسَهُ من حُبِّ ٱمرأةٍ لَغبِيّ. وَيحَهُ! فلْيتخلَّصْ من هذا الجزءِ مِنَ الحياةِ لا مِنَ ٱلحياةِ نفسِها. وقد جعلَ ٱللَّهُ لِلحُبِّ طرَفين: أحدُهما في اللذّة، والآخرُ في ٱلحماقة؛ ما منهما بُدّ. فهذا ٱلحُبّ يُلقِي صاحبَهُ في ٱلأحلام ويُغشّي بها على بصرِه، ثُمَّ إنْ هو ٱتَّجهَ بطرَفِهِ ٱلسعيدِ إلى حظِّهِ ٱلمقبلِ وٱتفقتِ ٱللذّةُ لِلمُحبّ، أيقظتْهُ اللذةُ من أحلامِه؛ وإنِ ٱتَّجهَ ٱلحُبُّ بطرفِهِ الشقيِّ إلى حظِّهِ ٱلمُدْبر، وقعَتِ ٱلحماقاتُ فنوناً شتَّى بينَ ٱلحبيبين، وفعلَتْ آخِراً فِعْلَ ٱللذة، فأيقظَتِ ٱلعاشقَ من أحلامِهِ أيضاً. وهذا تدبيرٌ مِنَ ٱلرحمةِ في تلك ٱلقوّةِ ٱلمدمِّرةِ ٱلمسماةِ ٱلحُبّ. أفلا يدلّ ذلك على أنَّ ٱللذةَ وهمٌ مِنَ ٱلأوهامِ ما دامَ تحقُّقُها هو فناءَها؟

خذْ عني يا مجاهدُ هذه الكلمة: «ليسَ ٱلكمالُ مِنَ ٱلدنيا ولا في طبيعتِها، ولا هو شيءٌ يُدْرَك، ولكنْ من عظمَةِ ٱلكمالِ أنَّ ٱستمرارَ ٱلعملِ لَهُ هو إدراكُه».

قالَ مُجاهد: لقد علمْتَ بعدَنا عِلْماً، فمِنْ أين لك هذا وعمَّنْ أخذْت؟

قال: عنِ السماء!

قال: ويلك! أينَ عقلُك، فهل نزل عليك ٱلوحيّ؟

قالَ ٱلرجل: لا، ولكنْ تَعالَيا معي إلى ٱلدارِ فأحدِّثَكما.

***

قالَ ٱلمسيَّب: وذهبْنَا معه؛ فأُتينَا بطعامٍ نظيفٍ فأكلْنَا، وأشعَرتْنا ٱلدارُ أنَّ ربَّها قد وقعَ فيما شاءَ من دنياهُ وتواصلَتْ عليهِ ٱلنعمة؛ فلمَّا غسلْنَا أيدِيَنا قال مجاهد: هيهِ يا أبا... يا أبا مَن؟ قال: أبو عُبَيد. قال: هيهِ يا أبا عبيد...

فأفكَرَ ٱلرجلُ ساعةً ثُمَّ قال: عهدُ كما بي منذُ تِسْعٍ في مجلسِ الإمامِ ٱلشعبيِّ بالكوفة؛ وقد كنتُ في بقيةٍ مِنَ النعمةِ أتجمَّلُ بها، وكانَتْ تُمسكُني على موضعي في أعينِ ٱلناس؛ فما زالَتْ تلك ٱلبقيةُ تَدِقُّ وتنفَضُّ حتى نكِدَ عيشي ووقعْتُ في ٱلأيَّامِ ٱلمقعَدَةِ التي لا تمشي بِصاحبِها، وٱنقلَبَ ٱلزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاءَ لِيَصْطَلِمَ[1] ويُخْرِبَ ويُفسِد، فأثَّرَ فيّ أقبحَ آثارِه، فبِعْتُ ما بقِيَ لي وتحملْتُ عنِ ٱلكوفةِ إلى ٱلبصرة، وقلْت: إنْ لم تتغيَّرْ حالي تغيَّرتْ نفسي، ولا أكونُ في ٱلبصرةِ قدِ ٱنتهيْتُ إلى ٱلفقر، بل أكونُ قد بدأْتُ مِنَ الفقرِ كما يبدأُ غيري، وأدعُ الماضيَ في مكانِهِ وأمضي إلى ما يستقبلُني.

فٱلتمسْتُ رُفْقَةً فٱلتأمْنا[2] عشرينَ رجلاً، فلمَّا كنَّا في ٱلطريق، سَلَبَنا ٱللصوصُ وحازوا ٱلقافلةَ وما تَحويه، ونجَوتُ أنا راكباً فرسي وعُمْري، وأدركْتُ حينئذٍ أنَّ ٱلحياةَ وحدَها مِلْكٌ عظيم، وأنَّها هي ٱلأداةُ ٱلإلهيَّة، وٱلباقي كلُّهُ هو من أنفسِنا لِأنفسِنا والأمرُ فيه هيِّنٌ وٱلخَطْبُ يسير.

وقلْتُ: لو أنَّ ٱللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناسِ لَمَا نكبَونا، ولكنَّهم عرضوا لنا عُروضَ اللصّ لِلمالِ وٱلمتاعِ لا لِلناس، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبة؛ ومن هذا أدركْتُ أنْ ليسَ ٱلشرُّ إلَّا حالةً يتلبَّسُ بها مَنْ يستطيعُ أنْ يتخلَّصَ منها. فإذا كان ذلك فأصلُ ٱلسعادةِ في ٱلإنسانِ ألَّا يعبأَ[3] بهذِه ٱلحالاتِ متى عَرَضَتْ[4] لَه؛ وهو لا يستطيعُ ذلك إلَّا إذا، تمثَّلَ الشرَّ كما يراهُ واقعاً في غيره؛ فٱلمرأةُ العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالةٌ مِنَ ٱلفُجور، ونظرَتْ إلى نفسِها وحظِّ نفسِها، فقد تعمَى وتَزِلّ؛ ولكنَّها إذا نظرَتْ إلى ذلك في غيرِها وإلى أثرِهِ على الفاجرة، كانَتْ كأنَّما زادَتْ على نفسِها نفساً أخرى تُريها ٱلأشياءَ مجردةً كما هي في حقائقِها.

---

(١) يصطلم: يستأصل.

(٢) التأمنا: اجتمعنا.

(٣) يعبأ: يهتمّ.

(٤) عرضت: حصلت.

قال: ومضيْتُ على وجهي تتقاذفُني ٱلبِقاعُ والأمكنةُ: وأنا أُعانِي ٱلأرضَ وٱلسماء، وأخشى الليلَ والنهار، وأُكابدُ ٱلألمَ وٱلجوع، حتى دخلْتُ ٱلبصرةَ دخولَ ٱلبعيرِ ٱلرازح، قَطَعَ ٱلصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكلُ منها، فأنضاهُ[١] السفرُ وحَسَرهُ الكَلالُ[٢] ونَحتَهُ الثِّقلُ ٱلذي يحملُه، فجاءَ ببِنْيةٍ غير التي كانَ قد خرجَ بها. وكانَتْ أيَّامي هذه عمراً كاملاً مِنَ ٱلشقاء، جعلَتْني أُوقِنُ أنَّ هؤلاءِ الناسَ في ٱلحياةِ إنْ هم إلَّا كالدَّوابِّ تحتَ أحمالها: لا تختارُ الدابَّةُ ما تحملُ ولا مَنْ تحمل، ولا يُترَكُ لها مع هذا أنْ تختارَ ٱلطريقَ ولا مدةَ ٱلسير؛ وليسَ لِلدابةِ إلَّا شيئان: صبرُها وقُوَّتُها؛ إنْ فقدَتْهما هلكتْ، وإنْ وَهَنا فيها كان ضعفُها بحسبِ ذلك.

إنَّ هناك أوقاتاً مِنَ ٱلشقاءِ والبؤسِ تقذفُ بالإنسانِ وراءَ إنسانيَّتِهِ وإنسانيَّةِ البشرِ جميعاً، لا تُبالي كيف وقعَ وفي أيِّ وادٍ هلَك، فلا ينفعُ ٱلإنسانَ حينئذٍ إلَّا أنْ يعتصمَ[٣] بأخلاقِ ٱلحيوان، في مثلِ رِضاهُ الذي هو أحكمُ الحِكْمةِ في تلك الحال، وصبرِهِ ٱلذي هو أقوى القوّة، وقناعتِهِ التي هي أغنى ٱلغِنى، وجهلِهِ الذي هو أعلمُ العِلْم، وتوكُّلِهِ ٱلذي هو إيمانُ فطرْتِهِ بفِطرتِه. لا يُبالي ٱلحيوانُ مالاً ولا نعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظًّا ولا جاهاً، ولنْ تجدَ حمارَ ٱلملكِ يعرفُ مِنَ الملكِ أكثرَ مِمَّا يعرفُ حِمارُ السَّقَّاءِ مِنَ السقّاء؛ ولعلَّك لو سألْتَهما وأطاقا الجوابَ لَقالَ لك الأوّل: إنَّ الذي فوقَ ظهري ثقيلٌ مَقِيتٌ بغيض؛ ولَقالَ لك الثاني: إن الذي يركبُهُ خفيفٌ سهلٌ سَمْح!

ولكنَّ بلاءَ ٱلإنسانِ أنَّهُ حينَ يُطَوِّحُهُ ٱلبؤسُ[٤] وٱلشقاءُ وراءَ ٱلإنسانيَّة، لا ينظرُ لِغيرِ ٱلناس، فيزيدُهُ ذلك بُؤْساً وحسرة، ويَمحَقُ[٥] في نفسِهِ ما بقيَ مِنَ ٱلصبر، ويقلُبُ رِضاهُ غيظاً، وقناعتَهُ سخطاً، ويبتليهِ كلُّ ذلك بالفكرةِ المهلِكةِ أعجزَها أنْ تُهلِكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدَمِّرُهُ غيرَ صاحبِها؛ فإذا هي وجدَتْ مَسَاغاً[٦] إلى الناسِ فأهلكَتْ وعاثَتْ وأفسدَتْ، فجعلَتْ صاحبَها إمَّا لِصًّا أو قاتلاً أو مُجرماً، أيَّ ذلك تيسَّر!

* * *

(١) أنضاه: أتعبه.
(٢) الكلال: التعب الشديد.
(٣) يعتصم: يلجأ ويتقوّى.
(٤) يطوّحه البؤس: أخذه كل مأخذ.
(٥) يمحق: يمحو.
(٦) مساغاً: سبباً.

قال: وكنْتُ أعرفُ في ٱلبصرةِ فلاناً التاجرَ من سَراتِها[1] ووجوهِ أهلِها، فٱستطرقْتُهُ[2]؛ فإذا هو قد تحوّلَ[3] إلى خُراسان، وليسَ يعرفُني أحدٌ في ٱلبصرةِ ولا أعرفُ أحداً غيرَه؛ فكأنَّما نُكِبْتُ مرةً ثانيةً بغارةِ شرٍّ من تلك، غيرَ أنَّهَا قطعَتْ عليَّ في هذه ٱلمرةِ طريقَ أيّامي، وسلبتْني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأمل!

ورأيْتُ أنَّهُ ما مِنْ نزولي إلى الأرض بُدّ، فأكونَ فيها إنساناً كالدابةِ أوِ ٱلحشَرة: حياتُها ما ٱتَّفقَ لا ما تُريدُ أنْ يتَّفِق؛ وأنَّهُ لا رأيَ إلَّا أنْ أسخَرَ مِنَ ٱلشهوات فأزهدَ فيها وأنا القويُّ ٱلكريم، قبلَ أنْ تسخرَ هي منّي إذا جئْتُها وأنا الطامعُ العاجز!

وفي الأرضِ كِفايةُ كلٍّ ما عليها ومَنْ عليها، ولكنْ بطريقتِها هي لا بطريقةِ الناس؛ وما دامَتْ هذه الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوُّلِ شيءٍ إلى شيء، فهذا الظَّبيُ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنَّهُ قد أُكِلَ ولا أنَّهُ ٱفْتُرِسَ ومُزّق، بلْ هو عندَها قد تحوَّلَ قوةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمَّا عندَ ٱلناسِ فذلك خَطْبٌ[4] طويلٌ في حِكايةِ أوهامٍ مِنَ ٱلخوفِ وٱلوجَل[5]، كما لوِ ٱخترعْتَ قصةً خرافيَّةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً. . . فتعهَّدَهُ فأنبتَهُ فحصدَهُ فأكلَه، فذهبَ ٱلزرعُ يحتجُّ على آكِلِهِ، وجعلَ يشكو ويقول: ليسَ لِهذا زرعْتَني أنت، وليس لِهذا خرجْتُ أنا تحتَ الشمس، وليسَ من أجلِ هذا طلعَتِ ٱلشمسُ عليَّ وعليك!

وٱلإنسانُ يرى بعينيهِ هذا التغييرَ واقعاً في ٱلإنسانيَّةِ عامَّتِها وفي ٱلأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيهِ هو ضجَّ وسَخِط، كأنَّ لَهُ حقًّا ليسَ لأحدٍ غيرِه، وهذا هوَ ٱلعجيبُ في قصةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ مِنَ ٱلجنةِ لا تُقالُ هنا ولا تُفهَم هنا؛ بل مَحلُّ ٱلاعتراضِ بها حينَ يكونُ ٱلإنسانُ خالداً لا يقعُ فيهِ ٱلتغييرُ وٱلتبديل. ومن هذا كانَ خيالُ ٱللذةِ في ٱلأرضِ هو دائماً باعثَ ٱلحماقةِ ٱلإنسانيَّة.

قال أبو عُبيد: وذهبْتُ أعتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلامٍ مَنَ ٱلفاقةِ وٱلضُّرّ، ومنَ ٱلخيبةِ والإخفاق، ومن إلجاءِ ٱلمسكنَة، وإحواجِ ٱلخَصَاصة[6]؛ فلقد رأيتُني وإنّ يدي كيدِ ٱلعبد، وظهري كظهرِ ٱلدّابة، ورجلي كرجلِ ٱلأسير، وعُنُقي كعُنُقِ

---

(١) سراتها: أغنيائها.
(٢) استطرقته: جئته ليلاً.
(٣) تحوّل: انتقل.
(٤) خطْب: بسكون الطاء: المصيبة.
(٥) الوجل: الخوف.
(٦) الخصاصة: الفقر المدقع وشدّته.

ٱلمغلول، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلَّا بقُرصٍ مِنَ ٱلخبز، ولقد رأيْتُني أبذُلُ في صِيانةِ كلّ قطرةٍ من ماءِ وجهي سحابةً مِنَ العرَقِ حتى لا أسألَ ٱلناس، ويا بؤساً لي إنْ سألْتُ وإِنْ لم أسأل!

وما كان يُمسِكني على هذه الحياةِ المُرمَقَّةِ[1]، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يوم يوم - إلا كلامُ الشعبيّ - الذي سمعْتُهُ في مسجدِ الكوفة، وقولُهُ فيمَنْ قتلَ نفسَه؛ فكانَ كلامُه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلّ يوم معَ الصبحِ صبحُ لإيماني. ولكنْ بقيَتْ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرَباتٌ مِنَ الوجَع كالذي يجدُهُ ٱلمجروحُ في جرحِهِ إذا ضَرَبَ عليه، فكانَ الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إليَّ إلَّا منها. وفقدْتُ ٱلصديقَ وعونَه، فما كان يُقبِلُ عليّ صديقٌ إلَّا في أحلامي من وراءِ ٱلزمنِ الأول!

قالَ مُجاهد: والحبيب؟

فتبسَّمَ ٱلرجل وقال: إذا فرغَتِ[2] ٱلحياةُ مِنَ الذي هو أقلُّ مِنَ ٱلممكن، فكيف يكونُ فيها الذي هو أكثرُ مِنَ ٱلممكن؟ إنَّ جوعَ يوم واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعَطَّرة. . . . والبؤسُ يَقَظةٌ مؤلمةٌ في ٱلقلبِ ٱلإنسانيِّ تُحَرِّمُ عليهِ ٱلأحلامُ؛ وما ٱلحُبُّ من أوَّلِهِ إلى آخرِهِ إِلَّا أحلامُ القلوبِ بعضِها ببعض!

قال أبو عُبيد: وتَضَعْضَعْتُ[3] لِهذه الحياةِ المخزيةِ وأبْرَمَتْني[4] أيامُها، وحملْتُ فيَّ الميّتَ والحيّ، ورأيْتُ الشيطانَ - لَعنَهُ الله - كأنَّما ٱتخذَني وِعاءً مُطَّرَحاً على طريقِهِ يُلقي فيهِ القمامة[5]. . . ، وظهَر لي قلبي في وساوسِهِ كالمدينةِ الخَرِبةِ ضَرَبَها الوباءِ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرَتُها؛ وعادَ البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يستحي، فلا أراهُ إلَّا في أرذلِ أشكالِهِ وأبردِها؛ ولقد يكونُ البؤسُ لِبعضِ الناسِ على شيءٍ مِنَ ٱلحياءِ فيأتي في أسلوبِ معتذِرٍ كٱلمرأةِ الدميمة[6] في نقابِها[7].

وقلْتُ لِنفسي: ما هو - واللّهِ - إلَّا القتل، فهذا عُمرٌ أراهُ كالأسيرِ أُقِيمَ على النطع[8] وسُلَّ عليهِ السيف، فما ينتقمُ منه ٱلمنتقِمُ بأفظعَ من تأخيرِ ٱلضربة، وما يرحَمُهُ ٱلراحمُ بأحسنَ مِنْ تعجيلِها!

---

(١) المرمقة: الباقي من الحياة.
(٢) فرغت الحياة: انتهت.
(٣) تضعضعت: تخلخلت.
(٤) أبرمتني: أضجرتني.
(٥) القمامة: الزبالة.
(٦) الدميمة: البشعة.
(٧) تقابلها: ما تغطي به وجهها.
(٨) النِّطع: الآنية ينزل فيها دم من قطع رأسه.

وبِتُّ أؤامِرُ هذه النفسَ في قتلِها وأحدّثُها حديثَ الموت، فسدَّدَتْ رأيي فيهِ وقالت: ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّنِ أصبحَ كالمقبورِ لا أيامَ لَهُ إلَّا أيامُ ٱنقراضِهِ وتفتيتِه؟ بَيْدَ أنِّي ذكرْتُ كلامَ (الشّعبيِّ) في ذلك المجلسِ وأنا أحفظُهُ كلَّه، فجعلْتُ أهُذُّه[1] ما أتركُ منه حَرْفاً، وٱتّخذْتُهُ متكلماً مع نفسي لا كلاماً، كنْتُ كلَّما غلبَني ٱلضعفُ رفعْتُ بِهِ صوتي وأَصغيْتُ كما أُصغي إلى إنسانٍ يُكلِّمُني فرأيْتُ ٱلشيطانَ بعدَ ذلك كاللصِّ إذا طَمِعَ في رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ، ثُمَّ لمَّا جاءَهُ وجدَ معه رجلاً ثانياً قويًّا فهرب!

قال أبو عُبيد: ونالني رَوْحٌ مِنَ ٱلاطمئنانِ وجدْتُ لَهُ السكينةَ في قلبي فنِمْتُ، فإذا الفزعُ ٱلأكبرُ الذي لا ينساهُ مَنْ سمع بهِ، فكيف ٱلذي رآهُ بعينيه؟

رأيتُني ميّتاً في يدِ غاسلِهِ يُقلِّبُهُ ويغسلُهُ كأنَّهُ خِرْقة؛ ثُمَّ حُمِلْتُ على ٱلنعشِ كأنَّ الحاملين قد رفعوني يقولون: ٱنظروا أيُّها ٱلناسُ كيفَ يصيرُ ٱلناس؛ ثُمَّ صلَّى عليَّ الإمامُ الشعبيُّ في مسجدِ ٱلكوفة، ثم دُلِّيتُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وهِيلَ الترابُ عليّ، وتُرِكْتُ وحيداً وٱنصرفوا!

وما أدري كم بقيْتُ على ذلك ثُمَّ رأيْتُ كأنَّما نُفِخَ في ٱلصُّورِ[2] وبُعْثِرتِ ٱلأمواتُ جميعاً، فطِرْنا في ٱلفضاء، وكانتِ ٱلنجومُ غباراً حوْلَنا كتُرابِ ٱلعاصفةِ في ٱلعاصفة؛ وإذا نحن في عَرَصَاتِ القِيامةِ وفي هَوْلِ الموقف!

وتوجَّهْتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاءِ في رحمةِ ٱللهِ؛ ورأيْتُ أعمالي رؤيةً أحزنَتْني، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلِها صعاليكُ إلَّا قليلاً منَ ٱلمستورين، أرى منهُمُ ٱلواحدَ بعدَ ٱلواحدِ في ٱلساعة بعدَ ٱلساعةِ نذَرُوا وتَبَعثروا وضاعوا كأعمالي ٱلصالحة!

وذكرْتُ أني كِدْتُ أقتلُ نفسي فِراراً بها مِنَ ٱلعُمرِ المؤلم؛ فنظرْتُ فإذا الزمنُ قد ظهرَ في أبديَّتِهِ، ورجعَ ٱلماضي حاضراً بكلِّ ما حَوَى كأنَّهُ لم يمض، وإذا عمري كلُّهُ لا يَكادُ يبلغُ طَرْفةَ عينٍ من دهرٍ طويل، فحمدْتُ ٱللَّهَ أنِّي لم أفتَدِ أَلَمَ ٱللحظةِ ٱلقصيرةِ ٱلقصيرة، بعذابِ ٱلأبدِ ٱلخالدِ ٱلخالدِ ٱلخالدِ.

وجِيءَ على أعينِ ٱلخلْقِ بأنعم أهلِ الدنيا وأكثرِهم لَذّاتٍ في تاريخ الدنيا كلِّه، فصاحَ صائحٌ: هذا أنعمُ مَنْ كانَ على الأرضِ منذُ خَلَقَها ٱللَّهُ إلى أنْ طواها. ثُمَّ غُمِسَ هذا المنَعَّمُ في النارِ غَمْسَةً خفيفةً كنبضَةِ البرْق، وأُخْرِجَ إلى المحشَر،

(١) أهذُّه: أسرع في قراءته.

(٢) الصُّور: البوق.

وقيلَ لَهُ والناسُ جميعاً يسمعون: هل ذُقْتَ نعيماً قطّ؟ قال: لا ـ والله ـ.

ثُمَّ جِيءَ بأتعسِ أهلِ ٱلأرضِ وأشدِّهِم بُؤساً منذُ خُلقَتِ ٱلأرض، فغُمسَ في ٱلجنةِ غَمْسَةً أسرعَ مِنَ النسيمِ تحرَّكَ ومرَّ، ثُمَّ أُخْرجَ إلى المحشرِ وقِيلَ له: هل ذُقْتَ بؤساً قطّ؟ قال: لا ـ والله ـ.

وسمعْنَا شهيقَ جهنمَ وهي تفورُ تكادُ تميَّزُ مِنَ الغيظ؛ فأيقنْتُ أنَّ لها نفْساً خُلقَتْ من غضَبِ ٱلله. وخرجَ منها عُنقٌ عظيمٌ هائل، لو تضرَّمَتِ[1] ٱلسماءُ كلُّها ناراً لأَشبهَتْه، فجعلَ يلتقِطُ صِنْفاً صِنفاً مِنَ ٱلخلْق، وبدأ بالملوكِ الجبابرةِ فٱلتقطهمْ مرَّةً واحدةً كالمغناطيسِ لِتُرابِ ٱلحديدِ؛ وقَذَفَ بهم إلى النار؛ ثُمَّ ٱنبعثَ فٱلتقطَ ٱلأغنياءَ ٱلمُفسدِينَ فأطارَهم إليها؛ ثُمَّ جعلَ يأخذُ قَوْماً قَوْماً، وقد ألجمنِي ٱلعرَقُ مِنَ ٱلفزع؛ ثُمَّ طِرْتُ أنا فيه، ونظرْتُ، فإذا أنا مُحْتبِسٌ في مُظلمةٍ ناريَّةٍ كالهاوية، ليسَ حولي فيها إلَّا قاتلو أنفسِهِم. ولو أنَّ بِحارَ ٱلأرضِ جُعلَ فيها البحرُ فوقَ ٱلبحرِ فوقَ ٱلبحر، إلى أنْ تجتمعَ كلُّها فيكونَ العمقُ كبعْدِ ما بينَ ٱلأرضِ وٱلسماء، ثُمَّ تُسْجَرُ[2] ناراً تَلَظَّى، لَكانَتْ هيَ ٱلهاويةَ التي نحن في أعماقِها؛ وكنْتُ سمعْتُ من إمامِنا الشعبيّ: أنَّ عُصاةَ ٱلمؤمنينَ ٱلموحِّدِينَ إذا ماتُوا على إيمانِهم كانوا في النارِ أحياءً وجوارحُهم مَوْتى؛ لأنَّ هذه الجوارحَ قد أطاعَتِ ٱللَّهَ وسبَّحَتْهُ فكرُمَتْ بذلك حتى على جهنَّم، ثُمَّ يعذَّبونَ عذاباً فيهِ ٱلرحمة، ثُمَّ يُخرَجونَ وينتظرُهم إيمانُهم على بابِ النار، فكانَ إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسَه، فسمعَ قائلاً من بعيدٍ يقولُ لِمؤمِن: أُخرجْ فإنْ إيمانَك ينتظرُك. فصاحَ الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظرُني إيماني؟ فقيلَ له: وهل جِئْتَ بهِ؟

ورأيْتُ رجلاً ذَبحَ نفسَهُ يُريدُ أنْ يصرخَ يسألُ الله ٱلرحمة، فلا يخرجُ ٱلصوتُ من حَلْقِه، إذْ كانَ قد فَرَاهُ وبقيَ مَفْريًّا! وأبصرْتُ آخرَ قد طعنَ في قلبهِ بِمِدية، فهو هناك تَسلُخُ الزبانيةُ قلبَهُ تبحَثُ هلْ فيهِ نيَّةٌ صالحة، فلا تزالُ تسلُخُ ولا تزالُ تبحثُ!

ورأيْتُ آخرَ كانَ تَحسَّى[3] مِنَ السمِّ فماتَ ظمآنَ يتلظَّى[4] جوفُه، فلا تزالُ تَنشأُ لَهُ في النارِ سحابةٌ رَويَّةٌ تَبْرُقُ بالماء، فإذا دنَتْ منه ورَجاها، ٱنفجَرَتْ عليهِ بِالصواعقِ ثُمَّ عادَتْ تَنشأُ وتنفجر!

---

(١) تضرّمت: اشتدّ اشتعالها.
(٢) تستجر: تشعل.
(٣) تحسّى: شرب.
(٤) يتلظّى: يشتعل.

وقالَ رجل: إنَّما كنْتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقْتُ نفسي. فنودِيَ: أوَ ما علمْتَ أنَّ اللَّهَ يُحاسبُك على أنَّكَ عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيف، وقادرٌ لا عاجز؟ كنْتَ تعقِلُ بالأقلِّ أنَّكَ ستموتُ، وكنْتَ تَقَوَى على أنْ تصبِر، وكنْتَ تقدرُ أنْ تتركَ الشرَّ.

وقالَ رجلٌ عالمٌ قد حزَّ في يدِهِ بسكينٍ فمات: «لم يكُنِ ٱلكمالُ مِنَ ٱلدنيا ولا في طبيعتِها ولا هو شيءٌ يُدرك». فصرخَ فيهِ صوتٌ رهيب: «ولكنْ من عَظَمةِ الكمالِ أنَّ ٱستمرارَ العملِ لَهُ هو إدراكُه!».

* * *

قالَ أبو عُبيد: ثُمَّ ٱنتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتمِعُ ٱلتماعَ ٱلزجاج فيهِ ٱلخمر، فقامَ في وجهي وقال: بِماذا جِئْتَ إلى هنا يا عدوَّ الخمر؟ فما كانَ إلَّا أنْ سمعْتُ ٱلنداءَ: شَفَعَتْ فيك الخمرُ التي لم تشربْها، أُخرج، إنَّ إيمانَكَ ينتظرُك.

فصِحْت: ٱلحمدُ لِلَّهِ! وتحركَ بها لِساني، فٱنتبهْت.

لقد علمْتُ أنَّ ٱلصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعِمُ ٱللَّهُ بها إلَّا في ٱلمصائب.

وحيُ القبور

ذهبْتُ في صُبحِ يوم عيدِ ٱلفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى ٱلمَقْبَرَة، وقد ماتَ لي مِنَ ٱلخواطِرَ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد؛ فكنْتُ أمشي وفيَّ جَنَازَةٌ بمُشَيعيِّها[1]؛ من فِكْرٍ يَحملُ فِكْراً، وخاطرٍ يَتْبعُ خاطراً، ومعنًى يَبكِي، ومعنًى يُبكَى عليه.

وكذلك دأْبِي[2] كلَّما ٱنحدرْتُ في هذه الطريقِ إلى ذلك ٱلمكانِ ٱلذي تأتيهِ ٱلعيونُ بدموعِها، وتمشي إليهِ ٱلنفوسُ بأحزانِها، وتجيءُ فيهِ ٱلقلوبُ إلى بقايا. تلك المقابرُ التي لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماءِ ولا بِالألقاب، ولكنْ بهذا النداء: يا أحبابَنَا، يا أحزانَنَا!

ذهبْتُ أزورُ أمواتي الأعزاءَ وأتَّصلُ منهم بأطرافِ نفسي، لأحيا معهم في ٱلموتِ ساعةً أعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر ٱلآخرة، فأنسى وأذكر، ثُمَّ أنظرُ وأعتبِرُ، ثُمَّ أتعرَّفُ وأتوَسَّم[3]، ثُمَّ أسْتَبْطِنُ مِمَّا في بطنِ ٱلأرض، وأستَظْهِرُ مِمَّا على ظهرِها.

وجلسْتُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرَجَتِ ٱلذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لِتجعلَها مادةً جديدةً لِأحزانِها؛ وٱنفتحَ لِيَ ٱلزمنُ ٱلماضي فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس، وكأنَّ دهراً كاملاً خُلِقَ بحوادثِهِ وأيَّامِه، ورُفِعَ لِعينيَّ كما تُرفَعُ ٱلصورةُ ٱلمعلقةُ في إطارِها.

أعرفُ أنَّهم ماتوا، ولكنِّي لم أشعرْ قطُّ إلَّا أنَّهم غابوا؛ وٱلحبيبُ ٱلغائِبُ لا يتغيَّرُ عليهِ الزمانُ ولا المكانُ في ٱلقلْبِ ٱلذي يُحبُّهُ مهما تَراخَتْ بهِ ٱلأيام[4]؛ وهذه هي بقيةُ ٱلروحِ إذا ٱمتزَجَتْ بِالحُبِّ في روحٍ أخرى: تتركُ فيها ما لا يُمحَى لِأنَّها هي خالدةٌ لا تُمحَى.

ذهبَ ٱلأمواتُ ذَهَابَهم ولم يُقيموا في ٱلدنيا؛ ومعنى ذلك أنَّهم مرُّوا بالدنيا

---

(١) مشيّعها: مرافقها.

(٢) دأبي: بسكون الهمزة: عادتي.

(٣) توسَّم: استطلع.

(٤) تراخت به الأيام: امتدّت.

ليسَ غير، فهذه هي ٱلحياةُ حينَ تُعبِّرُ عنها ٱلنفسُ بِلِسانِها لا بلسانِ حاجتِها وحِرصِها.

الحياةُ مدةُ عمل، وكأنَّ هذه الدنيا بكلِّ ما فيها مِنَ ٱلمتناقضات، إنْ هي إلَّا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانباً منه، ثُمَّ يُقالُ لَه: هذه الأداةُ فٱصنعْ ما شِئْتَ، فضيلتَك أو رذيلتَك.

*** [1]

جلسْتُ في ٱلمقبرة، وأطرقْتُ أُفكرُ في هذا الموت. يا عجباً لِلناس! كيف لا يستشعرونَهُ وهو يَهدمُ من كلِّ حيّ أجزاءَ تُحيطُ بهِ قبلَ أنْ يهدمَهُ هو بجملتِه؛ وما زالَ كلُّ بُنْيانٍ مِنَ الناسِ بِهِ كالحائطِ المُسَلَّطِ عليهِ خَرابُه، يَتَأكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك!؟

يا عجباً لِلناسِ عجباً لا ينتهي! كيف يجعلونَ ٱلحياةَ مدةَ نزاعٍ وهي مُدةُ عمل، وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النَّوازِي بِهم في ٱلخِلافِ وٱلباطِلِ، وهم كلَّما تدافعوا بينهم قضيةً مِنَ ٱلنزاعِ فضربوا خَصْماً بخصمٍ وردّوا كَيْداً بكيد، جاءَ حكمُ ٱلموتِ تكذيباً قاطعاً لِكُلِّ مَنْ يقولُ لِشيءٍ: هذا لي؟

أمَا ـ واللّهِ ـ إنَّهُ ليسَ أعجبُ في ٱلسخريةِ بهذه الدنيا من أنْ يُعطَى ٱلناسُ ما يملكونَهُ فيها لإثباتِ أنّ أحداً منهم لا يملكُ منها شيئاً، إذْ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجعُ عنها الراجعُ إلَّا لحماً وعظماً، وبينَهما سفاهةُ ٱلعظمِ واللحمِ حتى على ٱلسِّكِّينِ ٱلقاطعة....

تأتي ٱلأيامُ وهي في ٱلحقيقةِ تَفِرُّ فِرارَها؛ فمَنْ جاءَ من عمرِهِ عشرونَ سنةً فإنَّما مَضَتْ هذه العشرونَ من عمره. ولقد كانَ ينبغي أنْ تُصَحِّحَ أعمالُ الحياةِ في الناسِ على هذا الأصل ٱلبَينِ، لولا ٱلطباعُ ٱلمدخولةُ وٱلنفوسُ الغافلةُ، وٱلعقولُ ٱلضعيفةُ، وٱلشهواتُ ٱلعارِمة؛ فإنَّهُ ما دَامَ ٱلعمرُ مُقبِلاً مُدْبِراً في ٱعتبارٍ واحد، فليسَ لِلإنسان أنْ يتناولَ مِنَ ٱلدنيا إلّا ما يُرضيهِ محسوباً له ومحسوباً عليهِ في وقتٍ معاً؛ وتكونُ ٱلحياةُ في حقيقتِها ليسَتْ شيئاً إلّا أنْ يكونَ الضميرُ ٱلإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيّ.

***

وما هي هذه ٱلقبورِ؟ لقد رجعَتْ عندَ أكثرِ ٱلناسِ مَعَ المَوْتَى أبنيةً ميتة؛ فما

---

(١) يقصد إنسانية الحياة.

قطُّ رأوهَا موجودةً إلّا لِينسَوْا أنّها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرِهم لَكَانَ لِلقبرِ معناهُ ٱلحيُّ ٱلمُتَغَلْغِلُ في ٱلحياةِ إلى بعيد؛ فما القبرُ إلّا بناءٌ قائمٌ لِفكرةِ ٱلنهايةِ وٱلانقطاع؛ وهو في ٱلطَّرَفِ ٱلآخرِ رَدٌّ على البيتِ الذي هو بناءٌ قائمٌ لِفكرةِ البَدْءِ وٱلاستمرار؛ وبينَ ٱلطَّرَفينِ ٱلمَعْبَدُ وهو بناءٌ لِفكرةِ ٱلضميرِ ٱلذي يحيا في البيتِ وفي ٱلقبر، فهو على ٱلحياةِ والموتِ كالقاضي بينَ خَصمينِ يُصْلِحُ بينهما صُلحاً أو يقضي.

القبرُ كلمةُ ٱلصدقِ مبنيَّةً متجسِّمَةً، فكلُّ ما حولَها يَتَكَذّبُ ويتأوَّل، وليسَ فيها هي إلّا معناها لا يَدْخُلُهُ كذِبٌ ولا يعتريهِ تأويل. وإذا ماتَتْ في الأحياءِ كلمةُ الموتِ من غرورٍ أو باطلٍ أو غفْلةٍ أو أثرة، بقيَ ٱلقبرُ مُذكِّراً بالكلمةِ شارِحاً لها بأظهرِ معانيها، داعياً إلى الاعتبارِ بمدلولِها، مبيِّناً بِمَا ينطوي عليهِ أنَّ الأمرَ كلَّهُ لِلنّهاية.

ٱلقبرُ كلمةُ ٱلأرضِ لِمَنْ ينخدعُ فيرى العمرَ ٱلماضيَ كأنَّهُ غيرُ ماض، فيعملُ في إفراغِ حياتِهِ مَنَ ٱلحياة بما يملؤُها من رذائلِهِ وخسائِسِه؛ فلا يزالُ دائِباً في معاني الأرضِ وٱستجماعِها. وٱلاستمتاع بها، يتلو في ذلك تِلْوَ ٱلحيوانِ ويقْتَاسُ بهِ، فشريعتُهُ جَوْفُهُ وأعضاؤُه؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُهُ مع نفسِهِ الروحانيَّة، كالحِمارِ معَ ٱلذي يملكُهُ ويعلُفُه، ولو سُئِلَ ٱلحمارُ عن صاحبِهِ مَنْ هو؟ لَقال: هو حِماري...

القبرُ على الأرضِ كلمةٌ مكتوبةٌ في ٱلأرضِ إلى آخرِ الدنيا، معناها أنَّ الإنسانَ حيٌّ في قانونِ نِهايتِه، فلْينظرْ كيف ينتهي.

* * *

إذا كانَ الأمرُ كلُّهُ لِلنهاية، وكانَ ٱلاعتبارُ بِها وٱلجزاءُ عليها، فالحياةُ هيَ ٱلحياةُ على طريقةِ ٱلسلامةِ لا غيرِها؛ طريقةِ إكراهِ ٱلحيوانِ ٱلإنسانيِّ على مُمَارسةِ ٱلأخلاقيَّةِ ٱلاجتماعيَّة، وجعلِها أصلاً في طِباعِه، ووزنِ أعمالِهِ بنتائجِها التي تنتهي بها، إذْ كانَتْ روحانيتُهُ في النهاياتِ لا في بداياتِها.

في الحياةِ الدنيا يكونُ الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالَها؛ فإذا ٱنتَهتِ ٱلحياةُ ٱنقلبَتْ أعمالُ الإنسانِ ذاتاً يخلُدُ هو فيها؛ فهو منَ ٱلخيرِ خالدٌ في الخير، ومنَ الشرِّ هو خالدٌ في الشرّ؛ فكأنَّ ٱلموتَ إنْ هو إلّا ميلادٌ لِلروحِ من أعمالِها؛ تُولدُ مرتين: آتيةً وراجعة.

وإذا كانَ ٱلأمرُ لِلنهايةِ فقدُ وجبَ أنْ تَبطلَ مِنَ ٱلحياةِ نهاياتٌ كثيرة، فلا يُترِكُ

الشرُّ يمضي إلى نهايتِهِ بلْ يُحْسَمُ في بَدْئِهِ ويُقتلُ في أولِ أنفاسِه، وكذلك الشأنُ في كلِّ ما لا يَحسنُ أنْ يُبدأ، فإنَّهُ لا يجوزُ أنْ يمتدَّ: كالعداوةِ والبغضاءِ، والبخلِ والأثرة، والكِبرياءِ والغرور، والخِداعِ والكذب؛ وما شابَهَ هذه أو شابَهَهَا، فإنَّها كلُّها انبعاثٌ مِنَ الوجودِ الحيوانيِّ وانفجارٌ من طبيعتِه؛ ويجبُ أنْ يكونَ لِكلٍّ منها في الإرادةِ قبرٌ كي تَسْلَمَ لِلنفسِ الطيبةِ إنسانيتُها إلى النهاية.

***

يا مَنْ لهم في القبورِ أموات!

إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في الشعورِ بقيمةِ الحياة، فيجبُ أنْ يكونَ معنى القبرِ من معاني السلامِ العقليِّ في هذه الدنيا.

القبرُ فمٌ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدةٌ لو صُرِفَتْ كلُّها في الخيرِ ما وَفَتْ بهِ؛ فكيف يضيعُ منها ضيَاعٌ في الشرِّ أوِ الإثم؟ لو وُلِدَ الإنسانُ ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكْتَهلَ وهَرِمَ في يوم واحد، فما عساهُ كانَ يُضيِّعُ من هذا اليوم الواحد؟ إنَّ أطولَ الأعمارِ لا يراهُ صاحبُهُ في ساعةِ موتِهِ إلَّا أقصرَ من يوم.

يُنادي القبر: أصلِحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحِها؛ فإنَّها إنْ جاءَتْ إلى هنا كما هي، بقيَتْ كما هي إلى الأبد، وتركَها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالِكَ القبرُ أيضاً؛ فليسَ ينظرُ في هذا عاقلٌ إلَّا كانَ نظرُهُ كأَنَّهُ حكمُ محكمةٍ على هذه الحياةِ كيفَ تنبغي وكيف تكون.

في القبرِ معنى إلغاءِ الزمان، فمَنْ يفهمُ هذا استطاعَ أنْ ينتصِرَ على أيَّامِه، وأنْ يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشرِّ والإثم، وأنْ يُمِيتَ في نفسِهِ خواطرَ السوء؛ فمِنْ معاني القبرِ ينشأُ لِلإرادةِ عقلُها القويُّ الثابت؛ وكلُّ الأيامِ المكروهةِ لا تجِدُ لها مكاناً في زمنِ هذا العقل، كما لا يجدُ الليلُ محلّاً في ساعاتِ الشمس.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصلُحُ روحُ الإنسانِ في الأرضِ إلَّا بها:

روحُ الطبيعةِ في جمالِها، وروحُ المعبدِ في طهارتِه، وروحُ القبرِ في موعظتِه.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها

١

كانَ عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمَّى أيّاماً.

كانَ عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيهِ اليومُ بعدَ اليومِ كما تَنبُتُ الورقةُ الناعمةُ في الزهرةِ إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلِها.

أيامُ الصِّبَا المَرِحَةُ حتى في أحزانِها وهمومِها؛ إذْ كانَ مجيئُها مِنَ الزمنِ الذي خُصَّ بشبابِ القلْبِ، تبدو الأشياءُ في مَجارِي أحكامِها كالمسحورة؛ فإنْ كانَتْ مُفرِحَةً جاءَتْ حاملةً فرَحَيْن، وإنْ كانَتْ مُحْزِنَةً جاءَتْ بنصفِ الحزن.

تلكَ الأيامُ التي تعملُ فيها الطبيعةُ لِشبابِ الجسمِ بِقُوًى مختلفة: منها الشمسُ والهواءُ والحركة، ومنها الفرَحُ والنسيانُ والأحلام!.

* * *

وشبَّتِ العذراءُ وأُفرِغَتْ في قالَبِ الأنوثةِ الشمسيِّ القمري، واكتسى وجهُها ديباجةً[١] مِنَ الزَّهَرِ الغَضِّ[٢]، وأودعَتْها الطبيعةُ سِرَّها النسائيَّ الذي يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لِأنها فنُّ حياة، وجعلَتْها تِمثالاً لِلظَّرف: وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عندَ ما تُجَمِّلُ العذراءَ بظرفِ كظرفِ الأطفالِ الذينَ ستلِدُهم من بَعد! وأسبغَتْ[٣] عليها معانيَ الرقةِ والحَنَانِ وجمالِ النفس؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعةِ عندَ ما تَمْهَرُ العذراء من هذه الصفاتِ مَهرَها الإنسانيّ!

وخُطِبَت العذراءُ لِزوجِها، وعُقِدَ لَهُ عليها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظهر.

---

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغضّ: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

وماتَتْ عذراءَ بعدَ ثلاثِ سنين، وأُنزِلَتْ إلى قبرِها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظهر!

وكانَتِ ٱلسنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلْبٍ يُقطِّعُهُ ٱلمرض، يتنظَّرون بهِ العُرْس، وينتظرُ بنفسِهِ الرَّمْس!

يا عجائبَ القدَر! أذاك لَحنٌ موسيقيٌّ لأنِينٍ ٱستمرَّ ثلاثَ سنوات، فجاءَ آخرُه موزوناً بأوَّلِهِ في ضبطٍ ودقَّة؟

أكانَتْ تلك العذراءُ تحملُ سرًّا عظيماً سيُغيِّرُ ٱلدنيا، فردَّتِ ٱلدنيا عليها يومَ ٱلتهنئةِ وٱلابتسامِ وٱلزينة، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ[1] وٱلدموعِ وٱلكفن؟

٢

واهاً لكَ أيُّها الزمن! مَنِ ٱلذي يفهمُك وأنت مُدّةُ أقدار؟

واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعودُ لِكُلِّ مخلوقٍ سِرُّ يومِه، كما أنَّ لِكلِّ مخلوقٍ سرَّ روحِه، وليسَ إليهِ لا هذا ولا هذا.

وفي اليوم الزمنيِّ الواحدِ أربُعمائةِ مليونِ يوم إنسانيٍّ على ٱلأرض! ومع ذلك يُحصيهِ عقلُ الإنسانِ أربعاً وعشرينَ ساعة؛ يا لَلغباوَة. . . !

وكلُّ إنسانٍ لا يتعلَّقُ مِنَ ٱلحياةِ إلَّا بالشعاعِ ٱلذي يُضيءُ ٱلمكانَ ٱلمظلمَ في قلبِه، والشمسُ بِمَا طَلَعَتْ عليهِ لا تستطيعُ أنْ تُنَيرَ ٱلقلبَ الذي لا يُضيئُهُ إلَّا وجهُ محبوب.

وفي الحياةِ أشياءُ مكذوبةٌ تُكَبِّرُ ٱلدنيا وتُصغِّرُ النفس، وفي ٱلحياةِ أشياءُ حقيقيَّةٌ تَعْظُمُ بالنفسِ وتَصغُرُ بالدنيا؛ وذَهَبُ ٱلأرضِ كلّهُ فقرٌ مُدْقِعٌ حينَ تكونُ ٱلمعاملةُ مَعَ ٱلقلب.

أيَّتُها الدنيا؛ هذا تحقيرُك ٱلإلهيُّ إذا أكبرَكِ الإنسان!

* * *

---

(١) الولولة: العويل والبكاء.

ويا عَجباً لأهلِ ٱلسوءِ ٱلمغترِّينَ بحياةٍ لا بدَّ أنْ تنتهيَ! فماذا يرتقِبونَ إلَّا أنْ تنتهيَ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أنْ يكونَ ٱنتهاءُ الإنسانِ إلى آخرِها هو أوّلَ فكرِهِ في حقيقتِها؟

فعِندَما تحينُ ٱلدقائقُ ٱلمعدودةُ التي لا تَرقُمُها ٱلساعةُ ولكنْ يرقُمها صدرُ ٱلمُحْتَضَر[1]. . . عندَ ما يكونُ مُلْكُ ٱلملوكِ جميعاً كالترابِ لا يَشتري شيئاً ألبَتَّة. . .

. . . . ماذا يكونُ أيُّها ٱلمجرمُ بعدَها تَقْتَرِفُ ٱلجِناية، ويقومُ عليكَ الدليل، وترى حَولَكَ ٱلجُنْدَ وٱلقُضاة، وتقِفُ أمامَكَ ٱلشريعةُ وٱلعدل؟

* * *

أعمالُنا في ٱلحياةِ هي وحدَها ٱلحياة، لا أعمارُنا، ولا حُظُوظُنا. ولا قيمةَ لِلمال، أوِ ٱلجاه، أوِ ٱلعافية، أو هي معاً ـ إذا سُلِبَ صاحبُها ٱلأمنَ وٱلقرار! وٱلآمِنُ في الدنيا مَنْ لم تكنْ وراءَهُ جريمةٌ لا تزالُ تجري وراءَه. وٱلسعيدُ في ٱلآخرةِ مَنْ لم تكنْ لَهُ جريمةٌ تُطارِدُهُ وهو في ٱلسماوات.

كيف يُمكنُ أنْ تخدعَ ٱلآلةُ صاحبَها وفيها (العدَّادُ): ما تتحرَّكُ من حركةٍ إلَّا أشْعَرَتْه فعَدَّها؟ وكيف يُمكنُ أنْ يكْذِبَ ٱلإنسانُ ربَّهُ وفيهِ ٱلقلبُ: ما يعملُ من عملٍ إلَّا أشعرَهُ فعدَّه؟

٣

ورأيْتُ ٱلعروسَ قبلَ موتِها بأيَّام.

أفرأيْتَ أنتَ الغِنَى عندَ ما يُدْبِرُ عن إنسانٍ لِيتركَ لَهُ ٱلحسرةَ والذكرى الأليمة؟ أرأيْتَ ٱلحقائقَ ٱلجميلةَ تذهبُ عن أهلِها فلا تتركُ لهم إلَّا الأحلامَ بها؟ ما أتعبَ الإنسانَ حينَ تتحوَّلُ ٱلحياةُ عن جسمِهِ إلى الإقامةِ في فكرِه!

وما هِيَ ٱلهمومُ وٱلأمراض؟ هي ٱلقبرُ يستبطىءُ صاحبَهُ أحياناً فيَنفضُ في بعض أيَّامِهِ شيئاً من ترابِهِ. . . .!

رأيتُ العَروسَ قبلَ موتِها بأيَّام، فيااللَّهِ من أسرارِ ٱلموتِ ورهبتِها! فَرَغَ

---

(١) المحتضر: المنازع سكرات الموت.

جسمُها كما فرَغتْ عندَها الأشياءُ من معانيها! وتخلّى هذا الجسمُ عن مكانِهِ لِلرُّوحِ تَظهرُ لأهلِها وتقفُ بينَهم وِقْفةَ ٱلوَدَاع!

وتحوَّلَ ٱلزمنُ إلى فكرِ ٱلمريضة؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ وليل، بلْ في فكرٍ مُضيءٍ أو فكرٍ مظلم!

يا إلهي! ما هذا ٱلجِسْمُ ٱلمتهدِّمُ ٱلمقْبِلُ على ٱلآخرة؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُهُ، أم تمثالٌ بدأَ تعبيرُه؟

لقد وثِقَتْ أنَّهُ ٱلموت، فكانَ فكرُها ٱلإلهيُّ هو ٱلذي يتكلَّم؛ وكانَ وجهُها كوجْهِ ٱلعابد: عليهِ طيَفُ الصلاةِ ونورُها. والروحُ الإنسانيةُ متى عبَّرتْ لا تُعبِّرُ إلَّا بالوجه.

ولها ٱبتسامةٌ غريبةُ ٱلجمال؛ إذْ هي ٱبتسامةُ آلام أيقنَتْ أنَّها مُوشِكةٌ أنْ تنتهي! ٱبتسامةُ روح لها مثلُ فَرحِ ٱلسجينِ قد رأى سجَّانَهُ واقفاً في يدِهِ الساعةُ يرقُبُ ٱلدقيقةَ والثانيَةَ لِيقولَ له: انطلِقْ!

* * *

ودخلْتُ أعودُها فرأَتْ كأنَّني آتٍ مِنَ ٱلدنيا...! وتَنسَّمَتْ منِّي هواءَ ٱلحياة، كأنَّني حديقةٌ لا شخص!

ومَنْ غيرُ ٱلمريضِ ٱلمُدْنَف[1]، يعرفُ أنَّ ٱلدنيا كلمةٌ ليسَ لها معنًى أبداً إلَّا العافية: مَن غيرُ ٱلمريضِ ٱلْمُشْفي على الموت، يعيشُ بقلوبِ ٱلناسِ الذينَ حولَهُ لا بقلبِهِ؟

تلك حالةٌ لا تنفعُ فيها ٱلشمسُ ولا ٱلهواءُ ولا ٱلطبيعةُ ٱلجميلة، ويقومُ مقامَ جميعِها لِلمريضِ أهلُهُ وأحبَّاؤه!

وكانَ ذَوُوها من رهبةِ ٱلقدرِ ٱلداني كأنَّهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحتَ جدارٍ يُريدُ أنَّ ينقضّ! وكانَتْ قلوبهُم من فزعِها تَنبِضُ نبضاً مثلَ ضَرَباتِ ٱلمَعَاول.

وبٱقترابِ ٱلحبيبِ ٱلمحتَضَرِ مِنَ ٱلمجهولِ، يُصبِحُ مَنْ يحبُّهُ في مجهولٍ آخر، فتختلطُ عليهِ ٱلحياةُ بالموت، ويعودُ في مثلِ حَيرةِ ٱلمجنونِ حينَ يُمسكُ بيدِهِ ٱلظلَّ المتحرّكَ لِيمنعَه أنْ يذهبَ وتَعْروه في ساعةٍ واحدةٍ كآبةُ عمرٍ كامل، تُهيِّئُ لَهُ جلالَ ٱلحِسِّ ٱلذي يشهدُ بِهِ جلالَ الموت!

* * *

---

(١) المدنف: الشديد المرض.

وحانَتْ ساعةُ ما لا يُفْهم، ساعةُ كلِّ شيءٍ، وهي ساعةُ ٱللاشيءِ في ٱلعقلِ الإنسانيّ! فالتفَتَتِ ٱلعروسُ لأبيها تقول: «لا تحزَنْ يا أبي. . .» ولأمِّها تقول: «لا تحزني يا أمّي. . . . !».

وتبسمَتْ لِلدموعِ كأنَّما تُحاولُ أنْ تُكلِّمَها هي أيضاً؛ تقولُ لها: «لا تبكي. . . !» وأشفقَتْ على أحيائِها وهي تموت، فٱستجمعَتْ روحَها لِيبقَى وجهُها حيًّا من أجْلِهم بضعَ دقائق! وقالَتْ: «سأغادرُكُم مبتسمةً فيعيشوا مبتسمين، سأترُكُ تذكاري بينَكم تذكارَ عروس! . . .».

ثُمَّ ذكَرتِ اللَّهَ وذكَّرتْهُم به، وقالَت: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله». وكررتْها عشراً! وتملأتْ روحُها بالكلمةِ التي فيها نورُ السماواتِ والأرض، ونطقَتْ من حقيقةِ قلبِها بالاسمِ الأعظمِ الذي يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأُ حتى وهيَ في أحزانها.

ثُمَّ ٱستقبلَتْ خالقَ ٱلرحمةِ في الآباء والأمهاتِ وفي مثل إشارةِ وداعٍ من مسافرٍ ٱنبعَثَ بهِ ٱلقِطار، ٱلقَتْ إليهم تحيَةً مِنِ ٱبتسامتِها وأسلمَتِ ٱلروح!

٤

يا لَعَجائبِ ٱلقدر! مشيْنَا في جنازةِ ٱلعروسِ التي تُزفُّ إلى قبرِها طاهرةً كالطفلةِ ولم يُبارِكْ لها أحد! فما جاوزْنا ٱلدارَ إلَّا قليلاً حتى أبصرْتُ على حائطٍ في الطريقِ إعلاناً قديماً بالخطِّ الكبيرِ الذي يصيح لِلأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها: «مبروك. . . !».

وٱخترقْنا ٱلمدينةَ وأنا أنظرُ وأتقصَّى[1]، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى! وٱخترقْنا ٱلمدينةَ كلَّها، فلمَّا ٱنقطعَ ٱلعُمرانُ وأشرفْنا على ٱلمقبرة، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان: «مبروك. . . !»

---

(١) أتقصّى: أبحث.

موتُ أمّ

رجعْتُ مِنَ ٱلجنَازةِ بعدَ أنْ غبَّرْتُ قدميَّ ساعةً في ٱلطريقِ ٱلتي ترابُها ترابٌ وأشعة، وكانَتْ في ٱلنعشِ لؤلؤةٌ آدميةٌ محطَّمةٌ، هي زوجةُ صديقٍ طَحْطَحَتْها[1] الأمراضُ ففرّقتْها بينَ عِلَلِ ٱلموتِ، وكانَ قلبُها يُحييها فأخذَ يُهلكُها، حتى إذا دنا أنْ يَقْضِيَ عليها رحمَها ٱللَّهُ فقضَى فيها قضاءَه. ومَنْ ذا ٱلذي ماتَ لَهُ مريضٌ بالقلبِ ولم يَرَهُ من قلبِهِ في عِلَّتِهِ كالعصفورةِ ٱلتي تَهْتَلِكُ تحتَ عيني ثعبانٍ سلَّطَ عليها سمومَ عينيه!

كانَتِ ٱلمسكينةُ في ٱلخامسةِ وٱلعشرينَ من سِنِّها، أمَّا قلبُها ففي الثمانينَ أو فوقَ ذلك؛ هي في سنِّ ٱلشبابِ وهو متهدّمٌ في سنِّ ٱلموت.

وكانَتْ فاضلةً تقيةً صالحةً، لم تتعلَّمْ ولكنَّ علْمَها ٱلتقوى والفضيلة. وأكملُ ٱلنساءِ عندي ليسَتْ هي ٱلتي ملأتْ عينيها مِنَ ٱلكتبِ فهي تنظرُ إلى الحياةِ نظراتٍ تَحِلُّ مشاكلَ وتخلقُ مشاكلَ ولكنَّها تلك ٱلتي تنظرُ إلى الدنيا بعينٍ متلألئةٍ بنورِ ٱلإيمانِ تُقِرُّ في كلِّ شيءٍ معناهُ ٱلسماويّ، فتؤمِنُ بأحزانِها وأفراحِها معاً، وتأخذُ ما تُعطَى من يدِ خالِقِها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة. هذه عندي تُسمَّى ٱمرأة، ومعناها ٱلمعبدُ ٱلقُدسي؛ وتكونُ ٱلزوجةَ، ومعناها ٱلقوةُ المُسْعِدة؛ وتَصيرُ ٱلأمَّ، ومعناها التكمِلةُ الإلهيَّةُ لِصغارِها وزوجِها ونفسِها.

ومهما تبلغ ٱلمرأةُ مِنَ العِلْم فٱلرجلُ أعظمُ منها بأنَّهُ رجل، ولكنَّ ٱلمرأةَ حقَ ٱلمرأةِ هي تلك التي خُلِقَتْ لِتكونَ لِلرجلِ مادةَ ٱلفضيلةِ والصبرِ والإيمان، فتكونُ له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوَّة، أي زيادةً في سرورِهِ ونقصاً من آلامِه.

ولنْ تكونَ ٱلمرأةُ في الحياةِ أعظمَ مِنَ الرجلِ إلّا بشيءٍ واحد، هو صفاتُها التي تجعل رجُلَها أعظمَ منها.

* * *

(١) طحطحتها: أنهكتها.

ومشيْتُ مِنَ ٱلبيتِ ٱلذي ألبستْهُ ٱلميتةُ معنى ٱلقبر، إلى القبرِ الذي ألبسَ ٱلميتةَ معنى ٱلبيت وأنا منذُ مشيْتُ في جنازةِ أمِّي (رحمَها ٱللهُ) لا أسيرُ في هذه الطريقِ معَ ٱلأحياء، ولكنْ مَعَ ٱلموتى، فأتبعُ مِنَ الميتِ صديقاً ليسَ رجلاً ولا ٱمرأة، لأنَّهُ من غيرِ هذه الدنيا؛ وأمشي في ساعةٍ ليسَتْ ستينَ دقيقةً، لِأنَّها خرجَتْ مِنَ ٱلزمنِ؛ ولا أرى الطريقَ من طرقِ ٱلحياة، لِأنَّني في صُحبةِ ميت؛ وتُصبحُ لِلأرضِ في رأيي جغرافيَّةٌ أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لِشدَّةِ وضوحِها، كالألوهيَّةِ خفيَتْ من شدَّةِ ما ظهرَتْ.

يقولون: إنَّ ثلاثةَ أرباعِ ٱلأرضِ يَغمُرها ٱلبحر. أمَّا أنا فأرى في تلك ٱلساعةِ أنَّ ثلاثة أرباعِ ٱلأرضِ لا يغمرُها البحرُ ٱلذي وصفوا، ولكنْ خِضَمٌّ آخرُ زخَّارٌ[1] مُتَضرِّب، هو ذلك البحرُ الترابيُّ ٱلعظيمُ ٱلمسمى «المقبرة».

يقولون: إنَّ الحياةَ هي. . . هي ماذا - ويْحَكُم - أيُّها المغرورون؛ أفلا تَرَون هذه الصِّلَةَ الدائمةَ بين بطنِ ٱلأمِّ وبطنِ ٱلأرض؟

* * *

لَعَمْري كيف تجعلُ هذه الحياةُ لِلناس قلوباً معَ قلوبِهِم، فيُحِسُّ ٱلمرءُ بِقلْب، ويعملُ بقلبٍ آخر: يعتقدُ ضررَ ٱلكذبِ ويكذب، ويعرفُ مَعَرَّةَ ٱلإثم ويأثم، ويُوقِنُ بعاقبةِ ٱلخيانةِ ثُمَّ يخون؛ ويمضي في ٱلعمرِ منتهياً إلى ربِّه، ما في ذلك شكّ، ولكنَّهُ في ٱلطريقِ لا يعملُ إلَّا عملَ من قد فرَّ من ربِّه. . .؟

هبَّتِ ٱلريحُ في ٱلسَّحَرِ على روضةٍ غَنَّاءَ فطابَتْ لها، فعقدَتْ عُقدتَها أنْ تتخِذَ لها بيتاً في ذلك ٱلمكانِ ٱلطيِّبِ لِتُقيمَ فيه. . . يا لها حكمةً مِنَ التدبير! تزعمُ ٱلريحُ الإقامةَ على حينِ كلُّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها، وتحلُمُ بالقَرارِ في ٱلبيتِ وهي لا تملِكُ بطبيعتِها أنْ تقف.

يا لها حكمةً سامية، لا يسكنُها مِنَ ٱلمعنى إلَّا أسخفُ ما في ٱلحُمق!

* * *

هَمَدَ الحيُّ وٱنطفأَتْ عيناه، ولكنَّه تحرَّكَ في تاريخِهِ مِمَّا ضيَّقَ على نفسِهِ أو وَسَّع، وأصبَحَ ينظرُ بعينٍ من عملِهِ إمَّا مُبْصِرةٍ أو كالعمياء؛ فلو تكلَّمَ يَصِفُ ٱلحياةَ ٱلدنيا لقال: إنَّ هذه النجومَ على الأرضِ مصابيحُ مأتمِ أُقيمَ بليل. وما أعجبَ أنْ يجلسَ أهلُ ٱلمأتمِ في ٱلمأتمِ ليضحَكُوا ويلعبوا!

---

(١) زخّار: ملىء بالحركة والضجة.

ولو نطقَ ٱلموتى لَقالوا: أيُّها الأحياء، إنَّ هذا الحاضرَ ٱلذي يمرُّ فيكونُ ماضيَكم في ٱلدنيا، هو بعينهِ ٱلذي يكونُ مستقبلَكُم في ٱلآخرة، لا تزيدون فيهِ ولا تُنقِصون. وإنَّ الدنيا تبدأُ عندَكم منَ الأعلى إلى الأدنى: منَ ٱلعظماءِ إلى الفقراء؛ ولكنَّها تنقلبُ في ٱلآخرةِ فتبدأُ مِنَ الفقراءِ إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ ٱلمطامعِ وٱلحظوظ، ويرسمُها ٱللّهُ بخطوطِ ٱلحِرْمانِ وٱلمُجاهدة؛ إنَّ التامَّ على الأرضِ مَن تمَّ بمتاعِها ولذَّاتِها، ولكنَّ ٱلتامَّ في السماءِ مَنْ تمَّ بنفسِهِ وحدَها.

* * *

يا أسفاً! لنْ يقولَ ٱلميتُ لِلْحيِّ شيئاً، ومَنْ يدري؟ لعلَّنا ونحن نُلْحِدُ لِلموتى ونُنزِلُهُم في قبورِهم، يَرونَ بأرواحِهِمُ ٱلخالدةِ أنَّنا نحن موتاهمُ ٱلمساكين، وأنَّنا مدفونون في ٱلقبر الذي يسمونَهُ «الكرة الأرضية»! وهلِ ٱلكرةُ الأرضيةُ مِنَ اللانهايةِ إلَّا حفرةٌ برجْلِ نملةٍ لِتُدْفَنَ فيها نملة...

الحياة.. أتُريدُ أنْ تعرفَها على حقيقتِها؟ هيَ ٱلمُبْهَماتُ ٱلكثيرةُ ٱلتي ليسَ لها في الآخِرِ إلَّا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

* * *

ورجعْنا معَ ٱلصديقِ إلى بيتِه، ولَهُ خمسةُ أطفالٍ صِغارٍ لو أنَّهم همُ ٱلذينَ ٱنتُزِعوا من أمِّهِم لَتَركَ كلٌّ واحدٍ على قلبِها مثلَ المِكْواةِ المحمّى عليها في النارِ إلى أنْ تحمَرَّ؛ ولكنَّ أمَّهم هي ٱلتي نُزِعَتْ منهم، فكانَ بقاؤهُم في ٱلحياةِ تخفيفاً لِسَكْرةِ ٱلموتِ عليها. وغَشِيَتْها ٱلغَشيةُ فماتَتْ وهي تضحك، إذْ تراهم نائمينَ تحتَ جَناحِ ٱلرحمةِ ٱلإلهيَّةِ ٱلمَمْدود، وقالَت: إنَّها تسمعُ أحلامَهم. وكانوا همْ عقلَها في ساعةِ ٱلموت!

تباركَ ٱلذي جعلَ في قلبِ ٱلأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو، ودنيا من خَلْقِ أولادها!

تباركَ الذي أثابَ ٱلأمَّ ثوابَ ما تُعاني، فجعلَ فرحَها صورةً كبيرةً من فرحِ صغارِها!

* * *

وجاءَ أكبرُ الأطفالِ ٱلخمسة، وكأنَّهُ ثمانيةُ أرطالٍ مِنَ ٱلحياةِ لا ثمانيةُ أعوامٍ مِنَ ٱلعمر؛ جاءَ إلينا كما يجيءُ الفزَعُ لِقلوبٍ مطمئنَّة، إذْ كانَ في عينيهِ الباكيتينِ معنى فقدِ الأمّ!

وطغَتْ عليهِ ٱلدموعُ فتناولَ منديلَهُ ومسحَها بيدِهِ ٱلصغيرة، ولكنَّ روحَهُ

اليتيمةَ تأبى إِلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يُتْمِها!

وظهرَ ٱلانكسارُ في وجهِهِ يعبِّرُ بِبَلاغةٍ أنَّهُ قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِهِ وطفولتِهِ بإزاءِ ٱلمصيبةِ ٱلتي نزلَتْ بهِ، وجلسَ مستسلِماً تُتَرْجِمُ هيئتُهُ معانيَ هذه الكلمة: «رِفْقاً بي!».

ثُمَّ تطيرُ من عينيهِ نظراتٌ في ٱلهواءِ، كأنَّما يُحسُّ أنَّ أمَّهُ حولَهُ في ٱلجوِّ ولكنَّه لا يراها!

ثُمَّ يُرخِي عينيهِ في إغماضةٍ خفيفةٍ، كأنَّما يرجو أنْ يرى أمَّهُ في طَوِيَّتِهِ![1]

ولا يُصَدِّقُ أنَّها ماتت، فإنَّ صوتَها حيٌّ في أذنيهِ لا يزالُ يسمعُهُ من أمس!

ثُمَّ يعودُ إلى وجهِهِ ٱلانكسارُ وٱلاستسلام، ويتململُ في مجلسِه، فينطُقُ جسمُهُ كلُّهُ بهذه الكلمة: «يا أمِّي!».

* * *

أحسَّ ـ ولا ريبَ ـ أنَّهُ قد ضاعَ في ٱلوجود، لأنَّ الوجودَ كانَ أمَّه.

ولمسَ خشونةَ الدنيا منذُ ٱلساعة، بعدَ أنْ فقدَ ٱلصدرَ الذي فيهِ وحَدهُ لِينُ ٱلحياةِ لأنَّ فيهِ قلبَ أمِّهِ وروحَها.

وشعرَ بالذلِّ ينسابُ إلى قلبِهِ ٱلصغير، لأنَّ تلك التي كانَ يملكُ فيها حقَّ الرحمةِ قد أُخِذَتْ منهُ وتركَتْهُ بِلا حقٍّ في أحد؛ وليسَ لأحدٍ أمَّان!

ولبِسَتْهُ ٱلمسكنَةُ، لأنَّ لَهُ شيئاً عزيزاً أصبحَ وراءَ الزمانِ فلَنْ يَصِلَ إليه!

ولبستْهُ ٱلمسكنَةُ، لأنَّه صارَ وحدَهُ في ٱلمكانِ كما هو وحدَهُ في الزمان!

وٱرتسمَ على وجهِهِ ٱلتعجُّب، كأنَّهُ يسألُ نفسَه: «إذا لم تكنْ أُمِّي هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثُمَّ تَغَرْغَرَتْ[2] عيناهُ فيُخرجُ منديلَهُ ويمسحُ دمعَهُ بيدِهِ ٱلصغيرة، ولكنّ روحَهُ اليتيمةَ تأبى إِلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يُتْمِها!

* * *

ونهضَ ٱلصغيرُ ولم ينطقْ بذاتِ شَفَة؛ نهضَ يحملُ رجولَتَهُ التي بدأَتْ منذُ الساعة!

---

(١) طويته: سريرته داخله.

(٢) تغرغرت: دمعت.

انتهَتْ ـ أيُّها الطفلُ المسكينُ ـ أيامُك مِنَ الأمّ؛ هذه الأيامُ ٱلسعيدةُ ٱلتي كنْتَ تعرفُ الغَدَ فيها قبلَ أنْ يأتِيَ معرفتَك أمسِ الذي مضى؛ إذْ يأتي الغدُ ومَعكَ أمُّك!

وبدأتْ ـ أيُّها ٱلطفلُ ٱلمسكين ـ أيامُك مِنَ ٱلزمن، وسيأتي كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً؛ إذْ يأتي لك وحدَك، ويأتي وأنت وحدَك!

الأمّ. . .؟ يا إلهي، أيُّ صغيرٍ على الأرضِ يجِدُ كِفايتَهُ مِنَ ٱلروحِ إلّا في ٱلأمّ؟

قصةُ أب

حدَّثَني ٱلمسكينُ فيما حدَّثَ وهو يصفُ ما نزلَ بهِ قال:

رأيْتُ ٱلناسَ قد أنعمَ ٱللَّهُ عليهم أنْ يكونوا آباءَ فَنَسَأَ[1] بالولَدِ في آثارِهم، ومدَّ بالنسلِ في وجودِهم، وزادَ منه في أرواحِهم أرواحاً، وضمَّ بهِ إلى قلوبِهم قلوباً، وملأَ أعينَهم من ذلك بما تَقرُّ بهِ قُرَّةَ عينٍ كانَتْ لم تَجِدْ ثُمَّ وجَدَت؛ فهم بهؤلاءِ ٱلأطفالِ يملكونَ ٱلقوّةَ التي تُرجِعُهُمْ أطفالاً مثلَهُمْ في كلِّ ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهم وإنْ كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهم وإنْ كانَ في ذاتِ نفسِه ضئيلاً صغيراً، ويعظُمُ ٱلأملُ في أشيائِهم وإنْ كانَ هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤْبَهُ[2] له.

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ ٱلسعادةِ لا أسْمَى ولا أعظمَ منها إلَّا الحقيقةُ ٱلأخرى: وهيَ ٱلقوةُ ٱلتي يتحوّلُ بها ٱلكونُ في قلبِ ٱلوالدينِ إلى كنزٍ مِنَ ٱلحبِّ والرحمةِ وجمالِ ٱلعاطفةِ، بسحْرٍ مِن ٱبتسامةِ طفلٍ أو طِفْلَة، أو بكلمةٍ منهما أو حركة، على حينٍ لا يتحوّلُ مثلَ ذلك ولا قريباً منه بمالِ ٱلدنيا، ولا بِمُلكِ ٱلدنيا.

رأيْتُ ٱلناسَ قد أنعمَ ٱللَّهُ عليهم أنْ يكونوا آباءَ، ولكنَّهُ ٱبتلاني بأنْ أكونَ أباً، وأخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي! ولقد كنْتُ كرجلٍ ملكَ داراً يستمتِعُ بها، فتمنّى أنْ يُشْرِعَ[3] في جانِبٍ منها غرفةً يزَخرِفُها، فلمَّا تمَّ لَهُ ذلك وبلغَ ٱلمقْتَرَحَ، ٱنهدمَتِ ٱلدارُ وبقيَتِ ٱلغرفةُ قائمة!

عَمْرَكَ اللَّهُ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبتِهِ بالغرفةِ أم بالدار؟ وهل تراهُ زادَ أو نَقص؟ ويا ليتَهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت؛ فإنَّ الحِجارةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتَتْ بالهدم، ولكنْ مَنْ ذا يُحيي ٱلزوجةَ ماتَتْ بعدَ أنْ وضعَتْ بِكرَها الأولَ والآخِر!

إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأنَّما أُخرِجتْ من تحتِ ٱلرَّدمِ، إذْ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ منَ

(١) نسأ: زاد.

(٢) يؤبه: يهتمّ، يلتفت إليه.

(٣) أي أن يفتتح غرفة تؤدّي إلى الشارع.

ٱلحياةِ منهدِم، وهل فرقٌ بينَ هذا وبينَ أنْ تكونَ أمُّها قد ولدَتْها في ٱلصحراءِ ثُمَّ أُكرِهَتْ أنْ تدعَها وحدَها في ذلك القَفْرِ تصرخُ وتبكي! فالمسكينةُ على الحالينِ منقطعةٌ أولَ ما ٱنقطعَتْ من حنانِ ٱلأمِّ ورحمتِها.

طفلةٌ وُلدَتْ صارخةً، لا صرخةَ ٱلحياة، ولكنْ صرخةَ النوْحِ والندْبِ على أمِّها.

صرخةٌ حزينةٌ معناها: ضعوني معَ أمّي ولو في ٱلقبر!

صرخةٌ ترتعِدُ، كأنَّ المسكينةَ شعرَتْ أنَّ الدنيا خاليةٌ مِنَ ٱلصدرِ ٱلذي يُدفئُها!

صرخةٌ تترددُ في ضَرَاعة[1]، كأنَّها جملةٌ مركَّبةٌ من هذه الكلمات: «يا ربِّ ٱرحمني من حياةٍ بلا أمّ!».

* * *

قالَ ٱلمسكينُ وهو يبكي ٱمرأتَه:

ولـمَّا ضَرَبها ٱلمخاضُ، ضاعفَتْ قوَّتَها من شعورِها أنَّها ستكونُ بعدَ قليلٍ مضاعَفَةً بمولودِها، وستكونُ روحينِ لا روحاً واحدة، وتَلِدُ ليَ ٱلحياةَ والحُبَّ الإلهيَّ معاً، وتأتي لِقلبي بمثلِ طفولتِهِ ٱلأولى ٱلتي يستحيلُ أنْ تأتيَ الرجلَ إلَّا من زوجِه. كلُّ ذلك ضاعفَ قواها ساعةً وشدَّ منها؛ ولكنْ ما أسرعَ ما تبيَّنَتْ أنَّهُ الموتُ، إذْ عُضِّلَتْ وعَسُرَ خروجُ مولودِها.

وجاءَها ٱلجراحِيُّ بمبْضعِه، وكأنَّها رأتْهُ ذابحاً لا طبيباً، فجعلَتْ تعبِّرُ بعينيها، إذْ لم تملكْ في آلامِها القاتلةِ غيرَ لغةِ هاتينِ ٱلعينين.

كانَتْ بنظرةٍ تبكِي عَلَيّ وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤسِ مولودِها وشقائِه؛ وبنظرةٍ تُودّعُني، وبأخرى تدعو ٱللَّهَ لي جزاءَ ما أحسنْتُ إليها؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لِنفسِها، وبأخرى تتألمُ من أنَّها تراني أكادُ أُجَنّ.

نظرات نظرات...

يا إلهي! لقد خُيِّلَ إليّ أنَّ ملَكَ ٱلموتِ واقفٌ بينَ عشرينَ مرآةً تُحيطُ بهِ، فأنا أراهُ مَوْتاً متعدِّداً لا موتاً واحداً، وكلُّ نظرةٍ من عينيْ زوجتي إليّ كانَتْ منها هي نظرةً، وكانَتْ عندي أنا مرآةَ ٱلروحِ لِلروح.

---

(١) ضراعة: توسّل.

ولكنَّها لم تنسَ أنَّها تموتُ لِوَضْعِ مولودِها، وأنَّ هذه الآلامَ الدمويَّةَ الذابحةَ هي ٱلوسيلةُ لأنْ تتركَ لي بقيَّةً حيَّةً منها؛ فيا لَلرحمةِ والحنانِ والحُبِّ! لقدِ ٱبتسمَتْ لي وهي تموت؛ وهي تَلِد؛ وهي تُذبَح!

* * *

ليسَتْ رحمةُ ٱلمرأةِ ٱلمحبَّةِ خيالاً إلَّا إذا كانَتْ حرارةُ ٱلشمسِ التي تُحيي ٱلدنيا خيالاً أيضاً؛ إنَّ هذا القلبَ النِّسويَّ ٱلمستقرَّ فوقَ أحشاءٍ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرِحةً بآلامِها، وتغذوهُ وتُقاسِمُهُ حياةَ نفسِها ـ هذا القلبُ يحملُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فرِحاً بآلامِه، ويغذوهُ ويُقاسمُهُ حياةَ نفسِه.

ولِلرحمةِ الإلهيَّة أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تَطْعَمُهُ ٱلحياة، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تتنفَّسُهُ الحياة، والماءُ يدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تَشربُهُ الحياة، وهكذا إلى أنْ يأتيَ في الآخرِ قلْبُ المرأةِ فيدلُّ على رحمةِ اللّهِ بالحبِّ الذي تقومُ بِهِ ٱلحياة.

اِبتسامةُ الحُبِّ غالبَتْ زفراتِ ٱلموتِ ٱلتي تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها، وأعادَتِ ٱلحياةَ لحظةً إلى وجهِ زوجتي لِأراها آخرَ ما أراها في صورةِ المُحبَّةِ لي، فكانَ كلُّ جمالِ نفسِها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرَتْ فيهِ روحُها وعواطِفُها تودِّعُني وداعاً حزيناً متبسماً يتكلَّم؛ يتكلمُ بعجزِهِ عنِ ٱلكلام.

اِبتسامةٌ لا ريبَ أنَّ فيها أشياءَ ليسَتْ من جمالِ هذه الدنيا ولا من حقائِقها؛ فكأنَّما ٱلتمعَتْ بأشعةٍ مِنَ الخُلْدِ تَرِفُّ رفيفَها على وجهِ ٱلحبيبِ لِيُظهِرَ ساعةَ الموتِ أنَّ حبَّهُ أقوى مِنَ ٱلموت.

* * *

قالَ المِسكين: ونثَر ٱلطبيبُ ذا بطْنَها فكانَتْ طِفلة، وما كانَتْ زوجتي تقترحُ أنْ يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانَتْ مستيقنةً أنَّها تضعُها أنثى، وصنَعتْ لها ثيابَها، ووشَّتْها بزينةِ ٱلأنوثة، وعرضَتْ أسماءَ البناتِ فٱختارَتِ ٱسمَها أيضاً، وكنْتُ أكرهُ ذلك منها وأريدُ ولداً لا بِنتاً، فكانَتْ تُغايظُني بعملِها وإصرارِها غيظَ دُعابةٍ لا غيظَ جَفَاء.

ومَضَتْ لا تذكرُ إلَّا بنتَها مدةَ الحَمْل، ولا تتكلمُ إلَّا عن بنتِها، وقد كنْتُ أعجبُ لذلك؛ فلمَّا قضى ٱللّهُ فيها قضاءَه، علمْتُ أنَّ ذلك أمرٌ من أمرِ ٱلروح، فكانَ ٱلإلهامُ فيها أنَّها على بابِ قبرِها، وأنَّها لن ترى طِفلتَها، ولن تعيشَ لها،

فعاشَتْ أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها: تضمُّ ثيابَها إلى صدرِها وتحملُها على يدِها، وتُناغيها وتُقبِّلُها، وتأخذُها مِنَ ٱلوهْمِ وتردُّها إليه؛ وكذلك نَعِمَتِ ٱلمسكينةُ بالمسكينة!

لكِ اللّهُ يا معجزةَ الرحمة، يا نفسَ الأم!

* * *

ولمَّا قيل: ماتت. جعلَ يكلِّمُني ٱلمتكلمُ ولا أعقِل؛ فإنَّ الكلمةَ التي تأتي بالمصيبةِ المتوقَّعَةِ طالَ ٱرتقابُها، لا تأتي بمعانٍ لغوية كغيرِها مِنَ ٱلكلام، بلْ بأسلحةٍ تَضربُ في ٱلنفسِ وفي العقل، وتُثْخِنُها جِراحاً وفتْكاً.

وجعلني موتُها كأنّي ميتٌ يحملُ نفسَهُ، ما حولَهُ إلّا المشيّعون؛ وأحسسْتُ كأنَّ قوةً أخذَتْ بإحدى رجليَّ فوضعَتْها في الآخرةِ وتركتِ الثانيةَ في الدنيا، ولَحِقَنِي من الجزعِ ما اللّهُ عالمٌ بهِ، وَوجِدْتُ أحْرَقَ ٱلوجْد، وبكيْتُ أحرَّ البكاء؛ وجعلَتْ أفكاري تنحدرُ من رأسي إلى حلْقي فأختنقُ بها ثُمَّ لا يُنفِّسُ عنّي إلّا الدمع، كأنَّ أعضائي ٱختلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي مِنَ ٱلحزن، فأنا أتنفسُ برئتيّ وعينيّ.

بموتِها شعرْتُ بها؛ ولعلَّهُ من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذةِ ٱلحُبِّ كاملةً إلّا في آلامِ ٱلحُبِّ وحدَها، وكانَتْ في حياتِها تضعُ من روحِها في سروري، وهذا هو سرُّ ٱلمرأةِ المحبوبة: يجدُ مُحبُّها في كلِّ سرورٍ لَمحاتٍ روحانيَّة؛ وكذلك فعلَتْ بعدَ موتِها، فجعلَتْ روحَها في أحزاني؛ ولولا أنَّ روحَها في أحزانِي لَقتلتْني ٱلمصيبة.

وكنْتُ أدْلِفُ[1] وراءَ النعشِ وقد بَطَلَ في نفسِي ٱلشعورُ بالدنيا، وكانَ ٱلناسُ يمشُون حَوْلي بِمَا فيهم مِنَ ٱلحياة، وكانوا ذاهبينَ إلى المقبرةِ على أنَّهم سائرونَ كما يذهبون إلى كلِّ مكان؛ أمَّا أنا فكنْتُ أمشي بِمَا فيَّ مِنَ ٱلحُبِّ منكسِراً منْخذِلاً متَضَعْضِعاً، لِأنّي وحدي سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق.

وثَقُلَ الناسُ على قلْبي، ورجعَ كلُّ أمرِهِم عندي إلى العَيبِ والنقيصة، إذْ كانَ لي عقلٌ طارئٌ مِنَ الحالةِ التي أنا فيها ليسَ مثلُهُ لِأحدٍ منهم، وكنْتُ وحدي ٱلمصابَ بينهم، فكنْتُ وحدي بينهمُ ٱلعاقل.

أنا أمشي لِأنتهيَ إلى آخرِ مُصيبتي، وهم يمشَون لِينتهوا إلى آخرِ الطريق؛ وشَتَّانَ[2] ما نحن وشتَّان!

---

(١) دلف: مشى.

(٢) شتّان: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعُدَ.

ولمّا رأيتُ قبرَها ٱبتدرَتْ عينايَ تنظرانِ بالدموعِ لا بالنظَر، ورأيتُ الترابَ كأنَّهُ غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوانِ السحُبِ الداكنةِ تتهيَّأُ في سمائِها تحتَ الظلام لِتُخْفِيَ كوكباً مِنَ الكواكب؛ وظهرَ لِيَ ٱلقبرُ كأنَّهُ فَمُ ٱلأرضِ يُخاطبُ الإنسانَ بحزم صارم، يُخاطبُ الفقيرَ والغنيّ، والضعيفَ والقويّ، والملوكَ والصعاليك: «أنَّ كلَّ قوةٍ تُنزَعُ هُنا».

* * *

قال المسكين: وكما يجدُ الإنسانُ في أيَّامِ ٱلمطرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِّ بِالماء، كنتُ أستَرْوِحُ[1] في رَجْعتي إلى الدارِ رائحةَ نسيم مبتلٍّ بالدموع؛ وحضَرْتُ المأتَم وعزّاني الناسُ، فكنتُ فيهم كالمأسورِ بينهم: لا أتمنَّى إلَّا أنْ يَدَعوني فأنجوَ على وجهي، ولا أرى إلَّا أنَّهم يجرِّعونني الوجودَ غُصَصاً كما تجرعْتُ الفقدَ غُصةً غُصة؛ إلى أنْ تفرقوا معَ سوادِ الليل فٱنكفأْتُ إلى الدار، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّرَ ولمسَهُ الموتُ لَمْسَة، وإذا ٱلدارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء: ما ثَمّ شيءٌ إلَّا لِيطالِعَني بأنّ مسراتي قد ماتت!

ولاحَ ٱلصبحُ لعينيَّ ٱلساهرتين صُبْحاً فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجل، كأنَّهُ يقول: «لم أطلُعْ لك»، فانسللْتُ مِنَ ٱلبيت، وذهبْتُ أمشي في دنيا هي ٱلكآبةُ المضيئةُ سَخِرَتِ ٱلأقدارُ منها بإظهارِها في هذا الضوءِ مَظهرَ وجهِ العجوزِ المُتصابيةِ في زِينةٍ لا تزيدُها إلَّا قبحاً!

ومضيْتُ على وجهي لا غايةَ لي، أضرِبُ في كلِّ جهةٍ كأنَّما أُريدُ أنْ أهربَ من نفسي! وما خطرَ لي قطّ أنّي في يوم جديد، بلْ كنْتُ عندَ نفسي لا أزالُ أمس، وتغيَّرَ عندي الزمانُ والمكان: فأحدُهما ساعةُ موتٍ لا تتركُ ما فيها، والآخرُ قبرُ ميِّتةٍ لا يردُّ ما فيه.

آهِ مِنَ ٱلوقتِ ٱلذي ينتهي فيهِ ٱلموجودُ لِيعذِّبَنا بالتذكُّرِ أنَّهُ كانَ موجوداً!

* * *

قالَ المسكينُ ثُمَّ أعادتني قدمايَ إلى البيتِ لأرى طِفلتي - وما كنْتُ رأيْتُها - ولقد كانَتْ وِلادتُها أولَ الحياةِ لها، وأولَ الحياةِ لي أيضاً؛ إذْ لولاها لٱنتحرْتُ غيرَ شكّ.

يا ويلَتا! لم تلتقِ عيني بعينِ الطفلةِ حتى ٱنفجَرتْ تبكي. أتبكينَ لي يا ٱبنتي أمْ عليّ؟

(١) أستروح: أشمّ.

أهذا بكاؤُكِ أيتُها ٱلمسكينة، أمْ هو صوتُ قلبِكِ ٱليتيم؟

أصوتُكِ أنتِ، أم هي روحُ أمِّكِ تصرخُ ترثِي لي، وتتوجعُ لِفرْطِ ما قاسيْت!

يا ٱبنتي، إنَّما أنتِ ٱلحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجَتْ لي من كلِّ تلك الخيالاتِ الشعريَّةِ الجميلة، خيالاتِ الأيامِ السعيدةِ التي مرَّت!

يُخلَقُ المواليدُ مِنَ ٱللَّحمِ وٱلدم! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلقْتِ مِنَ ٱللحم وٱلدمِ وٱلدموع!

بقيةُ حياةٍ ماتَت! فهلْ معنى ذلكِ إلَّا أنَّك بقيةُ موتٍ يحيا؟

مسكينة، مسكينة؛ لو أنَّ نواميسَ العالَم متغيرةٌ لِشيءٍ لَتغيَّرَتْ من أجلِ بؤسِكِ فردَّتْ لَكِ ٱلأمّ؛ ولكنَّها لنْ تتغيَّر، وما بكاؤُنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثُ[1] ٱلحياةِ في أجسامِنا الأرضيَّة، كلُّ ذلك طبيعةٌ ولكنَّ بقعةً أنظفُ من بقعة، وأراكِ يا ٱبنتي كالبيتِ الذي هُدِمَ أوّلَ ما بُني يملؤُهُ ترابُه!

لنْ تتغيَّرَ النواميس، فلنْ تَجدي عطفَ الأمّ، ولكنْ لنْ يتغيَّرَ قلبي أيضاً، فلن تُحرمي عطفَ ٱلأب.

وإذا صبرَ ٱلناسُ على ٱلحياةِ فمِنْ أجلِكِ يا مسكِينة! من أجلِ ضعفِكِ وٱنقطاعِكِ سأُعاني الصبرَ لك، وأُعاني الصبرَ لي، وأعانِي الصبرَ عن أمِّك، سأصبرُ على الصبرِ نفسِه!

يا ٱبنتي، يا ٱبنتي، لماذا وضَعَتْكِ ٱلأقدارُ من هذه الحياةِ في الناحيةِ التي ليسَ فيها إلَّا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمِّكِ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامِه؟

* * *

قال المسكين: وهكذا كُتِبْتُ من أهلِ البؤسِ والهمّ، فلمْ أتزوجْ إلَّا لِتصنعَ لي حبيبي دموعي، ثُمَّ لم تَمُتْ إلَّا بعدَ أنْ تركَتْ لي حبيبةً أخرى ستظلُّ زمناً طويلاً تصنَعُ لي دموعي!

---

(١) تراث: وراثة.

السَّمكة

حدَّثَ أحمدُ بْنُ مِسكينِ ٱلفقيهُ ٱلبَغداديُّ قال: حصَلْتُ في مدينةِ (بَلْخ) سنةَ ثلاثينَ ومائتين، وعالِمُها يومئذٍ شيخُ خُراسانَ أبو عبدِ ٱلرحمنِ ٱلزاهدُ صاحبُ ٱلمواعظِ وٱلحِكَم؛ وهو رجل قلبُهُ من وراءِ لِسانِهِ، ونفسُهُ من وراءِ قلْبِه، وٱلفَلَكُ الأعلى من وراءِ نفسِه، كأنَّهُ يُلَقَّى عليهِ فيما زعموا.

وكانَ يُقَالُ لَهُ عندَهم: (لُقمانُ هذه الأمَّة)؛ لِمَا يُعجبُهُم من حِكَمِهِ في ٱلزهدِ وٱلموعظة، وقد حضرْتُ مجالسَهُ وحفظْتُ من كلامِهِ شيئاً كثيراً، كقولِه: مَنْ دخلَ مذهبَنا هذا (يعني الطريق) فَلْيجعلْ على نفسِهِ أربعَ خِصالٍ منَ الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فٱلموتُ ٱلأبيضُ ٱلجوع، وٱلموتُ ٱلأسودُ ٱحتمال الأذى، وٱلموتُ الأحمرِ مُخالفةُ النفس، وٱلموتُ الأخضرُ طرحُ ٱلرِّقاعِ بعضِها على بعض (يعني لبسَ ٱلمرقعةِ والخَلَقِ مِنَ ٱلثياب).

وقلْتُ يوماً لِصاحبِهِ وتلميذِهِ (أبي تُراب) وجارَيْتُهُ في تأويلِ هذا الكلام: قد فهِمْنَا وجهَ ٱلتسميةِ في ٱلموتِ الأخضرِ ما دامَتِ المرقعةُ خضراء؛ فما الوجهُ في الأبيضِ والأسودِ والأحمر؟ فجاءَ بقولٍ لم أرضَه، وليسَ معَهُ دليل، ثُمَّ قال: فما عندَك أنت؟ قلْتُ: أمَّا ٱلجوعُ فيُميتُ ٱلنفسَ عن شهواتِها ويتركُها بيضاءَ نقيَّة، فذلك ٱلموتُ الأبيض؛ وأمّا ٱحتمالُ ٱلأذى فهو ٱحتمالُ سوادِ ٱلوجهِ عندَ ٱلناس، فهو ٱلموتُ ٱلأسود؛ وأمَّا مُخالفةُ ٱلنفسِ فهي كإضرامِ ٱلنارِ فيها، فذاكَ ٱلموتُ الأحمر.

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ ذاتَ نهارٍ في مسجدِ (بلْخ) والناسُ مُتَوافِرونَ[1] ينتظرون (لُقمانَ الأمة) ليسمعوه، وشغَلَه بعضُ الأمرِ فراثَ[2] عليهم، فقالوا: مَنِ يَعِظُنا إلى أنْ يجيءَ الشيخ؟ فالتفتَ إليَّ أبو ترابٍ وقال: أنت رأيْتَ الإمامَ أحمدَ بْنَ حَنبل، ورأيْتَ بِشْراً ٱلحافِيَ وفلاناً وفلاناً، فقُمْ فحدِّثِ ٱلناسَ عنهم، فإنَّما هؤلاءِ وأمثالُهم هم بقايا النبوَّة. ثُمَّ أخذَ بيدي إلى الأسطوانةِ ٱلتي

(١) متوافرون: كثر.

(٢) راث: تأخَّر.

يجلسُ إليها إمامُ خُراسانَ فأجلسني ثَمَّةَ[1] وقعدَ بينَ يديّ.

وتطاولَتِ ٱلأعناق[2]، ورماني ٱلناسُ بأبصارِهِم[3]، وقالوا: البَغداديّ! البغداديّ! وكأنّما ضُوعِفَتْ عندَهم بمجلسي مرةً وبنسبْتي مرةً أخرى، فقلْتُ في نفسي: ـ واللّهِ ـ ما في ٱلموتِ ٱلأحمرِ ولا ٱلأخضرِ ولا ٱلأسودِ موعظة، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسدَ شعرُ هذه الألوانِ معناه، وإنّما يجبُ أنْ يكونَ كما يجبُ أنْ يكون؛ ولا موعظةَ في كلام لم يمتلىءْ من نفسِ قائلِهِ، لِيكونَ عملاً فيتحوّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً ولا يبقَى كلاماً؛ وإنَّه ليسَ ٱلوعظُ تأليفَ ٱلقولِ لِلسامعِ يسمعُه، لكنَّهُ تأليفُ النفسِ لِنفسٍ أخرى تراها في كلامِها، فيكونُ هذا الكلامُ كأنّهُ قرابةٌ بينَ النفسين، حتى لَكأنَّ الدمَ المتجاذِبَ يجري فيهِ ويدورُ في ألفاظِه.

* * *

وكنْتُ رأيْتُ رؤيا (ببلخ) تتَّصلُ بقصةٍ قائمةٍ في بغداد، فقصصْتُها عليهم، فكانَتِ ٱلقصةُ كما حكيْتُها: أنّي ٱمتُحِنْتُ بالفقرِ في سنةِ تسعَ عشرةَ ومائتين؛ وٱنحَسَمَتْ مادتي[4] وقَحِطَ منزلي قَحطاً شديداً جمعَ عليَّ ٱلحاجةَ وٱلضُّرَّ وٱلمسكنَة؛ فلوِ ٱنكمشَتِ ٱلصحراءُ ٱلمُجدِبةُ فصَغُرتْ ثُمَّ صغُرَتْ حتى ترجعَ أذرُعاً في أذرع، لَكانَتْ هي داري يومئذٍ في محلَّةِ بابِ البَصرةِ من بغداد.

وجاءَ يومٌ صَحْراويٌّ كأنّما طلعَتْ شمسُهُ من بينِ ٱلرملِ لا من بينِ السُّحُب، ومرَّتِ ٱلشمسُ على داري في بغدادَ مرورَها على الورقةِ الجافَّةِ المعلَّقةِ في ٱلشجرةِ ٱلخضراء؛ فلم يكنْ عندَنا شيءٌ يُسيغُهُ حَلْقُ آدميّ، إذْ لم يكنْ في ٱلدارِ إلّا ترابُها وحِجارتُها وأجذاعُها؛ وليَ ٱمرأةٌ ولي منها طفلٌ صغير، وقد طَوَيْنَا على جوعٍ يَخْسِفُ[5] بالجوفِ خَسفاً كما تَهْبِطُ الأرض؛ فَلَتَمنَّيْتُ حينئذٍ لو كنّا جُرْذاناً فنَقْرِضَ ٱلخشب! وكانَ جوعُ الصبيّ يزيدُ ٱلمرأةَ ألماً إلى جوعِها، وكنْتُ بهما كالجائعِ بثلاثةِ بطونٍ خاوية.

فقلْتُ في نفسي: إذا لم تأكلِ ٱلخشبَ والحِجارةَ فلْنأكلْ بثمنِها. وجمعْتُ نيتي على بيعِ ٱلدارِ والتحوُّلِ عنها، وإنْ كانَ خروجي منها كٱلخروجِ من جِلْدي: لا

(١) ثمّة: ظرف زمان بمعنى هناك.
(٢) تطاولت الأعناق: اشرأبّت.
(٣) رماني الناس بأبصارهم: نظروا إليّ.
(٤) انحسمت مادتي: افتقرت.
(٥) يخسف: ينهار.

يسمَّى إلَّا سَلْخاً وموتاً؛ وبتُّ ليلتي وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ: فما يتقلَّبُ إلَّا على جِراحٍ تعملُ فيهِ عملَ ٱلسيوفِ وٱلأسنَّةِ التي عملتْ فيها.

ثُمَّ خرجْتُ بغَلَسٍ[1] لِصلاةِ ٱلصبح؛ وٱلمسجدُ يكونُ في ٱلأرضِ ولكنَّ ٱلسماءَ تكونُ فيه، فرأيتُني عندَ نفسي كأنِّي خرجْتُ مِنَ الأرضِ ساعة. ولمَّا قُضِيَتِ ٱلصلاةُ رفعَ الناسُ أكفَّهم يدعون ٱللَّهَ (تعالى)، وجرى لِساني بهذا الدعاء: «اللهمَّ بك أعوذُ أنْ يكونَ فقري في دِيني، أسألُكَ ٱلنفعَ ٱلذي يُصلحُني بطاعتِك، وأسألُكَ بركةَ ٱلرضى بقضائِك، وأسألُك ٱلقوّةَ على ٱلطاعةِ وٱلرضا يا أرحمَ الراحمين».

ثُمَّ جلسْتُ أتأملُ شَأْني، وأطلْتُ ٱلجلوسَ في ٱلمسجدِ كأنِّي لم أعُدْ من أهلِ ٱلزمنِ فلا تجري عليَّ أحكامُه، حتى إذا ٱرتفعَ ٱلضُّحَى وٱبيضَّتِ ٱلشمسُ جاءَتْ حقيقةُ ٱلحياة، فخرجْتُ أتسبَّبُ لِبيعِ ٱلدار، وٱنبعثْتُ وما أدري أين أذهب، فما سِرْتُ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني (أبو نصرٍ ٱلصياد) وكنْتُ أعرفُهُ قديماً، فقلْت: يا أبا نصر! أنا على بيعِ الدار؛ فقد ساءَتِ ٱلحالُ وأحْوَجَتِ ٱلخصاصة، فأقرِضني[2] شيئاً يُمسِكُني على يومي هذا بالقِوامِ مِنَ ٱلعيش حتى أبيعَ ٱلدارَ وأوَفِّيك.

فقال: يا سيدي! خذْ هذا ٱلمنديلَ إلى عِيالِك، وأنا على أثرِكَ لاحِقٌ بِكَ إلى ٱلمنزل. ثُمَّ ناولَني منديلاً فيهِ رُقاقتانِ بينهما حلوى، وقال: إنَّهما واللَّهِ بركةُ الشيخ.

قلْت: مَنِ ٱلشيخُ وما القصة؟

قال: وقفْتُ أمسِ على بابِ هذا المسجدِ وقدِ ٱنصرفَ الناسُ من صلاةِ ٱلجمعة، فمرَّ بي أبو نصرٍ بِشْرٌ ٱلحافي فقال: مالي أراكَ في هذا الوقت؟ قلْت: ما في ٱلبيتِ دقيقٌ ولا خبزٌ ولا درهمٌ ولا شيءٌ يُباع. فقال: اللَّهُ المستعان؛ اِحملْ شبكتَك وتعالَ إلى الخَنْدق؛ فحملْتُها وذهبْتُ معه، فلمَّا ٱنتهيْنا إلى ٱلخندقِ قال لي: توضَّأْ وصلِّ ركعتين. ففعَلْت، فقال: سَمِّ اللَّهَ ـ تعالى ـ وألقِ الشبكة. فسمَّيْتُ وألقيْتُها، فوقعَ فيها شيءٌ ثقيل، فجعلْتُ أجرُّهُ فشَقَّ علَيَّ؛ فقلْتُ لَه: ساعدْني فإنِّي أخافُ أنْ تنقطعَ ٱلشبكة، فجاءَ وجرَّها معي، فخرجَتْ سمكةٌ عظيمةٌ لم أرَ مثلَها سِمْناً وعِظَماً وفَراهة. فقال: خذْها وبِعْها وٱشترِ بثمنِها ما يُصلِحُ

---

(١) غلس: الهزيع الأخير من الليل العتمة قبل الفجر.
(٢) أقرض: ديّن.

عيالَك. فحملْتُها فٱستقبلني رجلٌ ٱشتراها، فٱبْتعْتُ لِأهلي ما يحتاجون إليه، فلمّا أكلْتُ وأكلوا ذكرْتُ ٱلشيخَ فقلْتُ أهدي له شيئاً، فأخذْتُ هاتينِ الرقاقتينِ وجعلْتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليهِ فطرقْتُ ٱلباب، فقال: من؟ قلْت: أبو نصر! قال: اِفتحْ وضعْ ما معَك في ٱلدهليز وٱدخلْ. فدخلْتُ وحدثْتُهُ بما صنعْتُ فقال: الحمدُ لِلَّهِ على ذلك. فقلْت: إنِّي هيأتُ لِلبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلْتُ ومعي رقاقتانِ فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة! اذهبْ كُلْه أنت وعِيالُك.

***

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ مِنَ ٱلجوع بحيثُ لو أصبْتُ رغيفاً لَحسبتُهُ مائدةً أُنزِلَتْ مِنَ ٱلسماء، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عنِ ٱلسمكةِ أشبعَتْني بمعانيها شِبَعاً ليسَ من هذه الدنيا، كأنَّما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثِمارِ الجنة؛ وطَفِقْتُ[1] أردِّدُها لِنفسي وأتأملُ ما تَفْتُق ٱلشهواتُ على الناس، فأيقنْتُ أنَّ ٱلبلاء إنَّما يُصيبُنا من أنَّنا نُفسِّرُ الدنيا على طولِها وعرضِها بكلماتٍ معدودة، فإذا ٱستقرَّ في أنفسِنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهوات، ٱستقرَّتْ بهِ في ٱلنفسِ كلُّ معانيهِ مِنَ ٱلمعاصي والذنوب، وأخذَتْ شياطينُ هذه المعاني تَحومُ على قلوبِنا، فنُصبحُ مُهَيَّئينَ لِهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثُمَّ عاملين معها، فتُدْخِلُنا مَدَاخِلَ السُّوءِ في هذه الحياة، وتُقْحِمُنا في ٱلوَرْطةِ[2] بعدَ ٱلورطة، وفي ٱلهلكَة بعدَ الهلكة.

وما هذه الشياطينُ إلَّا كالذبابِ وٱلبعوضِ وٱلهوامّ[3]، لا تحومُ إلَّا على رائحةٍ تجذبُها، فإنْ لم تجدْ في ٱلنفسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقَتْ ولم تجتمع، وإذا ألَمَّتِ ٱلواحدةُ منها بعدَ ٱلواحدةِ لم تثبُتْ. فلو أنَّنا طردْنا من أنفسِنا الكلماتِ التي أفسدَتْ علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ. لَكَانَ لِلدنيا في أنفسِنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلِها، ولَكانَتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالِنا.

فالشيخُ لم يكنْ في نفسِهِ معنًى لِكلمةِ (التلذُّذ)، وبطردِهِ من نفسِهِ هذا ٱللفظَ ٱلواحد، طَرَدَ معانيَ ٱلشرِّ كلَّها، وصَلُحَ له دينُه، وخَلُصَتْ نفسُهُ لِلخيرِ ومعاني

(١) طفق: شرع، بدأ.
(٢) الورطة: المصيبة.
(٣) الهوام: الحشرات.

ٱلخير. ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسِهِ ٱمرأةً يعشَقُها، لَصارَتِ ٱلدنيا كلُّها في نفسِهِ كٱلمخْدَعِ[1]: ما فيهِ إلَّا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليهِ وأسبابِهِ إليها. . .

وقد كنْتُ سمعْتُ في درسِ شيخِنا أحمدَ بنِ حنبلٍ هذا الحديث: «لولا أنَّ ٱلشياطينَ يَحومون على قلوبِ بني آدمَ لنَظَروا إلى مَلَكُوتِ ٱلسموات». فما فهِمْتُ ـ واللّٰهِ ـ معناهُ إلَّا من كلمةِ الشيخِ في ٱلسمكة، وقد علَّمَنيها هذا الصيَّادُ ٱلعامِّيّ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعاني، والمعاني يُوجدُها ٱللفظُ ٱلمستقرُّ في ٱلقلبِ ٱستقرارَ غرَضٍ أو شهوةٍ أو طمع؛ فإذا خلا ٱلقلبُ من هذِه ٱلمعاني، فقد أمِنَ مُنَازَعَتَها لَهُ وشُغْلَها إيّاه، فيُصبحُ فوقَها لا بينَها؛ ومتى صارَ ٱلقلبُ فوقَ ٱلشهواتِ ولم يجدْ من ألفاظِها ما يُعْمِيهِ ويعترِضُ نظرَهُ إلى الحقائق، ٱنكشفتْ لَهُ هذه الحقائقُ فٱنكشفَ لَهُ ٱلمَلَكُوت؛ فإذا وقَع بعدُ في واحدةٍ من ٱللذاتِ ولو (كالرُّقاقتينِ والحَلوى)، ٱستَغلَتِ ٱلأشياءُ عليهِ فحجبَتْه[2]، وعادَ بينَها أو تحتَها، وعَمِيَ عمى ٱللذة؛ وٱلحِجابُ على البصرِ كأنَّهُ تعليقُ ٱلعَمَى على ٱلبصر.

وكنْتُ لا أزالُ أعجبُ من صبرِ شيخِنا أحمدَ بْنِ حنبلٍ وقد ضُرِبَ بينَ يدي ٱلمعتصم بالسِّياطِ حتى غُشِيَ عليهِ فلم يتحوّلْ عن رأيه؛ فعلِمْتُ ٱلآنَ من كلمةِ ٱلسمكةِ أنَّهُ لم يجعلْ في نفسِهِ لِلضربِ معنَى ٱلضرب، ولا عرفَ لِلصبرِ معنى ٱلصبرِ الآدميّ؛ ولو هو صبَرَ على هذا صبْرَ الإنسانِ لَجَزِعَ[3] وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضربَ الإنسانِ لَتألَّم وتغيَّر؛ ولكنَّهُ وَضَعَ في نفسِهِ معنَى ثباتِ السُّنَّةِ وبقاءِ الدين، وأنَّهُ هو ٱلأمَّةُ كلُّها لا أحمدُ بْنُ حنبل، فلو تحوَّلَ لَتحوَّلَ الناسُ، ولوِ ٱبْتَدَعَ لَٱبتدَعُوا؛ فكانَ صبرُهُ صبرَ أُمَّةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فرْد، وكانَ يُضرَبُ بالسياطِ ونفسُهُ فوقَ معنى ٱلضرب، فلو قَرَضُوهُ بالمقَاريضِ[4] ونشروهُ بالمنَاشيرِ لَمَا نالوا منه شيئاً؛ إذْ لم يكنْ جسمُهُ إلَّا ثوباً عليه، وكانَ ٱلرجلُ هو الفكرَ ليسَ غيْر.

هؤلاء قومٌ لا يَروْنَ فضائلَهم فضائلَ، ولكنَّهم يَروْنها أماناتٍ قدِ ٱئتُمِنُوا عليها مِنَ ٱللّٰهِ لِتبقَى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يُزْرَعونَ في ٱلأمم زَرْعاً بيَدِ ٱلله، ولا يملكُ ٱلزرعُ غيرَ طبيعتِه، وما كان ٱلمعتصمُ وهو يُريدُ شيخَنا على غيرِ رأيِهِ، وعقيدتِهِ إلا كالأحمقِ يقولُ لِشجرةِ ٱلتفاح: أثْمِري غيرَ ٱلتفاح.

---

(١) المخدع: مكان النوم.
(٢) حجبته: منعته.
(٣) جزع: خاف.
(٤) قرض: قصّ.

قال أحمدُ بْنُ مِسكين: وأخذْتُ ٱلرُّقاقتينِ وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ ٱللَّهُ هذه الدنيا! إنَّ من هَوانِها على اللَّهِ أنَّ الإنسانَ فيها يَلْبَسُ وجهَهُ كما يلبَسُ نعلَه. فلو أنَّ إنساناً كانَتْ لَهُ نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ ٱعترضَ ٱلخلْقَ ينظُرُ في وجوهِهم، لَرأَى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتي في نِعالِهم أو أقذرَ أو أقبح، ولعلَّهُ كان لا يَرى أجملَ ٱلوجوهِ ٱلتي تَسْتَهِيمُ ٱلناسَ[1] وتَتَصَبَّاها[2] مِنَ ٱلرجالِ وٱلنساء، إلَّا كالأحذيةِ العتيقة...

ولكنّي أحسسْتُ أنَّ في هاتينِ ٱلرُّقاقتينِ سرَّ الشيخ، ورأيْتُهما في يدي كالوثيقتينِ بخيرٍ كثير؛ فقلْتُ: على بَركةِ ٱلله. ومضيْتُ إلى داري؛ فلمَّا كنْتُ في الطريقِ لقيتْني ٱمرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرَتْ إلى المنديل وقالت: يا سيدي، هذا طفلٌ يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ لَهُ على ٱلجوع، فأطعِمْهُ شيئاً ـ يرحمْك ٱلله ـ. ونظرَ إليَّ ٱلطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشوعَ ألفِ عابدٍ يعبدونَ ٱللَّهَ (تعالى) مُنْقَطعين عنِ ٱلدنيا؛ بل ما أظنُّ ألفَ عابدٍ يستطيعون أنْ يُرُوا ٱلناسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ ٱلرحمة. إنَّ شِدَّةَ ٱلهمِّ لَتجعلُ وجوهَ ٱلأطفالِ كوجوهِ ٱلقِدّيسين، في عينِ مَنْ يراها مِنَ ٱلآباءِ وٱلأمهات، لِعَجْزِ هؤلاءِ الصغارِ عنِ الشرِّ الآدميِّ وَٱنْقطاعِهم إلا منَ الله والقلبِ الإنسانيّ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنَّهُ يَصْرُخُ بمعانيهِ يقول: يا ربَّاهُ يا رباه!

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكين: وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ ٱلجنَّةَ نزلتْ إلى الأرضِ تَعْرِضُ نفسَها على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأُمَّه، والناسُ عَمْيٌ لا يُبصرونَها، وكأنَّهم يمرون بها في هذا ٱلموطِنِ مرورَ ٱلحميرِ بقصرِ ٱلملك: لو سُئِلَتْ فَضَّلَتْ عليهِ ٱلإِصْطَبلَ الذي هيَ فيه...

وذكرْتُ ٱمرأتي وٱبنَها وهما جائعانِ مُنْذُ أمس، غيرَ أنّي لم أجدْ لهما في قلبي معنى ٱلزوجةِ وٱلولد: بلْ معنى هذه ٱلمرأةِ ٱلمُحتاجةِ وطفلِها، فأسقطْتُهما عن قلبي ودفعْتُ ما في يدي لِلمرأةِ وقلْتُ لها: خذي وأطعمي ٱبنَك، و ـ واللَّهِ ـ ما أملكُ بيضاءَ ولا صفراء، وإنَّ في داري لمَن هو أحوجُ إلى هذا الطعام؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بي لَتقدمْتُ فيما يُصْلِحُك. فَدَمَعَتْ عيناها، وأشرقَ وجهُ الصبيّ، ولكنْ طمَّ[3] على قلبي ما أنا فيهِ فلم أجدْ لِلدَّمعةِ معنى ٱلدمعة، ولا لِلبَسْمةِ معنى ٱلبسمة.

---

(١) تستهيم الناس: تستهويهم.
(٢) تتصّباها: تتعشقها.
(٣) طمّ: خيّم.

وقلْتُ في نفسي: أمّا أنا فأطوي إنْ لم أصِبْ طعاماً، فقد كانَ أبو بكرٍ الصديقُ يطوي[1] ستةَ أيام، وكانَ ٱبنُ عُمَر يطوي، وكان فلانٌ وفلانٌ مِمَنْ حفظْنَا أسماءَهم ورَوينا أخبارَهم؛ ولكنْ مَنْ لِلمرأةِ وٱبنها بمثلِ عَقْدِي ونيَّتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيْتُ وأنا مُنْكَسِرٌ منْقبِض، وكأنِّي كنْتُ نسيْتُ كلمةَ ٱلشيخ: «لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة». فذكرْتُها وصرفْتُ خاطري إليها وشَغَلْتُ نفسي بتدبُّرِها وقلْتُ: لو أنِّي أشبعْتُ ثلاثةً بجوعِ ٱثنين لَحُرِمْتُ خمسَ فضائلَ وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثلِ هذا ٱلعمل، وهذا ٱلعملُ محتاجٌ إلى أنْ يكونَ هكذا، فما يستقيمُ ٱلأمرُ إلَّا كما صنَعْت.

وكانَتِ ٱلشمسُ قدِ ٱنبسطَتْ في ٱلسماءِ وذلك وقتُ ٱلضُّحى الأعلى، فملْتُ ناحيةً وجلسْتُ إلى حائطٍ أفكِّرُ في بيعِ ٱلدارِ ومَنْ يبتاعُها، فأنا كذلك إذْ مرَّ أبو نصرٍ الصيادُ وكأنَّهُ مُسْتَطَارٌ فَرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يُجلِسُكَ هٰهنا وفي دارك ٱلخيرُ وٱلغِنى، قلْت: سبحانَ ٱللهِ! من أين خرجَتِ ٱلسمكةُ يا أبا نصر؟

قال: إني لَفِي ٱلطريقِ إلى منزلِك، ومعي ضَرُورةٌ مِنَ ٱلقُوتِ أخذْتُها لِعيالِك، ودَراهِمَ ٱستَدَنْتُها لك، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيكَ أو أحدٍ من أهلِه، ومَعُه أثقالٌ وأحمال، فقلْتُ لَه: أنا أدلُّك. ومشيْتُ مَعهُ أسألُهُ عن خبرِهِ وشأنِهِ عندَ أبيك. فقال: إنَّهُ تاجرٌ مِنَ ٱلبَصْرة، وقد كان أبوك أوْدعَهُ مالاً من ثلاثين سنةً، فأفلسَ وٱنكسرَ ٱلمالُ ثُمَّ تركَ ٱلبصرةَ إلى خُراسانَ، فصلُحَ أمرُهُ على ٱلتجارةِ هناك، وأيْسَرَ بعدَ ٱلمِحْنَة، وٱستَظْهَرَ بعدَ ٱلخِذْلان، وأقبلَ جَدُّهُ بالثَّرَاءِ وٱلغِنَى؛ فعادَ إلى ٱلبصرة، وأرادَ أنْ يتحلَّلَ، فجاءَك بالمالِ وعليهِ ما كانَ يربحُهُ في هذه الثلاثينَ سنةً، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وٱنقلِبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة! فقلْت: صدقَ الشيخ: «لو أطعَمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجتِ ٱلسمكة»! فلو أنَّ هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهِهِ أبا نصر، في هذه ٱلطريق، في هذا ٱليوم، في هذه الساعةِ، لما ٱهتدى إليَّ؛ فقد كانَ أبي مغموراً لا يعرفُهُ أحدٌ وهو حيّ؛ فكيفَ بِهِ ميتاً من وراءِ عشرينَ سنة؟

وآلَيْتُ لَيعلمَنَّ ٱللَّهُ شكري هذه النعمة؛ فلم تكنْ لي هِمَّةٌ إلَّا البحثَ عنِ

---

(١) يطوي: ينام بلا عشاء.

ٱلمرأةِ ٱلمحتاجةِ وٱبنِها، فكفيْتُهما وأجريْتُ عليهما رِزقاً، ثُمَّ ٱتَّجَرْتُ في ٱلمال، وجعلْتُ أرُبُّهُ[1] بٱلمعروفِ والصَّنيعةِ وٱلإحسانِ وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينقُص، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْتَ[2].

وكأنِّي قد أعجبتْني نفسي، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجلاتِ ٱلملائكةِ بحسناتي، ورجَوْتُ أنْ أكونَ قد كُتِبْتُ عندَ ٱللَّهِ في ٱلصالحين، فنمْتُ ليلةً فرأيْتُني في يوم القِيامةِ وٱلخَلْقُ يموجُ بعضُهم في بعض، وٱلهولُ هولُ ٱلكونِ ٱلأعظمِ على الإنسانِ الضعيف، يُسْألُ عن كلِّ ما مسَّهُ من هذا الكون. وسمِعْتُ الصائحَ يقول: يا معشرَ بني آدم! سَجَدَتِ ٱلبهائمُ شكراً لِلَّهِ أنَّهُ لم يجعلْها من آدم. ورأيْتُ ٱلناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورِهم مخلوقةً مجسَّمة، حتى لَكأنَّ الفاسقَ على ظهرِهِ مدينةٌ كلّها مُخْزيات!

وقيل: وُضعَتِ الموازينُ. وجيءَ بي لِوزنِ أعمالي، فَجُعِلَتْ سيئاتي في كفةٍ وأُلقيَتْ سجلاتُ حسناتي في ٱلأخرى، فطاشَتِ[3] ٱلسجلاتُ ورجَحَتِ ٱلسيئات، كأنَّما وزنوا ٱلجبلَ الصخريَّ ٱلعظيمَ الضخمَ بلُفافةٍ مِنَ القطن...

ثُمَّ جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعدَ ٱلحسنةِ مِمَّا كنْتُ أَصنعُهُ فإذا تحتَ كلِّ حسنةٍ شهوةٌ خفيَّةٌ من شهواتِ ٱلنفس: كالرِّياءِ وٱلغُرورِ وحُبِّ ٱلمحْمَدَةِ عندَ الناسِ وغيرِها، فلم يَسْلَمْ لي شيء، وهلكَتْ عنِّي حُجَّتي، إذِ ٱلحجةُ ما يُبَيِّنُهُ ٱلميزانُ، والميزانُ لم يدلَّ إلَّا على أنِّي فارغ.

وسمعْتُ ٱلصوتَ: ألم يبقَ لهُ شيء؟ فقيل: بَقِيَ هذا.

وأنظرُ لِأرى ما هذا الذي بقي، فإذا ٱلرُّقاقتانِ ٱللتانِ أحسنْتُ بهما على ٱلمرأةِ وٱبنِها! فأيقنْتُ أنِّي هالك؛ فلقد كنْتُ أُحْسِنُ بمائةِ دينارٍ ضَرْبةً واحدةً فما أغنَتْ عنِّي، ورأيْتُها في ٱلميزانِ مع غيرِها شيئاً معلَّقاً، كالغَمامِ[4] حينَ يكونُ ساقِطاً بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض: لا هُو في هذه ولا هو في تلك.

ووُضِعَتِ ٱلرُّقاقتان، وسمعْتُ ٱلقائل: لقد طارَ نصفُ ثوابِهما في ميزانِ أبي نصرِ ٱلصياد. فٱنخذَلْتُ[5] ٱنخذالاً شديداً، حتى لو كُسِرْتُ نِصفينِ لَكانَ أخفَّ عليَّ

---

(١) أربّه: أزيده.
(٢) تأثلت: اغتنيت.
(٣) طاشت: خفّت وانحرفت.
(٤) الغمام: الغيم.
(٥) انخذلت: شعرت بالخسران والهزيمة.

وأهون. بَيْدَ أنّي نظرْتُ فرأيْتُ كِفة ٱلحسناتِ قد نزلتْ منزلةً ورجَحَت بعضَ ٱلرُّجحان.

وسمعْتُ ٱلصوت: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيلَ بَقيَ هذا.

وأنظرُ ما هذا الذي بقي، فإذا جوعُ ٱمرأتي في ذلك ٱليوم! وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ في ٱلميزان، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفعُ بالأخرى حتى ٱعتدلَتا بالسَّويَّة. وثَبَتَ ٱلميزانُ على ذلك فكنْتُ بينَ ٱلهلاك والنَّجاة.

وأسمعُ ٱلصوت: ألم يبقَ لَهُ شيء؟ فقيل بقيَ هذا.

ونظرْتُ فإذا دموعُ تلك ٱلمرأةِ ٱلمسكينةِ حينَ بكتْ من أثَرِ ٱلمعروف في نفسِها، ومن إيثارِي[1] إيَّاها وٱبنَها على أهلي. ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ[2] عينيها في ٱلميزانِ فَفارَتْ، فطمَّتْ[3] كأنَّها لُجَّةٌ، من تحتِ ٱللُّجَّةِ بحر؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجَتْ مِنَ ٱللجَّة وقَعَ في نفسي أنَّها رُوحُ تلك الدموع، فجعلَتْ تعظُمُ ولا تزالُ تعظم، وٱلكفةُ ترجَحُ ولا تزالُ ترجح، حتى سمعْتُ ٱلصوتَ يقول: قد نجا!

وصحْتُ صيحةً ٱنتبهتُ لها، فإذا أنا أقول: «لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة!».

---

(١) إيثاري: تفضيلي.

(٢) غرغرة: دموع.

(٣) طمّت: فاضت.

الزاهدان

٢

قال أحمدُ بْنُ مسكين: انتشَر حديثُ ٱلسمكةِ في أهلِ (بلْخ). وٱستفاضَ[١] بينهم، وكنْتُ قَصَصْتُهُ عليهم يومَ ٱلسبت، فلمّا دارَ ٱلسبتُ من أسبوعِهِ لَقيَني شيخُهم حاتمُ بْنُ يوسفَ (لقمانُ الأمَّةِ) ومعه صاحبُه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لَكأنَّكَ في هذه المدينة قمرٌ طَلَعَ بلَيْلٍ فلا يَعِظُ الناسَ في يومِ ٱلسبتِ غيرُك؛ ومَنْ سمعَ فكأنَّهُ عايَنَ[٢]، وليسَ على ألسنةِ أهلِ بلْخٍ منذُ تحدثْتَ إلَّا بِشْرٌ وٱبنُ حنبل، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلَّا موعظتُك وحديثُك.

والكلامُ عنِ ٱلصالحينَ في مثلِ ما وصفْتَ وحكيْتَ قُرْبٌ من حقائقِهم، وسُمُوٌّ إلى معانيهم، وليسَ في ٱلقولِ بابٌ لَهُ موقعٌ كموقعِ ٱلقصةِ عن هؤلاءِ الذين يخلُقُهُمُ ٱللَّهُ في البشريةِ خلقَ النور: يُضيءُ ما حولَهُ من حيثُ يُرى، ويعملُ فيما حولَهُ من حيث لا يُرى، وفي ظاهرهِ ٱلجمالُ وٱلمنفعة، وفي باطنِهِ ٱلقوةُ وٱلحياة. ولسْتُ أقولُ لك ٱذهبْ فحدِّثِ ٱلناس، ولكنِّي أقولُ ٱذهبْ فأعْطِ الناسَ عقلاً مِنَ ٱلحديث.

قالَ ٱبنُ مسكين: فلمَّا صلَّيْنا ٱلعصرَ، قدَّمني أبو ترابٍ فجلسْتُ في مجلسي ذاك، وهَتَفَ بيَ ٱلناسُ يُريدونَ ٱلحديث عن بِشر ٱلحافي وما سَقَطَ لي من أخبارِهِ، على الطريقةِ ٱلتي حدثْتُهم بها من قبل، فٱبتدأْتُ بذكرِ موتِهِ (رحمَهُ ٱللّه) وأنَّ يومَهُ كأنَّما ٱجتمعَ له أهلُ خمسٍ وسبعينَ سنة، إذْ خرجَتْ جنازتُهُ بعدَ صلاةِ الصبح، فلم يحصُلْ في قبرِه إلَّا في ٱلليل مِمَّا ٱحتَشَدَ[٣] في طريقِهِ مِنَ ٱلخلْق، حتى لَكأنَّ في نعشِهِ سِرًّا من أسرارِ ٱلجنَّةِ يُطالعُهم بهِ ٱلموتُ فخرجوا ينظرونَ إليه، وكانوا يصيحونَ في جنازتِه: هذا ـ واللّهِ ـ شرفُ ٱلدنيا قبلَ شرفِ ٱلآخرة.

---

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عاين: رأى.

(٣) احتشد: تجمهر، اجتمع.

ثُمَّ قلْتُ: حدَّثَني حسينٌ ٱلمَغَازِليُّ: أنَّ بِشراً (رحَمهُ ٱللَّهُ) كانَ لا يأكلُ إلَّا الخبزَ تورُّعاً عنِ ٱلشبهاتِ وٱكتفاءً لِضرورةِ ٱلحياةِ بِٱلأقلِّ ٱلأيسر، وكانَ يقولُ في ذلك: يَدٌ أقصرُ من يد، ولُقمةٌ أصغرُ من لقمة. وسُئِلَ مرة: بأيِّ شيءٍ تأكلُ ٱلخبز؟ فقال: أذكرُ ٱلعافيةَ فأجعلُها إداماً. وقد أعانَهُ على ذلك أنَّهُ لم يتزوج، وكانَ يرى هذا نقصاً في نفسِهِ حتى فضَّلَ الإمامَ أحمَد بْن حنبلٍ بأشياء: منها أنَّ له أهلاً؛ غيرَ أنَّهُ قِيلَ لهُ ذاتَ يوم: لو تزوجْتَ تم نُسْكُك. فقال: أخافُ أنْ تقومَ ٱلزوجةُ بحقِّي ولا أقومَ بحقِّها. فكانَتْ هذه النيةُ في نفسِهِ أفضلَ من زواجِهِ.

وكانَ مع هذا لا يُؤاكِلُ أحداً، ولا يسعَى إلى لِقاءِ أحد، حتى إنَّهُ لَمَّا رغبَ في مؤاخاةِ الزاهدِ العظيم (معروفٍ الكَرْخي)، أرسلَ إليهِ (الأسودَ بن سالم) وكانَ صديقاً لهما، فقالَ لِمعروفٍ: إنَّ بشرَ بْنَ ٱلحارثِ يُريدُ مؤاخاتَك وهو يستحي أنْ يُشافِهَك[1] بذلك، وقد أرسلَني إليكَ يسألُكَ أنْ تعقدَ لَهُ فيما بينَهُ وبينَكَ أخُوَّةً يحتَسِبُها ويعتدُّ بها؛ إلَّا أنَّهُ يشترطُ فيها شروطاً: أولُها أنَّهُ لا يُحبُّ أنْ يشتهرَ ذلك، وثانيها ألَّا يكونَ بينَك وبينَه مُزَاوَرَةٌ ولا مُلاقاة. فقال معروف: أمَّا أنا فإذا أحببْتُ أحداً لم أحبَّ أنْ أفارقَهُ ليلاً ولا نهاراً، وأزورُهُ في كلِّ وقت، وأوثِرُهُ على نفسي في كلِّ حال؛ وأنا أعقدُ لِبشرٍ أخوةً بيني وبينَه، ولكنِّي أزورُهُ متى أحببْت، وآمرُهُ بلقائي في مواضعَ نلتقي فيها إذا هو كرهَ زِيارتي.

قالَ حسينٌ ٱلمغازليُّ: وكانَ هذا كلُّهُ من أمرِ بِشْرٍ معروفاً في بغداد، لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِها، إذْ لم يكنْ لِبغدادَ إمامٌ غيرُهُ وغيرُ ٱبنِ حنبل؛ فما كانَ أكثرَ عجَبِي حينَ كنْتُ عندَهُ يوماً وقد زارهُ (فَتْحٌ المَوْصِلي)، فقامَ فجاءَ بدارهِمَ ملءَ كفِّهِ ودفعَها إليّ وقال: ٱشترِ لنا أطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلطعام، وأطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلحلوى، وأطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلطِّيب، وما قالَ لي مثلَ ذلك قطّ، وهو الذي رأى ٱلفاكهةَ يوماً فقال: ترْكُ هذه عبادة! وهو ٱلقائلُ لِأبي نصرٍ ٱلصياد: لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة.

فذهبْتُ فٱشتريْتُ وٱنتقيْتُ وتخَيَّرْت، ثُمَّ وضعْتُ ٱلطعامَ بينَ أيديهما، فرأيْتُه يأكلُ معهُ وما رأيْتُهُ أكلَ معَ غيرِه، ورأيْتُهُ منبسِطاً إليهِ وما لي عهدٌ كانَ بِٱنبساطِهِ إلى أحد. وقد كنْتُ أخبرْتُهُ في ذلك النهارِ بخبرِ أحمدَ بْنِ حنبل، عَلِمْتُهُ من أدريسَ

---

(١) يشافهك: يحدّثك.

ٱلحداد: فإنَّهُ لما زالتِ ٱلمِحنةُ بعدَ أنْ ضربَ بينَ يدي ٱلمعتصمِ وصُرِفَ إلى بيتِه، حُمِلَ إليهِ مالٌ كثيرٌ من سَرَواتِ[1] بغدادَ وأهلِ ٱلخيرِ فيها، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبلْ منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه، وإلى الأقلِّ من أيسرِه، وإلى الشيءِ من أقلِّه، فجعلَ عمُّهُ إسحاقُ يَحْسَبُ ما وردَ ذلك اليوم، فكانَ خمسينَ ألفَ دينار، فقالَ له ٱلإمام: يا عمّ، أراك مشغولاً بحساب ما لا يُفيدُك. قال: قد رددْتَ اليومَ كذا وكذا ألفاً وأنت محتاجٌ إلى حبةٍ من دانق. فقالَ ٱلإمام: يا عمّ، لو طلبْنَاهُ لم يأتِنا، وإنَّما أتانا لمَّا تركْناهُ.

* * *

قال المغَازلي: فنِمْتُ تلكَ الليلةَ وأنا أفكِّرُ في صنيعِ ٱلشيخ، وقد تعلَّقَ خاطري بهِ: كيف ٱنقلبَتِ ٱلحالُ معه، وأيُّ شيءٍ هذه الحال؟ وجعلْتُ أكِدُّ ذِهني لِأعرفَ ٱلحقيقةَ ٱلعقليَّةَ التي سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّطَ ٱلنعيمُ على نفسِه، وأنا أعلمُ أنَّ للقوم علوماً روحانيَّةً ليسَتْ في ٱلكتب، فمنها لا يتعلمونَهُ إلَّا مِنَ ٱلفقر، ومنها ما لاَ يتعلمونَهُ إلَّا مِنَ ٱلبلاء، ومنها، ومنها؛ ولكنْ ليسَ منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهبَ قلبي إلى أوهام كثيرةٍ ليسَ في جميعِها طائلٌ ولا بها معرفة، حتى غلبتْني عيناي، وأنا من وَهَجِ ٱلفكرِ نائمٌ كٱلمريض، وقد ثَقُلَ رأسي وٱختلطَ فيهِ ما يُعْقَل بما لا يُعقَل.

فرأيْتُ أولَ ما رأيتُ مَلِكاً جباراً يحكمُ مدينةً عظيمة، وقد أطلقَ ٱلمناديَ في جمْعِ كلِّ أطفالِ مدينتِه، فجيءَ بهم من كلِّ دار، ثُمَّ رأيْتُهُ قد جلسَ على سريرِهِ وفي يدِهِ مِقراضٌ عظيم، قدِ ٱتخذَهُ على هيئةِ نَصلينِ[2] عريضينِ لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ لَفَصلاها عن جسمِها؛ فكانَ هذا الجبارُ يتناولُ الطفلَ من أولئِك فيضعُ أصابعَ إحدى قدميهِ في شِقَّي ٱلمِقْراضِ فيقرضُها، فإذا هي تتناثرُ أسرعَ مِمَّا يقرِضُ ٱلمِقَصُّ ٱلخيط، ثُمَّ يَرمي بٱلطفلِ مغشيًّا عليه، ويتناولُ غيرَهُ فيبتُرُ[3] أصابَعه، والأطفالُ يصرخون؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملكُ إلَّا غيظي على هذا الجبارِ من حيثُ لا أستطيعُ أنْ أُمْضِيَ فيهِ هذا الغَيظَ فأقرِضَ عنقَهُ بمقراضِه.

ثم رأيْتُهُ يأخذُ طفلاً صغيراً، فلمَّا جاءَتْ قدمُ ٱلطفلِ بينَ شِقَّي ٱلمِقراضِ صاح: يا

---

(١) السروات: الأغنياء.

(٢) نصل السيف: المكان القاطع منه. (٣) بتر: قطع.

ربّ، يا ربّ. فإذا ٱلمِقراضُ يلتوي فلا يصنعُ شيئاً، وكأنَّ فيهِ حجراً صَلْداً لا قَدماً رَخْصَةً[1]. فتميَّزَ ٱلجبارُ مِنَ ٱلغيظِ وقال: مَنْ هذا الطفل؟ فسمعْتُ هاتفاً يهتف: هذا بشرٌ ٱلحافي! لا يبلغُ تاجُ مَلكٍ في ٱلأرضِ أنْ يكونَ لِقدمِهِ ٱلحافيةِ نعلاً عندَ ٱللهِ!

وكانَ إلى يميني رجلٌ يَتَوَضَّأُ وجهُهُ صلاحاً وتقوى، فقلْتُ لَه: مَنْ هذا ٱلطاغية[2]؟ ولِمَ ٱتخذَ ٱلمِقراضَ لِأقدامِ ٱلأطفالِ خاصّة؟

فقال: يا حُسين! إنَّ هذا الجبارَ هو ذُلُّ ٱلعيش، وهذا وَسْمُهُ لِأهلِ ٱلحياةِ على ٱلأرض، يُحقِّقُ بهِ في ٱلإنسانِ معنى ٱلبهيمةِ أولَ ما يَدِبُّ[3] على الأرض، حتى كأنَّهُ ذو حافر لا ذو قدَم.

قلْت: فما بالُ هذا الطفلِ لم يعملْ فيهِ ٱلمِقراض؟

قال: إنَّ لِلّهِ عِباداً ٱستخصَّهم[4] لِنفسِه، أولُ علامتِهِ فيهم أنَّ ٱلذلَّ تحتَ أقدامِهم، وهم يجيئونَ في هذه ٱلحياةِ لإثباتِ ٱلقُدرةِ ٱلإنسانيَّةِ على حكم طبيعةِ ٱلشهواتِ ٱلتي هي نفسُها طبيعةُ الذل؛ فإذا ٱطَّرحَ أحدُهم لِلشهواتِ وزهدَ فيها، وٱستقامَ على ذلك في عَقْدِ نيَّةٍ وقوةِ إرادة، فليسَ ذلك بالزاهدِ كما يصفُهُ ٱلناس، ولكنَّهُ رجلٌ قويّ ٱختارتْهُ ٱلقدرةُ لِيحملَ أسلحةَ النفسِ في مَعاركِها ٱلطاحنة، كما يحملُ ٱلبطلُ ٱلأروعُ أسلحةَ ٱلجسم في معاركِهِ ٱلدامية: هذا يُتَعَلَّمُ منه فنّ، وذاك يُتَعَلَّمُ منه فنٌّ آخر، وكلاهما يُرمَى بِهِ على ٱلموتِ لإيجادِ ٱلنوعِ ٱلمستعزّ مِنَ ٱلحياة، فأولُ فضائلِهِ ٱلشعورُ بٱلقوَّة، وآخرُ فضائلِهِ إيجادُ ٱلقوة.

* * *

قالَ ٱلمغازلي: وضَرَبَ ٱلنومُ على رأسي ضربةً أخرى، فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنَةٍ، قدِ ٱرتفعَ لها دُخانٌ كثيفٌ أسودُ يتضرَّبُ بعضُهُ في بعض، رجعْتُ أرى شُعَلاً حُمراً تذهبُ وتجيءُ كأنَّها أجسامٌ حيَّة، فوقَع في وهمي أنَّ هؤلاءِ هُمُ الشياطينُ: إبليسُ وجنودُه، وسمعْتُ صارخاً يقول: يا بُشرَى! فَلْتبكِ ٱلسماءُ على ٱلأرض، لقد أكلَ بشرٌ ٱلحافي من أطيبِ ٱلطعام وأطيبِ ٱلحلوى بعدَ أن ٱستوى عندَهُ حجَرُها ومَدَرُها[5]، وذهبُها وفِضَّتُها! فعارضَهُ صائحٌ أسمعُ صوتَهُ ولا أرى شخصَه: ويلَكَ يا زَلَنْبور[6]! إنَّ هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِه وعبادتِه؛ فهذا ـ ويحكَ ـ هو ٱلزهدُ الأعلى ٱلذي كانَ لا

---

(1) رخصة: طريّة لينة.
(2) الطاغية: الظالم.
(3) يدبّ: يمشي.
(4) استخصّهم: استخلصهم.
(5) مدرها: مدنها وحضرها.
(6) زلنبور: هو اسم لبعض ولد إبليس.

يُطيقُهُ بشر؛ إنّهُ إعناتٌ[1] سلّطَهُ على نفسِه، فإنّي دفعتُ هذا (المغازليّ) الأعمى القلب لِيُزَيِّنَ لهُ ما فعلَ أحمدُ بْنُ حنبلٍ من ردِّهِ خمسينَ ألفَ دينارٍ على حاجتِه، زهداً وورعاً، وقوّةَ عزم، ونفاذَ إرادة؛ وقلتُ: عسى أنْ تتحركَ في نفسِهِ شهوةُ الزهدِ فَيَحْسُدَ أو يَغار، أو تُعجِبَهُ نفسُهُ فيكونُ لي من ذلك لَمّةٌ[2] بقلبِهِ فأوسوسُ له، فإنّا نأتي هؤلاءِ من أبوابِ الثوابِ كما نأتي غيرَهم من أبوابِ المعاصي، ونتورّعُ مع أهلِ الورعِ كما نتسخّفُ مع أهلِ السُّخف؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيهِ حقيقةُ الزاهد، فقد أعطى القوةَ على جعلِ شهواتِ نفسِهِ أشخاصاً صاحيةً يُعاديها ويُقاتِلُها، فإذا أنا جعلْتُ شهوتَهُ في اللذةِ قتلَ اللذة، وإذا جعلْتُها في الكآبةِ قتلَ الكآبة، وليسَ الزاهدُ العابدُ هو الذي يتقشّفُ ويتعفّفُ، ويتخفّفُ ويتلفّفُ، فإنَّ كثيراً ما تكونُ هذه هي أوصافَ الذّلِّ والحمق، ويكونُ لها عملُ العبادةِ وفيها إثمُ المعصية. ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهدِ مَنْ أدارَ في هذه الأشياءِ عيناً قد تعلّمَتْ النظرَ بحقِّهِ والإغضاءَ[3] بحقِّه؛ فهذا لا يُخطِئُهُ معنى الشرِّ إنْ لبّسناهُ[4] عليهِ في صورةِ الخير، ولا معنى الخيرِ إنْ زوّرناهُ في صورةِ الشرّ، وبذلك يضعُ نفسَهُ في حيثُ شاءَ مِنَ المنزلة، لا في حيثُ شاءتِ الدنيا أنْ تضعَهُ من منازِلِها الدنيئة.

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيّباتِ إلّا لِيُبادِرَ بها وسوستي ويردَّني عن نفسِهِ وعن اللَّمّةِ بقلبه، فلو أنّهُ أعجبَهُ زهدُ ابنِ حنبلٍ ونظرَ من ذلك إلى زهدِ نفسِهِ لَحَبِطَ أجرُه؛ فبهذه الطيباتِ عالجَ نفسَهُ عِلاجَ مريض، وقد غَيَّرَ على جوفِهِ طعاماً بطعام، كما يبدِّلُ على جلدِهِ ثوباً بثوب؛ ولا شهوةَ لِلجلدِ في أحدِهما.

* * *

قال المغازلي: وثقُلَ النومُ عليَّ ثقلةً أخرى، فرأيتُني في وادٍ عظيم، وفي وسطِهِ مثلُ الطّوْدِ[5] مِنَ الحجارةِ قد رُكِمَ بعضُها على بعض؛ ورأيتُني مع بِشرٍ أقصُّ عليهِ خبرَ أحمدَ بْنِ حنبل؛ فقال: انظرْ ـ ويحك ـ؛ إنَّ الناسَ يسمرونَها خمسينَ ألفَ دينار، وهي هنا في وادي الحقائقِ خمسونَ ألفَ حجرٍ لو أصابَتْ أحمدَ لَقتلَتْهُ ولَكانَتْ قبرَهُ آخرَ الدهر.

إنَّ المالَ يا بُنيَّ هو ما يعملُهُ المالُ لا جوهرُهُ مِنَ الذهبِ والفِضّة، فإذا كنْتَ

---

(١) إعنات: إتعاب.

(٢) اللمّة: مسّ الجنون.

(٣) الإغضاء بحقّه: الزراية وعدم تقديره.

(٤) لبّسناه: موّهناه.

(٥) الطَّوْد، بسكون الواو: الجبل.

بِمَفَازةٍ[١] ليسَ فيها من يبيُعكَ شيئاً بذهبك، فالترابُ والذهبُ هناك سواء؛ والفضائلُ هي ذهبُ الآخرة؛ فهنا تُجدِّدُ بالمالِ دنياك ٱلتي لا تبقى أكثرَ من بقائِك، وهناك تُجدِّدُ بالفضائلِ نفسَك ٱلتي تخلدُ بِخلُودِها.

ومعنى ٱلغِنى معنًى مُلْتبِسٌ على العقولِ ٱلآدميَّةِ لاجتماعِ ٱلشهواتِ فِيه، فحينَ يردّ أحمدُ بْنُ حنبلٍ خمسينَ ألفاً، يكونُ هذا المعنى قد صحَّحَ نفسَهُ في هذا العملِ وَجْهاً مِنَ التصحيح.

* * *

قال حسينٌ ٱلمغازليّ: وغطَّني[٢] ٱلنومُ في أعماقِهِ غطَّةً أخرى؛ فإذا أنا في المسجدِ في درسِ ٱلإمامِ أحمَدَ، وهو يُحدِّثُ بحديثِ النبيّ ﷺ: «إذا عظَّمَتْ أمتي ٱلدينارَ وٱلدرهم، نُزِعَ منها هيْبَةُ الإسلام؛ وإذا تركوا ٱلأمرَ بِٱلمعروفِ وٱلنهيَ عنِ ٱلمنكر، حُرموا بركةَ ٱلوحي» وهمّ أنْ يتكلمَ في تفسيرِهِ ولكنَّهُ رآني فأمسَكَ[٣] عنهُ وأقبل عليّ فقال: يا حسين! إذا ٱجتزأ شيخُكَ بالرغيفِ فهذا عندَهُ هو قدْرُ الضرورة؛ فإنْ أكلَ ٱلطيباتِ فقدْ عرضَتْ حالٌ جعلَتْ هذه الطيباتِ عندَهُ هي قدرَ الضرورة؛ وفي هذه النفوسِ ٱلسماويَّةِ لا يكونُ ٱلجزءُ الأرضيُّ إلَّا محدوداً، فلا يكونُ محصولُهُ إلَّا ما ترى من قدرِ ٱلضرورةِ.

ولمَّا صغُرَ ٱلجزءُ الأرضيُّ في نفوسِ ٱلمسلمينَ ٱلأولينَ ملَكوا ٱلأرضَ كلَّها بقوةِ ٱلجزءِ ٱلسماويِّ فيها، إذْ كانَتْ إرادتُهُم فوقَ ٱلأطماعِ وٱلشهوات، وكانَتْ بذلك لا تذلُّ ولا تضعفُ ولا تنكسر؛ فالآدميَّةُ كلُّها تنتهي إلى بعضِ صُوَرٍ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ محلُّهم في أعلاها

يا حسين! ألَا وإنَّ ردَّ خمسينَ ألفَ دينارٍ هو كذلك قدرُ الضرورة.

قالَ حسين: وذهبْتُ أعترضُ على الإمامِ بِمَا كانَ في نفسي من أنَّ هذا المالَ وإنْ لم يكُنْ من كسْبِه، فقد كانَ يتحوَّلُ في يدِهِ عملاً من أعمالِ ٱلخير؛ وأُنْسِيتُ أنَّ هذه الصَّدَقاتِ هي أوساخُ الناسِ وأقذارُ نفوسِهِم، فلمْ أكدْ أفتحُ فمي حتى رأيْتُ ٱلكلامَ يتحوَّلُ طِيناً في فمي لِيذكِّرني بهذا المعنى؛ وكِدْتُ أختنقُ فٱنتفضْتُ أتنفَّس، فطارَ ٱلنومُ وٱلحِلْمُ.

---

(١) المفازة: الطريق الضيّق.

(٢) غطني النوم: غلبني.

(٣) أمسك: توقف وانقطع.

إبليسُ يُعلّم

٣

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكين: ودارَ ٱلسبتُ الثالثُ، وجلسْتُ مجلسي لِلناسِ وقدِ ٱنتظمَتْ حَلْقَتهُم؛ فقامَ رجلٌ من عُرْضِ[١] ٱلمجلسِ فقال: إنَّ الحسَنَ بْنَ شُجاعٍ ٱلبلْخي تلميذَ ٱلإمام أحمدَ بْنِ حنبل، كانَ منذُ قريبٍ يُحدِّثُنا بأحاديثَ عنِ الشيطان، حفظْنا منها قولَه ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمن يُنْضِي[٢] شيطانَه كما يُنضي أحدُكم بعيرَهُ في سفرِهِ». وكانَ الحسنُ يقولُ في تأويلِهِ: إنَّ شيطانَ ٱلكافرِ دَهينٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطانَ ٱلمؤمنِ مَهزولٌ أشعَثُ أغْبرُ عارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ ويدَّهِنُ ويلبسُ لِيكونَ لَهُ أنْ يجوعَ معَ ٱلمؤمنِ ويَعَرى ويتشعَّثَ ويَغْبَرّ؟

قالَ ٱبنُ مسكين: فقلْتُ في نفسي: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله! ما أرى ٱلسائلَ إلَّا شيطانَ هذا السائل؛ فإنَّ إبليسَ إذا أرادَ أنْ يَسْخَرَ مِنَ ٱلعالمِ ويُسمِعَهُ طَنْزَهُ وتهكمَهُ[٣]، حرَّكَ مَنْ يسألُهُ عنه ما هو وكيف هو؛ كأنّما يقولُ له: تَنَبَّهْ ـ ويحكَ ـ على معنايَ، فأنْتَ تتكلَّمُ وأنا أعمل، وأنْتَ صورةٌ مِنَ ٱلردّ عَلَيَّ، ولكنِّي حقيقةٌ مِنَ الرَدِّ عليك، وما أنت في محاربَتِكَ لي بالوعظِ إلَّا كالذي يُريدُ أنْ يضربَ عُنُقَ عدوِّهِ بمائةِ ٱسمٍ وُضِعَتْ لِلسيف. . .

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ خبراً عجيباً عن أبي عامرٍ قَبيصةَ بْنِ عُقْبَةَ الكوفيِّ ٱلمحدِّثِ ٱلحافظِ ٱلثقةِ أحدِ شيوخِ أحمدَ بْنِ حنبل؛ وهوَ ٱلرجلُ ٱلصالحُ العابدُ ٱلذي كانَ يُقالُ له: (راهبُ الكوفةِ)؛ من زهدِهِ وعبادتِهِ وٱحتباسِ نفسِهِ في داخلِهِ كأنَّما جَسَدُهُ جِدارٌ بينَ نفسِهِ وبينَ ٱلدنيا، فقلْتُ ـ والله ـ لَأُغيظَنَّ ٱلشيطانَ بهذا الخبر، فإنَّ أسماءَ ٱلزهَّادِ والعبَّادِ وٱلصالحينَ هي في تاريخِ ٱلشياطينِ كأسماءِ المواقعِ ٱلتي

---

(١) عرْض، بتسكين الراء: جهة.

(٢) ينضي: يتعب ويهزل.

(٣) الطنز: السخرية والتهكم.

تنهزمُ فيها ٱلجيوش، وما الرجلُ العابدُ إلَّا صاحبَ الغَمَراتِ[1] معَ ٱلشيطان، وكأنَّهُ يحتملُ ٱلمكارِهَ عن أمَّةٍ كاملةٍ بلْ عنِ ٱلبشريةِ كلِّها حيثُ كانَتْ مِنَ ٱلأرض، فالناسُ يحسبونَهُ قد تخلَّى مِنَ ٱلدنيا ويظنُّونَ ٱلتركَ أيسرَ شيء، وما علِموا أنَّ ٱلزهدَ لا يستقيمُ لِلزاهدِ حتى يجعلَ جسمَهُ كأنَّهُ نوعُ نظامٍ آخرَ غيرِ نظامِ أعضائِه؛ ولا أشَقَّ من ذلك على النفس. ومعجزةُ الزاهدِ أنَّهُ مكلفٌ أنْ يُخرِجَ لِلناسِ أقوى القوةِ مِنَ ٱلمعاني ٱلتي هي عندَ ٱلناسِ أضعفُ الضعف؛ ولو أنَّ مَلِكاً عظيماً تعبَ في جمعِ الدنيا وفتْحِ ٱلممالكِ حتى حِيزتْ[2] له جوانبُ ٱلأرض، لكَانَ عملُهُ هذا هو الوجهَ الآخَرَ لتعبِ الزاهدِ في مُجاهدَةِ هذه الدنيا وتركِها.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وقصصْتُ عليهمُ ٱلقصةَ فقلْتُ: كانَ أبو عامرٍ قَبيصةُ بْنُ عُقبةَ كثيرَ الفِكْرِ في ٱلشيطان، يوَدُّ لو رآهُ وناقَلَهُ ٱلكلامَ؛ وكانَ يتدبَّرُ ٱلأحاديثَ التي صحَّ ورودُها فيه، ويفسِّرُ معنى ٱلشيطانِ بأنَّهُ الروحُ الحيُّ لِلخَطأ على الأرض؛ والخطأُ يكونُ صواباً محوّلاً عن طريقتِهِ وجِهَتِهِ، ولهذا كانَ إبليسُ في ٱلأصلِ مَلَكاً مِنَ ٱلملائِكَةِ وتحوّلَ عن طبيعتِهِ حينَ خُلِقَ آدمُ (عليه السلام)، أي وُجِدَ في ٱلكونِ روحُ ٱلخطأ حينَ وُجِدَ فيهِ ٱلروحُ ٱلذي سيُخطىء.

فلمَّا هبطَ آدمُ مِنَ ٱلجنةِ وحُرِمَها هو وزوجُهُ وذرّيتُه، كانَ إبليسُ (لعنهُ ٱلله) هو معنى بقاءِ هذا الحِرمانِ وٱستمرارِهِ على الدهر، فكأنَّ هذه الآدميَّةَ أُخرِجَتْ مِنَ ٱلجنة، وأُخرِجَتْ معها قوةٌ لا تَزالُ تَصُدُّها عنها، لِيضطربا في الكِفاحِ مَليًّا من زمنٍ هو عمرُ كلِّ إنسان، وهذا هو العدلُ الإلهيّ: لم يَعرفْ آدمُ حقَّ ٱلجنَّة، فعُوقِبَ ألَّا يأخذَها إلَّا بحقِّها، وأنْ يُقاتِلَ في سبيلِ الخيرِ قوةَ ٱلشرّ.

وباتَ أبو عامرٍ ذاتَ ليلةٍ يُفكِّرُ في هذا ونحوِهِ بعدَ أنْ فرغَ من صلاتِهِ وقراءتِه، ثُمَّ هَوَّمَ[3] فكانَ بينَ ٱليقَظةِ والنوم، وذلك حينَ تكونُ ٱلعينُ نائمةً وٱلعقلُ لا يزالُ منتبهاً، فكأنَّ ٱلعينَ مترجِعَةٌ تُبصرُ من تحتِ أجفانِها بصراً يُشارِكُها فيهِ ٱلعقل.

فرأى شيخُنا أبو عامرٍ صورةَ إبليسَ جاءَهُ في زِيِّ رجلٍ زاهدٍ، حَسَنِ ٱلسَّمْتِ[4] طيِّبِ الريح، نظيفِ ٱلهيئة، وكادَ يُشَبَّهُ عليهِ لولا أنَّهُ قد عرفَهُ من عينيه.

---

(1) الغمرات: الحروب.

(2) حِيزت: تحصّلت.

(3) هوّم: تحيّر.

(4) السمت: الهيئة والمظهر.

فإنّ عيني الكاذبِ تَصْدُقانِ عنه، وقد عَلِمَ ٱللَّهُ أنّ الكاذبَ آدميٌّ قَفْرٌ[1] كٱلْمَتَاهَةِ مِنَ الأرض، فجعلَ عينيهِ كٱلعلاماتِ لِمَنْ خاضَ ٱلفلاةَ.

وظهرَ ٱلشيطانُ زاهداً عابداً تَقيًّا نَقيًّا كأنَّهُ دِينٌ صحيحٌ خُلِقَ بَشراً، فَصَرَخَ فيهِ أبو عامر: عليكَ لَعنةُ ٱللهِ! أمعصيةٌ في ثوبِ ٱلطاعةِ؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقلِ: ٱلمعصيةُ إِنَّها طاعةٌ لم يُقَارِفْها[2] أحد. وهلِ خُلقَتِ ٱلشهواتُ في نفسِ ٱلإنسانِ وغريزتِهِ إلّا لِتقريبِ هذه ٱلمعاصي مِنَ ٱلنفس، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لِشيءٍ ما؛ فتقعُ ٱلمعصيةُ بأنَّها طاعةٌ لا بأنَّها معصية؟ أوَ لا ترى يا أبا عامرٍ أنَّ ٱلحِيلةَ مُحكمةٌ في ٱلداخلِ مِنَ ٱلجسم أكثرَ مِمَّا هي محكمةٌ في ٱلخارجِ عنه، وأنَّهُ لولا أنَّ هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لَمَا كانَ لِظاهرِ ٱلوجودِ كلِّهِ في ٱلأنسانِ معنًى ولا عمل؟

قالَ الشيخ: عليكَ لعنةُ ٱللهِ! فما أرى ٱلموتَ قد خُلِقَ إلّا ردًّا عليكَ أنت، لِيتبيَّنَ ٱلناسُ أنَّكَ ٱلممتلىءُ ٱلممتلىءُ، ولكنَّك ٱلفارغُ ٱلفارغ؛ بل كلُّ شهواتِكَ سخريةٌ منك وردٌّ عليك، فلا طعْمَ للذةٍ من لذاتِكِ إلّا وهِيَ تموت، وإنَّما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضي؛ ومتى قالَتِ ٱللذةُ: قدِ ٱنتهيْت. فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف.

قال إبليسُ: يا أبا عامر، ولكنَّ ٱللذةَ لا تموتُ حتى تَلِدَ ما يُبقيها حيَّة، فهي تَلِدُ ٱلحنينَ إليها، وهو لا يسكنُ حتى يعودَ لَذةً تنقضي وتَلِد.

قال الشيخ: معاني ٱلتراب، معاني ٱلتراب؛ كلُّ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها، ولكنْ (عليكَ لعنةُ الله) لِماذا جئْتَني في هذه الصورة؟

قال إبليسُ: لِأنّي لا ألبسُ إلّا محبَّةَ ٱلقلبِ الآدميّ، ولولا ذلك لطردَتْني ٱلقلوبُ كلُّها وبَطَلَ عملي فيها، وهل عملي إلّا التلبيسُ وٱلتزوير؛ أفتدري يا أبا عامرٍ أنّي لا أعتري ٱلحيوانَ قطُّ.

قالَ الشيخ: لِأنَّ ٱلحيوانَ لا ينظرُ إلى الشيءِ إلّا نظرةً واحدةً، هي نظرةٌ وفهمةٌ معاً، فلا محلَّ لِلتزويرِ مع هذهِ النظرةِ الواحدة؛ وصدقَ ٱللَّهُ العظيم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فأنْتَ أيُّها ٱلشيطانُ ٱلتزوير، وٱلتزويرُ

---

(1) قفر: صحراء. (2) يقارفها: يقع فيها.

موضعُه ٱلكذب؛ فمَنْ لم يكذبْ في ٱلفكرِ ولا في ٱلنظرِ ولا في ٱلفهمِ ولا في ٱلرجاء، فليسَ لك عندَهُ عمل.

قالَ إبليس: يا أبا عامر! وهلْ ترى (رحمَكَ ٱلله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزءِ والسخريةِ من أنّ أعظمَ العُقلاءِ الزهَّادِ العُبَّادِ، هو في جملةِ معانيهِ حيوانٌ ليسَ لَهُ إلَّا نظرةٌ واحدةٌ في كلِّ شيء؟

قالَ الشيخ: عليكَ وعليك. . . ؛ إنَّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ، فهو طبيعةٌ مسخَّرةٌ بنظامِها، ولكنَّ ٱلإنسانَ أشياءُ متناقِضَةٌ بطبيعتِها، فألوهيتُهُ أنْ يُقِرَّ ٱلنظامَ بين هذه ٱلمتناقِضَات، كأنّما ٱمتُحِنَ فأعطَى من جسمِهِ كوناً فيهِ عناصرُ ٱلاضطراب، وحولَهُ عناصرُ ٱلاضطراب، ثم قيل لَهُ دَبِّرْه.

فضحكَ إبليس. قال الشيخ: مِمَّ ضحكْتَ لَعنَكَ ٱلله؟

قال: ضحكْتُ من أنّكَ أعلمْتَني حقيقةَ ٱلإبليسية، فالزهَّادُ همُ ٱلصالحونَ لِأنْ يكونوا أعظمَ ٱلأبالسة. . .

قالَ الشيخ: عليكَ لعنةُ الله، فما هي تلك ٱلحقيقةُ التي زعمْت؟

قالَ إبليس: ـ واللَّهِ ـ يا أبا عامر، ما غلا إنسانٌ في زَعْمِ ٱلتقوى وٱلفضيلةِ إلَّا كانَتْ هذه هي ٱلإبليسيَّة؛ وسأعلمُكَ يا أبا عامرٍ حقيقةَ الزهدِ والعِبادة. فلا تقلْ إنَّها ألوهيَّةٌ تُقِرُّ ٱلنظامَ بينَ متناقِضاتِ الإنسانِ ومتناقضاتِ الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخَرُ منِّي لَعنَكَ الله؟ فمتى كنْتَ تعلَمُ ٱلحقيقةَ والفضيلة؟

قالَ إبليس: أوَ لم أكنْ شيخَ ٱلملائكة؟ فمَنْ أجدرُ من شيخِ ٱلملائكةِ أنْ يكونَ عالمَهَا ومعلِّمَها؟

قال: عليكَ لعنةُ ٱلله؛ فما هي حقيقةُ الزهدِ وٱلعِبادة؟

قالَ إبليس: حقيقتُها يا أبا عامر، هي ٱلتي أعجزتْني في نبيِّكم.

قالَ الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قالَ إبليس: هي ثلاثٌ بها نظامُ ٱلنفس، ونظامُ ٱلعالم، ونظامُ ٱللذات وٱلشهوات: أنْ تكونَ لكَ تقوى، ثُمَّ يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى، ثُمَّ يكونَ لكَ نظرٌ إلى العالمِ من هذا الفكر. ما ٱجتمَعتْ هذه الثلاثُ في إنسانٍ إلَّا قَهرَ الدنيا وقَهر إبليس.

فإنْ كانتِ ٱلتقوى وحدَها ـ كتقوى أكثرِ ٱلزهّادِ وٱلرهبان ـ فما أيسرَ أنْ أجعلَ ٱلنظرَ منها نظرَ الغفلةِ وٱلجُبْنِ وٱلبَلادةِ وٱلفضائلِ ٱلكاذبة، وإنْ كانَ الفكرُ وحدَه ـ كفكر ٱلعلماءِ وٱلشعراء ـ فما أهونَ أنْ أجعلَ النظرَ بِهِ نظرَ ٱلزَّيغِ وٱلإلحادِ وٱلبهيمةِ وٱلرذائلِ ٱلصريحة.

قال الشيخ: صدقَ ٱللَّهُ العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

قال إبليسُ: يا أبا عامر! ما يضرُّني ـ والله ـ أنْ أفسِّرَ لك، فإنَّ قارورةً مِنَ ٱلصِّبْغِ لا تَصْبغُ البحر، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماءَ المصلحينَ فأضَعُ في الناسِ بجانبِ كلِّ واحدٍ منهم مائةَ ألفِ ٱمرأةٍ مفتونة، ومائةَ ألفِ رجلٍ فاسق، ومائةَ ألفِ مخلوقٍ ظالم، فلو أنَّكَ صَبَغْتَ البحرَ بملءِ قارورةٍ حمراءَ لَمَا صبغْتِ ٱلبحرَ ٱلإنسانيَّ بالزاهدِ وٱلمصلح، ما دامَ ٱلمصلحُ شيئاً غيرَ ٱلسيف، وما دامَ ٱلزاهدُ شيئاً غيرَ ٱلحاكم.

قالَ ٱلشيخ: لعنَكَ ٱللَّهُ مِنْ شيطانٍ عارِم، فإذا وضعْتَ ٱلمصلحَ بينَ مائةِ ألفِ فاسد، فهل هذه إلَّا طريقةٌ شيطانيَّةٌ لإفسادِه؟

قالَ إبليس: ومائةَ ألفِ ٱمرأةٍ فتَّانةٍ مفتونةٍ يا أبا عامر، كلُّ واحدةٍ تحسبُ جسمَها...

فصرخَ ٱلشيخ: أُغْرُبْ عنّي عليكَ لعنةُ الله!

قالَ إبليس: ولكنَّ الآيةَ الآيةَ يا أبا عمر. لقد لقيْتُ ٱلمسيحَ وجرَّبْتُهُ وهو كانَ تفسيرَها.

قالَ الشيخ: عليهِ السلام! وعليكَ أنت لعنةُ الله! فكيفَ قال؟ وكيف صنع؟

قالَ إبليس: ألقيْتُ بهِ جائعاً في ٱلصحراءِ لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظنُّ أنَّهُ يجدُ، ولا يرجو أنْ يظنَّ؛ ثُمَّ قلْتُ لَه: إنْ كنتَ رُوحَ ٱللَّهِ وكلمتَهُ كما تزعمُ فمُرْ هذا الحجَرَ ينقلبْ خبزاً. فكانَ تقيًّا، فتذكَّر فإذا هو مُبْصِر، فقال: ليسَ بالخبزِ وحدَهُ يحيا ٱلإنسان، فمثلُ هذا لو ماتَ جوعاً لم يتحوَّلْ، لِأنَّ ٱلموتَ إتمامُ حقيقتِهِ ٱلساميةِ فوقَ هذه الدنيا، ولو مُلِئتْ لَهُ ٱلدنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوّل، لِأنَّ لَهُ بَصَراً من فوقِ ٱلخبزِ إلى حقيقتِهِ ٱلسماوية؛ فليسَ بِالخبزِ وحدَهُ يحيا؛ بل بمعانٍ أخرى هي إشباعُ حقيقتِهِ ٱلسماويةِ التي لا شهوةَ لها.

ثمّ ٱرتقيْتُ[1] بهِ إلى ذرْوةِ جبلٍ وأريْتُهُ ممالكَ ٱلخافِقَين[2]، كشفْتُها كلَّها لِعينيهِ وقلْتُ لَه: هذا كلُّهُ لَكَ إذا أنت سجدْتَ لي. فكان متقياً، فتذكَّرَ فإذا هو مُبصِر: أبصرَ حقيقةَ الخيالِ الذي جَسَّمْتُهُ له، وعَلِمَ أنَّ الشيطانَ يُعطي مثلَ معاني هذه الممالكِ في جَرعةِ خمر، كما يُعطيها في ساعةِ لذة، كما يُعطيها في شِفاءِ غيظٍ بالقتلِ والأذى؛ ثُمَّ لا يبقَى من كلِّ ذلك باقٍ غيرُ الإثم، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلّا الحرام. ومَن ملَكَ ٱلدنيا نفسَها لم يبقَ لها إذا بقيَتْ فهي خيَالٌ في جَرعةِ ٱلحياة، كما هي خيالٌ في جرعةِ ٱلخمر.

يا أبا عامر؛ إنَّ هذا ٱلنظر، ٱلذي وراءَهُ التذكُّر، الذي وراءَهُ ٱلتقوى، التي وراءَها ٱلله ـ هذا وحدَهُ هو القوةُ التي تتناولُ شهواتِ الدنيا فتُصفِّيها أربعَ مراتٍ حتى تعودَ بها إلى حقائِقها الترابيةِ الصغيرةِ التي آخرُها القبر، وآخرُ وجودِها التلاشي.

فالبصرُ الكاشفُ الذي يُجرِّدُ الأشياءَ من سِحرِها ٱلوهميّ، هذا هو كلُّ السرّ.

* * *

قال الشيخ: لعَنَك ٱلله؛ فكيف مع هذا تفتُنُ ٱلمؤمن؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر، هذا سؤالٌ شيطانيّ.... تُريدُ ـ ويحَكَ ـ أن تحتالَ على الشيطان؟ ولكن ما يضرُّني أنْ أفسرَها لك.

ليسَ ٱلإيمانُ هوَ ٱلاعتقادَ ولا العملَ، ولو كانَ من هذينِ لَمَا شَقَّ على أحدٍ ولَصلُحَتِ ٱلدنيا وأهلُها؛ إنَّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مَعَ ٱلغريزةِ في مَقرِّها، ويصلُحُ أنْ يكونَ في مقرِّها لِتَصْدُرَ عنهُ أعمالُ الغريزة؛ وهذا ٱليقينُ لا يصلحُ كذلك إلّا إذا كانَ يقيناً ثابتاً بِمَا هو أكبرُ مِنَ الدنيا، فيرجعُ إليهِ الإنسانُ فيتذكرُ فيُبْصِر. هناك ميراثٌ مِنَ الآخرةِ لِلمؤمن، فٱليقينُ بهذا ٱلميراثِ هو سِرُّ ٱلإيمان.

وٱلعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلّا في إفسادِ هذا اليقينِ ومُعارضةِ ٱلخيالِ ٱلعظيمِ ٱلذي فيهِ بالحقائقِ ٱلصغيرةِ التي تظهرُ لِلمغفلِ عظيمة، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من قُرصِ ٱلشمسِ ثُمَّ يُقالُ لِلأبلهِ: أُنظرْ بعينيك، فيُصدّقُ أنَّها أكبرُ مِنَ ٱلشمس.

ومتى صغُرَ هذا اليقينُ وكانَتِ ٱلحقائقُ الدنيويَّةُ أكبرَ منه في النفس؛ فأيسرُ أسبابِ الحياةِ حينئذٍ يُفسِدُ ٱلمعتقَدَ ويُسقِطُ ٱلفضيلة؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ ٱللصُّ حينئذٍ.

---

(١) ارتقيت: صعدت. (٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

أما إذا ثبتَ ٱليقينُ فٱلشيطانُ مَعَ ٱلإنسانِ يصغرُ ثُمَّ يصغُر، ويَعجزُ ثُمَّ يعجز. حتى لَيرجعُ مثلَ ٱلدرهمِ إذا طمِعَ الطامعُ أنْ يجعلَ ٱلرجلَ الغنيَّ ٱلكثيرَ ٱلمالِ لِصًّا مِنَ ٱللصوص بهذا الدرهم.

قالَ الشيخ: لَعَنَكَ الله! فإنْ لم تستطعْ إفسادَ هذا اليقينِ فكيفَ تصنعُ في فتنةِ ٱلمؤمن؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر، إنْ لم أستطعْ إفسادَ ٱليقينِ زدْتُهُ يقيناً فيفسد، وٱستحسانُ الرجلِ لأعمالِهِ ٱلساميةِ قد يكونُ هو أولَ أعمالِهِ ٱلسافلة؛ وبأيِّ عجيبٍ يكونُ ٱلشيطانُ شيطاناً إلَّا بمثلِ هذا؟

* * *

قالَ أحمدُ بْنُ مسكين: وغضبَ ٱلشيخ، فمدَّ يدَهُ فأخذَ فيها عُنُقَ إبليسَ وقد رآهُ دقيقاً، ثُمَّ عَصرهُ عَصْراً شديداً يُريدُ خنْقَه؛ فقهقَهَ ٱلشيطانُ ساخراً منه. ويتنبَّهُ الشيخ، فإذا هو يشدُّ بيدِهِ ٱليمنى على يدِهِ ٱليسرى....

الدنيا والدرهم

٤

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكينٍ: وأزِفَ[١] ترحُلي عن (بلْخ)، وتهيأْتُ لِلخروجِ، ولم يبقَ من مدةِ مَقِيلي بها إلَّا أيامٌ يجيءُ فيها ٱلسبتُ الرابع، وكانَ قَدْ وقعَتْ مُمَاراةٌ بيني وبينَ مفتي (بلْخ) أبي إسحاقَ إبراهِيمَ بْنِ يوسفَ ٱلباهليِّ تلميذِ أبي يوسفَ صاحبِ ٱلإمامِ أبي حَنيفةِ، ويزعمونَ أنَّهُ شحيحٌ على ٱلمال، وأنَّهُ يَتَغَلَّلُهُ من مُسْتَغَلَّاتٍ كثيرةٍ[٢]، فكأنَّما غَشِيَتْهُ[٣] غمامتي، فهو لا يرى أنْ أتكلمَ في الزهد، ويحسِبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العُبَّاد، ونَفْضَ الأيدي مِنَ ٱلدنيا، وسُوءَ ٱلمصاحبةِ لِمَا يُنعِمُ ٱللَّهُ بهِ على العبد، وخذلانَ ٱلقوةِ في ٱلبدن، وما جرى هذا ٱلمجرى من تزويرِ ٱلحياةِ بالأباطيلِ ٱلتي زَعَمَ أنَّها أباطيلُ ٱلطاعاتِ وما أقرَبَها مِنْ أباطيلِ ٱلمعصية. ولم يكنْ هذا المفتى قد سمعني ولا حضرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفْهُ من ذلك لقد كانَ عرف.

وجادلْتُهُ[٤] فرأيْتُهُ واهِنَ[٥] الدليل، ضعيفَ ٱلحُجَّة، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه، وينظرُ إلى الخفايا من حقائقِ النفوسِ نظرَ صاحبِ ٱلنصِّ إلى الظاهر، كأنَّ ٱلحقيقةَ إذا أُلقِيَتْ على الناسِ مضَتْ نافذةً كفتوى المفتي... ويزعُم أنَّ ٱلوعظَ وعظُ ٱلفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكونُ حراماً لا يُقارِفُهُ[٦] أحد، وهذا حلالٌ. فيكونُ حلالاً لا يتركُهُ أحد، وهو كانَ بعيداً عن حقيقةِ ٱلوعظ ومَدَاخلِهِ إلى النفسِ وسياستِهِ فيها، ولا يعرفُ أنَّ الحقيقةَ كالأنثى: إنْ لم تُزَيَّنْ بزينتِها لم تَسْتَهْوِ أحداً؛ وأنَّ ٱلموعظةَ إنْ لم تَتأدَّ في أسلوبِها الحيِّ كانَتْ بالباطلِ أشبَه، وأنَّهُ لا يُغيِّرُ ٱلنفسَ إلَّا النفسُ التي فيها قوةُ ٱلتحويلِ وٱلتغيير، كنفوسِ ٱلأنبياءِ ومَنْ كانَ في طريقةِ رُوحِهم،

(١) أزف: حان.
(٢) المستغلّات: أصول الأموال.
(٣) غشيته: غطته.
(٤) جادلته: ناقشته.
(٥) واهن: ضعيف.
(٦) يقارفه: يقع فيه.

وأنَّ هذه الصناعةَ إنَّما هي وضعُ نورِ ٱلبصيرةِ في الكلام، لا وضعُ ٱلقِياسِ وٱلحُجَّة، وأنَّ ٱلرجلَ ٱلزاهدَ ٱلصحيحَ الزهد، إنَّما هو حياةٌ تلبسُها الحقيقةُ لِتكونَ بِهِ شيئاً في ٱلحياة والعمل. لا شيئاً غيرَ القولِ والتوهُّم، فيكون إلهامُها فيه كحرارةِ ٱلنارِ في ٱلنار: مَنْ وَاتَاها أحسَّها.

ولَعَمْري، كم من فقيهٍ يقولُ للناس: هذا حرام. فلا يزيدُ هذا الحرامَ إلَّا ظهوراً وٱنكشافاً ما دامَ لا ينطقُ إلَّا نطقَ ٱلكتب، ولا يُحسنُ أنْ يصِلَ بينَ ٱلنفسِ والشَّرْع، وقد خلا مِنَ القوَّةِ التي تجعلُهُ روحاً تتعلَّقُ ٱلأرواحُ بها وتضعُهُ بينَ ٱلناسِ في موضعٍ يكونُ بهِ في ٱعتبارِهم كأنَّهُ آتٍ مِنَ ٱلجنَّةِ منذُ قريب، راجعٌ إليها بعد قريب.

وٱلفقيهُ ٱلذي يتعلَّقُ بالمالِ وشهواتِ ٱلنفس، ولا يجعلُ هَمَّهُ إلَّا زيادةَ ٱلرزقِ وحظَّ الدنيا ـ هو الفقيهُ الفاسدُ الصورةِ في خيالِ ٱلناس، يُفْهِمُهم أولَ شيءٍ ألَّا يَفْهموا عنه؛ إذ حِرْصُهُ فوقَ بصيرتِهِ، ولَهُ في ٱلنفوسِ رائحةُ ٱلخبز، ولَهُ معنى: خمسٌ وخمسٌ عشرة...[1] وكأنَّ دنياهُ وضَعَتْ فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسِدُ ٱلحقيقةَ ٱلتي يتكلَّمُ بها؛ ولسْتُ أدري ما هو هذا الشيء، ولكنِّي رأيْتُ فقهاءَ يعِظونَ ويتكلمونَ على الناسِ في ٱلحرام وٱلحلالِ وفي نصِّ كتابِ ٱللَّهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ثمَّ لم أجدْ لِكلامِهِم نفعاً ولا ردًّا، إذْ يُلْهِمُون الناسَ بأرواحِهِم غيرَ ٱلمعنى ٱلذي يتكلمون فيه؛ وتَسْخَرُ ٱلحقيقةُ منهم ـ على خَطَرِهم[2] وجلالِ شأنِهم ـ بذاتِ الأسلوبِ ٱلذي تسخَرُ بِهِ من لِصٍّ يعِظُ لِصًّا آخرَ فيقول له: لا تَسرِق...

❊ ❊ ❊

قالَ ٱبْنُ مسكين: فلمَّا دارَ يومُ ٱلسبتِ أقبلَ ٱلناسُ على ٱلمسجدِ أفواجاً، وكانوا قد تَعَالَموا إزْمَاعِي ٱلرحيلَ عن بلدِهم ـ وجاءَ (لقمانُ الأمَّةِ) في أشياعِهِ وأصحابِهِ، وجاءَ أبو إسحاقَ المُفتي في جماعتِهِ؛ وٱستقرَّ بيَ ٱلمجلسُ فنفَذْتُ ٱلناسَ بنظَري، فكأنَّهُم من كثرتِهِم نَبَاتٌ غطَّى ٱلأرض، فأذكرني هذا شيخَنا السريَّ بْنَ مُغلِّسٍ ٱلسقَطيّ[3]، وكانَ قد لزمَ دارَهُ في بغدادَ لا يخرجُ منها ولا يراهُ إلَّا من قَصَدَ إليه، وهممْتُ أنْ أجعلَ ٱلموعظةَ في شرحِ كلمتِهِ ٱلمشهورة: «لا تَصِحُّ ٱلمحبَّةُ بينَ

---

(١) يقصد من ذلك أن الحياة عملية حسابية.

(٢) خطرهم: أهميتهم.

(٣) السقط: رديء المتاع، وبائعه يسمّى السقطي.

اْثنينِ حتى يقولَ أحدُهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من أنَّهُ قالَ مرةً لِبعضِ أصحابِه: منذُ ثلاثينَ سنةً وأنا في الاستغفارِ من قولي: (الحمدُ لله). فقالَ صاحبُه: وكيف ذلك؟ قال: وقعَ ببغدادَ حريقٌ، فاْستقبلَني رجلٌ فقال: نجا حانوتُك. فقلْتُ: الحمدُ لِلَّه فأنا نادمٌ من ذلك الوقتِ على ما قلْت؛ إذْ أردْتُ لِنفسي خيراً مِنَ اْلناس!

قالَ اْبْنُ مسكين: ولكنِّي أحببْتُ أنْ أُكلِّمَ اْلمُفتي ومالَ المُفتي؛ فحدثْتُهُم حديثَ معرفتي بالسَّريّ: أنّي سمعْتُ يوماً (غَيْلانَ اْلخياط) يقول: إنَّ السريَّ كانَ اشترى كُرّ[1]لوز بستين ديناراً، وأثبتَهُ في رزنامجهِ[2] وكتبَ أمامَهُ: ربحُهُ ثلاثةُ دنانير؛ فلم يلبثْ أنْ غلا السعرُ فبلغَ تسعينَ ديناراً؛ فأتاهُ اْلدلالُ الذي كانَ اْشترى لَهُ فقال: أُريدُ ذلك اللوز. قال الشيخ: خذْهُ. قال: بكَم؟ فقال: بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. وكانَ اْلدلالُ رجلاً صالحاً، فقالَ لِلشيخ: إنَّ اللوزَ قد صارَ اْلكُرُّ بتسعين. قال السريّ: ولكنِّي عقدْتُ بيني وبينَ اللّهِ عقْداً لا أحلُّه، فلسْتُ أبيعُ إلّا بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. فقالَ الدلّال: وأنا قد عقدْتُ بيني وبينَ اْللّهِ عقداً لا أحلّه، ألّا أَغشَّ مسلماً، فلسْتُ أشتري منك إلّا بتسعين؛ فلا الدلّالُ اْشترى منه، ولا السريُّ باعه...!

قالَ أحمدُ بْنُ مسكين: فلمَّا سمعْتُ ذلك لم تكنْ لي هِمَّةٌ إلّا أنْ اْلقى الشيخَ وأصحَبَهُ وآخذَ عنه، فلم أُعرِّجْ[3] على شيءٍ حتى كنْتُ في اْلمسجدِ الذي يُصلِّي فيه، فأجدُهُ في حَلْقتِهِ وعندَهُ مِمَنْ كنْتُ أعرفُهم: عبدُ اْلله بْنُ أحمد بْنِ حنبل، وإدريسُ الحداد، وعلي بْنُ سعيدٍ اْلرازي، وحولَهُ خلقٌ كثيرٌ وهو فيهم كالشجَرةِ الخضراءِ بينَ الهشيمِ تعلوهُ نَضرةُ روحِه، وكأنّما يُمدُّهُ بالنورِ عِرقٌ مِنَ اْلسماء، فهو يتلألأُ لِلعين؛ ولا يملكُ الناظرُ إليهِ إلّا أنْ يُحِسَّ في ذاتِ نفسِهِ أنَّهُ الأدنى، من رؤيتِهِ في ذاتِ نفسِهِ أنَّ هذا هُوَ الإنسانُ الأعلى.

ورأيْتُ على وجهِهِ آلاماً تمسَحُهُ مِسْحةَ اْلأشواقِ لا مِسْحَةَ اْلآلام، آثارُ ما يجدُهُ في روحِهِ اْلقويَّة، لا كآلامِ اْلناسِ اْلتي هي آثارُ اْلحِرمانِ في أرواحِهِمُ اْلواهنةِ اْلضعيفةِ فلا تمسحُ وجوهَهم إلّا مِسحةَ الغمِّ والكآبة.

---

(١) الكر، بضم الكاف هو مكيال عظيم يقدرون فيه الحساب، يساوي أربعين إردباً مصرياً.
(٢) رزنامجه: دفتر حساباته.
(٣) أعرّج: أمل، ألو.

وما يُخطىءُ ٱلنظرُ في تمييزِ آلام السماءِ على هذِهِ ٱلوجوهِ ٱلسعيدةِ مِنْ آلامِ الأرضِ في ٱلوجوهِ ٱلأخرى، فإنَّ الأولَى تَتَنَدَّى على رُوحِ الناظرِ بمثلِ الطَّلِّ إذا قَطَّرَهُ ٱلفجر، والأخرى تَتَثَوَّرُ في روحِهِ كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربَتِ ٱلريحُ ٱلأرض.

كانَ ٱلشيخُ في وجودٍ فوقَ وجودِنا؛ فلا تتلوَّنُ لَهُ ٱلأشياءُ ولا تعدو عندَهُ ما هي في نفسِها، ولا يحملُ الشيءُ لَهُ إلَّا معناهُ من حيثُ يَصلُحُ أو لا يصلُح، ومن حيثُ ينبغي أو لا ينبغي. فإنَّما تتلوَّنُ الأشياءُ عندَ ما يضعُ ٱلشيطانُ عينَهُ في عينِ ٱلناظرِ إليها؛ وإنَّما تزيدُ وتنقُصُ في القلبِ عندَما يكونُ روحُ الشيطانِ في ٱلقلْبِ؛ وإنَّما يَشتبِهُ ما ينبغي وما لا ينبغي عندَ ما يأتي الشيءُ من جهتين: جهتِهِ من طبيعتِهِ هو، وجهتِهِ من طبيعتِنا نحن. وبهذا قد يجمعُ ٱلإنسانُ ٱلمالَ ثُمَّ لا يجدُ في ٱلمالِ معنى ٱلغِنى، وقد تتَّفِقُ أسبابُ ٱلنعيم ولا يكونُ منها إلَّا الذُّلّ. وكم مِن إنسانٍ يجدُ وكأنَّهُ لم يجدْ إلَّا عكسَ ما كانَ يبغِي، وآخَرَ لم يجدْ شيئاً ووجدَ بذلك راحتَه.

* * *

قالَ ٱبنُ مسكين: وما كانَ أشدَّ عجبي حينَ تكلَّمَ الشيخ، فقد أخذَ يُجيبُ عَمَّا في نفسي ولم أسألْه، كأنَّ ٱلذي في فكري قد ٱنتقلَ إليه؛ فروَى الحديث: «إذا عظَّمَتْ أمتي ٱلدينارَ وٱلدرهمَ، نُزِعَ منها هيبةُ ٱلإسلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بِالمعروفِ وٱلنهيَ عنِ المنكر، حُرموا بركةَ ٱلوحي». ثُمَّ قال في تأويلِهِ:

إنَّ مَلَكَ الوحي ينزلُ بالأمرِ والنهي لِيُخضعَ صَوْلَةَ[1] الأرضِ بصَولةِ ٱلسماء، فإذا بقيَ ٱلأمرُ بالمعروفِ وٱلنهيُ عنِ ٱلمنكر، بقي عملُ ٱلوحي إلَّا أنَّهُ في صورةِ ٱلعقل، وبقيَتْ روحانيَّةُ الدنيا إلَّا أنَّها في صورةِ ٱلنظام، وكانَ مَعَ كلِّ خطأٍ تصحيحُه؛ فيُصبحُ ٱلإنسانُ بذلك تنفيذاً لِلشريعةِ بينَ آمرٍ مُطاعٍ ومأمورٍ مُطيع، فيتعاملُ ٱلناسِ على حالةٍ تجعلُ بعضَهُم أستاذاً لِبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لِشيء، وقوةً سنداً لِقوَّة؛ فيقومُ العزْمُ في وجهِ ٱلتعاون، وٱلشدَّةُ في وجهِ ٱلتراخي، والقدرةُ في وجهِ ٱلعجز؛ وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعودُ صِفاتُهُمُ ٱلإنسانيَّةُ وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يُناصِرُ بعضُهُ بعضاً، فتكونُ ٱلحياةُ مفسَّرةً ما دامَتْ معانيها ٱلساميةُ تأمرُ أمرَها وتُلهِمُ إلهامَها، وما دامَتْ ممثَّلةً في ٱلواجبِ ٱلنافذِ على ٱلكُلّ.

وٱلناسُ أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعاني، فليسَتْ حقيقةُ ٱلحريَّةِ ٱلإنسانيَّةِ إلَّا

---

(1) صوْلة: جوْلة.

ٱلخضوعَ لِلواجبِ ٱلذي يحكم، وبذلك لا بغيرِهِ ويتَّصلُ ما بينَ ٱلملكِ والسُّوقةِ[1]، وما بينَ ٱلأغنياءِ وٱلفقراءِ، ٱتصالَ الرحمةِ في كلِّ شيءٍ، وٱتِّصالَ ٱلقَسوةِ في ٱلتأديبِ وحدَه. فبركةُ ٱلوحي إنَّما هي جعلُ ٱلقوَّةِ الإنسانيَّةِ عملاً شرعيًا لا غير.

أمَّا تعظيمُ ٱلأمةِ لِلدنيا وٱلدرهم، فهو ٱستبعادُ ٱلمعاني ٱلحيوانيَّةِ في ٱلناسِ بعضِها لِبعض، وتقطُّعُ ما بينَهم مِنَ ٱلتشابُك في لُحْمَةِ ٱلإنسانيَّة، وجعلُ ٱلكبيرِ فيهم كبيراً وإنْ صَغُرَتْ معانيه، والصغيرِ فيهم صغيراً وإنْ كَبِرَ في ٱلمعاني؛ وبهذا تموجُ ٱلحياةُ بعضُها في بعض، ولا يستقيمُ ٱلناسُ على رأيٍ صحيح؛ إذْ يكونُ ٱلصحيحُ وٱلفاسدُ في مِلْكِ ٱلإنسانِ لا في عمل ٱلإنسان، فيكنزُ ٱلغنيُّ مالاً ويكنزُ ٱلفقيرُ عداوةً، كأنَّ هذا قَتَلَ مالَ هذا، وكأنَّ أعمالاً قتلَتْ أعمالاً، وترجعُ ٱلصفاتُ ٱلإنسانيَّةُ متعاديةً، وتُباعُ ٱلفضائلُ وتُشترى، ويزيدُ من يزيدُ ولكنْ في ٱلقسوة، وينقُصُ مَنْ ينقصُ ولكنْ في ٱلحريَّة، وتكونُ ٱلمنفعةُ ٱلذاتيَّةُ هي ٱلتي تأمرُ في ٱلجميعَ وتنهَى، ويدخُل ٱلكذبُ في كلِّ شيءٍ حتى في ٱلنظرِ إلى ٱلمال، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنَّما دِرْهمُهُ ودينارُهُ أكبرُ قيمةً من دينارِ ٱلآخرِ ودرهمِه، فإذا أعطى نقَصَ فغَشَّ، وإذا أخذ زادَ فَسَرَق؛ وتُصبحُ النفوسُ نفوساً تجاريَّةً تُساوِمُ قبلَ أنْ تنبعثَ لِفضيلة، وتُماكِسُ[2] إذا دُعِيَتْ لِأداءِ حقّ، ويتعاملُ الناسُ في الشرفِ على أصولٍ مِنَ المَعِدةِ لا مِنَ ٱلروح، فلا يُقالُ حينئذٍ، إنَّ رغيفينِ أكثرُ من رغيفٍ واحد. كما هي طبيعةُ ٱلعددِ، بل يُقال: إنَّ رغيفينِ أشرفُ من رغيفٍ. كما هي طبيعةُ ٱلنفاق.

أمَّا التجارةُ ـ وهي ٱلتفسيرُ ٱلظاهرُ لِمعاني ٱلنفوس ـ فتُصبحُ بينَ ٱلغِشِّ وٱلضررِ وٱلمماكَرَة، وتكونُ يقَظَةُ ٱلتاجرِ من غفلةِ ٱلشاري، وتَفسُدُ ٱلإرادةُ فلا تُحدِثُ إلَّا آثارَها ٱلزائغة[3]. وما ٱلتاجرُ في ٱلأمَّةِ ٱلقويَّةِ إلَّا أستاذٌ لِتعليم الصدقِ والخُلقِ في ٱلموضعِ ٱلمتقلِّب، فكلمتُهُ كالرقْم مِنَ ٱلعددِ لا يحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مِمَّا فيه، ويُمتَحَنُ بٱلدنيا وٱلدرهم أشدَّ مِمَّا يُمتحنُ ٱلعابدُ بصلاتِهِ وصيامِهِ. وقد شهدَ رجلٌ عندَ عمرَ بْنِ ٱلخطابِ في قضيَّة، فقالَ لَهُ عمر: اِئتني بمَنْ يعرفُك. فأتاهُ برجلٍ أثنى عليهِ خيراً، فقالَ لَهُ عمر: أنتَ جارُهُ ٱلأدنى ٱلذي يعرفُ مَدْخَلَهُ ومخرجَه؟ قال:

---

(١) السُّوقة: العامة من الناس.

(٢) تماكس: تشاحى في البيع والشراء.

(٣) الزائغة: المنحرفة.

لا. قال: فكنْتَ رفيقَهُ في ٱلسفرِ ٱلذي يُستدَلُّ بهِ على مكارمِ ٱلأخلاقِ؟ قال: لا.
قال: فعاملْتَهُ بالدينارِ وٱلدرهمِ الذي يَستبِينُ بهِ ورَعُ ٱلرجل؟ قال: لا.

قالَ عمر: أظنُّكَ رأيْتَهُ قائماً في ٱلمسجدِ يُهَمْهِمُ بالقرآن، يَخفِضُ رأسَهُ طوْراً ويرفعُهُ أخرى؟ قال: نعم.

قال: فٱذهبْ فلسْتَ تعرفُه!

وإنّما التاجرُ صورةٌ من ثِقةِ ٱلناسِ بعضِهم ببعض، وإرادةِ ٱلخيرَ وٱعتقادِ ٱلصدق، وهو في كلِّ ذلك مظهرٌ توضَعُ ٱليدُ عليهِ كما تَجسُّ[1] ٱليدُ مرضَ ٱلمريضِ وصحتَه.

فإذا عظَّمَتِ ٱلأمةُ ٱلدينارَ وٱلدرهم، فإنَّما عظَّمَتِ ٱلنفاقَ وٱلطمعَ وٱلكذبَ وٱلعداوةَ وٱلقسوةَ والاستعبادَ؛ وبهذا تُقيمُ ٱلدنانيرَ وٱلدراهِمَ حُدوداً فاصلةً بينَ أهلِها، حتى لِتكونَ ٱلمسافةُ بينَ غنيٍّ وفقيرٍ كٱلمسافةِ بينَ بلدينِ قد تباعَدَ ما بينهما. وإنَّما هيبةُ ٱلإسلامِ في العِزةِ بالنفسِ لا بالمال، وفي بذلِ ٱلحياةِ لا في ٱلحِرْصِ عليها، وفي أخلاقِ ٱلروحِ لا في أخلاقِ ٱليد، وفي وضعِ حُدودِ ٱلفضائلِ بينَ الناسِ لا في وضعِ حُدودِ ٱلدراهم، وفي إزالةِ النقائصِ مِنَ ٱلطباعِ لا في إقامتِها، وفي تَعاوُنِ صِفاتِ المؤمنينَ لا في تعاديها، وفي ٱعتبارِ ٱلغِنى ما يُعْمَلُ بالمالِ لا ما يُجمَعُ مِنَ ٱلمال، وفي جعلِ أولِ ٱلثروةِ العقلَ والإرادة، لا ٱلذهبَ والفضة...

هذا هو ٱلإسلامُ الذي غلَبَ ٱلأمم، لأنَّهُ قبلَ ذلك غَلَبَ ٱلنفسَ وٱلطبيعة.

---

(١) تجسّ: تدسّ.

دُعابةُ إبليس[1]

أمَا إنِي سأقصُّ هذه ٱلحكايةَ كما ٱتّفقَتْ، لا أُزينُها بخيال، ولا أتزَيّدُ فيها بخبر، ولا أولِّدُ لها معنى؛ فإنَّما هي حِكايةُ خُبْثِ ٱلخبيثِ: فنُّها حِذْقُهُ[2] ودَهاؤه، ورقّتُها غِلْظتُهُ وشرُّه، ومعانيها بلاؤهُ ومِحْنتُه؛ وأعوذُ باللَّهِ منَ ٱلشيطانِ الرجيم، وٱللَّهُ المستعان.

لَمَّا فكرْتُ في وضعِ مقالةِ (إبليسَ) من أحاديثِ (ابن مسكين)، وأدرْتُ رأيي في نهجِها وحدودِها ومعانِيها، جعلَ فكرِي يتقطَّعُ في ذلك، يذهبُ ويجيءُ كأنَّ بيني وبينَه منازَعة، أو كأنَّ في نفسي شيئاً يَثنيني ويقطعُني عنِ ٱلعَزم؛ وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ (إبليسَ) هذا منفعةٌ مِنَ ٱلمنافع . . . وأنَّهُ هو قانونُ ٱلطبيعةِ ٱلذي نَصُّ مادَّتِهِ ٱلأولى: ما أعجبَكَ فهو لك. ونَصُّ مادتِهِ ٱلأخيرة: ما ٱحتجَتَ إليهِ فثمنُهُ أنْ تقدرَ على أخْذه . . .

وهَجَسَ في نفسي هاجسٌ: أنَّ (إبليسَ) قائمٌ في لفظِ ٱلحريَّةِ كما هو قائمٌ في لفظِ ٱلإثم، وأنَّهُ إنْ يكنْ في قلوبِ ٱلفُسّاقِ فهو أيضاً في أدمغةِ ٱلفلاسفةِ وإنْ كانَ في سقوطِ أهلِ ٱلرذيلةِ إلى ٱلرذيلة، فهو كذلك في سموِّ أهلِ ٱلفنِّ إلى الفنّ . . . قالَ ٱلهاجس[3]: وإنَّ (إبليسَ) أيضاً هو صاحبُ ٱلفضيلةِ ٱلعمليَّةِ في هذا العصرِ ٱلماديّ، فهو من ثَمَّ حقيقٌ أنْ يلقّبوه «صاحبَ الفضيلة».

ولكنّي لم أحفِلْ[4] بهذهِ ٱلوساوسِ ولم أعُجْ[5] على شيءٍ منها، وٱستعنْتُ ٱللَّهَ وأمضيْتُ نيّتي على ٱلكتابة، وأخذْتُ أقلِّبُ ٱلموضوع، وأنبِّهُ فكري له، وأستَشْرِفُ[6] لِمَا يؤدِّي إليهِ ٱلنظر، وأتطلَّعُ لِمَا يجيءُ بهِ ٱلخاطر، وٱلتمسُ ما أبني عليهِ ٱلكلامَ كما هي عادتي؛ فلم يقعْ لي شيءٌ ألبتة، كأنّما ذهَبَ أولُ ٱبتداءِ

---

(١) الدعابة: المزاح واللعب.

(٢) حذقه: اتقانه.

(٣) الهاجس: الهاتف.

(٤) أحفل: أهتمّ.

(٥) أعج: أمل، أعرّج.

(٦) أستشرف: أستطلع.

ٱلموضوع فلا أولَ لَهُ ولا سبيلَ إلى ٱقتحامه، وكأنَّهُ من وراءِ ٱلعِلْم فلا يُبلَغُ إليه، وكأنَّه مِنَ ٱلتعذُّرِ كمحاولةِ تصويرِ حماقةِ ٱلحياةِ كلِّها في كلمة. وإبليسُ كلمةٌ فيها حماقةُ الحياةِ كلِّها.

* * *

ومن عادتي في كتابةِ هذه ٱلفصولِ ٱلتي تنشُرها (الرسالة)، أنْ أدعَ ٱلفصلَ منها تقلِّبُهُ ٱلخواطرُ في ذِهني أيامَ ٱلثلاثاءِ وٱلأربعاءِ وٱلخميس، وأتركُ أمرَهُ لِلقوةِ ٱلتي في نفسي، فتتولَّد ٱلمعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتَنْثَالُ[1] من هٰهنا وهٰهنا، ويكونُ ٱلكلامُ كأنَّهُ شيءٌ حيٌّ أُريدَ لَهُ ٱلوجودُ فوُجِد.

ثُمَّ أكتبُ نهارَ ٱلجمعة، ومن ورائِهِ ليلُ ٱلسبتِ وليلُ ٱلأحدِ كالمددِ من وراءِ الجيشِ إذا نالتْني فترةٌ أو كنتُ على سفَرٍ أو قطعَني عن ٱلكتابةِ شيءٌ مِمّا يَعْرِض.

وفي أسبوعِ إبليسَ (لعنَهُ ٱلله)، مرَّتِ ٱلأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَلٌ لا نشاطَ معه، وٱضطرابٌ لا مِساكَ له. وأطلْتُ ٱلتفكيرَ يومَ ٱلخميس، فكانَتْ تعتريني خواطرُ مضحكة: فيعرِضُ لي مرةً أنْ أصوِّرَ إبليسَ ٱمرأةً لِيكونَ إبليسَ ٱلجميل... وتارةً أتوهَّمُ أنَّ إبليسَ يُريدُ أنْ يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ ٱلدينِ ٱلذينَ لا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم، لِيُقالَ إبليسُ ٱلتقيُّ ٱلمصلّي... وحِيناً أظنُّ أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً لِيقالَ إبليسُ المفكِّرُ ٱلمصْلِح... وخطرَ لي أخيراً أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ حاكماً مُلْحِداً فاجراً، لِيكونَ إبليسَ التامّ لا إبليسَ ٱلناقص...

* * *

ولَمّا ذهبَتِ ٱلأيامُ ٱلثلاثةُ باطلاً، خُيِّلَ إليَّ أنَّ إبليسَ (أخزاهُ ٱللّهُ) يسألُني عنِ ٱلمقالة: إلى أيِّ شيءٍ ٱنقلَبَتْ...؟ فشقَّ[2] ذلك علَيَّ وٱغتَمَمْتُ بهِ، غيرَ أنّي ٱطمأننْتُ إلى يومِ ٱلجمعةِ وأنْ وراءَهُ ليلتين. وكانَتْ قد غربَتْ شمسُ ٱلخميس، فقلْتُ: فَلأخرجْ لِأتفرَّجَ مِمّا بي، وعسى أنْ أجمعَ نفسي لِلتفكيرِ إذا جلسْتُ في النديّ، ولعلَّهُ يقعُ ما أستَوْحيهِ أو ينفتحُ لي بابٌ في ٱلقراءة.

وخرجْتُ، فلم أجاوِزِ ٱلدارَ حتى ٱبتدرني مَنْ هَبَطَ عليهِ ٱلخبرُ مِنَ ٱلقاهرةِ أنَّ نسيباً لنا مِنَ ٱلعظماءِ توفي أخوه ٱليوم. فقلْتُ: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله؛ ضاعَ يومُ ٱلجمعة. إذْ لا بدَّ مِنَ ٱلسفرِ لتشييعِ ٱلجنازةِ وحضورِ ٱلمأتمِ ثُمَّ قلْتُ: لعلَّ في هذا

---

(١) تنثال: تنهمر وتتوالى.

(٢) شقّ: صعب.

ٱلسفرِ استجماماً[١] ونشاطاً فأستدركَ ٱلأسبوعَ كلَّهُ في يومينِ، وإنَّما ٱلاستكثارُ بالقوَّةِ لا بالزمن، ولا يدَ لإبليسَ في ٱلموتِ وٱلحياة، فليسَ إلَّا اطِّراحُهُ وقلةُ ٱلمبالاةِ به، وإنَّما هي خَطَراتٌ من وساوسِه.

وأصبحْتُ في ٱلقاهرة، ومشيْتُ في ٱلجنازةِ قبلَ الظهرِ مَسِيرَةَ ساعةٍ كاملة؛ وكانَتِ ٱلشمسُ ساطعةً تتلألأ، وأنا مُثْقَلٌ بثيابِ ٱلشتاءِ وكنتُ أتوقَّعُ أنْ يكونَ اليومُ من أيامِ ٱلريحِ ٱلمجنونة، فلمَّا ٱنتهيْنا إلى ٱلصحراء، هبّتِ ٱلريحُ هبوباً ليِّناً، ثُمَّ زَفَّتْ فكانَتْ إلى ٱلشدَّةِ ما هي: ولكنَّها ماضيةٌ تَسْفي[٢] ٱلرملَ في ٱلأعينِ فيأخذُ في أجفاني أُكالٌ[٣] وتَهيِيج، وليسَ معي شيءٌ أتَّقيها بِه؛ غيرَ أنِّي شغلْتُ، فكري برؤيةِ ٱلمقابر، وجعلْتُها في نفسي كالمقالةِ ٱلمكتوبةِ سَطراً وراءَ سطر؛ وقلْت: هٰهنا ٱلحقيقةُ في أولِ تفسيرِها، وغيرُ ٱلمفهومِ في ٱلحياةِ يُفْهَم هنا.

ثُمَّ رجعْتُ مُنَدَّى ٱلجسمِ بالعرقِ وعَلَيَّ نَضْحٌ منه، وكانَ ٱلقميصُ مِنَ ٱلصوف، وبصدري أثرٌ مِنَ ٱلنزلةِ ٱلشُّعبيّة[٤]، وإذا تَنَدَّى ٱلصوفُ وجبَ نزعُهُ وإلّا فهي ٱلعِلَّةُ ما منها بُدّ.

ثُمَّ لم تكنْ إلَّا ساعةٌ حتى ٱنخرقَتِ ٱلريحُ وجعلَتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ ٱلجوُّ، فأيقنْتُ أنَّه ٱلزكَام، وقلْتُ في نفسي: هذا بابٌ على حِدَة، وٱلمقالةُ ذاهبةٌ لا محالة، فسيتخَلَّفُ ٱلذهنُ ويتبلَّدُ؛ وٱلشيطانُ كريمٌ في الشرِّ يُعطي من غيرِ أنْ يُسأل...

وثَقُلَ ذلك عَلَيَّ فكانَ ٱلغمُّ بهِ عِلَّةً جديدة، بيدَ أنِّي لم أزلْ أرجو ٱلفرصةَ في أحدِ ٱليومين: السبت والأحد. وقلْت: إنَّ مِنَ ٱلبلاءِ ٱلفكرَ في ٱلبلاء، ولعلَّ مِنَ ٱلسلامةِ الثقةَ بِٱلسلامة؛ فإذا نبَّهْتُ ٱلعزيمةَ رجوْتُ أنْ يتغلغلَ أثرُهَا في ٱلبدنِ كلِّهِ فيكونَ علاجاً في ٱلدمِ يَحْدُثُ بِهِ ٱلنشاطُ ويُرهَفُ[٥] منهُ ٱلطبعُ وتجمُّ عليهِ النفس. وفي قوةِ ٱلعصَبِ كهربائيَّةٌ لَها عملُها في ٱلجسم إذا أحسنَ ٱلمرءُ بعْثَها في نفسِهِ وأحكمَ إفاضتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضيَّة؛ ولَهِيَ ٱلدواءُ حينَ يَعجزُ الدواء، وهيَ ٱلقوَّةُ حينَ تُخذَلُ ٱلقوَّة.

فاعتزمْتُ وصمَّمتُ، وٱحتَلْتُ على ٱلإرادة، وتكثَّرْتُ من أسبابِ ٱلثقةِ

---

(١) استجماماً: راحة لتجدّد النشاط.
(٢) تسفي الرمل: تنشره.
(٣) الأكال: الحكاك.
(٤) النزلة الشعبية: الرشح والزكام.
(٥) يرهف: يرقق ويلطف.

وترصَّدْتُ لها ٱلسوانِحَ ٱلعقليَّةَ التي تَسْنَحُ في ٱلنفس، وقلْتُ لإبليسَ: اجهَدْ جُهْدَك، فما تذهبُ مذهباً إلّا كانَ لي مذهب. ولكنَّ ٱللعينَ أخطَرَ في ذِهني قولَ القائلِ يسخَرُ فيهِ من ذلك الكاتبِ ٱلبغداديّ.

لو قيلَ: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لاغتَدى ... يوماً وليلَتَهُ يَعُدُّ ويَحْسُبُ

ويقولُ: مُعْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها ... وَلَئِنْ فهِمْتُ لها، لأَمْرِيَ أعجبُ

خمسٌ وخمسٌ ستةٌ، أو سبعةٌ ... قولانِ قالهما ٱلخليلُ وثعلبُ

* * *

ثُمَّ أجمعْتُ ٱلرجوعَ من يومي إلى (طنطا)، لأتقيَ ٱلبردَ بعلاجِهِ إنْ نالني أثرُهُ، وكانَ عَلَيَّ وقتٌ إلى أنْ يقومَ ٱلقطار، فذهبْتُ فقضيْتُ واجباً مِنْ زيارةِ بعضِ ٱلأقاربِ في ضاحيةِ (الجيزة)، ثُمَّ ركبْتُ ٱلترامَ ٱلذي أعلمُ أنَّهُ ذاهبٌ إلى محطةِ سكةِ ٱلحديد.

وجلسْتُ أفكرُ في إبليسَ ومقالتِه، وٱلترامُ ينبعِثُ في طريقهِ نحوَ ثلثِ الساعة، حتى بلغ، ٱلموضعَ الذي ينعرجُ[1] منه إلى ٱلمحطة، وهو بحيالِ (جمعيةِ الإسعاف)، حيثُ تنشعبُ[2] طرقٌ أخرى؛ وكنْتُ منصرفاً إلى التفكيرِ مستغرقاً فيه، طائفَ ٱلنظَراتِ على ٱلجوّ، فما راعني إلّا ٱختلافُ منظرِ ٱلطريق؛ وأنتبهُ، فإذا ٱلترامُ يَمْرُقُ مروقَ ٱلسهم في تلك السبيلِ ٱلصاعدةِ إلى (الجيزة). . . من حيثُ جئت.

فلعنْتُ ٱلشيطانَ وتلبثْتُ[3] حتى وقفَ هذا ٱلترام، فغادرْتُهُ ورجعْتُ مُهَرْولاً إلى ذلك المنشَعَب، فصادَفْتُ تراماً آخر، فوثبْتُ إليهِ كأنّي أُحْمَلُ إليهِ حملاً، ودفعْتُ ٱلأجرة، وٱنطلق، فإذا هو مُنَصَبٌ في تلك الطريقِ عينِها ٱلذاهبةِ إلى الجيزةِ من حيثُ جِئت. . . . ولا أستطيعُ ٱلانحدارَ منه وهو منطلِق، فتَسَخَّطْتُ[4] ولعنْتُ ٱلشيطانَ مرةً أخرى، ورأيْتُ أنّ عَبثَهُ قد تَرادفَ؛ فلمّا سكَنَ ٱلترامُ رجعْتُ مهرولاً إلى ذلك المنشَعَبِ ولم يبقَ مِنَ ٱلوقت غيرُ قليل.

وأنظرُ ثَمَّ، فإذا ترامٌ وراءَ ترام، وإذا قد وقعَتْ حادثةٌ لإحدى ٱلسياراتِ وٱجتمعَ الناسُ وسُدَّتِ ٱلطريق. . . فجعلْتُ أغلي من الغيظ، ولعنتُ هذا الدَّعّابَةَ الخبيث. وأذكرَني ٱللعينُ نادرةَ ٱلأعرابي ٱلذي عضَّهُ ثعلب، فأتى راقياً، فقالَ لَهُ

---

(١) ينعرج: يتحوّل، يحطّ.

(٢) تنشعب: تتفرّق.

(٣) تلبّثت: انتظرت.

(٤) تسخّط: غضب.

ٱلراقي: ما عضَك؟ فاستَحى أنْ يقول ثعلب، وقال: كلب. فلمَّا ٱبتدأ ٱلرجلُ برُقْيَةِ ٱلكلب، قالَ لهُ ٱلأعرابيّ: وٱخلِطْ بها شيئاً من رُقْيةِ الثعالب...

* * *

ثُمَّ إنِّي لم أرَ بُدًّا من بلوغ ٱلمحطةِ على قدميَّ لِأُتِمَّ على عزيمتي في مُراغمَةِ ٱللعين، فأسرعْتُ أطوي ٱلأرض وكأنَّما أخوضُ في أحشائِهِ[1] وكانَ بصدري ٱلتهابٌ فهاجَ بي، غيرَ أنّي تجلَّدْتُ وٱتسَعْتُ لاحتمالِهِ وبلغْتُ حيثُ أردت. ثُمَّ ذهبْتُ ألتمسُ في ٱلقطارِ عربةً خاصَّةً أعرِفُها، كانَتْ من عرباتِ ٱلدرجةِ الأولى فجعلوها في ٱلثانيةِ يرفِّهونَ بها بعضَ الترفيهِ على طائفةٍ مِنَ ٱلمسافرين؛ وأصبْتُ فيها مكاناً خالياً كأنَّما كانَ مهيَّأً لي بخاصة... فٱنحططْتُ فيهِ إلى جانبِ رجلٍ أوربيّ أحسبُهُ ألمانيا لِتفَاوُتِ خَلْقِهِ وعُنْجُهِيَّتِه؛ وجلسْتُ أنفِّسُ عن صدري، ثُمَّ أقبلْتُ أسخَرُ من إبليسَ ونِكايَتِه، وجعلْتُ أتعجَّبُ مِمَّا اتفقَ من هذا التدبير.

وتحرَّكَ ٱلقِطارُ وٱنبعثَ، وكانَ ٱلأوربيُّ إلى جانبي مِمَّا يَلي ٱلنافذةَ وقد تركَها مفتوحةً، فأحسسْتُ ٱلهواءَ ينصبُّ منها كالماءِ ٱلباردِ وأنا مُتَنَدٍّ بالعرَق؛ وترقبْتُ أنْ يُغلِقَها ٱلرجلُ فلم يفعل، فصابرْتُهُ قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئنٌ يتَرَوَّحُ بٱلهواءِ وكأنَّما يَشرَبُه، وتأملتُهُ فإذا شيخٌ في حدودِ ٱلستينَ أو فوقَها، غيرَ أنَّهُ على بقيةٍ من قوةِ مصارِعٍ في ٱكتنازِ عَضَلِهِ وٱجتماعِ قوَّتِهِ ووَثاقةِ تركيبه، فأيقنْتُ أنَّ ٱلهواءَ من حاجتِه، وهمَمْتُ أنْ أنبهَهُ أو أقومَ أنا فأُغلِقَ ٱلنافذةَ، ولو شئْتُ أنْ أفعلَ ذلك فعلْت، غيرَ أنَّ ٱلشيطانَ (أخزاهُ ٱللهُ) وسَوْسَ لي: أنَّ هذا رجلٌ أجنبيٌّ غَربيّ، وأنت مصريٌّ شرقيّ، فلا يَحسنُ بك أنْ تُعلِمَهُ وتُعلِمَ الحاضرين أمامَكما أنَّك أنت ٱلأضعفُ على حينِ أنَّهُ هوَ ٱلأسَنُّ، وكيف لا تقومُ لِمَا يقومُ لَهُ وقد كنْتَ تُباكِرُ ٱلماءَ ٱلباردَ في صميم ٱلشتاء، وكنْتَ لا تلبسُ في أشدِّ أيام البردِ غيرَ ثيابِ ٱلصيف، وكنْتُ تحملُ كذا وكذا ثِقْلاً لِلرياضة، وتُعاني كذا وكذا من ضروبِ ٱلقوَّة، وكنْتَ تلوي بيديك عودَ ٱلحديد، وكنْتَ وكنْت....

فتذمَّمْتُ ـ واللهِ ـ مِمَّا خطَرَ لي؛ وأنِفتُ أنْ أنبهَ ٱلرجل، ورأيْتُ عملي هذا ضعفاً وفُسولة[2]، ولم أعبأْ بالهواءِ ولا بالعرَقِ ولا بٱلنزلةِ ٱلشعبيَّةِ ولا بٱلزكام، وتركْتُ الأوربيَّ وشأنَه، وأقبلْتُ على كتابٍ كَانَ في يدي، وتناسيْتُ أنَّ هذِهِ ٱلنافذَةَ

(١) أحشائه: جوفه.

(٢) فسولة: نذالة لامروءة فيها.

جهةٌ من تدبيرِ إبليس؛ وكانَ ٱلقِطارُ مزدحِماً بالراجعينَ منَ ٱلمعرضِ ٱلزراعيِّ ٱلصناعيّ، وبعضُ الناسِ وقوفٌ فلا مطمعَ في مكانٍ آخر. . .

ولَبِثْتُ ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تيّارٍ من هواءِ (فبراير) ينصبُّ ٱنصباباً، ويَعْصِفُ عَصْفاً، وكأنّي أسبحُ منه في نهرٍ تحتَ ظلمةِ ٱلليلِ ٱلماطر، وٱلناسُ معجَبُونَ بي وبٱلأوربّيّ، وهذا الأوربّيُّ معجَبٌ بي أكثَر منهم، وقد رأى مكاني وعرفَ موضعي؛ وكانَ إلى يميني مجلسٌ بقيَ خالياً ولم يُقْدِمْ أحدٌ على أنْ يجلسَ فيه خوفاً مِنَ ٱلرجلِ ٱلأوربّيّ. . .

ثُمَّ تراءيتُ أنوارَ محطةِ (طنطا)، ولم يبقَ من هذه المحنةِ غيرُ دقيقتين؛ فوٱللهِ ٱلذي لا يُحْلفُ بغيرِ ٱسمهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، لقد كانَ إبليسُ رقيعاً جِلْفاً[1] بارداً ثقيلَ ٱلمُزاح؛ إذْ لم أكَدْ أتهيأُ لِلقيام، حتى رأيتُ ٱلرجلَ الأوربيّ قد مدَّ يدَهُ فأغلقَ ٱلنافذة. . . .

* * *

ورجعْتُ إلى داري وأنا أقول: ثُمَّ ماذا يا إبليس؛ ثُمَّ ماذا أيُّها الدُّعْبُبُ[2] وحاولْتُ بجهدِي أنْ أكتبَ أو أقرأَ فلم أتحرَّكْ لِشيءٍ من ذلك، وكانَتِ ٱلساعةُ ٱلعاشرةُ ليلاً، فصليْتُ وأويْتُ إلى مضجعي.

ثُمَّ أصبحْتُ يومَ ٱلسبت، فإذا كتابٌ مِنَ ٱلأستاذِ صاحبِ (ٱلرسالة): أنَّه سيطبعُ عددينِ معاً فيُريدُ لهما مقالتين، إذْ تُغلَقَ ٱلمطبعةُ في أيام عيدِ الأضحى. وكانَ أملي في ٱلمقالةِ الواحدةِ مخذولاً مِمّا قاسيْت، فكيف لي باثنتين؟

وٱختلَطَ في نفسي همٌّ. بهمّ، وما يُفْسِدُ عَلَيَّ أمري شيءٌ مثلُ ٱلضيق، فإذا تضايقْتُ كنْتُ غيرَ من كنت؛ ولكنّي تيقظْتُ وتنبهْتُ وأمّلْتُ ٱلعافيةَ مِمّا أجِدُهُ من ثِقْلةِ ٱلبردِ وضَعْفَتِه، وأحدثْتُ طمعاً في ٱلنشاطِ إذا جلسْتُ لِلكتابةِ في ٱلليل، فإنّي بالنهارِ أعملُ لِلحكومة.

فلمّا كانَ ٱلليلُ لم أجدْ أمري على ما أُحِبّ، وجلسْتُ متفتِّراً مُعْتَلّاً، وثقُلَ رأسي من ضَرْبةِ ٱلنافذة، وتسلَّطَ عليَّ ظَنُّ ٱلمرضِ وٱلعجزُ عنِ ٱلكتابة، وٱنتقضَ الأمرُ كلُّهُ فرأيْتني أشقُّ على نفسي بلا طائل، فكأنَ من صوابِ ٱلتدبيرِ عندي أنْ

(١) جلفاً: قاسياً فظاً.

(٢) الدعبب والمداعب والدُّعَّابة، بالتشديد، كلها بمعنى واحد.

أستجِمَّ بالنومِ ثُمَّ أنهضَ في ٱلسَّحَرِ لِلكتابة؛ فأوصيْتُ من يُوقظني؛ وحرَّرنا ٱلساعةَ المنبِّهةَ على تَمامِ ٱلثانيةِ بعدَ منتصفِ ٱلليلِ.

وأحسسْتُ أنّي جائع، وأنَّ معدتي مَشحوذة[1]، ونسيْتُ كلّ ما أعرفُ مِنَ ٱلطبّ؛ وجاءَوني بشِواءٍ وحَلوى وما بينَهما، فحططْتُ فيهِ ولَففْتُ الآخرَ بالأول، ثُمَّ قمْتُ أُريدُ ٱلنوم، فإذا ٱلطعامُ كانَ أشدَّ عليَّ من نافذةِ القِطارِ، وكانَ ٱلذي في ٱلفكرِ مِنَ المقالةِ أثقلَ من ٱلذي في ٱلمعدةِ مِنَ ٱلطعام، وساءَ ٱلهضمُ في ٱلدماغِ وٱلبطنِ جميعاً!

وجعلْتُ أتناومُ وأُرخي أعضائي وأتوهَّمُ ٱلكرى[2] وأَستَدْنيهِ بكلِّ ما أعرفُ من وسيلة، ثُمَّ لا أزدادُ على ذلك إلّا أرَقاً، وتمرَّدَ ٱلفكر، وأحسسْتُ رأسي يكادُ ينفجر، وصِرْتُ أتَمَلْملُ ولا أتَقارُّ، وتوهَّمْتُ أنْ لو كانَ لي عقلانِ ما ٱستطعْتُ كِتابةَ ٱلمقالةِ عن إبليسَ ـ لعنَهُ ٱلله ـ؛ وأذكرني ٱلخبيثُ نادرةً مضحكَة: أنَّ رجلاً كانَ يركبُ حماراً ضعيفاً، وكانَ يبعثُهُ فلا ينبعث، فجعلَ يضربُه، فقيلَ لَهُ: ٱرفُقْ بِه. فقالَ إذا لم يقدرْ يمشي فَلِمَ صارَ حماراً....؟

* * *

وقذفْتُ بنفسي مِنَ ٱلفراشِ ونظرْتُ في ٱلساعة، فإذا هي موشكَةٌ أنْ تبلغَ الثانيةَ ولم أُحِسَّ ٱلرقادَ بعد، فأَسْرعتُ إلى المنبِّهةِ وحرّرتْها على تمامِ ٱلساعةِ الرابعةِ صباحا، وأيقنْتُ أنَّ ٱلشيطانَ يُرهِقُني طُغياناً وكَيداً، فطَفِقْتُ ألعنهُ، وما أحسبُه إلّا قد رأى ٱللعنَ مَدْحاً فهو يستزيدُني...

ثُمَّ رجعْتُ أحاولُ النَوم، فما كانَ هذا الليلُ إلّا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أنْ طلعَ ٱلفجر.

وجاءَ يومُ ٱلأحدِ وهو يومُ عُطْلةِ ٱلأوربيِّين، فما أشدَّ عجبي إذ تركني فيهِ إبليسُ كأنَّهم لا يَدعُونَ لَهُ وقتاً في هذا اليوم...

والآنَ يُزيِّنُ ليَ ٱلخبيثُ أنْ أختمَ هذه المقالة بـ....بـ.... ولكن لا. لا.

(١) مشحوذة: خاوية.

(٢) الكرى: النعاس والنوم.

الشيطان . . .

قال الشيخُ أبو الحسن بنُ الدَّقَّاقِ: كانَ شيخي أبو عبدِ ٱللَّهِ محمدٌ الأزهريُّ العجميُّ (رضيَ الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخَوَارِقَ مِمَّا فوقَ ٱلعقلِ، كأنَّما هو سِرٌّ مِنَ ٱلأسرارِ ٱلجاريةِ في هذا ٱلكون، قد بلغَ بنفسِهِ رتبةَ ٱلنَّجمِ في أُفُقِهِ ولألائِهِ مِن إشراقِ روحِهِ وصفائِها؛ وقدِ ٱرتفعَ بآدميَّتِهِ فوقَ نفسِها؛ فأصبحَ في الناسِ ومعَهُ سماؤُه، يجعلُها بينَ قلبِهِ وبينَ ٱلدنيا.

وٱلرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كانَ حيًّا كالميتِ ساعةَ ٱحتضارِه: ينظرُ إلى كلِّ ما في ٱلحياةِ نظرةَ مَنْ يتركُ لا من يأخذ، ومَنْ يعتبرُ لا مَنْ يَغْتَرُّ، ومن يَلْفِظُ لا من يَتذوّق، ومَنْ يُدركُ ٱلسرّ لا مَنْ يتعلَّقُ بٱلظاهر؛ ويرى ٱلشهواتِ كأنّها من لغةٍ لا يعرفُها، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلِها لا معانيه، وإنَّما تلبسُ كلماتُنا معانَيها من أنفسِنا. وفي ٱلنفوس مثلُ ٱلهشيم[1]: إذا وقَعتْ فيهِ ٱلمعاني المشتعلةُ ٱستطارَ حَريقاً وتَضرَّمَ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ ٱلماء؛ فإذا خالطَتْهُ تلك ٱلمعاني ٱنطفأتْ بهِ وخمدَتْ.

وقد سألْتُ ٱلشيخَ مرة: كيف تَحدُثُ ٱلكراماتُ وٱلحوارقُ لِلإنسان؟ فقال: يا ولدي إنَّ ٱلإنسانَ مِنَ ٱلناسِ ٱلمحجوبينَ يتصرَّفُ في جسمِهِ ولا يكادُ يملكُ لِروحانيتِهِ شيئاً، فإذا أبليَ في ٱلمجاهدةِ ووقَعَ في قلبِهِ النور، تصرَّفَ في روحانيتِهِ ولا يكادُ يملكُ لِجسمِهِ شيئاً، فَمنْ أطاقَ أنْ يَنسلخَ من بشريتِه، وٱتسَعتْ ذاتُهُ في معاني ٱلسماءِ بمقدارِ ما ضاقَتْ من معاني ٱلأرض، وكانَ مُعَدًّا لِأنْ يتحقَّقَ في روحانيَّتِه، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق ٱلاعتدال ـ فقد شاعَ في ٱلكون، وأصابَ لَهُ وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تَهدِمُ في ٱلعالمِ وتبني، وتُفرِّقُ وتَجمع، وتنقلُ ٱلصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فإنَّ ٱلكونَ كلَّهُ جوهرٌ واحدٌ هو ٱلنور، حتى ٱلجبلُ هو نورٌ صَخريّ، وحتى البحرُ هو نورٌ مائيّ، وحتى ٱلحديدُ وٱلذهب وٱلتراب، كلُّ

---

(١) الهشيم: الحشيش الجاف.

ذلك نورٌ صرَّفَتْهُ ٱلقدرةُ ٱلإلهيّةُ تصريفَها ٱلمعجز، فكانَ، على ما نرى: ظاهراً مخيِّلاً يُلائمُ نقصَنا وعجزنا، وحقيقةً قارّةً على غيرِ ما نرى. ومَنْ ذا يعقلُ أنَّ ٱلصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكنْ لَهُ إلَّا عقلُ عينهِ وحواسِّه؟ ومَنْ ذا يُطيقُ أنْ يفهمَ بحواسِهِ وعينِهِ قولَ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؟ فٱلجبالُ جامدةٌ ثابتة، غيرَ أنّها تمرُّ بأرضِها وتموجُ في نفسِها؛ ومتى تأذَنِ ٱللَّهُ أنْ ينكشفَ نورُ كلامِهِ لِلعقلِ ٱلإنسانيّ، فستكونُ هذه ٱلآيةُ عِلماً جديداً في ٱلأرض، يُثبتُ أنَّ ٱلسحابَ والجبلَ مادةٌ واحدةٌ وصُنعٌ واحد.

ويا لها سُخريةً بالإنسانِ وجهلِه! فإنَّهُ إذا كانتِ ٱلحقيقةُ غيرَ ما نرى، فكلُّ شيءٍ في ٱلدنيا هو ردٌّ على ٱلنظرِ الإنسانيّ، ويكادُ ٱلجبلُ العظيمُ يكونُ كلمةً عظيمةً تقولُ لِلإنسان: «كذَبْتَ!»

فٱلشأنُ في ٱلخوارقِ وٱلكراماتِ راجعٌ إلى القدرةِ أنْ يُسلِّطَ ٱلإنسانُ ٱلروحانيُّ ما فيهِ من سرِّ النورِ على ما في بعضِ ٱلأشياءِ من هذا ٱلسرّ، وتلكَ هي طاعةُ بعضِ ٱلكوْنِ لِمنْ يتصرفُ عنِ ٱلمادةِ ويتّصلُ بخالقِها.

فإذا بقيَ في ٱلرجلِ الروحانيِّ شيءٌ من أمرِ جسمِهِ يقولُ: «أنا. . . .» لم يكنْ في ٱلرجلِ من تلكَ ٱلقدرةِ ذرة؛ فإنْ هو حاولَ أنْ يخرقَ ٱلعادة، أبى ٱلكونُ أنْ يعرفَه إلَّا كما يعرفُ حجراً مُلقًى يحاولُ أنْ يتصرّفَ بالجبلِ الذي هو منه فينقلَهُ أو يدحرجَهُ أو يُزلزلَه.

ولا خيرَ على الأرضِ مطلقاً إلَّا وهو أخذٌ من حقوقِ هذه الـ «أنا. . .» في إنسانِها، ولا شرَّ على ٱلأرضِ مطلقاً إلَّا وهو إضافةُ حقوقٍ إليها. فحينَ لا يبقى لها حقٌّ في شيءٍ عندَ نفسِها، يجبُ لها ٱلحقُّ عندئذٍ على كلِّ شيء. وهذه هي ٱلكرامة: تكريمُ ٱلخليقةِ مَنْ أكرمَهُ ٱلخالق.

فمَنْ أرادَ أنْ تتّصلَ نفسُهُ باللهِ، فلا يكنْ في نفسِهِ شيءٌ من حظِّ نفسِه، ولا يؤمنْ إيمانَ هؤلاءِ ٱلعامّة: يكونُ إيمانُهم باللَّهِ فكرةً تُذكَرُ وتُنسَى. أمّا عملُهم فهو إيمانُهمُ ٱلراسخُ بالجسمِ وشهواتِهِ يُذكرُ ولا يُنسى.

وأنت ترى رجالَ ٱلروحِ يأكلونَ ويشربونَ ويلبسون، ولكنَّ هذا كلَّهُ ليسَ فيهِ ذرَّةٌ من أرواحِهم، على خِلافِ غيرِهم مِنَ ٱلناس؛ فهؤلاءِ كلُّ أرواحِهم في مَطاعِمِهم؛ ومن ثَمَّ لا يجري ٱلشيطانُ مِنَ ٱلأوّلينَ إلَّا في مَجارٍ ضيقةٍ أشدَّ ٱلضيقِ لا

يكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ أو شهوةٍ أو حُلُمٍ من أحلامِ الدنيا، أمّا الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيّارُ الدم، يَعُبُّ عُبابُه في الأسفلِ والأعلى.

* * *

قالَ أبو الحسن: وكنّا يومئذٍ في دمشق، فنبّهني كلامُ الشيخِ عنِ الشيطانِ إلى ما قرأتُهُ عن كثيرينَ مِمَّنْ رأَوْا الشيطانَ أو حاوَرُوهُ أو صارَعُوه؛ فقلتُ لِلشيخ: إنَّ من حقِّكَ عليَّ أنْ أسألكَ حقّي عليك، وما في نفسي أحبُّ إليّ ولا أعجبُ من أنْ أرى الشيطانَ وأُكلِّمَهُ وأسمعَهُ؛ وأنت قادرٌ أنْ تنقلني إليهِ كما نقلْتني إلى ما دخلْتَ بي عليهِ من عوالمِ الغيب.

قالَ الشيخ: وماذا يردُّ عليكَ أنْ ترَى الشيطانَ وتكلمَه؟

قلتُ: سبحانَ الله! لا يُجدي عليّ شيئاً إلّا أنْ أسخَرَ منه.

قال الشيخ: فإنّي أخشى يا ولدي، أنْ يكونَ الشيطانُ هوَ الذي يُريدُ أنْ تراهُ وتسمَعه...!

قلت: فأُريد أنْ أسألَهُ عن سِرِّه، فيكونُ عِلْماً لا سُخريةً.

قال: لو كَشَفَ لكَ عن سِرِّهِ لَمَا كانَ شيطاناً، فإنّما هو شيطانٌ بسِرِّهِ لا بغيرِهِ.

قلت: فأُريد أنْ أرى الشيطانَ لأكونَ قد رأيْتُ الشيطان!

قالَ الشيخ: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله! لو كُنْتَ يا أبا الحسنِ بأربعِ أرجُلٍ لهربْتَ مِنَ الشيطانِ بثلاثٍ منها وتركْتَهُ يجرُّكَ من واحدة!

قلْتُ: يا سيدي، فلو كنْتُ حماراً لَبطَلَ عملُ الشيطانِ في أرجلي الأربعِ كلِّها، إذ لا حاجةَ به إلى إغواءِ حِمار!

فتبسمَ الشيخُ وقال: ولا بدَّ أنْ ترى الشيطانَ وتكلمَه؟

قلْت: لا بدّ.

قال: إنّهُ هو بقرنِها، قُم!

* * *

قال أبو الحسن: وكانَ الشيخُ إذا مضى إلى أمرٍ خارقٍ بقيْتُ معَهُ غائباً عنِ الحسِّ، كأنّهُ يُبطِلُ منّي ما أنا به أنا؛ فأصبحُ ظِلّاً آدميًّا معلَّقاً به. ولا تقعُ الخوارقُ إلّا لمَنْ وجدَ القوّةَ المُكمِّلَةَ لروحِه. وهذه القوةُ تُستمَدُّ منَ الشيخِ الواصل. فلا بُدَّ

من إمام، كأنّها سلسلةٌ نفسيَّةٌ متميِّزةٌ في الأرض، فتتغيَّرُ ٱلواحدةُ منها بالواحدة، إذْ تقعُ في جوّها فتُورِقُ وتُثمر؛ كٱلشجرة: جَوٌّ يكسوها، وجَوٌّ يُذْبِلُها، وجَوٌّ يسلُبها سلباً؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كانَ لها جَوّ.

وخرجْنا من دمشقَ وأنا خلفَ ٱلشيخ كالمحمول، فرأيْتُنا وقد أشرفْنَا على بناءٍ عظيم، ورأيْتُ أقواماً يَتلَقَّوْنَ ٱلشيخَ ويُسلمونَ عليهِ ويتبرّكونَ بمقدَمِه؟ فأنكرَتْهم نفسي ووجدْتُ منهم وَحْشَةً، فالتَفتَ إليَّ ٱلشيخُ وقال: هؤلاءِ مِنَ ٱلجِنّ، وما إليهم قَصَدْنا، فلا تشتغلْ بما ترى وٱشتغلْ بي.

ثُمَّ ننتهي إلى ٱلبناءِ العظيم، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى، ويُدْخِلون ٱلشيخَ وأنا خلفَه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءةٍ تُعجِزُ الوصفَ، مِمَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعَتْ؛ فيقولون: هذه كنوزُ سليمانَ وذخائرُهُ، ويطوفون بالشيخِ يعرضونها عليهِ كنزاً كنزاً فرأينا ثَمَّ[1] نعيماً ومُلكاً كبيراً، ثُمَّ ٱنتهينا آخِراً إلى مغارةٍ خسيفةٍ كأنّها عِرقٌ من عُروقِ جسمِ ٱلأرضِ، يتفجَّرُ منها دويٌّ كٱلرعدِ ٱلقاصفِ، إلَّا أنَّهُ في السمع كخُوَارِ الثور، إلَّا أنَّه ثورٌ خُيّلَ إليَّ أنَّ رأسَهُ في قَدرِ جَبَلٍ عظيم، يتعلَّقُ بهِ غَبْغَبٌ[2] في قَدْرِ جبلٍ آخر، على جسمٍ يَسُدُّ ٱلخافقين، فخُوارُهُ كأنَّهُ صُراخُ ٱلأرض، وإذا أنا بأقبحِ مكانٍ منظراً، وأنتنِهِ رِيحاً، كأنَّه سجنٌ بناؤُهُ مِنَ ٱلجِيفَ.

فقلْت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجنُ إبليس، وهو هنا في هذه ٱلمغارةِ منذُ زمنِ سليمانَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ.

قلْت: أفَمَسْجونٌ هو؟

قالوا: وإنَّهُ مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ ٱلجبالِ حديداً يَرْبِضُ بِهِ في مَحْبسِه، فلا يتزحزحُ ولا يَتَحَلْحَل.

قلْت: وإنَّهُ مع ذلك قد ملأَ ٱلدنيا فساداً، فكيف بِهِ لو كانَ طليقاً؟

قالوا: فلو أنَّهُ كانَ طليقاً لَاسْتَحْوَذَ[3] على الناسِ كافَّةً؛ فيجتمعُ أهلُ ٱلأرضِ على شهوةٍ واحدةٍ لا شيءَ غيرُها، فيبطلُ مع هذه ٱلشهوةِ ٱلواحدةِ كلُّ تدبيرٍ بينَهم، فلا تقومُ لهم سياسة، ولا يكونُ بينهم وازِع[4]؛ فيرجعونَ كالكلابِ أصابَها ٱلكَلَبُ

(١) ثمَّ بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.
(٢) غبغب الثور وغببه هو ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل.
(٣) استحوذ: استمال.
(٤) وازع: رادع.

وهاجَ بها، فأنيابُها في لحمِها، لا يزالُ يَعَضُّ بعضُها بعضاً، فليسَ لِجميعِها إلّا عملٌ واحدٌ يُسلِمُها إلى ٱلهلاك، ويُصبحُ ظهرُ ٱلأرضِ أعْرَى من سَراةِ أديم.

وإنَّمايَصلُحُ ٱلناسُ بٱختلافِ شهواتِهم وتَنَافُرِها وتنازُعِها: فبعضُها يحكمُ بعضاً، وشيءٌ منها يَزَعُ شيئاً، ومن تخلَّصَ من نَزوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى؛ كٱلمتزوّجِ المحْصَنِ: يَحكُمُ بِالجلدِ وٱلرجْمِ على مَنْ ليسَتْ لَهُ ٱمرأةٌ فزنا؛ وكالغنيّ الواجد: يَحكمُ على ٱللصِّ الذي لم يجدْ فسرَق، وهلمَّ جرا.

وما ينشَأُ الناسُ في ثلاثةِ أعمار، فيَشِبُّون ويكتهِلون ويهرَمُون، إلَّا لِتختلفَ شهوَاتُهم وتختلفَ مقاديرُ ٱلرغبةِ فيها، فتتحقَّقُ من ثَمّ تلك ٱلحكمةُ ٱلإلهيَّةُ في ٱلتدبيرِ ويجدُ ٱلشرعُ محلَّهُ بينهم، كما يجدُ ٱلعِصيانُ بينَهم محلَّه.

ولو أنَّ أمَّةً كلُّها أطفالٌ أو كُهولٌ أو شيوخ، لَبادَتْ[1] في جيلٍ واحد؛ وإنَّهُ ليسَ أسمجَ مِنَ ٱلرذيلةِ تكونُ وحدَها في ٱلأرض إلَّا الفضيلةُ تكونَ وحدَها، فلا بدَّ من شيءٍ يَظهرُ بِهِ شيءٌ غيرُهُ كالضّدِ والضّد؛ وٱلمعركةُ إذا ٱنتصَرَ كلُّ مَنْ فيها كانَتْ هَزْلاً وكانَتْ شيئاً غيرَ ٱلمعركة.

قالَ أبو الحسن: وقلْتُ لهم: فإذا كانَ ٱلشيطانُ سجيناً قد ربَضَتْ بِهِ أثقالُه، حتى لَهُو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفِّهِ وٱلتضييقِ عليه ـ فكيف يَفتِنُ ٱلناسَ في أرجاءِ ٱلأرضِ ويُوسْوسُ في قلوبِهم، حتى لَهو يَدٌ بينَ كلّ يدَين، وحتى لَهو ٱلعينُ ٱلثالثةُ لعينيَ كلِّ إنسان؟

قالوا: إنَّ في روحِهِ ٱلناريَّةِ قوةً تَفْصِلُ منها وتنتشِرُ في ٱلأرض، كَشُعاعِ ٱلشمسِ مِنَ ٱلشمس: هذه كُرَةٌ ناريَّةٌ ميّتةٌ معلَّقةٌ على ٱلأجسامِ مُرْصَدَةٌ لها، وتلك كرةٌ ناريَّةٌ حيَّة معلَّقةٌ على ٱلنفوسِ مُرصَدَةٌ لها، وبهذه وتلك عَمارُ ٱلدنيا وأهلِ الدنيا.

قلْت: لعلَّكم أردْتُمْ أنْ تقولوا: خرابُ ٱلدنيا وأهلِ ٱلدنيا. فغَلِطْتُم، فكانَ ينبغي أنْ يجيءَ بَدَلُ الغلط...

فقالَ أحدُهم: يا أبا الحسن، خَرَقَ ٱلثوبُ ٱلمسمَار. جازَ هنا لِأمنِ ٱللَّبْسِ أنْ يكونَ ٱلمفعولُ بِهِ ـ وهوَ ٱلثوبُ ـ مرفوعاً وفاعلُه ـ وهو ٱلمسمار ـ منصوباً، هل جئْتَ ـ ويحك ـ تطلبُ النحوَ أو تطلبُ ٱلشيطان...؟

---

(١) بادت: فنيت.

قالَ أبو ٱلحسن: فقطَعني ٱلجنيُّ ـ واللهِ ـ وأخجلَني، ونظرْتُ خِلْسةً إلى ٱلشيخِ أراهُ كيفَ يسْخَرُ منِّي، فإذا ٱلشيخُ وقد أمَّلسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بينَ الجِنِّ وبإزاءِ هذا الساخرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهتِهِ وشُقَّ فمُهُ في قفَاه. .! فَسُرِّيَ عني وزالَ ما أجدُه، وقلْتُ في نفسي: الآنَ أبلغُ أرَبي[1] مِنَ ٱلشيطانِ ويكونُ ٱلأمرُ على ما أُريد، فلا أَجِدُ مَنْ أحتَشِمُ ولا تَقطَعُني هيبةُ ٱلشيخ. .!

ووَقعَ هذا الخاطرُ في نفسي، فٱستعذْتُ باللهِ ولعنْتُ ٱلشيطانَ وقلْت: هذا أولُ عَبَثِهِ بي وجعلُهُ إيايَ من أهلِ ٱلرياءِ، كأنَّ لي شأناً في حضور ٱلشيخِ وشأناً في غِيابِه، وكأنِّي مُنافقٌ أُعلِنُ غيرَ ما أُسِرّ، وقلْت: إنَّا لِلَّه! كِدْتَ يا أبا ٱلحسنِ تَتَشيطن!

ثُمَّ همَمْتُ أنْ أنكصَ[2] على عقبيَّ، فقد أيقنْتُ أنَّ الشيخَ إنَّما تخلَّى عنِّي لِأكونَ هنا بنفسي لابه، وما أنا هنا إلَّا بِهِ لا بنفسي، فيُوشِكُ إذا بقيْتُ في موضعي أنْ أهلِك! بَيْدَ أنَّ ٱلمغارةَ ٱنكشَفتْ لي فجأةً فما ملكْتُ أنْ أنظر؛ ونَظَرْتُ فما ملكْتُ أنْ أقِف، ووقفْتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فٱرتفعَ يثُور ثَوَرَانَهُ حتى تملأَ ٱلمكانُ بِهِ، ثم رقَّ ولَطُفَ.

وٱسْتَضْرَمَتْ[3] منه نارٌ عظيمةٌ لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضرَّم بعضُها في بعض، ويُسمَعُ من صوتِها مَعمَعةٌ[4] قويَّة، ثُمَّ خَمدَت.

وٱنفجرَ في موضِعِها كالسَّدِّ ٱلمنبثِقِ من ماءٍ كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنَّهُ صَديدٌ[5] يَتَفَيَّحُ في دم، ثُمَّ غاض.

وتَنبَّعَتْ في مكانِهِ حَمْأةٌ منتِنةٌ جعلَتْ تَربُو وتَعظُمُ حتى خِفْتُ أنْ تَبتَلِعَني وأذهبَ فيها، فسميْتُ ٱللَّهَ ـ تعالى ـ فغارَتْ في ٱلأرض.

ثُمَّ نظرْتُ فإذا كلبٌ أسودُ مُحْمَرُّ ٱلحَمَاليق، هائِلُ ٱلخِلْقَةِ مستأسِد[6]، قد وقفَ على جيفَةٍ قَذِرةٍ غابَ فيها خَطْمُهُ يَعُبُّ مِمَّا تَسِيلُ بِه.

فقلْت: أيُّها الكلبُ، أأنت ٱلشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ كأنَّهُ إنسانٌ في بهيمةٍ قدِ ٱمتزَجا وطغَى منهما شيءٌ على شيءٍ، وأمَّا وجهُهُ فأقبحُ شيءٍ منظراً، تحسَبُهُ قد لَبِسَ صورةَ أعمالِه. .

---

(١) أربي: غايتي.
(٢) أنكص: أتراجع.
(٣) استضرمت: اشتعلت.
(٤) معمعة: معركة.
(٥) صديد: قيح الجراح.
(٦) يستأسد: يتخلق بأخلاق الأسود.

ونطقَ فقال: أنا الشيطان!

قلْت: فما تلك الجِيفة؟

قال: تلك دنياكم في شهواتِها، وأنا ألْتَقِمُ قلبَ ٱلفاسقِ أوِ ٱلآثمِ منكم، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجِيفة.

قلْت: عليكَ لعنةُ ٱللَّهِ وعلى ٱلفاسقينَ وٱلآثمين، فكيف كنْتَ دخاناً، ثُمَّ ٱنقلبْتَ ناراً، ثُمَّ رجعْتَ قَيحاً، ثُمَّ صِرْتَ حمأةً[1]، ثُمَّ كنْتَ كلباً على جِيفة؟

قال: لا تلعنِ ٱلفاسقينَ وٱلآثمين؛ فإنَّهمُ العِبَّادُ الصالحون بأحدِ ٱلمعنيين، وأنت وأمثالُك عُبَّادٌ صالحون بالمعنى الآخر، أليسَ في ٱلدنيا حياءٌ ووقاحة؟ فأولئك يا أبا الحسنِ هم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زهدِكم حِرمانُ ٱلحرمان، وفقرُ ٱلفقر، ولقد أهلكتموني بُؤساً؛ غيرَ أنِّي معهم لذّةُ ٱللذة، وشهوةُ ٱلشهوة، وغِنى الغِنى، لاتتمُّ لذةٌ في ٱلأرض، ولا تحلو لذائقها وإنْ كانَتْ حلالاً، إلَّا إذا وضعْتُ أنا فيها معنًى من معانيَّ أو وقاحةً مِن وقاحتي! حتى لأجعلُ ٱلزوجةَ لِزوجِها مثلَ ٱلشعرِ البليغ إذا ٱستعارَ لها معنى مِنِّي، وكلُّ ما فسَدتْ بِهِ ٱلمرأةُ فهو مَجازي وٱستعارتي لها أجعلُها بِهِ بليغة...

وأنتم يا أبا ٱلحسنِ تقطعون حياتَكم كلَّها تُجاهدون إثْمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياةِ عبَّادي، فٱنظرْ ـ رحمَك الله ـ لئن كانَتْ ساعةٌ من حياتِهم هي جهنَّمُكم أنتم، فكيف تكونُ جهنمُ هؤلاءِ ٱلمساكين؟

إنَّكَ رأيتَني دُخاناً لِأنِّي كذلك أنبعثُ في ٱلقلبِ الإنسانيّ، فمتى تحركْتُ فيهِ حركةَ ٱلشرِّ كنْتُ كٱلاحتيالِ لإضرامِ ٱلنارِ بٱلنَّفْخِ عليها؛ فمِنْ ثَمّ أكونُ دُخاناً، فإذا غَفَل عني صاحبُ ٱلقلبِ تضرَّمتُ في قلبِه ناراً تطلبُ ما يُطفئُها؛ ثُمَّ يُواقعُ ٱلإثمَ وٱلمعصيةَ ويقضي نَهْمَتَهُ[2] فأبْرَدُ عن قلبِهِ، فيكونُ في قلبِهِ مثلُ ٱلحرقِ ٱلذي بَردَ فتأكَّلَ موضعُهُ فتقيَّح، ثُمَّ يختلطُ قيحُ أعمالِهِ بمادتِهِ ٱلترابيَّةِ ٱلأرضيَّة، فينقلبُ هذا ٱلمسكينُ حمأةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتنفتحُ كما رأيْت.

قلْت: أعوذُ باللَّهِ منك! أفلا تعرفُ شيئاً يردّكَ عنِ ٱلقلبِ وأنت دخانٌ بَعْد؟

فقهقهَ ٱللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن، إذْ تسألُ ٱلشيطانَ أنْ يخترعَ

---

(١) حمأة: ناراً.

(٢) نهمته: جوعته.

ٱلتوبة! أمَا لو أنَّ شيئاً يَخترعُ ٱلتوبةَ في ٱلأرض لٱخترعَها ٱلقبرُ الذي يَدْفنُ فيهِ بعضُكم بعضاً كلَّ طرفةِ عينٍ مِنَ ٱلزمنِ، فتُنزلونَ فيهِ ٱلميتَ ٱلمسكينَ قدِ ٱنقطعَ من كلِّ شيءٍ وتتركونَهُ لِآثامِهِ، وحِسابِ آثامِه، وٱلهلاكِ الأبديِّ في آثامِه؛ ثُمَّ تعودون أنتم لاِقترافِ هذه الآثامِ بعينِها!

قلْتُ: عليك وعليك أيُّها اللعينُ؛ ولكنْ ألا يتبدّدُ هذا الدخانُ إذا ضرَبَتْهُ ٱلريحُ أوِ ٱنطفأ ما تحته!

قال: أوّه! لقد أوجعْتَني كأنَّما ضرَبْتَني بجبلٍ من نارٍ، إنَّ نبيَّكم عَرفَها ولكنَّكم أغبياء؛ تأخذون كلامَ نبيِّكم كأنَّما هو كلامٌ لا عَمل، وكأنَّهُ كلامُ إنسانٍ في وقتِهِ لا كلامُ النبوّةِ لِلدهرِ كلِّهِ ولِلحياةِ كلِّها؛ ولِهذا غلبْتُ أنا ٱلأنبياءَ على الناس، فإنِّي أضعُ ٱلمعانيَ التي تعمل، لا الحِكمةَ المتروكةَ لِمَنْ يعملُ بها ومَنْ لا يعمل.

أتدري يا أبا ٱلحسن، لِماذا أعجزني أسلافُكمُ ٱلأوّلونَ مثل: عُمرَ وأبي بكر؟ حتى كانَ إسلامُهم من أكبرِ مصائبي، فتركوني زمناً ـ وأنا الشيطانُ ـ أرتابُ في أنِّي أنا ٱلشيطان. . . ؟

قلْت: لِماذا؟

قال: أراكَ الآنَ لم تَلْعَنْ، فلسْتُ قائلَها إلَّا إذا ترَحّمْتَ عليّ.

قلْت: عليك وعليك من لَعَناتِ ٱللهِ! قلْ لِماذا؟

قال: أسائِلٌ ويأمرُ وطُفَيْليٌّ ويَقْتَرِح؟ لا بدَّ أنْ تترحَّم!

قلْت: يرحمُنا ٱللهُ منك! قلْ لِماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لفظةِ رحمة؛ لا، إلَّا تترحَّم عليّ أنا إبليس الرجيم[1]!

قلْت: فيُغني ٱللَّهُ عن عِلْمِك؛ لقد ألهَمْتنيها روحُ النبيِّ ﷺ: إنَّ النبوّةُ كانت هي بأعمالِها وصِفاتِها تفسيراً لِلألفاظِ على أسمى ٱلوجوهِ وأكملِها، فكانَ روحُ النبيِّ ﷺ لِتلك الأروَاح كالأمِّ لِأبنائِها؛ وقد رأَوْهُ لا يغضبُ لِنفسِهِ ولاحظَّ نفسِه، وذلك لا يستقيمُ إلَّا بالقَصْدِ في أمرِ النفس، وجعلَ ناحيةِ الإسرافِ فيها إسرافاً في العمِلِ لِسعادةِ الناس. وكلَّما ٱرتدَّ الإنسانُ لِنفسِهِ وحظوظِها ٱرتدّ إليك ـ أيُّها اللعين ـ وأقبلَ على شَقاءِ نفسِه، وكلَّما عملَ لِسعادةِ غيرِهِ ٱبتعدَ عنك ـ أيُّها الرجيم ـ وأقبلَ

---

(١) الرجيم: المطرود

على سعادةِ نفسِهِ، وترْكِ الغضبِ وحظوظِ النفسِ هوَ الصبر؛ وصبرُ الأنبياءِ وٱلصِّدِّيقينَ ليسَ صبراً على شيءٍ بعينِهِ في الحياة، بلْ هو ٱلصبرُ على حوادِثِ ٱلعمرِ كلّه، كصبرِ المسافرِ إنْ كانَ عزيمةً مدةَ ٱلطريقِ كلِّها، وإلَّا كانَ فساداً في ٱلقوَّةِ ووقعَ بِهِ الخِذلان.

فهذا ٱلصبرُ المُعْتزِمُ ٱلمصمِّم، ٱلذي يُوطِّنُ بِهِ الرجلُ نفسَهُ أنْ يكونَ رَجلاً إلى الآخر ـ هو تعبُ الدنيا، ولكنَّهُ هو رَوْحُ ٱلجنَّةِ مَعَ الإنسانِ في ٱلدنيا. والمؤمنُ ٱلصابرُ رجلٌ مُقْفَلٌ عليهِ بأقفالِ الملائكةِ التي لا يَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ يُنْضي شيطانَهُ كما يُنْضي[1] أحدكُم بعيرَهُ في سفرِه». كأنَّهُ يقول: لو لم يصبرِ ٱلمسافرُ دائباً معتزِماً مدةَ سفرِهِ كلِّها لَمَا أنضى شيطانَه.

فصاحَ الشيطان: أوَّه، أوَّه! ولكنْ قلْ لي يا أبا الحسن: ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قويِّ ٱلإيمان، قدِ ٱستطاعَ بقوةِ إيمانِهِ أنْ يُفِيقَ من سُكْرِ ٱلغِنى، فتخَلَّصَ من نزوَاتِ ٱلشاطينِ الذهبيَّةِ ٱلصغيرةِ التي تسمُّونها ٱلدنانير؛ وقد أردْتُهُ على أنْ يكذبَ، فرأى الإيمانَ أنْ يَصْدُق؛ وجَهَدْتُ بِهِ يغضبُ، فرأى ٱلحكمةَ أنْ يهْدأ؛ وحاولْتُ منه أنْ يطمعَ، فرأى الراحةَ أنْ يرضَى؛ وسَوَّلتُ لَهُ أنْ يَحْسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألَّا يُبالي؛ وأخذَ لِنفسِهِ من كلِّ شيءٍ في ٱلحياةِ بما يثقُ أنَّهُ ٱلإيمانُ وٱلصبرُ وٱلهدوءُ وٱلرضا وٱلقناعة؛ وأحاطَ نفسَهُ من هذه الأخلاقِ بِالسعادةِ القلبيَّةِ وٱجْتزَأَ بها؛ وقَصَرَ نظَرَهُ على ٱلحقيقةِ؛ ووجَد ٱلجمالَ في نفسِهِ ٱلطيِّبةِ ٱلصافية؛ وأجرى ما يُؤلِمُهُ وما يَسُرُّهُ مَجرًى واحداً؛ ونظرَ إلى ٱلعمرِ كلِّهِ كأنَّهُ يومٌ واحدٌ يَرْقُبُ مغربَ شمسِه؛ وأخذَ من إرادتِه قوةً أنسَتْهُ ما لم تُعطِهِ ٱلدنيا، فلمْ يَحْفَلْ بِمَا أعطَتِ ٱلدنيا وما مَنَعتْ؛ وعاشَ على فقرِهِ بكلِّ ذلك كما يعيشُ ٱلمؤمنُ في ٱلجنَّة: هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ، وذاكَ في قصرٍ مِنَ ٱلحكمةِ أو مِنَ ٱلإيمانِ أو مِنَ ٱلعقل.

قالَ الشيطان: فلمَّا أعجَزني صلاحاً ورضًى وصبراً وقناعةً وإيماناً وٱحتساباً، وكانَ رجلاً عالماً فقيها ـ سوَّلْتُ[2] لَهُ أنْ يخرجَ إلى المسجدِ لِيعِظَ الناسَ فينتفعوا بِه، ويُبَصِّرَهمْ بدينِهم ـ ويتكلَّمَ في نصِّ كلامِ ٱللهِ؛ فَعقَدَ ٱلمجلسَ ووَعظ، وٱنصرفوا وبقِيَ وحدَه.

---

(١) ينضي: يهزل، يضعف.

(٢) سوّلت: وسوست له.

فجاءَتِ ٱمرأةٌ تسألُهُ عن بعضِ ما يحتاجُ إليهِ ٱلنساءُ في ٱلدينِ من أمرِ طبيعتِهن؛ وكانتِ ٱمرأةً جَزْلةً غَضَّةً رابيةً، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشي قصيرَةَ الخَطْوِ مُثَّاقِلَةً كالمتضايقةِ من حَمْلِ أسرارِ جمالِها وأسرارِ بدنِها ٱلجميل؛ فبَعْضُ مِشيتِها يَقَظَةٌ وبعضُها نومٌ فاترٌ تُخالطُهُ ٱليقَظة؛ ولا يراها ٱلرجلُ الفَحْلُ ٱلتامُ الفُحولةِ إلَّا رأى ٱلهواءَ نفسَهُ قد أصبحَ من حولِها أنثى، مِمَّا تَعْصِفُ بِهِ ريحُها العَطِرةُ عِطْرَ زينتِها وجسمِها.

وكانَ الواعظُ قد ترمَّلَ من أشهر، وكانَتِ ٱلمرأةُ قد تأيَّمَتْ[1] من سنَوات؛ فلمَّا رآها غَضَّ طرْفَهُ[2] عنها؛ ولكنَّها سأَلتْهُ بألفاظِها العذْبةِ عن أمورٍ هي من أسرارِ طبيعتِها، وسألتْهُ عن طبيعتِها بألفاظِها؛ فسمعَ منها مثلَ صوتِ ٱلبلَّور، يتكسَّرُ بعضُهُ على بعض.

وتحدّثتْ لَهُ وكأنَّها تتحدّثُ فيه: فسمِعَ بأذنِهِ ودمِه، ثُمَّ كانَ غَضُّ عينِهِ أقوى لِرؤيةِ قلبِهِ وجَمْعِ خواطِرِه.

ورأى صوتَها يَشْتَهي؛ وعانَقَتْهُ رائحتُها ٱلعطريَّةُ ٱلنفَّاذة؛ وأحاطتْهُ بجوٍ كجوِّ ٱلفَراشِ؛ وعادَتْ أنفاسُها كأنَّها وسْوَسَةُ قُبَلٍ؛ وصارَتْ زَفَراتُها كالقِدْرِ إذا ٱستَجمعَتْ غَلَيَاناً؛ وطَلَعَتْ في خيالِهِ عُريانَةً كما تَطلعُ لِلسكرانِ من كأسِ ٱلخمرِ حُوريَّةٌ عُريانةٌ، لها جِسمٌ يبدو مِنَ ٱللِّينِ وٱلبَضاضةِ وٱلنَّعمَةِ كأنَّهُ من زَبَدِ ٱلبحرَ؟

قالَ أبو ٱلحسن: وكنْتُ كالنائم، فما شعرْتُ إلَّا بصوتٍ كصَكِّ ٱلحجرِ بِالحجر، لا كتكسُّرِ ٱلبلورِ بعُضِهِ على بعض، وسمعْتُ شيخي يقول:

أفَسَقْت...؟

---

(١) تأيمت: مات عنها زوجها.

(٢) غضّ طرفه عنها: مال بنظره عنها.

تاريخٌ يتكلَّم...

أيعرفُ ٱلقرَّاءُ أنَّ في ٱلأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليَّةٌ كاملةُ ٱلأجزاءِ محكمَةُ ٱلوضعِ مُتَّسقةُ ٱلتركيبِ بديعةُ ٱلتأليفِ، تجعلُ ٱلمرءَ حينَ ينامُ كأنَّهُ أسلمَ نفسَهُ إلى (شركةٍ مِنَ الملائكة)، تَسيحُ بِهِ في عالَمٍ عجيبٍ كأنَّما سُحِرَ فتحوَّلَ إلى قصة؟

إنْ يكنْ في ٱلقراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فلْيعلمْهُ منِّي؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأُ في النوم؛ وكثيراً ما يُلْقِي عَلَيَّ من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ ٱلخوارقِ وٱلمعجزات.

وهذه القصةُ التي أَرويها ٱليومَ، كانَتِ ٱلمعجزةُ فيها أنّي مشيْتُ في ٱلتاريخ كما أمشي في طريقٍ ممتدّة؛ فتقدمْتُ إلى أهل سنةِ ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فعِشْتُ معَهم وتَخَبَّرْتُ من أخبارِهم، ثُمَّ رجعْتُ إلى زمني لِأقصَّ ما رأيْتُهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣...

أمسيْتُ ٱلبارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفسِ ما تَنطلقُ ٱلنفسُ لها، أوّلُها سوءُ ٱلهضم؛ ومتى كانَ ٱلبدءُ من هُنا لم تكنِ ٱلحركةُ في ٱلنفسِ إلَّا دائرةً: تَذهبُ ما تذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إلَّا في سوءِ ٱلهضم عينِهِ. فجلسْتُ في ٱلنَّديّ ٱلذي أسْمُرُ[1] فيهِ أحياناً، فكانَ لِجوِّهِ وزنٌ أحسسْتُهُ كمَا يُحسُّ ٱلغائصُ في ٱلماءِ ثِقْلَ ٱلماءِ عليه؛ ودخَّنْتُ ٱلكَرْكَرَةَ[2] فلم تكنْ هواءً ودُخاناً يَترَوَّحُ، بلْ كانَتْ من ثِقْلِها كٱلطعام يدخلُ على ٱلطعام؛ ونظرْتُ ناحيةً فأخذَتْ عيني رجُلاً فِيليَّ ٱلخِلْقة[3]، مُنْطادَ ٱلبطنِ[4] كأنَّما نُفِخَ بطنُهُ بٱلآلات، يَحمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطونِ ٱلبديناتِ ٱلحواملِ كلٌّ منهنَّ في ٱلشهرِ ٱلتاسعِ من حَمْلِها... وكانَ معي إلى كلِّ هذا ٱلبلاءِ خمسُ صُحُفٍ يوميَّةٍ أُريدُ قراءتَها...!

ثُمَّ جِئْتُ إلى ٱلدارِ وٱلمعركةُ حاميةٌ في أعصابي؛ وما كانَ سوءُ ٱلهضم مَنْوَمَةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلْتُ بيتَ كُتُبي وأردْتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تنالُهُ يدي، فخرجَ لِي كتابٌ

---

(١) أسمر فيه: أقضي ليالي السمر فيه.
(٢) الكرْكرة: النارجيلة.
(٣) فيلي الخلقة: ضخمها كالفيل.
(٤) مُنطاد البطن: منفتح البطن.

في خُرافاتِ ٱلأوّلينَ وأساطيرِهم وهَذَيانِهم وسوءِ هضمِهمُ ٱلعقلي. . . كالكلام عن أدُونيسَ وأرطاميسَ وديوُنيسَ وسميراميسَ وإيسيسَ وأتوبيسَ وأثرغتيس. . . . فٱستعذْتُ باللّهِ وقلْت: حتى ٱلكتُبُ لها في هذه الليلةِ أعصابٌ قد نالتْها ٱلثّقْلةُ وٱلألم؟

وباتَ ٱلليلُ يقظانَ معي، وبقيْتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلّبُ حتى أخذَ ٱلصداعُ في رأسي، فٱنقلبَ ٱلتعبُ نوماً، وجاءَ مِنَ ٱلنومِ تعبٌ آخر، وقُذِفْتُ إلى عالمِ ٱلأحلامِ في قُنبلةٍ تستقرُّ بي حيثُ تُريدُ لا حيثُ أُريد:

* * *

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً قدِ ٱجتمعوا جمَاهير، وسمعْتُ قائلاً منهم يقول: «الساعةَ يمرُّ مولانا العالي». فقلْتُ لِمَنْ يليني: «مَنْ يكونُ مولانا العالي؟» قال: «أوَ أنتَ منهم؟» قلْت: «مِمَن؟» فألهاهُ عن جوابي تَشَوُّفُ ٱلناسِ وٱنصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر[1]» ورَفَعَ ٱلرجلُ الذي يُناكِبُني صوتَهُ يقول: «البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي!».

قلْت: إنّا لله! لقد وقعْتُ في قومٍ مِنَ ٱلزنادقة، يُعارضون «التحياتُ والصّلَواتُ والطَّيباتُ لله»؛ ثُمَّ مرّ صاحبُ ٱلحمارِ بحذائي، وغمزَهُ ٱلرجلُ عَلَيَّ، فقال: ما بالُك لا تقولُ مثلَه؟ قلْت: أعوذُ باللّهِ من كُفر بعدَ إيمان. فكأنّما أرادَ أنْ يَلْطُمَني فرفَع يدَه، فصِحْتُ فيه: كما أنتَ ـ ويلكَ ـ وإلّا قبضْتُ عليك، وأسلمْتُك لِلبوليس، وشكوْتُك إلى ٱلنيابة، ورفعْتُكَ إلى محكمةِ ٱلجُنَح[2]!

قال: ماذا أسمع؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه! وأحاطَ بي جماعةٌ منهم، ولكنَّهُ تَرَجَّلَ عن حمارِهِ وأخذَ بيدي ومشيْنا، فقلْت: مَنْ أنت يا هذا؟ قال: أراكَ من غيرِ هذا ٱلبلد؛ أمَا تَعرفُ ٱلحاكمَ بأمرِ ٱلله؟ فأنا هو. قلْت: أُنظرْ ـ ويحكَ ـ ما تقول. فما أظنُّكَ إلّا مَمْرُوراً؛ لقد كتبْتُ أمسِ كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّختُه ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلْتُ بِهِ مقالةَ «الخروفين». .

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنةِ ٣٩٥؛ فالرجلُ مجنون، أوْلا فأنت أيُّها ٱلرجلُ من معجزاتي. لقد جئْتُ بك مِنَ ٱلتاريخ، فسترى وتكتب، ثُمَّ تعودُ إلى التاريخِ فتكونُ من معجزاتي، وتقصُّ عنيَّ وتشهدُ لي. . . !

قلْت: فإنّي أعرفُ أعمالَك إلى أنْ قُتِلْتَ في سنة ٤١١. . . !

---

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

(٢) الجنح، مفرده جُنحة وهي الجريمة.

قال: أوَ إلهٌ أنت فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادِثها؟ لقد كِذْتَ من أفَنِكَ وغَباوتِك تُفسدُ عليَّ دعوى ٱلمعجزة!

وهاجَ ٱلصداعُ في رأسي، وبلغَ سوءُ ٱلهضم حدَّه، وٱشتبكَتْ سيناتُ إيسيسَ وأتوبيسَ إلخ بسينِ إبليس، ومرَّتْ بينَ كلِّ هذا حوادثُ ٱلطاغيةِ ٱلمعتوهِ[1] ٱلمتجبرّ، فرأيتُهُ يبتدعُ في كلِّ وقتٍ بِدَعا، ويخترعُ أحكاماً يُكْرِهُ ٱلناسَ على أنْ يعملوا بها، ويعاقبُهم على ٱلخروج منها، ثُمَّ يعودُ فينقُضُ أمرَه، ويُعاقِبُ على الأخذِ بِهِ، كأنَّ ٱلذي نَقضَ غيرُ ٱلذي أبْرَم، وكأنَّهُ حينَ يتبلَّدُ فيُعجزُهُ أنْ يخترعَ جديداً ـ يَجعلُ ٱختراعَهُ إبطالَ ٱختراعِه.

ورأيْتُهُ كأنَّما يعتدُّ نفْسَهُ مُخَّ هذه الأمَّة، فلا بُدّ أنْ يكونَ عقلاً لِعقولِها، ثُمَّ لا بُدّ أنْ يَسْتَعْلِيَ ٱلناسَ ويستبدَّ بهمُ ٱستبدادَ ٱلشريعةِ في أمرِها ونَهْيِها، فكانَتْ أعمالُهُ في جُملتِها هي نقضَ أعمالَ ٱلشريعةِ الإسلاميَّة، وظنَّ أنَّهُ مستطيعٌ محوَ ذلك ٱلعصر من أذهانِ ٱلناسِ وقَتْلَ ٱلتاريخِ ٱلإسلاميِّ بتاريخِ قاتلٍ سفَّاك.

وسَوَّلَ[2] لَهُ جنونُهُ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلنبوَّة؛ ثُمَّ أفرَطَ عليهِ ٱلجنونُ فحصَّلَ في نفسهِ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلألوهيَّة؛ وفي تكذيبِهِ لِلنُّبوَّةِ وٱلألوهيَّةِ يحملُ الأمَّةَ بالقهرِ وٱلغلَبةِ على ألَّاتصدّقَ إلَّا بِهِ هو؛ وفي سبيلِ إثباتِهِ لنفسِهِ صَنَعَ ما صَنع، فجاءَ تاريخُهُ لا ينفي ألوهيَّةً ولا نبوَّة، بلْ ينفي ٱلعقلَ عن صاحبِه؛ وجاءَ هذا التاريخُ في الإسلامِ لِيتكلَّمَ يوماً في تاريخِ ٱلإسلام. . .

* * *

رأيتُني أصبحتُ كاتباً لِهذا الحاكم، فجعلْتُ أشهدُ أعمالَهُ وأُدوِّنُ تاريخَه، وأقبلْتُ على ما أفْرَدَني بِهِ وقلْتُ في نفسي: لقد وضعَتْني الدنيا مَوْضِعاً عزيزاً لم يرتفعْ إليهِ أحدٌ من كتَّابها وأدبائها، فسأكتبُ عن هذا الدهرِ بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العِلْم.

ودوّنتُ عشرةَ مجلَّداتٍ ضخمةٍ ٱنتبهْتُ وأنا أحفظُها كلَّها، فإذا هي جُملٌ صغيرة، جَعلَ الحُلُمُ كلَّ نبذةٍ منها سِفْراً ضخماً كما يُخيَّلُ لِلنائم أنَّهُ عاشَ عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّة، على حين لا تكونُ الرؤيا إلا لحظة.

---

(١) المعتوه: المخبول.

(٢) سوّل: سوّغ وأوحى له وسمح.

وهذه هي المجلَّداتُ التي قلْتُ: إن التاريخ يتكلَّمُ بها في التاريخ . . .

المجلدُ الأول

ابتُلِيَ هذا ٱلطاغيةُ بنقيصتين: إحداهما من نفسِه، والأخرى من غيرِه؛ فأمَّا ٱلتي من نفسِهِ فإنِّي أراهُ قد خُلِقَ وفي مُخِّهِ لُفافَةٌ عَصَبِيَّةٌ من يَهوديةٍ جَدِّهِ رأسِ هذه ٱلدعوة؛ فهو ٱلحاكمُ بْنُ ٱلعزيزِ بْنِ ٱلمعزِ بْنِ ٱلقاسمِ ٱلمهديِّ عُبيدِ ٱللهِ، ويقولون: إنَّ عبيدَ ٱللهِ هذا كانَ ٱبنَ ٱمرأةٍ يهوديَّةٍ من حدَّادٍ يهوديّ، فٱتفقَ أنْ جرى ذكرُ النساءِ في مجلسِ ٱلحسينِ بنِ محمدٍ ٱلقدَّاح، فوصفوا لَهُ تلك ٱلمرأةَ ٱليهوديَّة، وأنَّها آيةٌ في ٱلحسنِ؛ وكانَ لهَا مِنَ الحدادِ ولد، فتزوَّجَها ٱلرجلُ وأدَّبَ ٱبنَها وعلَّمَه، ثُمَّ عرَّفَهُ أسرارَ ٱلدعوةِ العَلَويةِ وعَهدَ إليهِ بها.

ومن بعض ٱللفائفِ ٱلعصبيَّةِ في ٱلمخِّ ما ينحدِرُ بالوارثةِ مطبوعاً على خيرِهِ أو شرِّه، لايَدَ لِلمرْءِ فيهِ ولا حِيلةَ لَهُ في دفعِهِ أوِ ٱلانتفاءِ منه، فيكونُ قَدَراً يَتسَلْسلُ في ٱلخَلْقِ لِيُحدِثَ غاياتِهِ المقدورة، فمتى وقعَ في مخِّ إنسانٍ فالدنيا بِهِ كالحُبْلَى ولا بدّ أنْ تتمخَّضَ[1] عنه.

هذهِ ٱللِّفافةُ ٱليهوديَّةُ في مخِّ هذا ٱلطاغيةِ ستُحقِّقُ بِهِ قولَ ٱللَّهِ تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ فهو لَنْ يكونَ ٱلعدوَّ لِلإسلام دونَ أنْ يكونَ ٱلأشدَّ في هذهِ ٱلعداوة، ولنْ يكونَ فيها ٱلأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ ٱلمنكَرَة. وما أرى هذه ٱلمآذنَ ٱلقائمةَ في الجوِّ إلَّا تخرقُ بمنظرِها عينَهُ مِن بُغضِهِ لِلإسلامِ وٱنطوائِهِ على عُدوانِهِ؛ فويلٌ لها منه!.

وأمَّا ٱلنقيصةُ ٱلثانيةُ فقدِ ٱبْتُليَ بقومٍ فتنُوهُ بآرائِهم ومذهَبِهم، وهم حمزةُ بْنُ عليّ، وٱلأخرمُ، وفلان، وفلان. . وقدْ لفَّقوا لِلدنيا مذهَباً هو صورةُ عقولِهِمُ ٱلطائشة، لا يجيءُ إلَّا لِلهدم، ثُمَّ لا يضعُ أولَ مَعاوِلِهِ إلَّا في قُبةِ ٱلسماءِ لِيهدمَها. . .! ولو أنا جمعْتُ هذا ٱلمذهبَ في كلمَةٍ واحدةٍ لَقلْتُ: هو حماقةٌ حمقاءُ تُريدُ إخراجَ ٱللَّهِ مِنَ ٱلوجودِ لإدخالِ اللَّهِ في بعضِ ٱلطغاة!

ويتلقَّبون في مذهبِهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل. . .!

---

(١) تتمخَّض عنه: تنتج عنه.

أظهرَ ٱلطاغيةُ أنَّ الله يؤيّدُ بهِ ٱلإسلام، لِيتألَّفَ ٱلجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه، وكانَ في ذلك لئيمَ ٱلكَيْدِ، دنيءَ ٱلحِيلة، يهوديَّ ٱلمكْر؛ فأمرَ بِعمارةِ ٱلمدارسِ لِلفقهِ وٱلتفسيرِ وٱلحديثِ وٱلفُتْيا، وبَذَلَ فيها ٱلأموال، وجعلَ فيها ٱلفقهاء (والمشايخ)، وبالغَ في إكرامِهم، والتَّوْسِعَةِ عليهم، وٱلتَّخَضُّعِ لهم، ودَخَلَ في ظلالِ ٱلعمائم. . . وأحضرَ لِنفسهِ فقيهَين مالكيَّين (اثنين لا واحد) يُعَلِّمانِهِ ويُفقِّهانِهِ، وكانَ أشبَهَ بمُريدٍ مع شيخِ ٱلطريقةِ يَتسعَّدُ[1] بِهِ ويَتيَمَّن[2]؛ أشرفُ ألقابِهِ أنه خادمُ ٱلعِمامةِ ٱلخضراء، وأسعدُ أوقاتِهِ ٱليومُ الذي يقولُ له فيه الشيخ: رأيْتُكَ في ٱلرؤيا ورأيْتُ لك. . . !

وكانَتْ هذه ٱلمعاملةُ ٱلإسلاميَّةُ ٱلكريمةُ من هذا الطاغية، هي بعينِها رِبا ٱللُّفافةِ ٱليهوديَّةِ في مُخِّه؛ تُصْلِحُ بإقراضِ مائةٍ، وفيها نيةُ الخرابِ بالستينَ في المائة. . . ! فإنَّهُ ما كادَ يتمكَّنُ مِنَ الناسِ ويعرفُ إقبالَهم عليهِ وثِقتَهم به، حتى طَلبتِ ٱللفافةُ ٱليهوديةُ رأسَ ٱلمال وٱلرّبا؛ فأمرَهم بهدمِ تلكَ ٱلمدارسِ وإخرابِها، وأبطَلَ العيدَينِ وصلاةَ ٱلجمعة، وقَتَلَ ٱلفقهاء وقَتَلَ معهم فقيهيهِ وأستاذَيه، وعادَ كالمُريدِ ٱلمنافقِ معَ شيخِ ٱلطريقة، يقولُ في نفسِهِ: إنَّ هناك ثلاثةً تعملُ عملاً واحداً في الصيَّد: الفخ، والعِمامة، واللّحية. . . !

إنَّ هذا الطاغيةَ مِلِكٌ حاكم، يستطيعُ أنْ يجعلَ حماقتَهُ شيئاً واقعاً، فيقتلَ علماءَ ٱلدينِ بإهلاكهم، ويقتلَ مدارِسَ ٱلدينِ بإخرابِها، ولو شاءَ لاَسْتطاعَ أنْ يشنُقَ مِنَ ٱلمسلمينَ كلَّ ذي عِمامةٍ في عِمامتِه. ويبلغُ من كفرهِ أنْ يتبجَّحَ[3] ويرى هذا قوةً، ولا يعلمَ أنَّهُ لِهوانِهِ على اللَّهِ قد جعلَهُ ٱللَّهُ كالذبابةِ التي تُصيبُ ٱلناسَ بالمرض، وٱلبعوضةِ التي تقتلُ بٱلحمَّى، وٱلقملةِ ٱلتي تَضْرِبُ بِالطاعون، فلو فَخَرَتْ ذبابةٌ، أو تَبَجَّحَتْ قملةٌ، أو ٱستطالَتْ بعوضة، لجازَ لَهُ أنْ يَطِنَّ طنينَهُ في ٱلعالم. وهلْ فعلَ أكثرَ مِمَّا تفعل؟

لقد أوْذَى بأُناس يقومُ إيمانُهم على أنَّ ٱلموتَ في سبيلِ ٱلحقِّ هو ٱلذي يُخلِّدُهم في ٱلحق، وأنَّ ٱنتزاعَهم بٱلسيفِ من ٱلذي يضعُهم في حقيقتِها، وأنَّ هذه الروحَ ٱلإسلاميةَ لا يَطْمِسُها ٱلطغيانُ إلَّا لِيجلوَها.

---

(١) يتسعّد: يجعله سبب سعادته.

(٢) يتيمّن: يتفاءل.

(٣) تبجح: أعلن فرحه وجاهر به مفتخراً.

إِنَّهُ ـ واللَّهِ ـ ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكنَّ ٱلإسلامَ ٱحتاجَ في عصرِهِ هذا إلى قوم يموتون في سبيلِهِ، وأعوزَهُ ذلك ٱلنوعُ ٱلسامي مِنَ ٱلموتِ الأولِ ٱلذي كانَ حياةَ ٱلفِكرِ ومادةَ التاريخِ، فجاءَتِ ٱلقملةُ تحملُ طاعونها. . !

لقد أحياهم في ٱلتاريخ، أمَّا هم فقتَلوهُ في ٱلتاريخ، وجاءَهم بٱلرحمةِ من جميعِ ٱلمسلمين، أمَّا هم فجاءُوه بٱللعنةِ مِنَ ٱلمسلمين جميعاً!

المجلدُ الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أنَّ الدينَ ٱلإسلاميَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عنِ ٱلنفس، وأنَّ محوَ ٱلأخلاقِ ٱلإسلاميَّةِ ٱلعظيمةِ هو نفسُهُ إيجادُ أخلاق، وأنَّ ٱلإسلامَ كانَ جريئاً حينَ جاءَ فٱحتلَّ هذه الدنيا؛ فلا يطردُهُ مِنَ ٱلدنيا إلَّا جَراءةُ شيطانٍ كٱلذي توَقَّحَ على ٱللَّهِ حينَ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. ولِهذا أمرَ ٱلناسَ بسبِّ ٱلصَّحابة، وأنْ يُكْتبَ ذلك على حِيطانِ ٱلمساجدِ وٱلمقابرِ وٱلشوارع!

أخزاهُ ٱللهُ! أهي روايةٌ تمثيلية يُلْصِقُ ٱلإعلانَ عنها في كلِّ مكان؟ لو سمعَ لسمعَ ٱلمساجدَ وٱلمقابرَ وٱلشوارعَ تقول: أخزاهُ ٱللهُ. . . . !

المجلدُ الرابع

هذا ٱلفاسقُ لا يركبُ إلَّا حماراً أشهبَ يُسمِّيه: (القمر)، وقد جعلَ نفسَهُ مُحتسَباً لِغاية خبيثةٍ؛ فهو يدورُ على حِمارِهِ هذا في ٱلأسواقِ ومعَهُ عبدٌ أسود، فمَنْ وجَدهُ قد غَشَّ؛ أمرَ ٱلأسودَ فـ. . . ! ووقف هو ينظرُ ويقولُ لِلناس: انظروا. . . !

ومن غَلبَةِ ٱلفُسوقِ على نفسِهِ وعلى شيعتِهِ أنّ داعيتَهُ (حُمزَة بْنَ عَليّ) نَوَّهَ[1] بٱلحمارِ في كتابِهِ وأومأَ إليهِ بالثناء، لِخصال: منها أن. . . ! وكتبَ حمزةُ هذا في بعضِ رسائلِهِ: أنَّ ما يرتكبُهُ أهلُ الفسادِ بجوارِ ٱلبساتينِ ٱلتي يمرُّ بها (الفاسقُ) مِنَ المنكَرِ وٱلفحشاء ـ إنما يُرتكَب في طاعتِه. . . !

هذه طبيعةُ كلِّ حاكم فاسقٍ مُلحد، يرى في نفسِهِ رذائلَهُ عُريانةً، فلا يكونُ كلامُهُ وعملُهُ وفكرُهُ إلَّا فُحشاً يتعرَّى؛ وإِنَّ في هذا الرجلِ غريزةَ فسق بهيميّةً متصلةً بطَوْرِ[2] ٱلحيوانِ ٱلإنسانيِّ ٱلأول؛ فما من رَيْبٍ أنَّ في جسمِهِ خليَّةً عصبيَّةً مُهْتاجَةً،

---

(١) نوّه: ذكر فضائله.

(٢) طوْر بتسكين الواو: المرحلة.

ما زالَتْ تَسْبَحُ بالوارِثةِ في دماءِ ٱلأحياء، متلفِّفةً على خصائصِها، حتى ٱستقرَّتْ في أعصابِ هذا ٱلفاسق، فٱنفجَرتْ بكلِّ تلك ٱلخصائص.

ولسْتُ أرى أكثَرَ أعمالِهِ ترجعُ في مَرَدِّها إلَّا إلى طغيانِ هذهِ الغريزةِ فيه؛ فهو يُحاولُ هدمَ ٱلإسلام، لِأنَّهُ دينُ ٱلعِفَّةِ ودينُ صَوْنِ ٱلمرأة، يُلزمُها حِجابَ عِفَّتِها وإبائِها، ويمنعُها ٱلابتذالَ وٱلخلاعة، ويُعينُها أنْ تتخلَّصَ مِمَنْ يشتهيها، ولو كانَ الحاكم... إنَّهُ يَمقتُ هذا الدينَ ٱلقويّ، كما يمقتُ اللصُّ ٱلقانون؛ فهو دينٌ يَثقُلُ على غريزتِهِ ٱلفاسقة، ولِكلِّ غريزةٍ في ٱلإنسان شعورٌ لامهَناً لها إلَّا أنْ يكونَ حرًّا حتى في ٱلتوهُّم؛ وهلْ يُعجِبُ ٱلسكِّيرَ شيءٌ أو يُرضيهِ أو يَلَذُّه، كما يُعجبُهُ أنْ يرى الناسَ كلَّهم سُكارى؛ فَيَنْتشي هو بٱلخمر، وتسكرُ غريزتُهُ برؤيةِ ٱلسكْر؟

وما زالَ رأيُ ٱلفُسَّاقِ في كلِّ زمنٍ أنَّ ٱلحريةَ هي حريةُ ٱلاستمتاع، وأنَّ تقييدَ ٱللذةِ إفسادٌ لِلَّذَّة.

المجلدُ الخامس

يزعمُ ٱلطاغيةُ أنَّهُ يُعِزُّ قومَه، وما أراهُ يُعزِّهم، لكنَّهُ يمتحنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على ٱلأمم؛ يتجرَّأُ شيئاً فشيئاً، مُنتَظِراً ما يَتَسَهَّل، مترقِّباً ما يُمكن؛ وهو يرى أنَّ أخلاقَنا ٱلإسلاميَّةَ هي أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ ٱلأخلاقَ ويظنُّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ منهُ ٱلمصريون بنكتةٍ من ظَرفِهِمُ ٱلبديع، وجاءُوه من غريزتِه، فصنعوا ٱمرأةً مِنَ ٱلورقِ ٱلذي يُشْبِهُ ٱلجلد، وألبسوها خُفَّها وإزارَها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أنَّها آدميَّة، ثُمَّ وضعوا في يدها قِصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلمَّا رآها عَدَلَ إليها[1] وأخذَ من يدِها ٱلقِصةَ وقرأها، فإذا فيها سَبٌّ لَهُ ولِآبائِهِ؛ وسخريةٌ من جنونِهِ ورُعونتِهِ ٱلمضحكة؛ فغضِبَ وأمرَ بقتلِ ٱلمرأة؛ فكانَتْ هذه سخريةً أخرى حينَ تحقَّق أنَّها مِنَ ٱلورق، وأخذتْهُ ٱلنكتةُ ٱلظريفةُ بمثلِ ٱلبرقِ وٱلرعدِ؛ فٱستَشاطَ[2] وأمرَ عبيدَهُ مِنَ ٱلسودانِ بتحريقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْيِ ٱلنساءِ وٱلفُجورِ بهنّ؛ حتى جاءَ ٱلأزواجُ يشترون زوجاتِهم مِنَ ٱلعبيد، بعدَ أنْ طارَتِ ٱلزوبعةُ ٱلسوداءُ في بياضِ ٱلأعراض.

إندلعَتْ ثورةُ ٱلفجورِ في ٱلمدينة، لا مِن ٱلعبيد، ولكنْ مِنَ ٱلحيوانِ ٱلعتيقِ ٱلمستقرِّ في هذا الطاغية.

---

(١) عدل إليها: مال وعرّج عليها.　　(٢) استشاط: اشتعل غضباً.

المجلدُ السادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبحِ رُعوناتِهِ، كأنَّ هذا الحيوانَ لا يحسبُ نساءَ ٱلأمَّةِ كلَّها إلَّا نساءَه، فيأمُرهنَّ بأمر ٱمرأتِه، وكأنَّ ٱلنساءَ في رأيهِ إنْ هُنَّ إلَّا ٱستجاباتٌ عصبيَّةٌ تُطْلَقُ وتُرَدّ.

إنَّ لِموجةِ ٱلفِسْقِ في ٱلغريزةِ ٱلطاغيةِ جَزْراً ومداً يقعانِ في تاريخِ ٱلفسَّاق؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيهِ ٱلموجة، فأمرَ أنْ يُمنَعَ ٱلنساءُ مِنَ الخروجِ ليلاً ونهاراً، لا تطأُ أرضَ ٱلمدينةِ قَدَمُ ٱمرأة، وأمرَ ٱلخفَّافينَ ألَّا يصنعوا لَهنَّ ٱلأخفافَ وٱلأحذيَةَ؛ ولَمَّا عَلِمَ أنَّ بعضَ ٱلنساءِ خرجْنَ إلى ٱلحماماتِ هَدَمَ ٱلحماماتِ عليهِنَّ!

ولو مدَّتِ ٱلموجةُ في تفسُّقِ ٱلفاسقِ لَفَرَضَ على ٱلنساءِ ٱلخروجَ وٱلاتصالَ بٱلرجال وٱلتعرضَ لِلإباحةِ.

إنَّ ٱلصلاحَ وٱلفسادَ كلاهما فسادٌ ما لم يكنِ ٱلصلاحُ نظافةً في ٱلروحِ وسموًّا في ٱلقلب.

المجلدُ السابع

يزعمُ ٱلطاغيةُ أنَّهُ سيَهدمُ كلَّ قديم؛ وإنيِّ لأخشى ـ والله ـ أنْ يأمرَ ٱلناسَ في بعضِ سَطَواتِ جنونِه: أنَّ كلَّ مَنْ كانَ له أبٌ أو أمّ بلغ ٱلستينَ فلْيقتلْه، لِتتخلَّصَ ٱلأمةُ من قديمِها ٱلإنسانيّ. . . !

كأنَّهُ لا يعرفُ أنَّهُ إنَّما يتسلطُ على أيَّامِ مُعاصريهِ لا على التاريخ؛ ويحكمُ على طاعةِ قومِهِ وعِصيانِهِم لا على قلوبِهم وطِباعِهم ومِيراثِهم مِنَ ٱلأسلاف؛ فما هو إلَّا أنْ يهلِكَ حتى ينبعثَ في ٱلدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّتِهِ[1] في بطنِ ٱلأرض، ونتْنُ أعمالِهِ على ظهرِ ٱلأرض. إنَّ هذا ٱلرجلَ ٱلمسلَّطَ، كٱلغُبارِ ٱلمُسْتَطارِ لا يُكْنَسُ إلَّا بعدَ أنْ يقعَ. . .

ولقد رأى ٱلمأفونُ أنَّ أكلَ ٱلناسِ ٱلملوخيَّا ٱلخضراءَ وٱلفُقَّاع، وٱلتُّرمُسَ والجِرْجيرَ، والزبيبَ والعنب ـ هوًى قديمٌ في طِباعِ ٱلناس، فنهى عن كلِّ ذلك، لا يُباعُ ولا يُؤكل، وظهرَ على أنَّ جماعةً باعُوا أشياءَ منها فضَرَبهُم بٱلسيَّاط، وأمرَ فَطيفَ بهم في ٱلأسواق، ثُمَّ ضَربَ أعناقَهم؛ كأنَّ ٱلذي يحملُ ٱلملوخيَّا الخضراءَ على رأسِهِ لِيبيعَها يلبسُ عِمامةً خضراء. . .

---

(١) رِمّته: جيفته.

أهذا ـ وَيْحه ـ تجديدٌ في ٱلأمة، أم تجديدٌ في ٱلمعِدة. . .؟

المجلدُ الثامن

لا يرضَى ٱلطاغيةُ إلَّا أنْ يَمْحَقَ[1] روحانيَّةَ ٱلأمَّةِ كلِّها، فلا يتركُ شيئاً رُوحانيًّا لَهُ في أعصابِ الناسِ أثرٌ مِنَ ٱلوقار، وبِمَنْ يَسْتَظهِرُ ـ ويْلَه ـ إذا مُحِقَتْ روحانيَّةُ ٱلأمَّةِ وأشرفَتْ نَزْعتُها الدينيةُ على ٱلانحلال؟ كأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ حقيقةَ ٱلوجود لِأمةٍ مِنَ ٱلأممِ إنَّما تُستَمدُّ من إيمانِها بالمثَلِ ٱلأعلى ٱلذي يدفعُها في سِلْمِها إلى الحياةِ بِقوة، كما يدفعُها في حربِها إلى ٱلموتِ بقوَّة؛ وكأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ ٱلتاريخَ كلَّه تُقرِّرُهُ في ٱلأرض بِضعةُ مبادىءَ دينيَّة.

هذا ٱلحاكمُ ٱلأخرقُ هو عندي كٱلذي يقولُ لِنفسِه: لم أستطعْ أنْ أفتحَ دولة، فلأفتحْ دولةً في مملكتي. . . لقد أمرَ بهدمِ ٱلكنائسِ وٱلبِيَع، حتى بلغَ ما هدَم منها ثلاثينَ ألفاً ونيِّفاً.

أيُّ مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا ٱلذي يحسبُ ٱلنفوسَ ٱلإنسانيَّةَ كٱلأخشاب؛ تَقْبَلُ كلُّها بغيرِ ٱستثناءٍ أنْ تُدقَّ فيها ٱلمسامير. . .؟

سيعلمُ إذا نشبَتْ حربٌ بينَهُ وبينَ دولةٍ أخرى، أنَّهُ كسرَ أشدَّ سيوفِهِ مضاءً حينَ كسَرَ ٱلدين!

المجلدُ التاسع

هذه هي ٱلطامَّةُ ٱلكُبرى؛ فلا أدري كيف أكتُبُ عنها: لقد تطاوَلَ ٱلمجنونُ إلى الألوهيَّةِ فٱدَّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسِهِ: بٱسم ٱلحاكمِ ٱلرحمن!

لو كان أغبى ٱلأغبياءِ في موضعِهِ لَاتَّقى شيئاً، لا أقولُ تقوى ٱلدينِ وٱلضمير، ولكنْ تقوى ٱلنِّفاقِ ٱلسياسيِّ؛ فكانَ يحملُ ٱلناسَ على أنْ يقولوا عنه: «أبانا الذي في ٱلأرضين. . . . .!».

وإلَّا فأيُّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأيّ حُمقٍ وتَهوُّر، أنْ يكونَ إلٰهٌ على حمارٍ، وإنْ كانَ ٱسمُ حمارِهِ القمر!

المجلدُ العاشر

سيأخذُهُ ٱللّهُ بٱمرأة؛ ولِكلِّ شيءٍ آفةٌ من جِنسِه؛ لقد بلغَ من وقاحةِ غريزتِهِ أنْ

---

(١) يمحق: يسحق، يمحو.

ٱئْتَفَكَ[1] أختَهُ ٱلأميرةَ (ستّ المُلك)، ورماها بٱلفاحشة، وهي من أزكى ٱلنساءِ وأفضلِهِنّ، وٱتّهمها بالأمير (سيف الدين بنِ الدَّوَّاس) وقد علمْتُ أنّها تُدبّرُ قتلَه، وأنّها ٱجتمعتْ لذلك بسيفِ الدين. فسأمسك عن ٱلكتابةِ في هذا المجلد، وأدعُ سائرَهُ بياضاً حتى أذهبَ إليهما فأُعينَهما بما عندي مِنَ ٱلرأي، ثُمَّ أعودُ لِتدوينِ ما يقعُ من بَعد...

* * *

ورأيْتُ أنّي ٱجتمعْتُ بِهما وٱطمأنّا إليّ، فأخذْنا نُديرُ ٱلرأي:

قالتِ ٱلأميرةُ لِسيفِ ٱلدين فيما قالَتْه: «وٱلرأيُ عندي أنْ تُتْبِعَهُ غِلماناً يقتلونَهُ إذا خرجَ في غدٍ إلى جبلِ ٱلمقطَّم، فإنَّهُ ينفردُ بنفسِهِ هناك!».

فقلْتُ أنا: «ليسَ هذا بالرأيِ ولا بٱلتدبير».

قالَتْ: «فما ٱلرأيُ وٱلتدبيرُ عندك؟».

قلت: «إنَّ لنا عِلْماً يسمونَهُ (علم النفس)، لم يقعْ لِعلمائِكم، وقد صحَّ عندي من هذا العِلْمِ أنَّ ٱلرجلَ طائشُ ٱلغريزةِ مجنونُها، وأنَّ ٱلأشعةَ ٱللطيفةَ ٱلساحرةَ ٱلتي تنبعثُ من جسمِ ٱلمرأةِ هي ٱلتي تنفجرُ في مُخِّهِ مرّةً بعدَ مرّة؛ فإذا خَبَتْ[2] هذه الأشعة، وبطَلَتِ ٱلغريزة، بَطَلتْ دواعي أعمالِهِ ٱلخبيثةِ كلُّها، وكَفَّ[3] عن محاولتِهِ أنْ يجعَلَ ٱلأمَّةَ مملوءةً من غرائزِ جسمِهِ وشهواتِهِ، لا من فضائِلها ودينِها. فلو أخذْتُم برأيي وأمضيتُموه فإنَّهُ سيُنكِرُ أعمالَهُ إذا عرَضَها على نفسِهِ ٱلجديدة، وبهذا يُصلحُ ما أفسد، وتكونُ حياتُهُ قد نطقَتْ بكلمتِها ٱلصحيحةِ كما نطقَتْ بكلمتِها ٱلفاسدة؛ فإذا....».

قالَ ٱلأمير: «فإذا ماذا؟».

قلت: «فإذا خُصِيَ....».

فضحكَتْ سِتُّ ٱلملكِ ضحكةً رنَّتْ رنيناً.

قلت: «نعم إذا خُصيَ هذا الحاكم».

فغلبَها ٱلضحكُ أشدَّ مِنَ ٱلأول، ورمتْني بمنديلٍ لطيفٍ كانَ في يدِها أصَابَ وجهي، فٱنتهبتُ وأنا أقول:

«نعم إذا خُصِيَ هذا الحاكم...».

---

(١) ائتفك: اتّهم بالفجور. (٢) خبت: سكنت. (٣) كفّ: توقّف.

كُفْرُ الذُّبابة . . .

قالَ كَلِيلةُ وهو يَعِظُ دِمْنةَ ويُحَذِّرُهُ ويَقضي حقَّ ٱللَّهِ فيه؛ وكانَ دِمنةُ قد داخلَهُ ٱلغرورُ وزَهَاهُ ٱلنَّصر، وظهرَ منهُ ٱلجفاءُ وٱلغِلْظة، ولَقِيَ ٱلثعالبُ من زيغِهِ[1] وإلحادِهِ عنَتاً شديداً:

. . . وٱعلَمْ يا دِمنةُ أنَّ ما زعْمتَهُ من رأيك تامٌّ لا يعتريهِ ٱلنقص، هو بعينِهِ الناقصُ الذي لم يتمَّ؛ والغرورُ ٱلذي تُثبِتُ بِهِ أنَّ رأيكَ صحيحٌ دونَ ٱلآراء، لعلَّهُ هو ٱلذي يُثبت أنَّ غيرَ رأيكَ في ٱلآراءِ هوَ ٱلصحيح.

ولو كانَ ٱلأمرُ على ما يتخيَّلُ كِلُ ذي خيال، لَصدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعم، ولو صدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ، لكذَبَ كلُّ إنسان؛ وإنَّما يدفَعُ ٱللَّهُ ٱلناسَ بعضَهم ببعض، لِيجيءَ حقُّ ٱلجميعِ مِنَ ٱلجميع، ويبقى ٱلصغيرُ مِنَ ٱلخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثبُتَ ٱلكبيرُ مِنَ ٱلصوابِ على موضعِهِ فلا يُنتقص، ويصحَّ ٱلصحيحُ ما دامتِ ٱلشهادةُ لَه، ويفسُدَ ٱلفاسدُ ما دامَتِ ٱلشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلَّا مَثَلُ ٱلأرنبِ وٱلعلماء.

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّ أرنباً سمِعتِ ٱلعلماءَ يتكلَّمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَنُ[2] ٱللَّهُ بٱنقراضِها، وكيف تكونُ ٱلقارعة[3]؛ فقالوا: إنَّ في ٱلنجوم نجوماً مُذَنَّبةً، لوِ ٱلتفَّ ذنَبُ أحدِها على جِرْمِ أرضِنا هذه لَطارَتْ هَوَاءَ كأنَّها نفخةُ ٱلنافخ، بلْ أضعفُ منها كأنَّها زَفرةُ صدرِ مريض، بلْ أوهى كأنَّها نَفْثَةٌ من شفتين. فقالَتِ ٱلأرنب: ما أجهلَكم أيُّها العلماء! قد وٱللَّهِ خَرِفْتُم وتكَذَّبتم وٱستَحْمَقْتُم؛ ولا تزالُ ٱلأرضُ بخيرٍ معَ ذَواتِ ٱلأذناب؛ وٱلدليلُ على جهلِكم هو هذا ـ قالوا: وأرْتهُم ذَنَبَها . . . !

قالَ كليلة: وكم من مغرورٍ يُنْزِلُ نفسَهُ مِنَ ٱلأنبياءِ منزلةَ هذه الأرنبِ من

---

(1) زيغه: روغانه. (2) يتأذن: يسمح. (3) القارعة: القيامة.

أولئك العلماء؛ فيقول: كذَبوا وصدَقْتُ أنا، وأخطأُوا جميعاً وأصبْتُ، وٱلْتَبَسَ عليهم وٱنكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا ٱلمستَيْقِن. ثُمَّ لا دليلَ لَهُ إلَّا مثلُ دليلِ ٱلأرنبِ ٱلخرقاءِ من هَنَةٍ تتحرّكُ في ذنبِها.

وكانَ يُقال: إنَّهُ لا يُجاهِرُ[1] بالكفرِ في قوم إلَّا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبئوا بِه، فهو ٱلأذلُّ المستضَف؛ أو رجلٌ هانوا عليهِ فلَم يعبأْ بهم، فهوَ ٱلأعزُّ ٱلطاغية؛ ذاك لا يخشَونَهُ فيَدَعُونَهُ لِنفسِهِ وعليهِ شهادةُ حُمقِه، وهذا يخشونَهُ فيتركون مُعارضَتَهُ وعليهِ شهادةُ ظُلمِه؛ وما شرٌّ من هذا إلَّا هذا.

وقَالَتِ ٱلعلماء: إنْ كنْتَ حاكماً تَشْنُقُ مَنْ يُخالِفُكَ في ٱلرأي، فليسَ في رأسِكَ إلا عقلٌ ٱسمُهُ ٱلحبل؛ وإنْ كنْتَ تَقتلُ مَن يُنكرُ عليك ٱلخطأ، فليسَ لَكَ إلَّا عقلٌ ٱسمُهُ ٱلحديد؛ وإنْ كنْتَ تحْبِسُ مَنْ يُعارضُك بِالنظر، ففيك عقلٌ ٱسمُهُ ٱلجِدار؛ أمّا إنْ كنْتَ تُناظِرُ[2] وتُجادِل، وتقنعُ وتقتنع، وتدعو ٱلناسَ على بَصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى ـ ففيكَ ٱلعقلُ ٱلذي ٱسمُهُ العقل.

* * *

قالَ كليلة: وأنا يا دِمنة، فلو كنْتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبَعاً، لا يُعصَى لي أمر، ولا يُردُ عَلَيَّ رأيَ، ولا يُنكَرُ مني ما يُنكَرُ مِنَ ٱلمخلوقِ إذا أخطأ، ولا يُقالُ لي دائماً إلَّا إحدى ٱلكلمتين: أصبْتَ، ثُمَّ هي دائماً أصبْت؛ ولا يَلْقاني أحدٌ من قومي بِٱلكلمةِ الأخرى، رَهْبةً من سَخَطِي[3]، رَهْبَةَ ٱلجُبنَاء، أو رغبةً في رِضايَ رغبةَ ٱلمُنافقين، وزعموا أنَّهم على ذلك قد صَحّتْ نِيّاتُهم وخلَصَ لي باطنُهم جميعاً ـ فلو كنْتُ وكانوا على هذا، لأحالَني نقصُهم إلى نقصِ ٱلعقلِ بعدَ كمالِه، وردَّتني فُسولتُهم إلى فُسولةِ ٱلرأي بعدَ جَوْدتِه، فأخْلِقْ[4] بي أنْ أعتبرَ وضْعَهم إيايَ في موضعِ ٱلآلهة، هو إنزالَهم إياي في منزلةِ ٱلشياطين؛ وإلَّا كنْتُ حقيقاً أنْ يُقصيبني ما أصابَ ٱلعَنْزَ ٱلتي زعموا لها أنَّها أنْثى الفيل...

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّهُ كانَ في إحدى خَرائبِ ٱلهندِ جماعةٌ منَ ٱلعظاءِ[5]، وكانَ

---

(١) يجاهر: يعلن على الملأ من الناس.

(٢) تناظر: تجادل وتحاور.

(٣) سخطي: غضبي.

(٤) أخلق بي: أجدر بي.

(٥) العِظاء، مفرده عِظاءة وعَظاية، وهي السحلية.

فيها عَضْرَ فُوطٌ كبير[1]، فملَّكَتْهُ ٱلجماعةُ وذهبَتْ تأتَمِرُ[2] على أمْرِهِ وتنتَهي. فمرّ بهذه الخِرْبةِ فيلٌ جسيمٌ مِنَ ٱلفِيَلةِ ٱلهنديَّةِ ٱلعظيمة، لم يُحِسَّ بٱلعَظَاء، ولم يُميِّزْ فرْقاً بين هذه الأمَّةِ مِنَ ٱلحشراتِ وبينَ ٱلحصى منثوراً يلْتَمِعُ في ٱلأرضِ هنا وهنا؛ قالوا فغضبَ ٱلعَضْرَفُوطُ، وكانَ قائداً عظيماً، ثُمَّ تدبّر أمْرَ ٱلفيلِ ينظرُ كيفَ يصنعُ في مُدافَعَتِه[3]، وكيف يحتالُ في هَلاكِه، فرآهُ لا يتحركُ إلّا بأقدامِهِ يَنقلُها واحدةً واحدة؛ فقدَّرَ عندَ نفسِهِ أنَّهُ لو أزالَ قدَمَ الفيلِ عنِ ٱلأرضِ زالَ الفيلُ نفسُه؛ فجاءَ فٱعترضَ ٱلطريقَ، ودَبَّ دبيبَه؛ فلمَّا رفعَ ٱلفيلُ قدمَه ٱهْتَبَلَ[4] هذه الغَفْلَةَ منه. وٱنْدسَّ[5] تحتها، فٱندسَّ مقبوراً في التراب!

ثُمَّ إن ٱلعَظَاءَ ٱفتَقَدَتْ أميرَها. فلمَّا مضى ٱلفيلُ لِسبيلِهِ ورأَتْ ما نزلَ بها، نَفَرَتْ إلى أجحارِها[6]، وٱستكنَّتْ[7] فيها ترتَقِبُ وتَتَربَّص[8]، فدخلَتْ إلى ٱلخِربةِ عَنْزٌ جعلَتْ تتقممُ منها وتَرْتَعُ فيها، ورأَتْها ٱلعَظَاءُ فٱجتمعْنَ يأتَمِرْنَ[9]. . .

فقالَ منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألَتْ عَظَايةٌ منهنّ: وأينَ ٱلنابانِ العظيمان؟

قالَتِ ٱلأولى: إنَّ الإناثَ دونَ الذكورةِ في خَلْقِها، والأنثى هي ٱلذكَرُ مقلوباً أو مختصراً أو مشوَّهاً، ولذلك هنَّ يَقْلِبْنَ ٱلحياةَ أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها، أفلا ترينَ ٱلنابينِ ٱلعظيمينِ البارزينِ في ذلك الفيلِ الجسيم، كيف نَبَتَا صغيرينِ منقلبين فوقَ رأس أنثاه. . .؟

فقالَتْ واحدة: إنْ جازَ قولُك في ٱلرأي فأينَ ٱلخُرْطُوم؟

قالتِ ٱلأخرى: هو هذه الزَّنمةُ المتَدلِّيةُ من حَلْقها، وذلك خُرطومٌ على قدْرِ أنوثةِ ٱلأنثى. . . !

قالوا: ثُمَّ ٱجتمعَ رأيُهُنَّ على أنْ يُمَلِّكْنَ أنثى ٱلفيلِ هذه؛ وأنْ يَهَبْنَ لها الخِربَةَ وأُمَّتَها. وسمعَتِ ٱلماعِزَةُ كلامُهُنَّ فقالَتْ في نفسِها: لا جَرَمَ أنَّ تكونَ ٱلعنزُ فيلةً في أمَّةٍ مِنَ ٱلعَظَاء، فقد قَالَتِ ٱلعلماء: إنَّهُ لا كبيرَ إلّا بصغير، ولا قَوِيَّ إلّا بضعيف،

---

(١) العضرفوط هو ضرب من العظاء يكون أكبر منها.
(٢) تأتمر: تنصاع لأمره.
(٣) مدافعته إبعاده بالحيلة.
(٤) اهتبل: انتهز.
(٥) اندس: دخل خلسة.
(٦) أجحارها: أوكارها.
(٧) استكنّت: كمنت.
(٨) تتربّص: تنتظر غفلة.
(٩) يأتمرن: يتناقشن.

ولا طاغيةَ إلَّا بذليل؛ وإنَّ العظمةَ إنْ هي إلَّا شهادةُ ٱلحقارةِ على نفسِها، وإنَّهُ رُبَّ عظيم طاغيةٍ متَجَبِّرٍ ما قامَ في ٱلناس إلَّا كما تقومُ ٱلحِيلة، ولا عاشَ إلَّا كما يعيشُ ٱلكَذِب، ولا حَكَمَ إلَّا كما يَحكمُ ٱلخِداع. وهذه الدنيا لِلمحظوظِ كأنَّها دنيا لَهُ وحدَه، فمتى جاءَتْ إليهِ فقد جاءَت، ولو أنَّها أدبرَتْ[1] عنه من ناحيةٍ لَرجعَتْ من ناحيةٍ أخرى، لِيثبتَ ٱلحظُّ أنَّهُ الحظ.

وتقدَّمَ ٱلعَظَاءُ إلى العنز، فقُلْنَ لها: أيَّتُها ٱلفِيلةُ العظيمة، إنَّ قرينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمِهِ فغيَّبَهُ تحتَ سبْعِ أرَضِين، وأنت أنثاهُ وسيِّدتُه، فقدِ ٱخترناكِ مَلِكةً علينا، ووهبْنَا لك ٱلخِربَةَ وما فيها.

قالَتِ ٱلعنز: فإنِّي أتَّهِبُ منكُنَّ هذه الهِبَة، ونِعِمَّا صَنَعْتُنَّ؛ غيرَ أنَّ بينكُنَّ وبيني ما بينَ العَظَايَةِ وٱلفيل. وما بينَ ٱلحصاةِ والجبل، فإذا أنا قلْتُ، فأنا قلْت؛ وإذا أنا أمرْتُ، فأنا أمَرْت؛ وإذا أنا فعلْتُ، فأنا فعلْت. هنا في هذه الأمَّةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليسَ معها غيرُها؛ لأنَّ هٰهنا في هذا الرأسِ دماغَ فِيلة، وفي هذا ٱلجسم قوةَ فِيلة، وفي ٱلخِربَةِ كلِّها فيلةٌ واحدة؛ فلا أعْرِفَنَّ منكُنَّ على ٱلصوابِ وٱلخطأ إلَّا ٱلطاعةَ طاعةَ ٱلأعمى لِلبصير. ألا وإنَّ أوّلَ ٱلحقائقِ أنّني فيلةٌ وأنكُنَّ عَظَاء؛ ومتى بدأَ ٱليقينُ من هنا سَقَطَ ٱلخِلافُ من بينِنا وبَطلَ ٱلاعتراضُ منكُنّ، وقوَّتي حقٌّ لِأنَّها قوّة، وباطلي كذلك حقٌّ لِأنَّهُ من قوّتي؛ وقد قال أسلافُنا[2] حكماءُ ٱلفِيلَةَ: إنَّ القويَّ بينَ ٱلضعفاءِ مَشِيئةٌ مُطْلَقة، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بِٱلحماقة، إمامٌ حتى بٱلحرافة، عالمٌ حتى بالجَهَالة نَبِيٌّ حتى بالشَعوذَة. . . . !

قالوا: وتُنكِرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانَتْ ذاتَ رأيٍ ودِينٍ في قومِها، وكُنّ يُسمِّينَها: (العِمامَة)، لِبياضِها وصلاحِها وطهارتِها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيتُها ٱلفيلة؛ لقد تَخَرَّصْتِ[3] غيرَ ٱلحق؛ فإنَّكِ تحكيمنَنا من أجْلِنا لا من أجلِكِ، وما قولُكِ إلَّا كلماتٌ تُحقِّقُها أعمالُنا نحن؛ فَلَكِ ٱلطاعةُ فيما يُصْلِحُنا، وما كانَ من غيرِهِ فهو رَدٌّ عليك، ورأيُكِ شيءٌ ينبغي أنْ تكونَ معه آراؤنا، لِتَتَبيَّنَ ٱلأسبابُ أسبابُ ٱلموافقةِ وٱلمخالَفة، فنأخذَ عن بيِّنَةٍ ونتركَ عن بيِّنة؛ وقد كان يُقالُ في قديم ٱلحِكمة: إنَّهُ يجبُ على مَنْ يُقدِّمُ رأياً لِلأمَّةِ الحازِمةِ كي تأخذَ به، أو يضَعُ لهَا شرعاً لِيحْمِلَها عليه، أو يَسنُّ لها سنَّةً لِتتَبَّعَها ـ إنَّهُ يجبُ على هذا ٱلمتقدّمِ لِتحويلِ

---

(1) أدبرت: رحلت. (2) أسلافنا: أجدادنا. (3) تخرّصت: تقوّلت.

ٱلأمَّةِ أو تحريرِها يتقدَّمَ لِأهلِ ٱلشُّورَى وفي رأسِهِ ٱلرأيُ، وفي عنقِهِ حَبْل؛ ثُمَّ يتكلَّمُ برأيِهِ ويَبْسُطُهُ ويدْفعُ عنه، ويُجادلُهم ويُجادلونَه؛ فإنْ كانَ ٱلرأيُ حقًّا أخذوا ٱلرأي، وإنْ كانَ باطلاً أخذوا الحبلَ فشنقوا فيهِ هذا المتهوّر.

وفي دينِنا أنّ الطاعةَ في ٱلمعصيةِ معصيةٌ أخرى؛ ولقد كانَ لنا عَضْرفُوطٌ بَحّاثَةٌ في ٱلأديانِ دَرّاسَةٌ لِكتبِها عَلّامَةٌ نَقّابٌ؛ فكانَ مِمّا علَّمنا: أنَّ ٱلمخلوقَ مبنيٌّ على النقصِ إذْ هو ماضٍ إلى ٱلفناء، فيجبُ ألّا يتمَّ منه شيءٌ إلّا بمقدار، وألّا تكونَ ٱلقوةُ فيهِ إلّا بمقدار؛ ولهذا كانَ ٱلعقلُ ٱلتامُّ في الأرضِ هو مجموعَ ٱلعقولِ ٱلعظيمةِ كلِّها، وكانَ أتمُّ ٱلآراءِ وأصحُّها ما أثبَتَتِ ٱلآراءُ نفسُها أنَّهُ أصحُّها وأتمُّها. فلا ٱلدينَ ٱتَّبعْتِ أيّتُها ٱلفيلةُ، ولا ٱتَّبعْتِ ٱلعقل، وليسَ إلّا هذا (ٱلتفيُّلُ) ٱلكاذب.

فلمّا سمَعتِ ٱلعنزُ ذلك تنقَّشَتْ وغضبَتْ، وقالَت: إيّاكم وهذه الترهّاتِ من ألسنتِكم، وهذه الأباطيلَ في عقولِكم؛ لا أَسْمَعَنّ منكم كلمةَ ٱلدينِ ولا كلمةَ الأنبياءِ ولا العَضَافيط... فذلك وحيٌ غيرُ وحيي أنا؛ وإذا كان غيرَ وحْيي أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُحُ لِلحكمِ الذي شَرْطُهُ أنَّ الدولةَ ليس فيها إلّا أنا واحدة. وذلك إنْ لم يجعلْكم غُرباءَ عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدٌّ من إحدى الغُرْبتين، فهو أوّلُ ٱلقَطيعة، والقطيعةُ أوّلُ ٱلفساد. وما دامَ في ٱلدينِ أمرٌ غيرُ أمري، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيي، وتحليلٌ وتحريمٌ لا يتغيرانِ على مشيئتي ـ فأنا مجنونةٌ إنْ رضيْتُ لكم هذا...!

فضَحِكَتِ (العِمامةِ) وقالَتْ لِلماعزة: بل قولي: أنا مجنونةٌ بـ (أنا)؛ أفلا يجوزُ وأنتِ خَلْقٌ مِنَ ٱلخلْقِ أنْ يَعْتَرِيَ عقلَكَ شيءٌ مِمّا يعتري ٱلعقول؟ ولَسْنا نُنكرُ أنَّكِ قويَّةُ ٱلرأيِ في ناحيةِ ٱلقوة، حَسَنَةُ ٱلتدبيرِ في ناحيةِ ٱلشجاعة، متجاوِزةُ المِقدارِ في ناحيةِ ٱلحَزْمِ وٱلحِرْصِ على مصالحِ ٱلدولة؛ ولكنْ ألم يقلِ ٱلحكماء: إنَّ الزيادةَ ٱلمسْرِفةَ في جهةٍ مِنَ ٱلعقل، تأتي مِنَ ٱلنقصِ ٱلمتحيِّفِ[1] لِجهةٍ أخرى؛ وإنَّهُ رُبَّ عقلٍ كانَ تامًّا عَبْقَرِيًّا في أمورٍ، لكِنَّهُ ضعيفٌ أبلهُ في غيرِها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُهُ أحد، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمُهُ أحد، ثُمَّ يَغلَطُ في ٱلأخرى ما لا يغلَطُ أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشَتِ[2] ٱلعنزُ وفارَتْ مِنَ ٱلغضبِ فَوْرَةَ ٱلجبّار، وخُيِّلَ إليها من

---

(١) المتحيّف: الجائر، الظالم.

(٢) جاشت: استشاطت غضباً.

عَمَى ٱلغيظِ أنَّها ذهبَتْ بينَ ٱلأرضِ وٱلسماء، وأنَّ زَنْمَتَها ٱمتدَّ منها خُرطومٌ طويل، وأنّ قرْنيها ٱنْبَعَجَ منهما نابانِ عظيمان؛ وقالَت: ويْحَكُم! خذوا هذه (العِمامة) فٱشنقوها؛ فإنَّها كما قالَت؛ تقدّمَتْ إلينا بالرأْي وٱلحلِّ. . . !

وكانَ في العَظَاءِ ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ، ومأْكولون لِكلِّ آكل؛ فَتَشَبَّحَ[1] لهم أنَّ أنثى ٱلفيل هذه. . . ستَخْلُقُهُم فِيَلةً إنْ هم أطاعوها؛ فإذا مَرَدُوا[2] عليها فإنَّها من صرامةِ ٱلبأْسِ بحيثُ تجعلُ كلَّ ظِلْفٍ من أظلافِها جبلاً فوقَهم كأنَّهُ ظُلَّةٌ فَتسُوخُ بهمُ ٱلأرض. ثُمَّ إنهم انْخَزلوا وترَاجَعوا، وأُخِذَتِ (العِمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَتْ، وخَمدَ ٱلرأيُ من بعدِها، وٱنقطعَ ٱلخِلافُ والدّينُ والعقلُ الحرّ. . . ؛ وأقبلَتْ دولةُ ٱلعَظَاءِ على العنزِ تُجرّرُ أذيالها.

قالوا: وٱغترَّتِ ٱلماعِزةُ وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن، وعرفَتْ لِنفسِها وهي ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأْنِ ٱلفيلِ ٱلقويّ، فَلَجَّتْ[3] في عمَايتِها وكفَرتْ بجنسِها، وقالت: لم يخلقني ٱللَّهُ فِيلةً وخلقْتُ نفسي؛ فأنا لا هو. . .

وثَبتَ عندَها أنها ليسَتْ بعنْزٍ وإنْ أشبهَتْها كلُّ عنزٍ في ٱلدنيا؛ وذهبَتْ تُقلّدُ وتعيشُ على مذاهبِ ٱلفِيَلةِ بينَ ٱلعَظَاء؛ فإذا مَشَتْ ٱرتجَّتْ وتخطَّرَتْ كأنّها بِناءٌ يتقلقل، وإذا ٱضطجعَتْ أنذَرتِ ٱلأرضَ أنْ تتمسَّكَ لا تَدُكُّها بجنبِها. . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا ٱلخرابِ مرّةً أخرى، فلاذَتِ ٱلعَظَاءُ كلُّهنّ بالفِيلة. . . وتأهَّبَتْ هذهِ لِلقتال، وتحصَّنَتْ في ٱلمبارزَةِ وٱلمناجزَة. . . (والمعانَزَة) فنَصَبَتْ قرنيها، وحرّكَتْ زنمتَها، وطأطأَتْ، وشدَّتْ أظلافَها في الأرض، وثبّتَتْ قوائمَها، وصلَّبَتْ عظامَهَا، ونفشَتْ شعرَها، وتَشَوّكَتْ[4] كالقُنفذ، وأصرَّتْ بكلِّ ذلك إصرارَها، وكانَتْ عنزاً نَطِيحةً منذ كانَتْ تَتْبَعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ. . . ؟

ثُمَّ إنَّها ثبتَتْ في طريقِ ٱلفيلِ لِيرى بعينيهِ هذا ٱلهوْلَ ٱلهائل. . . فأقبَلَ فمدَّ خرطومَه، فنالَها بِه، فلفَّها فيه، فقَبَضَه، فرفَعَه، فطوَّحَها[5]، فكأنّما ذهبَتْ في ٱلسماء. . . !

---

(١) تشبّح: خيّل إليهم أنه شبح.
(٢) مردوا: تمرّدوا.
(٣) لَجّت: تمادت.
(٤) تشوّكت: أظهرت في جلدها ما يشبه الشوك.
(٥) طوّح: تحرك ذات اليمين وذات اليسار.

وتهارَبَتِ ٱلعَظَاءُ ولُذْنَ[1] بأجْحَارِهِنّ، ثُمَّ غَدَوْنَ على رِقِهِن؛ فإذا جِيفَةُ ٱلعنزِ غيرَ، بعيد، فَذَبَبْنَ عليها وٱرتَعَيْنَ فيها، وعَلِمْنَ أنَّها كانَتْ ماعِزَةً فَيَّلَها جنونُها، وأدركْنَ أنَّ ٱلكذبَ على ٱلحقائقِ قد جعلَ ٱللَّهُ لَهُ حقائقَ أخرى تقتلُه، وأنَّ مَنْ غَلَبَ أمَّةَ ٱلعَظَاءِ على أمرِها فليسَتِ ٱلأيامُ وٱلليالي عَظاءً فيغلبَها؛ وأنَّ تغييرَ ٱلمخلوقات، إنَّما يكونُ بتحويلِ باطنِها لا بتحويلِ ظاهرِها، وأنَّ الإناءَ الأحمرَ يُريكَ ٱلماءَ محمرًّا وٱلماءُ في نفسِهِ لا حُمرةَ فيه، حتى إذا ٱنكسرَ ٱلإناءُ ظهرَ كما هو في نفسِه؛ وكلُّ ما يُخفي ٱلحقَّ هو كهذا الإناء: لونٌ على ٱلحقِّ لا فيه؛ ثُمَّ أيقَنَّ أنَّ مُحاولةَ إخراجِ أمَّةٍ كاملةٍ من نَزعاتِ ماعزةٍ مأفونة[2]، هي كمحاولةِ ٱستيلادِ ٱلفيلِ مِنَ ٱلماعزة. . . !

* * *

قالَ كليلة: وٱعلمْ يا دِمنةُ أنَّهُ لولا أنَّ هذه ٱلعنزَ ٱلحمقاءَ قد كفرَتْ كُفْرَ ٱلذبابة، لما أخذَها ٱللَّهُ أَخْذَ الذبابة.

قالَ دِمنة: وكيف كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّ ذبابةَ سوداءَ كانَتْ من حَمْقى ٱلذِّبَّان، قُدِّرَتِ ٱلحماقةُ عليها أبديَّة، فلوِ ٱنقلبَتْ نقطةُ حبرٍ في دواةٍ لَمَا كُتبَتْ بها إلا كلمةُ سُخف.

ووقَعَتْ هذه الذبابةُ على وجهِ ٱمرأةٍ زَنجيَّةٍ ضخْمة، فجعلَتْ تُقابلُ بينَ نفسِها وبين ٱلمرأة؛ وقالَت: إنَّ هذا لَمِنْ أدلِّ ٱلدليل على أنَّ ٱلعالَمَ فوضى لا نِظامَ فيه، وأنَّهُ مُرسَلٌ كيف يتَّفقُ على ما يتَّفق، عَبَثاً[3] في عبث، ولا ريبَ أنَّ الأنبياءَ قد كذَبوا الناس، إذْ كيف يستوي في ٱلحِكمةِ خَلْقي (أنا) وخلْقُ هذه الذبابةِ ٱلضخمةِ ٱلتي أنا فوقَها. . . ؟

ثُمَّ نظرَتْ ليلةً في ٱلسماء، فأبصرَتْ نجومَها يتلألأُ وبينَها القمر؛ فقالَت: وهذا دليلٌ آخرُ على ما تحقَّقَ عندي من فوضى ٱلعالـم، وكذبِ ٱلأديان، وعَبثِ ٱلمصادَفات؛ فما الإيمانُ بعيْنِهِ إلَّا ٱلإلحادُ بعينِه، ووضْعُ العقلِ في شيءٍ هو إيجادُ ٱلألوهيَّةِ فيه، وإلَّا فكيفَ يستوي في ٱلحِكْمةِ وضعي (أنا في ٱلأرضِ ورفعُ هذا ٱلذِّبانِ ٱلأبيضِ ويَعْسُوبِهِ[4] ٱلكبيرِ إلى السماء. . ؟

---

(١) لذن: لجأن.

(٢) مأفونة، المتمدّحة بما ليس عندها، ذات الرأي الضعيف.

(٣) عبثاً: لعباً.

(٤) اليعسوب: أمير الذباب والنحل ونحوهما.

ثُمَّ إنَّها وقعَتْ في دارِ فلّاح، فجعلَت تمورُ[1] فيها ذهاباً وجيئةً، حتى رجعَتْ بقرةُ ٱلفلّاح من مرعاها، فبُهتَتِ[2] ٱلذبابةُ وجمدَتْ على غُرّتِها[3] من أوّلِ ٱلنهارِ إلى آخرِه، كأنَّها تُزاوِلُ عملاً؛ فلمَّا أمْسَتْ قالَتْ: وهذا دليلٌ أكبرُ ٱلدليلِ على فوضى ٱلأرزاقِ في ٱلدنيا، فهاتانِ ذبابتانِ قد ثَقبتَا ثُقْبينِ في وجهِ هذه البقر... وٱكْتنَّتا فيهما تأكلانِ من شَحمِها فتعظمانِ سِمنًا؛ وٱلناسُ من جهلِهِم بالعِلْم الذُّبابيِّ يسمونَها عينين. وأنا قضيْتُ ٱليومَ كلَّهُ أخْمِشُ وأعضُّ وألْسَعُ لِأثقُبَ لي ثُقْباً مثلَهما فما ٱنتزعْتُ شعرةً؛ فهل يستوي في ٱلحِكْمةِ رزقي (أنا) ورزقُ هاتينِ ٱلذبابتينِ في وجهِ البقرة...؟

ثُمَّ إنَّها رأَتْ خُنْفُسَاءَ تَدِبُّ دبيبَها في ٱلأرواثِ[4] وٱلأقذار؛ فنظرَتْ إليها وقالت: هذه لا تَصْلُحُ دليلاً على ٱلكفر؛ فإنِّي (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحةٌ وليسَ لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنَّها إلَّا ذبابةٌ قديمةٌ من ذُبابِ ٱلقرونِ الأولى، ذلك الذي كانَ بليداً لا يتحرّكُ فلم تجعلْ لَهُ ٱلحركةُ جَناحاً. ثُمَّ إنَّها أصْغَتْ فسمعَتِ ٱلخنفساءَ تقولُ لِأخرى وهي تُحاورُها: إذا لم يجدِ ٱلمخلوقُ أنَّهُ كما يشتهي فلْيكْفُرْ كما يشتهي؛ يا وَيحنا! لِمَ لمْ نكنْ جاموساً كهذا ٱلجاموسِ العظيم، وما بينَنا وبينَهُ فرقٌ إلَّا أنَّهُ وَجدَ مَنْ يَنْفُخُهُ ولم نجد...؟

فقالَتِ ٱلذبابة: إنَّ هذا دليلُ ٱلعقلِ في هذهِ ٱلعاقلة، ولَعمري إنَّها لا تمشي مثَّاقِلَةً من أنَّها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجْزِها، ولكنْ من أنّها وقُورٌ مُثقَلةٌ بأفكارِها، وهيَ ٱلدليلُ على أنّي (أنا) ٱلسابقةُ إلى كشفِ ٱلحقيقة...!

وجَعَلتِ ٱلذبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتِها إلا، أنا، أنا، أنا، أنا... من كُفْرٍ إلى كفرِ غيرِه، إلى كفرِ غيرِهِما؛ حتى كأنَّ ٱلسماواتِ كلَّها أصبحَتْ في معركةٍ معَ ذبابة...

ثُمَّ جاءَتِ ٱلحقيقةُ إلى هذا ٱلإلحادِ ٱلأحمقِ تَسعى سَعْيَها؛ فبينَا ٱلذبابةُ على وجهِ حائط، وقد أكلَتْ بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتْها نفسُها، فوقفَتْ تحكُّ ذراعَها بذراعِها ـ دَنَتْ بطةٌ صغيرةٌ قدِ ٱنفلقَتْ عنها ٱلبَيضةُ أمس، فمدَّتْ منقارَها، فٱلتقطَتْها.

ولَمَّا ٱنطبقَ ٱلمِنقارُ عليها قالَت: آمنْتُ أنَّهُ لا إلَه إلَّا ٱلذي خلَقَ ٱلبطة...!

---

(١) تمور: تتحرّك في كل اتجاه.
(٢) بهتت: دهشت.
(٣) غرّتها: مفاجأتها.
(٤) الأرواث: السواد والسماد.

يا شبابَ العرب!

يقولون: إنَّ في شبابِ ٱلعربِ شيخوخةَ ٱلهِمَمِ وٱلعزائم؛ فالشبانُ يمتدّون في حياةِ ٱلأممِ وهم ينكمشون.

وإنَّ ٱللهوَ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ ٱلجِدّ، فأهملوا ٱلممكناتِ فرجعَتْ لهم كٱلمستحيلات.

وإنَّ ٱلهزلَ[1] قد هوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبةٍ فٱختصروها؛ فإذا هَزِءُوا بالعدوِّ في كلمةٍ فكأنَّما هَزمُوهُ في معركة...

وإنَّ ٱلشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا، ورجولةُ جسمِهِ تحتجُّ على طفولةِ أعمالِه.

ويقولون: إنَّ ٱلأمرَ ٱلعظيمَ عندَ شبابِ ٱلعربِ ألَّا يحملوا أبداً تَبِيعةَ[2] أمرٍ عظيم.

* * *

ويزعون أنَّ هذا ٱلشبابَ قد تمَّتِ ٱلآفةُ بينَهُ وبينَ أغلاطِه، فحياتُهُ حياةُ هذه الأغلاطِ فيه.

وأنَّهُ أبرعُ مُقلّدٍ لِلغربِ في ٱلرذائلِ خاصَّة؛ وبهذا جعلَهُ ٱلغربُ كالحيوانِ محصوراً في طعامِهِ وشرابِهِ، ولذّاته.

ويزعمون أنَّ ٱلزجاجةَ مِنَ ٱلخمرِ تعملُ في هذا ٱلشرقِ ٱلمسكينِ عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح...

ويتواصَوْنَ بأنَّ أولَ ٱلسياسةِ في ٱستعبادِ أممِ ٱلشرق، أنْ يُتْركَ لهمُ ٱلاستقلالُ ٱلتامُّ في حريةِ ٱلرذيلة...

ويقولون: إنَّهُ لا بدَّ في ٱلشرقِ من ٱلتَيْنِ لِلتخريب: قوةِ أوربا، ورذائلِ أوربا.

* * *

---

(١) الهزل: اللعب والمزاح.　　(٢) تبعة: مسؤولية.

يا شبابَ ٱلعرب! من غيرُكم يُكذِّبُ ما يقولونَ ويزعمونَ على هذا ٱلشرقِ ٱلمسكين؟

مَن غيرُ ٱلشبابِ يضعُ ٱلقوَّةَ بإزاءِ هذا ٱلضعفِ الذي وصفُوهُ لِتكونَ جواباً عليه؟

من غيرُكم يجعلُ ٱلنفوسَ قوانينَ صارِمَة[1]، تكونُ ٱلمادةُ ٱلأُولى فيها: قَدِرْنا لِأنَّنا أردْنا؟

ألا إنَّ ٱلمعركةَ بينَنا وبينَ ٱلاستعمارِ معركةٌ نفسيَّة، إنْ لم يُقْتَلْ فيها ٱلهزلُ قُتِلَ فيها ٱلواجب!

وٱلحقائقُ ٱلتي بينَنا وبينَ هذا ٱلاستعمارِ إنَّما يكونُ فيكم أنتم بحثُها ٱلتحليليّ، تكْذِبُ أو تَصْدُق.

* * *

الشبابُ هوَ ٱلقوة؛ فالشمسُ لا تملأُ ٱلنهارَ في آخرِهِ كما تملؤُهُ في أولِه.

وفي ٱلشبابِ نوعٌ مِنَ ٱلحياةِ تَظهرُ كلمةُ ٱلموتِ عندَهُ كأنَّها أختُ كلمةِ ٱلنوم.

ولِلشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكِها ٱلثقةُ بالبقاء، فأولُ صِفاتِها ٱلإصرارُ على ٱلعزْم.

وفي ٱلشبابِ تَصْنَعُ كلُّ شجرةٍ من أشجارِ ٱلحياةِ أثمارَها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ ٱلأشجارُ كلُّها إلَّا خَشَبا...

يا شبابَ ٱلعرب! اِجعلوا رسالتَكم: إمَّا أنْ يحيا ٱلشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

* * *

أنقِذوا فضائلَنا من رذائلِ هذه المدنيَّةِ ٱلأوربيَّة، تُنقِذوا ٱستقلالَنا بعدَ ذلك، وتنقذوه بذلك.

إنَّ هذا ٱلشرقَ حينَ يدعو إليهِ ٱلغرب؛ «يدعو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعِه؛ لَبِئْسَ ٱلموْلَى ولبئسَ ٱلعَشير».

لَبئسَ ٱلمولى إذا جاءَ بقوتِهِ وقوانينِه، ولَبئسَ ٱلعشيرُ إذا جاءَ برذائلِهِ وأَطماعِه.

أيُّها ٱلشرقيُّ! إنَّ ٱلدينارَ ٱلأجنبيَّ فيهِ رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.

---

(١) صارمة: حازمة.

أيُّها ٱلشرقيُّ! لا يقولُ لَكَ ٱلأجنبيُّ إلَّا ما قال ٱلشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! لم يكنِ ٱلعسيرُ يَعْسُرُ على أسلافِكمُ ٱلأولين، كأنَّ في يدهِم مفاتيحَ مِنَ ٱلعناصرِ يفتحون بها.

أتُريدونَ معرفةَ ٱلسرّ؟ السرُّ أنَّهمُ ٱرتفعوا فوقَ ضعفِ ٱلمخلوق، فصاروا عملاً من أعمالِ ٱلخالق.

غَلَبوا على الدنيا لَمَّا غلبَوا في أنفسِهم معنى ٱلفقر، ومعنى ٱلخوف، وٱلمعنى ٱلأرضي.

وعلَّمَهُمُ ٱلدينُ كيف يعيشون بٱللذاتِ ٱلسماويَّةِ ٱلتي وَضعَتْ في كلِّ قلبٍ عظمتَهُ وكِبرياءَه.

وٱخترعَهُمُ ٱلإيمانُ ٱختراعاً نفسيًّا، علامتُهُ ٱلمسجَّلةُ على كلٍّ منهم هذه الكلمة: لا يَذِلّ.

* * *

حينَ يكونُ ٱلفقرُ قِلةَ ٱلمال، يفتقرُ أكثرُ ٱلناس، وتنخذِلُ[1] ٱلقوةُ ٱلإنسانيَّة، وتَهلِكُ ٱلمواهب.

ولكنْ حينَ يكونُ فقرُ ٱلعملِ ٱلطيِّب، يستطيعُ كلُّ إنسانٍ أنْ يَغْتَني، وتنبعثُ ٱلقوةُ وتعملُ كلّ موهبة.

وحينَ يكونُ ٱلخوفُ من نقصِ هذه ٱلحياةِ وآلامِها، تفسِّرُ كلمةَ ٱلخوفِ مائةُ رذيلةٍ غيرِ ٱلخوفِ.

ولكنْ حينَ يكونُ من نقصِ ٱلحياةِ ٱلآخرةِ وعذابِها، تُصبحُ ٱلكلمةُ قانونَ ٱلفضائلِ أجمع.

هكذا ٱخترعَ ٱلدينُ إنسانَهُ ٱلكبيرَ ٱلنفسِ ٱلذي لا يُقالُ فيه: انهزمَتْ نفسُهُ.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! كانَتْ حِكمةُ ٱلعربِ ٱلتي يعملونَ عليها: أُطلُبِ ٱلموتَ تُوهَبُ لك ٱلحياة.

---

(١) تنخذل: تنهزم.

والنفسُ إذا لم تخشَ الموتَ كانَتْ غريزةُ الكِفاحِ أولَ غرائزِها تعْمل.

ولِلكفاحِ غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصراً، إذْ لا تكونُ الفِكرةُ معَها إلَّا فكرةً مُقاتِلة.

غريزةُ الكفاحِ يا شباب، هي التي جعلَتِ الأسَدَ لا يُسَمَّنُ كما تسمَّنُ الشاةُ لِلذبح.

وإذا انكسَرَتْ يوماً، فالحجَرُ الصَّلْدُ[1] إذا تَرَضْرَضَتْ[2] منه قِطعةٌ كانَتْ دليلاً يكشِفُ لِلعينِ أنَّ جميعَهُ حجرٌ صَلد.

* * *

يا شبابَ العرب! إنَّ كلمةَ (حقيّ) لا تحيا في السياسةِ إلَّا إذا وضعَ قائلُها حياتَهُ فيها.

فالقوَّةَ القوَّةَ يا شباب! القوَّةُ التي تقتلُ أولَ ما تقتلُ فكرةَ الترَفِ والتخنُّث.

القوةُ الفاضلةُ المتساميةُ التي تضعُ لِلأنصارِ في كلمة (نعم) معنى نعم.

القوَّةُ الصارمةُ النفَّاذةُ التي تضعُ لِلأعداءِ في كلمةِ (لا) معنى لا.

يا شبابَ العربِ اِجعلوا رسالتكم: إمَّا أنْ يحيا الشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

---

(١) الصلد: الصلب، القاسي.

(٢) ترضرضت: تكسرت.

لَـوْ...!

رأيتُني جالساً في مسرح هزليّ بمدينةِ اسكندرية، كما يجلسُ ٱلقاضي في جريمةٍ يحملُ أهلُها بينَ يديهِ آثامَهُم وأعمالَهُم، ويحملُ هو عقلَهُ وحُكمَه.

وقد ذهبْتُ لِأرى كيفَ يتَساخَفُ[1] أهلُ هذه الصناعة؛ فكانَ حُكْمي أنَّ ٱلسخافةَ عندَنا سخيفةٌ جدًّا....

رأيْتُهم هناك ينقُدونَ ٱلعيوبَ بما يُنشِئُ عيوباً جديدة، ويَسْبَحون بأيديهم سِباحةً ماهرةً؛ ولكنْ على ٱلأرضِ لا في ٱلبحر، وتكادُ نظرتُهم إلى ٱلحقيقةِ ٱلهزليَّةِ تكونُ عمًى ظاهراً عمَّا هي بهِ حقيقةٌ هزليَّة؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيلِ إلَّا الرَّقاعةُ[2] والإسفافُ وٱلخَلْطُ وٱلهذَيان، إذْ كانَ هذا هو الأشْبَهَ بجمهورِهمُ ٱلذي يَحضُرهمُ، وكانَ هو ٱلأقربَ إلى تلك الطباعِ ٱلعاميَّةِ ٱلبليدةِ ٱلتي ٱعتادَتْ من تكلُّفِ ٱلهزلِ ما جعلَها هي في ذاتِ نفسِها هزْلاً يُسْخرُ منه.

ولا أسخفَ من تكلُّفِ ٱلنكتةِ ٱلباردةِ قد خلَتْ مِنَ ٱلمعنى، إلَّا تكلُّفُ ٱلضحِكِ ٱلمصنوع يأتي في عَقِبِها كالبرهانِ على أنَّ في هذه النكتةِ معنًى.

فالفنُّ ٱلمضحِكُ عندَ هؤلاء، إنَّما هوَ ٱلسخفُ ٱلذي يُوافقون بهِ ٱلروحَ ٱلعاميَّةَ ٱلضئيلةَ ٱلكاذبةَ ٱلمكذوبَ عليها، التي يبلغُ من بلاهتِها أحياناً أن تضحكَ لِلنكتةِ قبلَ إلقائِها، لِفَرْطِ خِفَّتِها ورُعونتِها[3]، وطولِ ما تكلفَتْ وٱعتادَت. فما ذلك ٱلفنُّ إلَّا ما ترى مِنَ ٱلتخليط في ٱلألفاظ، وٱلتضريب[4] بينَ ٱلمعاني، وإيقاع ٱلغلَطِ في ٱلمعقولات؛ ثُمَّ لا ثُمَّ بعدَ هذا. فلا دِقَّةَ في ٱلتأليف، ولا عُمْقَ في ٱلفَكرة، ولا سياسةَ في جمعِ ٱلنقائض، ولا نَفَاذ في أسرارِ ٱلنفس، ولا جِدَّ يُؤخذُ من هزليَّةِ ٱلحياة، ولا عظَمَةَ تُستخرجُ من صغائرِها، ولا فلسفةَ تُعرفُ من حماقاتِها.

---

(١) يتساخف: يبدي ما به من حماقة.

(٢) الرقاعة: الحماقة.

(٣) الرعونة: التصرّف بحماقة.

(٤) التضريب: التخليط.

والفرقُ بعيدٌ بينَ ضحكٍ هو صناعةُ ذِهْنٍ لِتحريكِ ٱلنفس، وشَحْذِ ٱلطبع، وتصويرِ ٱلحقيقةِ صورةً أخرى، وبينَ ضحكٍ هو صناعةُ ٱلبلاهةِ لِلَّهْوِ وٱلعبث، وٱلْمَجانةِ لا غير.

* * *

وكانَ معي قريبٌ من أذكياءِ ٱلطلبةِ ٱلمتخصصينَ لِلآدابِ ٱلإنجليزية، فلم نلبثْ إلَّا يسيراً حتى جاءَ ثلاثةٌ من ضباطِ ٱلأسطولِ ٱلإنجليزي، فجلسوا بحذائنا صفًّا تلوحُ عليهم مَخايِلُ ٱلظفَر، ولهم وَقارُ ٱلبُطولة، وفيهم أرواحُ ٱلحرب؛ وهم يبدون في ثيابِهِمُ البيضِ المطَرَّاةِ[1] كأنَّهم ثلاثةُ نُسورٍ هبطَتْ منَ ٱلغمامِ إلى الأرض، فلأعينِها نظراتٌ تدورُ هنا وهناك تُنكِرُ وتُعرِّف.

وأعجبني أنْ أراهم في هذا ٱلمكانِ الهزليِّ ٱلممتلىءِ بٱلضعفاء، كأنَّهم ثلاثُ حقائقَ بينَ ٱلأغلاط، أو ثلاثُ أغلاطٍ كبيرة... وكانَ أبدعَ ما أراهُ على هيئةِ وجوهِهم وأُسَرُّ لَه، تواضعُ هذا ٱلاستعدادِ الحربيِّ وتحوُّلُهُ إلى ٱستعدادٍ لِلسخرية..

ثُمَّ تأملْتُهم طويلاً؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ، وسَكينةٌ ووَداعة، وحُسْنُ سَمْتٍ وحلاوةُ هيئةٍ في جِلْسةٍ رزينةٍ متوقِّرة، لا يُشبِهُها في حسِّ ٱلنفسِ ٱلتي تعرفُ معانيَ ٱلقوةِ إلَّا وضعُ ثلاثةِ مدافعَ مُصَوَّبة.

وجعلْتُ أقلِّبُ عينيَّ في ٱلناسِ ٱلموجودينَ ومَلامحِهم وهيئاتهم، ثُمَّ أُرجعُ ٱلبصرَ إلى هؤلاءِ الثلاثة، فأرى ٱلمصريَّ كالمقتنعِ بأنَّهُ محدودٌ بمدينةٍ أو قريةٍ لا يعرفُ لِنفسِهِ مكاناً في غيرِهما، فهو من ثَمَّ لا يَرحلُ ولا يُغامرُ، ولا تتقاذَفُهُ ٱلدنيا؛ وأرى ٱلإنجليزيَّ كالمقتنعِ بأنَّ كلَّ مكانٍ في ٱلعالمِ ينتظرُ ٱلإنجليز...

وخيِّل إليَّ ـ واللَّهِ ـ أنَّ رجلاً من هؤلاءِ ٱلإنجليزِ ٱلأقوياءِ ٱلمعتدِّينَ بأنفسِهم[2] لا يُهاجرُ من بلادِهِ إلَّا ومعَهُ نفسُهُ وٱستقلالُه، وتاريخُهُ وروحُ دولتِه، وطبيعةُ أرضِه؛ فهو مستيقِنٌ أنَّ ٱللَّهَ لا يرزقُهُ رِزقاً أيَّ ٱلرزقِ كانَ على ما يتَّفِق، بل رزقاً إنجليزيًّا: أي فيهِ كِفايتُه.

ورأيْتُ شيئاً عجيباً مِنَ ٱلفرقِ بينَ طابعِ ٱلسِّلم على وجوه، وبينَ طابعِ ٱلحربِ على وجوهٍ أخرى؛ ففي تلك معاني ٱلسهولةِ والملاينَةِ وٱلحِرْصِ على مادةِ ٱلحياة،

---

(١) المطرّاة: المكواة.

(٢) المعتدين بأنفسهم: المعتزين، الواثقين من أنفسهم.

وفي هذه معاني ٱلعزْم وٱلمُقاومةِ وٱلحِرْصِ على مجدِ ٱلحياةِ لا على مادتِها.

وتبيَّنْتُ أسلوبينِ منَ ٱلأساليبِ ٱلاجتماعيَّة: أحدُهما في فردٍ قد بَنَى أمرَهُ عَلَى أنْ أمَّةَ تحملُه، فهو يعيشُ بأضعفِ ما فيه: والآخرُ في فردٍ قد وَضَعَ ٱلأمرَ عَلَى أنَّهُ هو يحملُ أمَّةَ فلا يدعُ في نفسِهِ قوةً إلَّا ضاعَفَها.

وعرفتُ وجهينِ من وجوهِ ٱلتربيةِ ٱلسياسية: أحدُهما بٱلطنطنة، والتهويلِ وٱلصُّراخ، وٱستعارةِ ألفاظِ غيرِ ٱلواقعِ لِلواقع، وتحميلِ ٱلألفاظِ غيرَ ما تحمل؛ وٱلآخرُ بٱلهدوءِ ٱلذي يَقْهَرُ ٱلحوادث، وٱلصبرِ ٱلذي يغلبُ ٱلزمن، وٱلعقيدةِ ٱلتي تفرضُ أعمالَها ٱلعظيمةَ على صاحبِها وتجعلُ أعظمَ أجرِهِ عليها أنْ يقومَ بها.

وميَّزتُ بين أثرينِ من آثارِ ٱلأرضِ في أهلِها: أحدُهما في ٱلمصريِّ ٱلسَّمْحِ ٱلوادِعِ ٱلألوفِ ٱلحييِّ ٱلذي هو كَرَمُ ٱلطبيعة، وٱلآخرُ في ٱلإنجليزيِّ العَسِرِ ٱلمغامِرِ ٱلنَّفورِ ٱلملحِّ على الدنيا كأنَّهُ تطفّلُ ٱلطبيعة...

* * *

وألقى ٱبنُ العمِّ ٱلذي كانَ معي سمعَهُ إلى هؤلاءِ ٱلضباط، وهم من فلاسفةِ ٱلرأي على ما يظهرُ من حديثِهم، ثُمَّ نقل إليَّ عنهم، فقالَ كبيرُهم: لقد فرغْتُ من بحثي ٱلذي وضعْتُهُ في فلسفةِ خُمولِ ٱلشرقيين، وأفضيْتُ منه إلى حقائقَ عجيبة، أظهرُها وأخفاها معاً أنَّ أمَّةً من هذهِ ٱلأممِ لا يُمَكَّنُ لِلأجنبيِّ فيها، ولا تثقُلُ وطْأتُهُ[1] عليهم، ولا يَطولُ ثَواؤُهُ[2] في أرضِهم، ولا يحتلّها مَنْ يطمعُ فيها، ما لم يكنْ سادتُها وأمراؤُها وكبراؤُها كأنَهم فيها دولةٌ محتلّة.

وهؤلاءِ ٱلكبراءُ هم آفةُ ٱلشرق؛ فمِنْ أعظم واجباتِنا أنْ نزيدَ في تعظيمِهم، وأنْ نَمدَّ لهم في ٱلمالِ وٱلجاه، ونَبْسُطَ لهمُ ٱليمينَ وٱلشِّمال، ونُوهِمَهُمْ أنَّ عظمَتَهم هكذا وُلِدَتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتِهم كما وُلِدوا بأيديهم وأرجلِهم... وخاصةً عظماءَ رجالِ ٱلأديانِ ٱلمفتونينَ بالدنيا؛ فإنَّنا نصنعُ بغُرورِ ٱلجميعِ وسخافاتِهم وحِرْصِهِم وطمعِهِم أشياءَ ٱجتماعيَّةً ذاتَ خطَرٍ لا يصنعُ لنا مثلَها إلَّا الشياطينُ ومَنْ لنا بالحكم على ٱلشياطين؟ وهذا ما تنبَّهَ لَهُ (غاندي) ذلك ٱلمهزولُ ٱلهنديُّ ٱلذي تُقوَّمُ دنياهُ بأربعةِ شلنات، ولا يزنُ أكثرَ من بضعةِ أرطالٍ مِنَ ٱلجِلْدِ وٱلعظم، ولا بطشَ عندَهُ ولا قوةَ فيه، وهو مع ذلك جبَّارٌ

---

(١) وطأته: سطوته. (٢) ثواؤه: بقاؤه.

سماويٌّ في يدِهِ ٱلبرقُ وٱلرعدُ يُرى ويُسمَعُ في أرجاءِ ٱلدنيا.

قالَ ضابطُ ٱليمين: وبصناعةِ ٱلكِبرياءِ هذه الصناعةِ يكونُ رجلُ ٱلشعبِ من هؤلاء ٱلشرقيينَ رجلَ تقليدٍ بالطبيعة، ورجلَ ذُلٍّ بٱلحالة، ورجلَ خُضوع بٱلجُملة؛ فليسَ في نفسِهِ أنّهُ سيدُ نفسِهِ ولا سيدُ غيرِه، بلْ أكبرُ معانيهِ أنَّ غيرَهُ سيّدٌ عليهِ فيكونُ معَهُ دائماً خيالُ ٱستعبادِه.

وتكلمَ ضابطُ اليسار: ولكنَّ المترجِمَ لم يميّز أقوالَه، لأنَّ ثلاثَ عشرةَ ٱمرأةً كنَّ يصرخْنَ في ٱلروايةِ ٱلهزليةِ بلحنٍ طويلٍ يقلْنَ في أولِه: «عاوزين رجّالة تدَلّعْنا...» وكانَتِ ٱلموسيقى تصرخُ معهُنَّ وتُولولُ كأنَّها هي أيضاً ٱمرأةٌ محرومة...

* * *

ثُمَّ أرهفَ[1] ٱلمترجِمُ أذنَهُ فقالَ كبيرُهم: إنَّ لِهؤلاءِ ٱلشرقيينَ ستَّ حواس: ٱلخمسُ ٱلمعروفةُ، وحاسةُ ٱلخمولِ ٱلذي خدَعتْهم عنهُ الطبيعةُ ٱلبليدةُ فسمَّوهُ ٱلترفَ وٱلهزل وٱللهو؛ وٱلأمةُ الأوربيَّةُ ٱلتي تحتلّ بلاداً شرقيةً تجدُ فيها لصغائرِ ٱلحياةِ جيشاً أقوى من جيشِها؛ فعشرةُ آلافِ جنديّ بعَتادِهِم وآلاتِهم، لا يصنعون شيئاً إلَّا ٱلاستفزازَ[2] والتحدِّي وإثباتَ أنَّهم غاصبون؛ ولكنْ ما أنت قائلٌ في عشرةِ آلافِ مكانٍ كهذا المسرح براقصاتِهِ ومومساتِهِ وخمورِهِ وروراياتِه، وبهؤلاءِ ٱلرجالِ المخنثينَ ٱلهزليينَ ٱلرُقعَاءِ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيَّةٌ ناجحةٌ بينَنا وبينَ شبابِ الأمَّة...؟

قالَ ضابطُ اليمين: نعمْ إنَّ فنَّ ٱلاحتلالِ فنٌّ عسكريّ في ٱلأول، ولكنَّهُ فنٌّ أخلاقيٌّ في ٱلآخر؛ ولِهذا يجبُ تعيينُ نقطةِ ٱتجاهٍ للشبابِ تكونُ مضيئةً لامعةً جذَّابةً مُغريةً؛ ولكنَّها في ذاتِ ٱلوقتِ مُحرِقةٌ أيضاً، وهذه هي صِناعةُ إهلاكِ ٱلشبابِ بٱلضوءِ ٱلجميل، وما على ٱلسياسي ٱلحاذقِ في ٱلشرقِ إلَّا أنْ يحميَ ٱلرذيلة، فإنَّ الرذيلةَ ستعرفُ لَهُ صنيعَهُ وتَحميه..

فتكلَّمَ ضابطُ ٱليسار، ولكنَّ صوتَهُ ذهبَ في عِشرينَ صوتاً من رجالِ ٱلمسرحِ ونسائِهِ يصيحون جميعاً: «يا حلوة يا خفَّافي، يا مجنِّنه الشبان...».

* * *

---

(١) أرهف السمع: دقّق.

(٢) الاستفزاز: إثارة الغضب.

ولَمّا ألممْتُ[1] بحوارِ ٱلضباطِ ٱلثلاثةِ قلْتُ لِصاحبي: إستأذِنْ لي عليهم أكلمُهم. ففعلَ وعرَّفني إليهم، وترجَمَ لهم مقالة (يا شبابَ ٱلعرب) وكانَ يحملُها. فكأنَّما رماهم منها بالجيشِ وٱلأسطول.

ثُمَّ قلْتُ لِكبيرِهِم: لسْتُ أُنكرُ أنَّ ٱلإنجليزيَّ لو دخلَ جهنَّمَ لَدخلَها إنجليزياً. ولا أجَحدُ أنَّ لَهُ في ٱلحياةِ مثلَ هِدايةِ ٱلحيوان، لأنَّهُ رجلٌ عمليٌّ: دليلُ منفعتِهِ أنَّها منفعتُهُ وحَسْبُ، ثُمَّ لا دليلَ غيرُ هذا ولا يقبلُ إلَّا هذا. فإذا قالَ الشرقيّ: حقيّ، وقالَ ٱلإنجليزيُّ: منفعتي، بطَلَتِ ٱلأدلَّةُ كلُّها، ورأى ٱلشرقيُّ أنَّهُ مَعَ الإنجليزي كالذي يُحاولُ أنْ يُقنِعَ ٱلذئبَ بقانونِ ٱلفضيلةِ وٱلرحمة.

وقد عرفْنَا أنَّ في ٱلسياسةِ عجائب، منها ما يُشْبِهُ أنْ يَلقَى إنسانٌ إنساناً فيقولَ له: يا سيدي ٱلعزيز، بكلِّ ٱحترامِ أرجو أنْ تتلقَّى مني هذه الصفعة...

وفي ٱلسياسةِ مواعيدُ عجيبة، منها ما يُشبهُ غرسَ شجرةٍ لِلفقراءِ وٱلمساكين، وٱلتوكيدَ لهم بالأيمانِ أنَّها ستُثمرَ رُغفاناً مخبوزة... ثُمَّ بعدَ ذلك تُطَعَّمُ فتُثمِرُ ٱلرغفانَ ٱلمخبوزةَ حَشْوُها ٱللحمُ والإدام...

وفي ٱلسياسةِ محاربةُ ٱلمساجدِ بالمراقص، ومحاربةُ ٱلزوجاتِ بٱلمومسات، ومحاربةُ ٱلعقائدِ بأساتذةِ حريةِ ٱلفكر، ومحاربةُ فنونِ ٱلقوَّةِ بفنونِ ٱللَّذة. ولكنْ لو فَهِمَ ٱلشبابُ أنَّ أماكنَ ٱللهوِ في كلِّ معانيها ليسَتْ إلَّا غَدْراً بالوطنِ في كلِّ معانيه!

ولو عرفَ ٱلشبابُ أنَّ محاربةَ ٱللَّهْوِ هي أولُ ٱلمعركةِ ٱلسياسيةِ ٱلفاصلة!

ولو أدركَ ٱلشبابُ أنَّ أولَ حقِّ ٱلوطنِ عليهِ أنْ يحملَ في نفسِهِ معنى ٱلشعبِ لا معنى نفسِه!

ولو رجعَ ٱلدينُ الإسلاميُّ كما هو في طبيعتِهِ آلةَ حربيةَ تصنعُ مِنَ ٱلشبابِ رجالَ القوَّة!

ولو عَلِمَ ٱلشبابُ أنَّ روحَ هذا ٱلدينِ ليْسَت: اعتَقِدْ ولا تعتقدْ. ولكنِ ٱفعلْ ولا تفعل!

ولو أيقنَ ٱلشبابُ أنَّ فرائضَ هذا الدينِ ليسَتْ إلَّا وسائلَ عمليَّةَ لِٱمتلاءِ ٱلنفسِ بمعاني ٱلتقديس!

---

(١) ألممت: اطّلعت.

ولو فَهِمَ ٱلشبابُ أنْ ليسَ في ٱلكَوْنِ إلّا هذه ٱلمعاني تجعلُ ٱلنفسَ فوقَ ٱلمادةِ وفوقَ الخَوْفِ وفوقَ ٱلذلّ وفوقَ ٱلمَوْتِ نفسِه!

ولو بحثَ ٱلشبابُ ٱلنفسَ ٱلإنجليزيَّةَ ٱلقويَّةَ لِيعرفَ بِالبرهانِ أنَّها نصفُ مسلمةٍ فكيفَ بها لو كانَتْ مسلمة؟...

* * *

وكانَ ٱلمترجِمُ ينقلُ إليهم كلامي، فما بلغَتْ إلى حيثُ بلغْتُ، حتى شدّ الضابطُ على يدي وهزّها؛ فنظرْت، فإذا أنا قد كنْتُ نائماً بعدَ سهرةٍ طويلةٍ في ذلك ٱلمسرح، وإذا يدُ ٱلمترجِمِ نفسِهِ هي ٱلتي تهزُّني لِأنتبه...

أيُّها ٱلمسلمون!

نهضَتْ فِلَسْطِينُ تَحِلُّ ٱلعقدةَ التي عُقِدَتْ لها بينَ ٱلسيفِ، وٱلمكرِ، وٱلذهب.

عقدةٌ سياسيةٌ خبيثة، فيها لِذلك ٱلشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقْر.

عقدةُ ٱلحُكْمِ ٱلذي يحكمُ بثلاثةِ أساليب: الوعدِ ٱلكذب، وٱلفَناءِ ٱلبطيء، ومطامعِ ٱليهودِ ٱلمتوحشَة.

أيُّها ٱلمسلمون! ليسَتْ هذه محنةَ فلسطين، ولكنَّها محنةُ ٱلإسلام؛ يُريدونَ ألّا يُثبِتَ شخصيَّتَهُ ٱلعزيزةَ ٱلحرّة.

كلُّ قرشٍ يُدفعُ ٱلآنَ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيجاهدَ هو أيضاً.

* * *

أولئك إخوانُنا ٱلمجاهدون؛ ومعنى ذلك أنَّ أخلاقَنا هي حُلَفاؤهم في هذا ٱلجِهاد.

أولئك إخوانُنا ٱلمنكوبون؛ ومعنى ذلك أنَّهم في نكبتِهم ٱمتحانٌ لِضمائِرِنا نحن ٱلمسلمين جميعاً.

أولئك إخوانُنا ٱلمضطَهَدون؛ ومعنى ذلك أنَّ ٱلسياسةَ ٱلتي أذَلَّتهم تسألُنا نحن: هل عندنا إقرارٌ لِلذلّ؟

ماذا تكونُ نكبةُ ٱلأخِ إلَّا أنْ تكونَ ٱسماً آخرَ لِمروءةِ سائرِ إخوتِهِ أو مَذَلَّتِهِم؟

أيُّها ٱلمسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيفرضَ على ٱلسياسةِ ٱحترامَ ٱلشعورِ ٱلإسلاميّ.

* * *

اِبتَلَوْهُم بِاليهودِ يحملونَ في دمائِهم حقيقتينِ ثابتتين: من ذلِّ ٱلماضي وتشريدِ ٱلحاضر.

ويحملونَ في قلوبِهم نِقْمتينِ طاغيتين: إحداهما من ذهبِهِم، والأخرى من رذائِلِهم.

ويُخَبِّئونَ في أدمغتِهم فكرتينِ خبيثتين: أنْ يكونَ ٱلعربُ أقليَّة، ثُمَّ أنْ يكونوا بعد ذلك خَدَمَ ٱليهود.

في أنفسِهمُ ٱلحِقْد، وفي خيالهمُ ٱلجنون، وفي عقولهمُ ٱلمكر، وفي أيديهمُ ٱلذهبُ ٱلذي أصبحَ لئيماً لأنَّهُ في أيديهم.

أيُّها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيتكلَّمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاءِ ٱلعقل.

* * *

اِبتَلَوْهُم باليهودِ يَمرُّونَ مرورَ ٱلدنانيرِ بالربا الفاحِشِ في أيدي ٱلفقراء.

كلُّ مائةِ يهوديٍّ على مذهب ٱلقومِ يجبُ أنْ تكونَ في سنةٍ واحدةٍ مائةً وسعبين...

حسابٌ خبيثٌ يبدأُ بِشيءٍ مِنَ ٱلعقل، ولا ينتهي أبداً وفيهِ شيءٌ مِنَ ٱلعقل.

وٱلسياسةُ وراءَ ٱليهود، وٱليهودُ وراءَ خيَالِهمُ ٱلدينيّ، وخيالُهمُ ٱلدينيُّ هو طردُ ٱلحقيقةِ ٱلمسلمة.

أيُّها ٱلمسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيُثبِّتَ ٱلحقيقةَ ٱلتي يُريدونَ طردَها.

* * *

يقولُ ٱليهود: إنَّهم شعبٌ مضطهَدٌ في جميعِ بلادِ ٱلعالم.

ويزعمون: أنَّ من حقِّهِم أنْ يعيشوا أحراراً في فلسطين، كأنهَا ليسَتْ من جميعِ بلادِ ٱلعالم...

وقد صنعوا لِلإنجليزِ أسطولاً عظيماً لا يسبحُ في ٱلبحار، ولكنْ في ٱلخزائن...

وأرادَ ٱلإنجليزُ أن يطمئنُّوا في فلسطينَ إلى شعبٍ لم يتعودْ قطُّ أنْ يقولَ: أنا.

ولكنْ لِماذا كنَسَتْكُم كلُّ أمةٍ من أرضِها بمكنَسةٍ أيُّها اليهود؟

* * *

أجَهِلْتُمُ ٱلإسلام؟ الإسلامُ قوةٌ كتلكَ ٱلتي تُوجِدُ ٱلأنيابَ وٱلمخالبَ في كلِّ أسد.

قوةٌ تُخرجُ سلاحَها بنفسِها، لِأنَّ مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجدْ لِيُؤكلَ، ولم يُخلقْ لِيَذلّ.

قوةٌ تجعلُ ٱلصوتَ نفسَهُ حينَ يُزَمْجِر، كأنَّهُ يُعلنُ ٱلأسديةَ ٱلعزيزةَ إلى ٱلجهاتِ ٱلأربع.

قوةٌ وراءَها قلبٌ مشتعلٌ كالبركانِ، تتحوَّلُ فيهِ كلُّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم وَلِئِنْ كانَتِ ٱلحوافرُ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِيركبَها ٱلراكب، إنَّ ٱلمخالبَ وَٱلأنيابَ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِمعنًى آخر.

* * *

لو سُئِلْتُ ما ٱلإسلامُ في معناهُ ٱلاجتماعيّ؟ لَسَأَلْتُ: كم عددُ ٱلمسلمين؟

فإنْ قيل: ثلثُمائةِ مليون. قلْتُ: فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجبُ أنْ يكونَ لها ثلثُمائةِ مليونِ قوة.

أيجوعُ إخوانُكم أيُّها ٱلمسلمونَ وتشبعون؟ إنَّ هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يُعاقِبُ ٱللَّهُ عليه.

وٱلغِنَى ٱليومَ في الأغنياءِ ٱلمُمْسِكينَ عن إخوانِهم، هو وصفُ ٱلأغنياءِ بٱللؤمِ لا بِالغِنى.

كلُّ ما يبذلُهُ المسلمونَ لِفلسطين، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة، أقلّها سياسةُ ٱلمقاومة.

* * *

كانَ أسلافُكم أيُّها ٱلمسلمونَ يفتحونَ ٱلممالكِ، فٱفتحوا أنتم أيديَكم...

كانوا يرمون بأنفسِهم في سبيلِ ٱللَّهِ غيرَ مكْتَرِثين[1]، فٱرمُوا أنتم في سبيلِ ٱلحقِّ بٱلدنانيرِ وٱلدراهم.

لِماذا كانَتِ ٱلقِبْلَةُ في ٱلإسلامِ إلَّا لتِعتادَ ٱلوجوهُ كلُّها أنْ تتحولَ إلى ٱلجِهةِ ٱلواحدة؟

لماذا ٱرتفعَتِ ٱلمآذنُ إلَّا لِيعتادَ ٱلمسلمونَ رفعَ ٱلصوتِ في ٱلحقّ؟

أيُّها ٱلمسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك معَ إخوانِكم بمعنًى مِنَ ٱلمعاني.

* * *

---

(١) مكترثين: مهتمين.

لو صِامَ ٱلعالمُ ٱلإسلاميُّ كلُّهُ يوماً واحداً وبذَلَ نفقاتِ هذا اليومِ ٱلواحدِ لِفلسطينَ، لأغناها.

لو صامَ ٱلمسلمونَ كلُّهم يوماً واحداً لإِعانةِ فلسطين، لَقالَ النبيُّ مُفاخراً الأنبياء: هذه أمتي!

لو صامَ ٱلمسلمونَ جميعاً يوماً واحداً لِفلسطين، لَقالَ ٱليهودُ اليومَ ما قالَهُ آباؤهم من قبل: إنَّ فيها قوماً جَبَّارين...

أيُّها المسلمون! هذا موطنٌ يزيدُ فيهِ معنى ٱلمالِ ٱلمبذولِ فيكونُ شيئاً سماويًّا.

كلُّ قِرشٍ يبذلُهُ ٱلمسلمُ لِفِلسطين، يتكلَّمُ يومَ ٱلحسابِ يقول: يا ربّ، أنا إيمانُ فلان!

قصةُ ٱلأيدي ٱلمتوضِّئة . . .

قال راوي ٱلخبر: ذهبْتُ إلى المسجدِ لِصلاةِ ٱلجمعة؛ وٱلمسجدُ يجمعُ ٱلناسَ بقلوبِهم لِيُخرِجَ كلَّ إنسانٍ من دنيا ذاتِه، فلا يفكِّرُ أحدٌ أنَّهُ أسمى من أحد؛ ولقد يكونُ إلى جانبِك ٱلصانعُ أوِ ٱلأجيرُ أوِ ٱلفقيرُ أوِ ٱلجاهل، وأنتَ ٱلرئيسُ أوِ ٱلعظيمُ أوِ ٱلغنيُّ أوِ ٱلعالم، فتنظرُ إليهِ وإلى نفسِكَ فتُحسُّ كأنَّ خواطِرَكَ متوضّئةٌ متطهِّرة، وترى كلمةَ ٱلكِبرياءِ قد فقدَتْ روحَها، وكلمةَ ٱلتواضعِ قد وجدَتْ روحَها؛ وتشعرُ بالنفسِ ٱلمجتمعةِ قد نصبَتِ ٱلحربَ لِلنفسِ ٱلمنفردةِ؛ ولو خطرَ لكَ شيءٌ بِخِلافِ ذلك رأيْتَ ٱلفقيرَ إلى جانبِك توبيخاً لك، ونظرْتَ إليهِ ساكتاً وهو يتكلّمُ في قلبِك، وشعرْتَ بِاللّهِ من فوقِكُما، وٱستعلنَتْ لك روحُ ٱلمسجدِ كأنَّها تَهُمُّ بطردِك منه، وخُيِّلَ إليكَ أنَّ الأرضَ ستلطمُ وجهَكَ إذا سجدْتَ عليها، وأيقنْتَ من ذاتِ نفسِكَ أنْ لسْتَ هناك في دنياكَ وليسَ صاحبُكَ في دنياه، وإنَّما أنتما هناك في إنسانيَّةٍ ميزانُها بيدِ ٱللّهِ وحدَه؛ فلا تدري أيّكما ٱلذي يَخِفُّ وأيّكما ٱلذي يثقُل.

قال: والعجيبُ أنَّ هذا ٱلذي لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِ ٱلدين، يعرفُهُ بعضُ علماءِ ٱلدينِ على وجهٍ آخر، فتراهُ في ٱلمسجدِ يمشي مختالاً، قد تحلَّى بحليْتِه، وتكلَّفَ لِزَهْوِه، فليسَ ٱلحبَّةُ تَسَعُ ٱثنين،لا وتَطاوَلَ كأنَّهُ ٱلمِئذَنة، وتَصَدَّرَ كأنَّهُ القِبْلة، وٱنتفخَ كأنَّهُ ممتلىءٌ بالفُروقِ بينَهُ وبينَ ٱلناس؛ وهو بعدَ كلِّ هذا لو كشفَ ٱللّهُ تمويهَهُ لٱنكشَفَ عن تاجرِ عِلْمٍ بعضُ شروطِهِ على الفضيلةِ أنْ يأكلَ بها، فلا يجدُ دنيا ذاتِهِ إلَّا في ٱلمسجد، فهو نوعٌ من كَذبِ ٱلعالمِ ٱلدينيِّ على دينِه.

***

قالَ ٱلراوي: وصَعِدَ ٱلخطيبُ ٱلمنبرَ وفي يدِهِ سيفُهُ ٱلخشبيُّ يتوكأُ عليه؛ فما ٱستقرَّ في ٱلذِّروةِ حتى خُيلَ إليَّ أنَّ ٱلرجلَ قد دخلَ في سِرِّ هذه ٱلخشبة، فهو يبدو كٱلمريضِ تُقيمُهُ عصاه، وكٱلهَرِمِ يُمسكُهُ ما يتوكأُ عليه؛ ونظرْتُ فإذا هو كذِبٌ صريحٌ على ٱلإسلامِ وٱلمسلمين، كهيئةِ سيفِهِ ٱلخشبيِّ في كذبِها على ٱلسيوفِ ومعدنِها وأعمالِها.

وتاللّهِ ما أدري كيفَ يستحلُّ عالمٌ من علماءِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ في هذا ٱلعصر، أنْ يخطبَ ٱلمسلمينَ خُطبَةَ جُمعتِهم وفي يدِهِ هذا ٱلسيفُ علامةُ ٱلذلِّ وٱلضَعةِ وٱلتراجُعِ وٱلانقلابِ وٱلإدبارِ وٱلهزْلِ وٱلسخريةِ وٱلفضيحةِ وٱلإضحاك؛ ومتى كانَ ٱلإسلامُ يأمرُ بنَجْرِ ٱلسيوفِ مِنَ ٱلخشبِ ونَحْتِها وتسويتِها وإرهافِ حدِّها ٱلذي لا يقطعُ شيئاً، ثُمَّ وضْعِها في أيدي ٱلعلماءِ يَعْتَلُونَ بها ذُؤابةَ[1] كلِّ منبر، لِتتعلّقَ بها ٱلعيونُ، وتشهدَ فيها الرمز وٱلعلامة، وتستوحِيَ منها ٱلمعنويَّةَ في الدينيَّةَ ٱلتي يجبُ أنْ تتجسَّمَ لِتُرى؟

أفي سيفٍ مِنَ ٱلخشبِ معنويَّةٌ غيرُ معنى ٱلهزْلِ وٱلسخافة، وبلاهةِ ٱلعقلِ وذلّةِ ٱلحياة، ومسْخِ ٱلتاريخِ ٱلفاتحِ ٱلمنتصر، وٱلرمزِ لِخضوعِ ٱلكلمةِ وصِبيانيَّةِ ٱلإرادة؟

قال: وكانَ تمامُ ٱلهزءِ بهذا ٱلسيفِ ٱلخشبيِّ ٱلذي صنعتْهُ وزارةُ أوقافِ ٱلمسلمين، أنَّهُ في طولِ صَمْصَامةِ[2] عمرِو بْنِ مَعْدِيكَربِ ٱلزُّبيديِّ فارسِ ٱلجاهليَّةِ وٱلإسلام، فكانَ إلى صدرِ ٱلخطيب، ولولا أنَّهُ في يدِهِ لَظهرَ مَقْبِضُهُ في صدرِ ٱلرجلِ كأنَّه وِسامٌ مِنَ ٱلخشب...

قال: وكانَ ٱلخطيبُ إذا تكلَّفَ وتصنَّعَ وظهرَ منه أنَّهُ قد حَمِيَ وثارَ ثائرُهُ، ٱرتجَّ وغفَلَ عن يدِه، فتضطربُ فيها قبضةُ ٱلسيفِ فَتلكزُهُ في صدرِهِ كأنَّما تذكِّرُهُ أنَّ في يدِهِ خشبةً لا تَصلُحُ لِهذهِ ٱلحماسة....![3]

* * *

قال: وخطبَ ٱلعالمُ على الناس، وكانَ سيفُهُ ٱلخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى: فأمَّا ٱلأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهي حتى ينتهيَ أثرُها، إذْ هي كالقراءةِ لإقامةِ ٱلصلاة؛ وكانَتْ في عهدِها ٱلأولِ كٱلدرسِ لإقامةِ شأنٍ من شؤونِ ٱلاجتماعِ وٱلسياسة، فبينَها وبينَ حقيقتِها ٱلإسلاميَّة مثلُ ما بينَ هذا ٱلسيفِ مِنَ ٱلخشبِ وبينَ حقيقتِهِ ٱلأولى. وأمَّا الخطبةُ ٱلثانيةُ فقدَ عقلْتُها أنا عن تلك الخشبةِ وكتبْتُها، وهذه هي عبارتُها:

ويحكم أيُّها ٱلمسلمون! لو كنْتُ بقيةً من خشبِ سفينةِ نوحٍ ٱلتي أنقذَ فيها

---

(١) ذؤابة: رأس.

(٢) صمصامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب وبيده سيفه.

ٱلجنسَ البشريَّ، لَمَا كانَ لكم أنْ تضعوني هذا ٱلموضع؛ وما جعلَكُمُ ٱللَّهُ حيثُ أنتم إلَّا بعدَ أنْ جعلتُموني حيث أنا، تكادُ شرارةٌ تذهبُ بي وبكم معاً، لِأنَّ فيَّ وفيكمُ ٱلمادةَ ٱلخشبيةَ وٱلمادةَ ٱلمتخشَّبة.

ويحكم! لو أنَّهُ كانَ لِخطيبِكم شيءٌ مِنَ ٱلكلامِ ٱلناريِّ ٱلمضطرم، لَمَا بقيَتِ ٱلخشبةُ في يدِهِ خشبة. وكيف يمتلىءُ الرجلُ إيماناً بإيمانه، وكيف يصعدُ ٱلمنبرَ لِيقولَ كلمةَ الدينِ مِنَ ٱلحقِّ ٱلغالبِ، وكلمةَ ٱلحياةِ مِنَ ٱلحقِّ ٱلواجب ـ وهو كما ترونَه قدِ ٱنتهى مِنَ ٱلذلِّ إلى أنْ فقد ٱلسيفُ روحَهُ في يدِه؟

أيُّها ٱلمسلمون! لنْ تُفلحوا[1] وهذا خطيبُكُمُ ٱلمتكلمُ فيكم، إلَّا إذا أفلحْتُم وأنا سيفُكم ٱلمدافعُ عنكم. أيُّها ٱلمسلمون، غَيِّروه وغيّروني.

* * *

قالَ راوي الخبر: ولمَّا قُضِيَتِ ٱلصلاةُ ماجَ[2] ٱلناسُ إذِ ٱنبعَثَ فيهم جماعةٌ مِنَ ٱلشبانِ يصيحون بهم يستوقفونهم لِيخطبوهم؛ ثُمَّ قامَ أحدُهم فخطب، فذكرَ فلسطينَ وما نزلَ بها، وتغيُّرِ أحوالِ أهلِها، ونكبتَهم وجهادَهم وٱختلالَ أمرِهم، ثمَّ ٱستنجدَ وٱستعان، ودعا ٱلمُوسِرَ[3] وٱلمُخِفَّ[4] إلى ٱلبذلِ وٱلتبرعِ وإقراضِ ٱللَّهِ تعالى؛ وتقدمَ أصحابُهُ بصناديقَ مختومة، فطافُوا بها على الناسِ يجمعون فيها القليل وٱلأقلَّ من دارهِمَ هي في هذه ٱلحالِ دارهِمُ أصحابِها وضمائرُهم.

قال: وكانَ إلى جانبي رجلٌ قَرَوِيٌّ من هؤلاءِ ٱلفلاحينَ ٱلذين تَعرفُ ٱلخيرَ في وجوهِهم، وٱلصبرَ في أجسامِهم، وٱلقناعةَ في نفوسِهم، وٱلفضلَ في سجاياهم؛ إذِ ٱمتزجَتْ بهم روحُ ٱلطبيعةِ ٱلخِصبةِ فتُخرجُ من أرضِهم زُروعاً ومن أنفسِهم زروعاً أخرى ـ فقالَ لِرجلٍ كانَ مَعه: إنَّ هذا ٱلخطيبَ خطيبَ ٱلمسجدِ قد غشَّنا وهؤلاءِ الشبانُ قد فضحوه؛ فما ينبغي أنْ تكونَ خطبةُ ٱلمسلمينَ إلَّا في أخصِّ أحوالِ ٱلمسلمين.

قال: ونبَّهني هذا ٱلرجلُ ٱلساذَجُ إلى معنًى دقيقٍ في حِكمةِ هذه ٱلمنابرِ ٱلإسلاميَّة؛ فما يُريدُ ٱلإسلامُ إلَّا أنْ تكونَ كمحطاتِ ٱلإذاعة، يلتقطُ كلُّ منبرٍ أخبارَ ٱلجهاتِ ٱلأخرى ويُذيعُها في صيغةِ ٱلخطابِ إلى ٱلروح وٱلعقلِ وٱلقلْب، فتكونُ

---

(١) تفلحوا: تنجحوا.

(٢) ماج: هاج.

(٣) الموسر: الغني.

(٤) المخف: الفقير.

خطبةُ ٱلجمعةِ هي ٱلكلمةَ ٱلأسبوعيَّةَ في سِياسةِ ٱلأسبوعِ أو مسألةِ ٱلأسبوعِ؛ وبهذا لا يجيءُ ٱلكلامُ على ٱلمنابرِ إلَّا حيًّا بحياةِ ٱلوقت، فيُصبِحُ ٱلخطيبُ ينتظرُهُ ٱلناسُ في كلِّ جمعةٍ ٱنتظارَ ٱلشيءِ ٱلجديد؛ ومن ثَمَّ يستطيعُ ٱلمنبرُ أنْ يكونَ بينَهُ وبينَ ٱلحياةِ عمل.

قال: وخُيِّلَ إليَّ بعدَ هذا ٱلمعنى أنَّ كلَّ خطيبٍ في هذه ٱلمساجدِ ناقصٌ إلى ٱلنصف، لِأنَّ السياسةَ تُكرهُهُ أنْ يخلعَ إسلاميَّتَهُ ٱلواسعةَ قبلَ صعودِهِ ٱلمنبر، وألَّا يصعدَ إلَّا في إسلاميتِهِ ٱلضيِّقةِ ٱلمحدودةِ بحدودِ ٱلوعْظِ هو مع ذلك نصفُ وعظ... فالخطبةُ في ٱلحقيقةِ نصفُ خطبة، أو كأنَّها أثرُ خطبةٍ معَها أثرُ سيف...

قال: وأخرجَ ٱلقرويُّ كِيسَهُ فعزَلَ منه دراهم وقال: هذه لِطعام أتبلَّغُ بِهِ ولِأَوْبتي[1] إلى البلد، ثم أفرغَ الباقي في صناديقِ ٱلجماعة؛ وٱقتديْتُ أنا بِهِ فلم أخرجْ مِنَ ٱلمسجدِ حتى وضعْتُ في صناديقِهم كلَّ ما معي؛ ولقد حسبْتُ أنَّهُ لو بقيَ لي درهمٌ واحدٌ لَمضى يَسبُّني ما دامَ معي إلى أنْ يخرجَ عنِّي.

* * *

قالَ ٱلراوي: ثُمَّ دخلْتُ إلى ضريحِ صاحبِ ٱلمسجدِ أزورُهُ وأقرأُ فيهِ ما تيسَّرَ مِنَ ٱلقرآن، فإذا هناك رجالٌ من علماءِ ٱلمسلمين، اِثنانِ أو ثلاثةٌ: (الشكُّ في ثالثِهم لأنَّهُ حليقُ ٱللحية). ثُمَّ تَوَافَى[2] إليهم آخرون فتمُّوا سبعة؛ ورأيْتُهم قد خلطوا بأنفسِهم صاحبَ (اللا لِحية)، فعلِمْتُ أنَّهُ منهم على ٱلمذهبِ ٱلشائعِ في بعضِ ٱلعصريينَ مِنَ ٱلعلماءِ وٱلقضاةِ ٱلشرعيِّين، أحسبهُم يحتجُّون بقولِه تعالى: و ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ وكلُّ ٱمرىءٍ فإنَّما تُبَصِّرهُ مرآتُهُ كيف يظهرُ في أحسنِ تقويم، أبلحيةٍ أم بلا لِحية...؟

وأدرْتُ عيني في وجوههم، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أرَ منها شيئاً في وجهِ صاحبِ (اللا لِحية)؛ وأنا فما أبصرْتُ قطُّ لِحيةَ رجلٍ عالمٍ أو عابدٍ أو فيلسوفٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذي فنٍّ عظيم، إلَّا ذكرْتُ هذا المعنى ٱلشعريَّ البديعَ الذي وردَ في بعضِ ٱلأخبارِ، من أنَّ للَّهِ (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون: وٱلذي زيَّن بني آدمَ باللِّحى.

وكانَ مِنَ ٱلسبعةِ رجلٌ تركَ لِحيتَهُ عافيةً على طبيعتِها؛ فٱمتدَّتْ وعظُمَتْ حتى

---

(١) أوبتي: عودتي. (٢) توافى: جاء.

نَشَرَتْ حولَها جوًّا روحانيًا مِنَ ٱلهيبةِ تشعرُ ٱلرقيقةُ بتيَّارِهِ على بُعد، فكانَ هذا أبلغَ ردٍّ على ذلك.

* * *

قال؛ وأنصَتَ ٱلشيوخُ جميعاً إلى خطبِ ٱلشبان، وكانَتْ أصواتُ هؤلاءِ جافيةً[1] صُلبةً حتى كأنَّها صَخَبُ[2] معركةٍ لا فنُّ خطابة، وعلى قدرِ ضعفِ المعنى في كلامِهم قَويَ ٱلصوت؛ فهم يصرخونَ كما يصرخُ ٱلمستغيثُ في صيحاتٍ هاربةٍ بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض.

فقالَ أحدُ ٱلشيوخِ ٱلفضلاء: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله! جاءَ في ٱلخبَر: «تَعِسَ عبدُ ٱلدينارِ تَعِسَ عبدُ ٱلدرهم». وواللّهِ ما تعسَ ٱلمسلمونَ إلَّا منذُ تعبَّدوا لِهذين حِرْصاً وشُحًّا؛ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]، ولو تعارفَتْ أموالُ ٱلمسلمينَ في ٱلحوادثِ لمَا أنكرَتْهمُ ٱلحوادث.

فقالَ آخر: وفي ٱلحديث: «إنَّ ٱللَّهَ يُحبُّ إغاثةَ ٱللَّهْفان»، ولكن ما بالُ هؤلاءِ ٱلشبانِ لا يُوردون في خطبِهم أحاديثَ معَ أنَّها هي كلماتُ ٱلقلوب؟ فلو أنَّهم شرحوا لِلعامةِ هذا الحديث: «إنَّ ٱللَّهَ يُحبُّ إغاثةَ ٱللهفانِ» لأسرعَ العامَّةُ إلى ما يُحبُّهُ ٱلله.

قالَ ٱلثالث: ولكنْ جاءَنا ٱلأثرُ في وصفِ هذه الأمَّة: «إنَّها في أولِ ٱلزمانِ يتعلَّمُ صغارُها من كِبارِها، فإذا كانَ آخرُ ٱلزمانِ تعلَّمَ كِبارُهم من صِغارِهم». فنحن في آخرِ ٱلزمان، وقد سُلِّطَ ٱلصغارُ على ٱلكبارِ يُريدونَ أنْ يَنقُلوهم عن طِباعِهم إلى صِبيانيَّةٍ جديدة.

قالَ ٱلراوي: فقلْتُ لِصديقٍ معي: قلْ لِهذا الشيخ: ليس معنى ٱلأثرِ ما فهمْتَ، بل تأويلُهُ أنَّ آخرَ ٱلزمانِ سيكونُ لِهذهِ الأمَّةِ زمنُ جِهادٍ وٱقتحام، وعزيمةٍ ومُغالبةٍ على ٱستقلالِ ٱلحياة؛ فلا يصلحُ لِوقايةِ ٱلأمَّةِ إلَّا شبابُها ٱلمتعلِّمُ ٱلقويُّ ٱلجريءُ، كما نرى في أيَّامِنا هذه، فينزلون مِنَ ٱلكِبارِ تلكَ ٱلمنزلةَ؛ إذْ تكونُ ٱلحماسةُ مُتممةً لِقُوةِ ٱلعِلْم. وفي ٱلحديث: «أمَّتي كالمطرِ: لا يُدرَى أولُهُ خيرٌ أم آخرُه».

* * *

قالَ ٱلراوي: ولم يكدِ ٱلصديقُ يحفظُ عنِّي هذا الكلامَ ويَهُمُّ بتبليغِهِ، حتى

---

(١) جافية: قاسية صلبة.

(٢) صخب: ضجيج.

(٣) شحّ: بخل.

وقعَتِ ٱلصِيحةُ في ٱلمكان؛ فجاءَ أحدُ الخطباءِ ووقفَ يفعلُ ما يفعلُهُ ٱلرعد: لا يكرِّرُ إلَّا زمجرةً واحدة؛ وكانَ ٱلشيوخ ٱلأجِلَّاءُ قد سمعوا كلَّ ما قيل، فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعةً أو خامسة؛ وفرغَ ٱلشبابُ من هَديرِهِ فتحوَّلَ إليهم وجلسَ بينَ أيديهم متأدِّباً متخشِّعاً ووضَع ٱلصندوقَ ٱلمختوم.

فقالَ أحدُ ٱلشيوخ: لم يَخفَ علينا مكانُك، وقد بذلْتُم ما ٱستطعْتُم؛ فباركَ ٱللهُ فيك وفي أصحابِك.

وسكَتَ ٱلشابُ، وسكَتَ ٱلشيوخ، وسكَتَ ٱلصندوقُ أيضاً...

ثُمَّ تحركَتِ ٱلنفسُ بوحْيِ ٱلحالة؛ فمدَّ أولُهم يدَهُ إلى جيبِه، ثُمَّ دسَّها فيه، ثُمَّ عَيَّثَ[1] فيه قليلاً؛ ثم... أخرجَ ٱلساعةَ ينظرُ فيها.

وٱنتقَلتِ ٱلعدوى إلى ٱلباقين، فأخرجَ أحدُهم مِنديلَهُ يتمخَّطُ فيه، وظهَرتْ في يدِ ٱلثالثِ سُبحةٌ طويلة، وأخرجَ ٱلرابعُ سِواكاً فمرَّ بهِ على أسنانِه، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانَتْ في قَبائِه، ومدَّ صاحبُ ٱللِّحيةِ ٱلعريضةِ أصابعَهُ إلى لِحيتِهِ يُخَلِّلُها؛ أمَّا السابعُ صاحبُ (اللاحية)، فثبتَتْ يدُهُ في جيبِهِ ولم تخرج، كأنَّ فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهرَه، أو يخشى إذا هو أظهَرُه من تخجيلِ ٱلجماعة.

وسكَتَ ٱلشابُ، وسكَتَ ٱلشيوخ، وسكَتَ ٱلصندوق أيضاً...

قالَ ٱلراوي: ونظرْتُ فإذا وجوهُهم قد لبَستْ لِلشابِّ هيئةَ ٱلمدرِّسِ ٱلذي يُقرِّرُ لِتلميذِهِ قاعدةً قرَّرها مِنْ قبلُ ألفَ مرةٍ لِألفِ تلميذ؛ فخجلَ ٱلشابُ وحملَ صندوقَهُ ومضى...

* * *

أقولُ أنا: فلَمَّا ٱنتهى ٱلراوِي من (قصةِ ٱلأيدي ٱلمتوضئة)، قلْتُ لَه: لَعلَّكَ أيُّها ٱلراوي ٱستيقظْتَ مِنَ ٱلحُلُم قبلَ أنْ يملأَ الشيوخُ الأجلَّاءُ هذا ٱلصندوق، وما ختمَ عقلُكَ هذه الروايَةَ بهذا الفَصلِ إلَّا بما كَدَدْتَ[2] فيهِ ذهنَكَ من فلسفةِ تحوُّلِ ٱلسيفِ إلى خشبة؛ ولو قدِ ٱمتدَّ بِكَ النومُ لَسمعْتَ أحدَهم يقول لِسائِرهم: بِمَنْ ينهضُ إخوانُنا ٱلمجاهدونَ وبمنْ يصولون؟ لهذا قالَ رسولُ ٱللهِ ﷺ: «جاهلٌ سخِيٌّ[3] أحبُّ إلى ٱللهِ من عالمٍ بخيل». ثُمَّ يملئون ٱلصندوق....

(١) عيَّث فيه قليلاً: أي بحث بأصبعه.

(٢) كددت: أتعبْت.

(٣) سخيّ: كريم.

نجوى التمثال

أيُها ٱلمفترِشُ ٱلصخرةَ يشُدُّ ذراعيهِ أقوى ٱلشدِّ كأنَّما يُريدُ أنْ يقتلعَ ٱلصخرةَ فيهما،

مُتَنَاهِضاً بصدرِهِ[1] لِيَدلَّ على أنَّهُ وإنْ رَبضَ فإنَّ ٱلوثبةَ في يديه، مُتَمَطِّياً[2] بصُلْبِهِ لِيُشيرَ من جِسمِهِ ٱلهادىء إلى معانيهِ ٱلمفترسة، مُقْعياً على ذَنبِهِ[3] ومتحفِّزاً بسائِرِهِ كأنَّهُ قوةُ ٱندفاعٍ تَهُمُّ أنْ تَنفلِتَ من جاذبيةِ ٱلأرض.

وأنَتِ أيَّتُها ٱلهيفاءُ[4] تمثِّلُ ٱلإنسانيَّةَ ٱلمتمدِّنةَ في نَحافتِها وهي كهذه ٱلإنسانيَّةِ ضاربةٌ بذراعَيْ أسدٍ في غِلَظٍ مِدْفعين....

حكيمةً في ٱلنظرِ كأنَّما تَمُدُّ في سرائِرِ ٱلأممِ نظرةَ ٱلمتأملِ، ولكنَّ يدَها كَيَدِ ٱلحِكمةِ ٱلسياسيَّةِ على تركيبٍ عقليٍّ تحتَهُ ٱلمخالب...

ساكنةً كأنَّها تمثالُ ٱلسلام على أنَّها في جِوارِ ٱلأسدِ كَٱلسلامِ بينَ ٱلشعوب: تَلْمَحُ فيهِ إنسانَ ٱلعالمِ ووحشَ ٱلعالم...

يا أبَا ٱلهول.

أأنْتَ جوابٌ عن ذلك ٱللُّغزِ ٱلقديمِ ٱلذي هو كلامٌ لا يتكلَّمُ وسكوتٌ لا يسكُت.

وٱلذي أشارَ برأسِ ٱلإنسانِ على جسمِ ٱللَّيثِ[5] أنَّهُ قوةٌ عمياءُ كَٱلضرورةِ ولكنَّها مُبْصِرَةٌ كَٱلاختيار.

وٱلذي أخرجَ من فَنَّي ٱلغريزةِ والعقلَ فنًّا ثالثاً لا يزالُ في ٱلأرضِ ينتظرُ ٱلمرأةَ التي تَلِدُ إنساناً عِظامُهُ مِنَ ٱلحجَر؟

---

(١) متناهضاً بصدره: مرتفعاً.
(٢) متمطياً: متمدداً، وذلك بعد النوم.
(٣) مقعياً على ذنبه: جالساً.
(٤) الهيفاء: الفتاة الممتشقة الطول.
(٥) الليث: الأسد.

وأنتِ يا مصر:

أواقفةٌ ثَمَّةَ لِلشرحِ وٱلتفسير، تقولينَ لِلمصريّ: إنَّ أجدادَك يسألونَك مِنْ آلافِ ٱلسنينَ بهذا الرَمز: ألَا معجزةٌ مِنَ ٱلقوَّةِ تمطُّ عَضَلاتِ ٱلحجَر؟

ألا بَسْطَةٌ[1] مِنَ ٱلعِلْم تجعلُك أيُها ٱلمصريُّ وكأنَّكَ رأسٌ لِجسم ٱلطبيعة؟ ألا فنٌ جديدٌ ترفعُ بِهِ أبا ٱلهولِ في ٱلجوّ فتزيدُهُ على قوَّةِ ٱلوحشِ وذكاءِ ٱلإنسانِ خِفَّةَ ٱلطير؟

أمْ تقولينَ لِلمصريّ: إنَّ أجدادَك يُوصونكَ بهذا ٱلرمزِ أنْ تكونَ كالظَّهرِ ٱلأسديّ لا يُركَبُ مَطاهُ، وكٱلرأسِ ٱلإنسانيّ لا تُقيِّدُ حريتَهُ، وكٱلرَّبْضَةِ ٱلجبليَّةِ لا تَسْهُلُ إزاحتُها، وكٱلإبهامِ ٱلمركَّبِ من غامضَينِ لا يتيسَّرُ بِهِ عَبَثُ ٱلعابثِ، وكٱلصراحةِ ٱلمجتمعةِ من عنصرٍ واحدٍ لا يغلطُ في حقيقتِها أحد؟

أمْ تقولينَ يا مصر: إنَّ تفسيرَ أبي ٱلهولِ ٱلأولِ أنَّ ٱلنهضةَ ٱلمصريَّةَ إنَّما تكونُ يومَ تُخرِجُ ٱلبلادُ مَنْ يصنعُ أبا ٱلهولِ الثاني؟

* * *

تمثالُ ٱلنهضةِ أم صفحةٌ مِنَ ٱلحجرِ قد صَوَّرَ ٱلشعبُ عليها، ودوَّنَ فيها إحساسَهُ بتاريخِه، ووصفَ بها إدراكَهُ حياةَ ٱلمعاني ٱلسامية؟

أمْ هو كتابةُ فصلٍ مِنَ ٱلتاريخ بقلم ٱلحياةِ وعلى طريقةٍ من بلاغتِها، خشيَتْ عليهِ ٱلفناءَ فدوَّنَتْهُ في أسلوبٍ مِن أساليبِ ٱلبقاءِ ٱلحجريِّ ٱلصَّلْد؟

أمْ ذاك يومٌ من أيام ٱلأمَّةِ أحالَهُ ٱلفنُّ من زمنٍ إلى مادة؛ ومن معنًى إلى حسٍّ، ومن خبرٍ إلى مَنْظَرٍ، وكانوا يتكلَّمون عنهُ فجعلَهُ ٱلفنُّ يتكلَّمُ عن نفسِه؟

أمْ هو تعبيرٌ عن تلك ٱلمعاني التي خلَقتْها نفوسُ هذا ٱلجِيلِ تُخاطبُ بِهِ ٱلنفوسَ الآتيةَ لِتُتمِّمَ عليها، وتُضيفَ فيه إلى ٱلمعنى سرَّ ٱلمعنى، وتضعَ ٱلكلمةَ ٱلإنسانيَّةَ على لِسانِ ٱلطبيعةِ تتكلَّمُ بالتمثالِ كما تتكلَّمُ بالجيلِ؟

أمْ تركيبٌ سِياسيٌّ إذا فسَّرتْهُ ٱللغةُ كانَ معناهُ أنَّ ٱلثابتَ إذا ٱحتاجَ إلى مَنْ يُثبتُهُ... فلَنْ يمحوَهُ من يُنكرُهُ، وأنَّ ٱلظاهرَ إنِ ٱحتاجَ إلى مَنْ يَدلُّ عليه... فلَنْ يُخفِيَهُ مَنْ لا يراه؟

* * *

(١) بسطة: سعة.

بلْ أراكَ لا هولَ[1] فيكَ يا أبا الهولِ ٱلجديد.

أفذاكَ من رِقَّةٍ داخلَتْك ورحمةٍ جاءَتْك من مَسٍّ يدِ ٱلمرأة...؟

أمِ ٱلهولُ ٱليومَ قد أصبحَ في ٱلعقلِ وٱلعاطفةِ ومدّ ٱلعينِ ٱلنسائيّةِ إلى بعيد...؟

أمْ لا يتمُّ في هذِهِ ٱلمدينةِ رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبعٍ إلَّا... إلَّا بأناملِ ٱمرأة؟

ألَا مَنْ يُعْلِمُني أهذه ٱلمرأةُ منك هي تهذيبٌ لِلإنسانِ وٱلوحشِ أمْ تكملةٌ عليهما؟

ألا مَنْ يأتيني بٱلحِكْمةِ فيكَ من وضْع ٱلرجلِ ٱلقويّ رأساً ولا جسم، والأسدِ ٱلمفترسِ جسماً ولا رأس، ثُمَّ لا يكملُ دُونَهما إلَّا ٱلمرأةُ وحدَها.

إنَّما كنْتَ يا أبا الهولِ لُغْزَ ٱلصمْت، فَلمَّا أُضيفَتِ ٱلمرأةُ إليكَ أصبحْتَ لُغْزَ ٱلنطقِ... فيا لَلْهول!

---

(1) هول: قوة.

فاتحُ ٱلجوِّ ٱلمصريّ

يا طيرَ ٱلمثَلِ ٱلأعلى!

لقدِ ٱنْفَلَتَّ[1] من رذيلةِ ٱلخوف وتركْتَها في ٱلترابِ مَوْطِىءَ ٱلقَدَم، وقلْتَ لها: ويحكِ، لقد آنَ لِلشباب ٱلمصريّ؛ فهو مُغَامِسٌ[2] في ماءِ ٱلصواعق[3]، مُتَطَوِّحٌ[4] في ٱللُّجّةِ ٱلأزليّةِ[5] التي تغوصُ فيها ٱلكواكبُ[6]، يطيرُ برُوحِ ٱلشَّرارة، ويَهْبِطُ برُوحِ ٱلغيث[7]، ويُلجِمُ[8] ٱلجوَّ ويُسْرِجُهُ،[9] ويتعلَّمُ كيفَ يَشْوي عدوَّهُ في عَيْنِ ٱلشمس.

وكنْتَ بطلاً مُغَامراً فخطوْتَ في طريقِ الملائكةِ بهذِهِ ٱلفضيلةِ وحمَلَكَ ٱلجوُّ؛ ولو أنَّك خِفْتَ وكنْتَ على جَنَاحَيْ جِبريلِ لا على طيَّارة، لَخَافَ جبريلُ على جناحَيهِ من حَطْمَةِ هذا ٱلمعنى الترابيِّ ٱلطاغيةِ ٱلذي يَحكُمُ على ٱلأحياءِ بٱلموتِ بلا موت، لِأنَّهُ ٱلذلُّ وٱلخضوعُ وٱلرذيلة.

وحملَكَ ٱلجوُّ إلى قُبَةِ ٱلسماء، وهنالِكَ نَظَرَ ٱلعالَمُ فرأى لِمِصرَ ٱلناهضةِ عَلَمَها ٱلإنسانيَّ يتنفَّسُ تحتَ ٱلكواكب.

وحملَكَ ٱلجوُّ إلينا، فلمَّا رفعْنَا رؤوسَنَا لِنراك، رفعْناها في ٱلوقتِ بين شعوبِ الأرض.

* * *

وضربْتَ يا جَنَاحَ مصرَ في الهواء، وأعْنَانُ ٱلسماءِ[10] مملوءةٌ بِالزَّعْزَعِ[11] وٱلهَوجاءِ وٱلعاصف، وٱلسماءُ في فصلِها ٱلمكْفَهِرِّ ٱلذي تخلعُ فيهِ كلَّ ساعةٍ وتَلبسُ

---

(١) انفلتّ: تخلّصت.
(٢) مغامس: مبلل.
(٣) تلك كناية عن السحاب.
(٤) متطوّح: متماثل في كل اتجاه.
(٥) اللجة الأزلية: السماء.
(٦) تلك كناية عن أجواز الفضاء.
(٧) الغيث: المطر.
(٨) يُلجم: يضع اللجام للحصان.
(٩) يُسرجه: يضع السرج للحصان.
(١٠) أعنان، مفرده عنان، بالفتح: نواحيها.
(١١) الزعزع: تردّد الصوت كالجلجلة.

وتَـمزّقُ[1] وتَطْوي، فزِذْتَ بجُرْأتِكَ في براهينِ ٱلقضيَّةِ ٱلمصريَّةِ برهانَ قوَّةِ ٱلمُخاطَرة، وأضفْتَ إلى مَنطِقها وضعاً جديداً مُفْحِماً من روحِ ٱلتضحية.

وطِرْتَ بينَ حياةٍ وموتٍ فجعلْتَهما يستويانِ في ٱعتقادِك؛ إذْ وصلْتَ فكرةَ ٱلموتِ بسرِّ ٱلإيمان، وٱلحياةَ بسرِّ ٱلعزيمة.

وكنْتَ رَجُلَ أُمَّتِكَ بإنكارِ ذاتِ نفسِكَ من أجلِها.

وٱتسَعْتَ لِلتاريخِ بِوضعِك عُمرَكَ ٱلمحدودَ على ٱلطيَّارة، وقذفِكَ بِهَا وبِهِ في مَسْبَحِ ٱلأجل.

وتجرَّدْتَ لِلأَبديَّةِ لِتُعطيَ بِلادَكَ: إمَّا شهيدَ مجدٍ في ٱلآخرة، وإمَّا شهادةَ فخرٍ في ٱلدنيا.

وكنْتَ على طيَّارتِكَ ٱلصغيرةِ ٱلمُتَطَارِدةِ تحتَ ٱلريح، وحَولَكَ رُوحُ ٱلهرَمَ ٱلأكبرِ ٱلقائمِ بإرادةِ مصرَ وكأنَّهُ مِسْمارٌ مدقوقٌ في كُرَةِ ٱلأرضِ بينَ ٱلقطْبِ وٱلقطب.

* * *

وأنتِ يا «فائزة» يا هذه ٱلصغيرةُ ٱلخارجةُ من مالِ صاحِبها وجُهدِهِ وعزيمتِهِ كما تخرجُ ٱلقوَّةُ من ضَعف، أعلمْتِ إذْ أنتِ ترتفعينَ وتهبطينَ بينَ ٱلسحُبِ كما تتواثبُ ٱلفَراشةُ على ٱلنوَّارِ في رَوضةٍ مُزهرة، وإذْ أنتِ تَفْتُقينَ وتحُوكينَ في مُلاءةِ ٱلسحابِ كأنَّكِ بِمُحَرِ كِكِ الدَّوَّارِ تَنْسِجُينَ في ٱلسماءِ بمغْزَل، وإذْ أنتِ بينَ صَفْقِ ٱلرياحِ ٱلهُوجِ[2]، تحتَ ٱلسماءِ ٱلمُدَجَّجَةِ[3]، في كُبَّةِ ٱلشتاء[4]، كأنَّك مناظرةٌ تجري بينَ ٱلعزيمةِ في ٱلإنسانِ والعزيمةِ في ٱلطبيعة، وإذْ أنتِ بينَ ذئابِ ٱلأعاصيرِ، ونُمورِ ٱلسحابِ[5] وسِباعِ ٱلغيمِ ذواتِ ٱللِّبدةِ ٱلكثيفةِ ٱلمُتَشَعّثَةِ، كأنَّكِ بِصوتِكِ وأزيزِكِ تُطلقينَ على وحوشِ الجوِّ مِدفعاً رشاشاً يترُكها صَرْعَى،

وإذْ تراكِ ٱلريحُ فتقولُ عنكِ: ريحٌ صَنَعَها ٱلإنسان. وَيَراكِ ٱلنجمُ فيقول: نجمٌ أفلَتَ مِنَ ٱلنِّظامِ ٱلأرضيّ. وتَراكَ ٱلملائكةُ فتقول: ويحكَ يا ٱبنَ آدمَ، كأنَّكَ بما

---

(١) كناية عن المطر وطبيعة الشتاء.

(٢) الهوج، مفرده هوجاء أي المجنونة التي لا تستقرّ ولا تهدأ.

(٣) المدجَّجة: المفعمة.

(٤) كبّة الشتاء: عنفه وغزارته.

(٥) السحاب: الغيم.

خَلَقَهُ ٱلعقلُ تطمعُ مِنَّا في سَجْدَةٍ أخرى كالتي سجدْناها لِآدمَ يومَ خلقَهُ ٱللهُ.

. . . أعلمْتِ إذْ أنتِ كذلك يا «فائزة»، أنَّ ٱلتاريخَ ٱلمصريَّ سيحوّلُكِ من طيَّارةٍ إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ ٱلخَلْق، لِأنَّ فيكِ بَدْءَ الطَيرانِ في مصر؟

* * *

سلاماً يا فاتحَ ٱلجوِّ ٱلمصري. لقدْ أجالَتِ ٱلأيامُ قِداحَها[1] فخرجَتِ ٱلقُرعةُ عليك، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ: بسمِ اللَّهِ مَصْعَدُها ومَجراها.

وطِرْتَ فإذا أنت بِها عابرٌ فوقَ ٱلحاضرِ لِتجيئَنا من جانبِ ٱلمستقبل.

وهبطْتَ علينا كأنَّكَ في بَريدِ ٱلسماءِ كتابُ مَجْدٍ حَيٍّ لِلوطنيَّةِ ٱلظافرة.

بلْ كِتابُ قصَّةٍ رائعةٍ ألَّفتْها ٱلعواصفُ من فنَّين: ثورةِ ٱلجوِّ وثورةِ نفسِكَ ٱلمصريَّة. وحَكَتْها في صوتين: زَفيفِ ٱلطيَّارةِ وصَرْخةِ ضميرِكَ ٱلوطنيّ. وجعلَتْها فصلين: أنتَ وٱلمجهول. ألَا حسبُك مجداً أنْ يحيا ٱلشعبُ كلُّهُ بضعةَ أيامٍ في قصتِك!

* * *

فعلى مَهْدِ ٱلجوّ، وفي حَريرِ ٱلشعاع، وتحتَ كِلَّةِ ٱلسحاب ـ وُلِدَ لِمصرَ يومٌ تاريخيّ.

وخرجَتِ ٱلتهانيءُ ٱلتي طالَ ٱحتباسُها[2] في ٱلقلوبِ ٱلمصريَّةِ لا يُفْرَجُ عنها لأنَّ سجَّانَها ظُلْمُ ٱلسياسة.

وٱتجهَتْ أفراحُ شعبٍ كاملٍ إلى ٱلفتى ٱلجرىءِ ٱلذي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فوقَ هاويةِ ٱلموتِ فتخطاها.

وتلقَّى شعورُ الأمَّةِ رسولَه ٱلمِقدامَ ٱلذي لم يكنْ لَهُ ملجأٌ في خِطَارِهِ إلَّا شعورَهُ بهذه الأمَّة.

وٱرتجَّ ٱلوادي كلُّهُ كأنَّه غِمْدٌ يتقلقلُ حينَ يُسَلُّ منهُ ٱلسيف.

ثُمَّ أُهْدِيَتْ كلمةُ مِصرَ لابْنِها ٱلذي كتَبَ في جوِّها ٱلكلمةَ ٱلسماويَّةَ ٱلأولى. وكانَتْ ساعةٌ تلاشَى عندَها ٱلزمنُ فٱرتفعَتْ منه أربعةُ آلافِ سنةٍ وهتَفَ معنا ٱلفراعنة: بوركْتَ يا «صدقي»!

* * *

---

(١) قداحها: كأسها لتقرع فيها على طريقة الجاهلية. (٢) احتباسها: سجنها.

لِلهِ درُّكَ أيُّما ٱبنِ عزيمة! كأنَّما كَشفْتَ أهاويلَ ٱلوحْيَ وهبطْتَ في سحابةٍ مُجَلْجِلَةٍ إنْ لم تحملْ كتاباً مُنزَلاً فكأنَّما حملتْ شخصاً منزلاً.

ولعلَّكَ رسولُ ٱلغَيم ٱلعابِسِ لِهذا ٱلجوِّ ٱلمصريِّ ٱلذي يضحكُ دائماً ضحكةَ ٱلفيلسوفِ ٱلساخرِ في حينِ أصبَحتِ ٱلحياةُ قوةً لا فلسفةً. . .

ولعلَّكَ مبعوثُ ٱلبرقِ وٱلرعدِ لِهذا ٱلسكونِ ٱلنائمِ ٱلذي يطوي كلَّ يومٍ في طيِّ ٱلنسيانِ ما حَدَثَ في ٱليومِ ٱلذي قبلَه. . .

ولعلَّكَ نبيُّ ٱلجِدّيةِ وٱلمرارةِ لِهذهِ الحلاوةِ ٱلنيليَّةِ ٱلمُفْرِطةِ ٱلتي كادَ منها ٱلشعبُ أنْ يكونَ سُكَّرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشْرب. . .

ولَعلَّكَ تفسيرٌ مصحِّحٌ لِعقيدتِنا ٱلمغلوطةِ في ٱلقضاءِ وٱلقدر، أنَّ ٱلقضاءَ أنْ تُقْدِمَ بِلا خوف، وأنَّ ٱلقدرَ أنْ تَثِقَ بِلا مُبالاة.

أمَا ـ واللّهِ ـ لقدْ غَمرْتَ ٱلشعبَ بموجةِ هواءٍ جديدةٍ جِئْتَ بها في جناحَيْكَ، ونفخْتَ روحَ طيَّارتِكَ ٱلمجيدةِ في ٱلقلوبِ فجعلْتَها كلَّها ترفرِفُ كأنَّ لكَ في ضلوعِ كلِّ مِصريٍّ طيَّارة.

أجنحةُ ٱلمدافعِ ٱلمصرية

اِسْتَجْنحي[١] يا مَدافعَ مِصرَ وطيري، إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ ٱلبرْقيّ. لقد مَدَّتْ لُغةُ ٱلقوَّةِ في هذا ٱلعصرِ مَدَّها حتى أصبحَ الطَّيَرانُ بعضَ معاني ٱلمشيْ، ولم يَعدِ ٱلعالَمُ يدري كيفَ تكونُ ٱلصورةُ ٱلأخيرةُ التي يستقرُّ فيها معنى إنسانِه.

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصرُ بأنسانِها ٱلبَرقِّي ٱلذي تَخرج ٱلنارُ بيدِهِ من أعْراضِ ٱلسحاب، وتُفَرقِعُ في أصابعِهِ هَزَّاتُ ٱلرَّعد، ويجعلُ في قُبَّةِ ٱلسماءِ صَلْصَلَةً وجَلْجَلة، ويحملُ ٱلاسمَ ٱلمصريَّ إلى مُعلَّقِ ٱلنجم، فيضعُ لَهُ هناكَ ٱلتعريفَ الناريَّ ٱلذي وضعَتْه ٱلدولُ ٱلعظمى لِأسمائِها.

وَلْتتمجدْ مصرُ بإنسانِها ٱلبرقيِّ ٱلذي يُشْعِرُها حقيقةَ ٱلعلوِّ العالي، وٱلعُمقِ ٱلعميق، وٱلسَّعَةِ ٱلتي لا تُحدُّ؛ وَيزيدُ في معاني أحيائِنَا معنًى جديداً لِأحياءِ السُّحُب، وفي معاني أمواتِنا معنًى جديداً لِموتَى ٱلكواكب.

إنسانٌ برقيٌّ يُتَمِّمُ بشجاعتِهِ في ٱلسماء بُطولَةَ فلَّاحِنا ٱلإنسانِ ٱلشمسيِّ في ٱلأرض، ويعلو بِكِبرياءِ مصرَ في ذِرْوةِ ٱلعالَمَ، فتظهرُ طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً في ٱلجوِّ كما ظَهرتْ آثارُها ٱلعظيمةُ قدرةً في ٱلثرَّى.

إنَّها مصر، مصرُ ٱلقادرةُ ٱلتي سَحرَتِ ٱلقِدَمَ بقوَّتِها وفنِّها، فَبقِيَ فيها على حالِهِ وجلالتِهِ، وٱنهزمَ ٱلدهرُ عنهُ كأنَّه قوةٌ على قوةِ ٱلزمن نفسِها.

فاستَجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

ولَمَّا فُتِحَ ٱلسِّجِلُّ ذاتَ صباح لِتكتبَ مصرُ أسماءَ ٱلفَوْجِ ٱلأولِ من نُسُورِها ٱلحربيِّين، صاحَ مجدُها ٱلخالدُ من أعماقِ ٱلتاريخ:

«أضْرمي ٱلشعلةَ ٱلآدميَّةَ الأولى يا مصر، وٱفتحي ٱلقبرَ ٱلجويَّ الأول، وألحِدي

(١) استجنحي: اجعلي لنفسك جناحين.

فيهِ من عنصرَيك ٱلمسلمينَ والأقباط، وضَعي ٱلحياةَ في أساسِ ٱلحياة، وٱستقبلي عصرَكِ ٱلجديدَ بأذانِ ٱلمسجدِ ودقِّ ٱلناقوسِ لِيُبارِكَهُ ٱلله، ولْيتلقَّ ٱلشعبُ أولَ طيَّاريهِ بقلوبٍ فيها رُوحُ ٱلمعركةِ، وأكبادٍ عرفَتْ مَسَّ ٱلنار؛ ولا ينظرَنّ إلى طيَّاراتِهِ الأوَلِ إلَّا بعدَ أنْ ينظرَ ٱلنعشينِ فيرى مجدَ ٱلموتِ في سبيلِ ٱلوطن، فتسطعَ نظراتُهُ ببريقِ ٱلكِبرياءِ، ولَمعةِ ٱلعزيمةِ، وشُعاعِ الإيمان؛ ويأتَلِقَ فيها النورُ ٱلسماويُّ ٱلذي يجعلُ الناسَ في بعضِ ساعاتِهِم كواكب، نورُ صلاةِ ٱلشعبِ على موتاهُ ٱلشهداء».

* * *

وٱستجابَ ٱلقَدرُ لِصوتِ ٱلمجد، فَٱلتَجَّ[١] ٱلظلامُ في وَضَحِ ٱلصبح، وٱنطفأَ سِراجُ في ٱلنهارِ قبةِ ٱلفلك، وأطْبَقَتْ نواحي ٱلجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها وأقبلَ ٱلضبابُ يَعتَرِضُ ٱعتراضَ جبَلٍ عائم يتَذَبْذَبُ[٢] في بحر، وٱستأرَضَ[٣] ٱلسحابُ فتَخلَّى عن طبيعتِهِ ٱلسماويَّةِ ٱلرقيقةَ، وتذامرَتِ[٤] ٱلعناصرُ على ٱلقِتالِ يَحُضُّ[٥] بعضُها بعضاً، وتغشَّتِ[٦] ٱلسماءُ بوجهِ ٱلموت: كلَّحَ فأرْبَدَّ[٧] وٱنتفخَ، وتكسَّرَتْ فيهِ ٱلغُضونُ كلُّ غَضنٍ كِسْفَةُ ظلام، وعادَ أوسعُ شيءٍ أضيقَ شيء، فكانَ ٱلفضاءُ كصدرِ ٱلمحتضرِ: ليسَ معهُ إلَّا عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها.

وٱبْتَدَرَتْ إلى مجدِ ٱلموتِ ٱلطيَّارةُ ٱلمصريةُ ٱلأولى؛ وكانَ فيها إنكليزيانِ يقودانِها فأباهما ٱلموتُ، فذهَبتْ فٱنتحرتْ أسفاً وتردَّتْ متحطمة، وٱنسلَّ ٱلرجلانِ من مخالبِ ٱلردى[٨]، وكانا في ٱلطيارةِ كورقتينِ مِنَ ٱلنَّبْتِ في فَمِ جَرادةٍ هَمَّتْ تَقْضِمُها...

وتَسْتَبِقُ ٱلثانيةُ فإذا فيها وَديعةُ ٱلكرم من عُنْصُري مصرَ: «حجَّاج ودوس» وكانَ سرًّا من أسرارِ مصرَ ٱجتماعُهمَا في مَداحِضِ ٱلغَمام ومزالِقِه، لِيكونا هديَّةَ مصرَ الأولى إلى مجدِها ٱلحربيّ، ثُمَّ لِيكونا هديةَ ٱلمجدِ إلى إحساسِ هذا الشعبِ يُحسُّ منهما ٱلعالَمَ المنطَويَ لَهُ في مستقبلِ ٱلنصر.

واعتسَفَتْ[٩] طيارةُ الشهيدينِ طريقَ ٱلفنَاءِ ومتَاهةَ[١٠] ٱلحياة، فذَهَبَتْ عنها

---

(١) التجّ: أصبح لجّة.
(٢) يتذبذب: يتردّد لوجوده في الهواء، ويتحرّك.
(٣) استأرض: تحوّل إلى أرض.
(٤) تذامرت: تداعت للاجتماع.
(٥) يحضّ: يحثّ.
(٦) تغشّت: تغطّت.
(٧) اربّد: تلبّد.
(٨) الردى: الموت.
(٩) اعتسفت: مالت وخبطت على غير هداية.
(١٠) متاهة: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

مَعارِقُ ٱلأرض، وعُمِّيَتْ عليها معالِمُ ٱلسماء، وخرجَتْ من تصريفِ أيدي ٱلبطَلينِ إلى تصريفِ أجلِهما، وأصبَحتْ كأنَّها تطيرُ في الأنفاسِ ٱلباقيةِ لهما؛ فما تتقدَّمُ ولا تتأخَّر؛ ولم تكنْ طيارةَ تحملُهما، بلْ جنَاحاً ممدوداً لهما من رحمةِ ٱللهِ.

ثُمَّ ٱجترَّها ٱلموتُ إلى غَوْرٍ، فٱنحطَّتْ مِنَ ٱلهواءِ جانحةً كٱلطائرِ يطلُبُ ملجأً في ٱلعاصفة، ثُمَّ ٱنتهضَتْ واثبةً، وتمطَّرَتْ منقلِبةً، فٱشتعَلتْ فٱستعَرَتْ فأنضجَتْ راكبَيْها، رحِمهُما ٱلله!

وكثيراً ما يكونُ منظرُ ٱلحزنِ في ٱلحياةِ هو ٱنهماكَ ٱلحياةِ في عملٍ جديدٍ تُبدعُ منهُ ٱلسرورَ وٱلقوَّة. ٱحترقَ البَطَلانِ لِتتسَلَّمَ مصرُ في نعشيهما رماداً لَنْ يُبْنى تاريخُ ٱلعِزّةِ ٱلوطنيَّةِ إلّا به.

فٱستجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

صنعَتِ ٱلنارُ الآدميَّةُ ٱلحقيقة، ووضَعتْ لنا ٱلاسمَ ٱلبديعَ ٱلذي نُطلقُهُ على طيَّارينا ٱلأبطال، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ ٱلجوّ، ولكنْ سمّوهم «جَمَراتِ ٱلجوّ».

صنعَتِ نارُنا ٱلحقيقة، وأوحَتْ إلينا أنْ نستبدلَ من أنفسِنا حالةً بحالةٍ، وأنْ نُفاجِىءَ شعورَنا ٱلحالمَ فنصدمَهُ بآلامِ ٱليقَظةِ ٱلمرّة، وأنْ نغيِّرَ قاعدةَ ٱلحياةِ في ٱلتربيةِ ٱلمصريةِ فلا تكون: ٱلعيشَ ٱلعيش، ولكنِ ٱلقوَّةَ ٱلقوَّة.

صنَعتِ ٱلنارُ ٱلحقيقة، وأثبتَتْ لنا أنَّ ٱلحياةَ إنْ هي إلّا أداةٌ لِلحيّ، وليسَ ٱلحيُّ أداةً لِلحياة، فَلْيتصرَّفْ بها على قوانينِ ٱلروحِ وآمالِها فيسمُوَ وتسمو، ولا يَدَعْها تتصرفُ على مذاهبِ أقدارِ ٱلمادةِ وتصاريفِها فيُذلَّها وتُذلَّه. وفي قانونِ ٱلروح: لا قيمةَ لِعالَمِ ٱلأشياءِ إلّا كما تَصْلُحُ لنا؛ وفي قانونِ ٱلمادَّةِ وضَغْطَةِ ٱلحياة: كما تَصْلُحُ لنا وكما نَصلُحُ لها...

بَلَى، قد صنعَتِ ٱلنارُ الآدميَّةُ ٱلحقيقةَ، وأعطتْنا قصةَ ٱلحريَّةِ كاملةً في معنًى واحد: وهو أنَّ هذه ٱلحريَّةَ لِعاشقيها كأجملِ ٱلجميلاتِ لِلمتنافسِينَ عليها: جمالُها متوحِّش، وخَلَاعتُها مُفْترِسة، وظَرْفُها سَفَّاكٌ لِلدم.

فٱستجنْحِي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

وإلى السماءِ يا «جمَراتِ الجوّ»، فإذا ٱستويتُم[1] على ٱلسحاب، فليسَتِ ٱلطيَّارةُ ثَمَّ طيَّارةً، بلْ حقيقةً حيةً عاملةً لِلمجد، فلْتحملْ معناها ٱلمصريَّ من بطَلِها ٱلمصريّ.

وإذا سبحْتم في مَهْبِط ٱلقدَر، فليسَ ٱلطيَّارُ ثَمَّ طياراً، بل حياةً عبقريَّةً أرسلَتْها مصرُ تستنزلُ لِلحياةِ أقداراً سعيدة.

وإذا خُضتُمْ في ٱلمعْرَكِ ٱلضَّنْكِ[2] تتبعثَرُ فيهِ ٱلآجالُ على الرياح، فليسَ ٱلجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم، بلْ ناموساً طبيعيًّا ماضياً إلى غاية.

وإذا تَقَاذَفْتُم في بحر ٱلشمس، فأنتم هناك على شِباكِ طرحْتُموها لِصيدِ أيامٍ مضيئةٍ تلتمِعُ في تاريخِ مصر.

وإذا نفذْتُم من أقطارِ ٱلسماوات، فٱنظروها بأعينِكم معاليَ مصر، وٱفهموها بقلوبِكم ذاتيةَ ٱلوطنِ المِصريِّ تعلو وتعلو ولا تزالُ أبداً تعلو.

إنَّما الطيَّارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ مِنَ ٱلإنسانيَّةِ وٱلعناصِر، معناهُ في ٱلعزيمةِ «لا بدَّ». ومتى هَدَرَتِ ٱلطيارةُ هَديرَها فإنَّما تقولُ للبطلِ منكم: هَلُمَّ من عالٍ إلى أعلى، إلى أكثرَ علوًّا، إلى أقصى حدودِ الواجبِ على النفسِ حينَ يأخذُ ٱلواجبُ ٱلكلَّ وحينَ تُعطي ٱلنفسُ ٱلكلَّ.

فٱستجْنحي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

---

(١) استويتم: ركبتم.

(٢) الضَّنك: ضيق العيش.

الطماطمُ ٱلسياسي . . .

كانَ (م: باشا رحمَهُ ٱللَّهُ ـ داهيةً من دُهاةِ ٱلسياسةِ ٱلمصريَّة، يلتوي مرةً في يدِها ٱلتواءَ ٱلحبل، ويستوي في يدِها مرةً ٱستواءَ ٱلسيف، ولا يُرى أبداً إلَّا منكمِشاً مُتَحرِّزاً[1] كأنَّ له عدوًّا لا يدري أين هو ولا متى يقتحِمُ عليه، ولكنَّه كغيرِهِ مِنَ ٱلرؤساءِ ٱلذين كانوا آلاتٍ لِلكذِبِ بينَ طالبِ ٱلحقِّ وغاصبِ ٱلحقِّ ـ يعرفُ أنَّ عدوَّهُ كامنٌ في أعمالِهِ.

وكان ذكيًّا أريباً[2]، غيرَ أنَّ مُلابَسَتَهُ لِلسياسةِ ٱلدائرةِ على مِحورِها، جعلَتْ نصفَ ذكائِهِ مِنَ ٱلذكاءِ ونصفَهُ مِنَ ٱلمكر؛ فكانَ في مُراوغتِهِ كأنَّ لَهُ ثلاثةَ عقول: أحدُها مصريّ، وٱلآخرُ إنجليزيّ، وٱلثالثُ خارجٌ مِنَ ٱلحالين.

وبهذا تقدَّمَ وعاشَ أثيراً عندَ ٱلرؤساءِ مِنَ ٱلإنجليز، وٱستمرَّتْ مجاريهِ مُطَّرِدةً[3] لديهم حتى بلغوا بِهِ إلى ٱلوزارة، إذْ كانَ حَسَنَ ٱلفهْمِ عنهم، سريعَ ٱلاستجابةِ إليهم؛ يفهمُ معنى ألفاظِهم، ومعنى ٱلنيَّةِ ٱلتي تكونُ وراءَ ألفاظِهم، ومعنًى آخرَ يتبرعُ هو بِهِ لِألفاظِهم . . . فكانَ هو وأمثالُهُ في رأيِ تلك ٱلسياسةِ ٱلقديمة، رجالاً كالأفكار: يُوضعُ أحدُهم في مكانِهِ مِنَ ٱلحكم كما تُوضعُ صِيغةُ ٱلشكِّ لإفسادِ ٱليقين، أو صِيغةُ ٱلوهمِ لِتوليدِ ٱلخيال، أو صِيغةُ ٱلهوى لإيجادِ ٱلفِتنة.

* * *

وكانَ صديقي (فلانٌ) ـ رحِمَهُ ٱللَّهُ ـ صاحبَ سِرِّهِ (السكرتير)، وقدْ وَثِقَ بِهِ ٱلباشا حتى إنَّهُ كانَ يُعالِنُهُ[4] بما في نفسِه، ويبثُّهُ[5] همومَهُ وأحزانَه، ويرى فيهِ دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلَّما ضاقَتْ بِهِ دنيا وظيفتِه، ويستعيرُ منهُ ٱليقينَ أحياناً بِأنَّهُ لا يزالُ مِصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُهُ في ٱلكرسي . . .

---

(١) متحرّزاً: محترساً.

(٢) أريباً: ذكياً.

(٣) مطّردة: متدافعة متوالية.

(٤) يعالنه: يطلعه على ما في نفسه.

(٥) يبثه: يشكو له ما يعانيه.

فحدَّثني ٱلصديقُ بعدَ موتِ هذا الباشا قال: إنَّهُ دعاهُ يوماً لِيُفَاتِحَهُ ٱلرأيَ في أمرٍ من أمورهِ، ثُمَّ قالَ له: إنَّ الرئيسَ ٱلإنجليزيَّ غيرُ مطمئنٍ إليكَ لأنَّ حقيقةً مِنَ ٱلحقائقِ ٱلصريحةِ ظاهرةٌ على وجهك، فأنت تنظرُ إليهِ وكأنَّكَ تقولُ لَهُ بعينيكَ إنَّكَ مصريٌّ مستقل.

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: لَئِنْ كانَ ذلك ما يُغضِبُهُ إنَّ ٱلخطْبَ لَهيِّن، فلسْتُ أنظرُ إليهِ بعدَ ٱليومِ إلَّا من وراءِ نظَّارةٍ سوداء...

فضحكَ الباشا وقال: يا بُنيَّ، هذا ٱلإنجليزيُّ عندَنا كٱلشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وواللّهِ يا بُنيَّ إنِّي لأَشدُّ أنفَةً منك، وإنَّ صدري لَشَجِيٌّ[1] مِمَّا أنا فيهِ من هذا ٱلكرْب[2]، ولكنَّنا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ قد ضِعْنا منذُ فقدْنَا ٱلشخصيَّةَ ٱلاجتماعيَّة.

أتُراكَ تفهمُ شيئاً لو قلْتُ لك: رجلٌ، أسد، جبلٌ، مدينةٌ، أسطول؟ إنَّ تركيبَنا ٱلاجتماعيَّ شيءٌ كهذا ٱلكلام: فيهِ من ضخامةِ ٱللفظِ بقدرِ ما فيهِ مِنِ ٱنحلالِ ٱلمعنى وٱضمحلالِه. ولِكلِّ كلمةٍ إذا أُفردَتْ معنًى صحيحٌ يقومُ بها وتقومُ بهِ، غيرَ أنَّهُ يتحوَّلُ في ٱلجملةِ إلى معنًى كَلَا معنى.

أصبحَ ٱلشرقيُّ يعيشُ في أُمَّتِهِ على قاعدةِ أنَّهُ منفردٌ لا صِلةَ بينَهُ وبينَ ٱلأطرافِ لا في ٱلزمانِ ولا في ٱلمكان، ونَسِيَ معنى ٱلحديثِ ٱلشريف: «إعملْ لِدنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً». فماذا كانَ يُريدُ أعظمُ ٱلمصلحينَ ٱلاجتماعيينَ من قوله: «كأنَّك تعيش أبداً»؟ إلَّا أنْ يُقرِّرَ لِأُمَّتِهِ أنَّ ٱلفردَ ينبوعُ ٱلأجيالِ ٱلمُقبلةِ كلِّها، فلْيعملْ لَها ولِنفسِهِ كأنَّها موقوفةٌ عليهِ وكأنَّهُ مستمرٌّ فيها.

هذه حِكمةٌ إسلاميَّةٌ دقيقةٌ، عندَنا نحن لَفظُها ولسْنَا نعرفُ معناها، وعندَ ٱلإنجليزِ معناها ولا يعرفون لَفظَها. أهُمُ ٱلمسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدةِ ٱلانفرادِ ٱنفردَ كلُّ شيء؛ فآثرَ ٱلشرقيُّ حياتَهُ على وطنِه، وقدَّمَ لَذَّتَهُ على واجبِه، وتعامَلَ بالمالِ في مواضعِ ٱلمُعاملةِ بالأخلاق؛ وكانَ طبيعيًّا مع هذا أنْ يَختصِرَ ٱلدينَ ٱختصاراً يجعلُهُ مِقداراً بينَ مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين؛ وبذلك يُناسبُ فرديتَهُ ويقعدُ تحتَ حُكمِهِ وهو خارجٌ عليه؛ فترى ٱلرجلَ من

---

(١) شجي: حزين. (٢) الكرب: **الضيق**.

هذه ٱلملايينِ يؤمنُ بٱللَّهِ وهو يَحلِفُ بهِ كَذِباً على درهم، ويُصلّي ويَفْجُرُ في يومٍ واحد، ويتعبَّدُ في نفسِهِ ويخونُ سِواهُ في وقتٍ معاً.

ومتى كانتِ ٱلحالةُ ٱلنفسيَّةُ لِلأُمَّةِ هي هذه ٱلفردية ومصالحَها ودواعيَها، كانَ ٱلكذبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمَّة، إذْ هو ٱنفرادُ ٱلكاذبِ بحظِّهِ ومصلحتِهِ وداعيتِهِ؛ ولا يكذبُ عليك إلَّا مَنْ يرجو أنْ تكونَ مغفَّلاً، أو من قدَّرَ في نفسِهِ أنَّ المعاملةَ ٱلعامَّةَ في ٱلأمَّةِ هي على قاعدةِ ٱلمغفلين. . ويكذبونَ في هذا أيضاً فيُسمونَهُ حِذاقاً وبراعةً (وشطارة).

وإذا عَمَّ ٱلكَذِبُ فشا منهُ ٱلهَزْل؛ فكلُّ كاذبٍ هازل، وهلْ يَجِدُّ ٱلكاذبُ وهو يكذبُ إلَّا إذا كانَ مجنوناً؟ ومنَ ٱلهْزلِ ضَرْبٌ هوَ ٱلمباسطةُ بٱلكذب، ومنه ضرْبٌ من كذبِ ٱلحقائق، ومنه مِنْ كذبِ ٱلخيال، وكيفما دارتِ ٱلحالُ لا تجدُهُ إلَّا كذباً.

ومتى صارَ ٱلكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه، تقرَّرَ عندَ ٱلناسِ أنَّ ٱلكلامَ إنَّما يُقالُ لِيُقالَ فقط. أفلسْتَ ترى ٱلرجُلينِ إذا أخبرَ أحدُهما صاحِبَهُ بالخبرِ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلغرابةِ أوِ ٱلبعد، لا يكلِّمُهُ ٱلآخَرُ أولَ ما يتكلَّمُ إلَّا أنْ يسألَهُ: صحيح؟ صدق؟

ولا أضرَّ على ٱلأُمَّةِ من هذه ٱلعقيدة ـ عقيدةِ أنَّ الكلام يُقالُ لِيُقالَ فقط ـ فإنَّها هي طابَعُ ٱلهَزلِ على أخلاقِ ٱلأُمَّة، وعلى كلِّ أحوالِها، وعلى حكومتِها أيضاً.

ومِنَ ٱلهَزلِ وٱلكذبِ ترانا مبالغينَ في كلِّ شيء، حتى لَيكونُ لنا ٱلواحدُ كالآحادِ في غيرِنا فنجعلُهُ مائةً بصِفْرين، نجيءُ بأحدِهِما منِ ٱعتيادِ ٱلكذبِ على ٱلحقيقة، ونجيءُ بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسِنا.

هذه مبالغةٌ خطِرة، وأخطرُ ما فيها أنَّنا بها نُريدُ ٱلمبالغةَ في ٱلدَّلالةِ على ٱلأشياء، فتنقلبُ مبالغةً في ٱلدلالةِ علينا نحن، وعلى كَذِبِ طِباعِنا، وعلى فَوضى ٱلعقْلِ فينا. نعم وحتى تُثبتُ أنَّنا لا عزْمَ لنا، من كونِها مبالغةً لا تدقيقَ في معناها؛ وأنْ لا صبرَ لنا، من أنَّها لاثباتَ لِحقيقتِها ٱلمهزومة؛ وأنْ لا شِدَّةَ لنا في طلبِ ٱلحق، لأنَّنا بها من أهلِ ٱلغفلةِ في وصفِ ٱلحق؛ وأنَّنا لا نتمثلُ ٱلعواقبَ إذْ نُرسلُ ٱلكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبتِه.

وأيسرُ ما يُفهمُ من هذه ٱلمبالغاتِ ٱلتي أصبحَتْ طريقةً من طرقِ ٱلشعبِ في ٱلتعبير، أنَّ هذا ٱلشعبَ لا يصلحُ في شيءٍ إلَّا بالحُكُومةِ، فهو نفسُهُ كٱلمبالغة، وٱلحكومةُ لَهُ كالتصحيح؛ وهذه هي ٱلعِلَّةُ في أنَّ ٱلشعبَ ٱلكَذوبَ يلجأُ إلى حُكومتِهِ

في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في ٱلعمل، كما أنَّها هيَ ٱلعِلَّةُ في أنَّ حُكومتَهُ تُكذِّبُ عليهِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في ٱلسياسة.

ومن أثرِ ٱلكذبِ ٱلشعبيّ وٱلمُبالغةِ ٱلشعبيَّة، ما نراهُ منِ ٱهتمامِ كلِّ فردٍ بِمَا يقولُ ٱلناسُ عن أعمالِه، فيُديرُها على ذلك وإنْ قلَّتْ منفعتُها، وإنْ فَسَدتْ حقيقتُها، وإنْ جَلَبَتْ عليهِ مِنَ ٱلضررِ في مالِهِ ونفسِهِ ما هي جالبة؛ فقاعدتُهم هي هذه: ليسَ ٱلشأنُ في ٱلحياةِ لِلعملِ في نفسِه، ولكنْ فيما يُقالُ عنه؛ فإنْ لم يُقَلْ شيءٌ فلا تعملْ شيئاً...

هذه يا بُنيَّ أمَّةٌ لا يكونُ حكَّامُها إلَّا مبالغاتٍ أيضاً...

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱرتفعَ مِنَ ٱلطريقِ صوتُ بائعٍ يُنادي على سِلعتِه: أحسنُ مِنَ ٱلتفَّاحِ يا طماطم..

فضحكَ الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عنِ ٱلطماطمِ السياسيِّ ٱلعَفِن: إنَّهُ ليسَ تفاحاً وحَسْبُ، بلْ هو أحسنُ مِنَ ٱلتفاح..

إنَّ ٱلأُمَّةَ لنْ تكونَ في موضعِها إلَّا إذا وضعَتِ ٱلكلمةَ في موضعِها، وإنَّ أولَ ما يدلُّ على صِحَّةِ ٱلأخلاقِ في أُمَّةٍ كلمةُ ٱلصدقِ فيها، وٱلأُمَّةُ ٱلتي لا يحكمُها ٱلصدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهرِ ٱلحُكْمِ إلَّا كَذِباً وهَزْلاً ومُبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: جاءَ يوماً إلى زيارةِ ٱلباشا رجلٌ دخلَ عليَّ متهلِّلاً مُشْرِقَ ٱلوجهِ كأنَّهُ مُضاءٌ من داخلِهِ بشمعة... ويترنَّحُ عِطْفاهُ كأنَّما تهزُّه أسرارُ عظَمتِه؛ ويمشي متخلِّعاً كٱلمرأةِ ٱلجميلةِ ٱلتي أثقلَها لَحمُها وأثقلَتْها ٱلمعاني ٱلكثيرةُ من أعينِ ٱلناظرينَ إليها، وعلى شفتيهِ خيَالٌ من فكرةِ هؤلاءِ ٱلكُبراءِ ٱلمغرورينَ ٱلذينَ لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلَّا ليُعْلِمَهُ أنَّهُ هو كبير، فيكونُ في ٱلأمرِ شيئان: الأمرُ واللؤم؛ وأقبلَ عليَّ في هيئةٍ شامخةٍ لو نطَقَتْ لَقالَت: سَبِّح ٱسمَ ربِّكَ ٱلأعلى. سبِّحِ ٱللَّهَ ٱلذي خلقَ في ٱلأسَدِ شعرةً جبَّارةً خرجَ منها ٱلأسَدُ كلُّهُ.

سُبحانَ ٱللَّهِ ولا إلهَ إلَّا ٱلله. هذا (فلان باشا) ٱلذي قرأْتُ في ٱلصحفِ أمسِ أنَّهم أنعموا عليهِ برتبةِ ٱلباشوية؛ خلقَهُ ٱللَّهُ من ترابٍ وحوَّلَتِ ٱلرتبةُ هذا ٱلترابَ الذي فيهِ إلى ذهبٍ خالص... ينظرُ إليَّ وبرغْمِهِ أنْ تَقِفَ عيناهُ عليَّ وعلى ٱلحائط؛ ولا تجدُ نفسُهُ ٱلمزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبيرِ عنِ ٱلرتبةِ إلَّا هذا ٱلازدراءَ ٱلمنبعثَ من شخصِهِ ٱلعظيم لمِنْ لم يكُنْ كشخصِه. ما بينَ أمسِ وٱليومِ زادَ هذه ٱلزيادةَ الآدميَّة، أو كأنَّما كانَتْ صورتُهُ خُطوطاً فقطْ فوُضِعَتْ فيها ٱلألوان...

(باشا)! هذه ٱلباءُ وهذه ٱلألفُ وهذه ٱلشينُ ٱلممدودةُ ليسَتْ حروفاً خارجةً مِنَ ٱلأبجدية ٱلعامَّة؛ فإنَّ ٱلأبجديةَ قد تجعلُ ٱلباءَ في بليدٍ مثلاً، وٱلألفَ في أبله، وٱلشينَ ٱلممدودةَ في شاهدِ زُورٍ مثلاً مثلاً... بلْ تلك حروفٌ من حروفِ ٱلدولة، منتزعةٌ من قوَّةٍ قادرةٍ على أنْ تجعلَ لِحياةِ صاحبِها مِنَ ٱلشكلِ ما يُسْبِغُهُ ٱلفنُّ على ٱلحجَرِ من شكلِ تِمثالٍ يُنْصَبُ لِلتعظيم.

قال: وكنْتُ أعرفُ هذا الرجل، وهو رجلٌ أميٌّ لا يُحسنُ إلَّا كتابَةَ ٱسمِهِ كما تكتبُ ٱلدَّجاجةُ في ٱلأرض... فكانَتِ ٱلرتبةُ عليهِ كإطلاقِ لفظِ ٱلحديقةِ على صخرةٍ مِنَ ٱلصخورِ ٱلصَّلْدة؛ وهذا مِمَّا يحتملُهُ ٱلمجازُ بَعَلاقةٍ ما؛ ولكنَّ ٱلذي لا يَسُوغُ في ٱلمجاز، ولا في مبالغاتِ ٱلاستعارة، ولا في خُرافاتِ ٱلمستحيلِ، أنْ

تزعمَ ٱلصخرةُ لِلناسِ أنَّ لفظَ ٱلحديقةِ ٱلذي أُطلِقَ عليها قد أنبَتَ فيها أشجارَ ٱلحديقة . . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ : وٱستأذنْتُ لَهُ على ٱلباشا فسهَّلَ لَهُ ٱلإذنَ وقال : هذا رجلٌ أصبحَ كالورقةِ ٱلمبصومةِ بخاتَمِ ٱلدولة ، فَلْتكُنْ ما هي كائنةٌ فإنَّ لها ٱعتبارَها . ثُمَّ تلقَّاهُ تلقِّيَ ٱلهازلِ ٱلمتهكِّمِ وقالَ لَه : أهنئُكَ بِٱلنَّحْوِي . . . مُبارَكون يا باشا . وأقبلَ عليهِ وبَسَطَ لَهُ وجهَه .

وكانَ في ٱلباشا دُعابةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها ، وهو كثيرُ ٱلنوادرِ وٱلمُلَح ، ولَهُ خَصِيصةٌ عجيبةٌ ، فيكونُ بينَ يديهِ كُدْسٌ مِنَ ٱلأوراقِ ٱلتي تُعرضُ عليهِ ينظرُ فيها ويقرؤُها ويتدبَّرُها ، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدّثِهِ ويُراجعُهُ ويردُّ عليه ، فيُصرِّفُ ٱلناسَ وٱلأوراقَ في وقتٍ واحد ، ويستعملُ ناحيتينِ من فكرِهِ ٱستعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابةِ[1] في شيءٍ من هذه ولا من تلك .

ثُمَّ قالَ لِلباشا ٱلحديثِ وعينُهُ إلى ما بينَ يديه : هذه أوراقُ سرقةِ ثورٍ عظيم ، فكم يُساوي ٱلثورُ ٱلعظيمُ الآن . . . ؟

قالَ صاحبُنا ٱلذكيُّ ٱلفَطِن : إذا كانَ مِنَ ٱلثيرانِ ٱلتي تُعرضُ في ٱلمعارضِ وتنالُ ٱلمدالياتِ ٱلذهبيةَ فقدْ يَبْعُدُ سعرُهُ ويُغَالَى بهِ .

قالَ الباشا : نعم نعم ، إنَّ مِنَ ٱلثيران ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة ، ولكنَّ هذا ٱلثور الذي سألْتُك عنهُ يا باشا هو ثورُ محراثٍ لا ثَورُ معرض . . .

قالَ ٱلآخر : إذا كانَ ثورَ مِحراثٍ فمثلُهُ كثيرٌ فلا يكونُ ثوراً عظيماً كما قلْتَ وليسَتْ لهُ إلَّا قيمةُ مثلِه .

قالَ ٱلباشا : أراني أخطأت ، ولعَنَ ٱللَّهُ ٱلعَجَلة ، فهذه أوراقُ سرقةِ حمار !

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ : وٱنصرفْتُ عنهما بأوراقي ، وقد رأيْتُ يدَ ٱلباشا مملوءةً لِصاحبنا بتحيَّاتٍ كلُّها صفَعَات ؛ فلم يكنْ إلَّا يسيرٌ حتى خرجَ مبتهجاً يَميدُ ٱلسرورُ بعِطْفيه . ثُمَّ دعاني ٱلباشا ودفَع إليَّ بِطاقةً بٱلحاجةِ ٱلتي جاءَ فيها ٱلرجل ، ثُمَّ قال :

---

(١) لا يخلّ بالإصابة : لا يخطىء .

يا ليت لنا في ألقابِ ٱلدولةِ لقبَ (رحمَه الله)... يُنْعَمُ بهِ على مثلِ هذا.
أتدري يا بُنيَّ أنَّ هذهِ ٱلرتَبَ وهذه ٱلألقابَ لم تكنْ في القديم إلَّا كوضع علامةِ ٱلشرِّ على أهلِ ٱلشرِّ لِيهابَهُمُ[١] ٱلناسُ، حتى كأنَّما يُكْتَبُ على أَحدِهم من لَقَبِ بك أو باشا: مُلْحَقٌ بالدولة...

وكانَ ٱلشعبُ أميًّا جاهلاً لا يستطيعُ ٱلإدراكَ ولا يُحسنُ ٱلتمييز، فكانَتِ ٱلألقابُ كٱلقوانينِ ٱلشخصيةِ ٱلموضوعةِ في صيغةٍ موجزَةٍ مفهومةٍ متعيِّنةِ ٱلدَّلالة، وكانَ كلُّ مَنْ يحملُ لقباً مِنَ ٱلحكومةِ يستطيعُ أنْ يقولَ للناس: لقد وضعَت ٱلحكومةُ كلمةَ ٱلأمرِ في شفتيّ...

وكأنَّ ٱللقبَ إعلانٌ مِنَ ٱلحكومةِ ٱلمستبِدَّةِ لِشَعبِها ٱلجاهل: إنَّ هذا البك والباشا مَنْ يحقُّ لَهُ أنْ يُحترم.

مِنَ ٱلهزْلِ أنْ يُشترى ٱسمُ ٱلنصرِ ٱلحربيِّ أو يُوهَبَ أو يُعار؛ وأقبحُ منه في بابِ ٱلهزْلِ أنْ يُنعمَ على مثلِ هذا الأميِّ بلقبِ باشا. وأنا أعرفُ أنَّهُ قد بَذَلَ في سبيلِهِ ما بَذَل، وأضاعَ ما أضاع، فكأنَّ ٱلذين مَنحُوهُ إيَّاهُ لم يفعلوا شيئاً إلَّا وضعَ توقيعِهِم على أَخْذِ ٱلثمن.

ولقدْ أصبحَ ٱلرجلُ تحتَ تأثيرِ ٱلكلمةِ ٱلعظيمةِ مخبولاً بسحْرِها ٱلوهميّ، فحسِبَ ذلك إدخالاً لَهُ في وظيفةِ كلِّ حاكم، وإشراكاً لَهُ في ٱلحكمِ متى ٱقتضتْهُ مجاري أمورِهِ وأحوالِهِ، أو حاجاتُ أسبابِهِ وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاءَ يطلبُ حقَّه، فإنَّ مثلَهُ لا يفهمُ من لقبِ (باشا) إلَّا أنَّ ٱلحكومةَ قد سوَّغَتْ سلطتَهُ ٱلظهورَ وٱلعملَ، فمدَّتْ باعَهُ وقوَّتْ أمرَهُ ونوَّهَتْ[٢] بٱسمِهِ لِمصالِحِها وعُمَّالها؛ فهو عندَ نفسِهِ قدِ ٱلْتَحَمَ منذُ ٱليومِ بالنسبِ ٱلحكوميّ، وفي كلمةٍ واحدة، هو قدْ وُلِدَ من بطنِ ٱلحكومة...

ألا ترى أنَّ ٱلشعبَ لَوِ ٱستردَّ سُلْطَتَهُ ٱلكاملةَ، وأنَّ ٱلناسَ لو أيقنوا أنَّ ٱلألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ مِنَ ٱلأمرِ وٱلنهي وٱلوسيلةِ وٱلشفاعةِ، لَمَا بقيَ مَنْ يعبأُ بها، ولَكانَ حاملُها هو أولَ مَنْ يسخرُ منها؟

فهي إذن شَعْبَذَةٌ[٣] مِنَ ٱلحكومةِ وتضليلٌ في مثلِ هذا ٱلرجلِ الأميّ، وهي

---

(١) يهاب: يخاف.
(٢) نوّه: دلّ على فضله.
(٣) الشعبذة: الشعوذة والدجل.

ضربٌ مِنَ ٱلتهويلِ وٱلمُبالغةِ في سواهُ مِنَ ٱلكُبراءِ وٱلعُظماء، كأنَّ ٱلوزيرَ ٱلذي يُلقَّبُ بالباشا، يجعلُ فيه لقبُهُ وزيرين، وكأنَّ مثلَ هذا ٱلأميِّ ٱلمغفَّل، يجعلُ فيهِ لقبُهُ شخصاً، آخرَ غيرَ ٱلأميِّ ٱلمغفّل..

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاجُ إلى ألقابٍ يتعظَّمُ بها إلَّا وهو لا يحتاجُ إليها؛ فأينَ يكونُ موضعُ هذِهِ ٱلرتبِ وٱلألقاب؟

ساكنو ٱلثياب..

قالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: وجاءني يوماً ٱثنانِ من شيوخِ ٱلدينِ من ذَوِي هيئاتِهم وأصحابِ ٱلمنزلةِ فيهم، كلاهما هامَةٌ وقَامَة، وجُبَّةٌ وعِمامة، ودَرجةٌ مِنَ ٱلإمامة؛ ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطْراً حَسِبتُهُ من تَرويحِ أجنحةِ ٱلملائكة؛ وعليهما مِنَ ٱلوقارِ كظلِّ ٱلشجرةِ ٱلخضراءِ في لَهَبِ ٱلشمسِ تَفيءُ بِهِ يَمْنةً ويَسْرةً. فتوجَّهْتُ إليهما بنظري، وأقبلْتُ عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسّي كلَّها في خدمتِهِما؛ وقلْتُ: هؤلاءِ هم رجالُ ٱلقانونِ ٱلذي مادتُهُ ٱلأولى ٱلقلْب.

ما أسخفَ ٱلحياةَ لولا أنَّها تدلُّ على شرفِها وقَدْرِها ببعضِ ٱلأحياءِ ٱلذين نراهم في عالمِ ٱلترابِ كأنَّ مادتَهم مِنَ ٱلسُّحُب، فيها لِغيرِهِمُ ٱلظلُّ وٱلماءُ وٱلنسيم، وفيها لِأنفسِهِمُ ٱلطهارةُ وٱلعلوُّ وٱلجمال؛ يُثبتونَ لِلضعفاءِ أنَّ غيرَ ٱلمُمكنِ ممكنٌ بِٱلفعل، إذْ لا يرى ٱلناسُ في تركيبِ طِباعِهِم إلَّا ٱلإخلاصَ وإنْ كانَ حِرماناً، وإلَّا ٱلمروءةَ وإنْ كانَتْ مَشَقة، وإلَّا محبةَ ٱلإنسانيَّةِ وإنْ كانَتْ ألماً، وإلَّا ٱلجِدَّ وإنْ كانَ عنَاء، وإلَّا ٱلقناعةَ وإنْ كانَتْ فقراً.

هؤلاءِ قومٌ يؤلَّفونَ بيدِ ٱلقدرة، فهم كالكتبِ قدِ ٱنطوتْ على حقائِقِها وخُتِمَتْ كما وُضِعَتْ، لا تستطيعُ أنْ تُخرِجَ لِلناسِ من حقيقةٍ نصفَ حقيقةٍ ولا شِبهَ حقيقةٍ ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجبَ أمرَ هذهِ ٱلحياةِ ٱلإنسانيةِ ٱلقائمةِ على ٱلنواميسِ[1] ٱلاقتصاديَّة! فٱلسماءُ نفسُها تحتاجُ فيها إلى سماسرةٍ لِعرْضِ ٱلجنَّةِ على ٱلناسِ بالثمنِ ٱلذي يملكُهُ كلُّ إنسانٍ وهوَ ٱلعملُ ٱلطيِّب.

قال: ونظرْتُ إلى ٱلشيخينِ على ٱعتبارِ أنَّها من بقيةِ ٱلنبوَّةِ ٱلعاملةِ فيها شريعةُ نفسِها. تلك ٱلشريعةُ ٱلتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ كيلا يتغيَّرَ ٱلناسُ ولا يتبدَّلوا. ثُمَّ سألْتُهما عن حاجتِهِما، فإذا أحدُ هما قد عملَ أبياتاً مِنَ ٱلشعرِ جاءَ يمدحُ بها ٱلباشا

---

(١) النواميس، مفرده ناموس وهو القانون.

لِيزدلِفَ إليه؛ فقلْتُ في نفسي: «ما أشبَهَ حَجَلَ ٱلجبالِ بألوانِ صخرِها!» هذا عالِمُ دنيا يحدُّها مِنَ ٱلشرقِ ٱلرغيفُ، ومِنَ ٱلغربِ ٱلدينار، ومنَ ٱلشَّمالِ ٱلجاه، ومِنَ ٱلجنوبِ ٱلشيطان. . .

ثُمَّ نَشَرَ ورقةً في يدِهِ وأخذَ يَسْرُدُ[1] عَلَيَّ ٱلقصيدةَ، وهي على رَوِيّ ٱلهاء، تنتهي أبياتها: ها. ها. ها. فكانَ يقرؤُها شعراً ـ أو كما يُسميهِ هو شعراً ـ وكنْتُ أسمعُها أنا قهقهةً مِنَ ٱلشيطانِ ٱلذي رَكِبَ أكتافَ هذا العالمِ ٱلدينيّ: ها. ها. ها. ها. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وأدخلْتُهما على ٱلباشا، فوقفَ ٱلمدَّاحُ يمدحُ بقصيدتِهِ، وأخذَتْ لِحيتُهُ ٱلوافرةُ تهتزُّ في إنشادِهِ كأنَّها مِنْفَضَةٌ ينفُضُ بها ٱلملَلَ عن عواطفِ ٱلباشا. . وكانَ لِلآخر صمتٌ عاملٌ في نفسِهِ كصمتِ ٱلطبيعةِ حينَ تَنْفَطِرُ[2] البذرةُ في داخلِها، إذْ كانَتِ ٱلحاجةُ حاجتَه هو، وإنَّما جاءَ بصاحبِهِ رافِداً وظَهيراً يحملُ ٱلشمسَ وٱلقمرَ وٱلليثَ وٱلغَيثَ، لِتتقلَّبَ ٱلأشياءُ حولَ ٱلممدوحِ فيأخذَهُ ٱلسحر، فيكونَ جوابُ ٱلشمسِ على هذه ٱللغةِ أنْ تُضيءَ يومَ ٱلشيخ، وجوابُ ٱلقمرِ أنْ يملأَ ظلامَه، وجوابُ ٱلليثِ أنْ يفترِسَ عدوَّه، وجوابُ ٱلغيثِ أنْ يَهْطِلَ على أرضِه.

وٱلباشا لا يدعُ[3] ظَرفَهُ ودُعابتَه، وكانَ قد لمحَ في أشداقِ ٱلعالمِ ٱلمتشاعرِ أسناناً صناعية، فلمَّا فرغَ من نظمِهِ ٱلركيكِ قالَ لهَ: يا أستاذ، أحسبُني لَا أكونُ إلَّا كاذباً إذا قلْتُ لك: لا فُضَّ فوك.

ثُمَّ ذكرَ ٱلآخرُ حاجتَه: وهي رجاؤُهُ أنْ يكونَ عمدةُ ٱلقريةِ من ذوي قرَابتِهِ لا من ذوي عداوتِهِ. فقالَ لهُ الباشا: ولِقريتِكم أيضاً أبو جَهْل. . .؟

* * *

ولَمَّا ٱنصرفا قالَ ليَ ٱلباشا: لِأمرٍ ما جعلَ هؤلاءِ ٱلقومُ لِأنفسِهم زِيًّا خاصًّا يتميَّزون بِهِ في ٱلناس، كأنَّ ٱلدينَ بابٌ مِنَ ٱلتحرُّفِ وٱلتصرُّف، بعضُ آلَتِهِ في ثِيابِه؛ فهؤلاءِ يسكنون ٱلجُبَبَ وٱلقفاطِينَ وكأنَّها دواوينُهم لا ثيابُهم. . .

قد أفهمُ لِهذا معنًى صحيحاً إذا كانَ كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ

---

(١) يسرد: هنا بمعنى ينشد.

(٢) تنفطر: تتشقق.

(٣) يدع: يترك.

عملِهِ كٱلجنديِّ في معاني سلاحِهِ، فيكونُ ٱلعظيمُ وٱلتوقيرُ لِثوبِ ٱلعالمِ ٱلدينيِّ كأداءِ ٱلتحيَّةِ لِلثوبِ ٱلعسكريِّ: معناهُ أنَّ في هذا ٱلثوبِ عملاً سامياً أولُهُ بيعُ ٱلروحِ وبذلُ ٱلنفسِ وتركُ ٱلدنيا في سبيلِ ٱلمجتمع؛ هذا ثوبُ ٱلموتِ يُفْرَضُ على ٱلحياةِ أنْ تُعظِّمَهُ وتُجلَّه، وثوبُ ٱلدفاعِ تجبُ لَهُ ٱلطاعةُ وٱلانْقياد، وثوبُ ٱلقوَّةِ ليسَ لَهُ إلَّا ٱلمَهابةُ وٱلإعزازُ في ٱلوطن.

ولكنْ ماذا تصنعُ ٱلجُبَّةُ ٱليوم؟ إنَّها تُطْعِمُ صاحبَها. . .

أثرُ ٱلجيشِ معروفٌ في دِفاعِ ٱلأُمَمِ ٱلعدوَّةِ عنِ ٱلبلاد، فأينَ أثرُ جيشِ ٱلعلماءِ في دِفاعِ ٱلمعاني ٱلعدوَّةِ عن أهلِ ٱلبلاد، وقدِ ٱحتلَّتْ هذه ٱلمعاني وضَربَتْ وتملكَتْ وتركَتْ هذا ٱلعالمَ ٱلدينيَّ في ثوبِهِ كالجنديِّ ٱلمنهزم: يحملُ من هزيمتِهِ فضيحةً ومن ثوبِهِ فضيحةً أخرى؟

أنت يا بنيَّ قد رأيْتَ (ٱلشيخ محمد عبده) وعرَفْتَه؛ فرحمَ ٱللَّهُ هذا الرجل، ما كانَ أعجبَ شأنَه! لَكأنَّهُ ـ واللَّهِ ـ سحابةٌ مطويَّةٌ على صاعقة. ولو قلْتُ إنَّهُ قد كانَ بينَ قلبِهِ ورأسِهِ طريقٌ لِبعضِ ٱلملائكة. لَأشْبَهَ أنْ يكونَ هذا قولاً.

كانَ يزورني أحياناً فأراني مُرغَماً على أنْ أقدِّمَ لَهُ مجلسينِ أحدُهما قلبي. وكانَ لَهُ وجهٌ يأمرُ أمراً، إذْ لا تراهُ إلَّا شعرْتَ بِهِ يرفعُكَ إلى حقيقةٍ سامية.

رجلٌ نَبتَ على أعراقٍ[1] فيها إبداعُ ٱلمُبدعِ ٱلعظيمِ ٱلذي هيَّأَهُ لِرسالتِه، فعواصِفُهُ كالعِطْرِ في شجرةِ ٱلعِطرِ ٱلشَّذِيَّة، وشمائلُهُ كجمالِ ٱلسماءِ في زُرقةِ ٱلسماءِ ٱلصافية، وعظَمَتُهُ كرَوْعةِ ٱلبحرِ في منظرِ ٱلبحرِ ٱلصاخب. وكثيراً ما كانَ يتعجَّبُ من هذا أستاذُهُ (السيدُ جمالُ ٱلدينِ الأفغانيُّ) فيسألُهُ مندهشاً: بِاللَّهِ قلْ لي: ٱبنُ أيِّ ملكٍ أنت؟

لم يكنِ ٱبنَ ملكٍ ولا ٱبنَ أمير، ولكنَّهُ ابنُ ٱلقوّاتِ ٱلروحيَّةِ ٱلعاملةِ في هذا ٱلكوْن؛ فهي أعدَّتْه، وهي ألهمتْه، وهي أنطقَتْه، وهي أخرجتْهُ في قومِهِ إعلاناً غيرَ كِتمان، ومُصارحةً غيرَ مُخادعة، وهي جعلَتْ فيهِ أسديَّةَ ٱلأسد، وهي ألقتْ في كلامِهِ تلكَ ٱلشهْوةَ ٱلروحيَّةَ ٱلتي تُذاقُ وتُحَبُّ، كٱلحلاوةِ في ٱلحَلْوى.

هذا هو ٱلعالم ٱلدينيّ: لا بدَّ أنْ يكونَ ٱبْنَ ٱلقوّاتِ ٱلروحيَّة، لا ٱبْنَ ٱلكُتبِ

---

(١) أعراق: أصول.

وحدَها، ولا بدَّ أنْ يَخرجَ بعملِهِ إلى ٱلدنيا، لا أنْ يُدخِلَ ٱلدنيا تحتَ سقفِ ٱلجامع. . .

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاءِ ٱلعلماءِ ٱلذين هم بَقَايا تَتَضاءَلُ بجانبِ ٱلأصل؛ يبحثون في سُنَنِ ٱلنبيّ ﷺ: كيف كانَ يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدَّث؛ كأنَّهم مِنَ ٱلدنيا في قانونِ ٱلمائدة، وآدابِ ٱلولائم، ورُسوم ٱلمجتمعات؛ أمَّا تلك ٱلحقيقةُ ٱلكُبرى، وهي كيف كانَ ٱلنبيُّ ﷺ يُقاتلُ ويُحاربُ لِهدايةِ ٱلخلْق، وكيف كانَ يسمو على ٱلدنيا وشهواتِها؟ وكيف كانَ بِطِباعِهِ ٱلقوّيةِ ٱلصريحةِ تعديلاً فعَّالاً في هذه ٱلإنسانيّةِ لِلنواميسِ ٱلجائرة؟ وكيف كانَ يحملُ ٱلفقرَ لِيكْسِرَ بِهِ شِرَّةَ[1] ٱلنواميسِ ٱلاقتصاديَّةِ ٱلتي تَقضي بجعلِ ٱلأخلاقِ أثراً من آثارِ ٱلسَّعَةِ وٱلضيق، فتُخرجُ مِنَ ٱلغنيِّ مُتعفِّفاً ومِنَ ٱلفقير لِصًّا؟ وكيفَ ٱستطَاعَ ﷺ بفقرِهِ ٱلسامي أنْ يُحوّلَ معنى ٱلغِنى في نفوسِ أصحابِه، فيجعلَهُ ما ٱستغنى عنهُ ٱلإنسانُ من شهواتِ ٱلدنيا وتَرَكَ، ما نالَ منها وجَمَعَ؟ أمَّا هذا ونحوُهُ من حقائقِ ٱلنبوَّةِ ٱلعاملةِ في تنظيمِ ٱلحياة، فقد أهملُوه، إذْ هو لا يُوجدُ في ٱلكُتبِ وشروحِها وحواشِيها[2]، ولكنْ في ٱلحياةِ وأثقالِها وأكدارِها؛ وبذلك أصبحَ شيوخُنا مِنَ ٱلأُمَّةِ في مواضعَ لم يضعْهم فيها ٱلدينُ ولكنْ وضعَتْهم فيها ٱلوظيفة.

ألا ليتَهُم يكتبونَ على أبوابِ ٱلأزهرِ هذه الحِكمة: سُئِلَ بعضُ ٱلعرب: بِمَ سادَ فلانٌ فيكم؟ قالوا: ٱحتجْنا إلى علمِهِ وٱستغنى عن دُنيانا. . .

---

(١) شرّة: شدّة وقسوة.

(٢) حواشيها، مفرده حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من المعاني في الصفحة.

الأخلاقُ المحاربة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا بهذا ٱلحديثِ قال: كنَّا في ثورةِ سنةِ ١٩١٩ سنةِ ٱلهزَاهِزِ[١] وٱلفِتَن، وقدْ تفاقمتِ[٢] ٱلثورةُ، وأخذَ ٱلشبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أنْ يعملَ، وما يجبُ أنْ يعمل؛ وكانَ ٱلسَّخْطُ ٱلعامُّ هو ميراثَ ٱلوقت، فكانَتْ قلوبُ ٱلشعبِ تُلهَمُ واجباتِها إلهاماً، إذْ لم يكنْ في هذهِ ٱلقلوبِ كلِّها إلّا لذعةُ ٱلدم تُعيِّنُ ٱتجاهَ أعمالِها وتُحدِّدُه.

كانَتِ ٱلثورةُ زلزلةً وقعَتْ في ٱلتاريخ، فجاءَتْ تحتَ زمنٍ راكدٍ لا يتغيَّرُ إلّا بأنْ يُنْسَف، ولا ينسِفُهُ إلّا مادةٌ إلهيةٌ كٱلحركةِ ٱلكونيةِ ٱلتي تُخْرِجُ ٱليومَ ٱلجديدَ مِنَ ٱليومِ ٱلقديم؛ فكانَ ٱلقَدَرُ يعملُ بأيدي ٱلإنجليزِ عملاً مِصرياً، ويعملُ بأيدي ٱلمصريينَ عملاً آخر.

وتعلَّمَ ٱلشعبُ من دفْنِ شُهدائِهِ كيفَ يَستَنْبِتُ ٱلدمَ فيُنْبِتُ بِهِ ٱلحريَّة، وكيف يزرعُ ٱلدمعَ فيُخرِجُ منهُ ٱلعزْم، وكيف يستثمِرُ ٱلحزْنَ فيُثمرُ لَهُ ٱلمجد.

وكانَ رصاصُ ٱلإنجليزِ يُصيبُ هَدَفينِ معاً: فيصرعُ شهداءَنا، ويقتلُ ٱلموتَ ٱلسياسيَّ ٱلذي ٱحتلَّ مَعهم هذه البلاد. وقد أنعموا على ٱلشعبِ بِٱلصدمةِ ٱلأولى، فنَشبَتِ ٱلمعركةُ ٱلتي تُقاتلُ فيها ٱلأخلاقُ ٱلقوميَّةُ لِتنتصِرَ؛ وشعرَتْ مصرُ في جِهادِهَا بأنّها مِصرُ، فٱلتمسَ رُوحُها ٱلتاريخيُّ رمزَهُ ٱلعظيمَ في الأُمَّةِ لِيظهرَ فيهِ عاتياً جبَّاراً؛ فكانَ هذا ٱلرمزُ ٱلجليلُ ٱلعظيمُ هو سعد زغلول.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وكانَ ٱلطلبةُ قد غَدَوْا من أولِ ٱلنهارِ يتظاهَرونَ، وقد جعلَتْهُمُ ٱلثورةُ كٱلأرواحِ تخلَّصَتْ مِنَ ٱلموتِ بِٱلموتِ فلا تخشاهُ ولا تُباليه، واستقلَّتْ عنِ ٱلعقلِ بتحوُّلِها إلى شعورٍ مَحْض، وخرجَتْ عنِ ٱلقوانينِ كُلِّها إلّا ٱلقانونَ ٱلخفيَّ ٱلذي لا يُعلَمُ ما هو.

---

(١) الهزاهز: الثورات وعدم الاستقرار السياسي. (٢) تفاقمت: امتدّت وعظمت.

كانوا في معاني قلوبِهِم لا في غيرِها، فلسْتَ تراهم إلَّا عظماءَ فِي عظمةِ ٱلمبدأ ٱلذي ينتصرون لَه، أقوياءَ في قوَّةِ ٱلإيمانِ ٱلذي يعملونَ بِه، أجِلّاءَ في جلالِ ٱلوطَنِ ٱلذي يحيَوْنَ ويموتونَ في سبيلِهِ.

وكانوا في ٱلشعبِ هم خيالَ ٱلأُمَّةِ ٱلعاملَ ٱلمُدرك، وشعورَها ٱلحيَّ ٱلمتوثِّب، وقُواها ٱلبارزةَ من أعماقِها، وأملَها ٱلزاحفَ لِيَقهرَ ٱلصُّعوبة.

يُفَادُونَ بأنفسِهِمُ ٱلغاليةِ ويُؤْثِرونَ عليها، وليسَ في أحدٍ منهم ذاتُهُ ولا أغراضُ شخصِه. فما أجلَّ وما أعظَم! وما أروعَ وما أسمى! أيَّتُها ٱلحياة! هل فيكِ أشرفُ من هذه ٱلحقيقةِ إلَّا حقيقةَ ٱلنبوَّة؟

* * *

قال: وكانَ أخي هو زعيمَ هؤلاءِ ٱلطلبةِ في مدينتِنا؛ قويٌّ على ٱلزَّعامةِ وفيٌّ بها؛ يحملُ قلباً كٱلجمرةِ ٱلملتهبة، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ ٱلرعدَ يُقَعْقِعُ[1] بِه. إذا مشى في جِهادِهِ كانَ كلُّ ما على ٱلأرضِ تراباً تحتَ قدميه، فلا يمشي إلَّا مُحتقِراً هذه ٱلدنيا وما فيها، غيرَ مقدِّسٍ منها إلَّا دينَهُ ووطنَه؛ وسِلاحُهُ أنَّ كلَّ شيءٍ فيهِ هو سِلاحٌ على ٱلظلْمِ وضدُّ ٱلظلْم.

وكانَ في ذلك ٱليومِ يقودُ «ٱلمُظاهرة»، وحولَهُ جماعةٌ من خالِصَتِهِ وصَفْوةِ إخوانِهِ، يمشون في ٱلطليعةِ تحتَ جوٍّ متَّقِدٍ كأنَّ فيهِ غضبَ ٱلشباب، عنيفٌ كأنَّما ٱمتزج بِهِ ٱلسخطُ ٱلذي يفورون بِه، رهيبٌ كأنَّهُ مُتهيِّىءٌ لِينفجر؛ فلمَّا بلغوا موضعاً مِنَ ٱلطريقِ ينعطِفون عندَهُ ٱنصبَّ عليهمُ ٱلمدفعُ ٱلرشَّاش...

قال: فإنِّي لَجالسٌ بعدَ ذلك في ٱلديوانِ إذْ دخلَ عَلَيَّ أخي هذا ينتفِضُ غضباً كأَنَّ ٱلمعانيَ تنبعِثُ من جسدِهِ لِتقاتل، ورأيْتُ لَهُ عينينِ ينظرُ ٱلناظرُ فيهما إلى ٱلنارِ التي في قلبِه؛ فخشيْتُ أنْ يكونَ ٱلقومُ أطلقوا عليهمُ ٱلجنونَ وٱلرصاصَ معاً.

وٱستنْبأتُهُ[2] خبرَ أصحابِهِ فقال: إن الذين كانوا حَولَهُ وقعوا يتشَحَّطونَ[3] في دِمائِهِم، فوقفَ هو شاخصاً إليهم كأنَّهُ ميتٌ معهم، وقد أحسَّ كأنَّما خَلَعَ عن جسمِهِ نواميسَ ٱلطبيعة، فلا يعرفُ ما هي ٱلحياةُ ولا ما هوَ ٱلموت؛ وكانَ ٱلرصاصُ يتطايرُ من حولِهِ كأنَّ أرواحَ ٱلشهداءِ تتلقَّاهُ وتُبعثِرُهُ لا ينالُهُ بِسوء. قال: وما أنْسى لا

(١) يقعقع: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.
(٢) استنبأته: سألته عن أصحابه. (٣) يتشخطون: يتخبّطون بدمائهم.

أنسى ما رأيْتُهُ في تلكَ ٱلساعةِ بينَ ٱلدنيا والآخرة؛ فلقد رأيْتُ بعيني رأسي ٱلدمَ المِصريَّ يُسلِّمُ على ٱلدمِ ٱلمِصريِّ، ويسعى إليهِ فيُعانقُهُ عِناقَ الأحباب.

ثُمَّ قال: أينَ هذا الباشا؟ وما بالُهُ لم يصنعْ شيئاً في ٱلاحتياطِ لِهذِهِ ٱلفَوْرة؟ يَكادُ ٱلخزيُ - وٱللّهِ - يكونُ في هذه ٱلوظائفِ على مِقدارِ ٱلمرتَّب...

***

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ولم يُتمَّ كلمَتَه حتى خرجَ علينا ٱلباشا متكَسِّرَ ٱلوجهِ مِنَ ٱلحزنِ قد تغرغَرتْ عيناه، فأخذَ بيدِ أخي إلى غرفتِهِ وتبعْتُهما، ثُمَّ قال: هَوْناً ما يا بُنيَّ، إنَّ ٱلعِلَّةَ فيكم أنتم يا شبابَ ٱلأُمَّة، فكلُّ ما ٱبتُلينا أو نُبتلى بِهِ هو مِمَّا يستدعيهِ خمولُكم وتستوجبُهُ أخلاقُكمُ ٱلمتخاذِلة؛ إنّنا من غيرِكم كٱلمدافعِ ٱلفارغةِ من ذَخيرتِها: لا تَصلُحُ إلَّا شكلاً، وبهذِهِ ٱلعِلَّةِ كانَ عندَنا شكلُ ٱلحكومةِ لَا ٱلحكومة.

أتدري يا فتى ما هي ٱلحكومةُ ٱلصحيحةُ في مثلِ حالتِنا؟ هي أنْ تحكموا أنتم في ٱلشعبِ حُكومةَ أخلاقيَّةً نافِذةَ ٱلقانون، فتضْبِطوا أخلاقَ ٱلنساءِ وٱلرجال، وتردُّوها كلَّها أخلاقاً مُحاربةً لا تعرفُ إلَّا ٱلجِدَّ وٱلكرامةَ وصرامةَ ٱلحقِّ؛ وإلَّا فكما تكونونَ يُولّى عليكم...

هذا وحدَهُ هوَ ٱلذي يُعيدُ ٱلأجانبَ إلى رُشدِهم وإلى ٱلحقيقة، فما أراهم يُعاملونَنا إلَّا كأنَّنا ثيابٌ معلَّقةٌ ليسَ فيها لابسوها...

كيفَ يَتَصَعْلَكُ[1] ٱلمصريُّ لِلأجنبيِّ لو أنَّ في ٱلمِصريِّ حقيقةَ ٱلقوَّةِ ٱلنفسيَّة؟ أترى بارجةً حربيَّةً تتصعلكُ لِزورقِ صيدٍ جاءَ يرتزق؟

إنَّ في بلادِنا ٱلمِسكينةِ ٱلأجانب، وأموالَ ٱلأجانب، وغطرسةَ[2] ٱلأجانب؛ لا لِأنَّ فيها ٱلاحتلال، كلا، بلْ لِأنَّ فيها ضعفَ أهلِها، وغفلةَ أهلِها، وكرمَ أهلِها... بعضُ هذا يا بُنيَّ شبيهٌ ببعض، وإلَّا فما هو كَرمُ ٱلشاةِ ٱلضعيفةِ إلَّا لَذَّةُ لَحمِها...؟

نُريدُ لِهذا ٱلشعبِ طبيعةً جِدِّيَّةً صارِمةً، ينظرُ من خلالِها إلى ٱلحياةِ فيستشعرُ ذاتَهُ ٱلتاريخيَّةَ ٱلمجيدةَ فيعملُ في ٱلحياةِ بقوانينِها؛ وهذا شعورٌ لا تُحدثُهُ إلَّا طبيعةُ ٱلأخلاقِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلقويَّةِ ٱلتي لا تتساهلُ من ضعف، ولا تتسمَّحُ من كذب، ولا تترخَّصُ من غفلة. وٱلحقيقةُ في ٱلحياةِ كٱلحقيقةِ في ٱلمنطق: إذا لم يَصْدُقِ ٱلبرهانُ

---

(١) يتصعلك: يتصاغر.

(٢) غطرسة: تكبر وتجبر.

على كلِّ حالاتِها، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتِها؛ فإذا كنّا ضعفاءَ كُرماء، أعِزّاء، سادةً على ٱلتاريخِ ٱلقديم، فنحن ضعفاءُ فقط...

إنَّ ٱلكبراءَ في ٱلشرقِ كلِّه لا يصلحونَ إلّا لِلرأي، فلا تَسُوموهم غيرَ هذا، فهم قد تلقَّوا ٱلدرسَ من أغلاطِهِمُ ٱلكثيرة، وبهذا لَنْ تُفلحَ حُكومةٌ سِياسيَّةٌ في ٱلشرقِ ٱلناهضِ ما لم يكنْ شبابُها حُكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسِهِ ومنَ ٱلشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاقِ ٱلمحارِبة.

يا بُنيَّ، إنَّ القويَّ لوِ ٱتفقَ معَ ٱلضعيفِ على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر، لَكانَ معناها لِلأقوى أكثرَ مِمَّا هو لِلأضعف؛ فإنَّ هذا ٱلقويَّ ٱلذي يعملُ مَعَ ٱلضعيفِ يكونُ فيهِ دائماً شخصٌ آخرُ مختلف، هوَ ٱلقويُّ ٱلذي يعملُ معَ نفسِه.

هكذا هِيَ ٱلسياسة؛ أمَّا في ٱلإنسانيَّةِ فلا، إذْ يكونُ ٱلحقُّ دائماً بينَ ٱثنينِ أقوى مِنَ ٱلاثنين.

خضعَ يخضع...

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا فيما حدَّثني بِه: جاءَ ذاتَ يوم قنصلُ (الدولةِ الفلانيَّةِ) من هذه ٱلدولِ ٱلصغيرةِ؛ ٱلتي لو عَلِمَ ٱلذبابُ في بلَادِها أنَّ في مِصرَ ٱمتيازاتٍ أجنبيَّةً، لَطمِعَتْ كلُّ ذبابةٍ أنْ يكونَ لها في بلادِنَا ٱسمُ ٱلطيَّارةِ ٱلحربيَّة....

ورأيْتُهُ قد دخلَ عليَّ شامِخاً باذِخاً متجبِّراً، كأنَّهُ قبلَ أنْ يجيءَ إلى هذا ٱلديوانِ لِمقابلةِ ٱلحاكمِ ٱلمِصريّ ـ قد تكلم في (التلفونِ) معَ إسرافيلَ يأمرُهُ أنْ يكونَ مستعِدًّا لِلنَّفْخِ في ٱلصُّور....

جَنى صُعلوكٌ من رعَايا دولتِهِ على مِصريّ، فأُخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه، وقضَى ساعةً أو ساعتينِ بينَ أيدي ٱلمحققينَ يسألونَهُ ٱلأسئلةَ ٱلهيِّنَةَ ٱللَّيِّنَةَ ٱلتي تُحيطُ بتعريفِهِ من ظاهرِه، ولا يُشْبِهُهَا في سَخافةِ ٱلمعنى إلَّا أنْ يسألوهُ عن ثيابِهِ من أيّ مصنعٍ هي في أوربا.... فزعمَ ٱلقنصلُ أنَّهُ كانَ يجبُ أنْ يكونَ حاضراً يشهدُ ٱلتحقيقَ، لِأنَّ جِنايةَ أجنبيٍّ على مِصريٍّ تقعُ أجنبيَّة... فَلَها شأنٌ ورِعايةٌ وٱمتياز، وٱدّعى أنَّ ٱلمُحققينَ ضايقوا ٱلمجرمَ وعاسروهُ وتجهَّمُوهُ بِٱلكلام، ولِهذا جاءَ يحتجّ.

ورأيتُهُ جلسَ متوقِّراً كأنَّما يشعرُ في نفسِهِ أنَّه أثقلُ من مدفعٍ ضخْم، لِأنَّ في نفسِهِ وَهْمَ ٱلقوَّة؛ وخيِّلَ إِليَّ أنَّهُ يرى موضِعَهُ بينَ ٱلسقفِ وٱلأرض؛ إذْ يحملُ في رأسِهِ فكرَةَ أنَّهُ ٱلأعلى، وكانَتْ لَهُ هيئةٌ صريحةٌ في أنَّ ٱلأجنبيَّ ٱلمُقيمَ هنا ليسَ هو كلَّ ٱلأجنبي، بلْ لا تزالُ منهُ بقيَّةٌ تُتَمِّمُها دولتُه، وفي ٱلجملةِ كانَ ٱلرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطقُ بأنَّ لِلقانونِ ٱلمصريِّ قانوناً يحكمُهُ في بلادِهِ!

وأنا قد درسْتُ ٱلقانونَ ٱلدوليّ، وعرفْتُ ما هيَ ٱلامتيازاتُ وما أصلُها، وهي لا تعدو كرَمَ ٱلأرنبِ ٱلتي زعموا أنَّها كانَتْ تملِكُ حماراً تركبُهُ وترتَفِقُ به، فسألَتْها أرنبٌ أخرى أنْ تُرْدِفَها خلفَها، فلمَّا ٱندفعَ بهما ٱلحمارُ ٱستوطَأتْه، فقالَتْ لِصاحبتِهِ: يا أختي، ما أفْرَهَ حِمارَك! ثُمَّ سكتَتْ مدةً وأعجبَها ٱلحمارُ فقالَتْ: يا أختي، ما أفرَهَ حمارَنا!...

وكنّا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ مِنَ ٱلضعفِ وٱلغفْلةِ؛ بحيثُ لم نبلغْ مبلغَ ٱلأرنبِ في حِكمتِها وتدبيرِها وحذرِها، فإنَّها أسرَعتْ ودفَعتْ صاحبتَها وقالَتْ لها: اِنزلي ـ ويلكِ ـ قبلَ أنْ تقولي: ما أفرَهَ حِماري.

قال: غيرَ أنِّي في تلك الساعةِ نسيْتُ ٱلقانونَ ٱلدوليَّ وكنْتُ في إلهام مِصريَّتي وحدَها، فظهَر لي ظهوراً بيِّناً أنْ لا شيءَ ٱسمُهُ ٱلقانونُ ٱلحقُّ في هذه ٱلدنيا؛ ولكنَّ هناك ٱتفاقاً بينَ كلِّ خضوعٍ وكلِّ تسلط، هو قانونُ هاتينِ ٱلحالتينِ بخصوصِهما.

وأسرعْتُ إلى ٱلباشا فأَنبأْتُهُ، وأسرعَ ٱلباشا فغيَّرَ وجههَ، وتبسَّط، وتهلَّل، وتهيَّأَ بهذا لاستقبالِ ٱلقادمِ ٱلعزيز، كأنَّهُ أخصُّ محبيهِ يتطلَّعُ إلى مؤانَسَتِهِ، وقد جاءَ يزورُهُ في دارِه. ثُمَّ دخلَ ٱلقنصلُ، ولم أسمعْ مِمَّا دارَ بينَهما إلَّا الكلمةَ ٱلأولى، وهي قولُ ٱلباشاَ: لْنبدأْ يا سيدي مِنَ ٱلآخر...

* * *

وكانَتْ في ٱلباشا موهِبةٌ عجيبةٌ في ٱختلابِ[1] ٱلأجانبِ خاصَّة، يُديرُهم بلَبَاقةٍ كٱلخاتم في إصبعهِ؛ حتى قالَ لي أحدُهم: إنَّ لِهذا الباشا حاسَّةً زائدةً، لو سُمِّيَتْ حاسة ٱلإرضاءِ لَكَانَ هذا ٱسمَها ٱلطبيعيَّ، وإنَّهُ يعملُ بِها كما يعملُ ٱلمُفكِّرُ بِتفكيرِهِ؛ فهو يبتكرُ ٱلأساليبَ ٱلغربيَّةَ ٱلتي يصعَدُ ويَهبِطُ بها ميزانُ ٱلحرارةِ ٱلنفسيَّةَ، وإنَّ جليسَهُ يكادُ يشعُر من مَهارتِهِ في ٱلتمثيلِ أنَّ في جوِّ ٱلمكانِ سِتاراً يُرفعُ وستاراً يُسْدَلُ بينَ ٱلفصول.

فما لبِثَ ٱلقنصلُ أنْ خرجَ بغيرِ ٱلوجهِ ٱلذي دخلَ بهِ، ولكنَّهُ عَبَسَ في وجهي أنا وتَكرَّهُ لي كأنَّهُ أصْغَرَ شأني؛ فٱزدرتْني عينُه، فوثَبتْ إلى رأسِهِ فكرةُ ٱلأمتيازات.

وهذه ٱلقوةُ ٱلظالمةُ (الامتيازات)؛ لو أنَّها كانَتْ قوّةً قاهِرةً نافذة، وأُعينَ بها طُفيْليٌّ لِيقتحمَ دُورَ ٱلناسِ آمناً مطمئنًا ـ لاستحى هذا ٱلطفيْليُّ أنْ يأكلَ بها؛ إذْ تجمعُ عليهِ ٱلتطفلَ وٱلمَقْتَ[2] معاً، ولو قِيلَ لِحُسام بتَّار: إنَّ لك ٱمتيازاً على بعضِ ٱلسيوفِ أَلَّا تقارِعَك[3]، وإنَّكَ محميٌّ أنْ تنالَك سَطْوتُها إذا قارعْتَها[4] ـ لأَنِفَ أنْ يسمَّى سيفاً بهذا أو بمثلِ هذا، فإنَّ ٱلقوَّةَ ٱلظالِمَةَ ٱلتي يُعِيرُونَهُ إيَّاها، ليسَتْ إلَّا مَهانةً لِشرفِ ٱلقوَّةِ ٱلعادلةِ ٱلتي هي فيه.

---

(١) اختلاب: خداع.
(٢) المقت: الكراهة.
(٣) تقارعك: تقاتلك.
(٤) قارعتها: غالبتها.

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ووصفْتُ لِلباشا هيئةَ ٱلقنصلِ ٱلتي ٱنصرفَ بها، وتقطيبَهُ في وجهي، وقلْتُ لَهُ: إنَّ ٱلذبابةَ وقعَتْ في صَحْفتيَ أنا من هذه ٱلوليمة... فضحكَ بملءِ فيه، ثُمَّ قال:

ستبطلُ هذهِ ٱلامتيازات، وليسَ بينَنا وبينَ نِهايتها إلَّا أنْ ينتهيَ ٱلشعبُ إلى حقيقتِهِ ٱلقوميَّة، فما تركُها في مكانَتِها إلَّا نزولُ ٱلشَّعْبِ عن مكانتِه، وتاَللَّهِ لَكأنَّ هؤلاءِ ٱلأجانبَ يسألوننا بهذِهِ ٱلامتيازات: أين مكانُكم في بلادِكم...؟

أتدري ما قالَهُ هذا ٱلقنصلُ حينَ تجَاذَبْنا الحديثَ[1] فيها، بعدَ أنْ وضعْتُ نفسي منه في موضعِ ٱلمحامي ٱلذي يخذلُهُ[2] ٱلدليلُ، فيحاولُ أنْ يستنزلَ كرمَ ٱلقضاةِ بعَرْضِ بؤسِ ٱلمتَّهمِ على شفقتِهِم، لِيستعطِفَ ٱلقانونُ ٱلذي في أيديهم بِٱلقانونِ ٱلذي في أنفسِهم؟

إنَّهُ قال: لا يلومَنَّ ٱلشرقيونَ إلَّا أنفسَهم، فهم علَّموا ٱلأجانبَ أنَّ نتفَ ريشِ ٱلطيرِ أولُ أكلِه. وهذِه ٱلامتيازاتُ إنْ هيَ إلَّا مُعاملةٌ بينَنا وبينَ طبيعةِ ٱلخضوعِ في ٱلشعب. نعم إنَّها مَضَرَّةٌ ومَعَرَّةٌ، وظلمٌ وقسوة؛ ولكنَّها على ذلك طبيعيَّةٌ في ٱلطبيعة؛ فما دامَ هذا ٱلشعبُ ليِّنَ ٱلمأخذِ، فإِنَّ هذا يُوجدُ لَهُ من يأخذُه؛ وما دامتِ ٱلكلمةُ ٱلأولى في مُعْجَمِ لُغتِهِ ٱلسياسيَّةِ هي مادةَ (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه ٱلكلمةُ تحملُ في معناها ٱلواحدِ ألفَ معنًى، منها: ظلَمَ يظلِم، ورَكِبَ يركَب، ومَلَكَ يملِك، وٱستبدَّ يستبِدُّ، ودجَّل يُدجِّل، وخَدَعَ يخدَع؛ فهل يكثُر أنْ يكونَ منها للأجانبِ ٱمتازَ يمتاز؟

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ثم زمَّ ٱلباشا فمَهُ وسكت: ففهمْتُ ٱلكلماتِ ٱلتي ٱنطبقَ فمُهُ عليها وإنْ لم يتكلَّمْ بها، ثُمَّ غلبَهُ ٱلضحكُ فقال: ـ واللَّهِ ـ يا بنيَّ لو أنَّ بَرْغوثاً طَمَرَ من ثوبِ صُعلوكٍ أجنبيٍّ، فوقعَ في ثوبِ صعلوكٍ وطنيّ، فتقاتَلَا فقُبِضَ عليهما، فأخِذا ـ لَمَا رضِيَ بُرغوثُ ٱلأجنبيِّ أنْ يُحاكَمَ إلَّا في ٱلمحاكِمِ ٱلمختلطة...

ثُمَّ سكَتَ ٱلباشا مرةً أخرى كأنَّهُ يقولُ كلاماً آخرَ لا يجوزُ نشرُهُ، ثُمَّ قال: يا بُنيَّ، إنَّ ٱلأجانبَ لا يضعونَ ٱلحِملَ إلَّا على مَنْ يحمل؛ فإذا نحن توخَّينا مُرادَهم

---

(١) تجاذبنا الحديث: تداولناه.
(٢) يخذله: يعوزه.

أرادوا لِأنفسِهِم لا لنا؛ وإذا وافَقْنا لهم غرضاً جعلوه كٱلدينارِ فيهِ مائَةُ قرش، وأبَوْا إلَّا أنْ نُصَارِفَهم عليهِ بمائة. هم - ويحَكَ - يمتازون في معامَلتِنا لا في سطورِ ٱلقوانينِ وٱلمعاهدات، فلْنُبْطِلْ هذه ٱلمعاملةَ يَبْطُلْ هذا ٱلامتياز.

إنَّ ٱلحقَّ يا بُنيَّ ٱستحقاقٌ لا دعوى؛ وهذا ٱلتنازعُ على ٱلحياةِ يجعلُ وسائلَهُ ٱلطبيعيَّةَ ٱلانتزاعَ وٱلمُطالبةَ وٱلتجرّدَ لَهُ وٱلدأْبَ فيهِ وٱلإصرارَ عليه. وكلُّ ٱلأقوياءِ يعلمون أنَّ موضِعَ ٱلاعتدالِ بينَ غَصْبِ ٱلحقِّ وبينَ ٱستردادِهِ موضعٌ لا مكانَ لَهُ في ٱلطبيعة: وٱلأجنبيُّ يعتمدُ علينا نحن في جعلِهِ أكبرَ مِنّا وأوفرَ حُرمة؛ فإذا أسْقطَ ٱلشعبُ هذه ٱلامتيازاتِ من فكرِهِ، وروحِهِ وأعصابه، وثارَتْ فيهِ كبرياءُ ٱلوطنيَّةِ فٱستنكَفَ مِنَ ٱلاستخذاء، ونفرَ مِنَ ٱلاختضاع، وأبى إلَّا أن يُعلِنَ كرامته، وصرفَ ٱهتمامَهُ إلى حقوقِ هذه ٱلكرامة، وأصرَّ ألَّا يُعامِلَ أجنبيًّا يرى لِنفسِهِ ٱمتيازاً على وطنيّ، وقرَر ذلك في نفسِه، ومكّنهُ في رُوعِه، وأجمعَ عليهِ إجماعَهُ على ٱلدين - إذا جاءَتْ (إذا) هذه بشَرْطِها مِنَ ٱلشعب، جاءَ جوابُ ٱلشرْطِ مِنَ ٱلأجانبِ بنزولِهِم عنِ ٱلامتيازاتِ وٱنحلّتِ ٱلمشكلة. إنّنا يا بُنيَّ لا نملِكُ ضغطَ ٱلسياسة، ولكنّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ ٱلحياة.

لهُمُ ٱلامتيازُ بأنّهم أجانبُ عنّا، فلْيكُنْ لنا ٱلامتيازُ ٱلآخرُ بأنّنا أجانبُ عنهم في ٱلمعاملة، مِثْلاً بمِثْل، وما يَفَلُّ ٱلحديدَ إلّا ٱلحديد.

يقولون: النظامُ ٱلاقتصاديُّ وٱلمالُ ٱلأجنبيّ. ولكنْ أرأيْتَ ٱلمالَ في يدِ ٱلأجنبيِّ إلّا مالاً وتدبيراً وسُلْطةً وسِيادة، من أنَّهُ في يدِ ٱلوطنيِّ دَينٌ وإسرافٌ ورِقٌّ وذل؟

لم يظهرْ لي إلّا ٱلساعةَ أنَّ من حِكمةِ تحريمِ ٱلربا في شريعتِنا ٱلإسلاميَّة، وقايةَ ٱلأُمَّةِ كلِّها في ثروتِها وضياعِها ومُستغَلّاتِها، وحِمايةَ ٱلشعبِ وملوكِهِ مِنَ ٱلإسرافِ وٱلتخرُّقِ وٱلكرمِ ٱلكاذبِ، وردَّ ٱلاستعمارِ ٱلاقتصاديّ، وشلَّ ٱلنفوذِ ٱلأجنبيّ.

أمَا لو أنّنا كتبْنَا مِنَ ٱلأولِ على أبوابِ «البنك العقاري» وأبوابِ ذرّيتِه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فهلْ كانَتْ تُقرأُ هذهِ ٱلكلماتُ ٱلثلاثُ على أبوابِ تلك البنوكِ الأجنبيةِ إلا هكذا: «محالٌ خاليةٌ لِلإيجار». . . . ؟

فلْنتعصبْ...!

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَني يوماً صَحَفِيٌّ إنجليزيٌّ من هؤلاءِ ٱلكُتَّابِ ٱلمتعصّبينَ ٱلذين تُطلقُهم إنجلترا كما تُطلقَ مدافعَها؛ غيرَ أنَّ هذه لِلبارودِ وٱلرصاصِ وٱلقنابل وأولئك لِلكَذِبِ وٱلتُّهمِ وٱلمُغالطَات.

وهو أُذُنٌ وعينٌ[1] ولِسانٌ وقَلَمٌ لِجريدةٍ إنجليزيَّةٍ كبيرة، معروفةٍ بثِقَلِ وطأتِها على ٱلشرقِ وٱلإسلام؛ تُصْلِحُ بإفساد، وتُداوِي ٱلحُمَّى بِٱلطاعون، وتعملُ في نهضةِ ٱلشرقيِّينَ وٱستقلالِهم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ ٱلأمِّ وهو في شفتَيْ رضيعِها ٱلمسكين.

ودخلَ عليَّ هذا ٱلكاتبُ في ٱلساعةِ ٱلتي خرجَ فيها من غرفتي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مدينتِنا؛ كانَ قد نفخَ ٱلضِّفْدعَ لِيجعلَها ثوْراً، فحوَّلَ صحيفتَهُ إلى جريدةٍ يوميَّة، وهو لا يجدُ مادتَها ولا يستطيعُ أسبابَها، إلَّا أنَّهُ كدأْبِ[2] ٱلناسِ عندَنا كانَ يحسبُ ٱلكذِبَ في ٱلعملِ سَهْلاً مَهْلاً[3] كٱلكذبِ في ٱلقوْل، فلمْ يَتَعاظمْهُ ٱلأمرُ ٱلعظيم، وٱقترضَ لِعملِهِ كلَّ ألفاظِ ٱلنجاحِ مِنَ اللغة...

وظنَّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ سيُخَوِّفُ بجريدتِهِ ٱلكُبراءَ وٱلأعيانَ وٱلمياسيرَ حتى يَغْلِبَ على جميعِهم، ويُشْرِكَ أصابعَهُ معَ أصابِعِهم في ٱستخراجِ ما يحتاجُ إليهِ من جُيوبِهم؛ فلم تعِشْ جريدتُهُ إلَّا أيَّاماً وأتلفَ ما جمع، ورهنَ فيها دارَهُ ٱلتي لا يملِكُ غيرَها؛ وعَلِمَ آخراً أنَّ الذي يكذبُ فيسمِّي ٱلخروفَ جملاً، لا يُقبَلُ منه أنْ يكذبَ على ٱلكذبِ نفسِه، فيزعمَ أنَّ الناقةَ هي ٱلتي نَتَجَتْ هذا ٱلخروف...

ولمَّا ٱنقلبَتْ هذه ٱلجريدةُ يوميَّةً كانَ ٱلباشا هو ملجأَ ٱلرجلِ وَوَزَره، وكانَ لِكلِّ يوم في ٱلجريدةِ أخبارٌ عنِ ٱلباشا لا تقعُ في ٱلدنيا ولا تُجمعُ مِنَ ٱلحوادث، ولكنْ تقَعُ في ذِهْنِ ٱلكاتب، وتُجمعُ من صناديقِ ٱلحروف؛ حتى قالَ ليَ ٱلباشا مرة: إنَّ ٱسمي قد أصبحَ موظَّفاً في هذه ٱلجريدةِ لِجمعِ ٱلاشتراك...

---

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) دأب، بسكون الهمزة: العادة.

(٣) هذا من الاتباع بلغة العرب.

وتحرَّى هذا الصحَفيُّ أنْ يستأذِنَ يوماً على ٱلباشا وفي مجلسِهِ حَشْدٌ عظيمٌ مِنَ ٱلسَّراةِ وٱلأعيانِ وٱلعُمَد، وكانَ جَمَعَهم لِأمر، فما هو إلَّا أنْ دخلَ ٱلصَحفيُّ حتى ٱبتدَرَهُ ٱلباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافاتُ أوربا عنِ ٱلحوادثِ ٱلتي ستقعُ غداً. . .؟

فضجَّ ٱلمجلسُ بٱلضحك، وفقدَ ٱلمسكينُ بهذِهِ ٱلنكتةِ أربعينَ ديناراً كانَ يؤَمِّلُ أنْ يخرجُ بها، وأعلنَ ٱلباشا في أظرفِ إعلانٍ وأبلغِهِ كذِبَ ٱلرجلِ ونِفاقَهُ وإسفافَه، وأنّه من رجالِ ٱلصحافةِ ٱلمدوَّرَةِ تدويرَ ٱلرغيف. . .

* * *

قال: ونظرْتُ إلى الصحفيِّ ٱلإنجليزيِّ نظرةً أكْشِفُهُ بها، فإذا أولُ ٱلفرقِ بينَه وبينَ أمثالِهِ عندَنا ـ شعورُهُ أنَّ بلادَهُ قد ربَّتْهُ (لِلخارج)، فهو عندَ نفسِهِ كأنَّهُ إنجليزيٌّ مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسُهُ بعِزَّةِ ٱلمالكِ وقوَّةِ ٱلمستعمرِ، فلا يكونُ حيثُ يكونُ إلَّا في صراحةِ ٱلأمرِ ٱلنافذِ، أو غموضِ ٱلحيلةِ ٱلمبهَمة؛ ويستحكمُ بهذا وذاكَ طبعُهُ ٱلعمليُّ، فهو بغريزتِهِ مُقاتِلٌ من مقاتلةِ ٱلفكر، يلتمسُ مَيدَانَهُ بينَ القوى ٱلمتضاربةِ لا يُبالي أنْ يكونَ فيهِ ٱلموتُ ما دامَ فيهِ ٱلعمل؛ وبهذا كلِّهِ تراهُ نافذَ ٱلبصيرةِ قائماً على سَواءِ ٱلطريقِ، لِأنَّ ٱلإنجليزيَّ ٱلباطنَ فيهِ يُوجِّهُ ٱلإنجليزيَّ ٱلظاهرَ منهُ ويُسَانِدُهُ؛ وفي أعماقِ ٱلاثنينِ تجدُ إنجلترا، وليسَ غيرَ إنجلترا.

ثُمَّ تفرَّسْتُ في ٱلرجلِ أُريدُ كُنْهَهُ[1] وحقيقتَه، فإذا لَهُ نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلَةٌ معاً، كغُرَفِ ٱلدار: ٱلواحدةِ يُفتحُ بعضُها لِمَا فيهِ كيما يُرى، ويُقْفَلُ بعضُها على ما فيهِ كيلا يُرى.

ولَهُ وجهٌ عمليٌّ يكادُ يُحاسِبُكَ على نظراتِكَ إليه؛ تدورُ في هذا ٱلوجهِ عينانِ قدِ ٱعتادتا وزْنَ ٱلأشياءِ وٱلمعاني؛ يتلألأُ في هاتينِ ٱلعينينِ شُعاعُ ٱلنفسِ ٱلقويَّةِ ٱلممرَّنةِ، قد نَفَتِ ٱلثقةُ بها نصفَ همومِ ٱلحياةِ عن صاحبِها، تُمِدُّ هذه ٱلنفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأنَّ أكبرَ سرورِها في أعمالِها، فواجبُها في ٱلحياةِ أنْ تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها وكلَّ ما يحسُنُ منها.

لقد خُيِّل إلي، وأنا أنظرُ إلى نفسيَّةِ هذا ٱلإنجليزيِّ أنَّ كلمةَ ٱلخيْبَةِ عندَ هؤلاءِ ٱلإنجليزِ غيرُ كلمةِ ٱلخيبةِ عندَنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ، فإنَّ خيبةَ ٱلنفسِ لا تَتِمُّ معانيها

---

(١) كنهه: سرّه وكونه.

أبداً في ٱلنفسِ ٱلعاملةِ ٱلدائبةِ، التي يُشعرُها ٱلواجبُ أنَّهُ شيءٌ إلهيٌّ لا يَخيب، وأنَّ ما يُرْفضُ على هذه ٱلأرضِ مِنَ ٱلعملِ ٱلطيِّبِ لا يُرفضُ في ٱلسماء.

وكأنَّ ٱلرجلَ قد أدركَ غرضي بملَكَتِهِ ٱلصحافيَّةِ ٱلدقيقة، فأجابَني عنِ ٱلسؤالِ ٱلذي لم أسأله، وقالَ لي مبتدئاً: إنَّ أساسَنا ٱلشخصيَّةُ وحاسةُ ٱلواجب؛ وإنَّ فيكم أنتم كلَّ شيءٍ إلَّا هذين؛ فأخلاقُنا تَظهرُ دائماً في ٱلعمل، وأخلاقُكم تظهرُ دائماً في ٱلكلامِ ٱلفارغ؛ ونحن نطلبُ ٱلحقيقة، وأنتم تطلبونَ ٱلألفاظ، حتى إنَّهُ لو خَسِرَ ٱلمِصريُّ ألفَ دينار، ثُمَّ أعلنَ أنها مائةٌ فقط، وصدَّق ٱلناسُ أنَّها مائة؛ لَكانَ عندَ نفسِهِ كأنَّهُ ربحَ تسعَمائة...

❋ ❋ ❋

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱستأذنْتُ لَهُ على ٱلباشا فسهَّلَ ورحَّب؛ ثُمَّ هممْتُ بٱلانصرافِ عنهما، ولكنّ ٱلإنجليزيَّ قال: يا باشا! إنَّهُ قد تمكنَ في رُوعي أنَّ صاحبَ سِرِّكَ هذا متعصبٌ دينيّ، وقد علمْتُ أنَّهُ ٱبنُ فلان ٱلقاضي ٱلشرعيّ، فطربوشُهُ ٱبنُ ٱلعِمامة؛ ولقد كانَ ينظرُ إليَّ، وكأنَّهُ يتأمّلُ من أين يذبحُني...

فضحِكَ ٱلباشا وقالَ لي: يا فلانُ إنَّ هذا ٱلكاتبَ مِنْ تلاميذِ برناردشو، فهو كأستاذِهِ يجعلُ لِكلِّ حقيقةٍ ذَنباً كذيلِ ٱلهرّ، ثُمَّ يُمسكُها منهُ فإذا هي تَعَضُّ وتتلوَّى...

وٱلتفتَ بعدَ ذلك إلى ٱلإنجليزيِّ ثُمَّ قالَ لَهُ: جاءَني كتابُك فإذا كنْتَ تُريدُ رأيي فيما تُسميهِ ٱلتعصبَ ٱلدينيَّ عندَ ٱلمسلمين، فعجيبٌ أنْ تضعوا أنتم ٱلغلطةَ ثُمَّ تسألونا نحن فيها! إنَّكَ لتعلمُ أنَّ هذا ٱلتعصبَ ٱلكذِبَ ٱلذي أكثرْتمُ ٱلكلامَ فيهِ، إنَّما هو لفظٌ مِنْ ألفاظِ ٱلسياسةِ الأوربيَّة، أرسلتُموهُ إلينا لِيقاتِلَ لفظَ ٱلتعصبِ ٱلحقيقيّ؛ ومن قبلِ هذا ٱخترعتُم لفظة (الأقليّات)، وأجريْتُموها في لُغتِكُمُ ٱلسياسية، لِتجعلوا بها لِتعصُّبِنا ٱلوطنيِّ شكلاً آخرَ غيرَ شكلِهِ فتُفسدوهُ علينا بهذه ٱلمادَّةِ ٱلمُفسدة؛ وبذلك تَضربون ٱليدَ ٱليمنى من غيرِ أنْ تلمسوها، إذْ تضربونَها بشلِّ ٱليدِ ٱليسرى.

إنَّ الإسلامَ في نفسِهِ عدوٌّ شديدٌ على التعصبِ ٱلذي تفهمونَه، فهو يقول لِأهلِهِ في كتابِهِ العزيز: ﴿كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

فإذا كانَ ٱلعدلُ في هذا الدينِ عدْلاً صارِماً، وحقًّا محْضاً لا يُميِّزُ بشيءٍ ٱلبتَّة،

لا ذاتَ ٱلنفسِ ٱلتي فيها ٱشتهاءُ ٱلدم، ولا أصلَها مِنَ ٱلأبوينِ ٱللذينِ جاءَتْ منهما وِراثةُ ٱلدم، ولا أطرافَها مِنَ الأقربينَ ٱلذين يلتفُّونَ حولَ نَسَبِ ٱلدمِ ـ إذا كان هذا، فأينَ في هذا ٱلعدلِ محلُّ ٱلظلْم؟

لعلَّكَ تُشيرُ إلى هذِهِ ٱلرُّعونةِ ٱلتي تعرفُها في ٱلأغمارِ وٱلأغفالِ مِنَ ٱلعامَّة، فهذِهِ ليسَتْ من أثرِ ٱلدين، بلْ هي أثرُ ٱلجهلِ بِٱلدين؛ إنَّ هذا ليسَ تعصُّباً، بلْ هو معنًى من معاني ٱلحَمِيَّةِ ٱلنفسيَّةِ ٱلخَرقاءِ لم تجدوا أنتم لَهُ لفظاً، وكانَ أقربَ ٱلألفاظِ إليهِ عندكم هوَ ٱلتعصبُ، فأطلقْتُمُوهُ عليهِ لِلمعنى الذي في نفسِهِ وٱلمعنى ٱلذي في أنفسِكم. ألا فٱعلمْ أنّ إسلامَ ٱلعامَّةِ ٱليومَ هو كٱلدعوى ٱلمقبولةِ شكلاً وٱلمرفوضةِ بعدَ ذلك.

قالَ ٱلإنجليزيُّ: ولكنَّ لِهؤلاءِ ٱلعامَّةِ علماءَ دينينَ يُدبّرونهم من ورائِهم. وهم عندَكم ورثَةُ النبيّ ﷺ أي منبعُ ٱلفكرةِ وقوتُها.

قالَ ٱلباشا: غيرَ أنّ هؤلاءِ قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ[1] فيهم عِرْقٌ من تلك ٱلوراثة، وذلك هو ٱلذي بلغَ بنا ما ترى؛ فالقومُ إلّا قليلاً منهم كٱلأسلاكِ ٱلكهربائيَّةِ ٱلمعطَّلَة: لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب؛ ولو أنَّ هؤلاءِ ٱلعلماءَ كانَتْ فيهم كهرباءُ ٱلنُّبّوة، لَكَهْرَبوا ٱلأممَ ٱلإسلاميَّةَ في أقطارِها ٱلمختلِفة. إذن لَقامَ في وجهِ ٱلاستعمارِ ٱلأوربيِّ أربعمائةِ مليونِ مسلم جَلْدٍ[2] صارم شديدٍ، متظاهرينَ متعاونينَ، قد أعدُّوا كلَّ ما ٱستطاعوا من قوةِ ٱلعِلْم، وقوةِ ٱلنفس، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرينِ لَردموا ٱلبحرِ.

أتُريدُ معنى ٱلتعصُّبِ في ٱلإسلام؟ إنَّهُ بعينِهِ كتعصُّبِ كلِّ إنجليزيٍّ لِلأُسطولِ؛ فهو تَشَابُكُ ٱلمسلمينَ في أرجاءِ ٱلأرضِ قاطبةً، وأخذُهم بأسبابِ ٱلقوَّةِ إلى آخرِ ٱلاستطاعة، لدفعِ ظُلْمِ ٱلقوَّةِ بآخرِ ما في ٱلاستطاعة.

وهو بذلك يعملُ عملين: ٱستكمالُ ٱلوجودِ ٱلإسلاميِّ، وٱلدفاعُ عن كمالِه.

وإذا أنت ترجمْتَ هذا إلى معناهُ ٱلسياسيّ، كانَ معناهُ إصرارَ جميعِ ٱلمسلمينَ على نوعِ ٱلحياةِ وكرامتِها، لا على ٱستمرارِ ٱلحياةِ ووجودِها فقط. وذلك هو مبدؤكُم أنتم أيُّها ٱلإنجليز: لا تقبلون إلّا حياةَ ٱلسيادةِ وٱلحكمِ وٱلحريَّةِ، فأنتم مسلمون في هذا ٱلمبدأ لو عَدَلْتم.

---

(١) يندسّ: يدخل في السرّ.

(٢) جلْد، بسكون اللام: صبور في القتال.

أليسَ مِنَ ٱلبلاءِ أنَّ ٱلمسلمين ٱليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعضٍ إلَّا على ٱلخريطة. . . مَعَ أنَّ ٱلحجَّ لم يُشرَعْ في دينِهم إلَّا لِتعوديِهم دراسةَ ٱلأرضِ في ٱلأرضِ نفسِها لا في ٱلورق، ثُمَّ لِيكونَ من مبادئِهمُ ٱلعمليَّةِ أنّ ٱلعالَمَ مفتوحٌ لا مقفل؟

إنَّ ٱلتعصبَ في حقيقتِهِ هو إعلانُ ٱلأُمَّةِ أنَّها في طاعةِ ٱلشريعةِ ٱلكاملة، وأنَّ لَهَا ٱلروحَ ٱلحادَّةَ لا ٱلبليدة، وأنَّ أساسَها في ٱلسياسةِ ٱلاحترامُ ٱلذاتيُّ لا تقبَلُ غيرَهُ، وأنّ أفكارَها ٱلاجتماعيَّةَ حقائقُ ثابتةٌ لا أشكالٌ نظريَّة، وأنَّ مبدأَها هوَ ٱلحقُّ ولا شيءَ غيرُ ٱلحقّ، وأنَّ قاعدتَها «لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا ٱهتَديتُم». فٱلهِدايةُ أولاً وٱلهِدايةُ آخِراً: الهِدايةُ في ٱلقوَّة، وٱلهِدايةُ في ٱلسياسة، وٱلهِدايةُ في ٱلاجتماع. فقلْ لي بحياتِك وحياةِ إنجلترا: أيُعابُ ذلك على ٱلمسلمينَ إلَّا بالألفاظِ ٱلتي يَعيبُ ٱللصُّ بها أهلَ ٱلدارِ لِأنَّهم يُحْكمونَ في وجهِهِ إقفالَ ٱلباب. . .؟

قالَ: فوَجَم ٱلإنجليزيُّ حتى ذُهِلَ عن نفسِهِ وصاح:

إذا كانَ هذا فلْنتعصَّبْ، فلْنتعصَّبْ.

وزْنُ ٱلماضي

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: إنِّي لَجالسٌ ذاتَ يوم وفي يدي كتابٌ لِبعضِ ٱلمتفلسفةِ من مَلَاحِدَةِ أوربا الذين يُريدون أنْ يفهموا ما لا يُفهم؛ وكانَ ٱلباشا قد رآني مرةً أنظرُ فيهِ وأتدبَّرُ مسائلَهُ ٱلغامضة، فقالَ لي: يا بُنيَّ، إنَّ أحدَ ٱلكلابِ كانَ شاعراً فيلسوفاً، فنظرَ ليلةً في ٱلنجوم فراعَتْهُ وحيَّرَته؛ فآلى أنْ يفهمَهَا بعقلِهِ وتفرَّغَ لِدرسِها مدةً طويلة، ثُمَّ وَضَعَ فيها كتاباً نفيساً ضخْماً، كانَ أعظمَ كتبِ ٱلفلسفةِ وأشدَّها غموضاً عندَ ٱلكلاب، وكانَ ٱسمُه: العظامُ ٱلمبعْثَرةُ فوقَنا.

قال: فأنا جالسٌ أقرأُ هذا ٱلكلامَ ٱلذي لا صحيحَ فيهِ إلَّا أنَّهُ غيرُ صحيح. إذْ دخلَ عليَّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاءِ ٱلمدخُولين في عقولِهم، ٱلمفتونين بأوربا ومذاهِبها وعُلْويَّاتِها وسُفْليَّاتها... وهو يكتبُ في ٱلصحفُ، ويُؤلِّفُ ٱلرسائل، وقد جاءَ يَسْتَصْرِخُ ٱلباشا على فلَّاح شاركَهُ في زراعةِ أرضِه، فزرعَهُ ٱلفلاحُ فيها وحَصَدُهُ، ودَهاهُ بكَيدِهِ، وٱبتلاهُ بغِلْظَتِه، وتهدَّدُهُ بالنِّقمة.

وكانَ هذا الفلاحُ ٱلساذَجُ ٱلغريرُ قد سبقَهُ إليَّ وعرَّفَهُ لي تعريفاً قاموسيًّا محيطاً من مادةِ كَفَر يكْفُر... ثُمَّ قالَ بعد ذلك: إنَّهُ (بيَّاع كلام) يُصْدُق ويكْذِبُ حسبَ ٱلطلب.. وٱلذِّمةُ نفسُها ليسَتْ عندَهُ إلَّا (عمليةً حسابيَّة)؛ وهو في أقوى جهاتِهِ لا ينفعُ ٱلدنيا بما تنفعُها بِهِ ٱلبهيِّمةُ من أضعفِ جِهاتِها.

أمَّا ٱلكاتبُ فيقولُ عن هذا ٱلفلاح: إنَّهُ لا يدري أهو يُتمُّ بهائمَهُ أم بهائمُهُ هي ٱلتي تُتِمُّهُ، وإنَّ ٱلذي يرفعُ ٱلقضيَّةَ على مثلِ هذا ٱلمخلوقِ إلى محكمةٍ لا يكونُ إلَّا كٱلذي يُقْعْقِعُ بٱلعصا على جُحْرٍ فيهِ ٱلحيَّةُ ٱلسامَّة.

ورأى ٱلمتفلسفُ ٱلكتابَ على يدي، فتهلَّلَ وٱستبشرَ وقالَ لي: هذا نَسَبٌ بينَنَا... فأدركْتُ من كلمتِهِ هذه جملتَهُ وتفصيلَه، وخُيِّلَ إليَّ أنِّي أرى فيهِ نفسَهُ ٱلشرقيَّةَ كٱلمرأةِ ٱلمطلَّقة... فقلْتُ لَه: أنا ٱشتريْتُ هذا ٱلكتابَ من أوربا، ولكنِّي لم أشترِ منها دِماغي.

وكلَّمْتُهُ أَستخرجُ ما عندَه؛ فإذا هو في قومِهِ وتاريخِ قومِهِ كالسائحِ في بلادٍ أجنبيَّة: يفتحُ لها عينَهُ ولا يفتحُ لها قلبَه.

* * *

وكانَ جريئاً في كلامِهِ مَع الباشا: يَطْرُدُ القولَ حيثُ شاءَ حقًّا وباطلاً، ثُمَّ لاسِنادَ لِرأيهِ ولا تثبيتَ لِحُجَّتِهِ إلَّا قولُ فُلانٍ ورأيُ فلان، كأنَّ في رأسِهِ عقلاً شحّاذاً.. ثُمَّ ذكر آخرَ الأمرِ ما جاءَ لَه، فخجَّلَهُ الباشا وقال: هذِهِ مسألةٌ ككلِّ مسائِلك: تحتاجُ إلى رأيِ فيلسوفٍ أوربي... وأعرضَ عنهُ ولم يدخُلْ في شيءٍ من أمره.

ولَمَّا انصرفَ قالَ الباشا: يحسبُ هذا نفسَهُ عالماً، وهو صُعلوكٌ عِلْميّ.. وإنَّما يكونُ دِماغُهُ وأدمغةُ أمثالِهِ عندَ الفلاسفةِ والعلماءِ الذين يذكرونهم كما تكونُ سلَّةُ المهمَلاتِ عندَ الصحافيين.

إنَّ هذا الرجل يُتمُّ ضعفَ عقلِهِ في الرأيِ بقوَّةِ عِنادٍ فيه، لِيجعلَ لهُ ثباتَ الحقيقةِ فيظُنَّ حقيقة، كأنَّ خَضْخَضَةَ الماءِ باليدِ في وعاءٍ صغيرٍ يَنقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعةَ الموْج؛ وعندَ أمثالِ هذا المفتونِ مِنَ الصعاليكِ العلميّين، أنَّكَ إذا تناولْتَ مسألَةً فأخطأْتَ فيها خطأً جريئاً، فقدْ جعلْتَها بخطئِكَ الجريءِ مسألةً مِنَ العِلْمِ... وأنَّكَ إذا عانَدْتَ فثبتَ الخطأُ في وجهِ الناقدين سنة، كانَ حقيقةَ مدَّةِ سنة...

هم مفتونون زائغون، ومن فِتنتِهِم أنَّهم يَرونَ البعدَ بينَهم وبينَ أهلِ الفضائلِ الشرقيَّة، كالبعدِ بينَ العالِمِ والجاهل؛ ولو حقَّقوا لَرأوْهُ بُعْداً في الغرائزِ لا في العقلِ، أي كالبعدِ بينَ الفجورِ وما أشبَهَ الفُجورَ، وبينَ التقوى وما أشبَهَ التقوى.

زعمَ الأحمقُ أنَّ خصمَهُ الفلاحَ رجلٌ راسخٌ في الماضي، كأنَّهُ باقٍ في أمسٍ لم ينتقلْ منه، مَعَ أنّ أمسِ قدِ انقطعَ مِنَ الزمن، ثُمَّ خرجَ من ذلك إلى أنَّ الأمَّةَ يجبُ أنْ تنبذَ ماضيَهَا، ثُمَّ ادَّعى أنَّ الإسلامَ يتعصَّبُ لِلماضي. هذه ثلاثُ كلماتٍ تخرجُ منها الرابعةُ التي سكَتَ عنها...

وأنا لو شِئْتُ أنْ أسخَرَ من مثلِ هذا الصُعلوكِ العِلْميّ، لَمَا وجدْتُ في أساليبِ السخريةِ أبلغَ من أنْ أبعَثَ إليهِ بقارورةٍ فارغةٍ وأقولُ لَه: املأْها لي من آراءِ الفلاسفة..

يَغفُلُ هذا وأمثالُهُ عن أنَّ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ لا يعرفُ ٱلماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقِه؛ بل هو يشترطُ فيهِ ألَّا يُخالِفَ ٱلعقلَ ولا العلم، وألَّا يناقِضَ ٱلهداية؛ ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ وفي ٱلثالثة: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ﴾؟

فانظرْ كيف صَوَّرَ ما نُسميهِ ٱليومَ بٱلجمودِ في قولِه: (حسبُنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسميهِ بٱلرجعيَّةِ في قولِه (نتَّبع)، وتأملْ كيف رفضَ ٱلجمودَ وٱلرجعيَّةَ معاً في ٱلعِلْمِ وٱلعقلِ وٱلهداية، أي في آثارِها مِنَ ٱلعلومِ وٱلمخترعاتِ وٱلفضائلِ ٱلإنسانيّة، وكيفَ أبطلَ في تلك ٱلثلاثِ ٱلاحتجاجَ بٱلماضي بهذا ٱلأسلوبِ ٱلدقيقِ ٱلعالي، وهو قولُهُ في كلِّ آيةٍ أوَلَوْ، أوَلَوْ. لم يغيِّرْها؛ بلْ كرَّرها بلفظِها أربعَ مرات.

فٱلمعجزُ هنا مجيءُ ٱلآياتِ بهذِهِ ٱلصورةِ ٱلمنطقيةِ لإسقاطِ حُجَّتِهِم، ونفي معنى ٱلتقديسِ عنِ ٱلماضي فيهنَّ؛ إذْ كانَ ٱلعِلْمُ دائمَ ٱلتغيُّر، وكانَ ٱلعقلُ دائمَ ٱلتجديدِ وٱلإبداع، وكانَتِ ٱلهدايةُ شديدةً على ٱلطبيعةِ ٱلحيوانيَّةِ ٱلتي هي ماضي ٱلنفس؛ فكأنَّها جديدةٌ على ٱلنفسِ عندَ كلِّ شهوة.

إنَّ ٱلإنسانَ بماضيهِ وحاضرِهِ كأنَّهُ مقسومٌ قِسمين، يقولُ أحدُهما: أُريدُ أنْ أكونَ. ويقولُ الآخر: أنا قد كنْتُ. فالإسلامُ بهذِهِ ٱلآياتِ قد أوجبَ وزنَ ٱلكلمتينِ في كلِّ زمنٍ بما هُوَ ٱلأصحُّ، وبِما هوَ ٱلأنفع، وبِمَا هو ٱلأهدى؛ وبِٱشتراطِهِ ٱلهدايةَ في جميعِها أشارَ إلى أنَّ ٱلكمالَ ٱلنفسيَّ لِلفردِ يجبُ أنْ يكونَ مرتبِطاً بٱلكمالِ ٱلإنسانيِّ لِلجنس.

وهذا معنًى عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ ٱلإسلامَ قدْ أصلحَ فكرةَ ٱلماضي؛ فنقَلها من معنى ٱلآباءِ وٱلأجدادِ لِلناس، إلى ٱلمعاني ٱلتي هي كٱلآباءِ وٱلأجدادِ لإنسانيَّة ٱلناس. وٱلأخذُ (بالأهدى) في ٱجتماعِ أُمَّةٍ مِنَ ٱلأمم، إنَّما هو بعينِهِ ناموسُ ٱلترقِّي وٱلتطوُّر.

ومن أدَقِّ ٱلأسرارِ قولُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفْها أحدٌ على حقيقتِها، ولم تُفسِّرها إلَّا علومُ هذا الزمن، فهي ٱلمشاعرُ ٱلنفسيَّةِ

ٱلتي يتكوّنُ منها مِزاجُ ٱلشعب، وفيها يستقرُ ٱلماضي؛ كأنَّ ٱلآيةَ قد عبَّرَتْ بآخرِ ما ٱنتهى إليهِ علماءُ ٱلنفس: من أنَّ ٱلإنسانَ ٱبْنُ أبويهِ وٱبنُ شعبِهِ أيضاً.

فٱلتعصبُ في ٱلإسلامِ هو لِلعلمِ ٱلنافع، ولِلمجدِ ٱلصحيح، ولِلهدايةِ ٱلباعثةِ على ٱلكمال؛ وتعصبُ ٱلجِيلِ لِمثلِ هذا في ماضيه، هو في ٱسمِهِ تعصُّب، غيرَ أنَّهُ في معناهُ إنَّما هوَ ٱلعملُ لِتسليمِ مجدِ ٱلأُمَّةِ إلى ٱلجيلِ ٱلتالي.

المعجمُ السياسيّ

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: كنَّا في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩؛ وقدِ ٱجتمعَتِ ٱلأمَّةُ على مُقاطعةِ لجنة (ملنر) لا تُكلِّمُها، فجعلَتِ ٱلسكوتَ ثورة، وأعلنَ ٱلشعبُ أنَّ كلمتَهُ في لِسانِ ٱلوفدِ ينطقُ ٱلوفدُ بها نطقَ ٱلنبيِّ بِمَا يُوحَى إليه، فما يكونُ لِأحدٍ غيرِهِ أنْ يقولَها، ولا أنْ يقولَ أُوحيَ إليّ. وأبى اللورد ملنر أنْ يصدّقَ أنَّ لِلمصريينَ إجماعاً يُعْتَدُّ به، وأنَّهم دخلوا في ٱلسياسةِ دخولاً ثابتاً فَرَسَخُوا[1] فيها، وأنَّهم أصبحوا مَعَ ٱلإنجليز كالإنجليزِ ٱلذينَ يقولون عن أنفسِهم في مثلِهمُ ٱلسائر: ينبغي أنْ نكونَ أحراراً مثلَ أعمالِنا.

وزعمَ ٱللورد لِنفسِه، أنَّ هذه الأحزابَ ٱلمصريَّةَ لا يتَّفقُ منها ٱثنانِ أبداً إلَّا كانَ بينهما ثالثٌ يختلفانِ عليه، وهوَ ٱلطمعُ في مناصبِ ٱلحكم؛ وٱستخرجَ من ذلك أنَّ ٱلمصريَّ وٱلمصريَّ كشقي ٱلمِقراض[2]: لا يتحركانِ في عملٍ إلَّا على تمزيقِ شيءٍ بينهما؛ فإنْ لم يكنْ بينَهما (الشيءُ) لم يكنْ منهما شيء.

وذهب ٱلرجلُ يَتَظَنَّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ لَهُ ٱلظنُّ، وقد حسِبَ أنَّ إنجلترا يحقُّ لها أنْ تقولَ في ٱلمصريينَ ما يقولُ ٱللَّهُ في خَلقِهِ كما وردَ في الأثرَ: «إنما يتقلَّبونَ في قبضتي». وكما تقول ٱليومَ لِأهْلِ فلسطينَ مِنَ ٱلعرب: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ . . . وكانَ ٱللوردُ هذا رجلاً مُمارِساً لِمشاكلِ ٱلسياسة، دَخَالاً فيها، دَاهيةً من دُهاةِ ٱلقومِ، لهُ في قلبِهِ عينانِ وأذنانِ غيرَ ما في وجهِهِ كحذَّاقِ ٱلسياسيّين؛ وهو يعرفُ أنَّ سياسةَ قومِهِ لا تدخلُ في شيءٍ إلَّا دخولَ ٱلإبرةِ بخيطِها في ٱلثوب، إنْ خرجَتْ هي تركَتِ ٱلخيطَ وقد جَمَعَ وشدّ. . . فأرادَ أنْ يمتحنَ مذهبَ ٱلمصريينَ في إجماعِهم على ٱلاستقلال، وقدَّرَ أنَّهُ واجدٌ مِنَ ٱلفلاحينَ عوْناً لهُ ومادةً لِمكرِهِ ٱلسياسيّ، وحسِبَ ٱلوفدَ صورةً جديدةً من طبقةِ (ٱلباشوات) ٱلقديمة، ينزلونَ مِنَ ٱلشعبِ منزلةَ ٱليدِ ٱلتي تُمْسِكُ ٱلقيدَ، مِنَ ٱلرِّجْلِ ٱلتي فيها

---

(١) رسخوا: استقرّوا. (٢) المقراض: المقص.

ٱلقيد، ويضعونَ معنى كلمةِ ٱلحاجةِ في كلمةِ ٱلسياسة، ويقولون: ٱلوطنُ وهم يُريدونَ ٱلجاه، ويُقيمونَ ٱلشعبَ كالسُلَّمِ ينتصبُ قائماً بأيديهم لِيحملَ أرجلَهُمُ ٱلصاعدةَ عليه.

فجاءَ ٱللورد إلى مصر، فوجدَ ٱلأُمَّةَ كلَّها قد حَذِرَت منه وتيقظَتْ لَه، حتى نصَحَهُ رشدي باشا بأنَّهُ لَنْ يجدَ في مصرَ هِرَّةً تُفاوضُه؛ ولكنَّه كانَ مستيقناً أنَّ أذُنَ ٱلسياسةِ ٱلإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوتِ ٱلدنانيرِ وصوتِ ٱلجماهير، فمرَّ في ٱلبلادِ يرسمُ على ٱلهواءِ علاماتِ ٱستفهام، وٱنْصَفَقَ[1] عنهُ ٱلناسُ وأهملُوه، وكانَ يسيرُ في دائرةِ ٱلصمتِ ٱلتي مركزُها أبو الهول، فبدأ وظلَّ يبدأ حتى ٱنتهى وما زالَ يبدأ . . . وساحَ في ٱلبلادِ سِياحةً طويلة، وكأنَّهُ لم يسافرْ إلَّا من شَفَةِ أبي ٱلهولِ ٱلسُّفلى إلى شَفتِهِ العُليا.

* * *

قالَ صاحبُ السرِّ: وجاءَ ٱلوردُ لِمقابلةِ الباشا، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابٍ مقفَل: لا أعرفُ منه إلَّا ٱلعُنوان؛ غيرَ أنَّهُ رجلٌ بمِقدارِ ٱلرجلِ ٱلذي يُخالفُ أُمَّةً كاملةً تكادُ تحسبُهُ مطويًا على زوبعة، وترى لَهُ قوّتينِ تُحِسُّ من أثرِهما ٱلرهبةَ وٱلإعجاب، وإذا تأملْتَهُ قلْتَ إنَّ ٱللطفَ وٱلظَّرْفَ أضعفُ شمائلِه، وإنَّ ٱلدَّهاءَ وٱلحيلةَ أقوى مواهبِه.

فلمَّا لقيْتُ الباشا مِنَ ٱلغد، سألني: كيف رأيْتَ ٱللورد ملنر؟ فقلْت: وٱللَّهِ يا باشا إنَّهُ كٱلضرورة: ما يتمنَّاها أحدٌ ولكنَّها تجيء . . .

فضحكَ ٱلباشا وقال: يا ليْتَ لنا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ كلَّ يوم ضرورةً تصنعُ ما صنَع ٱللورد؛ إنَّهُ كشفَ لنا في ذاتِ أنفسِنا عن حقيقةٍ من أسمى ٱلحقائقِ ٱلسياسيَّة: وهي أنَّ ٱلشعبَ ٱلذي يُصِرُّ ولا يزالُ يُصِرُّ يجعلُ ٱلإغراءَ لا يُغري وٱلخوفَ لا يُخيف.

ويا ليْتَ ٱلأممَ ٱلشرقيَّةَ تتعلَّمُ هذا ٱلصمتَ ٱلسياسيَّ عن مجاوبَةِ ٱلكلمةِ ٱلاستعماريَّةِ أحياناً؛ فإنَّ صمْتَ ٱلأُمَّةِ ٱلمصريَّةِ عن جوابِ (ملنر) كانَ معناهُ أنَّ قدرةَ ٱلأمَّةِ هِيَ ٱلمتكلمةُ كلامَها بذا ٱلصمت، تُعلِنُ لِلعالمِ أنَّ ٱلواجبَ ٱلشعبيَّ قد وضعَ قُفْلَهُ على كلِّ فم.

وقد فسَّرَ ٱللورد هذا السكوتَ بتفسيرِهِ ٱلسياسيّ، فأدركَ منه أنَّ في ٱلشعبِ

(١) انصفق عنه الناس: تفرّقوا.

أنَفَةً وحَميَّةً وقوَّة، وأنَّ حِسابَ ٱلضميرِ ٱلوطنيِّ أصبحَ لِهذِهِ ٱلأفئدةِ كالحسابِ ٱلإلهيِّ لِلنفوسِ ٱلمؤمنة: كِلاهما مُسْتعلِنٌ يُخافُ ويُتَّقى، وكِلاهما كلمةٌ محرَّمة.

أيةُ معجزةٍ هذه ٱلتي جعلَتْ كلمةَ ٱلأجنبيِّ تتَّخذُ في أذهانِ أُمَّةٍ كاملةٍ شَكْلَ قائلِها، فٱجتمَعَتْ لها ٱلبلادُ على معنى ٱلرفضِ، وأصبحَ كلُّ فردٍ يعرفُ محلَّهُ مِنَ ٱلكلّ، وخضَعتِ ٱلطبائعُ بجملتِها لِقانونِ ٱلعزةِ ٱلقوميَّة، ٱلذي يُلزمُها ألَّا تخضعَ لِلأجنبيّ؟

إنَّ ٱلأُمَمَ بعضُ مسائلَ نفسيَّةٍ كهذِهِ ٱلمسألة؛ فلو أنَّ لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ مختلفةٍ كدروسِ (ملنر)، لَكانَتْ لنا في ٱلإيمانِ ٱلوطنيِّ كالصلواتِ ٱلخمس.

وٱلآنَ تعلمَتِ ٱلأُمَّةُ أنَّ ٱلشعبَ ٱلعزيزَ هوَ ٱلذي ينظرُ في فَضِّ مشاكلِهِ[1] إلى ٱلحلِّ وإلى طريقةِ ٱلحلِّ أيضاً، وقد كانَ (ملنر) هو أولَ أساتذَتِنا في تعليمِنا ٱلطريقة.

وهذا ٱلدرسُ يجبُ أنْ يكونَ درساً لِلشرقِ كلِّه، فإنَّ السياسةَ ٱلاستعماريَّة قائمةٌ فيهِ على خِداعِ ٱلطريقةِ في حلِّ مشاكلِهِ، فيحلونها ويُعقِّدُونَها في نصٍّ واحد؛ ويُثبتُ ٱلكلامُ ٱلذي يتَّفقون عليهِ أنَّ ٱلمُرادَ منه زوالُ ٱلخِلاف، ويُثبتُ ٱلعملُ بعدَ ذلك أنَّ ٱلمُرادَ كانَ زوالَ ٱلمقاومة.

وفي ٱلسياسةِ ٱلأوربيَّة موافقاتٌ دميمةٌ[2] كالنساءِ ٱلمشوَّهات، فإذا عرضوا واحدةً منها على مَنْ يُريدون أنْ يزوّجوه... فأباها وفتَح لها عينيهِ بكلِّ ما فيهما من قوةِ ٱلإبصار، أعفَوْهُ منها وقالوا له: سنأتيكَ بالجميلةِ، ثُمَّ يذهبونَ بها إلى معهدِ ٱلتجميلِ ٱللغوي، فيصقلونها ويصبغونها، ويضعونَ لها أحمرَ ٱلسياسةِ وأبيضَها، ثُمَّ يعرضونَها جديدةً على صاحبِهم ذاك، وما صنعوا ما بِهِ صارَتِ ٱلدميمةُ غيرَ دميمة، ولكنّ ما بِهِ رجعَ غيرُ ٱلأعمى كالأعمى.

ولهم عقولٌ عجيبةٌ في ٱختراعِ ٱلألفاظ، حتى لَتكونُ شِدَّةُ ٱلوضوحِ في عِبارة، هي بعينِها ٱلطريقةَ لإخفاءِ ٱلغموضِ في عبارةٍ أخرى. وكثيراً ما يأتونَ بألفاظٍ منتفخةٍ تُحسَبُ جَزْلةً بادنةً قد ملأها معناها، وهي في ٱلسياسةِ ألفاظٌ حُبالى، تَستكمِلُ حملَها مدةً ثُمَّ تلِد.

---

(١) فضّ مشاكله: حلّها.

(٢) دميمة: بشعة.

ولهم من بعضِ ٱلكلماتِ ٱلسياسيَّة، كما لهم من بعضِ ٱلرجالِ ٱلسياسيِّين؛ فيكونُ ٱلرجلُ من دُهاتِهم رجلاً كٱلناس، وهو عندَهم مِسْمَارٌ دَقُّوهُ في أرضِ كذا أو مملكةِ كذا، ويكونُ ٱللفظُ لفظاً كٱللغة، وهو مِسمارٌ دقّوهُ في وثيقةٍ أو مُعاهدة.

ثُمَّ ضحكَ ٱلباشا وقال: إنَّ أرضَنا تُخرِجُ ٱلقطن، وسياستَنا تُخرج ألفاظاً كٱلقطن: لا تُوضعُ في ٱلمِغزَل إلَّا مَدَّتْ وتحوَّلَتْ. وإذا ذهبْنَا نُخالفُهم في ٱلتأويلِ وٱلتفسير، لم نجدْ عندنا ٱلمعجمَ ٱلسياسيَّ ٱلذي يُملي ٱلنصّ. أتدري يا بُنيَّ ما هو ٱلمعجمُ ٱلسياسيّ؟

أمَا إنَّهُ لو كانَ كتاباً يتألفُ من مليونِ كلمة، لَذهبَتْ كلُّها عبثاً وباطلاً وهُراء، ولكنَّهُ ذلك ٱلمعجمُ ٱلحيُّ، ذلك ٱلمعجمُ ٱلذي يتألَّفُ من مليونِ جندي...

اللسانُ المُرَقَّع

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَ «حضرةُ صاحبِ ٱلسعادة» فلانٌ لِزيارةِ ٱلباشا؛ وهو رجلٌ مِصريٌّ وُلِدَ في بعضِ ٱلقُرى، ما نعلمُ أنَّ ٱللَّهَ (تعالى) ميَّزهُ بجوهرٍ غيرِ ٱلجوهر، ولا طَبْعٍ غيرِ ٱلطبْع، ولا تركيبٍ غيرِ ٱلتركيب، ولا زادَ في دمِهِ نقطةَ زهوٍ، ولا وضعَهُ موضِعَ ٱلوسطِ بينَ فنَّينِ مِنَ ٱلخليقة. غيرَ أنَّهُ زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّنَ نفسَهُ ألواناً، فهو مصريٌّ ملوَّن. ومن ثُمَّ كانَ لا يرى في بِلادِهِ وقومِهِ إلَّا ٱلفروقَ بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهرُ له دينُ قومِهِ إلَّا مُقابلاً لِشهواتٍ أحبَّها وغامرَ فيها، ولا لغةُ قومِهِ إلَّا مقرونةً بلغةٍ أخرى ودَّ لو كانَ من أهلِها، ولا تاريخُ قومِهِ إلا مغمًى عليه.. كالميتِ بينَ تواريخِ ٱلأُمَم.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ ٱلمترفينَ ٱلمنعَّمين: مصريُّ ٱلمالِ فقط، إذْ كانَتْ أسبابُهم ومستَغَلّاتُهم في مِصر؛ عربيُّ ٱلاسمِ لا غير، إذْ كانَتْ أسماؤُهم من جِنايةِ أهليهم بٱلطبيعة؛ مُسلمُ ما مضى دونَ ما هو حاضر، إذْ كانَ لا حِيلةَ في أنسابِهِمُ ٱلتي ٱنحدروا منها.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ ٱلمترفينَ ٱلمنعَّمينَ ٱلمفتونينَ بالمدنيَّةِ: لِكُلٍّ منهم جنسُهُ ٱلمِصريُّ ولِفكرِهِ جنسٌ آخر.

قال: وكان حضرةُ صاحبِ ٱلسعادةِ يُكلِّمُ ٱلباشا بِٱلعربيةِ ٱلتي تلعنُها ٱلعربية، مرتفِعاً بها عن لغةِ ٱلفصيحِ ٱرتفاعاً. منحطًّا... نازلاً بها عن لغةِ ٱلسُّوقةِ نزولاً عالياً.. فكان يرتضِخُ لُكْنَةً أعجميةً[1]، بينَا هي في بعضِ ٱلألفاظِ جرسٌ عالٍ يطنُّ، إذا هي في لفظٍ آخرَ صوتُ مريضٍ يئنّ، إذا هي في كلمةٍ ثالثةٍ نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ. ورأيْتُهُ يتكلَّفُ نسيانَ بعضِ ٱلجُمَلِ ٱلعربيَّةِ لِيلويَ لِسانَهُ بغيرِها مِنَ ٱلفرنسيَّة، لا تظرُّفاً ولا تملُّحاً ولا إظهاراً لِقدرةٍ أو عِلْم، ولكنِ ٱستجابةً لِلشعورِ ٱلأجنبيِّ ٱلخفيِّ

(١) يرتضخ لُكنة أعجمية: يلهج لهجة أوروبية.

ٱلمتكنِ في نفسِه. فكانَتْ وطنيَّةُ عقلِهِ تأبى إلَّا أنْ تُكذِّبَ وطنيَّةَ لِسانِه، وهو بإحداهِما زائفٌ على قومِه، وبالأخرى زائفٌ على غيرِ قومِه.

* * *

فلمَّا ٱنصرفَ ٱلرجلُ قالَ الباشا: أفٍّ لِهذا وأمثالِ هذا! أفٍّ لهم ولِمَا يصنعون! إنَّ هذا ٱلكبيرَ يُلقِّبونَهُ «حضرة صاحب السعادة»، ولأَشرفُ منهُ ـ واللَّهِ ـ رجلٌ قَرويّ ساذجٌ يكونُ لقبُهُ «حضرة صاحب الجاموسة»... نعم إنَّ ٱلفلاحَ عندَنا جاهلُ عِلْم، ولكنَّ هذا أقبحُ منه جهلاً، فإنَّهُ جاهلُ وطنيَّة.

ثُمَّ إنَّ ٱلجاموسةَ وصاحبَها عاملانِ دائبانِ مخلصانِ لِلْوطن؛ فما هو عملُ حضرةِ (صاحبِ اللسانِ المرقَّع) هذا؟ إنَّ عملَهُ أنْ يُعلِنَ برطانتِهِ[1] الأجنبيَّةِ أنَّ لغةَ وطنِهِ ذليلةٌ مَهينة، وأنَّهُ مُتجرِّدٌ مِنَ ٱلروحِ ٱلسياسيِّ لِلغةِ قومِهِ؛ إذْ لا يظهرُ ٱلروحُ ٱلسياسيُّ لِلغةٍ ما، إلَّا في ٱلحِرْصِ عليها وتقديمِها على سِواها.

كانَ ٱلواجبُ على مثلِ هذا أَلَّا يتكلَّمَ في بلادِهِ إلَّا بلُغتِه، وكانَ ٱلذي هو أوجبُ أنْ يتعصَّبَ لها على كلِّ لُغةٍ تُزاحِمُها في أرضِها، فتركَ هذا وهذا وكانَ هو ٱلمزاحمَ بنفسِه؛ فهو على أنَّهُ «حضرة صاحب سعادة»، لا يُنزِلُ نفسَهُ مِنَ ٱللغةِ ٱلقوميةِ إلَّا مَنزلةَ خادمٍ أجنبيٍّ في حانة.

أَتدري ما هو سِرُّ هؤلاءِ ٱلكُبراءِ وهؤلاءِ ٱلسَّراةِ ٱلذين يُطمْطِمون[2] إذا تكلموا فيما بينَهم؟ إنَّهُم عندَنا طبقات:

أمَّا واحدةٌ، فإنَّهم يصنعونَ هذا ٱلصنيعَ منجذبينَ إلى أصلٍ راسخٍ في طِباعِهِم، مِمَّا تركَهُ ٱلظلمُ وٱلاستبدادُ وٱلحمقُ في زمنِ ٱلحكمِ ٱلتركيّ؛ فهم يُبْدون جوهرَ نفوسِهم لِأعينِهم وأعينِ ٱلناس، كأنَّ ٱللغةَ ٱلأجنبيَّةَ فيما بينَهم علامةُ ٱلحكمِ وٱلسلطةِ وٱحتقارِ ٱلشعبِ وٱستمرارِ ذلك ٱلحمقِ في ٱلدم... وهم بها يتنبَّلون[3].

وأمَّا طبقة، فإنَّهم يتكلَّفون هذا مِمَّا في نفوسِهم من طِباعٍ أحدثَها ٱلنِّفاقُ وٱلخضوعُ وٱلذلُّ ٱلسياسيُّ في عهدِ ٱلاحتلالِ ٱلإنجليزي؛ فٱللغةُ الأجنَبيَّةُ بينَهم تشريفٌ وٱعتبار، كأنَّهم بها من غيرِ ٱلشعبِ ٱلمحكومِ ٱلذي فقدَ ٱلسلطة، وهم بها يتمجَّدون.

---

(١) رطانة: لهجة.

(٢) يطمطمون: يجعلون في ألسنتهم عجمة وكلمات منكرة.

(٣) يتنبلون: يرتفعون.

وأمَّا جماعة، فإنَّهم يتعمَّدون هذا يُريدُون بِهِ عيبَ ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ وتهجينَها[1]، إذِ ٱتخذوا مِنْ عداوةِ هذه ٱللغةِ طريقةً ٱنتحلوها[2] ومذهباً ٱنتسبوا إليه، وفيهمُ ٱلعالمُ بعلومِ أوربا، وٱلأديبُ بأدبِ أوربا؛ وذلك من عداوتِهم لِلدينِ ٱلإسلاميّ، إذْ جعلَ هذه ٱللغةَ حكومةً باقيةً في بِلادِهم مَعَ كلِّ حكومةٍ وفوقَ كلِّ حكومة؛ وهم يزدرون هذا ٱلدينَ ويُسقطونَ عنْ أنفسِهم كلَّ واجباتِه. وهؤلاءِ قد خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً، إذْ يُغلونَ في مِصريَّتِهم غلوًّا قبيحاً ينتهي بهم إلى سفهِ ٱلآراء، وخِفّةِ ٱلأحلام، وطيشِ ٱلنزعات، فيما يتّصِلُ بالدينِ ٱلإسلاميِّ وآدابِهِ ولُغتِه. وما أرى ٱلواحدَ منهم إلَّا قد غطَّى وصفَهُ من حيثُ هو رقيعٌ، على وصفِهِ من حيثُ هو عالمٌ أو أديبٌ أو ما شاء. إنَّ هذا لَمقتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومن أثرِ تلك ٱلفِئاتِ ٱلثلاثِ نشأَتْ فِئةٌ رابعة، تحوَّلَ فيهم ذلك ٱلخلْطُ مِنَ ٱلكلامِ إلى طريقةٍ نفسيَّةٍ في ٱلنفس؛ فهم يُقحِمونَ[3] في كِتابتِهم وحديثِهِمُ ٱلكلماتِ ٱلأجنبيَّة، ويحسبون عملَهُم هذا تظرُّفاً ومُعابثةً ومُجوناً، على أنَّهُ هو ٱلذي يُظهِرُ لِعينِ ٱلبصيرِ مواضِعَ ٱلقطعِ ٱلتاريخيِّ في نفوسِهم، وأماكنَ ٱلفسادِ ٱلقوميِّ في طبيعتِهم، وجِهاتِ ٱلتحلُّلِ ٱلدينيِّ في ٱعتقادِهم. هؤلاءِ يكتب أحدُهم: (النرفزة) وهو قادرٌ أنْ يقولَ ٱلغضب، (والفلير) وهو مستطيعٌ أنْ يجعلَ في مكانِها ٱلمُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرفُ لفظةَ أنواع وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا ـ واللَّهِ ـ أنْ تكونَ ٱلمسافةُ بينَ ٱللفظينِ إلَّا ٱلمسافةَ بعينِها بينَ قلوبِهم ورُشدِ قلوبهم.

وما برِحَ ٱلتقليدُ ٱلسخيفُ لا يَعرِفُ له باباً يَلِجُ منه إلى ٱلسُّخفاءِ إلَّا بابَ ٱلتهاونِ وٱلتسامح؛ ونحنُ قومٌ ٱبتُلِينَا بتزويرِ ٱلعُيوبِ على أنفسِنا وعدِّها في ٱلمحاسنِ وٱلفضائل، من قِلّةِ ما فينا مِنَ ٱلفضائل وٱلمحاسن. وبهذه ٱلطبيعةِ ٱلمعكوسةِ نُحاولُ أنْ نقتبسَ من مزايا الأوربيِّين، فلا نأخذُ أكثرَ ما نأخذُ إلَّا عيوبَهم، إذْ كانَتْ هيَ ٱلأسهلَ علينا، وهيَ ٱلأشكلُ بطبعِنا ٱلضعيفِ ٱلمتسامحِ ٱلمتهاون.

---

(١) تهجينها: تقبيحها.

(٢) انتحلوها: اتخذوها نِحلة وعملاً.

(٣) يقحمون: يدخلون بالقوّة.

ومن هذا تجدُ مشاكلَنا ٱلاجتماعيَّة ـ على أنَّها أهونُ وأيسرُ من مشاكلِ ٱلأوربيِّين، وعلى أنَّ في دينِنا وآدابِنا لِكلِّ مُشكلةٍ حلّها ـ تجدُها هي علينا أصعبَ وأشدَّ، لِأنَّنا ضعفاءُ ومتخاذلون ومقلِّدون ومفتونون، وكلُّ ذلك من شيءٍ واحد: وهو أنَّ أكثرَ كُبرائِنا هم أكبرُ بلائِنا.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: ثُمَّ ضحكَ الباشا ضحكتُهُ ٱلساخرةَ وقال: كيف تصنعُ أُمَّةٌ يكونُ أكثرُ ٱلعاملين هم أكبرَ ٱلعاطلين، إذْ يعملون ولكنْ بروحٍ غيرِ عاملة..

سرُّ القُبَّعَة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجَمَتْ[1] في مصرَ حركةٌ بِعقِبِ أيَّام ٱلبِدعةِ ٱلتركيَّة، حينَ لم تبقَ لِشيءٍ هناك قاعدةٌ إلَّا ٱلقاعدةَ ٱلواحدةَ ٱلتي تُقرِّرُهَا ٱلمشانق... فمَنْ أبى أنْ يخلعَ ٱلعِمامةَ عن رأسِهِ خلعوا رأسَه؛ ومَنْ قال (لا) أنقلبَتْ (لا) هذه مشنقةً فعُلِّقَ فيها.

وكانَتْ فكرةُ ٱتخاذِ ٱلقبَّعةِ في تركيا غِطاءً لِلرأس، قد جاءَتْ بعدَ نَزَعاتٍ من مثلِها كما يجيءُ ٱلحِذاءُ في آخرِ ما يلبسُ ٱللابس، فلم يشكَّ أحدٌ أنَّها ليسَتْ قبَّعةً على ٱلرأسِ أكثرَ مِمَّا هي طريقةٌ لِتربيةِ ٱلرأسِ ٱلمسلم تربيةً جديدةً، ليسَ فيها ركعةٌ ولا سَجْدة؛ وإلَّا فنحنُ نرى هذه ٱلقُبَّعةَ على رأسِ ٱلزنجيِّ وٱلهمَجيّ، وعلى رأسِ ٱلأبلهِ وٱلمجنون، فما رأيْناها جعلَتِ ٱلأسودَ أبيض، ولا عرفْناها نقلَتْ همجياً عن طبعِه، ولا زعمَ أحدٌ أنَّها أكملَتِ ٱلعقلَ ٱلناقصَ أو ردَّتِ ٱلعقلَ ٱلذاهب، أوِ ٱنقلبَتْ آلةً لِحلِّ مُشكلاتِ ٱلرأسِ ٱلبليد، أو غَصَبَتِ ٱلطبيعةَ شيئاً وقالتْ: هذا لِحاملي دون حاملِ ٱلطربوشِ وٱلعِمامة.

وقدِ ٱحتجُوا يومئذٍ لِصاحبِ تلك ٱلبِدعةِ أنَّهُ لا يرى ٱلوجهَ إلَّا ٱلمدنيَّة، ولا يعرفُ ٱلمدنيّةَ إلَّا مدنيّة أوربا، فهو يمتَثِلُها كما هي في حسناتِها وسيئاتِها، وما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وما يكونُ في حاجةٍ إليهِ وما يكونُ في غِنًى عنه؛ حتى لو أنَّ الأوربيّينَ كانوا عُوراً بٱلطبيعة، لَجعلَ هو قومَهُ عُوراً بِٱلصناعةِ لِيُشبهوا ٱلأوربيّين. نعم إنَّها حُجَّةٌ تامَّةٌ لولا نقصٌ قليلٌ في ٱلبرهان، يُمكنُ تلافيهِ بإخراج طبعةٍ جديدةٍ من كتبِ ٱلفُتوحِ ٱلعثمانيَّة، يظهرُ فيها ٱلخُلفاءُ ٱلعِظامُ وٱلأبطالُ ٱلمغَاويرُ ٱلذين قهروا ٱلأروبيّين لابسينَ قُبَّعاتٍ، لِيُشبهوا ٱلأوربيّين...

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وتهوَّرَ في هذه ٱلضلالةِ رَهْطٌ من قومِنا، وأخذوا يدَّعون إلى التقبُّعِ في مصرَ ٱحتذاءً لِتركيّا، وذهبَ بعضُهم إلى سعدِ باشا (رحمه الله) يطلبُ

---

(١) نجمت: ظهرت.

رأيه، فكانَ رأيُهُ (لا) بمدِّ ٱلألف. . . وعهدَ إليَّ بعضُهم أن أسألْ الباشا، فقال:

ويْحَهُم! ألَا يخجلون أنْ نكونَ ـ نحن ٱلمصريين ـ مقلِّدين لِلتقليدِ نفسِه؟ إنَّ هذه بِدْعةٌ تنحطُّ عندَنا درجةً عنِ ٱلأصل، فكأنَّها بِدعتان. ثُمَّ ضحك ٱلباشا وقالَ: كانَ في ٱلقديم رجلٌ سمعَ أنَّ ٱلبصلَ بِٱلخلّ نافعٌ لِلصفراء، فذهبَ إلى بُستانٍ يملكُهُ وقالَ لِوكيلهِ: اِزرعْ لي بصلاً بخلّ. . . هكذا يُريدون منَ ٱلقبعات: أنْ تُخَرِّجَ لهم تُركاً بأوربيّين.

ليسَتْ هذه ٱلقبعةُ في تركيا هيَ ٱلقبعة، بل هي كلمةُ سبٍّ لِلعربِ وردٌ على ٱلأسلام. ضاقَتْ بِها كلُّ ٱلأساليبِ أنْ تُظهرَها واضحةً بيِّنَة، فلم يَفِ بها إلَّا هذا ٱلأسلوبُ وحْدَهُ. وهي إعلانٌ سياسيٌّ بِٱلمناوأةِ وٱلمخالفةِ وٱلانحرافِ عنَّا وَٱطِّراحِنا. فإنَّ ٱلذي يخرجُ من أُمَّتِهِ لا يخرجُ منها وهو في ثِيابِها وشِعارِها؛ فبهذا انتفحَ لهم بابُ ٱلخروج في ٱلقبعةِ دون غيرِها مِمَّا يجري فيهِ ٱلتقليدُ أو يُبدِعُهُ ٱلابتكار؛ وإلَّا فأيُّ سرٍّ في هذه ٱلقبعات، ومتى كانتِ ٱلأُمَمُ تُقاسُ بمقاييسِ ٱلخياطين. . . . ؟

هٰهنا سيفٌ أرادَ أنْ يكونَ مِقَصًّا فعملَ أولاً ما يعملُ ٱلحُسامُ ٱلبَتَّار، فأجادَ وأبدعَ وأَكبرَهُ ٱلناسُ وأعظموه؛ ثُمَّ صنعَ ما يصنعُ ٱلمِقصُّ، فماذا عساهُ يأتي بِهِ إلَّا ما يُنكِرُهُ ٱلأبطالُ وٱلخيَّاطونَ جميعاً؟

أَكُتِبَ علينا أنْ نظلَّ دهرَنا نبحثُ في ٱلتقليدِ الأَعمى، وألّا يَحْيا ٱلشرقيُّ إلَّا مستعبَداً ينتظرُ في كلِّ أمورِهِ مَنْ يقولُ لَه: اِشْرَعْ لي. . .؟ إنْ بحثْنَا فلْنَبْحثْ في زيٍّ جديدٍ نتميَّزُ بِه، فتكونَ ٱلقُوى ٱلكامنةُ فينا وفي طبيعةِ أرضِنا وجوِّنا هيَ ٱلتي ٱخترعَتْ لِظاهرِها ما يجعلُهْ ظاهرَها. كما يُخرِجُ زَوْرُ ٱلأسدِ لِبُدَةَ ٱلأسد. غايةً في ٱلمنفعةِ وٱلجمالِ والمُلاءمَة.

أنا ألبسُ ما شئت، ولكنِّي عندَ ٱلسَّعةِ أَجِدُ حدًّا تقفُ إليهِ ذاتيَّتي ٱلفرديَّة، فلا أرى ثَمَّةَ موضعِ ٱنفرادٍ ولكنْ مَوضعَ مُشاكلة، ولا أعرفُ صِفةَ منفعةٍ لي بلْ صِفةَ حقيقةٍ مِنِّي، ويعترضُني من هناكَ ٱلمعنى ٱلذي يَصيرُ بِهِ ٱلنوعُ إلى ٱلجنسِ. وٱلواحدُ بلِ ٱلجماعةُ وما دمْتُ مسلِماً أُصلِّي وأركعُ وأسجد، فٱلقبعةُ نفسُها تقولُ لي: دعني فلسْتُ لك.

وهؤلاءِ ٱلرجالُ ٱلذين لبسوها في مصر، إنَّما ٱشتقُّوها مِنَ ٱلمصدرِ نفسِ

ٱلمصدرِ ٱلذي يَخرجُ منه ٱلهتكُ في ٱلنساء، وكِلاهما مَنزَعٌ مِنَ ٱلمُخالفة، وكِلاهما ضِدٌّ من صِفةٍ ٱجتماعيَّةٍ تقومُ بها فضيلةٌ شرقيَّةٌ عامة. وليسَ يَعدمُ قائلٌ وجهاً مِنَ القولِ في تزيينِ ٱلقبعة، ولا مذهباً مِنَ ٱلرأيِ في ٱلاحتجاجِ لها، غيرَ أنَّ ٱلمذاهبَ ٱلفلسفيَّةَ لا يُعجزُها أنْ تُقيمَ لك ٱلبرهانَ جَدَلًا[1] محضاً على أنَّ حياءَ ٱلمرأةِ وعفَّتَها إنْ هما إلَّا رذيلتانِ في ٱلفنّ... وإنْ هما إلَّا مرضٌ وضعف، وإنْ هما إلَّا كيتَ وكيت، ثُمَّ تنتهي ٱلفلسفةُ إلى عدِّهِما مِنَ ٱلبلاهةِ وٱلغفلة، وما ٱلغفلةُ وٱلبلاهةُ إلَّا أنْ تُريدَ فلسفةٌ من فلسفاتِ ٱلدنيا أنْ تُقْحِمَ في كتابِ ٱلصلاةِ مثلاً فصلاً في... في... في ٱلدَّعارة.

لا يهولنَّك[2] ما أُقرِّرُ لك: من أنَّ ٱلقُبَّعةَ ٱلأوربيَّةَ على رأسِ ٱلمسلم ٱلمصريّ، تهتُّكٌ أخلاقيٌّ أو سِياسيٌّ أو دِينيٌّ أو من هذه كلِّها معاً، فإنَّكَ لَتعلَمُ أنَّ ٱلذينَ لبسوها لم يلبسوها إلَّا منذُ قريب، بعدَ أنْ تهتَّكَتِ ٱلأخلاقُ ٱلشرقيَّةُ ٱلكريمةُ وتحلَّلَ أكثرُ عُقَدِها، وبعدَ أنْ قارَبتِ ٱلحريَّةُ ٱلعصريَّةُ بينَ ٱلنقائضِ حتى كادَتْ تختلِطُ ٱلحدودُ ٱللغويَّة؛ فحريَّةُ ٱلمنفعةِ مثلاً تجعلُ ٱلصادقَ وٱلكاذبَ بمعنًى واحد، فلا يُقال: إلَّا أنَّهُ وجدَ منفعتَهُ فصدق، ووجدَ منفعتَهُ فكذب؛ وعندَ ٱلحريَّةِ ٱلعصريَّةِ أنَّهُ ما فرَّق بينَ ٱللفظينِ وجعلَ لِكلٍّ منهما حدوداً إلَّا جهلُ ٱلقدماء، وفضيلةُ ٱلقدماء، ودينُ ٱلقدماء. وهذه ٱلثلاثة: ٱلجهلُ وٱلفضيلةُ وٱلدين، هي أيضاً في ٱلمعجمِ ٱللغويِّ ٱلفلسفيِّ ٱلجديدِ مُترادِفاتٌ لِمعنًى واحد، هوَ ٱلاستعبادُ أوِ ٱلوهمُ أو ٱلحرافة.

ومتى أُزيلتِ ٱلحدودُ بينَ ٱلمعاني، كانَ طبيعيًّا أنْ يلتبسَ شيءٌ بشيءٍ وأنْ يَحلَّ معنًى في موضعِ معنًى غيرِه، وأصبحَ ٱلباطلُ باطلاً بسببٍ وحقًّا بسببٍ آخر، فلا يحكمُ ٱلناسَ إلَّا مجموعةٌ مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلمتنافرة، تجعلُ كلَّ حقيقةٍ في ٱلأرضِ شُبْهةً مزوَّرةً عندَ مَنْ لا تكونُ من أهوائِهِ ونزَعاتِهِ، فيحتاجُ ٱلناسُ بالضرورةِ إلى قوَّةٍ تفصِلُ بينَهم فَصْلاً مسلَّحاً، فيُكْسِبون ٱلقانونَ بمدنيَّتِهم قوَّةً همجيَّةً تضطرُهُ أنْ يُعِدَّ لِلوحشيَّةِ ٱلإنسانيَّة، وتدفعُ هذه ٱلوحشيَّةَ أنْ تُعِدَّ له.

ومِن ٱختلاطِ ٱلحدودِ تجيءُ ٱلقبعةُ على رأسِ ٱلمسلم، وما هي إلَّا حدٌّ يطمِسُ حدًّا، وفِكرةٌ تهزمُ فِكرة، ورذيلةٌ تقولُ لِفضيلة: هأنذي قد جِئْتُ فٱذهبي.

---

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً.

(٢) لا يهولنك: لا يُرعبنك.

ما هو ٱلأكبرُ من شيئينِ لا حدَّ بينَهما لِتعيينِ ٱلصِّغر؛ وما هو ٱلأصغرُ من شيئينِ لا حدَّ بينَهما لِتعيين ٱلكِبَر؟ إنَّها ٱلفوضى كما ترى ما دامَ ٱلحدُّ لا موضعَ لَهُ في ٱلتمييِزِ ولا مقرَّ لَهُ في ٱلعُرفِ ولا فصلَ بهِ في ٱلعادةِ؛ ومن هنا كانَ ٱلدينُ عندَ أقوام أكبرَ كلماتِ ٱلإنسانيَّةِ في عامَّةِ لغاتِها وأملأَها بٱلمعنى، وكانَ عندَ آخرينَ أصغرَها وأفرغَها مِنَ ٱلمعنى؛ وما كَبُرَ عندَ أولئك إلَّا من أنَّهُ يسعُ ٱلاجتماعَ ٱلإنسانيَّ وهو محدودٌ بغاياتِهِ ٱلعُلْيا، وما صَغُرَ عندَ هؤلاءِ إلَّا بأنَّ ٱلاجتماعَ لا يسعُهُ فلا حدَّ لَه، وكأنَّهُ معنًى مُتوهَّمُ لا وجودَ لَهُ إلَّا في أحرفِ كلمتِه.

فجماعةُ ٱلقبعةِ لا يَرَوْنَ لِأنفسِهِم حدًّا يحدونها بهِ من أخلاقِنا أو دينِنا أو شرقيَّتِنا، وقد مَرَقُوا من كلِّ ذلك وأصبحوا لا يَرَوْنَ في زِيِّنا ٱلوطنيِّ ما فيهِ من قوَّةِ ٱلسرِّ ٱلخفيِّ ٱلذي يُلهِمُنا ما أودعَهُ ٱلتاريخُ من قوميتِنا ومعاني أسلافِنا.

وأنا أعرفُ أنَّ مِنَّا قوْماً يرى أحدُهم في ظنِّ نفسِهِ أنَّهُ قانونٌ من قوانينِ ٱلتطوّر؛ فهو فيما يُلابِسُهُ لا ينظرُ إلى أنَّهُ واحدٌ مِنَ ٱلناس، بلْ واحدٌ مِنَ ٱلنواميس... ومن هنا ٱلثِّقَلُ وٱلدعوى ٱلفارغةُ، وما هو أكبرُ مِنَ ٱلثقلِ وفراغِ ٱلدعوى. وإنَّه لَحقٌّ أنْ يكونَ بعضُ ٱلناسِ أنبياء، ولكنْ أقبحُ ما في الباطلِ أنْ يظنَّ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ نبيًّا.

وٱعلمْ أنَّ كثيراً مِمَّا يُزيِّنونهُ لِلشرقيِّ من رذائلِ ٱلمدنيَّةِ ٱلأوربيَّة، فترى كلاماً تَحتهُ معانٍ ومعانٍ لا يعدُّها غيرُ ٱلجائعِ إلَّا حماقةَ ساعتِها...

سعد زغلول

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: أَلقى إليّ ٱلباشا ذاتَ يوم أنَّ (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً، وكانَتْ بينَ ٱلرجُلينِ خاصةٌ وأسبابٌ وطِيدة[1]. ولِلباشا موقعٌ أعرفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرفُ ٱلشُّعلةَ في بركانِها؛ أمَّا سعدٌ فكانَ قدِ ٱنتهى إلى ٱلنهايةِ ٱلتي جعلَتْهُ رجلاً في إحدى يديهِ ٱلسِّحرُ وفي ٱلأخرى ٱلمعجزة، فهو من عُظماءِ هذهِ ٱلبلادِ كقاموسِ ٱللغةِ من كلماتِ ٱللغةِ: يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليهِ في تعريفِه، ولا تصحُّ ٱلكلمةُ عندَ أحدٍ إلّا إذا كانَتْ فيهِ ٱلشهادةُ على صحتِها.

وجاءَنا سعدٌ غُدْوَةً، فأسرعْتُ إلى تقبيلِ يدِهِ قبلةً لا تُشبهُها ٱلقُبلات، إذْ مُثِّلَتْ لي من فرحِها كأنَّها كانَتْ منفيَّةً ورجعَتْ إلى وطنِها ٱلعزيزِ حينَ وُضعَتْ على تلك ٱليد.

إنَّ ٱلرجلَ ٱلعظيمَ إذا كانَ بارًّا بأبيهِ عارفاً قدرَهُ مُدرِكاً عظمتَه، يشعرُ حينَ يُقبِّلُ يدَ أبيهِ كأنَّهُ يسجدُ بروحِهِ سجدةً لِلَّهِ على تلك ٱليدِ ٱلتي يُقبِّلُها، ويجدُ في نفسِهِ ٱتصالاً كهربائيًّا بين قلبِهِ وبينَ سرِّ وجودِه، ويَخُصُّهُ ٱلعالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبلتَهُ نبضَتْ في ٱلكون: وكلُّ هذا قد أحسسْتُهُ أنا في تقبيلي يدَ سعد، وزِدْتُ عليهِ شعوري بمثلِ ٱلمعنى ٱلذي يكونُ في نفسِ ٱلبطلِ حينَ يُقبّلُ سيفَهُ ٱلمنتصِر.

وضحكَ لي سعد باشا ضحكتَهُ ٱلمعروفة، ٱلتي يبدأُها فمُه، وتُتِمُّها عيناه، ويشرحُها وجهُهُ كلُّه، فتَجِدُ جوابَها في روحِكَ كأنَّهُ في روحِكَ ألقاها.

وٱلرجلُ مِنَ الناسِ إذا نظرَ إلى سعدٍ وهو يبتسّم، رأى لَهُ ٱبتسامةً كأنَّها كمالٌ يتواضع، فيُحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍّ يتَّصلَ منه بشيءٍ طبيعيّ، فينتعشُ ويَثِبُ في وجودِهِ ٱلروحيِّ وثبةً عاليةً تكونُ فرَحاً أو طرَباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كلَّها معاً. غيرَ أنَّ ٱلرجلَ مِنَ ٱلحُكماءِ إذا تأملَ وجهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتَهُ ٱلمطمئنَّةَ ٱلمتمكِّنةَ من معناها ٱلمقرِّ أوِ ٱلمنكِرِ أوِ ٱلساخِرِ أو أيِّ ٱلمعاني ـ حسِبَ نفسَهُ يرى

---

(١) أسباب وطيدة: علائق ووشائج قوية.

شكلاً مِنَ ٱلقولِ لا مِنَ ٱلضحك، وظهرَتْ لَهُ تلك ٱلابتسامةُ ٱلفلسفيَّةُ متكلِّمةً، كأنَّها مرةً تقول: هذا حقيقيّ. ومرّةً تقول: هذا غيرُ حقيقيّ.

إنَّ سعداً ٱلعظيمَ كانَ رجلاً ما نظرَ إليهِ وطنيٌّ بعينٍ فيها دلائلُ أحلامِها، كأنَّما هو شخصُ فكرةٍ لا شخصُ إنسان؛ فإذا أنت رأيتَهُ كانَ في فِكْرِك قبلَ أنْ يكونَ في نظرِك؛ فأنت تَشهدُهُ بنظرين: أحدهُما ٱلذي تُبصِرُ بِه، والآخرُ ذاك ٱلذي تُؤْمِنُ بِه.

عبقريٌّ كاًلجمرةِ ٱلملتهبةِ لا تحسبُهُ يعيشُ بلْ يحترقُ ويُحرق؛ ثائرٌ كاًلزلزلةِ فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حولَه؛ صريحٌ كَصراحةِ ٱلرُسُل، تلك ٱلتي معناها أنَّ ٱلأخلاقَ تقولُ كلمتَها.

رجلُ ٱلشعبِ ٱلذي يُحِسُّ كلُّ مِصريٍّ أنَّهُ يملكُ فيهِ مِلكاً مِنَ ٱلمجد. وقد بلغَ في بعضِ مواقفِهِ مبلغَ ٱلشريعة، فٱستطاعَ أنْ يقولَ لِلناس: ضعوا هذا ٱلمعنى في ٱلحياة، وٱنزِعوا هذا ٱلمعنى مِنَ ٱلحياة.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱنقضتِ ٱلزيارةُ وخرجَ سعدٌ وٱلباشا إلى يسارِهِ، فلمَّا رجعَ من وداعِهِ قالَ لي: ـ واللهِ ـ يا بُنيَّ لكأنَّما زادَ هذا الرجلُ في ألقابِ ٱلدولةِ لقباً جديداً، ثُمَّ ضحكَ وقال: أتدري ما هو هذا ٱللقب؟ قلْت: فما هو يا باشا؟

قال: ـ واللهِ ـ يا بُنيَّ ما من (باشا) في هذه ٱلدولةِ يكونُ إلى جانبِ سعد، إلَّا وهو يشعرُ أنَّ رتبتهُ (نصف باشا)...

هذا رجلٌ قد بلغَ مِنَ ٱلعظمةِ مبلغاً تَصاغرَ معهُ ٱلكبير، وتضاءَلَ ٱلعظيم، وتقاصَر ٱلشامخ؛ نعم وحتى تركَ أقواماً من خصومِهِ ٱلعظماء، كفلانٍ وفلان، وإنَّ ٱلواحدَ منهم لَيلوحُ لِلشعبِ من فراغِهِ وضعفِهِ وتَطَرُّحِهِ، كأنَّهُ ظِلُّ رجلٍ لا رجل.

وقد أصبحَ قوةً عاملةً لا بدَّ من فعلِها في كلِّ حيٍّ تحتَ هذا ٱلأفقِ، حتى كأنَّ معانيَ نفسِهِ ٱلكبيرةِ تنتشرُ في ٱلهواءِ على ٱلناس، فهو قوَّةٌ مرسَلةٌ لا تُمسَك، ماضيةٌ لا تُردّ، مقدورةٌ لا يُحتالُ لها بحيلة.

هذا وضْعٌ إلهيٌّ خاصٌّ لا يُشبهُهُ أحدٌ في هذه ٱلأُمَّة، كمَيدانِ ٱلحربِ لا تُشبهُهُ ٱلأمكنةُ ٱلأخرى؛ فقد غامَرَ سعدٌ في ٱلثورةِ ٱلعُرابيَّةِ وخرجَ منها، ولكنَّها هي لم تخرجْ منه، بلْ بقيَتْ فيه؛ بقيَتْ فيه تتعلَّمُ ٱلقانونَ وٱلسياسةَ، وتُصلِحُ أغلاطَها، ثُمَّ ظَهرَتْ منه في شكلِها ٱلقانونيِّ ٱلدقيق. وبهذا تراهُ يَغْمُرُ ٱلرجالَ مهما كانوا أذكياء؛

لِأنَّ فيهِ ماليسَ فيهم، وتراهم يظهرون إلى جانبِهِ أشياءَ ثابتةً في معانيها، أمَّا هو فتراهُ من جميعِ نواحيهِ يتلاطمُ كالأمواجِ ٱلعاتية.

وتلك ٱلثورةُ هي ٱلتي تتكلمُ في فمِهِ أحياناً فتجعلُ لِبعضِ كلماتِهِ قوَّةً كقوَّةِ ٱلنصرِ، وشهرةً كشهرةِ موقعةٍ حربيَّةٍ مذكورة.

ولمَّا كانَ هو ٱلمختارَ لِيكونَ أباً لِلثورة - حرمَتْهُ ٱلقدرةُ ٱلإلهيَّةُ ٱلنسلَ، وصرفَتْ نزعةَ ٱلأبوَّةِ فيهِ إلى أعمالِهِ ٱلتاريخيَّة، ففيها عِنايتُهُ وقلبُهُ وهمومُهُ، وهي نسلٌ حيٌّ من روحِهِ ٱلعظيمة، ويكادُ معها يكونُ أسداً يزأرُ حولَ أشبالِهِ. ولنْ يُذكَرَ ٱلسياسيُّون ٱلمِصريُّون مع سعد، ولنْ يُذكرَ سعدٌ نفسُهُ إذا ٱنقلبَ سِياسيًّا، فإنَّ ٱلمكانَ ٱلخاليَ في ٱلطبيعةِ ٱلآنَ هو مكانُ رجلِ ٱلمقاومةِ لا رجلِ ٱلسياسة، وهذا هو ٱلسببُ في أنَّ سعداً يُشْعِرُ ٱلأُمَّةَ بوجودِهِ لذةً كلذةِ ٱلفوْزِ وٱلانتصار، وإنْ لم يفزْ بشيءٍ ولم ينتصرْ على شيء؛ فٱطمئنانُ ٱلشعبِ إلى زعيمِ ٱلمقاومة، هو بطبيعتِهِ كٱطمئنانِ حاملِ ٱلسلاحِ إلى سِلاحِهِ.

وسعدٌ وحدَهُ هوَ ٱلذي أفلحَ في أنْ يكونَ أستاذَ ٱلمقاومةِ لِهذهِ ٱلأُمَّة؛ فنسخَ قوانينَ، وأوجَد قوانين، وحملَ ٱلشعبَ على ٱلإعجابِ بأعمالِهِ ٱلعظيمة، فنبَّهَ فيهِ قوَّةَ ٱلإحساسِ بالعظمةِ فجعلَهُ عظيماً، وصرفَهُ بٱلمعاني ٱلكبيرةِ عنِ ٱلصغائر، فدفَعهُ إلى طريقِ مستقبلِهِ يُبدعُ إبداعَهُ فيه.

إنَّ هذا ٱلشرقَ لا يحيا بِٱلسياسةِ ولكنْ بالمقاومةِ وما دامَ ذلك ٱلغربُ بإزائهِ؛ وٱلفريسةُ لا تتخلَّصُ مِنَ ٱلحلْقِ ٱلوحشيّ إلَّا بِٱعتراضِ عِظامها ٱلصلبةِ ٱلقويَّةِ في هذا ٱلحَلْق.

وكم في ٱلشرقِ من سياسيٍّ كبيرٍ يجعلونَهُ وزيراً، فتكونَ ٱلوظيفةُ هي الوزيرَ لا نفسُ ٱلوزير، حتى لو خلعوا ثِيابَهُ على خشبةٍ ونصَّبوها في كرسيه، لكانَتْ أكثرَ نفعاً منهُ لِلأُمَّة، بأنَّها أقلُّ شرًّا منه...

يا بُنيّ، كلُّ ٱلناسِ يرضَونَ أنْ يتمتَّعوا بالمالِ وٱلجاهِ وٱلسيادةِ وٱلحكم، فليسَتْ هذه هي مسألةَ ٱلشرق، ولكنَّ ٱلمسألة: مَن هو ٱلنبيُّ ٱلسياسيُّ ٱلذي يرضى أنْ يُصْلَب...؟

حماسةُ ٱلشعب

وحدَّثَني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لَمَّا رجعَ سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١، كانَتِ ٱلأُمَّةُ في ٱستقبالِهِ كأنَّها طائرٌ مدَّ جناحيه، لا خِلافَ لِشيىءٍ منه على شيىءٍ منه، بلْ كلُّهُ هو كلّه؛ وكانَتِ ٱلمعارضَةُ في ٱلاستحالةِ يومئذٍ كٱستحالةِ وجودِ رُقعةٍ في ريشِ ٱلطائر.

على أنَّ ثوبَ ٱلسياسةِ ٱلمصريَّةِ كثيرُ ٱلرُّقع دائماً بٱلجديدِ وٱلخَلَقِ(١)، فرقعةٌ مِنَ ٱلمعارضين، وأخرى مِنَ ٱلمتعنّتين(٢)، وثالثةٌ منَ ٱلمتخاذلينَ(٣)، ورابعةٌ منَ ٱلمعادين، وخامسةٌ وسادسةٌ وسابعةٌ مِنَ ٱلحاسدينَ وٱلمنافسينَ وٱلمختلفين لِشهوةِ ٱلخِلاف؛ ورِقاعٌ بعدَ ذلِك مِمَّا نعلمُ وما لا نعلم، فإنَّ مِنَ ٱلعجيبِ أنَّ هذا ٱلجوَّ ٱلذي لا يتقلَّبُ إلَّا بطيئاً، يتقلَّبُ أهلُهُ بِسُرْعَة؛ وهذهِ ٱلطبيعةُ ٱلتي لا تكادُ تختلف، لا يكادُ أهلُها يتَّفقون.

ولكنَّ سعداً (رحمَهُ ٱلله) رجعَ مِنَ أوربا رجعةَ ٱلكرامةِ لِأُمةٍ كاملة، ففازَ بأنَّهُ لم يخسرْ شيئاً مِنَ ٱلحق، وٱنتصرَ بأنَّهُ لم يُهزم، ودلَّ على ثباتِهِ بأنَّهُ لم يتزعزع، وذهبَ صَولةً ورجعَ صَولةً وعزيمة؛ فكانَ إيمانُ ٱلشعبِ هوَ ٱلذي يتلقَّاه، وكانَتِ ٱلثورةُ هيَ ٱلتي تحتفِلُ به، وبطلتِ ٱلعللُ كُلها فلم يجدِ ٱلاعتراضُ شيئاً يعترضُ عليه، وٱتَّفقتِ ٱلأسبابُ فٱجتمعتِ ٱلكلمة، وظهرَ سعدٌ كأنَّهُ روحُ ٱلأُمَّةِ متمثِّلاً في قُدْرة، حاكماً بقوَّة، متسلِّطاً بيقين.

نعمْ لم ينتصرِ ٱلبطلُ، ولكنَّ ٱلأُمَّةَ ٱحتفتْ بِهِ لأنَّهُ يمثِّلُ فيها كمالاً من نوعٍ آخرَ هو سرُّ ٱلانتصار؛ فكانَتْ حماسةُ ٱلشعبِ في ذلك ٱليوم حماسةَ ٱلمبدإِ ٱلمتمكِّن: يُظهرُ شجاعَةَ ٱلحياة، وفَوْرةَ ٱلعزائم، وفضيلةَ ٱلإخلاص، وشدَّةَ ٱلصوْلة، وعِنادَ ٱلتصميم؛ ويُثبتُ بقوَّةِ ظاهرِهِ قوةَ باطنِهِ، وكانَ فرحُ ٱلأُمَّةِ عِناداً

---

(١) الخلق، بالفتح: البالي.

(٢) المتعنتين: المتشددين.

(٣) المتخاذلين: المنهزمين.

سياسيًّا يفرحُ بأنَّهُ لا يزالُ قويًّا لم يَضعف، وكانَ ٱبتهاجُها مجداً يُشعرُ بأنَّهُ لا يزالُ وافراً لم يُنْتَقَص، وكانَ ٱلإجتماعُ ردًّا على ٱليأس، وكَانَتِ ٱلحماسةُ ردًّا على ٱلضعف.

اِنبعَثتْ صولةُ ٱلحياةِ في ٱلشعبِ كلِّه، وٱبتدأَ ٱلمستقبلُ من يومئِذ، فلو نزلَتِ ٱلملائكةُ مِنَ ٱلسماءِ في سحابةٍ مُجَلْجِلةٍ[1] يسمَعُ تسبيحَهُمْ لِيُؤيِّدوا سعداً ـ لَماَ زادوه شيئاً؛ فقد كانَ محلُّهُ مِنَ ٱلقلوبِ كأنَّهُ ٱلعقيدة، وكانَ ٱلتصديقُ مبذولاً لَهُ كأنَّهُ ٱلكلمةُ ٱلأخيرة، وكانَتِ ٱلطاعةُ موقوفةً عليهِ كأنَّهُ ٱلباعثُ ٱلطبيعيّ، وكانَ ٱلبطلُ في كلِّ ذلك يُشبِهُ نبيًّا من قِبَلِ أنَّ كلًّا منهما صورةٌ كاملةٌ لِلسموِّ في أفكارِ أُمَّة.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: ورجعَ ٱلباشا مِنَ ٱلقاهرةِ وقد رأى ما رأى من مسامحةِ ٱلنفوس، وصِحَّةِ ٱلعهْد، وٱجتماعِ ٱلكلمة، وإعدادِ ٱلشعبِ لِلمِراسِ وٱلمُعاناة، فقال:

تَاللهِ لقد أَثبتَ (سعدٌ) لِلدنيا كلِّها أنَّ مِصرَ ٱلجبارَةَ متى شاءَتْ بَنتِ ٱلرجالَ على طريقةِ ٱلهرمِ ٱلأكبرِ في ٱلعظمةِ وٱلشهرةِ وٱلمنزلةِ وٱلقوَّة. ولقد صنعَ هذا ٱلرجلُ ٱلعظيمُ ما تَصنَعُ حربٌ كبيرة، فجمعَ ٱلأُمَّةَ كلَّها على معنًى واحدٍ لا يتناقض، ودفَعَها بروحِ قوميَّةٍ واحدةٍ لا تختلف، وجعلَ عِرْقَ ٱلسياسةِ يفورُ كما يفورُ ٱلعِرْقُ ٱلمجروحُ بِٱلدم.

إنَّ هذه ٱلأُمَّةَ بينَ شيئينِ لا ثالثَ بينهما: إمَّا ٱلحزْمُ إلى ٱلآخرِ وإمَّا ٱلإضاعة. ولا حزْمَ إلَّا أنْ يبقى ٱلشعبُ كما ظهرَ ٱليوم: طُوفاناً حيًّا، مُسْتَوِيَ ٱلطبيعة، مندفعَ ٱلحركةِ، غامِراً كلَّ ما يعترضُه، إلى أنْ يُقضَى ٱلأمرُ ويقولَ أعداؤُنا: يا سماءُ أقلعي.

هكذا يعملُ ٱلوطنُ معَ أهلِهِ كأنَّهُ شخصٌ حيٌّ بينهَم، حينَ يستوي ٱلجميعُ في ٱلثقة، ويتآزرُ ٱلجميعُ في ٱلأمل، ويشتركُ ٱلجميعُ في ٱلعطفِ ٱلروحيِّ، ولا يبقى لِجماعةٍ منهم حظٌّ في رغبةٍ غيرِ ٱلرغبةِ ٱلواحدةِ لِلجميع؛ وهكذا يعملُ ٱلوطنُ بأهلِهِ حينَ يعملُ معَ أهلِه.

كانَ أعداؤُنا يحسبوننا ذُباباً سياسيًّا لا شأنَ لَهُ إلَّا بفضَلاتِ ٱلسياسة، ولا عملَ

---

(١) مجلجلة: مدوّية.

لهُ في أزهارِها وأثمارِها وعِطْرِها وحَلواها؛ فأسمعَهُمُ ٱلشعبُ ٱليومَ طنينَ ٱلنحل، وأراهم إبَرَ ٱلنحلِ، لِيعلموا أنَّ ٱلأزهارَ وٱلأثمارَ وٱلعِطْرَ وٱلحلوى هي لَهُ بالطبيعة.

وكانوا يتخرّصون[1] أنَّ مذهبَنا في ٱلحياةِ لِمصلحةِ ٱلمعاشِ فقط، وأنَّ ٱلمِصريَّ، حاكماً أو محكوماً، لا يَمدُّ آمالَهُ ٱلوطنيَّةَ إلى أبعدَ من مدَّةِ عمرِهِ سبعينَ أو ثمانينَ سنة، فإذا أطلقوا أيدِيَنا في حاضرِ ٱلأُمَّةِ أطلقْنا أيديَهم في مستقبلِها. ومن ثَمَّ طمِعوا أنْ يكونَ ٱلحقُّ ٱلناقصُ في نفسِهِ حقًّا تامًّا في أنفسِنا لِهذه ٱلعِلَّة؛ وحسِبُوا أنَّ ٱلسياسيَّ ٱلمصريَّ لا يتجرأ أنْ يقولَ ما يقولُهُ ٱلسياسيَّ ٱلأوربيُّ: من أنَّهُ لا يخشى ٱلموتَ ولكنَّهُ يخشى ٱلعَارَ. فإنَّهُ إذا ماتَ وحدَهُ، وإذا جلبَ ٱلعارَ جلبَهُ على نفسِهِ وعلى أمتِهِ وعلى تاريخِ أُمَّتِهِ، بيْدَ أنَّ سعداً قالَها؛ وفي مثلِ هذا يكونُ قولُ (لا) معركة.

وها هي ذي معركةُ ٱليومِ ٱلتاريخيَّة، فإنَّ ٱلذرَّاتِ ٱلحيَّةَ ٱلتي تُخلَقُ من دِمائِنا ـ نحن ٱلمصريينَ ـ قد ثارَتْ في هذه ٱلدماء، في هذا ٱلنهار، تُعلِنُ أنَّها لا ترضى أنْ تولَدَ مقيَّدةً بقيود.

أتدري ماذا عرضوا على سعد؟ إنَّهم عرضوا عليهِ ما يُشبهُ في ٱلسخريةِ طاحونةً تامَّةَ ٱلأدواتِ وٱلآلاتِ من آخرِ طراز، ثُمَّ لا تُقدِّمُ لها إلَّا حبةُ قمحٍ واحدةٍ لِتطحنَها.... نتيجةٌ تسخرُ من أسبابِها، وأسبابٌ تهزأُ بِٱلنتيجة.

إنَّ أوربا لا تحترمُ إلا مَنْ يحملُها على ٱحترامِه، فما أرى لِلسياسيينَ في هذا ٱلشرْقِ عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أردَّ بِٱلفائدةِ من إحياءِ ٱلحماسةِ ٱلدائمةِ ٱلقويَّةِ ٱلبصيرةِ، هي قوةُ ٱلرفضِ لِمَا يجبُ أنْ يُرفَض، وقوةُ التأييدِ، لِمَا يجبُ أنْ يُقبلَ، وهي بعدَ ذلكَ وسيلةُ جمعِ ٱلأمرِ، وإحكامِ ٱلشأن، وإقرارِ ٱلعزيمةِ في ٱلأَخلاق، وتربيةِ ٱلثقةِ بٱلنفس، وبها يكونُ إذكاءُ ٱلحِسِّ وتعويدُهُ إدراكَ ٱلأعمالِ ٱلعظيمة، وٱلتحمسَ لها، وٱلبذلَ فيها.

وما عِلَّةُ ٱلعِلَلِ فينا إلَّا ضعفُ ٱلحماسةِ ٱلشعبيَّةِ في ٱلشرق، وسوءُ تدبيرِها، وقبحُ سياستِها؛ وإنَّا لَنَأخُذُ عنِ ٱلأوربيِّينَ من نِظامِهم وأساليبِهم وسياستِهم وعلومِهم وفنونِهم؛ فنأخذُ كلَّ ذلكَ بروحِنا ٱلفاترةِ في خمولٍ وإهمالٍ وتواكُلٍ وتَفرُّدٍ بِٱلمصلحةِ وٱستبدادٍ بِٱلرأي، فإذا دينارُهم في أيدينا درهم، وإذا نحن وإيَّاهم في ٱلشيءِ الواحدِ كَٱلنحلةِ وٱلذبابةِ على زهرة...

---

(١) يتخرّصون: يتقوّلون.

ليسَتْ لِنا حماسةُ ٱلحياة، وبهذا تختلفُ أعمالُنا وأعمالُهم، وذلك هوَ ٱلسرُّ أيضاً في أنْ أكثرَ حماستِنا كلاميةٌ مَحْضةٌ؛ إذْ يكونُ ٱلصُّراخُ وٱلصِّياحُ وٱلتَّشدُّقُ[1] ونحوُها من هذه ٱلمظاهرِ ٱلفارغة ـ تنقيحاً لِلطبيعةِ ٱلساكنةِ فينا، وتنويعاً منها بغيرِ أنْ نَجهدَ في ٱلتنقيحِ وٱلتنويع. ومن هذا كانَتْ لنا أنواعٌ مِنَ ٱلكلام ينطلِقُ ٱللسانُ فيها لِلخروجِ مِنَ ٱلصمتِ لا غير... ومنه كثيرٌ من هذا ٱلهُراءِ ٱلسياسيِّ ٱلذي يدورُ في ٱلمجالسِ وٱلأحزابِ وٱلصحف.

إنَّ حماسةَ ٱلشعبِ لا تكونُ على أعدائِهِ فقط؛ بل على معايِبهِ أيضاً، وعلى ضَعفِهِ بخاصَّة، وٱلشعبُ ٱلفاترُ في حماستِهِ لو نالَ حقينِ مغصوبينِ لَعادَ فخَسِرَ أحدَهما أو كليهما، أمَّا ٱلشعبُ ٱلمتحمسُ ٱلقويُّ في حماستِه، فلو غُصِبَ حقينِ ونالَ أحدَهما لَعادَ فٱبْتَزَّ[2] الآخر.

---

(١) التشدُّق: التصنُّع في الكلام والتقعر فيه. (٢) ابتزّ: استحوذ: وأخذ بقوّة.

الجمهور

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: كانَ من بعضِ عملي في ٱلحكومةِ سنة ١٩٢٢ أنْ أُراقِبَ ٱلحركاتِ وٱلسكناتِ، وأبثَّ ٱلعيونَ وٱلأَرْصادَ، وأعرِفَ ٱلمضطَرِب وٱلمنقلبَ في أيَّامِ ٱلفتنِ ونوازِلِ ٱلمِحْنةِ، محافظةً على ٱلأمن، ومُبادَرةً لِمَا يُتوقَّع؛ فكنْتُ كاَلمرصَدِ اٱلمهيَّإِ بآلاتِهِ لِتدوينِ حركاتِ ٱلزلازل.

وٱنتهى إلينا يوماً أنْ راجفةً منَ هذه ٱلزلازلِ سترجُفْ بفلانٍ من أهلِ ٱلرأْيِ ٱلحرّ؛ ٱلذي يَستقِلُّ ولا يُتابِعُ، وينتقِدُ ولا يُحابي، ويُصرِّحُ ولَا يُجَمْجِمُ[1]، وأنَّ قوْماً ثوَّروا عليهِ ٱلغُبَارَ الآدميَّ مِنَ ٱلعَامَّة، وأنَّهم يتحيَّنون ٱلوقتَ لِتوجيهِ ٱلمكيدةِ لَهُ في شكلِها ٱلمفترسِ من هذا ٱلجمهورِ ٱلناقم.

أمَّا فلانٌ هذا فرجلٌ سِياسيٌّ عنيدٌ أضاعَ ٱلحقَّ كلَّهُ لأنَّهُ لا يرضى بنصفِ ٱلحقّ... وكلمتُهُ في ٱلسياسةِ كأنَّما تُلقَى على لِسانِهِ مِنَ ٱلغيب؛ فلا يتحوَّلُ عنها ولا يملكُ أنْ يتكلَّمَ إلَّا بما يتكلَّم؛ وقد ذهبَ بصوتِهِ أنَّهُ في قوم لا يسمعون إلَّا ما أرادوا، فهو بينَهم كَٱلحقِّ ٱلمغلوبِ: لا يموتُ لأنَّهُ غيرُ باطل، ثُمَّ لا يحيا لِأنَّهُ لا ينتصر. وقد كانَ رجلاً كٱلمِصباحِ ٱلوهَّاج[2] فألقَوْا عليهِ ٱلغِطاء، فإذا هو في طبيعتِهِ ويبدو لِلناس بغيرِ طبيعتِه، وتركَهُ رأيُهُ ٱلحرُّ ٱلصريحُ كٱلنبيِّ ٱلمكذَّبِ يَرُدُّ صِدقُه؛ لا لِأنَّهُ غيرُ صِدْق، ولكنْ لأنَّهُ غيرُ مستطاعٍ، أو غيرُ ملائم.

ومن آفاتِنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ أنَّنا نستمرِئُ ٱلعداوَة، وننقادُ لِأسبابها، ونتطَاوعُ لها تطاوُعَ ٱلصِّغارِ بأنفسِهم لِمَا في أنفسِهم؛ كأنَّ ٱلمستبدين ٱلذين كانوا في تاريخِنا قدِ ٱنتقلوا إلى طَبائِعنا؛ فَرَدُّ ٱلفكرِ على ٱلفكرِ في مناقشةٍ تَجري بينَنا ـ لا يكونُ من دَفْعِ ٱلحقيقةِ لِلحقيقة، ولكنْ من ردِّ ٱلاستبدادِ على ٱلاستبداد، ومن توثُّبِ ٱلطغيانِ على ٱلطغيان؛ فهوَ ٱلثَّلْبُ[3]؛ وٱلطعنُ وٱلتجريح، وهو ٱلجَفْوةُ وٱلخصومةُ

---

(١) يُجمجم: يتكلم في داخله بما لا يفْهم.

(٢) الوهّاج: الوضّاء.

(٣) الثلب: التجريح بسيّء الكلام.

واللَّدَد، وهو المنازعةُ والعُنفُ والتَّحامل؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط. والجِدالُ بينَ العُقلاءِ يبعثُ الفكرَ فينتهي إلى الحقّ، ولكنَّهُ فينا نحن يَهيجُ الخُلقُ فينتهي إلى الشرّ، والردُّ على عظيم منَّا كأنَّهُ يردُّ على منزلتِهِ في الرأي، وكشفُ الخطأ عندَنا تعييرٌ بالخطأ لا تبصيرٌ بالصواب، واستِلابُ[1] الحُجَّةِ من صاحبِها وإفسادُها عليهِ كاستلابِ الملكِ من مالكِهِ وطردِهِ منه... ومن ثَمَّ كان الدفاعُ بالمكابرةِ أصلاً من أصولِ الطبيعةِ فينا، وكانَ الاضطهادُ حُجَّةً لِلحُجةِ العاجزة، وكانَ الإعناتُ[2] دليلاً لِلدليلِ الذي لا ينهضُ بنفسِهِ،و ومتى اعتبَرَ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ إمبراطوراً على الحقِّ... فلا جَرَمَ لا تَردُ كلمةٌ على كلمةٍ إلَّا بحرب.

***

قالَ صاحبُ السرّ: وكَبُرَ الأمرُ على الباشا، فجمعَ رُؤُوسَ المؤتمرينَ بذلك الرجلِ الحرّ، وأخذَ يقلِّبُهم تقليبَهُ بينَ التودُّدِ والملاطفة، وقالَ لهم فيما قال: إنَّ فضيلةَ الجمهورِ هي التي تضمنُ تربيةَ الفضيلةِ وحفظَها وغَلَبَتَها على الرذائل، وإنَّ كلَّ صحيحٍ يكونُ فاسداً إذا لم يكنِ الجمهورُ صحيحاً، وإنَّ غيرَ العقلاءِ همُ الذين يقبلون الحقيقةَ في يوم ثم يرفضونَها هي ذاتَها في يومٍ آخر، فإنْ ذَهَبْتَ تُجادِلُهم وتحتجُّ عليهم بأنَّهم قبلُوها ـ قالوا: هذا كانَ أمسِ... فكأنَّما الفاصلُ بين زمنينِ يجعلُ الشيءَ الواحدَ ضِدَّين.

ثُمَّ سألَهم: ما هو ذنبُ الرجل؟ فقالَ منهم قائل: إنَّهُ خارجٌ علينا في الرأي. فقالَ الباشا: إنَّ المعنى في أنَّهُ يُخالِفُكم هو أنَّكم أنتم تُخالفونه؛ فقد تكافأتِ الناحيتان، وخلافٌ بخلاف؛ فما الذي جعلَ حقَّ ردِّهِ عنِ الرأي دونَ أنْ يكونَ لَهُ مثلُ هذا الحقِّ في رَدِّكُمْ أنتم؟

قالوا: إنَّنا الكثرة. قالَ الباشا: يا أصدقائي، إنَّ خوفَ الكثرةِ من رأيِ فرْدٍ أو أفرادٍ هو أسوأُ المعنَيَينِ في تفسيرِ رأيها هي؛ وعشرةُ جنيهاتٍ لا تعبأُ بالجنيهِ الواحد، فإنَّها تستغرِقُهُ؛ بَيْدَ أنَّ هذه ليسَتْ حالَ عشرةِ قروشٍ يا أصدقائي...

نعمْ إنَّ قطْعَ الخِلافِ ضرورةٌ من ضروراتِ الوطنيَّة، ولكنْ إذا كانَ الأمرُ في ظَاهرِهِ وباطنهِ كالخِلافِ في أيّهما أطولُ: العَصا أوِ المئذنة...؟ فذلك جِدالٌ محسومٌ من نفسِهِ بِلا جدالَ.

---

(١) استلاب: سرقة.

(٢) الإعنات: الاتعاب.

إنَّ أساسَ ٱنخذالِنا[1] ـ نحن ٱلشرقيين ـ في قلوبِنا، إذْ لا نعتبرُ ٱلمعانيَ ٱلعامَّةَ إلَّا من جِهةِ أنَّها قائمةٌ بٱلرجال، ثُمَّ نعتبرُ ٱلرجالَ إلَّا من ناحيةِ ما في أنفسِنا منهم، ثُمَّ لا نعتبرُ أنفسَنا إلَّا من جِهةِ ما يُرضينا أو يُغضبُنا، وقد لا يُغضبُنا إلَّا ٱلحقُّ وٱلجِدُّ، وقد لا يُرضينا إلَّا ٱلباطلُ وٱلتهاون، ولكنَّا لا نُبالي إلَّا ما نَرضى وما نغضَب.

لسْتُم أحراراً في أنْ تجعلوا غيرَكم غيرَ حرّ، فإنْ يكُنِ ٱلرأيُ الذي يُعارضُكم رأيًا حقًّا وتركتُم مُنَابذَتَهُ[2] فقد نصرتُمُ ٱلحقّ؛ وإنْ يكنْ باطلاً فإظهارُهُ باطِلاً هو بُرهانُ ٱلحقِّ ٱلذي أنتم عليه؛ ولن تُجرِّدوا[3] أحداً من ٱختيارِ ٱلرأيِ إلَّا إذا تَجرَّدتُمْ أنتم منِ ٱختيار ٱلعدل، فإنْ فعلتُمْ فهذه كبرياءُ ظالمةٌ، تدَّعي أنَّها ٱلحقّ، ثُمَّ تَدَّعي لِنفسِها حُكْمَهُ، فقد كذَبَتْ مرتين.

اِسمعوا أيُّها ٱلسادة: قامَتْ بين ٱثنينِ من فلاسفةِ ٱلرأيِ مناظرةٌ في صحيفةٍ مِنَ ٱلصحف، وتسَاجَلا[4] في مقالاتٍ عِدّة، فلمَّا عجزَ أضعفُهما حُجَّةً وكَعَمَهُ[5] ٱلجدال، كتبَ مقالتَهُ ٱلأخيرةَ فجاءَتْ سقيمةً، فلم تُرضِهِ فبيَّتَها ونامَ عنها على أنْ يَرسلَها مِنَ ٱلغَداةِ بعدَ أنْ يُردِّدَ نظرَهُ فيها ويُصحِّحَ آراءَهُ بِٱلحُجَجِ ٱلتي يُفتحُ بها عليه. قالوا: فلمَّا نامَ تمثَّلَتْ لَهُ ٱلمقالةُ في أحلامِهِ جِسْماً حيًّا موهوناً مترضِضاً[6]، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً مِمَّا بينهما؛ ثُمَّ كلَّمَتْهُ فقالَتْ لَه: ويحكَ أيُّها ٱلأبله! إنْ أردْتَ أنْ تغلبَ صاحبَكَ وتُسكِتَهُ عنك، فٱحمِلْ مقالَتَك إلى رأسهِ في ٱلعصا لا في ٱلجريدة. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وضحكَ ٱلقومُ جميعاً، وأذعنوا[7] وٱنصرفوا مقتنعين، قد خَلُصَتْ دِخلتُهُمْ لِذلكَ ٱلرجلِ ٱلحرِّ وتنصَّلوا[8] من جريمةٍ كانَتْ في أيديهم، وما

---

(١) انخذالنا: انهزامنا.

(٢) منابذته: مخالفته ومجادلته.

(٣) تجرّدوا: تعرّوا.

(٤) تساجلا: تحاورا وتجادلا وتارة يربح هذا وتارة أخرى يربح ذاك.

(٥) كعم: شدّ فاه لئلا يعضّ أو يأكل وهو يقصد أسكته.

(٦) مترضضاً: مصاباً بالرضوض في جسمه.

(٧) أذعنوا: خضعوا.

(٨) تنصّلوا: تبرّأوا.

جاءَ ٱلباشا بمُعْجزٍ مِنَ ٱلقول، ولكنَّ تصويرَهُ لِلمسألةِ كانَ حلّاً لها في نفوسِهم. فلمَّا أدبروا[1] تنفَّسَ ٱلباشا كأنَّما خرجَ مِنَ ٱلبحرِ وكانَ يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ويُعاني فيهِ حتى نجا؛ ثُمَّ قالَ لي: إنَّ هذا كانَ جواباً عن شيءٍ في أنفسِهم، ولكنَّه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسِنا: ما ٱلذي يجعلُ ٱلناسَ عندنا يخشَوْنَ ٱلمُعارضةَ في ٱلرأي ٱلوطنيِّ حتى إنَّهم لَيُجازُون عليها بهذه ٱلعقوبةِ ٱلشعبيّةِ ٱلمنكرة؟ وما بالُهم لا يُعطون ٱلرأيَ حُكْمَهُ وحقيقتَه، بل يُعطونَهُ من حُكْمِ أنفسِهم وحقائِقِها وشهواتِها ٱلمتقلِّبة، حتى لَترجعُ ٱلفروقُ ٱلضعيفةُ ٱلمتجانِسةُ في أبناءِ ٱلوطنِ ٱلواحدِ وكأنَّها مِنَ ٱلخِلافِ وٱلمبايَنَة فروقٌ جنسيَّةٌ كٱلتي تكونُ بين إنسانٍ من أُمَّة، وإنسانٍ من أُمَّةٍ أخرى تُعاديها.

قلْت: إنَّ رأيَ ٱلكثرةِ قانونٌ يا باشا.

قال: هذا صحيح، ولكنْ بشرطينِ لا بشرطٍ واحد: الأولُ ألّا يخرجَ ٱلرأيُ على ٱلقانون، وٱلثاني ألّا تكونَ ٱلحقيقةُ في ٱلرأي ٱلذي يُناقِضُهُ؛ ومُحاولةُ إكراهِ ٱلمعارضةِ نقضٌ لِلشرطينِ معاً؛ ثُمَّ إنَّ أساسَ ٱلوطنيَّةِ سلامةُ ٱلقلوبِ وصفاءُ ٱلنيَّات، وٱستواءُ ٱلمُوافق وٱلمُخالِفِ في هذا ٱلحكم، ومتى وقعَ ٱلخِلافُ بينَ ٱثنينِ وكانتِ ٱلنيةُ صادقةً مُخْلِصَة، لم يكنِ ٱختلافُهما إلّا من تنوُّعِ ٱلرأي، وٱنتهيا إلى ٱلاتفاق بغلبةِ أقوى ٱلرأيين، وما من ذلك بُدّ.

الحقيقةُ يا بُنيَّ أنَّ ٱلجماهيرَ ٱلشرقيَّةَ ليسَتْ في تربيتِها مِنَ ٱلجماهيرِ ٱلسياسيةِ ٱلتي يُعتدُّ بها، إذْ لا تزالُ في أولِ عمرِها ٱلسياسيّ، وبهذا ٱلسببِ وحدَهُ كانَ ٱختلافُ ٱلكُبراءِ في ٱلسياسةِ لا يُشبهُهُ إلّا نِزاعُ ٱلخصمينِ بغيرِ شهودٍ ولا قاضٍ نافذِ ٱلحكم، فهو نزاعُ قوَّةٍ تفورُ بوسائِلها، لا نِزاعُ حقٍّ يَسْتعْلي بأدلتِه.

وهذه ٱلمجالسُ ٱلنيابيَّةُ ٱلشرقيةُ كلُّها صُورٌ ممثَّلةٌ جافَّةَ، منقطعةُ ٱلسماءِ من أسبابِها، كٱلفرعِ ٱلمقطوعِ مِنَ ٱلشجرة، وإنَّما يتنضَّرُ ٱلفَرْعُ ويُثمِرُ أثمارَهُ إذا قامَ بشجرتِهِ لا بنفسِهِ، وما شجرةُ ٱلفرْعِ ٱلسياسيِّ إلّا ٱلجمهورُ ٱلسياسيّ.

فسبيلُ ٱلإصلاحِ في كلِّ مملكةٍ شرقيَّةٍ أنْ ينهضَ أهلُ ٱلرأي من كلِّ مدينةٍ فيها بينَ عالمٍ وأديبٍ ومُحامٍ وسَريّ، ومَنْ كانَ بسبيلٍ مِنْ هؤلاء، فيجعلوا لِمدينتِهم دارَ ندْوةٍ لِلاجتماعِ وٱلبحثِ وٱلمشُورة، وقولُ (نعم) بِٱلحُجَّةِ وقولُ (لا) بِٱلحُجَّة. ثُمَّ

---

(١) أدبروا: تراجعوا إلى الوراء.

يُعلنون ذلك في جمهورِهم وينزلونَ منه منزلَةَ ٱلأستاذِ وٱلأبِ وٱلصديقِ في تعليمِهِ وهِدايتِهِ وإرشادِهِ؛ وتتَّصِلُ هذه ٱلدورُ في كلِّ مملكةٍ بعضُها بِبعض، وتنتهي بٱلمجالسِ ٱلنيابيَّة. وبغيرِ ذلك لا يُملأُ ٱلفراغُ ٱلذي نراهُ خاوياً[1] بينَ ٱلشعبِ وٱلحكومة، وبينَ ٱلكُبراءِ وٱلجماهير، وإنَّما أكثرُ مصائِبنا من هذا ٱلفراغ؛ فهو ٱلذي يَضيعُ فيهِ ما يضيعُ فيه، ويختفي ما يختفي.

مِنّا قومٌ موظفونَ في ٱلحكومة؛ لكنْ أين ٱلقومُ ٱلذين تكونُ ٱلحكومةُ نفسُها موظفةً عندَهم؟

* * *

(اعتذار): بهذا ٱلمقالِ ٱنتهتْ أحاديثُ ٱلباشا؛ فقد أنبأَنا صاحبُ السرِّ أنَّه سيكتمُ ٱلسرّ. . .

---

(١) خاوياً: فارغاً.

المجنون

١

جاءَ يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مشيتِهِ، يَرْجُفُ بينَ ٱلخطوةِ وٱلخطوةِ كأنَّهُ من كِبرِهِ يُشعِرُك أنَّ ٱلأرضَ مُدركةٌ[1] أنَّهُ يُمشي فوقَها... ولا ينقلُ قدمَهُ إذا خَطَا حتى ينْهضَ برأسِهِ يُحرِّكُهُ إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أنْ يطمئنَّ إلى أنَّ رأسَهُ معه... أم يُخَيَّلُ إليهِ أنَّ هذا ٱلرأسَ ٱلعظيمَ قد وُضعَ على جسمِهِ في موضعِ رايةِ ٱلدولة، فهو يَهزُّهُ هزَّ ٱلرايةِ....

وأخذتْهُ عيني وليسَ بيني وبينَهُ إلَّا طولُ غرفةٍ وعرضُها - فإذا هو زائغُ ٱلبصرِ كأنَّما وقعَ في صحراءَ يُقلِّبُ عينَهُ في جهاتِها متحيِّراً متردِّداً، ثُمَّ كأنَّما رُفِعَ لَهُ في أقصاها جبلٌ فأخذَ إلى ناحيتِه...

ورحَّبْتُ به، وأجلسْتُهُ إلى جانبي، فأخذَ يَسْتَعْرِفُ إليَّ[2] بذكرِ ٱسمِهِ وجماعتِهِ وبلدِه، لا يزيدُ على ذلك شيئاً، كأنَّهُ عنترةُ بني عَبْسٍ: لِأرضِهِ من طبيعتِها جغرافيا، ومنِ ٱسمِهِ جغرافيا على حِدَة... فلمَّا رآني لا أُثْبِتُهُ مَعْرِفةً قال: إنَّ بك نِسياناً.

قلْتَ: وكثيراً ما أنسى غيرَ أنَّ ٱسمَك ليسَ من هذه ٱلأسماءِ ٱلتي تُذكَرُ بتاريخ.

قال: هذه غلطةُ ٱلجرائد.. ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ أنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين»...

فسرَّحْتُ فيهِ نظري[3]، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكادُ برخاوتِهِ وتفكّكِهِ لا يكونُ رجلاً، ويكادُ يبدو ٱمرأةً بجمالِ عينيهِ وفتورِهما.

وتوَسَّمْتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسِطُ ٱلأساريرِ ممسوحُ ٱلمعاني، يُنبىءُ بِٱنقطاعِ صاحبِهِ مِمَّا حولَه، كأنَّ دنياهُ ليسَتْ دنيا ٱلناس، ولكنَّها دنيا رأسِهِ...

---

(١) مدركة: عارفة.

(٢) يستعرف إليّ: يقدم نفسه.

(٣) أي نظرت إليه ملياً أتأمله.

وتأمَّلتُ فإذا طفولةٌ متلبِّدةٌ قد ثبتَتْ في هذا ٱلوجهِ لِتُخرجَ من بينَ ٱلرجلِ وٱلطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل.

وتفرَّسْتُ[1] فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه ٱلصَّفحة، قَتْلاها أفكارُ ٱلمسكينِ وعواطفُهُ.

وتبيَّنْتُ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ، مُتَفتِّرُ ٱلبدن[2]، حائرُ ٱلنفس، كأنَّهُ قائمٌ لِتَوِّهِ مِنَ ٱلنومِ فلا تزالُ في عينِهِ سِنَةٌ، وكأنَّهُ يتكلَّمُ من بقايا حُلُم كانَ يراه...

وخُيِّلَ إليَّ من هذا ٱلخُمولِ في هذا ٱلشاب، أنَّ عليهِ جوًّا من تثاؤبِه، وأنَّ ٱلمكانَ كلَّهُ يتثاءبُ، فتثاءَبْتُ....

* * *

فلمَّا رأى ذلك منّي ضحكَ وقال: إن «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليكَ ٱلنوم.. وحسبُكَ فخراً أنْ تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ وثِقَته، «فليسَ على ظهرِها ٱليومَ أديبٌ غيري وغيرُك...».

قُلْتُ في نفسي: إنّا لِلَّه، ما يعتقدُ الرجلُ أنَّ على ظهرِها مجنوناً غيرَهُ وغيري، وكأنَّما ألمَّ بذلك فقال: لسْتُ مجنوناً؛ ولكنِّي كنْتُ في ٱلبيمارستان...

قلت: أهو ٱلبيمارستانُ ٱلذي يسمَّى مستشفى ٱلمجاذيب؟

قال: لا؛ إنَّ هذا الذي تُسميهِ أنت، هو هو مستشفى ٱلمجاذيبِ؛ أمَّا ٱلذي سميْتُهُ أنا فهو مستشفًى فقط...

وذكرْتُ عندئذٍ أنَّ مِنَ ٱلمجانينِ قوماً ظُرفاءَ يَدْخُلُهمُ ٱلفسادُ في عقولِهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ، فلا يكونُ جنونُهم جنوناً إلَّا من هذا ٱلوجه، وسائرُ أحوالِهم كأحوالِ ٱلعُقلاء، غيرَ أنَّهم بذلك طيَّاشون[3] متقلِّبون، إذا ٱزْدُهِيَ لم يُطِقْهُ ٱلناسُ من زَهْوِهِ وكبريائِهِ وتنطّعِه، كأنَّهُ واحدُ ٱلدنيا في هذه ٱلفكرة، وكأنَّ بينَهُ وبينَ ٱللَّهِ أسراراً؛ ويظنُّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ أعقلُ ٱلناسِ في أرقى طبقاتِ عقلِه، وما جنونُهُ إلَّا في هذه ٱلطبقةِ وحدَها.

ومَثلُ هذا لا بدَّ لَهُ ممَنْ يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرِّكَ فيه خِفتَهُ وطَيشَهُ وزهوَه، ولِيكونَ عندَهُ ٱلشاهدَ على هذا ٱلوجودِ ٱلخياليِّ ٱلمُبدَعِ ٱلذي لا يُوجدُ إلَّا في عقلِهِ ٱلمختلّ. فإذا هو ظفِرَ بمَنْ يُحاسِنُهُ، أو يُصانِعُهُ، أو يُجاريه، حَسِبهُ مُذْعِناً[4] مؤمِناً

---

(1) تفرّس: نظر بإمعان.
(2) منفترّ البدن: كسول.
(3) طيّاشون: لا يتصرفون بوعي.
(4) مذعناً: خاضعاً، مستلماً.

مصدِّقاً، فلا يَدَعُهُ من بعدِها ويتعلَّقُ بِهِ أشدَّ ٱلتعلُّق، ويراهُ كأنَّه في ملكِهِ . . فيتخذُهُ صفيًّا وهو يعتقدُ أنَّهُ رقيق، وقد يَزعُمُهُ أستاذَهُ لِيفهِمَهُ من ذلك بحسابِ عقلِه . . . أنَّهُ تلميذُه.

وخشيْتُ أنْ يكونَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) لم يُسمِّني أستاذَهُ إلَّا بِحِسابٍ من هذا ٱلحِساب، فهو سيُعطي ٱلأُستاذيَةَ حقَّها، ولكنْ كما هو حقُّها في لغةِ جنونِه . . . فأُصبحُ في رأيِهِ تلميذَهُ وصنيعتَه، ومحدِّثَ هذيانِه، وثِقتَهُ وملجأَه، وٱلمحاميَ من ورائِه.

قلْتُ في نفسي: إذا أنا تركْتُهُ جالساً كانَ هذا ٱلمجلسُ مَثَابَتَهُ[1] من بَعدُ، فلا يعرفُ لَهُ محلّاً غيرهُ، ويُصبحُ كما يُقالُ في تعبيرِ ٱلقانونِ «محله المختار»، فَيَتَطرَّأُ إليَّ لِسببٍ ولِغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ ٱلسهوِ لا حِسابَ عليه، ويَضيعُ فيهِ ما يضيعَ. فأجمعْتُ أنْ أصرِفَهُ راضياً بِٱليأس؛ وقدِ ٱنتهَتْ نفسُهُ من معرفتي، وٱنتهى عقلُهُ إلى ٱلرأيِ أنِّي لا أَصْلُحُ لهُ أستاذاً، لا بِحسابِهِ هو ولا بِحِسابِ ٱلناس.

فقلْتُ له: ظنِّي بك أنَّكَ أُستاذُ نفسِك، ولا يَحسنُ بنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أنْ يكونَ لَهُ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أستاذ؛ وأراكَ قد فرغْتَ لِلأدب، أمَّا أنا فمشغولٌ بأعمالِ وظيفتي، وقد جاءَ مِنَ ٱلعملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي بِهِ ٱلساعاتُ ٱلباقيةُ مِنَ ٱلوقت و . . .

فقطعَ عليَّ وقال: إنَّ ٱلوقتَ ليسَ في ٱلساعة؛ وٱلدليلُ أني أعطِّلُها فيتعطَّلُ ٱلوقت، ولا يكونُ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقة.

فقلْتُ: ولكنَّكَ إذا عطلْتَها لم تتعطلِ ٱلشمسُ ٱلتي تُعيِّنُ منازِلَ ٱلنهار، فسيَمُرُّ ٱلظهرُ ويَحينُ ٱلعصر و . . .

قال: ويأتي غد، وإنَّما أنا معكَ ٱليومَ فقط . . . ويجبُ أنْ تغتبطَ[2] بأنَّكَ أستاذُ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فقد قرأْتُ ٱلكثيرَ في ٱلأدبِ وقرأْتُك، فما كانَ لي رأيٌ إلَّا رأيْتُهُ لك . . . ولا صحَّتْ عندي نظريَّةٌ إلَّا رأيْتُكَ قد أبديْتَها، وأنا لا أعتقد أدباً في مِصرَ إلَّا ما تُوافَيْنا عليهِ معاً «ولا أسلِّمُ جدَلاً، ولا جدَلاً أسلِّمُ أنَّ في مصرَ أدباءَ ينالون منِّي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولَئنْ لم يُذعِنوا (لنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فلِيعلَمُنَّ أنَّهم «وقعوا منِّي موقعَ نملةٍ على صخرة . . . هذا من جِهة، ومن جهةٍ أُريدُ سجائرَ وليسَ معي ثمنُها» . . .

---

(1) مثابته: ملجأه.

(2) تغتبط: تُسرّ.

فتهلَّلتُ وٱستبشرْتُ، وقلْتُ لَه: هذا قرشٌ فهلُمَّ فٱشترِ بِهِ دخائنَك، وفي رعايةِ ٱللهِ، ثُمَّ ٱستوَيتُ لِلقيامِ، ولكنَّه لم يقم؛ بل تمكَّنَ في مجلِسِه. . .

* * *

وكَرِهْتُ أنْ أتَغيرَ لهُ وما أشكُّ أنَّهُ في هذا صحيحُ ٱلتمييز؛ فما أسرعَ ما قال: إنَّ «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» فَتَى قويُّ ٱلإرادة؛ فإذا هو لم يصبرْ عنِ ٱلتدخينِ ساعاتٍ فما هو بصبور. . . . وإذا لم يُثْبِتْ لك هذا ٱلأمرَ عن مُعاينة. . . فما أعطيْتَهُ حقَّه.

فقلْتُ في نفسي: لقد غرسْتُ ٱلرجلَ من حيثُ أردْتُ ٱقتلاعَه، وأيقنْتُ أنَّهُ من عُقلاءِ ٱلمجانينِ ٱلذين تتغيَّرُ فيهمُ ٱلعاطفةُ أحياناً فُتلهُمهم آياتٍ مِنَ ٱلذكاءِ لا يتَّفقُ مثلُها إلَّا لِنوابغِ ٱلمنطق؛ وذكرْتُ (بهلول) ٱلمجنونَ ٱلذي حكوْا عنه أنَّ إبراهيمَ ٱلشيبانيَّ مرَّ بهِ وهو يأكلُ خَبِيصاً[1] فقالَ لَه: أطعمْني. قال: ليسَ هو لي، إنَّما هو لِعاتِكةَ بنتِ ٱلخليفةِ بعثَتْهُ إليَّ لِآكلَهُ لها. . .

وقالوا: إنَّه مرّ بسوقِ ٱلبزَّازين فرأى قوماً مجتمعينَ على بابٍ وكانَ قد نُقِب، فنظرَ فيهِ وقال: أتعلمونَ مَنْ عملَ هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

فقالوا: هذا مجنونٌ يراهم بٱلليلِ ولا يتحاشَونهُ[2]، فألْطفُوا[3] بِهِ لَعلَّهُ يُخبرُكم. ثُمَّ قالوا: أخبِرْنا. قال: أنا جائع. فجاءُوهُ بطعامٍ سَنِيٍّ وحلواء؛ فلمَّا شبعَ قامَ فنظرَ في ٱلنقْبِ وقال: هذا عملُ ٱللصوص. . .

وكانَتْ مجلةُ (الرسالة) في يدِ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فوصلَ ٱلكلامَ بها وقال: إنَّهُ يقرأُ كلَّ مقالاتي، وإنَّهُ وإنَّهُ، وإنَّها وإنَّها. قلْت: فما ٱستحسنْتَ منها؟ قال: (مقالة السيما). . .

فقلْت: متى كانَ آخرُ عهدِكَ برؤيةِ السيما؟ قال: أمس.

قلْت: فأنا لم أكتبْ مقالاً عنِ ٱلسيما، ولكنَّكَ أعجبْتَ بما رأَيْتَ أمسِ فتحوَّلَ ما رأيْتَهُ حُلُماً في مقالة.

فأعجبَهُ هذا ٱلتأويلُ وقال: بمثلِ هذا أنا (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فأقرأُ مقالتَكَ في ٱلغيبِ من قبلِ أنْ تكتبَها. . . .

---

(١) الخبيص: ضرب من الأطعمة يصنع من التمر والسمن.

(٢) يتحاشونه: يتجنّبونه.

(٣) ألطفوا: تلطّفوا وأحسنوا معاملته.

قلْت: إنَّك تُكثرُ أنْ تقولَ عن نفسِك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، وهذا يَحصرُ نبوغَكَ في قرنٍ بعينِهِ؛ فلو قطعْتَ ٱلكلمَةَ وقلْت: (نابغة القرن)، لَصحَّ أنْ تكونَ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلتاسعَ عشرَ وٱلثامنَ عشر، وما قبلَهما وما بعدَهما.

فرأيْتُ به شَدْهَةً[1] كأنَّهُ يُفكرُ في جنونِه، ثُمَّ أفاقَ وقال: لا. لا؛ وإنَّ هاهنا موضِعَ نظر، فلو رضيْتُ بنابغةِ ٱلقرنِ فقط، لَجاءَ مَنْ يقول: إني نابغةُ قرنِ خروف...

* * *

فقلْتُ في نفسي: حَمأَة مُدَّتْ بماء، وإنَّ هذه ٱلوساوسَ لا تنفكُّ تَعرو[2] هذا المسكينَ ما وجدَ من يُكلِّمُه؛ وٱلأفكارُ في ذهنِهِ مجتمعةٌ مختلِطةٌ مسترسلِةٌ كأنَّها ثورةٌ مِنَ الكلامِ لا نظَامَ لها، فْلأَسكُتْ عنه ولْأَتشاغلْ بما بينَ يديّ.

وسكَتُّ وأعرضْتُ عنه؛ فجعلَ طائفُهُ يعتريه، وكأنَّ ٱلسكوتَ قد سلَّطَ أفكارَه عليه، وكأنَّها أخَذَتْ تصيحُ بِهِ في رأسِهِ كما يصيحُ غِلمانُ ٱلطرقِ بٱلمجنون، لا يزالونَ بِهِ حتى يُحْرِدُوهُ[3] ويُفقدُوهُ ٱلبقيَّةَ من صبرِهِ وعقلِهِ معاً. فغضبَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ونقلَهُ ٱلغضبُ إلى حالةٍ زَمْهَرَتْ فيها عيناه[4]، وكَلَحَ وجهُهُ[5] حتى خِفْتُ أنْ يثورَ بِهِ ٱلجنون، فأقبلْتُ عليهِ وتعلَّلْتُ بسؤالِهِ: أَلَكَ إخوة؟ ألَمْ ينبغْ فيهم نابغة...؟

قال: إنَّ له أخاً يُعذِّبُه، ويُوقِعُ بهِ ضرباً، ويغُلُّهُ بٱلسلاسل، ويشدُّهُ «بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل»، وأنَّهُ أنزلَ بِهِ ٱلعذابِ ما لو أنزَلهُ بحجرٍ لَتألَّم.

قلْت: فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أنْ تأويَ إلى مكانٍ تتمدَّدُ فيه.

قال: إِنِّي منصرفٌ وسأجلسُ في نَدِيّ[6] كذا «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معي ثمنُ ٱلقهوة».

قلْت: فهذا قرشٌ تدفعُهُ ثمناً لها، فأذهبْ فٱستمتعْ بها وبٱلتدخينِ وبٱلراحةِ في ذلك ٱلنديِّ، فٱلمكانُ ها هنا كثيرُ ٱلضجيجِ وٱلحركة. وٱستوفزْتُ لِلقيام[7]؛ ولكنَّهُ لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسِه.

---

(١) شدهة: اندهاشاً واستغراباً.

(٢) تعرو: تصيب.

(٣) يحرّدوه: يشجّعوه على فعل ما يستهجن.

(٤) زمهرت عيناه: لمعت غضباً.

(٥) كلح وجهه: تغيّر لونه حتى بدا كالحاً.

(٦) نديّ: مقهى.

(٧) استوفزت للقيام: تحفّزت.

ثم قال: أراكَ ٱلآن مستبصراً أنّي (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) بعينِه.

قلْت: بل بعينيهِ اليمنى وٱليسرى معاً...

قال: لا. لا؛ إنَّك نسيْتَ أنَّ ٱلعربَ تقولُ في ٱلتوكيد: عينُهُ ونفسُهُ وذاتُهُ. «أي أنا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين بعينهِ ونفسهِ وذاتهِ، فليسَ غيري نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين».

وكادَتْ نفسي تخرجُ غيظاً، ولكنّي رأيْتُ ٱلحِلْمَ على مثلِ هذا يجري مجرى ٱلصَّدَقة؛ وقلْت: إنَّ أدباءَ ٱلمجانين كثيراً ما يتَّفقُ لهُم ٱلإبداعُ ٱلطريفُ[1] إذا علَّلوا شيئاً، كذلك ٱلقاصُّ ٱلذي كانَ يقصُّ على ٱلعامَّةِ سيرةَ يوسفَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ، فقالَ لهم فيما قال: إنَّ ٱلذئبَ ٱلذي أكلَ يوسفَ كانَ ٱسمه كذا، فردُّوا عليه: إنَّ يوسفَ لم يأكلْهُ ٱلذئب. قال: فهذا هوَ ٱسمُ ٱلذئبِ ٱلذي لم يأكلْ يوسف.

فقلْتُ لِلمجنون: فما ٱلعِلَّةُ عندَكَ في أنَّ ٱلعربَ لم يقولوا في ٱلتوكيد: عينُهُ وأُذنُهُ وأنفُهُ وفمُهُ ويدُهُ ورجلُه؟

فنظرَ نظرةً في ٱلفضاءِ ثُمَّ قال: ليسوا مجانينَ فيخلِطوا هذا ٱلخلط، وإلا وجبَ أنْ يقولوا مع ذلك: وعِمامتُهُ وثوبُهُ ونعلُهُ وبعيرُهُ وشاتُهُ ودارهمُهُ. «هذا من جِهة، ومن جهةٍ ليسَ معي أجرةُ ٱلسيارةِ إلى بلدي وهي قرشان».

قلْت: هذه هي أجرةُ ٱلسيارةِ وصَحِبتْكَ ٱلسلامة، ونهضْتُ واقفاً؛ ولكنَّهُ لم يتحرَّك.

* * *

ثُمَّ قال: إنَّك لم تعرفْ بعدُ «أنّي أقولُ ٱلشعرَ في ٱلغزلِ وٱلنسيبِ وٱلمدحِ وٱلهجاءِ وٱلفخر؛ وأنّي في ٱلخطابةِ قُسُّ بْنُ ساعِدَةَ أو أكثمُ بْنُ صَيفي، وأنّي صخرٌ لا ينفجر... يابسٌ لا ينعصر، لسْتُ كَٱلحجّاجِ بلْ كعمر».

قلْت: هذا شيءٌ يطولُ بينَنا ولا حاجةَ لك بهذِهِ ٱلبراهينِ كلِّها، فقدْ آمنْتُ أنَّكَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ في ٱلأدبِ وٱلشعرِ وٱلخطَابةِ وٱلترسُّل.

قال: وٱلفلسفة؟

قلْت: وٱلفلسفةِ وكلِّ معقولٍ ومنقول؛ وقدِ ٱنتهينَا على ذلك.

قال: ولكنَّكَ تحسبُني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبَتْني ٱلجرائِدُ ٱلتي زعمَتْ

---

(١) الطريف: الجديد.

أنَّ ٱختفائي في ٱلبيمارستانِ كانَ لِجنوني ٱلفكريِّ أو لِذكائي ٱلطبيعيِّ وهوَ الأصحّ. . . فبيِّنْ لِهذه ٱلجرائِدِ أنِّي خرجت، وأني سأطبعُ ٱلأدبَ بطابعٍ جديد».

قلْت: ولكنِّي لسْتُ مراسَل جرائد. وقال: «فٱجعلْني رسالةً وراسِلْها عنِّي أو أكتبُ لك أنا ما تُرسلُه، وما جئتُك إلَّا لِهذا؛ ويجبُ أنْ تُلحقني بجريدةٍ كبيرة، وهذه ٱلجرائدُ تعرفُني كلُّها، وقد تناولَتْني من جميعِ ٱلنواحي ٱلأدبيَّة؛ فضلاً عن أني كاتبٌ فَذٌّ، وخطيبٌ فَذّ، وشاعرٌ فَذّ، وهذا قليلٌ من كثير، فهل أعوِّلُ عليكَ في صِلَتي بٱلجرائدِ أولا؟».

قلْت: إنَّك تعرفُهُم ويعرفونك، وقد بلَوْتَهم[1] وبَلَوْا منك، فلسْتَ في حاجةٍ إليَّ عندَهم.

قال: إنهم يخشون بأسي، وقد حسبوني مجنوناً ٱستهوتْهُ ٱلشياطين؛ وما عَلِموا أنَّ شيطانَ الشعرِ هو ٱلذي ٱستهواني، كما أنَّ شيطانَ ٱلحُبِّ هو ٱلذي ٱستهواك. . . هذا من جِهة، ومن جِهةٍ ليسَ معي ثمنُ ٱلغداء، ولا أكلِّفُكَ شيئاً. . .».

قلْت: فهذا قرشٌ لِلغداءِ في مطعم ٱلشعب. وهمُ ٱلآنَ يتغدَّون ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقدِ استنفدوا ٱلطعام، وأنت لا تجهلُ أنَّ ٱلقرشَ في مطعمِ ٱلشعبِ هو قرشانِ في ٱلقيمة.

قال: صدقْت؛ يُوشِكُ أنْ أوافقَهُم وقد فرغوا من طعامِهِم وغسلوا ٱلآنية. فلأُبْقِ هذا لِلعَشاءِ وسأطوي[2] إلى الليل. . .

قلْت: فمعكَ ٱلآن ثمنُ ٱلدخان، وٱلقهوة، وٱلغداء، وأجرةُ ٱلسيارةِ إلى بلدِك. وقد كانَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلثالثِ لِلهجرةِ وٱسمه (طاقُ ٱلبصلِ)[3] يُغنِّي بقيراطٍ ولا يسكتُ إلَّا بدانق. هذا من جِهة، ومن جِهةٍ فخذْ هذا القِرشَ ثمناً لِسكوتِكَ وٱنصرِف.

* * *

فشقَّ ذلِك عليهِ وقامَ مُغْضَباً وتنفسْتُ بعدَهُ ٱلصُّعَداءَ ٱلطويلة. . . وفتحْتُ ٱلنافذةَ وٱستقبلْتُ ٱلهواءَ ٱلنقيَّ وأخذْتُ في رِياضةِ ٱلتنفسِ ٱلعميق، ثُمَّ زاغَتْ عيني إلى ٱلباب؛ فإذا (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) مقبلٌ معَ نابغةِ قرنٍ آخر. . . . . .

---

(١) بلوّتهم: اختبرتهم.

(٢) أطوي: أنام بلا عشاء.

(٣) هذا أحد مجانين القرن الثالث في الكوفة.

المجنون

٢

رأيْتُ ٱلمجنونينِ يدخلانِ معاً، فكأنَّما سَدَّا ٱلبابَ وسَوَّياهُ بِٱلبناءِ وتركا ٱلغُرفَة حائِطاً مُصْمَتاً لا بابَ فيه، مِمَّا ٱعتراني[1] مِنَ ٱلضيقِ وٱلحرَجِ؛ وقلْتُ في نفسي: إنَّهُ لا مذهبَ لِلعقلِ بينَ هذينِ إلَّا أنْ يُعينَ كِلاهما على صاحبِه، فأرى أنْ أدَعَهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما؛ ويا ربَّما جاءَ مِنَ ٱلنوادرِ في ٱجتماعِ مجنونينِ مالا يأتي مثلُهُ من عقلينِ يجتمعانِ على ٱبتكارِهِ؛ غيرَ أنِّي خشيْتُ أنْ أكونَ أنا ٱلمجنونَ بينهما، ثُمَّ لا آمنُ أن يَثِبَ أحدهُما بالآخرِ إذا خطَرَتْ بِهِ ٱلخطْرةُ[2] من شيطانِه، فرأيْتُ أنْ يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إنْ لم يحقَّ بِهِ ٱلعَوْنُ فلا أقلَّ من أنْ يطولَ بِهِ ٱلصبر... وكانَ إلى قريبٍ منِّي ٱلصديقُ (ا. ش) فأرسلْتُ في طلبِهِ.

أمَّا هذا ٱلمجنونُ الثاني الذي جاءَ بِه (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فقدْ رأيتُهُ من قبل، وهو كاٱلكِتابِ ٱلذي خُلِّطَتْ صُحُفُهُ بعضُها في بعضٍ فتداخَلَتْ وفسدَ ترتيبُها، وٱنقلبَ بذلك ٱلعلمُ ٱلذي كانَ فيها جَهْلاً وتخليطاً، يَثِبُ ٱلكلامُ بعدَ كلِّ صفحةٍ إلى صفحةٍ غريبةٍ لا صِلَةَ لَهَا بِمَا قبلَها ولا ما بعدَها.

وهو طالبٌ أزهريٌّ كانَ أكبرَ همِّهِ أنْ يصيرَ حافظاً كاٱلحفّاظ ٱلأقدمينَ مِنَ ٱلرواةِ وٱلفُقهاء، فجعلَ يستظهِرُ كتاباً بعدَ كتابٍ ومتْناً بعدَ متن؛ وكانَتْ لَهُ أذُنٌ واعيةٌ، فكلُّ ما أُفرِغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أوْ خَبر، نزلَ منها كالنقْرِ على آلةٍ كاتبة، فينطبعُ في ذِهنِهِ ٱنطباعَ ٱلكِتابة: لا تُمحى ولا تُنسى.

ثُمَّ ٱلْتاثَ هذه ٱللُّوثَةَ وهو يحفظُ متناً في فقهِ ٱلشافعيّ (رضيَ ٱللهُ عنه)، فغبرَ سنينَ يتحفَّظُه، كلَّما ٱنتهى إلى آخرِهِ نَسِيَهُ من أولِه؛ فيعودُ في حفظِهِ وربَّما هذا دأبَهُ

---

(١) اعتراني: أصابني وداخلني.

(٢) الخطْرة: الفكرة.

لا يملُّ ولا يجدُ لِهذا ٱلعَنَاءِ معنًى، ولا يزالُ مقبلاً على ٱلكتابِ يَجمعُه، ثُمَّ لا يزالُ ٱلكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرتِه.

وتركَ ٱلمعهدَ ٱلذي هو فيهِ وتخلَّى في دارِهِ[1] لِلْحفظ، وأجمعَ ألّا يدعَ هذا ٱلمتنَ أو يحفظَه، وكأنَّ فيه ٱلموضعَ ٱلذي فارَقهُ عقلُهُ عندَه، وبذلك رجعَ ٱلمِسكينُ آلةَ حِفْظٍ ليسَ لَهَا مِساكٌ[2]؛ وأصبحَ كٱلذي يرفعُ ٱلماءَ مِنَ ٱلبحر، ثُمَّ يُلقيهِ في ٱلبحر، لِينْزح ٱلبحر...

* * *

وجاءَ (ا. ش) فقلْتُ له، وأومأْتُ إلى ٱلمجنونِ ٱلأول: هذا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

قال: وهلِ ٱنتهى ٱلقرنُ ٱلعشرونَ فيُعرفَ مَنْ نابغتُه؟

فقلْتُ لِلمجنون: أجبْهُ أنت. فسأَلَه: وهلْ بدأَ ٱلقرنُ ٱلواحدُ وٱلعشرون؟ قال: لا.

قال: فإنَّ هذا الذي إلى جانبي نابغةُ ٱلقرنِ ٱلواحدِ وٱلعشرين.....فكما جاز أنْ يكونَ هو نابغةَ قرنٍ لم يبدأْ، جازَ أنْ أكونَ أنا نابغةَ قرنٍ لم ينته.

قلْتُ: ولكنك زِدْتَ ٱلمشكلةَ تعقيداً من حيثُ توهَّمْتَ حلَّها؛ فكيف يكونُ معك في آنٍ وبينَك وبينَهُ خمسٌ وستون سنة؟

فنظَر نظرةً في ٱلفضاء، وهو كلَّما أرادَ شيئاً عسيراً نظَرَ إلى ٱللاشيء..

ثُمَّ قال: هذه الأمورُ لا تَشتبهُ إلَّا على غيرِ ٱلعاقل... وكيف لا يكونُ بيني وبينَهُ خمسٌ وستون سنةً وأنا أتقدَّمُه؛ النبوغ بأكثرَ من علمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستين سنة..؟

قلْتُ لِلآخر: أكذلك؟

قال: مِمَّا حفظناهُ عنِ ٱلحسَن: أدركْنا قوماً لو رأيْتُموهم لَقلْتم: مجانين. ولو أدركوكم لَقالوا: شياطين...

فضحكَ ٱلأولُ وقال: إنَّهُ تلميذي.

قالَ ٱلثاني: لقد صدقَ فهو أُستاذي، ولكنَّه حين ينسى لا يذكِّرُهُ غيري...

قُلْت: لا غَرْوَ «فمما حفظناه» عنِ ٱلزُّهريّ: إذا أنكرْتَ عقلَك فٱقدَحْه بِعاقل...

فغضبَ نابغةُ القرنِ ٱلعشرينَ وقال: ويحٌ لِهذا ٱلجاهل، ٱلأحمق، ٱلجاحدِ لِلفضل،

---

(١) تخلّى في داره: انزوى وانعزل. (٢) مِساك: بقية حفظ.

ومع جنونِهِ وخَبَله. أيُذكِّرُني وهو منذُ كذا وكذا سنةً يحفظُ متناً واحداً لا يُمسكُهُ عقلُه إِلَّا كما يُمسِكُ ٱلماءَ ٱلغرابيل؟ صدقَ - واللهِ - مَنْ قال: عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ؛ خير. فقال ٱلثاني: خيرٌ من صديقٍ جاهل، هأنذا قد ذكَّرتُكَ من نِسيان، وهٰأنت ذا رأيْت.

فضحكَ ٱلنابغةُ وقال: ولكنِّي لم أُرِدْ أنْ أقولَ هذا، بلْ أُرِيدُ أنْ أؤلفَ كلاماً آخر.... عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ، خيرٌ؛ خير من مجنونٍ جاهل........

* * *

ورأيْتُ أنَّ ٱلتقاءِ مجنونينِ شيءٌ طريفٌ غيرُ جنونِهِما، وصحَّ عندي أنَّ ٱلمجنونَ ٱلواحدَ هوَ ٱلمجنون؛ أمَّا ٱلاثنانِ فقد يكونُ مِن ٱجتماعِهِما وتحاورِهِما فنٌّ ظريفٌ مِنَ ٱلتمثيل، إذا وَجدا مَنْ يُصرِّفُهما في ٱلحديثَ، ويستخرجُ ما عندَهُما، ويستكشِفُ منهما قِصتَهما ٱلعقليَّة........

ولم أكنْ أعرفُ أنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ) مِنَ ٱلمجانينِ ٱلذين لهم أذُنٌ في غيرِ ٱلأذُن، وعينٌ في غيرِ ٱلعين، وأنفٌ بغيرِ ٱلأنف؛ إذْ تتلقى أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذاتِ نفسِها لا منَ ٱلوجود، وتُدركُها بِٱلتوهُّم لا بالحاسَّة، فَتَتَخلَّقُ[1] هواجسُهُم خَلْقاً بعدَ خَلْقَ، وتخطرُ ٱلكلمةُ مِنَ ٱلكلام في ذِهْنِ أحدِهم فيخرجُ منها معناها يتكلَّمُ في دِماغِهِ أو يمشي أو يُلاطفُهُ أو يُؤْذيهِ أو يفعلُ أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أُديرُ ٱلرأيَ في إخراج فصلٍ مِنَ ٱلحِوارِ بينَ هذينِ ٱلمجنونين، إذْ قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ): صَهْ، إنَّ جرسَ «التلفون» يدقّ.

قال(ا. ش): لا أسمعُ صوتاً، وليسَ هٰهنا «تلفون».

فٱغتاظَ ٱلمجنونُ ٱلآخَرُ وقال: إنَّك تَتَقَحَّمُ[2] على ٱلنوابغ ولسْتَ من قدرِهِم، وما عملُكَ إِلَّا أنْ تُنكِر؛ وٱلإنكارُ، ويلك، أيسرُ شيءٍ على ٱلمجانينِ وأشباهِ ٱلمجانين، وٱلعامَّةِ وأشباهِ ٱلعامَّة؛ وقد أنكرْتَ نبوغَهُ آنفاً، وأراكَ الآنَ تُنكِرُ «تلفونه»...

قال (ا. ش): وأين «التفلون» وهذه هي ٱلغرفةُ بأعيننا؟ فضحِك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) وقال: صَهْ - ويْحكَ - لقد خلَّطْتَ عَلَيّ؛ إنَّ ٱلجرسَ يدقُّ مرةً أخرى، وأنا لا أُريدُ أنْ أُكملِّمَها حتى يطولَ ٱنتظارُها، وحتى تدقُّ ثلاثَ مرات، وأخشى أنْ تكونَ قد دقَّتِ ٱلثالثةَ وذهبَ رنينُها في صوتِك ولَغَطِكَ...

---

(١) تتخلّف: تتشكّل.　　(٢) تتقحّم: تحشر نفسك، تدسّها.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: هي صاحبتُهُ ٱلتي يهواها وتهواه؛ وقدِ ٱستَهَامَها[1] وتَيَّمَها وحيَّرَها وخبلَها، حتى لا صبرَ لها عنه، فوضعَتْ لَهُ تلفوناً في رأسِه. . . . . .

قالَ «النابغة»: وهذا ٱلتلفونُ لا يُسمعُني صوتَها فقط، بلْ هو يُنْشِقُني عِطرَها أيضاً. وقد تُكلِّمُني فيهِ ٱلملائكةُ أحياناً، وأنا ساخطٌ على هذه ٱلحبيبةِ فإنَّها غَيورٌ تُخْشَى سَطَواتُها على ٱللائي تَغار منهنّ، ولولا ذلك لَكَلَّمَتْني في هذا ٱلتلفونِ إحدى ٱلحُورِ ٱلعِينِ. . . .

قلْنا: أوَ تَغارُ منَ ٱلحُورِ ٱلعِينِ؟

قالَ ٱلمجنونُ ٱلثاني: بلِ ٱلأمرُ فوقَ ذلك، فإنَّ ٱلحُورَ ٱلعِينَ يشتمُنْها ويلعنَّها؛ «فممَّا حفِظْناهُ» هذا الحديث: لا تؤذي ٱمرأةٌ زوجَها في ٱلدنيا إلَّا قالَتْ زوجتُه مِنَ ٱلحُورِ ٱلعِين: لا تؤذيهِ قاتلكِ ٱلله؛ فإنَّما هو عندَكِ دَخيلٌ يُوشِكُ أنْ يفارِقَكِ إلينا.

قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين): ويْلي على ٱلمجنونِ إنَّهُ يُريدُ أنْ يخلوَ لَهُ موضعِي فهو يتمنّى هلاكي وٱنتقالي وَشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغيرِ عِلْم لِأَنَّهُ أحمقُ ليسَ لَهُ عُقدةٌ مِنَ ٱلعقلِ، فيزعمُ أنَّها تُؤذيني، ولو هي آذتْني لَغضِبَتْ قبلُ ذلك، ولو غضِبَتْ لَرفعَتِ ٱلتلفون. صَهْ إنَّ ٱلجرسَ يدقّ.

* * *

قال ا.ش: إنَّ لِلنوابغ لَشأناً عجباً، ففي مديريَّةِ ٱلشرقيَّةِ رجلٌ نابغةٌ ماتَتْ زوجتُهُ وترَكتْ لَهُ غلاماً، فتزوجَ أخرى وهو يعيشُ في دارِ أبيه. فلمَّا كانَ عيدُ ٱلأضحى سألَ أباهُ مالاً يبتاعُ بِهِ ٱلأضحيَّةَ فلم يُعطِه. وهو رجلٌ يحفظُ ٱلقرآن، فذكرَ إبراهيمَ (عليه السلام) ورؤياهُ في ٱلمنام أنَّهُ يذبحُ ٱبنَه، فخُيِّلَ إليهِ أنَّ هذا بابٌ إلى ٱلنبوَّة، وأنَّ ٱللَّهَ قد أوحى إليه، فأخَذَ ٱلغلامَ في صبيحةِ ٱلعيدِ وهمَّ بذبحِه، ولولا أنْ صرخَ ٱلغلامُ فأدركَهُ ٱلناسُ فٱستنقذوه. . . .

قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ): هذا مجنونٌ وليسَ بنابغة؛ بلْ هذا من جُهلاءِ ٱلمجانين؛ بلْ هو مجنونٌ على حِدَتِه. وقد رأيْتُهُ في ٱلبيمارستانِ في حينِ كنْتُ أنا في ٱلمستشفى. . . فكانَ يزعُمُ أنَّهُ ٱئتمرَ في ذبحِ غلامِهِ بإرادةِ ٱلله. ولو كانَتْ إرادةَ ٱللَّهِ لنفذَتْ بِٱلذبحِ، ولو كانَ ٱلأمرُ وحياً لَنزلَ عليهِ مِنَ ٱلسماءِ كبشٌ يذبحُه. . .
وهكذا أنا في ٱلمنطَقِ (نابغةُ القرنِ العشرين).

---

(١) استهامها: حملها على حبّه.

ثُمَّ إِنَّهُ أشارَ إلى المجنونِ ٱلثاني وقال: وأنا أتقدَّمُ هذا في ٱلنبوغِ بأكثر من عِلْمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستينَ سنةً كاملة.

قلْتَ: ولكنَّك ذكرْتَ هذا من قبلُ فلِمَ عُدْتَ فيهِ ٱلآن؟

قال: إنَّ السببَ قد تَغيَّر فتغيرَ معنى ٱلكلام؛ وقد بدالي أنَّهُ يتمنَّى هلاكي ليكونَ هو نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين. فمعنى ٱلكلام الآن: أنَّهُ لو عاشَ خمساً وستينَ سنة «يحفظُ ٱلمتن» لَمَا بلغَ مبلغي مِنَ ٱلعِلْم. هذا رجلٌ نِصفُهُ ميتٌ جنوناً موتاً حقيقيًّا، ونصفُهُ الآخرُ ميتٌ جهلاً بِٱلموتِ ٱلمعنويّ.

قال ا. ش: حسبُهُ أنْ يقلِّدَكَ تقليدَ ٱلعاميِّ لإمامِهِ في ٱلصلاةِ وعسى ألَّا تستكثرَ عليهِ هذا فإنَّهُ تِلميذُك.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلثاني «مِمَّا حفظْناه»: لو صُوِّرَ ٱلعقلُ لأَضاءَ معهُ ٱلليل، ولو صُوِّرَ ٱلجهلُ لأَظلمَ معهُ ٱلنهار... ونابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ هذا لا يعرفُ كيف يُصلِّي، فقد وقفَ منذُ أيَّام يُصلي بِٱلشعر... ولمَّا رأيتُهُ ناسياً فذكرْتُهُ ونبهْتُهُ أنَّ ٱلصلاةَ لا تجوزُ بِٱلشعر، اِلتَفتَ إليَّ وهو راكعٌ فسبَّني وشتمني وصرخَ فيَّ وقال: ما شأنُك بي؟ هلُ أنا أُصلي لك أنت...؟

فغضِبَ «ٱلنابغةُ» وقالَ: ـ واللهِ ـ إنْ تحسبوني إلَّا مجنوناً فتُريدونَ أنْ يقلدني هذا ٱلأحمقُ ٱلذي ليسَ لَهُ رأيٌ يُمسكُه. ولولا ذلك لَمَا ٱعتقدْتُم أنَّ تقليدي مِنَ ٱلسهلِ ٱلممكن، ولَعرفتُم أنَّ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ نفسَهُ لم يستطِعْ تقليدَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

قلْنا: هذا عجيب، وكيف كانَ ذلك؟

فضحِكَ وقال: لا أعدُّكم مِنَ ٱلأذكياءِ إلَّا إذا عقلْتُم كيف كانَ ذلك؟ قال ا.ش: هذا لم يُعْرَفْ مثلُهُ فكيف نعرفُه؟ ولم يتوهمْهُ أحد، فكيف نتوهمُه؟

قال: لو لم تكنْ أستاذَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ لَمَا عرفْتَها؛ وهذا نصفُ ٱلصواب؛ ومادُمْتَ أستاذي، فلو أنَّنا ٱختلفْنا في رأيٍ لَكانَ خِلافُك لي صواباً لأنَّهُ منك، وكانَ خِلافي لك صواباً لِأنَّهُ منّي؛ فأنت (غيرُ مخطىءٍ) وأنا مُصيب، وإذا أسقطْنا كلمةَ (غيرِ) أظلُّ أنا مصيباً وتكونُ أنت مخطئاً...

أنا لم أرَ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) في ٱلرؤيا، ولكنِّي رأيْتُهُ في ٱلمِرآةِ عندَ ٱلحلَّاق... ورأيتُهُ يُقلِّدُني في كلِّ شيءٍ حتى في ٱلإشارةِ وٱلقَوْمةِ وٱلقَعْدةِ ولكنِّي صرخْتُ فيهِ وسبَبْتُهُ ففتحَ فَمهُ، ثُمَّ خافني ولم يتكلَّم...

وأومأ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: وأنا أتقدمُ هذا في ٱلنبوغِ بأكثر من عِلْمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستينَ سنة.

قال ا. ش: لقد قُلْتَها مرتينِ كِلتاهما بمعنًى واحد، فما معناكَ في هذه ٱلثالثة؟

قال: هذا ٱلغِرُّ يزعمُ أنّي لا أعرفُ كيفَ أُصلّي، ويستدلُّ لذلك بأنّي صليتُ بٱلشعرِ وأنّي شتمْتُهُ وأنا راكع؛ ولو كانَ عاقِلاً لَعَلِمَ أنَّ شتمي إياه وأنا راكعٌ ثوابٌ لَه... ولو كانَ نابغةً لَعَلِمَ أنَّ الشعرَ كانَ في مدحِ دولةِ النحاسِ باشا وأُولي ٱلنُّهى.

قلْنا: ولكنَّ ٱلشعرَ على كلِّ حالٍ لا تجوزُ بِهِ ٱلصلاةُ ولو في مدحِ دولةِ ٱلنحاس باشا.

قالَ: لم أُصلِّ بِه، ولكنْ خطرَ لي وأنا أُصلِّي أنّي نسيْتُ ٱلقصيدَة فأردْتُ أنْ أتحقّقَ أنّي لم أنسَها... فإذا أنا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ في ٱلحفظ، وهي ستةُ أبيات. لا كهذا ٱلمعتوهِ ٱلذي صَبر على المتنِ صبرَ ٱلغريبِ على ٱلغُربةِ ٱلطويلة، ومعَ ذلك لم يحفظْه.

قال ا. ش: فأمْلِ علينا هذا ٱلشعر. فأملى عليه.

يا حليفَ ٱلسُّهْدِ قلْ لي ... أينَ مَنْ في ٱلدهرِ خالْ
إنْ تكُنْ تهوى غزالا ... أكحلَ ٱلعينينِ مالْ
أنا أهواها ولكنْ ... لا سبيلَ إلى ٱلوِصالْ
منذُ ولَّتْ قُلْتُ مهلاً ... منذُ غابَتْ في خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى ... ليلَ يا ليلى! تعالْ

قلْنا: ولكنْ ليس هذا مدحاً، فضحِكَ وقال: أردْتُ أنْ تعرفوا أنّي أقولُ في الغزَل، أمّا المديح فهو:

شغفَ ٱلورى[1] بمناصبٍ وأماني ... وشُغِفْتَ يا نحاسُ بِٱلأوطانِ
حسبوا ٱلحياةَ تفاخراً وتنعُّماً ... وحسبتَها لِلّهِ وٱلأوطانِ

ثم أُرْتِجَ[2] عليهِ فسكتَ. قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: إنَّها ستةُ أبيات، وقد نسيْتُ أربعة، ولسْتُ أُريدُ أنْ أُذكِّرَك:

---

(١) شغف الورى: اشتدّ حبّ الناس.   (٢) أرتج: أغلق.

فقالَ (النابغة): أظنُّهُ قد حانَ وقتُ ٱلصلاةِ وأُريدُ أنْ أُصلي. . . ونظرَ إلى اللاشيءِ في ٱلفضاء، ثُمَّ قال. وٱلبيتُ الأخير:

لا أبتغي في ٱلمدحِ غيرَ أولى ٱلنُّهى أوِ صادقٍ أو شوقي أو مطرانِ

ثُمَّ أمر ا. ش. أنْ يقرأَ عليهِ ٱلشعرَ فقرأه، فقال: أحسنْت، انظرْ إلى فوق. فنظر، ثُمَّ قال: انظرْ إلى تحت. فنظرَ ثُمَّ سكت.

قال ا. ش: وبعدُ؟ قال: وبعدُ فإنَّ الناسَ ينظرون إمَّا إلى فوقُ وإما إلى تحت. . .

* * *

وكانَ الضجرُ قد نالَ مِنِّي، فرجوْتُ ا. ش. أنْ يلبثَ مَعهما وأذنْتُ لِنابغةِ القرنِ العشرين أنْ يلقاني في ٱلندّي وٱنصرَفْت. .

قال ا. ش. وهو يُنبِّئني: فما غبْتَ عنَّا حتى أخذَ ٱلمجنونُ يشكو ويتوجَّعُ ويقول: لقد حاقَ بِيَ ٱلظُّلْم، وإنَّ (ٱلرافعيَّ) رجلٌ عَسُوفٌ ظالم، لِأنِّي أكتبُ لَهُ كلَّ مقالاتِهِ ٱلتي ينشرُها في (الرسالة). . . وأجمعُ نفسي لَها، وأجهدُ في بَيانِها، وأُذيبُ عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٌ، وليسَ إلَّا أنْ ينتحِلَها[1] ويضعَ توقيعَهُ عليها، ويَبعَثَ بها إلى ٱلمجلَّة، ثُمَّ هو يقبضُ فيها ٱلذهبَ وينالُ ٱلشهرة، ولا يدفعُ لي عن كلِّ مقالةٍ إلَّا قرشين. . .

قال ا. ش: فما يمنعُكَ أنْ تُرسلَ أنت هذه ٱلمقالاتِ إلى ٱلمجلةِ فتقبضَ فيها ٱلذهب؟ قال: إنَّ هناك أسراراً أنا مُحْصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أنْ يعلمَها أحدٌ فإنَّها أسرار. . . قالَ لَه: فدعِ (ٱلرافعيّ) وٱكتبْ لي أنا هذه ٱلمقالاتِ، وأنا أعطيكَ في كلِّ مقالةٍ ذهبينِ لا قرشينِ.

قالَ هذه أسرارٌ ولا أستطيعُ أنْ أكتبَ إلَّا للرافعيّ، لِأنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ) لا يجوزُ أنْ يدَّعيَّ كلامَهُ إلَّا أستاذُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، ولوِ ٱدَّعاهُ غيرُهُ لَكانَ هذا حطًّا من قدرِ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، وهذا بعضُ ٱلأسرارِ لا كلُّ الأسرار. .

قلْت: ثُمَّ جاءَ ٱلمجنونانِ في ٱلعشِيَّةِ إلى ٱلنديّ.

---

(١) ينتحلها: ينسبها لنفسه.

المجنون

٣

وكنَّا في ٱلنَّديّ ثلاثةً: أنا، وا. ش. وس. ع؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تَوافَقْنا عليهِ لِتحريكِ هذينِ ٱلمجنونين، وتدوينِ ما يجيءُ منهما. فلَّما أقبلا تَحَفَّيْنا[١] بِهِما وألْطَفْناهُما، وقُمْنا ثلاثتُنا ببَسْطِهِما وإكرامِهِما، حتى حَسِبَا أنَّ في كلمةِ «مجنون» معنى كلمةِ أميرٍ أو أميرة. . ورأيْتُ في عيني «نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين» ـ وهو أعْيَنُ أنجلُ[٢] ـ ما لو ترجمْتُهُ لَمَا كانَتِ ٱلعِبارةُ عنه إلَّا أنَّهُ يعتقدُ أنَّ لَهُ نفساً أُنثى أعشقُها أنا. . فكانَ مُسَدَّداً[٣] فَكِهَ ٱللسانِ، تُسْتَمْلَحُ لَهُ ٱلنادرةُ، وتُسْتطْرَفُ منهُ ٱلحركة.

ولَمَّا تمكَّنَ منهُ ٱلغرورُ، وٱحتاجَ ٱلجنونُ كما يحتاجُ ٱلجمالُ إلى كِبريائِهِ إذا حاطتْهُ ٱلأعينُ ـ أدارَ بَصَرَهُ في ٱلمكان، ثُمَّ قال: أُفٍّ لكم ولِمَا تصبرونَ عليهِ من هذا النديّ في ضَوْضائِهِ ورُعاعِهِ وغَوغائِهِ. إنْ هؤلاءِ إلَّا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة. هذا ٱلجالسُ هناك. هذا ٱلواقفُ هنالك. هذا ٱلمسْتَوفِز. هذانِ ٱلمتقابلانِ. هؤلاءِ ٱلمجتمِّعون. هذا كلّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا ٱلتصايُحُ ٱلمنكَر. هذا ٱلضَّرْبُ بحجارةِ ٱلنَّرد. هذه الزَّحمةُ ٱلتي ٱنغمْسنا فيها. هذا ٱلمكانُ ٱلهائجُ من حولِنا. هذا كلُّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. هي، هي، هي.

فٱنزعجَ ٱلمجنونُ الآخر، ووَقعَ في تهاويلِ خيالِه، ونظرَ إلينا تدورُ عيناه، وتَوجَّسَ[٤] شرًّا، ثُمَّ زاغَ بصرُهُ إلى ٱلباب، وٱسْتَوْفَزَ وجمعَ نفسَهُ لِلْقِيام؛ فلمَّا رأى صاحبُهُ ما نزلَ بِه، قَهقَهَ وأمْعَنَ في ٱلضحكِ وقال: إنَّما خوَّفتُهُ الصبيانَ وٱلضرْبَ لِيُثبتَ لكم أنَّهُ مجنون. .

---

(١) تحفنا: رحّبنا.
(٢) أعين أنجل: واسع العين أنجلها.
(٣) مسدّداً: موفقاً.
(٤) توجّس: احتسب الشرّ قبل وقوعه.

فحرِدَ الآخرُ وٱغتاظَ وجعلَ يُتمتِمُ بينَهُ وبينَ نفسِه.

قالَ «ٱلنابغةُ»: ما كلامٌ تَطِنّ بهِ طنينَ ٱلذبابةِ أيُّها ٱلخبيث؟

قال: «مِمَّا حفظْنَاهُ»: أنَّ من علاماتِ ٱلأحمقِ أنَّهُ إذا ٱستُنْطِقَ تَجلَّفَ، وإذا بكى خار، وإذا ضَحِكَ نَهقَ. كما فعلْتَ أنت ٱلساعةَ، تقول: هاءْ، هُوءْ، هِيءْ...

فتغيَّرَ وجهُ «ٱلنابغةِ»، ونظرَ إليهِ نظرةً منكرة، وهمَّ أنْ يقتَحِمَ عليه، وقال: أيُّها ٱلمجنون، لِماذا تُضطرُّني إلى أنْ أُجيبَكَ جوابَ مجنون... لا نجوْتُ إنْ نجوْتَ منّي!

فأسرع ا. ش، وأمسكَ بِه؛ وٱعترضَ مِنْ دونِهِ س. ع، وقالَ لَهُ: أنت بدأْتَهُ وٱلبادىءُ أظلم.

قال: ولكن ـ ويحَهُ ـ كيف قالَ هذا؟ كيفَ لم يقلْ إلَّا هذا؟ كيف لم يجدْ إلَّا هذا يقولُهُ؟ أنابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين أحمق، وقد أوْحدَهُ ٱللَّهُ في ٱلقرنِ ٱلعشرين؟ لَهَمَمْتُ ـ والله ـ أنْ أكسِرَ ٱلذي فيهِ عيناه؛ فما يقولُ إلَّا أنِّي أحمقُ ٱلقرنِ ٱلعشرين...

* * *

قلْتُ: إنْ كانَ هذا هوَ ٱلذي أغضبَك منه؛ ففي ٱلحديثِ ٱلشريف: «ليسَ من أحدٍ إلَّا وفيهِ حَمْقَةٌ، فَبِها يعيش». وٱلحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمةٌ تنظيماً عاقلاً؛ وما يُقبلُ ٱلإنسانُ على شيءٍ من لذاتِها إلَّا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاتِه، وأمتعُ ٱللَّذةِ ما طاشَ فيهِ ٱلعقلُ وخرجَ من قانونِه؛ ولولا هذا ٱلحمقُ في طبيعةِ ٱلإنسانِ لما ٱحتملَ طبيعةَ ٱلحياة، أليسَ يُخيَّلُ إليكَ أنَّ أكثرَكَ غائبٌ عن ٱلدنيا وأقلَّكَ حاضرٌ فيها، وأنَّ يَقَظتَكَ ٱلحقيقةَ إنَّما هي في ٱلحُلُمِ وما يُشبهُ ٱلحُلُم، كأنَّكَ خُلِقْتَ في كوكبٍ وهبطْتَ منه إلى كوكبِنا هذا، فما فيك لِلأرضِ ولا فيها لك إلَّا ٱلقليلُ يلتئِمُ بعضُه ببعضِه، وأكثرُكما مُتَنَافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع؟

قال: بلَى.

قلْتُ: فهذا ٱلقليلُ هوَ ٱلحمقةُ ٱلتي بها تعيش، وهو أرضيَّةُ ٱلأرضِ فيك؛ أما سماويةُ ٱلسماءِ فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ ٱلأرض؛ ولِهذا يعيشُ أهلُ ٱلحقيقةِ عيشَ ٱلمجانينِ في رأيِ المغرورينَ الذين غرَّتْهمُ ٱلحياةُ ٱلفانية، أوِ ٱلمخدوعين ٱلذين خدعَتْهُم ٱلظواهرُ ٱلكاذبة؛ فكلَّما أتَوْا عملاً مِنَ ٱلأعمالِ ٱلساميةِ ٱنتهى إلى ٱلحَمْقَى

معكوساً أو مُحوَّلاً أو معدولاً بِه؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ لِلحديثِ ٱلشريف: «أكثرُ أهلِ ٱلجنةِ البُله».

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: أكثرُ أهلِ ٱلجنةِ ٱلبُله.

فقالَ (ٱلنابغة): ٱلمصيبةُ فيك أنَّكَ أنت هو أنت؛ ألا فلْتعلمْ أنَّكَ من بُلَهاءِ ٱلبيمارستانِ لا من بُلْهِ ٱلجنة...

قلْتُ: ثمَّ إنَّ ٱلموتَ لا بدَّ آتٍ على ٱلناس جميعاً، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوهُ مِنَ ٱلدنيا، ويُلْحِقُ مَنْ نالَ بِمَنْ لم ينل؛ فمَنْ ذا ٱلذي يُسَرُّ بأنْ ينالَ ما لا يبقى لَه، إلَّا أنْ يكونَ سرورُهُ من حماقتِه؟ ومَنْ ذا ٱلذي يحزَنُ على أنْ يفوتَهُ ما لا يبقى لَه، إلَّا أنْ يكونَ حُزنُهُ حماقةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في ٱلحُبِّ بعدَ أنْ ينقضيَ ٱلحُبُّ إلَّا أنَّهُ كانَ حماقةً ضرَبَتْ في ٱلحواسِّ كلِّها ملأتِ ٱلنفس؛ ثُمَّ ملأتِ ٱلنفسَ حتى فاضَتْ على ٱلزمن؛ ثُمَّ فاضتْ على ٱلزمنِ حتى خبَّلتِ ٱلعاشِقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُرُ فيهِ ٱلأشياءُ وتكبُر، ويجعلُ ٱلواقعَ في ٱلنفسِ غيرَ ٱلواقعِ في دنياها؟ يُشبِّهُ كلُّ عاشقٍ حبيبتَهُ بٱلقمر: فهَبِ ٱلقمرَ سمعَ هذا وفَهِمَهُ وعَنَاهُ أنْ يُجيبَ عنه، فماذا عساهُ يقولُ إلَّا أنْ يُعْجَبَ من هذا ٱلحمقِ في هذا ٱلتشبيه؟

* * *

فهدأَ (ٱلنابغةُ) وسكنَ غضبُهُ وقال: صدقْت، ولِهذا أنا لا أشبِّهُ حبيبتي بٱلقمر.

قلْت: فبماذا تُشبّهها؟

قال: لا أقولُ لك حتى أعلَمَ بماذا تُشبِّهُ أنت حبيبتَك. قلْت: وأنا كذلك لا أشبهُها بٱلقمر.

قال: فبماذا تُشبهها؟ قلْت: حتى أعلمَ بماذا تُشبِّهُ أنت..

قال: هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذُ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، ولك حبائبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبِك، وقد أعجبَتْني منهنَّ تلك ٱلتي في (أوراق الورد)، وأظنُّكَ أحبَبْتها في شهرِ مايو من سنة.. من سنة..

قالَ ٱلمجنونُ الآخر: من سنة ١٩٣٥؛ هٰأنذاك قد نبْهتُك.

قال: يا ويلك! إنَّ (أوراقَ الوردِ) ظهرَتْ من بضعِ سنين، إنَّما أنت من بُلهاءِ ٱلبيمارستانِ لا من بُلْهِ أوراقِ ٱلورد.. ماذا كنْتُ أقولُ؟

قالَ ا. ش: كنتَ تقول: هذا لا يُرضَى منك ولك حبائبُ كثيرات.

قال: نعم، لِأنَّكَ إذا شبَّهْتَ واحدةً منهنَّ بٱلقمر، انتهى ٱلقمرُ وفرغَ ٱلتشبيهُ فيظلُّ ٱلأخرياتُ بلا قمر.. ثُمَّ إنَّ كلمةَ ٱلقمرِ لا تُعجبُني، فلونُها أدكنُ[1] مُغْبَرٌّ يَضْرِبُ أحياناً إلى ٱلسواد... فإذا عشِقْتُ زَنجيَّةً فهٰهنا محلُّ ٱلتشبيهِ بالقمر.. أمَّا البيضُ ٱلرَّعابِيبُ فتشبيههُنَّ بالقمرِ من فسادِ ٱلذوق.

قال س. ع: ولِلألفاظِ ألوانٌ عندَك؟

قال: لو كنْتَ نابغةً لأَبصرْتَ في داخلِكَ أخْيِلةً مِنَ ٱلجنَّة؛ ألمْ يقلْ أستاذُنا آنفاً عن (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين): إنَّهُ هبطَ من كوكبٍ إلى كوكب؟ ففي كوكبِنا ٱلأولِ يكونُ لنا سَمْعٌ ملوَّن؛ وحِسٌّ ملوَّنٌ نسمعُ قرعَ ٱلطبلِ أزرق، ونفْخَ ٱلبوقِ أحمر، وزينَ ٱلنغَمِ ٱلحُلوِ أخضر، وٱلوجودُ كلُّهُ صُوَرٌ ملَّونةٌ، سواءٌ منه ما يُرَى وما يُحَسّ، وما هو مُسْتَخْفٍ وما هو ظاهر.

ثُمَّ أومأَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: وٱسمُ هذا ٱلأبلهِ كلفظِ الحِبر: لا أسمعُهُ إلّا أسود..

* * *

وسكَتَ «ٱلنابغةُ» وسكتْنا؛ فقال له س. ع. مالَكَ لا تتكلَّم؟ قال: لِأنِّي أُريدُ ٱلسكوت. قال: فلِماذا تُريدُ ٱلسكوت؟ قال: لِأنِّي لا أُريدُ أنْ أتكلَّم..

وتحركَ في نفسِهِ ٱلغيظُ مِنَ ٱلمجنونِ ٱلآخر، فرمى بعينِهِ ٱلفضاءَ ينظرُ ٱللَّاشيءَ وقال: إذا أصبحَ كلُّ ٱلنساءِ ذواتِ لِحًى أصبحَ هذا عاقلاً.. فدقَّ الآخرُ برجلِهِ دقاتٍ معدودة؛ فثارَ (ٱلنابغةُ) وقال: مَن هذا يشتُمُني؟

قال: س. ع: لم يشتمْك أحد، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض.

قال: بلْ شتمَني هذا ٱلخبيثُ، وسَمْعي لا يَكْذِبُني أبداً، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ، أُسيءُ ٱلظنَّ بكلِّ أحد، وعلامةُ ٱلحازم «العاقلِ» سوءُ ظنِّهُ بٱلناس. فهبْهُ كما قلْتَ قد خفَقَ بنعلِه، أو خبَطَ برجلِه؛ فهو ما يعني من ذلك، وأنا أسمعُ ما يعنيه. لقد طفحَ[2] ٱلشعرُ على قلبي فلا بدَّ لي من هجائه، ولا بدَّ لي أنْ أذبَحَهُ ولو بٱلكلام، فإنِّي إذا هجَوتُهُ رأيْتُ دمَهُ في كلماتي، وأُريدُ أنْ أجعلَهُ كٱلعَنْزِ ٱلتي كانَتْ عندَنا وذبحناها.

ثُمَّ ٱنتزعَ قلم س. ع، وقال: هذه هي السكيّن. ولكنْ أسألُك يا أستاذي أنْ

(١) الدكنة: اللون ما بين الحمرة والسواد. (٢) طفح: فاض.

تذبحَهُ أنت بكلمتينِ وتصفَ لَهُ جنونَه، فقد عزَبَ[1] عنّي ٱلشعر... إنَّ خَفْقَةَ رِجْلٍ على ٱلأرض تستطيرُ ٱلأرانبَ فزَعاً؛ فيَنْفرْنَ إلى أجْحَارِهِنَّ ويتَهَارَبْن، وما كانَتْ أبياتُ ٱلشعرِ في ذِهني إلّا أرانب..

أنتم لا تعرفون أنَّ مَنْ كانَ حَصِيفاً[2] ثَبيتاً مثلي، كانَ دقيقَ ٱلحِسّ؛ ومَنْ كانَ فَدْماً[3] غبيًّا مثلَ هذا، كانَ بليدَ ٱلحِسِّ غليظاً كثيفاً؛ فإذا أنا ٱستشعرْتُ ٱلبردَ رأيْتُني قد سافرْتُ إلى ٱلقُطْبِ ٱلشِّمالي؛ أما هذا ٱلمجنونُ فهو إذا ٱستشعرَ برداً سافرَ إلى عباءتِهِ أو لِحافِه.. إذ هو لا يعرفُ جغرافيا، ولا يدري ما طَحَاها.

قلْت: هذا منك أظرفُ من نادرةِ أبي ٱلحارث. قال: وما نادرةُ أبي ٱلحارث؟ وهلْ هو نابغة؟

قلْت: جلسَ يتغدّى مَعَ ٱلرشيدِ وعيسى بنِ جعفر. فأُتِيَ بخِوانٍ[4] عليهِ ثلاثةُ أرغفة، فأكلَ أبو ٱلحارثِ رغيفَهُ قبلهما، وٱلرشيدُ ملكٌ عظيمٌ: لا يأكلُ أكلَ ٱلجائع، وإنّما هو ٱلتَّشعيبُ من هنا وهناك؛ فكانَ رغيفُهُ لا يزالُ باقياً؛ فصاحَ أبو ٱلحارث فجأةً: يا غلام، فَرَسي. ففزعَ ٱلرشيدُ وقال: ويلك ما لكَ؟ قال: أُريدُ أنْ أركبَ إلى هذا الرغيفِ ٱلذي بينَ يديك..

قال (النابغة): ولكنَّ فرقاً بين أبي ٱلحارثِ وبينَ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فإنَّ منَ ٱلعجائبِ أنّي ربما نظرْتُ إلى ٱلرجلِ وهو يأكلُ فأجدُ ٱلشِّبَعَ، حتى كأنَّهُ يأكلُ ببطني لا ببطنِه، ولكن مِنَ ٱلعجائبِ أنَّ هذا لا يتَّفِقُ لي أبداً حينَ أكونُ جائعاً...

أمَّا هذا ٱلمجنونُ ٱلذي أمامَنا، فربَّما أبصرَ ٱلحِمارَ على ظهرِهِ ٱلحِمْلُ، فيشعرُ كأنَّ ٱلحِمْلَ على ظهرِهِ هو لا على ظهرِ ٱلحمار.

قالَ الآخر: «مِمَّا حفظناه»: أنَّه سُرِقَ لأعرابيّ حِمار، فقيلَ لَهُ أسُرِقَ حمارُك؟ قال: نعم، وأحمدُ ٱلله. فقيلَ لَه: على ماذا تحمدُه؟ قال: على أنّي لم أكنْ عليهِ حينَ سُرق.. فأنا إذا رأيْتُ حِماراً مثقَلَ ٱلظهرِ، حمدتُ ٱللَّهَ على أنَّ ٱلحِمْلَ لم يكنْ عليّ، لا كما يقولُ هذا. ثُمَّ دقّ برجلِهِ دقات..

فٱستشاطَ (ٱلنابغة) وقال) أسمعْتُم كيف يقولُ إنّي مجنون، ثُمَّ لا يكتفي بهذا بلْ يقولُ إنّي حِمارٌ على ظهرِهِ ٱلحِمل؟

---

(1) عزب: غرب.
(2) حصيفاً: عاقلاً رزيناً.
(3) فدماً: جباناً غبياً.
(4) خوان: مائدة الطعام.

قلْت: ينبغي أنْ تتكافآ، وهذا لا يَعيبُك منه ولا يعيبُهُ منك، فإنَّ من تواضُع «النوابغ» أنْ يشعروا ببؤسِ ٱلحيوان، فإذا شعروا ببؤسِهِ دخلتْهمُ ٱلرقةُ لَه، فإذا دخلْتهمُ ٱلرقةُ صارَ خيالُ ٱلحِملِ حِمْلاً على قلوبِهمُ ٱلرقيقة؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك: حكى ٱلجاحظُ عن ثُمامةَ قال: كان (نابغةٌ) يأتي ساقيةَ لنا سَحَراً؛ فلا يزالُ يمشي مع دابتِها ذاهباً وراجعاً في شِدّةِ ٱلحرِّ أيامَ ٱلحرّ، وفي ٱلبردِ أيامَ ٱلبرد، فإذا أمسى توضأَ وقال: اللهمّ ٱجعلْ لنا من هذا ٱلهمِّ فَرَجاً ومَخرجاً. فكانَ كذلك إلى أنْ مات!

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ثمرةُ ٱلدنيا ٱلسرورُ، ولا سرورَ لِلعقلاء، فلو لم يكنْ هذا أعقلَ ٱلعقلاءِ لَمَا مُحِقَ سرورُهُ في ٱلدنيا هذا المحْقَ إلى أنْ ماتَ غمًّا، رحمهُ ٱلله!

* * *

قال: س. ع: فٱعفُ ٱلآنَ عن صاحبِك ولا تذبحْهُ بٱلهجاء.

قال: لقد ذكَّرْتَني من نِسيان، وهذا ٱلمجنونُ يرى نِسياني من مرضٍ عقلي، وكانَ ٱلوجهُ ـ لو تَهَدَّى إلى ٱلحقيقة ـ أنْ يراهُ شذوذاً في ٱلعقل، أي نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلكَ ٱلفيلسوفِ ٱلذي أرادَ أنْ يَتَثَبَّتَ في كم مِنَ ٱلزمنِ تُسلقُ ٱلبيضة؛ فأخذَ بيدِهِ ٱلساعةَ وبيدِهِ ٱلأخرى بيضة، ثُمَّ نسِيَ نسيانَ ٱلنبوغ، فألقى ٱلساعةَ في ٱلماءِ على ٱلنار، وثَبتَتْ عينُهُ على ٱلبيضةِ ينظرُ فيها على أنَّها هي ٱلساعة. ولو قد رآهُ هذا ٱلأبلهُ لَزعمَهُ مجنوناً كما يزعُمني، فإنَّ ٱلمجانينَ يَرَوْنَ ٱلعُقلاَ مرضَى بمواهبِهِم وأعمالِهمُ ٱلتي يعملونها.

وأنا فليسَ يُهيجُني شيءٌ ما تُهجيني كلماتٌ ثلاث: أنْ يقالَ لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمَنْ رغِبَ في صُحْبَتي فلْيتجنَّبْ هذه الثلاثَ كما يتجنَّبُ ٱلكُفْرَ وٱلكفرَ وٱلكفر...

قال ا. ش: فإذا قيل لَك مثلاً. مثلاً. أي على ٱلتمثيل: مغفَّل.

فحكَّ رأسَهُ قليلاً وقال: لا، هذه ليسَتْ من قدري..

قلْت: فبعضُ ٱلكلماتِ إذا قُطِعَتْ عندَك غيَّرتِ ٱلحقائق، كذلك ٱلقرن ٱلذي قُطعَ فَرَدّ ٱلبقرةَ فرساً؟

قال: وكيف كانَ ذلك؟

قلْت: زعموا أنَّ أعرابيًّا خرجَ إخوتُه يشترونَ خيلاً، فخرجَ معهم فجاءَ بعجلٍ يقودُه؛ فقيلَ لَه: ما هذا؟ قال: فرسٌ ٱشتريْتُه. قالوا: يا مائقُ[1] هذه بقرة، أَما ترى قرنيها؟

فرجعَ إلى منزلِهِ فقطعَ قرنيها، ثُمَّ قادَها إليهم وقالَ لَهم: قد أعدْتُها فرساً كما تُريدون..

قالَ (ٱلنابغة): هذا غيرُ بعيد، فقدْ رأيْتُنا حينَ ذبحْنَا ٱلعنَزَ وكسرْنَا قرنيَها أعدناها كلبةً سوداء، فتقذَّرْتُها وعِفْتُ لحمَها ولم أطعمْ منها.

ثُمَّ أومأَ إلى ٱلآخرِ وقال: هذا لا يدري ما طَحَاها، وهو مثل العَنز: تحسبُ قرنيها لِلقتالِ والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ لِلذبح؛ فقلْ في هذا يا أستاذَ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت لِلآخَر: أيُرضيكَ أنْ أقولَ في ٱلمعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبْتُ هذه الأبياتَ على ما يُريدُ النابغة:

قُلْ لِعَنزٍ نَاطِحَاها ... لِقِتالٍ سَلَّحَاها
ما لَها قَد طَرَحَاها ... في يَدَينِ ذَبَحَاها؟

* * *

شِيمَةٌ مِنِّي نَحاهَا ... عَقلُ غِرٍّ[2] فَلَحَاهَا
لَيسَ يدري ما طَحَاها[3] ... بَلْ يَرى شَمسَ ضُحَاها
حَجَراً مثلَ رَحَاهَا ... ويَرى ٱللَّيلَ مَحَاها
ظُلَماً طَالَتْ لِحَاها

* * *

وسُرّ (ٱلنابغةُ) وٱزدهى، وجعلَ يقول: طالَتْ لِحَاها، طالَتْ لِحَاها. وما كانَ هذا إلَّا ٱلسرورَ ٱلأصغر؛ أمّا سرورُهُ ٱلأكبرُ فمجيءُ ساعي (ٱلبريدِ ٱلمستعجلِ) إلى ٱلنديّ، وفي يدِهِ رِسالةٌ عنوانُها: نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين فلان، بنديِّ كذا.

وجعلَ ٱلرجلُ يهتفُ بالعنوانِ يسألُ عن صاحبِه؛ فتطاولَتْ أعناقُ ٱلناس، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) وقد مدَّ يدَهُ يتناولُ ٱلرسالةَ

---

(١) مائق: أحمق.
(٢) طحاها: بسطها وسهلها ومدّها. (٣) غرّ: أحمق، لا تجربة له.

وكأنَّهُ مِلكٌ مِنَ ٱلقدماءِ أُسْقِطَ لهُ كتابٌ بالفَتحِ ٱلعظيمِ وبضمِّ دولةٍ إلى دولتهِ.

ثُمَّ تركَ ٱلرسالةَ بين أصابعِهِ يقلِّبُها ولا يُفضُّها[1] ونحن في دهشةٍ من أمره؛ فنظرَ فيها ٱلمجنونُ وقالَ لَه: هذا عجيبٌ يا أخي، كيف هذا؟ إنَّ هذا لا يُصدَّق؛ إنَّكَ لَمْ تُلقها في صندوقِ ٱلبريدِ إلَّا منذُ ساعة..

---

(١) يفضّها: يفتحها.

المجنون

٤

وضاقَ «نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين» بحُمقِ ٱلمجنونِ الآخر؛ ورآهُ داهيةَ دَوَاهٍ، كلَّما تَعَاقَلَ أو تَحاذَقَ[١] لم يأتِ لَهُ ذلك إلَّا بأنْ يكشِفَ عن جنونِهِ هو: فلا يبرَحُ يُجرِّعُهُ ٱلغيظَ مرةً بعدَ مرة، ولا يزالُ كأنَّهُ يَسُبُّهُ في عقلِه؛ فأرادَ أنْ يحتالَ لِصرفِهِ عنِ ٱلمجلس، فدفعَ إليهِ ٱلرسالةَ ٱلتي جاءَ بها (ٱلبريدُ ٱلمستعجَلُ) وقالَ له: خذْ هذه فٱذهبْ فألقِها في دارِ ٱلبريد، فسيجيءُ بها ٱلساعي مرةً أخرى، ثُمَّ تذهبُ ٱلثانيةَ فتُلقيها، ويعودُ فيجيءُ بها، وتكونُ أنت تذهبُ ويكونُ هو يجيء، فنضحكُ منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهبُ هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزَهُ (ٱلنابغة) بعينِهِ أنِ ٱسكتْ؛ فتَغَافَلَ س. ع، وقال: كم تُريدُ أنْ يجيءَ ٱلساعي لِيهتفَ بنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين؟

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: هذا هو ٱلرأي، فلسْتُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً أذهب؛ فإن ٱلساعيَ لا يجيءُ إلَّا راكباً، وأنا لا أذهبُ إلَّا راجلاً، وإنَّ لي رجلَيْ إنسانٍ لا رجلَيْ دابة..

قالَ (ٱلنابغة): سبحانَ ٱللهِ؟ بقليلٍ مِنَ ٱلجنونِ يخرُجُ مِنَ ٱلإنسانِ مجنونٌ كاملٌ مُسْتَلَبُ ٱلعقل. بَيْدَ أنَّهُ لا يأتي ٱلنابغةُ إلَّا من كثيرٍ وكثير، ومنَ ٱلنبوغ كلِّهِ بجميع وسائلِهِ وأسبابِهِ على تعدُّدِها وتفرّقِها وصعوبةِ ٱجتماعِها لإنسانٍ واحدٍ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فهو ٱلذي توافَتْ إليهِ كلُّ هذه ٱلأسباب، وتوازَنَتْ فيهِ كلُّ تلكَ ٱلخِلال. إنَّهُ ليسَ ٱلشأنُ في ٱلعِلْمِ ولا في ٱلتعليم؛ ولكنَّما ٱلشأنُ في ٱلموهبَةِ ٱلتي تُبدِعُ

(١) تحاذق: تذاكى.

ٱلابتكارَ، كموهبةِ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فبها تجيءُ أعمالُهُ منسَجِمَةً دالَّةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتميِّزةً معَ كونِها منسجمةً دالةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتلائمةً مع كونِها متميزةً دالةً بنفسِها على نفسِها. . .

هذا س. ع، كانَ ٱلأولَ بينَ خرِّيجي مدرسةِ دارِ ٱلعلومِ، مدرسةِ ٱلأدبِ وٱلعربية، وٱلمنطقِ وٱلتحذلُق، وبلاغةِ ٱللسانِ وصِحَّةِ ٱلنظر؛ وهو يعرفُ أنَّ ٱلكتابَ يُلقى في ٱلبريدِ وعليهِ طابعٌ واحد، فيصلُ إلى غايتِهِ بهذا ٱلطابع، ثم يَرى بعيني رأسِهِ أربعةَ طوابعَ على هذه ٱلرسالةِ المُعَنْوَنَةِ بٱسم (نابغة ٱلقرنِ العشرين)، فلا يُدرك بعقلِهِ أنَّ معنَى ذلك أنَّ من حقِّ هذه ٱلرسالةِ أنْ تصِلَ إليَّ أنا أربعَ مرات. .

فطرِبَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ، وٱهتزَّ في مجلسِهِ، وصفَّقَ بيديه، وقال: «مِمَّا حفظْناه» هذا الحديث: «يُحاسِبُ ٱللَّهُ الناسَ على قدرِ عقولِهم». فلا تؤاخذْ س. ع، فإنَّ مدرسةَ دارِ ٱلعلوم تعلّمُهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثةُ أقوال، وفيها أربعةُ أوجه، ولكنَّها لا تعلِّمُهم فيها أربعةُ طوابع. .

ثُمَّ ٱلتفتَ إلى س. ع، وقالَ له: لا عليك، فأنا صاحبُهُ وخَلِيطُه، وحامِلُ عِلْمِهِ وروايةُ أدبِه، وأكبرُ دُعاتِهِ وثِقَاتِهِ، وما علمْتُ هذه ٱلحِكمةَ منه إلَّا في هذه الساعة.

قال ا. ش: فإذا كانَ هذا، فإنَّ لِقائلٍ أنْ يقول: لِماذا لم يضعْ على كتابِهِ عشرةً مِنَ ٱلطوابع، فيجيءَ بهِ ٱلساعي عشرَ مرات.

قالَ (ٱلنابغة): وهذا أيضاً. . .؟

وما شرُّ ٱلثلاثةِ أُمَّ عمرٍو بصاحبِك ٱلذي لا تصحبينَ»؛ إنَّ ٱلشمعةَ في يدِ ٱلعاقلِ تكونُ لِلضوءِ فقط، ولكنَّها في يدِ ٱلمجنونِ لِلضوءِ ولإِحراقِ أصابعِه. كمِ ٱلساعةُ الآن؟

قلْنا: هي ٱلتاسعة.

قال: ومتى ينصرفُ أهلُ هذا ٱلنديّ؟

قلْنا: لِتمامِ ٱلثانيةَ عشرة.

قال: فإذا كانَ ٱلساعي يتردّدُ في كلِّ ساعةٍ مرة، فهي أربعُ مراتٍ إلى أن ينفضَّ ٱلمجتمعون[1] هنا، وبين ذلك ما يكونُ قد ذهبَ قومٌ عرفوا (نابغة ٱلقرنِ

---

(١) ينفضّ المجتمعون: يتفرّقون.

ٱلعشرين)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه. وأمَّا بعدَ ذلك فلا يجدُ ٱلساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئهِ.

فصفَّقَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وقال: هذا وأبيكَ هو التَّهدِّي إلى وجهِ ٱلرأي وسَدادِه، وهذا هو ٱلكلامُ ٱلرصينُ ٱلذي يقومُ على أُصولِ ٱلحساب وٱلجغرافيا.. «ومِمّا حفظْناه» هذا الحديث: «لا مالَ أعْوَدُ مِنَ ٱلعقل». فأربعةُ طوابع، لِأربعِ مرات، في أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مالَ أعودُ مِنَ ٱلعقل..

* * *

ورضِيَ (ٱلنابغةُ) عن صاحبِهِ وقالَ لَه: لَئِنْ كانَتْ فيك ضَعْفةٌ إنَّ فيك لَبقيَّةً تعقِلُ بها... ثُمَّ أخذَ منهُ ٱلرسالةَ ودسَّها في ثوبِه. قلْنا: ولكنْ ألا تَفُضُّها لِنعرفَ ما فيها؟

فضحكَ وقال: أيْنَ جارَيْتُكم في بابِ ٱلمُطايَبة وٱلنادرة، وجارَيْتُ هذا ٱلأبلهَ في بابِ جُنونِهِ وحُمقِهِ ـ تحسبون أنَّ الأمرَ على ذلك، وأنَّ ٱلرسالةَ فارغةٌ إلا من عنوانِها، وأنَّ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين هو [من] أرسلها إلى نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يُفاوضُ جورجَ الخامس)...؟ لَحَقٌّ ـ والله ـ أنَّ ٱلعقلَ ٱلكبيرَ ٱلذي يأبى ٱلصغائرَ، هو الذي تأتي منهُ ٱلصغائرُ أحياناً لُتثبِتَ أنَّهُ عقلٌ كبير، وهكذا تَسَخَرُ ٱلحقيقةُ من كِبارِ ٱلعقولِ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)..

فغضبَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وهمَّ أنْ يتكلَّم: فقالَ لَهُ (ٱلنابغة): أنت كاذِبٌ فيما ستقولُه.

قلْنا: ولكنَّهُ لم يقلْ شيئاً بعدُ، فكما يجوزُ أنْ يكونَ كاذباً يجوزُ أنْ يكونَ صادقاً.

قال: وسيُخطىءُ في رأيهِ ٱلذي يُبديه..

قلْنا: ولم يُبدِ شيئاً من رأيه..

قال: ولا يعرفُ ٱلحقيقةَ ٱلتي سيتكلَّمُ عنها.

قلْنا: ويحك، أدخَلْتَ في عقلِ ٱلرجلِ أم تَعْلَمُ ٱلغيب؟

قال: لا هذا ولا ذاك، ولكنَّهُ قِياسٌ منطقيٌّ يُتوَهَّمُ ٱطرادُه[1]. إنَّهُ سيقول: إنِّي مجنون..

---

(١) اطّراده: استمرار حدوثه.

فأخرجَ ٱلآخرُ لِسانَه. . قالَ: (ٱلنابغة): تباً لك، لقد رأيْتُ ٱلكلمةَ في لِسانِكَ كأنَّها مكتوبةٌ بحروفِ ٱلمطبعة. ويحكَ يا مَرْقَعان[1]، ألا تعرفُ أنَّ لك دِماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارُك قبلَ أنْ تتكلَّمَ بها، ولولا أنَّهُ مخروقٌ لَحفظْتَ ٱلمتن! إنَّ كلَّ تخطئةٍ لي منك هي ٱعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليهِ نظرةً كانَ تفسيرُها في حواجبه، إذْ مطَّ[2] حواجبَهُ ورقَّصَها. فقالَ (ٱلنابغة): ونظراتُهُ خبيثةٌ مِلْحَةُ ٱلطعم، مَزْعُوقَةٌ كَمَاءِ ٱلبحرِ ٱلمرِّ أُخِذَ مِنَ ٱلبحرِ وأُضيفَ إلى مِلْحِهِ ٱلطبيعيِّ مِلْح، أكادُ أتهوَّعُ[3] من هذه ٱلنظرةِ فأقيء.

الآنَ فهمتُ معنى قولِهم: «مِلحةٌ في عينِ ٱلحسود». فإنَّ ٱلملحَ لا يغلبُهُ إلَّا المِلْح، كٱلحديدِ بالحديد يُفْلَحُ[4]. هاتوا كأساً من مُعتّقةِ ٱلخمر، ثُمَّ لْينظرْ فيها ٱلخبيثُ هذه ٱلنظرة، فإنَّ ٱلخمرَ لا بدَّ مستحيلةٌ «شربة ملح إنجليزي». . . هذا ٱلأبلهُ ثقيلُ ٱلدم كأنَّ دمَهُ مأخوذٌ من مستنقع. . . أهذا ٱلذي لا يستطيعُ أنْ يقولَ لِشيءٍ في ٱلدنيا: هُوَ لي، إلَّا ٱلفقرَ وٱلجنونَ وٱلخرافة ـ يُكذِّبُ ما في ٱلرسالةِ ٱلتي جاءَ بها ٱلبريدُ ٱلمستعجَلُ، ولا يُصدِّقُ أنها مرسَلةٌ إلى نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ من صاحبِ ٱلسموِّ ٱلأمير؟

هذا ٱلذاهبُ ٱلعقلِ هو كٱلجبانِ ٱلمنقطعِ في وَحْشةِ ٱلقَفْر، في ظلامِ ٱلليل: إذا تَوجَّسَ حركةً ضعيفةً ٱنقلبَتْ في وهمِهِ قصةَ جريمةٍ ماؤُها ٱلرعبُ وفيها ٱلقتلُ وٱلذبح؛ ولِهذا يخشى ما في ٱلرسالةِ ٱلتي جاءَتْ من صديقي صاحبِ ٱلسموّ. هاؤمُ ٱقرءوا ٱلرسالة.

وفضضْنَا[5] ٱلغِلاف، فإذا ورقتانِ ممهورتانِ بتوقيعِ أميرٍ معروف، إحداهما صكٌ بألفِ جنيهٍ تُدفَع (لنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، والثانيةُ أمرٌ بالقبضِ على ٱلمجنونِ ٱلآخر. . وإرسالِهِ إلى ٱلمارستان. . .

* * *

وذهبْتُ أُصْلِحُ بينهما صُلْحاً فقلْت: إنَّ في ٱلحديثِ ٱلشريف: «بينما رسولُ

---

(١) المرقع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتجّ عليه رأيه.
(٢) مط حواجبه: رفعها استغراباً واستفهاماً.
(٣) تهوّع القيء: تكلّفه.
(٤) يُفلح: يُشقّ.
(٥) فضضنا: فتحنا.

ٱللَّهِ ﷺ في أصحابِهِ إذْ مرَّ به رجلٌ، فقالَ بعضُ ٱلقوْم: هذا مجنون. فقالَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ: هذا مُصاب؛ إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله».

فقالَ صاحبُ ٱلمتن: «مِمَّا حفظناه» إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله.

قلْت: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ ٱلله...

قالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناه»: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ ٱلله...

قلْت: هذا ليسَ مِنَ ٱلحديثِ ولكنَّه من كلامي...

قالَ (ٱلنابغة): أنبأْتُكم أنَّ هذا ٱلأبلهَ يَضِلُّ في دارِهِ كما يضلُّ ٱلأعرابيُّ في ٱلصحراء؛ وأنَّ الأُسطولَ ٱلإنجليزيَّ لوِ ٱستقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثَوْر، لكانَ ذلك أقربَ إلى ٱلتصديقِ مِن ٱستقرارِ ٱلعقلِ في رأس هذا ٱلأبله؟...

فٱحْتَدَمَ[1] ٱلآخرُ وهمَّ أنْ يقول: «مِمَّا حفظْناه»، ولكنِّي أسكتُّهُ وقلْتُ (لِلنابغة): إنَّك دائماً في دروةِ ٱلعالم، فلا غَرَوَ أنْ ترى ٱلمحيطَ ٱلأعظمَ ساقية. «والنوابغُ» هم في أنفسِهم نوابغ، ولكنَّهم في رأيِ ٱلناسِ مَرْضَى بمرضِ ٱلصعودِ ٱلخياليِّ إلى ذِروةِ ٱلعالم. ومن هذا يكونُ ٱلمجانينُ همُ ٱلمرضى بمرضِ ٱلنزولِ ٱلحقيقيِّ إلى حضيضِ ٱلآدميَّة؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالِهم، ثُمَّ تكونُ عقولُهُم من أفكارِهِم، فيكونُ هذا هو ٱلجنونَ في عقولِهِم، وذلك معنى ٱلحديث: «إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله».

قالَ (ٱلنابغة): لَعَمْرِي إنَّ هذا هو ٱلحقّ؛ فنبوغُ العقلِ مَرضٌ من أمراضِ ٱلسموِّ فيه؛ فٱلشاعرُ ٱلعظيمُ مجنونٌ بِٱلكونِ ٱلذي يتخيَّلُهُ في فكرِه، وٱلعاشقُ مجنونٌ بكونٍ آخرَ لَهُ عينانِ مكحولتان؛ والفيسلوفُ مجنونٌ بِٱلكوْنِ ٱلذي يَدأبُ في معرفتِه؛ ونابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين مجنون... لا. لا. قد نسينا ا. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكلُّ ٱلناسِ مجنونٌ بليلَى ... وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكَ

ومن حقِّ لَيلى ألّا تقرَّ لهم، إذْ هي لا تقرُّ إلَّا لِنابغة ٱلقرنِ ٱلعشرينَ وحدَه؛ وما أعجبَ سِحرَ ٱلمرأةِ في ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ لِلرجال! أمَّا في ٱلكونِ ٱلحقيقيِّ فهي أنثى كإناثِ ٱلبهائمِ ليسَ غير. وأعقلُ ٱلرجالَ مَنْ كانَ كٱلحِمارِ أوِ ٱلثورِ أو غيرِهما

---

(١) احتدم: استشاط غضباً.

من ذكورِ ٱلبهائم. فٱلحِمارُ لا يعرفُ ٱلحِمارةَ إلَّا أنها حِمارة، وٱلثورُ لا يعرفُ ٱلبقرةَ إلَّا أنَّها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناثُ ٱلبهائم أُمَّاتٌ[1] لا غير، ولكنَّ ٱلعجيبَ أنَّ ذكورتَها ليسَتْ آباءً؛ فهذه ٱلذكورةُ طُفَيلِيةٌ في ٱلدنيا، وٱلطفيليُّ لا يأكلُ إلَّا بحيلةٍ يحتالُ بها، فيكونُ صاحبَ نوادرَ وأضاحِيكَ وأكاذيب. ولِهذا كانَ عِشْقُ ٱلرجالِ لِلنساءِ ضُروباً مِنَ ٱلخِداعِ وٱلأكاذيبِ وٱلأضاحيكِ وٱلحِيَلِ وٱلغَفْلَةِ وٱلبلاهة؛ وإذا نظرْنا إليهِ من أولِهِ فهو عِشْق، أمَّا آخرُهُ فهو آخرُ ٱلحِيْلَةِ وٱلأُكذوبة، وهو قولُ ٱلطفَيليِّ: قد شبعْتُ وقد رَوْيت.. ويْحَكم، أين أولُ ٱلكلام؟

قلْنا: أولُهُ ما أعجبَ سِحرَ ٱلمرأةِ في ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ للرجال!.

قال: نعم هذا هو. إنَّهُ سِحرٌ لا أعجبَ منه في هذا ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ إلَّا سحرُ ٱلذهب؛ فلو مُسِخَتِ ٱلمرأةُ ٱلجميلةُ شيئاً مِنَ ٱلأشياءِ لَكانَتْ سبيكةً ذهبيةً تلمع؛ ولِهذا يُوجِدُ ٱلذهبُ ٱللصوصَ في الدنيا، وتُوجِد ٱلمرأةُ الجميلةُ لصوصاً آخرين، فيجبُ أنْ يُصَانَ ٱلذهبُ وأنْ تُصانَ[2] ٱلمرأة.

قلْت: ولكنْ أليسَ مِنَ ٱلمالِ فِضَّةٌ، وهي تُوجِدُ ٱللصوصَ كٱلذهب؟

قال: نعم، وفي ٱلنساءِ كذلك فِضَّةٌ، وفيهن ٱلنُّحاس؛ ولو أنتَ ألقيْتَ ريالاً في ٱلطريقِ لأحدثْتَ معركةً يختصِمُ فيها رجلان، ثُمَّ لا يذهبُ بِٱلريالِ إلَّا ٱلأقوى، ولو تركْتَ قِرشاً لتَضاربَ عليهِ طِفلان، ثُمَّ لا يفوزُ بِهِ إلَّا مَنْ عَضَّ الآخر...

ولكنَّ (فُورد) ٱلغنيَّ ٱلأمريكيَّ ٱلعظيمَ ٱلذي يجمعُ يدَهُ على أربعمائةِ مليون جنيه، لا يتكلمُ عنِ ٱلقِرش؛ و(نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ٱلذي يملُك (ليلَى)، لا يتكلَّمُ عن غيرِها من قروشِ ٱلنساء...

قلْت: فإنِّي أحسُبك أعلمْتَني أنّ ٱسمَها فاطمةُ لا ليلى.

قال: هل يستقيمُ ٱلشعرُ إذا قلْت: وكلُّ ٱلناسِ مجنونٌ بفاطمة، وفاطمُ لا تقرُّ لهم؟ قلْت: لا.

قال: إذن فهي (ليلى) لِيستقيمَ الشعر... أمَّا حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل، فهي فاطمة لِيصحَّ ٱلوزن.

---

(١) جمع يقال في غير العاقل، أمات، وفي العاقل: أمهات.
(٢) تصان: تحفظ.

قلْت: يُشْبِهُ ـ والله ـ ألّا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة؛ وإنَّما هي تسمى حَسَبَ الوزنِ والبحر، فٱسمُها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلَتنْ. . .

* * *

ثُمَّ قلْنا لَه: فما رأيُك في ٱلحبِ، فإنَّهُ لَيُقال: إنَّكَ أعشقُ ٱلناسِ وأغزلُ ٱلناس؟

قال: إنَّ ذلك لَيقالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أطرقَ يفكِّر. وبدا عليهِ أنَّهُ مَدهوشٌ ذاهبُ ٱلعقل، كأنَّهُ من قلبِه على مسافةٍ أبعدَ مِنَ ٱلمسافةِ ٱلتي بينَهُ وبينَ عقلِه. وخُيلَ إليَّ أنَّ ٱلنساءَ قد حُشِرْنَ[1] جميعاً في رأسِه، ومرَّتْ كلُّ واحدة تعرضُ مفاتِنَها وغَزلَها، وتُلائِمُ هَذَيَانَهُ بهذيانٍ[2] من جمالِها، فهو يرى ويسمعُ ويَعْرِضُ ويَتخيَّرُ. ثُمَّ ٱضطربَ كٱلذي يُحاولُ أن يُمسكَ بشيءٍ أفلتَ منه؛ فلم ينبِّهْهُ إلَّا قولُ ٱلمجنونِ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ أعرابيةَ سئلَتْ عنِ ٱلعشقِ فقالَتْ: إنَّهُ داءٌ وجنون. . .

قال: اسكتْ يا ويلكَ لقد أطفأْتَ ٱلأنوارَ بكلمتِكَ ٱلمجنونة. كانَ في رأسي مرقصٌ عظيمٌ تسطعُ الأنوارُ فيهِ بينَ ٱلأحمرِ وٱلأخضرِ وٱلأبيض؛ وترقُصُ فيهِ ٱلجميلاتُ مِنَ ٱلطويلةِ وٱلقصيرةِ وٱلممشوقةِ وٱلبادِنة، فجئْتَ بٱلداءِ وٱلجنونِ ـ قَبحَكَ ٱللَّهُ ـ فأخرجْتَني عنهنَّ إليك. أحسبُ أنَّك لوِ ٱنتحرْتَ لَصَلُحَ ٱلعالَمُ أو صلُحْتُ أنا على الأقل. . . فإذا أردْتَ أنْ تشنُقَ نفسَكَ فأنا آتيكَ بٱلحبلِ ٱلذي كنْتُ مقيَّداً فيهِ أي ٱلحبلِ ٱلذي عندي في ٱلدار. . على أنَّ رأسَك ٱلفارغَ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري.

قالَ ٱلآخر: ما أنت مُنذُ ٱليوم إلَّا في شنقي وتعذيبي أو في شنقِ عقلي (على الأصح). «ومِمَّا حفظْناه» قولُ ٱلأحنفِ بْنِ قَيس: إنِّي لأُجالِسُ ٱلأحمقَ ساعةً فأتَبَيَّنُ ذلك في «عقلي». . .

فلم يَرُعْنا إلَّا قِيامُ ٱلمجنونِ مُسَلَّحاً بحذائِهِ في يدِه. . . وهو حِذاءٌ عتيقٌ غليظٌ يقتلُ بضربةٍ واحدة؛ فحُلْنا بينَهما وأثبتْناهُ في مكانِه. وقُلْنا: هذا رجلٌ قد غُلِبَ على عقلِهِ فلا يدري ما يقول؛ فإذا هو دلَّ على أنَّهُ مجنون، أفلا تَدُلُّ أنت على أنَّكَ عاقل؟ ما سألْنَاكَ في ٱنتحارِهِ وجنونِه، بلْ سألْنَاكَ رأيَكَ في ٱلحبّ؛ وما نشُكُّ أنَّك قد أطلْتَ ٱلتفكيرَ لِيكونَ ٱلجوابُ دقيقاً، فإنَّك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فٱنظرْ أنْ يكونَ ٱلجوابُ كذلك.

---

(١) حُشِرْن: جمعْن. (٢) الهذيان: الجنون.

قال: نعم إنْ ٱلعاقلَ إذا وَرَدَ عليهِ ٱلسؤالُ أطالَ ٱلفكرَ في ٱلجواب. فٱكتبْ يا فلان (س. ع):

(جلس نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ مجلسَ ٱلإملاءِ مُرتجِلاً فقال: قصةُ ٱلحبِّ هي قصةُ آدم، خلقَ ٱللَّهُ ٱلمرأةَ من ضِلْعِه. فأولُ علامات ٱلحُبِّ أنْ يشعرَ ٱلرجلُ بالألم كأنَّ ٱلمرأةَ ٱلتي أحبَّها كسَرَتْ لَهُ ضِلْعاً... وكلُّ قديم في ٱلحُبِّ هو قديمٌ بمعنًى غيرِ معقول، وكلُّ جديدٍ فيهِ هو جديدٌ، بمعنًى غيرِ مفهوم؛ فغيرُ ٱلمعقولِ وغيرُ ٱلمفهوم هو ٱلحُبّ.

وٱلجمرةُ ٱلحمراءُ إذا قِيل إنَّها ٱنطفأَتْ وبقيَتْ جمرةً فذلك أقربُ إلى ٱلصدقِ من بقاءِ ٱلحُبِّ حيًّا بمعناهُ ٱلأولِ إذا انطفأ أو بَرَدَ.

والعاشقُ مجنون. وجنونُهُ مجنونٌ أيضاً، فهو كٱلذي يرى ٱلجمرةَ منطفئةً، ويرى معَ ذلك أنَّها لا تزالُ حمراء، ثُمَّ يُمْعِنُ في خيالِهِ فيراها وردةً مِنَ ٱلورد... وإذا سألْتَهُ أنْ يصِفَ ٱلجمالَ ٱلذي يهواهُ كانَ في ذلك أيضاً مجنونَ ٱلجنونِ، كٱلذي يرى قمرَ ٱلسماءِ أنَّهُ قد تفتَّتَ وتناثَرَ ووقَعَ في ٱلروضةِ، فكانَ نِثارُهُ هو ٱلياسمينَ ٱلأبيضَ ٱلجميلَ ٱلذكي..

وٱلمجنونُ يرى ٱلدنيا بجنونِهِ وٱلعاقلُ يراها بعقلِه؛ ولكنَّ ٱلعاشقَ ٱلمخبولَ لا ينظرُ مَنْ يهواهُ إلَّا ببقيَّةٍ من هذا وبقيَّةٍ من ذلك، فلا يخلُصُ معَ حبيبِهِ إلى جنونٍ ولا عقل.

(وٱلمجهولُ) إذا أرادَ أنْ يَظهرَ في دِماغٍ بشَريٍّ لم يسعْهُ إلَّا أحدُ رأسين: رأسِ ٱلمجنون ورأسِ ٱلعاشق...

ولا صعوبةَ في ٱلحكم على شيءٍ بأنَّهُ خيرٌ أو شرٌّ إلَّا حينَ يكونُ ٱلخيرُ وٱلشرُّ ٱمرأةً معشوقة. أمَّا أوصافُ ٱلشعراءِ وٱلكُتَّابِ لِلجمالِ وٱلحُبِّ فهي كلُّها تقليدٌ قد توسَّعوا فيه؛ وٱلأصلُ أن ثوْراً أحبَّ بقرةً فكانَ يقولُ لها: يا نجمةَ ٱلقُطْبِ ٱلتي نزلَتْ مِن ٱلسماءِ لِتدورَ في ٱلساقيةِ كما دارَتْ في ٱلفَلَك.

قالَ (ٱلنابغة): هذا رأيي في حبِّ ٱلعاشقين؛ أمَّا حُبِّي أنا (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فيجمعُهُ قولُك: فلّ، ورد، زهر...

قلْنا ما هذه ٱلألغاز؟ وهلْ لِلحُبِّ مَتْنٌ كقولِهم: حروفُ ٱلقَلْقَلَةِ يجمعُها قولُك (قطْبُ جَدٍ)، وحروفُ الزيادةِ يجمعُها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحَكَ (النابغة)، وقال: تكاثَرَتِ ٱلظِّباءُ على خَراش، فلكيلا ننسى. . . إنَّ كلَّ حرفٍ هو بدءُ ٱسم، الفاء فاطمة، وٱللام ليلَى، وٱلواو وردة، وٱلراء رباب، وٱلدال دلال، وٱلزاي زكيَّة، وٱلهاء هِنْد، وٱلراء رَباب. . .

قلْنا: ربابُ قد مضَتْ في (ورد).

قال: كنَّا تَهاجَرْنا مدةً ثُمَّ ٱصطلَحْنَا بعَد هند. . .

* * *

قلْت: هكذا «ٱلنوابغ» فإنَّ رجلاً أديباً كانَتْ كُنيتُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صَيَّرها (أبا العَيْر)[1] وفَتَقَ لَهُ نبوغُهُ أنْ يجعلَها تاريخاً يَعرفُ منها عمرَه. قالوا فكان يزيدُ فيها كلَّ سنةٍ حرفاً حتى ماتَ وهي هكذا:

أبو العَيرِ طَآَدْ طِيل طَلِيري بَك بَك بَك. . .

* * *

(١) العير: الحمار.

المجنون

٥

ثمَّ إنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ٱستخفَّهُ ٱلطربُ لِذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِهِ من فاطمةَ إلى رَباب؛ ومن طبعِ ٱلمجنونِ أنَّهُ إذا كَذَبَ صَدَّقَ نفسَه، فإنَّ قوَّةَ ٱلضبطِ في عقلِهِ إمَّا معدومةٌ وإما مختلَّة؛ وكلُّ وجهٍ تَخَيَّلُ منه خَيالا فهو وجهٌ من وجوهِ ٱلعِلْمِ عندَه، إذْ كانَ عالَمُهُ أكثرُهُ في داخلِهِ لا في ٱلعالَم، فإذا توهَّمَ أو أحسَّ أو شَعَرَ، فإنَّما يكونُ ذلك بطريقتِهِ هو لا بِطريقةِ ٱلناسِ ٱلعُقلاء؛ فليسَ يَحتملُ عقلُهُ إلَّا فِكْرةً واحدةً تمضي منفرِدَةً بنفسِها مستقلةً بمعناها كأنَّها قَدَرٌ غالبٌ على جميعِ أفكارِهِ ٱلأخرى، فلا شأنَ لها بٱلواقع، ولا شأنَ لِلواقعِ بها، وإنَّما هي تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ لَه، لا كما تتمثَّلُ فيها حولَه.

فبينَ كلِّ مجنونٍ وبينَ ما حولَهُ دِماغُهُ ٱلمُتَدجِّي[1] بالغُيومِ ٱلعقليَّة، لا تزالُ تَعْرِضُ لَهُ ٱلغيمةُ بعدَ ٱلغيمةِ مِنِ ٱختلالِ بعضِ ٱلمراكزِ ٱلعصبيَّةِ فيه، وفسادِ أعمالِها بهذا ٱلاختلال، وقِيامِ ٱلطبيعةِ فيها على هذا ٱلفساد.

ومن ذلك تنقلبُ ٱلكلمةُ مِنَ ٱلكلام، وإنَّها لَحادثةٌ تامَّةٌ في عقْلِ ٱلمجنونِ كٱلقصةِ ٱلواقعةِ لها زمانٌ ومكانٌ، وبَدْءٌ ونِهاية، لا يُخامِرُهُ فيها ٱلشَّكّ، ولا يَعْتريها ٱلتكذيب؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذِهنِهِ من وراءِ سمعِهِ وبصرِهِ قيامَ ٱلحقيقةِ في ٱلأَبصارِ وٱلأَسماع؟

ولِحواسِّ ٱلمجنونِ جِهتَانِ في ٱلعمل، لأنَّها بينَ كَوْنَين؛ أحدُهما ٱلكونُ ٱلخَرِبُ ٱلذي في دِماغِه؛ وفي هذا يقول (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين): إنَّ في داخلِ عينيهِ مِنظاراً يرى بِهِ ٱلأَشياءَ في غيرِ حقائقِها، أي في حقائقِها..

وحدَّثنا ٱلدكتورُ محمدٌ ٱلرافعيُّ قال: إنَّ في دارِ ٱلمجانينِ بمدينةِ ليون بفرنسا

---

(١) المتدجّي: المظلم.

نابغةً كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، ذُكِرَتْ أمامَهُ قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلِها، فأحفظَهُ[١] هذا وأرْمَضَهُ[٢] وقالَ يا ويْحَهم! كَذَبوا عليها وعليَّ. فسألهُ الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كانَ من خبر ٱلقيصرةِ أنَّها رأتْني فأحبَّتْني، وعَلِمَتْ من كلِّ وجهٍ يُمكنُ أنْ يُعْلَمَ منه قلبُها أنّي أنا رجلُها لا ٱلقيصر؛ فما زالَتْ بعدَها تُناكِدُ[٣] ٱلقيصرَ وتَلْتَوِي عليهِ ولا تصلُحُ لَهُ في شيءٍ حتى يَئِسَ منها فطلَّقها، فحملَتْ كنوزَها وحِلاها ولَجأَتْ إلى حبيبها، ثُمَّ تَبِعَتْها نفسُ ٱلقيصرِ ولم يُطِقِ ٱلعيشَ بعدَها فٱنتحر. . ثُمَّ طَلبَها ٱلشيوعيون لِمَا معها من كنوزٍ، فأخفاها هو في مكانٍ حريزٍ[٤] لا يعلمُهُ إلَّا هو؛ ثُمَّ إنَّهُ هو لا يصلُ إلى هذا ٱلمكان ٱلذي أحرزَها فيهِ إلَّا إذا نام. . كيلا يراهُ أحدٌ مِنَ ٱلشيوعيِّين فيتعقَّبَهُ فيعلمَ مقرَّها؛ ولِهذا كانَ مِنَ ٱلحِكمةِ أنْ ينسى ٱلمكانَ إذا ٱستيقظ. . فقد يَزِلُّ مرةً فيُخبِرُ بهِ أو يغلبُهُ ٱلشوقُ مرةً على «عقلِه». . فيذهبُ إليه؛ فعسى أنْ يراهُ مَنْ يَنِمُّ بذلك، فتُفتَضحَ ٱلحبيبةُ وتُؤخَذُ منه.

قال: وإنَّ ٱلقيصرةَ هي تحتاطُ أيضاً مثلَ ذلك فتُراسلُهُ كلَّ يوم باللاسلكيِّ رسائلَ تقعُ مِنَ ٱلجوِّ في دِماغِهِ فيقرؤُها وحدَه، وإنَّ أخوفَ ما يخافُهُ أنْ يغلبَها جنونُ ٱلحُبِّ يوماً فتطيشَ طيشَ ٱلمرأة، فتزورَهُ في هذا ٱلمارستان. . . فقد تُقتَلُ إذا رآها ٱلشيوعيون.

قالَ ٱلدكتور: وهاكَ (نابغةٌ) آخرُ ثبتَ في ذِهنِهِ أنَّ ٱمرأةً من أجملِ ٱلنساءِ قدِ ٱستهامَتْ[٥] بِهِ وأنَّها مُبتلاةٌ في حُبِّها إياهُ بجنونِ ٱلغَيْرة، وقد تَنَاهَتْ فيهِ حتى إنَّها لتقتلُ نفسَها إذا عَلِمَتْ أنَّ لِصاحِبِها هوًى في ٱمرةٍ أخرى. وخبَّلَتْهُ هذه ٱلفكرةُ، فٱعتقدَ أنَّ حبيبتَهُ من جنونِ غَيرتِها واقعةٌ بينَ ٱلسلامةِ وٱلتلفَ؛ ثُمَّ توهَّمَ ذاتَ يوم أنَّ واشياً قد أعلَمَها أنَّ النساء ٱفتُتِنَّ بِهِ؛ فطارَ صوابُها، فهي آتيةٌ إليهِ في ٱلمارستانِ لِتوبِّخَهُ وتشفِيَ غيظَها منه، ثُمَّ تنتحرَ أمامَ عينيه. . . وأدارَ (ٱلنابغةُ) ٱلفكرَ في إقناعِها لِتَعْلَمَ أنَّهُ لم يَخُنْها بٱلغيب. . فلم يهتدِ إلى مَقْنَع تَسْتَيْقِنُ بِهِ ٱلمرأةُ أنْ لا أرَبَ لِلنساءِ فيهِ إلَّا أنْ. . . فعلَ وَجَبَّ خِصْيَتيهِ بيدِهِ لِيقدِّمَهما بُرهاناً أنَّهُ لها وحدَها. . . .

* * *

---

(١) أحفظه: أغضبه.

(٢) أرمضه: ألهبه.

(٣) تناكد: تخاصم.

(٤) مكان حريز: مصون لا يصل إليه أحد.

(٥) استهامت: عشقت.

قلْنا: وطَرِبَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) لِذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِه، فجعلَ يترنَّمُ بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تهوَى فقلْتُ لهمْ ما لَذَّةُ ٱلعيشِ إلَّا لِلْمجانين

فقالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ما لذَّةُ «الخبز» إلَّا لِلمجانين...

فضحكَ (ٱلنابغة): وقال: ما أسخَفَكَ مِنْ أحمق. إذا كانَ هذا هو ٱلمعنى فَقُلْ: ما لذَّةُ (ٱلكعكِ). ألم أقلْ لكم إنَّ هذا ٱلأبلهَ لو تَهَجَّأَ كلمةَ خبزٍ قالَ إنَّها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمةَ لحم لقال ف. و. ل...

إنَّهُ طِفلٌ عُمرُهُ ثلاثونَ سنةً وفيهِ دائماً غضبُ ٱلطفلِ ونَزَقُهُ[1] وحماقتُه، وفيهِ كذلك سُرورُ ٱلطفلِ وطيشُهُ وأحلامُه؛ غيرَ أنَّهُ ليسَ فيهِ عقلُ ٱلطفل.. وهو مِنَ ٱلضعف، وشِدَّة ٱلحاجةِ إلى ٱلعِنايةِ في حياطتِهِ وسياستِهِ وٱلبِرِّ بهِ كطفلٍ صغير - بحيث يُخيَّلُ إليَّ أحياناً أنَّني أُمُّه..

قلْنا: وتنَسى في هذِهِ ٱلحالةِ أنَّك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتَّهمونني بٱلنسيان، وهو شَرْعاً جِهةٌ مُلزِمَةٌ لِلْحكم بٱلجنونِ فما ٱلنسيانُ إلَّا ٱلكلمةُ ٱلأخرى لِمعنى ضعفِ ٱلعقل؛ وضعفُ ٱلعقلِ هوَ ٱللفظُ ٱلآخرُ لِمعنى جنوني؛ وقد أعلمْتُكم ما أكرَهُ مِنَ ٱلكلام.

قلْتُ: لا، ٱلنسيانُ لا يكونُ منكَ نسياناً بمعناهُ في ٱلمجانين، بلْ بمعناهُ فيك أنت من تواثُبِ ٱلأفكارِ ٱلنابغةِ وتزاحُمِها في تَوارُدِها على ٱلعقل. فإذا تواثَبتْ وتزاحمَتْ كانَ أمرُها إلى أنْ يُنسيَ بعضُها بعضاً، فلا ينطلقُ منها إلَّا ٱلقويُّ ٱلنابغُ حقَّ نبوغِه، فيجيءُ كٱلمنقطعِ مِمَّا قبلَه؛ فيُحْسَبُ ذلك نِسياناً وما هو بِهِ. وقد تصطلِحُ ٱلأَفكارُ في هذه ٱلمعركةِ ٱلذهنيَّةِ إذا كانَ ٱلنابغةُ مسروراً مَحبوراً يرقصُ طرَباً.. فيكونُ أمرُها إلى أنْ تجيءَ كلُّها معاً على ٱختلافِ معانيها وتناقضِها؛ فيُحْسَبُ ذلك ضَرْباً مِنَ ٱلذهولِ عندَ مَنْ يجهلُ ٱلعِلَّةِ «النبوغيَّة»؛ وعذرُهُ جهلُ هذه ٱلعِلَّة، وهي في دلالةِ ٱلعقلِ ليسَتْ نِسياناً ولا ذُهولاً.

قال: فأَعْلِمْني كيف نِسيانُ ٱلمجانين، فقد خَفِيَ عليَّ أنْ أُدركَ هذا ٱلأمرَ ٱلعجيبَ فيهم، ولسْتُ أدري كيف يفوتُهم ما ٱستدنى لهم مِنَ ٱلفكرِ بعدَ أنْ يكونَ قدِ ٱستقرَّ وحَصَلَ في عقولِهم؟

---

(١) نزقة: طيشه.

قلتُ: لا يكونُ ٱلنسيانُ تُهمةً بِٱلجنونِ إلّا في أحوالٍ ثلاثٍ، جاءَتْ بكلِّها ٱلروايةُ ٱلصحيحةُ ٱلمحفوظة:

فأمّا ٱلأولى: فما يُروَى عن رجلٍ كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّرَ حتى أدركَهُ ٱلخرَف؛ فجاءَهُ كاتبُهُ يوماً يستعينُهُ على تجهيز أمِّهِ وقد ماتت، فدفعَ إلى غلام لَهُ دنانيرَ يشتري بها كفناً، ودنانيرَ أخرى يتصدَّقُ بها على ٱلقبر، ثُمَّ قالَ لغلام آخر؛ اِمضِ إلى صاحبِنا وغاسِلِ موتانا فلانٍ فٱدْعُهُ يغسِّلُها. قال ٱلكاتب: فٱستحييْتُ منه وقلْت: يا سيدي اِبعثْ خلفَ فلانةٍ وهي جارَةٌ لنا تغسِّلُها. قالَ: يا فلان: ما تدعُ عقلَكَ في حزْنٍ ولا فرح. كيف نُدخِلُ عليها مَنْ لا نعرفُه؟

قالَ ٱلكاتب: نعم تأذَنُ بذلك. قال: لا ـ واللّهِ ـ ما يغسلُها إلّا فلان.

فضاقَ ٱلكاتبُ بهذا ٱلحمقِ وقال: يا سيدي كيف يغسلُ رجلٌ ٱمرأة؟

قال: وإنّما أمُّك ٱمرأة؟.. ـ واللّهِ ـ لقد أُنسِيْت..

وأمّا ٱلحالةُ ٱلثانية: فما يُروى عن رجلٍ كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ فخرجَتْ يدُهُ مِنَ ٱلفراش فبردَتْ، فأدناها إلى جسدِهِ وهو نائم فأحسَّ بردَها فأيقظتْه، فٱنتبهَ فَزِعاً فقبضَ عليها بيدِهِ ٱلأخرى وصاح: ٱللصوص. ٱللصوص.. هذا ٱللصُّ قد قبضْتُ عليه، أدركوني لِئلّا تكونَ في يدِهِ حديدةٌ يضربُني بها، فجاءوا بِٱلسراجِ فوجدُوهُ قابضاً بيدِهِ على يدِهِ وقد نسيَ أنّها يدُه...

وأمّا ٱلثالثةُ: فهي روايةٌ عن رجلٍ قد وَرِثَ نِصْفَ دار، ففكَّرَ طويلاً كيف تخلُصُ ٱلدارُ كلُّها لَهُ ثُمَّ ٱهتدى إلى ٱلوسيلة؛ فذهبَ إلى رجلٍ وقالَ لَه: أُريدُ أنْ أبيعَكَ حِصَّتي مِنَ ٱلدارِ وأشتريَ بثمنِها ٱلنصفَ ٱلباقي لِتصيرَ ٱلدارُ كلّها لي...

* * *

قالَ (ٱلنابغة): لَعَمْري إنَّ هذا لهو ٱلجنون، وما يُذْكَرُ معَ هؤلاءِ مجنونُ ٱلمتنِ ولا «غيرُه»...

فقالَ ٱلآخر: «تاللّهِ لولا أنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) يرفعُ نفسَهُ عنِ ٱلجنونِ لَجاءَ في ٱلجنونِ بِما يُذهِلُ «العقول»...

ثُمّ نظرَ فإذا ٱلنابغةُ يتحفَّزُ[1] له... فأسرعَ يقول: «مِمّا حفظْناهُ» كُنْ حذراً

---

(١) يتحفز: يستعدّ.

كأنَّك غِرٌّ، وكُنْ ذاكراً كأنَّكَ ناسٍ. فهذا هو نِسيانُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، نِسيانُ حكماءَ لا نِسيانُ مجانين.

قالَ (ٱلنابغة): ولكنْ قدْ فسدَ قولُ ٱلشاعر: ما لذَّةُ ٱلعيشِ إلّا لِلمجانين؛ فما بقيَتْ مَعَ ٱلجنون لذَّة.

قلْت: إنَّ ٱلشاعرَ لا يُريدُ ٱلمجانينَ ٱلذين هم مجانينُ بٱلمرض، وإنَّما يُريدُ ٱلعشاقَ ٱلمجانينَ بٱلجمال؛ وجنونُ ٱلعاشقِ في هذا ٱلبابِ كعيوبِ ٱلعظماءِ من أهلِ ٱلفنّ، وهي عيوبٌ تُدافِعُ عن نفسِها بحَسَنَاتِ ٱلعظمة، فليسَتْ كغيرِها مِنَ ٱلعيوب.

قال: فيجبُ أنْ أصنعَ بيتاً آخرَ يفسِّرُ ذلك ٱلشعرَ لِيستقيمَ ليَ ٱلتمثُّلُ بهِ، ثُمَّ فكَّرَ وهمْهمَ، ثُمَّ كتبَ في ورقةٍ ثُمَّ طواها وقال: اِصنعْ أنت أولُ، وسأئتمنُ س. ع. على عشري ودفعَ إليهِ ٱلورقة:

فنظرْتُ وقلْتُ: يجبُ أنْ يكونَ ٱلشعرُ هكذا:

قالوا: جُنِنْتُ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم ... ما لذَّةُ ٱلعَيشِ إلّا لِلْمجانينِ
العَقلُ إنْ حَكمَ ٱلعُشَّاقَ أثقلُ من ... فقرٍ تحكَّمَ في رِزْقِ ٱلمساكينِ

ونشر س. ع. ٱلورقةَ فإذا فيها:

قالوا: جننْتَ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم ... ما لذَّةُ ٱلعيشِ إلّا لِلْمجانينِ
إنَّ ٱلعيوبَ عنِ ٱلمجنونِ دافعةٌ ... بأنَّهُ «نابغٌ في ٱلقرنِ ٱلعشرين»...

وضحكْنا جميعاً؛ فقالَ ٱلنابغة: أبعدَكَ ٱللَّهُ يا س. ع. إنَّ مَنِ ٱئتمنَ ٱلمجنونَ على سرٍّ وقالَ لَهُ ٱكتمْهُ فكأنما قال له: ٱنشرْه...

ثُمَّ قال: وَدِدْتُ - وٱللَّهِ - أنْ يكونَ س. ع. هذا «نابغة»، ولكنّي سأجعلُهُ نابغة، فقد صارَ لَهُ عَلَيَّ حقُّ ٱلصديقِ وهو حقٌّ لا أُضيِّعُهُ ولا أُخِلُّ بهِ. فإذا ٱحتجْتَ يا س. ع. إلى خِطابٍ رنانٍ تُلقيهِ في حَفْلٍ عظيم، أو قصيدةٍ تمدحُ بها وزيرَ ٱلمعارف، فٱلجأْ إليَّ فإنِّي مَلْجأٌ لك. ومتى ٱنتحلْتَ شِعري كنْتَ عندَ ٱلناسِ ٱلمتنبي أوِ ٱلبحتري. أوِ ٱبْنَ ٱلرومي، فإنَّ هؤلاءِ ٱلقُدامى لم ينفعْهم إلَّا أنَّني لم أكنْ فيهم، ولمَّا لم أكنْ فيهم أعجبوا ٱلناس إذا أنَّني لم أكنْ فيهم...

قلْنا فما حُكمُك عليهم في ٱلأدب؟

قال: إذا حكمْتُ عليهم فقدْ جعلْتُ نفسي بينهم، . فمِنَ ٱلطبيعيِّ ألّا يُعجبَني منهم أحد. إنَّ «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» لا يقولُ لِمعنًى هذا أحسنُ، فإنَّهُ هو فوقَ

ٱلأحسن، ولا يقولُ عن نابغةٍ هذا أشهر، فإنَّهُ هو فوقَ ٱلأشهر.

قلْت: كأنَّ ٱلدنيا تحتَ قدميك وأنت فيها ٱلزاهدُ ٱلعظيمُ ٱلذي لا يقولُ في حُسنِ هذا أحسنُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلشهوة، ولا في نعيم هذا أطيبُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلطمع، ولا في مالٍ هذا أكثرُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلحِرْص. وأحسُبك لَو كنْتَ تَرعى غنماً لَكنْتَ ٱلحقيقَ في عصرِنا بقولِ تلك ٱلراعيةِ ٱلزاهدة: أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلَح بينَ ٱلذئبِ وٱلغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلْت: حُكِيَ عن بعضِ ٱلصالحينَ أنَّهُ فكَّرَ ذاتَ ليلةٍ فقالَ في نفسِه: يا ربّ. مَنْ زوجتي في ٱلجنَّة؟ فأُرِيَ في منامِهِ ثلاثَ ليالٍ أنَّها جاريةٌ سوداءُ في أرضِ كذا. فجاءَ تلكَ ٱلأرضَ فسألَ عنِ ٱلجارية، فقالَ لهُ رجلٌ ما هذا؟ تسألُ عن جاريةٍ سوداءَ مجنونةٍ كانَتْ لي فأعتقْتُها؟ قالَ وماذا رأيْتُم من جنونِها؟ قال: كانَتْ تصومُ ٱلنهارَ فإذا أعطيْنَاها فَطُورَها تصدقَتْ بهِ، وكانَتْ لا تهدأُ ٱلليلَ ولا تنامَ فضجرْنا منها.

قال: فأين هي؟ قالَ ترعى غنماً لِلْقوْمِ في ٱلصحراء:

فذهبَ إلى ٱلصحراءِ فإذا هي قائمةٌ في صلاتِها، ونظرَ إلى ٱلغنم فإذا ذئبٌ يدلُّها على ٱلمرعى وذئبٌ يسوقُها. فلمَّا فرغَتْ من صلاتِها سلَّمَ عليها فأنبأتْهُ أنَّهُ زوجُها في ٱلجنَّةِ وأنبأَها أنَّهُ بُشِّرَ بها؛ ثُمَّ سألَها ما هذهِ ٱلذئابُ مَعَ ٱلأغنام؟ قالَت: نعمْ أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلحَ بينَ ٱلذئبِ وٱلغنم.

قالَ (ٱلنابغة): هذا كذبٌ لِأنَّهُ عجيب، وهو عجيبٌ لِأنَّهُ كُذب.

قلْت: وأيُّ عجيبٍ في هذا؟ إنَّ ٱلذئبَ وٱلشاةَ، وٱلأسدَ وٱلغزالَ، وٱلثعبانَ وٱلعُصفور، وكلَّ آكِلٍ ومأكولٍ مِنَ ٱلأحياء، لو هي دخلَتْ في دائرةِ ٱلصلاةِ ٱلحقيقيَّةِ لٱنتظمَتْ كلُّها صَفًّا واحداً يركَعُ ويسجد. فهذهِ ٱلجاريةُ نشرَتْ رُوحَ ٱلصلاةِ وٱلتقوى على كلِّ ما حولَها من قلبِها ٱلطاهرِ ٱلمطمئنِّ بٱلإيمانِ فوقعَ ٱلذئبُ منها في دائرةٍ مغناطيسيَّة، فسُلِبَ وحشيَّتَهُ ورجعَ مُسَخَّراً لِفكرةِ ٱلصلاحِ وٱلخيرِ إذْ تجانَسَتْ فيهِ ٱلحياةُ بما حولَها، وٱنسجمَ ٱلنوعُ وٱلنوعُ في حركةٍ متجاوبةٍ ٱنسجامَ ٱلرجُلِ ٱلمغناطيسيِّ هو ومَنْ ينوِّمُهُ في إرادةٍ واحدةٍ وفكرةٍ واحدة.

قالَ (ٱلنابغة): فإذا دخلَ ٱلذئبُ مسجداً يَرْتجُ بٱلمصلِّين، أتُراهُ يَصُفُّ أربعتَهُ ويقفُ بينَهم لِلصلاة، أم يُصلِّي صلاتَهُ ٱلذئبيَّةَ في لحومِهِم؟

قلت: وأين همُ ٱلذين يُصلُّون بحقيقةِ ٱلصلاة، فيخرجون بها مِنَ ٱلنفسِ إلى ٱلكوْن، ومِنَ ٱلزمنِ إلى ٱلأبد، ومِنَ ٱلأسبابِ إلى مُسبِّبِها، ومِمَّا في ٱلقلْبِ إلى ما فوقَ ٱلقلب؟ إنَّ هؤلاءِ جميعاً يُصلّون بجوارحِهِم وبينَهم وبينَ أرواحِهِم طولُ ٱلدنيا وعرضُها؛ وما منهم إلَّا مَنْ يتَّصِلُ فكرُهُ بما يَغلبُ عليه، كما يتَّصلُ فكرُ ٱللصِّ بيدِه، وفكرُ ٱلعاشقِ بعينِه، وفكرُ ٱلطفيليّ بمَعدتِهِ. فٱسمُها عندهُمُ ٱلصلاة، وحقيقتُها عندَ ٱللهِ كما ترى.

قالَ (ٱلنابغة): ولكنَّهُ ذئبٌ من طبيعتِهِ أنْ يأكلَ ٱلشاةَ لا أنْ يرعاها، فلا أفهمُ شيئاً.

وقالَ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» رتَعَ[1] ٱلذئبُ في ٱلغنم، ولم يقولوا صلَّى ٱلذئبُ في ٱلغنم، فلا أفهمُ شيئاً.

قلت: سأزيدُكم عَدَمَ فهم... إنَّ قلبَ تلك ٱلمرأةِ ٱلعظيمةِ ٱلطاهرةِ ملتصقٌ بٱلله، وليسَ فيهِ شيءٌ من طِباعِها ٱلإنسانيَّةِ ولا ظِلٌّ من ظِلالِ ٱلدنيا؛ وقد تجلَّى فيهِ سرُّ ٱلحياة، وهو ٱلسرُّ ٱلذي لا يطعمُ ولا يشربُ ولا يلبسُ ولا يشتهي ولا يَطمعُ في شيءٍ ولا يُحرزُ شيئاً، وإنَّما طبيعتُهُ أشواقُهُ ٱلكونيَّةُ، وٱتصالُهُ بنَفَحاتِ ٱلقوَّةِ ٱلأزليَّةِ ٱلمسخِّرةِ لِلوجودِ كلِّه. فٱنتشَرتْ هذه ٱلموجةُ ٱلكهربائيَّةُ ٱلأثيريَّةُ حولَ ٱلجاريةِ من قلبِها، وجاءَ ٱلذئبُ فَٱلتَجَّ فيها وغمرتْهُ ٱلروحانيَّةُ ٱلغالبةُ، فإذا هو يفتحُ عينَهُ على كونٍ غريبٍ قد تجلَّى ٱلسلامُ عليه، فليسَ فيهِ إلَّا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بٱئتلافِ كلِّ شيءٍ معَ كلِّ شيء، وٱجتماعِ ٱلمتنافرَيْنَ في حالةٍ معروفةٍ لا في حالةِ إنكار. فصارَ ٱلذئبُ مستيقِظاً، ولكنَّهُ في رُوحِ ٱلنوم، وشُلَّتْ فيهِ ٱلذئبيَّةُ ٱلطبيعيَّةُ، فإذا هو يحملُ ٱلأنيابَ وٱلأظافرُ وقد أُنسيَ ٱستعمالَها؛ وبقيَتْ حركتُهُ ٱلحيوانيَّةُ، ولكنْ تعطَّلَتْ بواعثُها فبَطَلَ معناها.

ومن كلِّ ذلك ٱختفى ٱلذئبُ ٱلذي هو في ٱلذئب، وبقيَ ٱلحيوانُ حيًّا ككلِّ ٱلأحياء، فناسَبَ ٱلشاةَ وفزعَ إليها إذْ لم تكنِ ٱلعَلاقةُ بينهما علاقةَ جِسمِ ٱلآكلِ بجسمِ ٱلأكيلة، بلْ علاقةَ ٱلروحِ ٱلحيِّ بروحِ حيٍّ مثلِه.

* * *

قالَ (ٱلنابغة): أمَّا أنا فقد فهمْتُ ولكنَّ هذا ٱلمجنونَ لم يفهم. أُكتُبْ يا س.

---

(١) رتع: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلسَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ مجلسَهُ لِلفلسفةِ على غيرِ إعدادٍ ولا تمكّن، وبدون كُتبٍ ألبتة. . . وكانَ هذا أجمعَ لِرأيهِ وأذهَنَ لَهُ وأدعى لِأنْ يتوفَّرَ على ٱلإملاءِ بكلِّ «مواهبِهِ ٱلعقليّة»؛ ولمَّا أنْ فكرَ ٱلنابغةُ أعطى ٱلنظرَ حقَّهُ وجمعَ في عقلِهِ ٱلفذِّ جَزالةَ ٱلرأيِ إلى قوَّةِ ٱلتفنّنِ وٱلابتكار، قالَ مرتجِلاً: إنَّ فلسفةَ ٱلذئبِ وٱلشاةِ حينَ لم يأكلْها ولم تَنْطِحْه، هي بِٱلنصِّ وبِٱلحرفِ كما قالَ أستاذُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

(حاشية) وإنَّ مجنونَ ٱلمتنِ لم يفهمْ هذه ٱلفلسفة.

فٱمتعضَ ٱلآخرُ وقالَ «مِمَّا حفظناه»:

وباتَ يقدحُ[1] طولَ ٱلليلِ فِكْرَتَهُ وفسَّرَ ٱلماءَ بعدَ ٱلجُهْدِ بِٱلماءِ

فقالَ (ٱلنابغة): ويلكَ يا أبله! أمَا ـ واللّهِ ـ لو كنْتَ نَفْطَوَيْهِ أو سيبوَيْهِ لَمَا كُنْتَ عندي إلَّا جَحْشَوَيْه أو بَغْلَوَيه. . .

لقد كنْتُ أرى ٱلكلامَ في تلك ٱلفلسفةِ طريقاً نَزِهاً جميلاً حفَّتْهُ ٱلأشجارُ وٱلأزهارُ عن جانبيه، وٱندفعَتْ في سَوَائِه (تُمبيلاتُ) ٱلأفكارِ خاطفةً كٱلبرق. فلمَّا تكلمْتَ أنت ٱنتهيْنا من سخافتِك إلى طريقٍ حجريّ تُقَعْقِعُ[2] فيهِ عرباتُ ٱلنقلِ تجرُّها ٱلبِغالُ ٱلبطيئة.

فقالَ: ٱلآخرُ وهو يعتذرُ إليه: ما أردْتُ ـ والله ـ مَسَاءَتَكَ[3] ولو أردْتُها لَقلْتُ وفسرَ ٱلماءَ بعدَ ٱلجهدِ بِٱلسبرتو. . . فهذا هو ٱلخطأ، أمَّا تفسيرُ ٱلماءِ بعدَ ٱلجهدِ بِٱلماءِ فهو صحيح.

قالَ (النابغة): ولكنَّهُ تفسيرٌ مُفْرِطُ ٱلسقوطِ كتفسيرِ ٱلمجانين، فهو يقولُ إنِّي مجنون.

قلْت: كلا، إنَّ تفسيرَ ٱلمجانينِ يكونُ على غيرِ هذا ٱلوجهِ، كٱلذي حكاهُ ٱلجاحظُ قال: سمعْتُ رجلاً يقول لِآخر: ضرْبنا ٱلساعةَ زِنديقاً. قالَ الآخر: وأيُّ شيءٍ ٱلزنديقاً؟ قالَ ٱلذي يُقَطِّعُ ٱلمزّيقاً. قال: وكيف عَلِمْتَ أنَّهُ يقطِّعُ ٱلمزّيقاً؟ قال: رأيْتُهُ يأكلُ ٱلتينَ بِٱلخلِّ. . .

* * *

---

(١) يقدح: يُشعل ويُعمل.
(٢) تقعقع: تصدر صوت القعقعة.
(٣) مساءتك: الإساءة إليك.

المجنون

٦

تتمة

وطالَ ٱلمجلسُ بنا وبٱلمجنونين، وٱلكلامُ على أنحائِهِ يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنًى إلى معنى؛ فأردْتُ أنْ أبلغَ بِهِ إلى الغايةِ ٱلتي جمعْتُ من أجلِها بينَ هذينِ ٱلمجنونين، بعدَ ما ٱنطلَقْنا في ٱلقولِ وٱنفتحَ ٱلقُفلُ ٱلموضوعُ على عقلِ كلٍّ منهما.

وكانَ قدْ مرّ في ٱلنديّ بائعُ رواياتٍ مترجمةٍ «بوليسيَّةٍ وغراميَّةٍ ولصوصيَّة!» يحملُ ٱلرجلُ منها مَزْبَلَةَ أخلاقٍ أوربيَّةٍ كاملةٍ لِينفضَها في نفوسِ ٱلأحداثِ من فِتيانِنا وفِتياتنا، فقلْتُ (لِنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين): أتقرأُ ٱلروايات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أُعاوِدْ، إذْ جعلَتْني ٱلروايةُ روايةً مثلَها.

قلْنا: هذا أعجبُ ما مرّ بنا منذُ ٱليوم، فكيف صِرْتَ رواية؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ ٱلنوابغ، إذْ ليسَ لكم حِسُّهُمُ ٱلمرهَفُ، ولا طبعُهُمُ ٱلمستحْكِم، ولا خصائصُهُمُ ٱلغيبيَّة، ولا خواطرُهُمُ ٱلمتعلِّقةُ بما فوقَ ٱلطبيعة.

قلْت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلَّا وهو بينَ عالمينِ على طرَفٍ مِمَّا هنا وطرفٍ مِمَّا هناك، فهو خرَّاجٌ ولَّاجٌ[1] بينَ ٱلعالمين؛ ولَهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبَها على نواميسَ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ مِنَ ٱلظاهرِ وٱلباطنِ معاً، ويحصرُها ٱلمكانُ مرةً ويُفْلتُها مرة، وتكونُ أحياناً في زمانِ ٱلأرض، وأحياناً في زمنِ ٱلكواكبِ مِنَ ٱلقمرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفْ إلى ذلك أنَّ هذه ٱلعقولَ ٱلتي تَحصرُ مَنْ يسمونَهُم

(١) ولّاج: دخّال.

ٱلعقلاَ في ٱلزمانِ وٱلمكان، لا تُوجِدُ أهلَها إلَّا ٱلهمومَ وٱلأحزانَ، وٱلمطامعَ ٱلسافلة، وٱلأفعالَ ٱلدنيئة، فإنَّهم يعيشونَ فوقَ ٱلتراب.

قلْت: نعم، وإذا عاشوا فوقَ ٱلترابِ فبٱضطرارٍ أنْ تكونَ معاني ٱلترابِ فوقَهم وتحتَهم ومِنْ حولِهِم وبينَ أيديهِم، فليسوا يقطعونَ على هذه ٱلأرضِ إلَّا عمراً ترابيًّا في كلِّ معانيهِ ولكن. . .

قال: وزِدْ على ذلك أنَّهم مقيَّدون تقييدَ ٱلمجانين، غيرَ أنَّ حِبالَهُم وسلاسلَهُم عقليَّةٌ غيرُ منظورة؛ وبتَغْليلِهِم تغليلَ ٱلمجانينِ يسمُّونَ أنفسَهُم عُقَلاء، وأعقلُهم أثقلُهُم قيوداً، وهذا مِنَ ٱلغرابةِ كما ترى.

قلْت: نعم، أمَّا العقلاءُ بحقيقةِ ٱلعقلِ، فهمُ ٱلذين يضحكونَ على هؤلاءِ ويسخَرونَ منهم، إذْ كانوا في حالٍ كحالِ ٱلمنطلِقِ مِنَ ٱلمقيَّد، وفي موضعٍ كموضعِ ٱلمعافَى مِنَ ٱلمُبتلَى ولكن. . .

قالَ: وفوقَ هذا وذاك، إنَّهم لا يملكونَ ٱلسعادةَ، إذْ ليسَ لهمُ ٱلعقلُ ٱلضاحكُ ٱلساخرُ ٱلعابثُ ٱلذي خُصَّ بِهِ ٱلنوابغُ وكانَ ٱلأوحدُ فيهِ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت: نعم، وإذا ملكوا ٱلسعادةَ لم يشعروا بها، أمَّا (ٱلنوابغُ) فقد لا يملكونها، ولكنْ لا يفوتُهمُ ٱلشعورُ بها أبداً فيجئُهُمُ ٱلفرحُ من أسبابِهِ ومن غيرِ أسبابِهِ ما دامَ لَهُمُ ٱلعقلُ ٱلضاحكُ ٱلساخرُ ٱلعابثُ ٱلذي دأبُهُ أبداً أنْ ينسى لِيضحك، ولا قانونَ لَهُ إلَّا إرادةُ صاحبِه، على مشيئةِ صاحبِه، لِمنفعةِ صاحبِه. ولكن. . .

قالَ: وٱلذي هو أهمُّ من كلِّ ما سبق؛ أنَّ أعظمَ خصائصِ هذا ٱلعقلِ ٱلضاحكِ ٱلساخرِ ٱلعابثِ أنْ يطردَ عن صاحبِهِ ما لا يُحبُّ ويجنِّبَهُ أن يخسرَ شيئاً من نفسِه؛ فهو لِذلك يجعلُ حِسابَهُ معَ ٱلأشياءِ حِساباً يهوديًّا لا بدَّ فيهِ من ربحِ خمسينَ في ٱلمائة. .

قلْت: نعم، وهو دائماً كٱلطفل؛ وما أظرفَ بلاهةَ ٱلطفلِ وما أجداها عليه!، إذ يضعُ بلاهتَهُ دائماً في أرواحِ ٱلأشياءِ وأسرارِها فتخرجُ بلهاءَ مثلَه، وتنقلبُ لَهُ ٱلدنيا كأنَّها أمٌّ تُضاحِكُ ٱبنَها وتُلاعبُهُ ولكن. . .

قال: ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغُهُ ٱلإنسانيَّةُ إلَّا شذوذاً في أفرادِها من جبابرةِ ٱلعقولِ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت: نعم (ولكن) كيف صارَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) روايةً حينَ قرأ ٱلرواية!

قال: هذه نكتةُ ٱلنبوغ؛ فلو أنَّ مؤلفَها كانَ نابغةً مثلَنا يتلقَّى في نفسِهِ وحيَ ٱلأثيرِ وإشاراتِ ٱلروح ٱلأعظم؛ لَعَلِمَ مِنَ ٱلغيبِ أن (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) سيقرأُ روايتَه، فكانَ يتحرَّى[1] معانيَ غيرَ معانيهِ ويتوخَّى بهذه ٱلقصةِ وضْعاً آخرَ لا تكونُ فيهِ حبيبةٌ خائنة، ولا لِصٌّ عارم، ولا قاتلٌ سَفَّاح، ولا سِجنٌ مظلم، ولا محكمةٌ تقولُ حيثُ وحيث. . .

قلْت: وما عليك من حبيبةٍ خائنةٍ في ٱلورقِ، ولِصٍّ بينَ ٱلحروفِ ٱلمطبعيَّة وقاتلٍ لا يقتلُ إلَّا كلاماً، وسجنٍ ومحكمةٍ على ٱلصحيفةِ لا على ٱلأرض؟

قال: هذه نكتةُ ٱلنبوغ، فما ٱستوعَبْتُ ٱلقصةَ حتى عمرَتْني أشخاصُها، وأُقْحِمْتُ[2] منها على هَوْلٍ هائل، فخانَتْني ٱلخائنةُ لعنَها ٱلله. . ولولا خوفُ ٱلسجنِ وٱلمحكمةِ لقَتلْتُها أشنعَ قِتْلة، ومثَّلْتُ بها أقبحَ تمثيل. ويْحَ ٱلخائنةِ كيف ٱستمالَها ذلك ٱلدميمُ ٱلطويلُ ٱلعِملاقُ ٱلمشبوحُ ٱلعِظامِ ٱلمفتولُ ٱلعضَل؟ ولكنِّي لسْتُ عملاقاً ولا مَبْنيًّا بناءَ ٱلحائط، ثُمَّ كانَ مجنوناً بشهواتِهِ جنونَ ٱلفيلِ ٱلهائج، وكنْتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ ٱلإنسان، ثُمَّ كان غنيًّا غِنَى ٱلجُهَّال، وكنْتُ فقيراً فقرَ ٱلعلماء. وٱلنساءُ؛ قبحَ ٱللَّهُ ٱلنساء. إنَّهُنَّ زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها وإنَّ ٱلمرأةَ لتمنحُ وجهَها لِلقردِ يُقبِّلُهُ إذا كانَ ٱلذهبُ يتساقطُ من قُبُلاتِه. أمَّا مَنْ كانَ مثلي، أموالُهُ ٱلشبابُ وٱلجمالُ وٱلعقلُ وٱلنبوغ، فهو مُفلِسٌ عندهُنَّ إفلاسَ ٱلقِرْدِ في ٱلغابة، فهو عندهُنَّ قِرْدٌ لِهذِهِ ٱلمُشابهة.

قلْت: هذا ليسَ عجيباً فإنَّ ٱللغويينَ يُجرون على ٱلشيءِ ٱسمَ ما يُقاربُهُ في ٱلمعنى.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ اللغويين يُجرونَ على ٱلشيءِ ٱسمَ ما يقاربُهُ في ٱلمعنى. . .

فتربَّدَ[3] وجهُ (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعبُ هذا ٱلمجنون؟ إنَّهُ يزعمُ أنَّ ٱللغويين يسمونني قِرْداً، فهاتوا ٱلقواميسَ كلَّها وأرجعوا إلى مادة (قَرَد) ومادة (نابغة). . . سَوْأَةً عليك أيُّها ٱلصبيُّ ٱلمعمَّر. . ألَا فدعوني أؤدِّبُهُ أدبَ ٱلصِّبيانِ فإنَّ ٱللطمةَ ٱلقويَّةَ على وجهِ ٱلطفلِ ٱلمُكابرِ في حقيقةٍ تُلمِسُهُ ٱلحقيقةَ ٱلَّتي يُكابرُ فيها إذْ تُدخِلُها إلى عقلِهِ من أقربِ طريق. .

---

(١) يتحرّى: يبحث. (٢) أقحمت: أدخلت. (٣) تربّد: تلبّد.

قال ا. ش: أنت قلْت، لا هو. على أنَّكَ لسْتَ قِرْداً أبداً إلّا عندَ ٱمرأةٍ جميلةٍ فاتنةٍ متخيّلةٍ متماجنةٍ، قد تضعُ ٱلبرذَعةَ على ظهرِ ٱلأميرِ وتجعلُهُ حِمارَها، فيُعْجَبُ ٱلأميرَ أنْ يكونَ حِمارَها. ولسْتُ قِرْداً معَ قَرَّادٍ إلى جانبِ عنزٍ وكلب.

قال: الآن علمْتُ ٱلسبب، فإنَّ ٱلخائنةَ كانَتْ متخيِّلةً مؤلِّفةَ كُتبٍ وروايات، والمرأةُ ٱلتي تُؤلِّفُ ٱلكتب، غيرُ بعيدٍ أنْ تؤلفَ ٱلرجُلَ أيضاً، وتجعلَهُ قصةً هو فيها قِرْد.. لا وهذا إنْ كانَتْ جميلةً كٱمرأةِ ٱلرواية. أمَّا إنْ كانَتْ دميمةً مجموعةً مِنَ ٱلمتناقضات، أو عجوزاً مجموعةً مِنَ ٱلسنين؛ فهذه وهذه كلُّ أيامِها كيومِ ٱلأحدِ عندَ ٱلنصارى... يومٌ لِلعُطلةِ لا بيعَ فيهِ ولا شراءَ ولا مساومة. هذه وهذه كِلتاهما تجعلُ ٱلرجلَ كٱلماءِ في سبيلِ ٱلتجمد.. لا يشتعل، فضلاً عَنْ أنْ يَسْتَعِر، فضلاً عن أنْ يحترق.

ومؤلفةُ ٱلكتبِ لا يكونُ وجهُها إلَّا إحدى وثيقتين: فإمَّا جميلةٌ، فوجهُها وثيقةٌ بأنَّ لها دُيوناً على ٱلرجال؛ وإمَّا غيرُ جميلة، فوجهُها (مُخالصةٌ) من كلِّ ٱلديون...

قلْنا: هذا في ٱلخائنة. فكيفَ سرقَكَ ٱللصُّ ولسْتَ غنيًا؟

قال: هذه هي نكتةُ ٱلنبوغ؛ وفي ٱلنبوغِ أشياءُ لا ينكشفُ تفسيرُها، وليسَ في جهلِها مضرَّةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضرُّ هو عِلْمٌ لا ينفع، لكنَّهُ عِلْم. وٱلبحثُ في بعضِ أعمالِ (ٱلنابغةِ) هو كٱلبحثِ عن سرِّ ٱلحياةِ فيه، إذْ يعملُ أعمالَهُ تلك بسرِّ ٱلحياةِ لا بسرِّ ٱلعقل، أي بٱلعقلِ ٱلنابغِ ٱلخاصِّ بهِ وحدَهُ لا بٱلعطلِ ٱلطبيعيِّ ٱلمشتركِ بينَ ٱلناس.

* * *

قلْت: ومن عجائبكَ أنَّك لا تقرأُ ٱلروايات، ولكنَّكَ مع ذلك تُؤلِّفُها...

قال: إنَّ ذلك لَيكون، وإنْ لم أؤلِّفِها أنا تألفَتْ هي لي. فإذا تقدَّمَ ٱلليلُ ونامَ ٱلناسُ جميعاً ٱنتبهْتُ أنا وحدي لِروايةِ ٱلعالمِ فأرى ما شِئْتُ أنْ أرى. وفي ضوءِ ٱلنهارِ أجدُ ٱلناسَ عقلاً ولكنِّي في ظلمةِ ٱلليلِ أُبصرُهم مجانين. فهذا الليلُ برهانُ ٱلطبيعةِ على جنونِ ٱلناسِ وضَعْفِ عُقولِهم إذْ هو يُثبتُ حاجةَ هذه ٱلعقولِ إلى ضَرْبٍ مِنَ ٱلنسيانِ ٱلأبلهِ ٱلتامِّ لولاهُ ما عقلَتْ في نَهارِها ولا ٱستقامَ لها أمر.

يُصْرَعُ ٱلناسُ في ٱلليلِ صُرْعَةَ ٱلمجانينِ فيُغمضونَ أعينَهم ولا يرونَ شيئاً. أمَّا أنا فأرى ٱلعالمَ في ٱلليلِ مسرحاً هزليًا يَضِجُ بِٱلضحكِ مِنَ ٱلإنسانِ ٱلأحمقِ ٱلذي

يقطعُ سَرَاةَ نهارِه، وهو معتقدٌ أنَّهُ قابضٌ على ٱلوجودِ بٱلأعينِ وٱلآذانِ وٱلآناف. . أئنْ رأيْتَ ٱلأسدَ بعينِكَ أيُّها ٱلأحمقُ وسمِعْتَ في أذنيك زئيرَه، ٱدّعيْتَ ٱلدّعوى ٱلعريضة، وزعمْتَ أنَّك ملكتَهُ وقبضْتَ عليه، ولا تدري في هذا أنَّكَ كٱلمعتوهِ إذا قبضَ على ٱلظِّلِّ بيدِه، وصاحَ هاتوا ٱلحبلَ لِأُقيِّدَهُ لا يُفْلِت؟. . .

قلْت: فإذا كانَ ٱلعالمُ كلُّهُ روايتَك فأخرجْ لنا فصلاً مِنَ ٱلرواية.

قال: أيُّما أحبُّ إليكم، أنْ أكتبَ أو أمثِّل؟

قلْنا: بلِ ٱلتمثيلُ أحبُّ إلينا. فنظرَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: إنَّ ٱلمجنونَ في طبيعتِهِ ينبوعٌ مِنَ ٱلأشخاصِ يفيضُ حالاً بعد حال، كينبوعِ ٱلماءِ يَسُحُّ[1] ٱلدفعةَ بعدَ ٱلدفعة، فهنا ٱلمسرحُ، وٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلطبيبِ وٱلمجنون. . .

* * *

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قالَ لك يا عمّ. قلْ لَه: أنا لسْتُ عمَّكَ ولكني أخو أبيك. . . لِنَنظرْ أيتنبَّهُ على ٱلفرقِ بينَ ٱلصيغتينِ أم لا؛ فإنَّهُ فَرْقٌ عقليٌّ دقيقٌ تُمتحَنُ بِهِ ٱلعقول. .

تعالَ أيُّها ٱلمريضُ فإنِّي أرجو أنْ يكونَ شِفَاؤُك على يدي، وفي يدي هذه لمسةٌ من لمَسَاتِ ٱلمسبح، لأنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) هوَ ٱلآنَ طبيبُ ٱلقرنِ ٱلعشرين. . .

إتَّقوا أنْ تغضبُوهُ أو تُخيفُوه، وأَقيموا لَهُ كلَّ ما يحتاجُ إليه، وتحرَّوا[2] مسرتَهُ دائماً، فإنَّ إدخالَ بعْضِ ٱلسرورِ إلى نفسِ ٱلمجنونِ هو إدخالُ بعضِ ٱلعقلِ إلى رأسِه.

متى أنكرْتَ يا س. ع عقلَ ٱبنِ أخيك وما كانَ ٱلسببُ؟ وكيف غُلبَ على عقلِه؟ وهل ا. ش. هو خالُه أو أخو أمِّه؟

لَطَف ٱللّٰهُ لك أيُّها ٱلمِسكين. قل لي: أتتذكرُ أمسِ؟ أتتذكرُ غداً؟. . إنَّ الأمسَ وٱلغدَ ساقطانِ جميعاً من حسابِ ٱلمجانين؛ ومِنَ ٱلرحمةِ بهم أنَّ ٱلدنيا تبدأُ لهم كلَّ يوم فقدِ ٱستراحوا من ثُلُثَيْ همومِ ٱلزمنِ في ٱلعقلاء. وهم لا يصلحون أنْ ينفعوا ٱلناسَ كٱلعقلاء، غيرَ أنَّهم صالحون أكثرَ مِنَ ٱلعقلاءِ للانتفاعِ بأنفسِهم في ٱلضحكِ وٱلمرحِ وٱلطرب، وهذا حَسْبُهم مِنَ ٱلنعمةِ عليهم.

قلْ لي أيُّها ٱلمجنون: أتُحِسُّ أنَّ ٱلدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أمْ نفسُك هي تصنعُ

---

(١) يسحّ: يسيل وينهمر.

(٢) تحرَّوا: فتّشوا واكتشفوا.

لك ٱلدنيا؟ إنَّ هذه مسألةٌ يحلّها كلُّ مجنونٍ على طريقتِهِ ٱلخاصَّةِ بِه، فما هي طريقتُك في حلِّها؟

مالَكَ لا تُجيبُ أيُّها ٱلأبلهُ؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أعطوهُ قِرشاً لِينطلِقَ لِسانُهُ، وآتُوا ٱلطبيبَ أجرَهُ وافياً وهو لا يَقِلُّ عن قِرشين. . .

ثُمَّ مالَ (ٱلنابغةُ) على مجنونِ ٱلمتنِ وسارَّهُ بشيء. فقلْنا ما أمرُ ٱلمالِ بسِرّ؛ هذا قِرشٌ لِلْمريضِ وهذان قِرشانِ لِلطبيب.

فقالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناه» كفى بِٱلسلامة داءً.

قالَ «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوعٍ مِنَ ٱلجنونِ ٱسمُهُ «مِمَّا حفظْناه» وهو جنونُ ٱلنسيانِ ٱلذي يضعُ في مكانِ ٱلعقل كلمةً ثابتةً لا يتذكَّرُ ٱلمجنونُ إلَّا بها؛ ومن أعراضِهِ جنونُ ٱلشَّكِّ فكلُّ ما حولَ ٱلمريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامَى إلى جنونِ ٱللَّمْس، فلو لَمَسْتَهُ بإصبعِكَ توهَّمَها عقرباً فخافَ مِنَ ٱلإصبعِ تلمسُهُ خوفَهُ مِنَ ٱلعقربِ تلدغُه، ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بُدَّ مِنَ ٱلتدقيقِ في فحصِها، فليسَ هذا من مجانينِ ٱلعبقريَّةِ ٱلتي ٱنحرفَتْ عن طريقِها أو شذّتْ في قوّتِها؛ ولا هو مِمَنْ يَتَجانُّ[1] ويتحامقُ ٱلتماساً لِلرزقِ وٱلعَيْشِ كما قالَ بعضُهُم: حماقةٌ تَعولُني خيرٌ من عقلٍ أعولُه.

فقالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناهُ» حماقةٌ تعولُني. .

فضحكَ (ٱلنابغةُ) وقال: هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ (مِمَّا حفظْناه) وهو أقلُّ ٱلجنونِ وأهونُه، وعِلاجُهُ ٱلبَسْطُ وٱلسرورُ وٱلقِرْش؛ وٱلضربُ أحياناً. . فإذا ثابرَ عليهِ ٱلداءُ تحوَّلَ إلى جنونِ (مِمَّا ضَربْناه). . فيعتدي ٱلمصابُ على كلِّ مَنْ يراهُ أو يُوقعُ بِهِ ضرْباً، وعلاجُهُ حينئذٍ ٱلقميصُ ٱلمرقومُ[2]؛ فإذا فَدَحَتِ[3] ٱلعِلَّةُ ٱنقلبَ ٱلمرضُ إلى جنونِ (مِمَّا قتلْناه). وعِلَاجُهُ يومئذٍ ٱلسلاسلُ وٱلأغلال.

وٱلحقَّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما ٱنتهَتْ إليهِ فلسفةُ ٱلطِّبِّ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أنَّ ٱلناسَ جميعاً مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قِسْطاً[4] من بعض. كأنَّ سلْبَ ٱلعقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ ٱلعقل. وأهلُ ٱلمريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ ٱلأرضَ بيمارستانَ ٱلفَلَك.

ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بدَّ مِنَ ٱلتدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في ٱلدارِ عاطُوسٌ

---

(١) يتجانّ: يصطنع الجنون.
(٢) القميص المرقوم هو قميص السجن يلبسه المسجون.
(٣) فدخت: عظمت المصيبة. (٤) قسطاً: قدراً، حظاً.

إذا أشممْتُهُ هذا ٱلمجنونَ عَطَسَ بِهِ عطسةً قويَّةً فخرجَ جنونُهُ من أنفِه. . . قلْ لي أيُّها المسكين: أتخافُ إذا سِرْتَ وحدَك في ميدانٍ واسعٍ كأنَّ ٱلميدانَ سيلتفُّ عليك؟ أتضطربُ إذا مشيْتَ في مَضيقٍ كأنَّ ٱلمكانَ سينطبِقُ عليك؟ وإذا كنْتَ في عربةِ ٱلقِطارِ فهل يُخيِّلُ إليكَ أنَّ ٱلبيمارستانَ قد جرَّهُ ٱلقِطارُ وٱنطلقَ بِهِ هارباً؟ وهلْ شعرْتَ مرةً أنَّهُ أوحَى إليكَ أنْ تنتحِر؟

أرني هذا ٱلقِرشَ ٱلذي في يدِك. فمدّ إليهِ ٱلمجنونُ يَدَهُ بٱلقرش.

قال (النابغة): ٱنظرِ ٱلآنَ هل تُحدِّثُكَ نفسُكَ أنْ تَغْصِبَنِي هذا ٱلقِرشَ أو تسرِقَهُ منِّي؟ قال: نعم.

قالَ (ٱلنابغة): إذن يجبُ أنْ أُحرِزَهُ في جيبي. . وأسرعَ فأخفاهُ في جيبِه. . .

* * *

فصاحَ ٱلآخرُ وشَغَبَ[1]، وقالَ سلَبَني ونَهَبَني. قلْنا لا ينبغي أنْ يتَّصِلَ بينَكما شرٌّ في تمثيلِ ٱلروايةِ فهذا قِرشٌ آخر، ولكنْ أفي ٱلفلسفةِ عندَ (ٱلنابغةِ) إباحةُ ٱلسرقةِ وٱلغصْب؟

قال: فٱلروايةُ ٱلآنَ هي روايةُ الفيلسوفِ ٱلعظيمِ أفلاطونَ وتلميذِهِ أرسطو.

قلْ لي ويحَكَ يا أرسطو. أعلمْتَ أنَّ في ٱلمجانينِ أغنياءَ يسرقونَ ٱلشيءَ ٱلقليلَ لا قِيمةَ لَهُ وهم أغنياءُ وليسَتْ بهم حاجةٌ إليه. فما عِلَّةُ ذلك عندَك وما وجهُهُ في مَقُولَةِ ٱلجنون؟

أعجزْتَ عنِ ٱلجواب؟ إذن فٱعلمْ يا أرسطو أنَّ ٱلمُصابَ بهذا ٱلضَّربِ مِنَ ٱلجنونِ إذا ٱشترى هذا ٱلشيءَ بدرهم كانَتْ قيمتُهُ مِنَ ٱلدرهم وحدَه، وهو غنيٌّ لا قِيمةَ لِلدرهم في مالِهِ فلا يَحفِلُ بٱلشِّراءِ بَيْدَ أنَّهُ إذا سرقَه كانَتْ قِيمتُهُ عندَهُ من عقلِهِ وحيلتِهِ فيجيئُهُ بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أموالِهِ ولا كلُّ أموالِ ٱلدنيا. فهذا جنونٌ بٱللذَّةِ لا بٱلسرقة، وهو بذلك ضَربٌ مِنَ ٱلعِشْقِ يجعلُ ٱلشيءَ إذا لم يُسرقْ كأنَّهُ ٱلمرأةُ ٱلمعشوقةُ ٱلممتنعةُ على عاشِقها.

وٱلجِياعُ إذا سرقوا لِيأكلُوا ويُمسِكُوا ٱلرمقَ[2] على أنفسِهم، لا يُقالُ في لغةِ ٱلفلسفةِ إنَّهم سرقوا بلْ أخذوا. . فبٱضطرارٍ جاعوا وبٱضطرارٍ مثلِهِ أكلوا، وٱلسارقُ هنا هو ٱلغنيُّ ٱلذي منعُهُمُ ٱلإحسانَ وٱلمعونة. .

---

(١) شخب: أحدث ضجة.

(٢) الرمق: بقية الحياة.

فالدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو، ولو استقامَتْ هذهِ الأوضاعُ لوُجدَتِ السعادةُ في الأرضِ لأهلِ الأرضِ جميعاً. وكيف لك بالسعادةِ والناسُ مخلوقون بعيُوبِهِم؟ ويا لَيْتَهُم مخلوقون بعيوبهِم فقط، ولكنَّ الطامَّةَ الكبرى أنَّ عيوبَهم تعملُ دائماً على أنْ ترى في الآخرينَ عُيُوباً مثلَها.

كلُّ حِمارٍ فهو يُريدُ أنْ يملأَ جوفَهُ تِبْناً وفولاً وشعيراً، غيرَ أنِّي لم أرَ حِماراً قطُّ يُريدُ أن يملأَ لِنفسِهِ الإصطبل؛ فإذا وُجِدَ حِمارٌ هذه هِمَّتُهُ وهذا عملُهُ فاسْمُهُ إنسانٌ لا حِمار.

يا أرسطو إنَّ مُعضِلةَ المعضلاتِ أنْ يُحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليَّةٍ محضةٍ قائمةٍ في نفسِ حِمارٍ أو ثابتةٍ في ذِهنِهِ الحِمَاريّ... ومثلُ هذا أنْ يُحاولَ حِمارٌ حلَّ مُشكلةٍ نفسيَّةٍ في ذِهْنِ إنسانٍ أو في قلبِه، فلا حلَّ لِمشاكلِ العالَمِ أبداً ما دامَ كلُّ إنسانٍ معَ غيرِهِ كحِمارٍ معَ إنسان...

والمعضلاتُ[1] النفسيَّةُ من عملِ الشياطين، فكانَ ينبغي أنْ تجيءَ الملائكةُ لِتُحارِبَ الشياطينَ بالبرقِ والرعدِ دِفاعاً عنِ الإنسانيَّة؛ ولكنَّ اللَّهَ - تعالى - منعَها، وأرسلَ لِلإنسانِ ملائكةً أخرى إنْ شاءَ هذا الإنسانُ عمِلَتْ، وإنْ شاءَ عجزَتْ؛ وهي فضائلُ الأديانِ المنزَلَةِ. فإذا منحَها الإنسانُ إرادتَهُ وقوَّتَه، فعملَتْ عملَها كانَ الإنسانُ هوَ المَلَكَ بل فوقَ المَلَكِ، وإذا أضعفَها ومَحَقَها كانَ الإنسانُ هو الشيطانَ وأسفلَ مِنَ الشيطان.

يا أرسطو: «هذا العالمُ عندي كُتلةٌ مِنَ العدمِ اتَّفقَتْ على الظهورِ وستختفي. والعالَمُ عندي ضعفٌ رُكِّبَ وقوَّةٌ ركِّبَتْ. والعالَمُ عندي لا شيء. والعالمُ بَيْنُ بَيْن. والعالَمُ قِسمان: منهمُ الفلاحُ الزراعيُّ وذلك أفضلُ فلسفةٍ طبيعيَّة. والعالمُ في حاجةٍ إلى الموتِ والموتُ في حاجةٍ إليه. والأدبُ هو الحياةُ ولا حياةَ بِلا أدب. والأدبُ ضربانِ: أدبٌ نفسانيٌّ وأدبٌ مكتسَب، وقد يكون طبيعيًا كما هو عندَ نابغةِ القرنِ العشرين. ومَنْ هو نابغةُ القرنِ العشرين؟ هو شخصٌ ماتَ بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتُريدُ يا أرسطو أنْ تعرفَ سِرَّ تركيبِ العالَم؟ الأمرُ يسيرٌ غيرُ عسير، فإنَّ سِرَّ تركيبِه كسِرِّ تركيبِ القِرْشِ الذي في يدكِ، فدعْني أظهرُكَ على هذه الحقيقةِ ومُدَّ يدَك بالقِرْشِ لأبيِّنَ لك سِرَّ التركيبِ فيه...

---

(١) المعضلات: المشاكل الصعبة الحلّ.

ولكنَّ ٱلمجنونَ الآخرَ أسرعَ فغيَّبَ ٱلقِرْشَ في جيبِه. فقالَ (ٱلنابغة): هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيث. وٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ سياسيِّ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

ليسَ في حقيقةِ ٱلسياسةِ إلَّا الرَّذْلُ من أفعالِ ٱلسياسيِّين. وٱلألفاظُ ٱلسياسيَّةُ ٱلتي تحملُ أكثرَ من معنًى هي ٱلتي لا تحملُ معنًى. فلْيحذرِ ٱلشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتملُ معنيين، أو معنًى ونصفَ معنًى، أو معنًى وشِبْهَ معنًى؛ فإنْ قالوا لنا (أحمر) قُلْنا لهمُ اكتبُوهُ بهذا ٱللفظ؛ فإذا كتبوُهُ قلْنا لهم: ٱرسموا إلى جانبِهِ معناهُ بٱللونِ ٱلأحمرِ لِتشهدَ ٱلطبيعةُ نفسُها على أنَّ معناهُ أحمرُ لا غير.. وعلى هذه الطريقةِ يجبُ أنْ تُكتَبَ ٱلمعاهداتُ ٱلسياسيَّةُ بين أوربا وٱلشرق...

إنَّهم يكتبون لَنَا جريدةً بأسماءِ ٱلأطعمةِ ثُمَّ يقولون: أكلْتُم وشبِعْتُم... ولقد رأيْتُ (مظاهراتٍ) كثيرةً ولا كٱلمظاهرةِ ٱلتي أتمنَّاها؛ فما أتمنَّى إلَّا أنْ يخرجَ كلُّ ٱلمجانينِ في مظاهرة..

وهذا ٱلأبلهُ ٱلذي أمامَنا ليسَ وطنيًّا ولا فيهِ ذرةٌ مِنَ ٱلوطنيَّة؛ فإنْ كانَ وطنيًّا أو زعمَ أنَّهُ وطنيٌّ، فلْيُخرجِ ٱلقِرْشَ ٱلذي في جيبِه... لِيكونَ فألاً حسناً لِخروجِ جيشِ ٱلاحتلالِ من مصر...

* * *

ولكنَّ ٱلمجنونَ لم يخرجِ ٱلقِرْشَ وتركَ جيشَ ٱلاحتلالِ في مكانِه.

فقالَ (ٱلنابغة): الروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلشرقيِّ وٱللصّ. وبحقٍّ مِنَ ٱلقانونِ يكونُ لِلشرقيِّ أنْ يُفتّشَ هذا ٱللصَّ لِيُخرجَ ٱلقِرْشَ من جيبِه...

* * *

غيرَ أنَّ ٱلمجنونَ ٱمتنعَ. فقالَ (ٱلنابغة): كلُّ ذلك لا يُجدِي[1] مَعَ هذا ٱلخبيث، فٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ هارونِ ٱلرشيدِ مَعَ ٱلبرامكة. ويجبُ أنْ يَنكُبَ ٱلرشيدُ هؤلاءِ ٱلبرامكةَ لِيَستَصْفيَ ٱلقرش..

* * *

بيدَ أنَّنا منعناهُ أنْ ينكُبَ «ٱلبرامكة» فقال: ٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلعاشقِ وٱلمعشوقة، . ونظرَ طويلاً في ٱلمجنونِ وصعَّدَ فيهِ عينَهُ وصوَّبَ فلم يرَ إلَّا ما يُذكِّرُ

(١) لا يجدي: لا ينفع.

بأنَّهُ رجل، فتهدَّى[1] إلى رأيٍ عجيب. فوقعَ على قدميهِ وتوهَّمَهُ ٱمرأةً في حذائها... وجعلَ يُناجي ٱلحِذَاء بهذه ٱلمناجاة:

إنَّ سخافات ٱلحُبِّ هي أقوى ٱلدليل عندَ أهلِهِ على أنَّ ٱلحبَّ غيرُ سخيف؛ فكلُّ فكرةٍ في ٱلحُبِّ مهما كانَتْ سخيفةً، عليها جَلالُ ٱلحبّ؛ ولِلحذاءِ في قدميكِ يا حبيبتي جمالُ الصندوقِ ٱلمملوءِ ذهباً في نظرِ ٱلبخيل، وكلُّ شيءٍ منكِ أنتِ فيهِ سِرُّ جمالِكِ أنتِ. وٱلحذاءُ في قدميكِ ليسَ حذاءً، ولكنَّهُ بعضُ حُدودِ جسمِكِ ٱلجميل، فلا أكونُ كلَّ ٱلعاشقِ حتى أُحيطَ بكلِّ حُدودِكِ إلى الحذاء..

إنَّ جسمَكِ يا حبيبتي كٱلماءِ ٱلجاري ٱلعذْب؛ في كلِّ موضعٍ منه روحُ ٱلماءِ كلِّه؛ وحيثما وقعتِ ٱلقُبلةُ من جِسمِكِ كانَ فيها روحُ شفتيكِ ٱلورديّتين، هذه قُبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتي؛ وهذه قُبلةٌ على ساقِكِ؛ وهذه قُبلةٌ على ثوبِكِ وهذه قُبلةٌ على جَيبِك..

وكادَتْ يدُ (ٱلنابغة) تخرجُ بِٱلقِرْش؛ فعضَّهُ ٱلمجنونُ في كتفِهِ عضَّةً وحشيَّةً، فجأَهُ ٱلخوفُ منها فطارَ صوابُه؛ فصرخَ صرخةً عظيمةً دوَّى لها ٱلمكانُ وترددَتْ كصَرْصَرَةِ ٱلبازيّ[2] في ٱلجوّ، ثُمَّ ٱعتراهُ ٱلطَّيف، وأطبقَ عليهِ ٱلجنونُ فٱختلطَ وتخبَّطَ..

(وٱلروايةُ الآن)؟... روايةُ عربةِ ٱلإسعاف...

---

(١) تهدّى: اهتدى وتوصّل.

(٢) صرصرة البازي: صوته.

فهرس المحتويات